

منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربي

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

المحتويات

٧	كلمة الافتتاح. للأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع رئيس الاتحاد
٩	كلمة التحرير. للأستاذة الدكتورة زبيدة محمد عطا رئيس تحرير المجلة
١١	د. إيناس أحمد السيد عباس ترجمات المصادر اليونانية وأثرها في ظهور المؤلفات العربية في النبات والفلاحة والعلوم
٣٩	د. عوض سعد محمد عيسى الدور العسكري لأبناء مقرر في صدر الإسلام ٥ - ٢٢ هـ
٨١	د. محمد سعد إسماعيل سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة على البلدان
١٠٥	د. عبد الحكيم عبد الحق محمد أثر المرأة اليمنية في الحياة السياسية في العصر الرسولي
١٢٥	د. سلوي عبد القادر السليمان المطبخ السلطاني في اليمن في عصر بن رسول (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م)
١٥١	د. منيرة عبد الرحمن الشرقي أثر فتنة قرطبة على الحياة العامة فيها (٣٩٩-٤٢٣هـ/١٠٠٩-١٠٣١م)
٢٠٣	د. أسامة إبراهيم حسيب النظم القضائية والتشريعية في إنجلترا عهد الملك هنري الثاني ١١٥٤-١١٨٩م
٢٤٥	د. محمد طه صلاح صالح بكري المكانة العلمية لمجاوري مكة إبان العصر السنجوقي (٤٢٩-٥٩٠هـ/١٠٣٧-١١٩٣م)
٢٧٩	د. محمد عبد الله المقدم الأسيرات في المشرق العربي زمن الحروب الصليبية
٣٢٥	د. صلاح الدين علي عاشور الأمير الزيادي " عنصر المعالي كيكافوس " وكتابه قابوسنامه
٣٦٧	د. حسن أحمد البطاوي المغنيات ودورهن في دولة سلطنة المماليك عصر أبناء السلطان محمد بن قلاوون

٣٩٥	د. سيد محمود عبد العال ثورات العربان وأثرها في الاقتصاد المصري زمن سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ)
٤٤٣	د. محمد أحمد محمد الشحري السلام بين الحقوق والواجبات في الإسلام
٤٧٥	د. محمد عزيز محمد ملك حفني ناصف "باحثة البادية" ودورها في الحياة الاجتماعية المصرية (١٨٨٦-١٩١٨م)
٥١٣	د. أحمد عبد الدايم محمد حسين الهندوس في شرق أفريقيا البريطانية (١٨٨٤-١٩٦٣)
٥٥٧	د. كريمان محمود إبراهيم المستوطنات الإسرائيلية في القدس ودعوى الحقوق التاريخية
٥٨١	د. نادية ماجد عبد الرحمن تطور قضية واحة جفوب (١٩٠٤-١٩٥١)

ترجمات الإصدار اليونانية وأثرها في ظهور المؤلفات العربية في النبات وأقلاحة والعلوم المتعلقة بها

د. إيناس أحمد السيد عباس(*)

كان لانفتاح العرب على ثقافات الشعوب، التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية، أثره في القفزة العلمية التي حققها العرب في شتى العلوم، في فترة أقل ما توصف به أنها كانت وجيزة. وذلك بدءاً بتشجيع العلماء ثم تبني حركة الترجمة إلى اللغة العربية، تزامناً مع الرغبة المتزايدة في اقتناء المؤلفات التي تشتمل على مختلف المعارف، وما استتبع ذلك من إنشاء المكتبات ودور العلم التي ما لبثت أن تعددت مراكزها، في شتى حواضر الدولة الإسلامية، مع اتساع رقعتها شرقاً وغرباً. كما أثبتت اللغة العربية، شيئاً فشيئاً قدرتها على استيعاب هذه المعارف، بحيث صار من الأفضل للعلماء، حتى من غير العرب التعبير عن أفكارهم باللغة العربية.

ومنذ بدأ التعامل مع هذه المعارف التي توفرت عليها جهود الترجمة، اجتذبت المعارف اليونانية الهلينية المفكرين العرب، ثم رأوا في المساهمات الهلينية ما يلبي حاجات عملية، إلى جانب الحاجات الفكرية المعرفية. ومن ثم تعرف العرب على أنواع العلوم وتقسيماتها عند اليونان، ثم ما لبثوا أن وضعوا تقسيمات للعلوم التي أصبحت شائعة عندهم، وفق نظرية خاصة بهم. وقد كان علم النبات ضمن ما تناوله علماء اليونان من علوم.

سنحاول في هذا البحث أولاً: معرفة موقع علم النبات من هذه العلوم، وكيف تناوله علماء اليونان في مؤلفاتهم التي اطلع عليها العرب، ضمن ما وصل إليهم من ترجمات، وهي التي شكلت الأساس الذي انطلقت منه المؤلفات العربية في هذا العلم، ثم الوقوف على المنحى الذي اتخذته هذا العلم في مؤلفات العلماء العرب. على أن نتابع بعد ذلك: كيف تفرع عن علم النبات فرع آخر هو علم الأدوية والعقاقير؛ القائم على النباتات الطبية. ثم أتى علم آخر في مرحلة لاحقة، ضرب فيه العرب بسهم وافر، وأضافوه إلى أنواع العلوم، وهو علم الفلاحة، الذي ألفوا فيه كتباً وضعوا فيها خبراتهم في نطاق هذا العلم. ومن ثم نعرف كيف أسهم ما أنتج من هذه المؤلفات في طرح أفكار للتطبيق، وما

١(*) مدرس بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

استتبع ذلك من الحديث عما تعلق بهذا العلم، من علو رتب التقنيات، التي أدت إلى تقدم الزراعة عند العرب وتطورها.

تناول علماء اليونان علم النبات مبكراً، فقد نظر إلى طبيعة النباتات، ضمن دراستهم للأشكال المختلفة للكائنات الموجودة في الطبيعة، إذ تناولها أرسطوطاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في هذا الإطار، في مؤلف منسوب إليه نواته "عن النبات". قدم فيه أفكاراً منها أن للنبات قدرات ثلاث هي: التغذية، النمو، واثراً، بينما تنعدم لديه القدرة على الحركة أو الإدراك. غير أن أهمية أرسطوطاليس بالنسبة إلى هذا العلم، بوصفه واحداً من موضوعات العلوم الطبيعية، تكمن فيما وضعه نهجاً للدراسة يقوم على الملاحظة والاستقراء، ثم التحليل والتفسير^(١). في حين سـ Hippocratēs أبقرراط الطبيب (٤٦٠-٣٧٥ ق.م) تصوره لطبيعة النبات في مراحل نموها، بدءاً بالبذرة ثم النبتة، وذلك على سبيل القياس، أثناء وصفه لمراحل نمو الجسم^(٢).

بيد أن تناول النبات، كموضوع قائم بذاته، تصداه Theophrastus ثيوفراستوس (٣٧٠-٢٨٨ ق.م) أو ثاؤفراستوس حسب اسم العربي، تلميذ أرسطوطاليس؛ إذ أفرده له مؤلفين، يحمل أحدهما اسم "تاريخ النبات"، والآخر "أسباب النبات" أو بالأحرى "أسباب الإنبات"، ردد فيهما بالطبع أفكاره^(٣). ولم تصل من هذين الكتابين إلا شذرات متفرقة، تدل على أنه قدم فيهما معلومات تتم عن ملاحظة شديدة الدقة، عند تمييزه بين أصناف النبات وأنواعه، وكذا عند إيضاح إدراكه لأسس العلاقة بين حالتها الإزهار والإثمار. كما أدرك ما لجغرافية المكان من أثر في اختلاف النباتات، من حيث الشكل والخصائص. وبذات الدقة وصف أجزاء النبات: من جذر وساق وأوراق وأزهار وثمار. كما وضع تصنيفاً للنبات كشجرونبات وعشب^(٤). بالإضافة إلى أنه أفرده فصلاً للاستخدامات المختلفة للنبات، سواء كتلقيح طبية أو في الوصفات السحرية. ويعد هذا الفصل - في حد ذاته - أول دليل نباتي يتعرض لاستخدامات النبات، تم الاعتماد فيه على معلومات استقاها من خبراء في الأعشاب، ممن يعرفون في التراث اليوناني باسم "قاطعي الجذور"، وهم محترفون بهذه المهنة، يعتمد عليهم كل من الأطباء والسحرة في تزويدهم بالنباتات^(٥) وقد مررت أفكار ثيوفراستوس في كتابات من تعرض لهذه الموضوعات من بعده؛ إذ يعد أبداً لعلم النبات اليوناني.

أما عن معرفة العرب به؛ فقد تردد اسمه كتلميذ لأرسطوطاليس، وخليفة له على رئاسة المدرسة المعروفة بالـ "Lyceum" في أثينا. أما مؤلفه فقد ذكر ابن النديم كتابه "أسباب النبات" أو "الإنبات"، وأشار بأن إبراهيم بن بكوس قام بترجمته إبان القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. غير أن الترجمة قد ضاعت^(٦). هذا ولم يذكر غيره تفاصيل أكثر عن هذه الترجمة، كما لم يعرف عن صاحبها سوى أنه كان طبيباً

بالمارستان العسدي، لما بناه عسء الدولة فى بغداد. وقد نقل كتباً كثيرة إلى العربية، ثم كف بصره، ولم ترد له ترجمة فى أى من كتب التراجم، حيث أخذت هذه الإشارة عن ابن النديم، ولم يزد أحد عليه شيئاً.^(٧)

ويبدو أن آفاق علم النبات لم تتسع، إلا بالكاد، خلال العصر الهلنستى. حقيقة أن كتابات بعينها مما كتب فى هذا العصر لم تصل إلينا بل فقدت، فيما خلا إشارات واقتباسات وردت عند Dioscorides ديسقوريدس من عين زربه (ازدهر حوالى ٦٥م) فى كتابه "مادة (النباتات) الطبية" *Materia Medica*. حيث أشار فى مقدمته إلى أنه جمع من هذه الكتابات وأخذ عنها. وهو الذى تناول النباتات من حيث استخداماتها الطبية، أكثر من تناوله لها من حيث طبيعتها وخصائصها؛ حيث إن ما أورده منها فى كتابه جاء مرتباً من حيث وظيفته كعقار، بمعنى ارتباطه بالعة التى يؤخذ من أجلها.^(٨)

وسوف نعود إلى الحديث عن هذا المؤلف وكتابه بالتفصيل، لما له من أهمية لدى علماء النبات من العرب.

ويلى ديسقوريدس فى الأهمية ممن تناولوا النبات، وخاصة النباتات الطبية، Galenus جالينوس الطبيب (١٢٩-٢١٠م)، الذى أقر بأنه أخذ كثيراً من معلوماته من مصادر سابقة، وأنه دائماً ما يحاول ترتيب هذه المعلومات^(٩). وقد كان لجالينوس مكانة كبيرة لدى مؤلفى الكتب، ذات المحتوى الطبى النباتى، من العرب؛ إذ كثيراً ما نوقشت أفكاره ومعلوماته من قبلهم - كما سيتضح فيما بعد - خاصة أنه ترجم من كتبه، فى هذا الشأن كتاب الأدوية المفردة وقوى الأغذية، الذى ترجمه اصطف بن باسيل (الذى عاش فى عهد الخليفة المتوكل العباسى ٢٣٢-٢٤٧هـ)^(١٠). كما ترجم حنين بن إسحق (٢٦٤هـ/٨٢٢م) مقالة له بعنوان "فى سر ثمر البلاذر ومنفعته وتدبيره"، وأتبعها حنين برسالة من تأليفه بعنوان "سر البلاذر وبعض أمر استعماله"^(١١).

وإذا كان علم النبات قد خبت جذوته بعد هذه الأسماء التى وردت، ولم يستمر الاهتمام به إلا عن طريق ارتباطه بالطب، فإن هذا أمر يثير الدهشة والاستغراب، إذ كانت هناك مادة متوفرة تستدعى الدراسة، كما كانت الظروف مهيأة للعطاء. غير أنهم صرفوا جهودهم، التى اقتصر معظمها على تجميع الآراء والتطبيق على الأعمال الموجودة بالفعل، الأمر الذى لم يسجل تطوراً يذكر بعد أرسطوطاليس وثيوفراستوس؛ بحيث لا نجد فى قائمة علماء النبات، منذ العصر الهلنى حتى نهاية العصر الرومانى، سوى هذه الأسماء، يضاف إليهم Plinius Maior بلينيوس الأكبر (كان حياً ٧٧م)، صاحب موسوعة "التاريخ الطبيعى" *Historia Naturalis*، التى تعد من الأهمية بمكان بالنسبة إلى تاريخ العلم فى الغرب، نظراً لأنها الموسوعة الوحيدة المكتوبة باللغة اللاتينية.^(١٢)

من هذا العرض يتضح كيف أن أسس التراث الهلنسي، في علم النبات، قد أرسيت على يد أرسطوطاليس وثيوفراستوس. أما التراث الهلينستي فقد انصب اهتمامه على موضوع النباتات الطبية واستخداماتها، وارتاد باب علم الأدوية والعقاقير. وإذا كان هؤلاء المذكورون قد شكلوا مزيج شذا العلم؛ فإن تأثيرهم في مساره قد حفظه لنا العلماء العرب من الضياع. وسوف نتابع كيف استلهم العرب هذا التراث بشقيه النباتي والطبي، ثم المنحى الذي اتخذوه عند تناولهم لعلم النبات.

وإذا ما حاولنا تتبع عناية العرب بموضوع النبات، نجد أن اللغويين كانوا أسبق من العلماء في هذا الشأن؛ إذ أفرد الكثير من علماء اللغة في مؤلفاتهم: إما كتباً أو فصولاً لتناول النباتات. حقيقة أن مدخلهم كان لغوياً بالأساس، لكنه أفصح عن خبرة علمية حيث دلت أقوالهم في هذه المؤلفات عن مصادرها، وعن النهج الذي اتبعوه فيها. وسوف نتوقف عند بعض منهم، وسنقتصر في إيراد الأمثلة على من أورد أفكاراً علمية، أو استحدث منهاجاً في التأليف، أو في عرض مادته.

— أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨١هـ / ٨٩٥م) في كتابه "النبات" أو "أعيان النبات" الذي يقع في ستة أجزاء؛ يتضمن أحدها معجماً لأسماء النبات، في الفصل الخامس منه، وهو جل ما وصل من الكتاب — أبان فيه المؤلف عن المنهج الذي اتبعه في تأليف كتابه، فقال: "قد أثبتنا فيما قدمنا من أبواب كتابنا هذا على ما استحسنا تقديم ذكره قبل ذكر النبات نباتاً نباتاً، فلم يبق إلا ذكر أعيان النبات. ونحن آخذون في تسميتها، ومحللون كل واحد منها بما انتهى إلينا من صفته أو شأدها. وإن كان في شيء من ذلك اختلاف، عما ينبغي أن يذكر، ذكرناه إن شاء الله. وجعلنا تصنيف ما نذكر منها على أوائل حروف أسمائها. وإن وصف إياها نباتاً نباتاً سيلحق كل واحد منها بجنسه، وإن اختلط، من شجر وعشب وبقل. وإنما آثرنا هذا التصنيف على توالى حروف المعجم، لأنه أقرب إلى وجدان المطلوب، وأهون منونة على الطالب من كل تصنيف سواه". (١٣)

بهذه الكلمات يوقفنا الدينوري على طريقته المعجمية في ذكر أسماء النبات، ونهجه في الاستشهاد بأقوال من سبقوه من الثقات؛ في إيراد ما قالت العرب عن النباتات، وممن نقل عنهم تأييداً لأرائه أو حتى من يختلف معه. ثم اعتماده على ما رآه بنفسه مسترشداً بسؤال أهل البلاد، وما ينتهي إليه من ملاحظاته الشخصية. فكانت محصلة ما أتى في كتابه وصفاً دقيقاً لمئات النباتات، وأسماءً لأدق الأجزاء ومختلف الصور والأنواع، وذلك بناء على رأى من تصدى لدراسة منهجه. حيث وجد أن أهم ما يتميز به هو: وجود مفهوم علمي فيما يتعلق بالشكل، أو ما يعرف "بمورفولوجيا النبات". يدل على ذلك التسميات المستخدمة لأجزاء النبات المختلفة، وكذلك إقدامه على إيضاح صور النبات المعقدة بمقارنتها بأشكال معروفة؛ إذ كان يستخدم، لعقد هذه المقارنات، عدداً ضخماً من أنواع النبات كنماذج موصحة. فبلوغه هذه الدرجة؛ يبين أنه

أطلع على معارف ومعلومات تجمعت في التراث الذي استفاد منه، الأمر الذي يؤكد - على الرغم من أن وصفه جاء خالياً من التأملات النظرية - أن أثر علم النبات وعلم اللغة واضح بصورة عجيبة في كتابه، مما يجعله يناظر كتاب ثيوفراستوس،^(١٤) يشهد على ذلك كثرة النقول والاقتباسات عنه، في كتب من جاء بعده، سواء من واضعي المعاجم أو علماء النبات.

- وهناك لغوي آخر هو: أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسى الأندلسي، الشهير بابن سيدة (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٢ م) الذي عالج في كتابه "المخصص" في اللغة، الذي يقع في سبعة عشر جزءاً - كثيراً من الموضوعات التي تتصل بالعلوم الطبيعية. ففي القسم الذي أفرد للنبات وهو مرتب على الأبواب، عني في كل ما عالجته من موضوعات بالأسماء المختلفة، والصفات والأوصاف الدقيقة للكلاً والشجر والعشب. وزاد عليها من الشواهد ما لم يورده من سبقه.^(١٥)

كتب هؤلاء اللغويون إذن : قدمت الأساس اللغوي العربي الذي يستخدم في التحقيق، والتعريف بأسماء النباتات وأنواعها، ودقائق أجزائها وصفاتها. فصارت معاجم يعتمد عليها من يتصدى لدراسة النبات.

ويلحق باللغويين الرحالة والجغرافيون، وخاصة من أفرد منهم مؤلفات للحديث عن النباتات، سواء في إطارها الإقليمي، مثل أبو عبيد الله البكري (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م)، الذي خصص كتاباً أسماه "أعيان النبات والشجريات الأندلسية"، ينتهج فيه - نظراً لتعدد معارفه - نهجاً علمياً إذ يبدو محققاً، لا يزال يبحث وينقب، حتى يصل إلى آخر شئ في الموضوع، كما تدل على ذلك كتاباته الأخرى. وإن كان هناك من يطل عدم اشتهاً أمثال هذه الكتب، وبالتالي نسيانها وفقدانها، بأنه لم يكن ينظر إليها إلا المغنيون بها. فضلاً عن أن التأليف في هذه الفروع كان هواية يأخذها رجل عن رجل، إذا صادفت من نفسه ميلاً.^(١٦)

أما من عني بدراسة النباتات، في إطارها الأشمل والأوسع، فعول في تأليفه على المعاينة والوقوف بنفسه على أشخاص النبات في أماكنه، مثل الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٦ م) فجاء كتابه "الجامع لأشتات أصناف النبات" يدل على علم واسع بالنبات والأعشاب، يمتاز بدقة في رسم أسمائها ووصف خصائصها.^(١٧)

يضاهيه في ذلك أيضاً أبو العباس ابن الرومية (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) الذي جال البلاد الإسلامية والرومية؛ لمعاينة الأعشاب وتمييزها ومعرفة منابتها. إذ أهتم في كتابه الذي عرف "بالرحلة"، أو "الرحلة النباتية" بتحقيق الأسماء العربية للعشب والبقل والشجر، وإثبات أعيانها، معتمداً في ذلك على علمه وعلى المشاهدة العينية، وسؤال أهل المكان، وطاف من أجل ذلك بالأقطار، وقضى في رحلاته زهاء ثلاثين عاماً. فجاء

كتابه دالا على معرفة واسعة وتثبت وتحقق، إذ تمكن من إصلاح الأخطاء التي تردى فيها من سبقه من العلماء.^(١٨)

حقيقة إن هذه المؤلفات لم تصل منها إلا شذرات، غير أنه بقيت منها فصول ونقول مطولة، في أعمال من تدارس هذا العلم، وصرح الكثير منهم بذلك.

ولا ينبغي أن نختتم هذه الطائفة، ممن أثروا موضوع النبات بمؤلفاتهم، قبل أن نشير إلى من انتهج نهجا أكثر من النهج الوصفى، فعد إلى التصوير، وهو رشيد الدين الصوري (ولد بصور عام ٥٧٣هـ / ١١٧٧م)، الذي اهتم برسم النباتات في بيئتها مسجلا مراحل نموها. وقد قيل إنه كان يصطحب معه رساما يحمل أدوات الرسم، من ألوان وفرش ليرسم له النبات وقت بذره، وبداية إزهاره وإثماره، وحالة يبوسه وجفافه^(١٩). وهو النهج الذي استفاد منه وطبقه من سنعرض لهم - فيما بعد - من النباتيين.

وهكذا راق عالم النبات للكثير من المؤلفين العرب، حتى إنه بعد - أن تبين استيعاب اللغة العربية لأدق المصطلحات والتسميات - وجد العلماء، الذين تضمنت اهتماماتهم علوما منها علوم الطبيعة والكون، في اللغة العربية وفرة من المصطلحات والتعريفات، أنى لهم بها لولا جهود اللغويين وواضعي المعاجم، مما أمكنهم خوض مجال هذه العلوم.

ففي إطار دراسة علوم الطبيعة من قبل الفلاسفة، خاصة الموسوعيين والطبيين منهم، عولج علم النبات كأحد موضوعاتها تأثرا بما سار عليه فلاسفة اليونان، خاصة إذا كانت هناك معطومات تشير إلى وصول آراء أرسطوطاليس في النبات، عن طريق كتابه الذي يقال إن له مقتطفاً سريانياً وصل إلى العرب مترجماً. أما الكتاب فقد أشير إلى أن اسحق بن حنين (ت ٢٩٨هـ) قد ترجمه بعنوان آخر، في حين قام ثابت بن قرة (ت ٢٨٨هـ) بإصلاح كتاب بعنوان تفسير كتاب أرسطوطاليس في النبات لنيقولاؤس^(٢٠). مما يعنى أن أفكار أرسطوطاليس إن لم تصل عن طريق الكتاب المنسوب إليه، فقد وصلت عن طريق هذا التفسير المذكور لنيقولاؤس، إذ كان عالم النبات موضوعاً أساسياً لكل من تصدى لدراسة العلم الطبيعى. نذكر منهم هنا من يمكن الوقوف على آرائه ونظرياته في هذا العلم.

ففي رسائل إخوان الصفا (الجماعة التي ازدهرت خلال النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى)، التى شكلت فى مجموعها موسوعة متكاملة عرضت لنظرة خاصة إلى الكون، استمدت مصادرها من فلاسفة اليونان والفرس والهند. كانت الرسالة السابعة عن الجسمانيات الطبيعيات، وما تحوى الطبيعة من صور الموجودات، وعن أجناس النبات؛ فتكلموا عن تكوينها ونشوتها واختلاف أنواعها، كما تعرضوا إلى

نظرية التطور والارتقاء، واعتبروا النخل آخر المرتبة النباتية. ^(٢١) وتعد هذه النظرية من النظريات التي أولاها أرسطوطاليس اهتماماً كبيراً. ^(٢٢)

في حين خصص أبو علي بن الحسين بن عبد الله بن سينا (ت ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م)، جريباً أيضاً على عادة المؤلفين الموسوعيين، قسماً لا بأس به من كتابه "الشفاء" لدراسة النبات من منظور العلم الطبيعي، وضمنه نظريات وأفكاراً عن النبات بوصفه كائناً حياً. فذكر أن النباتات مثلها مثل الحيوانات، في التعامل مع الغذاء في امتصاصه وهضمه، وتوزيعه على بقية أجزاء أو جسم النبات. وأوضح أن النبات يحصل على غذائه عن طريق ما ينجذب إليه بفعل قوة طبيعية، وليس عن طريق شهية أو رغبة في الطعام - كما في حال الحيوان - وأنه ليس لديه مقاومة لدفع الضرر أو جلب المنفعة. كما قال بأنه من الخطأ الاعتقاد بأن النبات لديه إدراك أو وعي؛ فالتصرف في الغذاء يدل على الحياة وليس عن إدراك منه. ^(٢٣) وهنا نلاحظ كيف أنه انطلق من أفكار أرسطوطاليس التي سبقت الإشارة إليها، غير أنه تابعها بالملاحظة والاستقراء والتحليل، وأوجد التفسيرات. كما تحدث عن نظريات تخص تكاثر النبات، وتحدث عن الذكورة والأنوثة في النبات، مما يدخل في باب "فسيولوجيا النبات". أشار أيضاً إلى تنوع النباتات في الطعم والرائحة واللون، أي تعرض لمسألة التصنيف. كما دفعه الاهتمام بالنباتات، من أجل التعرف على خصائصها، إلى دراسة البيئة التي تنمو فيها، سواء أكانت رملية أو مالحة أو رطبة. ويعتبر هذا الجزء، دون شك، دراسة علمية واصل فيها بالبحث والتحقيق، ما ألمح إليه علماء اليونان في هذا الصدد - كما سبق وتبيننا.

ومما يثبت أن علماء العرب قد أدلوا بدلوهم في علم النبات لذاته، إلى جانب دراستهم للنباتات لارتباطها بالطب والصيدلة، أن ابن سينا كان في مقدمة هؤلاء؛ إذ خصص الجزء الثاني من كتابه "القانون في الطب" لدراسة النباتات، حين قسم الشطر الأول منه إلى ستة فصول، تناول فيه التعريف بالنباتات التي تستخدم كعقاقير. فكان في البداية يقوم بوصف كل نبات بدقائقه، بالمقارنة مع نباتات شبيهة أو مماثلة. موضحاً خصائصه العامة عن طريق إيراد ما ذكره الأقدمون عنه، من أمثال ديسقوريدس وجالينوس، ثم يقدم ما خبره بنفسه عن تلك النباتات، من حيث طبيعتها وخصائصها. كما قام بعمل تصنيف للأشجار والأعشاب والنباتات الزهرية والفطريات والطحالب، بعد أن لاحظ اختلاف أنواعها والخصائص المميزة لكل نوع والمتشابهة منها. ويميز بين النباتات البرية والمزروعة. ويعتبر أفضل فصول هذا الجزء ما قدم فيه قائمة بأسماء النباتات المعروفة في اللغة اليونانية، وأضاف إليها التسميات المحلية لها ^(٢٤).

وقد اعتمد ابن سينا في وصف النباتات على مصدرين رئيسيين، أولهما: النبات في الطبيعة في صورته الطازجة، فكان يصف طوله وسمكه وأشواكه وأزهاره وأوراقه، مما يدخل في باب علم الشكل "مورفولوجيا النبات". أما المصدر الثاني: فكان النباتات

اليابسة أو الجافة، مما يهتم به صانعو العقاقير. فقد وصف من هذه النباتات الطبية أربعمائة نبات، تشمل معظم ما كان معروفاً في عصره. مما يعنى أنه قام بتطبيق المنهج العلمى فى دراسة النبات، القائم على المشاهدة والاستقراء، من خلال ما وضعه أرسطوطاليس كأساس لدراسة الطبيعة. وكذا من خلال دراسته لطريقة عمل الظاهرة الطبيعية، أى دراسة التركيب العضوى للكائن الحى، والتعرف على وظائف أعضائه، وذلك بإخضاعه للملاحظة أثناء حياته. ثم الانتقال إلى التحليل والمقارنة والتصنيف. أى السير فى مسار يؤدى بالانتقال من مرحلة العلم الوصفى، التى سار فيها ثيوفراستوس، إلى مرحلة العلم التجريبى^(٢٥).

وبالمنهج ذاته تكلم أبو الوليد بن رشد (ح ٥٥٧م/ ١١٩٨م) فى الجزء الخامس من كتابه "الكليات" عن النباتات، فى معرض حديثه عن الأدوية والأغذية، من حيث طبيعتها الفسيولوجية، وكذا عن دلالات الطعوم والألوان مستعيناً فى ذلك بالعلم الطبيعى. ولم يكن مشايخاً تماماً للأقدمين، - كما هو مظنون - فقد تقدمت عنده الدراية على الرواية؛ إذ تمثل التراث السابق بعين الناقد، وكانت له مرجعية إسلامية عربية، وبخاصة ابن سينا^(٢٦).

عندما نحا علم النبات، نحو الاتجاه الطبى، المنحى الذى سار فيه كل من ديسقوريدس وجالينوس، لفت هذا المنحى نظر العلماء العرب الذين أقبلوا على العلوم الطبية، فكان منهم من درس النبات، كتابع لهذه العلوم، وهم الأطباء. بينما تخصصت طائفة منهم فى دراسة النباتات الطبية، فظهر منهم ما يعرف بالعشابين، الذين حفلت مؤلفاتهم بالأفكار والآراء التى شهدت على إسهاماتهم فى هذا الفرع. وهؤلاء يشكلون قائمة طويلة، تضم أسماء عديدة، سنقصرها على من تعامل منهم مع مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس فى النباتات الطبية، للوقوف على منهجهم فى التعامل معهما، وماذا أسفر عنه هذا المنهج من خلال ما ظهر فى مؤلفاتهم.

لقد اعتبر كثير من المحدثين أن الترجمة العربية لكتاب ديسقوريدس، ذى الخمسة أجزاء، الذى يشرح فيه المؤلف، بالتفصيل، حوالى خمسمائة نبات قام بدراستها أثناء خدمته العسكرية، فى الجيش الرومانى، فى آسيا الصغرى، قد شكلت (أى هذه الترجمة) الأساس لكثير من الإنجازات الجديدة التى حققها الباحثون والأطباء العرب فى علم الأدوية والصيدلة. كما أكدوا أثره الكبير فى الممارسات الطبية إبان العصور الوسطى وما بعدها^(٢٧).

بيد أن الوقوف على المنهج الذى اتبعه من توفر على دراسته من العرب؛ يوضح هذا الأمر بجلاء. فمنذ أن ترجمه اصطف بن ياسيل فى بغداد، على عهد الخليفة المتوكل العباسى (٢٣٢-٢٤٧هـ) وأصلحه أستاذه حنين بن اسحق^(٢٨)، أثارت قصة هذه الترجمة الشهيرة، نظراً لحالتها، فضول الكثيرين للاطلاع على هذا الكتاب. هذا

فضلا عن محتواه وطبيعة موضوعه الذي يهم كل المشتغلين بالطب، حيث حظت كتب التراجم بأسماء الكتب والمؤلفين الذين تناولوا شرح الكتاب.

ويلخص الإدريسي، في مقدمة كتابه السابق ذكره، موقع الكتاب ومكنته وموقفه منه، كأنموذج يوضح منهجه في التعامل معه، فيقول: "إني نظرت إلى البحر الذي منه اغترفوا والكنز الذي منه استلفوا، فإذا هو كتاب ديسقوريدس اليوناني، الذي وضعه في الأدوية المفردة من نبات وحيوان ومعادن، فجعلته مصحفى، وأوقفت عليه نظرى، حتى حفظت علمه جملة، بعد أن بحثت ما أغفله". وقد علل الإدريسي عدم ذكر ديسقوريدس لبعض الأدوية بقوله: "إما أنه لم يبلغ علمها، أو لم يسمع عنها، لأن أكثر هذه الأدوية ليست في شيء من بلاده". كما يذكر أنه اطلع على كتاب لصطفن في المفردات، وكتاب جالينوس في المفردات، وكتاب الأدوية المفردة لحنين، ويقول إنه سيتجنب ما وقع فيه غيره من خلط أو تشويه أو اضطراب. كما استوفى ذكر جميع النباتات التي أغفلها شيخه ديسقوريدس^(٢٩).

هذه الفقرة تطلعا على أن تدارس كتاب ديسقوريدس استنبهه ظهور أكثر من مؤلف في الأدوية، ربما لأكثر من سبب، منها عدم الاستفادة الكاملة من الكتاب، نظرا لحالة الترجمة. كما تبين أيضا أن الانتباه إلى إغفال ديسقوريدس، أو عدم ذكره، لنباتات طبية موجودة بين أيدي العرب، فيما يعيشون من مناطق، استدعى الحاجة إلى ضمها إلى ما ذكره.

إن فإن الاهتمام بكتاب ديسقوريدس، على أهميته، يفصح عن حاجة ملحة، لدى من اطلع عليه من العرب، إلى إجراء مزيد من الدراسة في مجال النباتات الطبية. ومن ثم توالت المؤلفات في هذا الفرع، خاصة بعدما وصل الكتاب بترجمة لصطفن إلى الأندلس حوالي عام ٣٣٧هـ، ثم وصول نقولا الراهب من القسطنطينية عام ٣٤٠هـ، لترجمة النسخة المهداة إلى الخليفة الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ)، وما قام به، بالاشتراك مع هيئة من الأطباء الباحثين، لتصحيح أسماء عقاير الكتاب، وتعيين أشخاصها، وتصحيح النطق بأسمائها^(٣٠).

نذكر من هذه المؤلفات مؤلف "ابن الرومية" الذي يحمل عنوان "شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس والتنبيه على أوهام ترجمتها"، بالإضافة إلى كتب آخر في "الأدوية المفردة"، ولم يصل منهما إلا شذور نقلها تلميذه ابن البيطار^(٣١). كما جاء ذكر مؤلف يحمل عنوان "شرح لكتاب ديسقوريدس في هيولى الطب"، جمعه مؤلف مجهول من القرن السادس الهجري^(٣٢).

ولذات الغرض؛ أقدم أبو محمد عبد الله بن أحمد ضياء الدين المالقي المعروف بابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، بعد أن أخرج كتابا عنوائه تفسيرا لكتاب ديسقوريدس، أقدم على وضع مؤلفه "الجامع لمفردات الأغذية والأدوية" الذي ذكر في

مقدمته أنه استوعب فيه جميع ما ورد في الخمس مقالات من كتاب الأفضل ديسقوريدس بنصه. وكذا فعل أيضاً بجميع ما أورده أنفاضل جالينوس في الست مقالات من مفرداته بنصه. ثم ألحق بقولهما، من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكره. ووصف فيه، مما قال به ثقات المحدثين والطماء النباتيين، ما لم يصفاه. وأسند في جميع ذلك الأقوال إلى قائلها. وأوضح أن منهجه هو أن ما صح عنده بالمشاهدة والنظر وثبت لديه أخره حتى يدونه ويثبته. وأما ما كان مخالفاً، في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية نبذه. ولم يحاب في ذلك قديماً لسبقه، ولا محدثاً اعتمد غيره على صدقه^(٣٢). لذا جاء كتابه به مئات من النباتات التي تتخذ منها العقاقير، مسهباً في الوصف والشرح، معتمداً على المشاهدة والتجربة وتحري الصدق والدقة في النقل. فقد كان ثمرة دراساته العلمية والعملية، حيث جاب البلاد باحثاً عن النباتات في مواطنها دارساً لصفاتها، ولم يكتف بوصف أكثر من ألف نبات مختلف، لكنه قارن كذلك بينهما وبين تلك التي سجلها من سبقه^(٣٣).

وقد غطى بعض الطماء موضوعاً لم يلق اهتمام ديسقوريدس، في حين تناولته جالينوس في رسالة بعنوان "الترياق" بترجمة حنين، ثم تبعها تصنيف حنين نفسه الذي اعتمد فيه على كتابات طبية جمعها من مصادر كلاسيكية^(٣٤). حيث تمثل الأدوية المضادة للسموم إضافة لمنافع النباتات، فقد صنف ابن جلجل رسالة في هذا الموضوع، وللزهرراوى (ح ٩٣٦هـ / ١٠١٣م) أيضاً في كتابه "التصريف" في المقالة الرابعة منه حديث فيه. مما يشهد على تقدم علم السموم عند العرب، حيث كانت حوادث التسمم سواء بواسطة الحيوانات أو الزواحف والحشرات، من الكثرة بحيث دفعت إلى تطوير أنواع عديدة من الأمصال، منها ما هو من مصادر طبيعية نباتية أو حيوانية.

وقبل أن نصل إلى معالجة الموضوع الثاني، الذي تجلت فيه أصالة المؤلفات العربية، وهو كتب الفلاحة، رأينا أن نختم هذا الموضوع الأول، وهو علم النبات، بمصنف أندلسي متفرد في العناية بأعيان النبات وأجناسه وأحواله في منابته، كما يقول محققه^(٣٥). إذ تناول مؤلفه الموضوع وعالج فيه مسائل تجعل منه صالحاً لأن يوضع بين كل من كتب النبات والفلاحة على السواء. ألا وهو كتاب "عمدة الطبيب في معرفة النبات"، تلك الموسوعة الأندلسية التي ترجع إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، والتي يمكن نسبتها - على ما يرى المحقق - إلى ابن عبدون الإشبيلي.

يدرس مؤلفها النبات من أجل خصائصه الطبيعية والمورفولوجية، ولا يهتم إلا بالنبات، ولا يحفل بما قد يكون فيه من منافع دوائية أو مضار. ومع ذلك انتهج منهجاً يعنى بالجانب العملي، فيفسر ماهية العشب ويعدد أجناسها وقصائلها. ويصف كل نبات من جهة شكل جذره وساقه وزهره وبذره وثمره. كما يذكر منابت الأعشاب وبيئتها الطبيعية وأماكن وجودها، فضلاً عن عنايته بالجانب اللغوي الصرف؛ إذ اهتم بالفاظ اللغة

ومصطلحاتها الخاصة بأحوال العشب وأطوار نموه وأجزائه، وشرح ما أورده منها شرحا موجزا، كما فسر عددا من المصطلحات غير العربية المتداولة بين العشابين. وهو يخصص أقوال من سبقه من العلماء، وكثيرا ما يعقب عليها لتصحيح خطأ، أو زيادة شرح أو إضافة فائدة؛ لاسيما إذا كان الأمر متعلقا بأعشاب وقف عليها بنفسه، أما ما لم يتحلقه من صفات الأعشاب التي نبتت في غير بلاد الأندلس والمغرب، فإنه يقتصر على إيراد أقوال غيره من الثقات العارفين، مع بيان اختلاف الأقوال فيها، وترجيح ما يظهر له أنه الصواب. (٣٧) وقد تردد في الكتاب ذكر ديسقوريدس وجالينوس، فما من عشبة إلا وحرص المؤلف على بيان ما إذا كان قد ذكرها أحد هذين الحكيمين أو كلاهما، أو أنهما لم يذكرها. (٣٨)

وكان غالبا ما يعين بيئة كل عشبة يصفها، إذ يشير إلى بعض ما يجلب من البلاد البعيدة، إلى الأندلس، من بذور لاستنباتها في بساطينها، مشيرا إلى ما أنجب منها وما لم ينجب، مما يوضح اهتمامه بالتجارب الزراعية، وحرصه على التأكد من حقيقة بعض الأعشاب الغريبة عن بلده، وذلك بمعابنتها وفحصها، مما يدل على عناية بشؤون الفلاحة والغراسة، ومزاولة أعمالها بنفسه. (٣٩)

وعليه: يتضح من هذه المتابعة كيف أظهرت كتب الأدوية خبرة العلماء العرب بالنبات، وخاصة موضوع الأدوية المفردة، لأنها تمثل النبات بخصائصه الأولية. كما أظهرت أن البحث عن المزيد من النباتات، ودراسة خصائصها لاستخدامها في العلاج، قد ضاعف من الاهتمام بعلم النبات، على خلاف ما حدث عند اليونان من الاهتمام بالنباتات الطبية على حساب علم النبات. ومن ثم عكست المؤلفات، التي دونت في هذا الشأن مواصلة تدارس علماء العرب لعلم النبات لذاته، إلى جانب ظهور التخصص في الكتابة تحت موضوع النباتات الطبية، لتدوين النتائج.

وإذا كانت العلوم الطبيعية قد شملت علوما أساسية تفرعت عنها فروع، حيث يصاحب نزوج العلوم كثرة المؤلفات في العلوم وفي أجزاء العلوم، بل وفي مباحث متعددة من العلم نفسه، فإن علم النبات قد تفرع عنه علم العقاقير الطبية، أما في جزئه أو شقه التطبيقي نجد علم الفلاحة.

فعندما عالج علماء اليونان النبات مبكرا ضمن موضوعات العلوم الطبيعية، من وجهة نظر فلسفية أو علمية بحتة، وجد أن علم العقاقير قد تفرع عنه في مرحلة تالية، ثم حدث الشيء نفسه في الجانب التطبيقي منه الذي أتى في مرحلة لاحقة. فبعد أن اطلع العرب على كتب النبات، والمؤلفات اليونانية في العقاقير، وجدوا كتب الفلاحة، التي ما لبثت أن لقيت في أوساط علماء النبات العرب اهتماما كبيرا. من هذه الكتب ما كان مترجما إلى اللغة السريانية، ومنها ما ترجم من اليونانية إلى العربية مباشرة، وقد توفرت بعض الدراسات على تتبع هذه الكتب.

وأول ما يظالغنا منها، كتاب في الفلاحة، منسوب إلى أبولونيوس التياني، المعروف عند العرب باسم "بليناس الحكيم"، يحمل تاريخ ترجمته عام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م، من قبل يوستاسيوس، بالاشتراك مع بطريق الإسكندرية "بوليتيانوس"، لصالح يحيى بن خالد البرمكي عن اللغة اليونانية إلى العربية. وتكمن أهمية الكتاب وتوقيت ترجمته - في نظر البعض - في أنه إشارة إلى أن العرب كانوا في ذلك الوقت مؤهلين، لا للاهتمام بالترجمات المتوافرة باللغة السريانية فقط، وإنما كذلك بالأصول اليونانية^(٤٠).

أما ما يهمنا هنا؛ فهو ما جاء به الكتاب، إذ يقول مطلع المخطوطة: "هذا كتاب ألفه بليناس الحكيم، جمعه من حكم الحكماء الذين جربوا الأمور في سائر الدهور، ووضعوا الحكم في التدبير لكل أمر، وهو كتاب ظريف. وقد سمى لك الحكماء الذين اجتمعوا على وضع الكتاب وصنفوه وعملوا بما فيه وجربوه." وقد جاء نص هذا الكتاب في مخطوط يضم كتاباً عربياً في الفلاحة^(٤١).

هذه العبارة تدلنا على أن الكتاب يتناول معرفة علمية وعلماً تجريبياً مبنياً على خبرات سابقة، ثم جاء من اهتم بجمع هذه المعرفة والتصنيف فيها.

أما موضوعات هذه المعرفة، فقد أفصح عنها مطلع كتاب آخر يقول "هذا ما وضع ديمقراطيس، الفيلسوف، أدباً للفلاحين، وما جرب من علم الزرع والغرس، وما فيه من دفع الآفات، وكيف تزرع البقول...."^(٤٢). وديمقراطيس هذا هو Bolos Democritus بولس ديمقريطوس (الزدهر خلال القرن الثاني ق.م) في مصر. ويعرف عند العرب ببولس أو ديمقراطيس^(٤٣).

ثم نجد في فاتحة كتاب آخر: "هذا كتاب يونيوس بن أناطوليوس (نهاية القرن ٤م)، الذي كان من مدينة بيروت، في فلاة الأرضين. فيه أبواب جمعها من وقسم كتابه على أربعة عشرة مقالة منها: في الضيعة، ومن يعمل في الضيعة، وفي المياه، وفي غرس الأشجار، وفي قسمة أوقات السنة، ومعرفة تغيرات الأرض". ويعد كتاب أناطوليوس هذا كتاباً جامعاً لمجموعة من الرسائل عن الفلاحة. وقد قام بترجمته إلى السريانية سرجيوس الرأس عيني (ت ٥٣٦م)، ثم تمت ترجمته إلى العربية من قبل المترجم المشهور قسطنطين لوقا البعلبكي (ت ٩١٢م)^(٤٤).

كما حفظت لنا ترجمة عن اللغة اليونانية كتاباً للمؤلف Cassianus Bassus كاسيانوس باسوس (عاش في القرن ٦م)، حمل عنوان "الفلاحة". هذا الكتاب أشار إليه ابن النديم في باب: ما وجد من الكتب المصنفة في الآداب لقوم لم يعرف حالهم على استقصاء ونسب الترجمة لعلي بن محمد بن سعد^(٤٥). وقد عرف هذا الكتاب باسم "الفلاحة الرومية"، كما عرف مؤلفه عند العرب باسم قسطوس. حيث أورد حاجي خليفة، بالإضافة إلى اسم المؤلف، أن من ترجمه من اليونانية إلى العربية هو سرجيوس بن هليا الرومي. بالإضافة إلى ثلاثة آخرين من بينهم قسطنطين لوقا^(٤٦).

ويتضح من هذه الكتب أنها ترجع إلى إسهامات البيزنطيين، مما يوحي بأن ما تحمله من معرفة قد راج خلال هذه الفترة التاريخية، دون أن نعرف - على وجه اليقين - ما إذا كان لعلماء اليونان قبل هذا العصر فيها تأليف. غير أن المتتبع للمؤلفات العلمية يجد مؤلفات من هذا النوع، ترجع إلى القرن الأول ق.م، منها موسوعة زراعية للمؤلف الروماني "Varro" قارو بعنوان (Rerum Rusticarum Libri)، في الأمور الفلاحية) يرجع تاريخها إلى ٣٧ ق.م. وقد أشار فيها إلى أن أكثر من خمسين عملاً مكتوباً باللغة اليونانية في ذات الموضوع^(١٧). الأمر الذي يفهم منه أن هناك مؤلفات سابقة قد ظهرت، ربما لم تشتهر، وبالتالي لم تحفظ. أما المؤلفات التي ترجع إلى العصر الروماني لفارو وكولوميليا Columella - الذي أتى بعده بقرن - فقد سبقت تلك البيزنطية التي ذكرناها. غير أنها كتبت باللغة اللاتينية فلم تصل إلى أيدي العرب منها ترجمات أثناء حركة الترجمة.

والجدير بالذكر؛ أن مؤلفي هذه الكتب البيزنطية، التي ذكرناها، كانوا معروفين لدى المؤلفين العرب، إذ كثيراً ما رددوا أسماءهم وأفكارهم - كما سيتضح فيما بعد - عند متابعة كتب الفلاحة العربية.

ومن يتابع المصادر العربية وكتب التراجم؛ يجد كتباً تحمل عناويناً تعالج تلك الموضوعات، التي صادفناها، في كتب الفلاحة اليونانية البيزنطية. فقد ذكر أن لأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي (ت ٢٣١هـ) من الكتب: "كتاب النبات والبقل"، و"كتاب صفة الزرع". كما أن لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت ٢٥٥هـ) كتاب عن "العشب والبقل"، وكتاب عن "الخصب والقحط". كما نجد إشارة إلى كتاب يحمل عنوانه: "كتاب الفلاحة والعمارة"، وهو من كتب المتأخرين^(١٨).

وكتاب في الفلاحة ينقل مؤلفه عن الكشاجم وابن الساعاتي وابن وقيع وابن رافع. أوله: الحمد لله الذي أنزل الماء الفرات.. وبعد فهذا أنموذج طريف الوضع في ذكر الأشجار والثمار والرياحين، وينحصر المقصود منه في أربعة كتب...^(١٩)

ونستطيع أن نلاحظ هنا؛ أن مؤلفي هذه الكتب في معظمهم لغويون. وأن أمثال هذه الكتب قد صادفناها عند الحديث عن المؤلفات التي كتبت في النبات. وبالتالي يمكن أن تعتبر بمثابة المعاجم التي تورد الأسماء المختلفة للعشب والمزروعات وأجناسها.

أما كتب الفلاحة التي تبحث في النبات من حيث: زرعه ومراحل نموه والأوقات المناسبة لبذره وحصاده، وطرق تسميده، وما إلى ذلك من فنون الزراعة، فأول نص عربي، تضمن شرحاً لها، كان لأبي بكر أحمد بن المختار المعروف بـ"بائين وحشية النبطي" خلال القرن الثالث الهجري/أخريات التاسع الميلادي. ويعرف بكتاب "الفلاحة النبطية". الذي يعد مرجعاً أساسياً لكل من تصدى للكتابة في هذه الأمور. غير أن هناك الكثير من الجدل حول ما إذا كان كتاباً مؤلفاً أم ترجمة عربية لنص قديم^(٢٠).

غير أن أثر الأصول اليونانية، في المؤلفات العربية في الفلاحة، يتضح بصورة جلية في التراث الأندلسي الزراعي، الذي يمثل جزءا كبيرا ومهما من التراث العربي الذي نحاول تدارسه في هذا المجال. وذلك لأكثر من عامل: فقد جمعت المدرسة الأندلسية الزراعية كل المعارف السابقة. وكان التراث اليوناني الهليني والهلينستي في النبات والبيزنطي في الفلاحة أحد أهم الروافد التي أمدت هذه المدرسة بمصادر المعرفة في هذا المجال. وهو ما سنناقشه بالتفصيل. أما العامل الآخر فهو: أن ما بقي من مؤلفات هذه المدرسة كفيل بأن يعطينا صورة، غاية في الوضوح، عن أنماط التأليف المختلفة التي تناولتها المؤلفات العربية في الفلاحة. هذا بالإضافة إلى أن هذه المدرسة تتميز بخصوصية الإمام بقرآن زراعي متنوع، تعاملت معه بنهج خاص قائم على التوفيق بين المعرفة النظرية والتطبيق العملي. مما يشهد لهذه المؤلفات بإضافة إسهامات جديدة في مجال مؤلفات علم الفلاحة، من حيث الشكل والمضمون.

ويمتد تراث المدرسة الأندلسية، في الفلاحة، من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجري/ العاشر إلى الحادي عشر الميلادي. ويمثل القرنان الخامس والسادس الهجري/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديان؛ أكبر وأهم نشاط لمؤلفي هذه المدرسة^(٥١). غير أن ندرة التراجم عنهم جعلت المعلومات عن شخصياتهم محدودة، بالمقارنة بالمؤلفين في مجالات أخرى من العلوم.

وسوف نشير إلى أهم المعلومات المتوافرة عنهم، قبل أن نتطرق إلى مؤلفاتهم ونصنفها حسب أنماط التأليف، ثم نقف على الموضوعات التي تناولوها بالتفصيل.

تصدر أبو المطرف عبد الرحمن بن وafd (ت ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م) ويمكن تسمية عمله "المجموع في الفلاحة" الذي ورد في مخطوط متنوع المواد. وهو يعد الأقدم زمنيا بين كتب الفلاحة الأندلسية. وقد حظى بشهرة واسعة^(٥٢). والمؤلف أيضا له شهرة كبيرة على عكس أقرانه من مؤلفي كتب الفلاحة، نظرا لكونه طبيبا ووزيرا. أما ما يهمنا هنا؛ فهو أنه كان يشرف على حديقة، أو مئبة، المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، على ضفاف نهر التاجرة^(٥٣).

ثم يأتي بعده معاصره أبو عبد الله محمد بن بصال (ازدهر حوالي ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م)، مؤلف كتاب "القصد والبيان" الذي كتبه ليحيى بن ذي النون، حيث خلف ابن وafd على حديقة النباتات للمأمون وابنه، ثم واصل المهمة نفسها في اشبيلية، في بستان صاحبها المعتمد، المسمى "حائط السلطان"^(٥٤).

بعد هذين المؤلفين، الذين ينتميان إلى مدرسة طليطلة، تأتي طائفة أخرى من مدرسة تكونت في اشبيلية، بعد وصول ابن بصال إليها، منهم: أبو الخير الإشبيلي، الذي لا يعرف عنه الكثير، عدا أنه كان ضمن من اجتمعوا حول ابن بصال، وقد وصل كتابه المسمى "كتاب الفلاحة" في أجزاء متفرقة^(٥٥).

ومن المدرسة نفسها أيضا، يشكل ابن حجاج وكتابه "المقنع في الفلاحة"، الذي ألفه عام ٤٦٦هـ/١٠٧٣م، موقعا خاصا بين هذه المؤلفات، سنتعرض له بالتفصيل.

أما "الطغرى"، الذي يختتم القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى، فقد دون كتابه أوائل القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، بعد أن انتقل من غرناطة إلى المرية، ليقوم بالإشراف على حداثق القصور الملكية. وقد أهدى كتابه المسمى "زهرة البستان ونزهة الأذهان" إلى حاكم موطنه الأصلى غرناطة، الأمير المرابطى أبى الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين. ولم يصل هذا الكتاب كاملا^(٥٦).

وفى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى؛ خرجت رسالة لابن العوام، الذى نجهل تاريخ ولادته ووفاته، تحمل عنوان "الفلاحة فى الأرضين". وهو أحد المؤلفات القليلة التى وصلتنا كاملة. ولنا معه وقفة، إذ يعد كتابه أحسن ما كتب من كتب الفلاحة^(٥٧).

بينما يمثل عمل "ابن ليون" من المرية (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) آخر الأعمال التى وصلتنا كاملة، وهو عمل يختلف عن المؤلفات السابقة - كما سنوضح فيما بعد.

من هذا الحصر، لهؤلاء المؤلفين، وتسمية أعمالهم التى وصلتنا، نستطيع أن نصنف أعمالهم تبعا لنمط التأليف الذى اتخذوه. فمؤلف ابن وافد يمثل الأعمال الموسوعية، فهو كتاب جامع، النص الموجود منه مكون من مائة فصل وستة، مرتب طبقا للترتيب المتبع فى مثل هذه الكتب. فقد بدأ بتناول الموضوعات الأولية فى كتب الفلاحة مثل: دراسة الأرض والمياه واختيار المزروعات، كما تناول التقويم الزراعى، بالإضافة إلى قسم خصصه للبيطرة^(٥٨).

أما ابن بصال، وأبو الخير، والطغرى، فيشكون بأعمالهم الرسائل المتخصصة، التى يعتمد مؤلفوها بشكل كامل على تجاربهم الشخصية. لا تتداخل فيها أمور أخرى غير ما يخص طرق الزراعة والمزروعات. باستثناء ابن حجاج الذى يبدو نحويا لغويا، أكثر منه مؤلفا مختصا بالفلاحة^(٥٩).

بينما يمثل مؤلف ابن العوام نموذجا للأعمال الموسوعية، فهو أشبه بدائرة معارف تاريخية عن الفلاحة^(٦٠)، غير أنها قائمة على المنهج النقدى؛ إذ تحوى جميع المعارف الزراعية الشائعة فى عصره، يستوعب مؤلفها التراث السابق ويختصره، ثم يحييه ويمحصه.

أما آخر الأعمال، وهو ما كتبه ابن ليون، فهو من الأعمال المتفردة، إذ يعد قصيدة تعليمية تحتوى على معارف زراعية، تضم ٦٣٥ بيتا، يمكن اعتبارها قصيدة الأندلس الزراعية، قياسا على قصيدة فرجيليوس، الرومانية اللاتينية، المسماة ("Georgica" الزراعيات). ومع ذلك فهى تقدم معارف زراعية بحتة استقاها من

كتابات المتخصصين، ليس فيها من المحسنات البديعية الموجودة عادة في الشعر، فيما عدا المواضع التي يتطرق فيها إلى وصف البساتين وما تحويه، فإنه يجنح إلى استخدام أدوات الشعر من ألفاظ وصور بلاغية؛ لذا فهو يعد نموذجاً فريداً لهذا النوع من أنماط التأليف^(٩١).

أما أثر المؤلفات اليونانية، في أعمال هؤلاء المؤلفين، فهو ما يمكن استخلاصه من نصوص هذه الأعمال ذاتها. فمن حيث الشكل تتبع هذه المؤلفات نفس النمط الكلاسيكي، الذي اتبعته المؤلفات البيزنطية، في ترتيب الموضوعات وتوزيعها على أبواب. إذ تبدأ جميعاً بالحديث عن التربة فالأسمدة أو المخصبات، ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن المحاصيل، وأخيراً تتناول التقاويم الزراعية، ثم تختتم بنصائح عن إدارة المزارع وتنظيم العمل، وكيفية السيطرة على الآفات^(٩٢).

بينما لوحظ، من حيث التناول، تأثير هذه المؤلفات بنظرية الأخلاط الطبية لكل من أبقراط وجالينوس، حيث طبقت على تصنيف التربة والماء والأسمدة. وكذلك عند الإشارة إلى خصائص أجناس النبات^(٩٣).

أما إذا ما بحثنا في كل عمل على حدة، فإننا نجد لكل مؤلف شأناً في مدى تأثيره بهذه المؤلفات، وتعامله مع ما جاء بها من أفكار. فنجد ابن وافد - على الرغم من أنه لم يشر كثيراً إلى أسماء مؤلفين كما هو معهود في أعمال غيره - يشير أحياناً إلى ما يسميهم "الحكماء". غير أنه ذكر بالإسم كلا من أناطوليوس وديمقراطيس. فضلاً عن أنه استعمل - مثله مثل المؤلفين الآخرين - أسماء الأشهر الرومية ذات الأصل السرياني مثل تموز وآب. هذا، بالإضافة إلى أن النص الموجود في نسخته القشتالية جاء مرتباً طبقاً للترتيب المتبع في مثل هذه الكتب. بل إنه كان غاية في التنظيم، وأكثر تنظيماً من المؤلفات اللاتينية^(٩٤).

أما في كتاب أبي الخير؛ فنجد فقرات جاءت فيها عبارات ترددت فيها أسماء المؤلفين البيزنطيين، حينما يقول على سبيل المثال: ... على مذهب قسطوس اليوناني، ... ذي مقراطيس (ديمقراطيس) الرومي، ... انطوليوس (أنطوليوس) الإغريقي... إلخ^(٩٥).

بينما ابن حجاج، الذي جمع اقتباسات مثيرة من المؤلفين السابقين، فقد قامت دراسة عن عمله، أظهرت إلى جانب التأثير اليوناني البيزنطي ما يشير إلى تأثير التراث اللاتيني، وخاصة من كولوميللا، وإن كان هذا الأمر لا يزال موضع دراسة^(٩٦).

في حين سمي ابن العوام المصادر التي استقى منها ورمز لمؤلفيها بحروف كلما أراد؛ فجالينوس (ج)، وقسطوس (ق) وهكذا. ويقول: إنه لم يثبت إلا ما جربه مراراً فصح. ثم يقول: إنه لم يقطع بأن هذا يصح في بلادهم لبعدهم عنا. وقد اتسم

بالأمانة في العرض، فيقول: "لى" وذلك حين يعرض رأيه هو. وفيما عدا ذلك فإنه ينسب الأقوال إلى قائلها، مثل يוניوس وقسطوس. وعندما يرغب في تأكيد آرائه يقول: هذا إجماع من حذاق أصحاب الفلاحة^(٦٧).

وعلى هذا، وفي ضوء ما توافر من هذه النصوص، نستطيع أن نؤكد أن كتب الفلاحة تمثل مرحلة التخصص في الكتابة والتأليف، عند العرب، بشكل واضح، حيث صارت من التخصصات التي تحمل سمات عامة، تظهر تقريبا في أغلب مصنفات هذا النوع. فنادرا ما تختلط فيها العلوم، عدا العلوم المتعلقة أو ذات الصلة بهذا النوع.

أما ما لفت انتباه العلماء والدارسين، للمؤلفات المتعلقة بمجال الفلاحة، فهو ما تميزت به هذه المؤلفات الأندلسية من الاهتمام بموضوعات بعينها. ولا يتسع المجال هنا إلا إلى الإشارة في إيجاز عن هذه الموضوعات، فقد ركزت أغلب هذه المؤلفات على التعرض لموضوع استجلاب النباتات، وكيفية زراعتها ومتابعة مدى تأقلمها، والتجارب التي أجراها المؤلفون بأنفسهم في هذا الصدد. وهو موضوع جديد لم تتطرق إليه كتب الفلاحة البيزنطية.

كما احتوت هذه الكتب العربية الأندلسية؛ على معلومات قيمة تخص أنواعاً بعينها من الزراعات، مثل زراعة البساتين والحدائق، وكيفية رعايتها، وطريقة تنسيق أشجارها ونباتاتها، واختيار الأنواع المناسبة لزراعتها في كل جزء من أجزاء الحديقة. واستعانوا في ذلك بالخبرة العملية، من خلال ما أجروه من تجارب، وما استعانوا به من خبرة الممارسين الذين تخصصوا في هذه الزراعات. والأكثر من ذلك أنهم تعرضوا لمسألة تطبيع النباتات البرية، فكانت هذه الموضوعات من الملامح البارزة في كتبهم^(٦٨)، وقد تفوقوا في معالجتها، نظرا لأنهم مارسوها بأنفسهم في البساتين والحدائق النباتية التي تفردت بها الأندلس.

ولقد كانت موضوعات علم الفلاحة - في مجموعها - تحوى معارف متشعبة يصعب التسليم بأن شخصا واحدا بإمكانه أن يمتلكها جميعا، حتى إن أحدهم، وهو المؤلف الروماني كولوميل، قد صرح بهذا في مقدمة كتابه ("De Re Rustica" في أمور الفلاحة)^(٦٩).

وما كان لهذه الكتب أن تتناول الموضوعات الكبيرة التي كانت تتناولها، مثل الأرض والمياه وأوقات الزراعة، دون أن تستند على معلومات توفرها مؤلفات تختص بهذه الموضوعات. وقد بينت إشارات واضحة، في كتب الفلاحة، أهمية الحصول على هذه المعارف، وعرضت المتوافر منها. لذا كان من الضروري التطرق إلى المؤلفات التي تحوى تلك المعارف، وتقديم التقنيات التي يحتاجها علم الفلاحة لتطبيق الأساليب الجديدة في الزراعة.

وفيما يخص العنصر الأول وهو الأرض، وهي أول مراتب علم الفلاحة، فنجد - بالإضافة إلى ما نقله ابن وافد عن علماء النبات مما تحصلوا عليه من معلومات بشأن تركيب التربة - ثم المعلومات التي ألمح إليها ابن بصال، حين ذكر أنه "ليس كل أرض يطلق عليها جيدة ولا رديئة، حتى يعلم ظاهرها وباطنها. وأن هذا كله يعرف بالاختبار والامتحان ودوام الحركة بالعمل فيها". وكذا المعلومات التي جاء بها ابن العوام، في هذا الشأن، حين عرض من أقوال 'يونيوس' تجارب بسيطة لمعرفة نوع الأرض، فقال: "إن أنت مارست الطين بيدك فأصبت شبيهها بالشمع يلصق جيداً، فأعلم أنها أرض غير موافقة للقبول، وإن كان طعم التراب عذبا معناه أنها خالية من الأملاح. والأرض الشديدة الغبرة تظهر أن فيها تخلخلا (أي مسامية) ...^(٧٠)"، إلى غير ذلك من الإشارات التي تعنى ما يمكن أن يجنيه علم الفلاحة إذا ما توسعت هذه المعرفة.

هذا ولم يظهر هذا الأثر إلا عندما توسعت تلك المعرفة وتم استيعابها، فأخرج رضى الدين الغزى (ت ٨٦٢ هـ / ١٤٥٨ م)، كتابه المسمى "جامع الملاحاة فى جوامع فوائد الفلاحة"، وعالج فيه باستفاضة نظريات تكوين التربة، وقام بتوضيح الفروق بين التربة السطحية والتربة التحتية، وأى منها يحتوى على المخزون العضوى. كما أشار إلى مسألة تقلب الأرض، وأكد ضرورة مراعاة ذلك عند إنشاء بساتين الفاكهة، فيقول: "تقلب الأرض إذا أريد إنشاء الغراس فيها". والغرض من هذه العملية دفن الجذور بالتراب السطحى أولاً، لاحتوائه على نسبة أكبر من المواد الغذائية^(٧١). وفى مجال إصلاح الأراضي؛ أشار إلى ضرورة إزالة الطبقة السطحية من التربة، فى أعمال التسوية لكى تظهر التربة التحتية التى تكون ضعيفة الإنتاج، فيقول: "ما يخرج من أعماق الأرض كالآبار والمطامير، لا ينبت أول عام حتى تطبخه الشمس، وتلطف أجزائه، ويكتسب من حرارتها". كما تحدث عن مفهوم التربة المنقولة عندما يحدث انجراف للطبقة السطحية من التربة، بفعل الأمطار الشديدة فى الأرض غير المغطاة بالغابات أو المراعى، فتزيد الطبقة المنجرفة من خصوبة الأماكن التى تترسب عليها، وتضر بالتربة التى انجرفت منها. وقد أفرد فى تصنيف أنواع الأرض، كما أوضح طرقاً متعددة للتعرف على جودة الأرض ومدى تخلخلها ومساميتها^(٧٢). وكانت هذه المعلومات - على ما يبدو - أكثر تطوراً من تلك التى أوردها السابقون عليه، نتيجة التوسع فى هذه المعرفة.

أما العنصر الثانى، الذى يلاحظ فى جل كتب الفلاحة الدور الحيوى الذى يؤديه، ألا وهو عنصر المياه. فبالإضافة إلى التعريف بأنواع المياه وخصائصها ومعالجة مشاكلها، مما أشار إليه علماء النبات، كان الاهتمام بطرق الحصول عليها. وكان الطغرى هو أحد المؤلفين الأكثر أصالة ضمن أولئك الذين تناولوا موضوع المياه، ولاسيما ما يتعلق بحفر الآبار والتنقيب عن المياه. كما حاول نقل الأساليب التى اطلع عليها خلال أسفاره فى بلاد الشام وشمال إفريقيا^(٧٣).

أما فيما يتعلق بطرق الحصول على المياه، فقد عرض العلماء في مؤلفاتهم طرقاً علمية تعكس الحالة المتقدمة، التي وصلت إليها هذه التقنية، في مجال استخراج المياه الجوفية والإفادة منها. فكتاب "إنباط المياه الخفية" لأبي بكر محمد بن الحسن الكرخي، الذي صنّفه بين سني ٤٠٦، ٤٢٠هـ / ١٠٢٠م، يتضمن ٢٩ باباً بحثت مختلف المسائل المتعلقة بالمياه الجوفية وهندستها، وعرضت بالتفصيل للإجراءات الهندسية قبل تنفيذ الحفر، واستفاد في ذلك الصدد من معارفه الهندسية وتطبيقاته العملية. وقد ذكر في مقدمة كتابه أنه "بدأ يتصفح كتابات القدماء في هذا الموضوع، فوجدها قاصرة عن الكفاية واقفة دون الغاية..."^(٧٤)

وفي مقابل هذا القصور؛ الذي بدا واضحاً في المؤلفات في هذا الشأن، أثبتت الدراسات الأثرية تطبيقات لتقنيات متعددة خاصة بالمياه ترجع إلى عهود طويلة. فهو مجال وراءه تاريخ طويل من الممارسة، أسهم فيه المهندسون والمخترعون على مدى كل العصور. فالآلات مثل طاحونة المياه والمضخة الرافعة للمياه، التي جاء ذكرها في مؤلفات كل من Hero of Alexandria "هيرون الإسكندري" وCtesibius "كتيسبيوس" (ما بين القرنين الأول والثاني ق.م)، وعلى الرغم من أهميتها في وقتها - فإن أياً منها لم يدخل حيز التطبيق العام، ولم تحدث أثراً في أداء النشاطات العملية التي يمارسها الناس^(٧٥).

غير أنه عندما سعى العلماء العرب لتطبيق معارفهم النظرية، للإفادة منها في كل ما يخدم متطلبات الناس، وجعلوا الغاية من العلم "الحصول على الفعل الكبير من الجهد اليسير"، عملوا على ابتكار المزيد من الآلات، وما أسموه "بالحيل النافعة"، وإجراء التحسينات على ما هو معروف منها، وتطوير استخداماتها.

إذ قدمت حيل بني موسى (ازدهروا ١٩٨هـ) ابتكارات قابلة للتطبيق، منها خزانات تثبت في الحقول لكيلا تضيع كميات الماء هدرًا، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ري المزروعات.

أما بديع الزمان إسماعيل بن الجزري (ت ٦٠٢هـ / ١٢٠٧م) - في كتابه الذي يعرف "بالجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل" - فقد عالج موضوع آلات رفع المياه، وقدم تصاميمها ما يصلح لرفع المياه من الآبار العميقة إلى سطح الأرض، وكذلك ما يستعمل في رفع المياه من منسوب النهر، إذا كان منخفضاً، إلى الأماكن العليا بواسطة مضخات.

وكان هؤلاء المخترعون يصنعون منها نماذج مصغرة، ويقدمون شروحات يتم الاستعانة بها في تركيب الآلات الموصوفة في تلك المؤلفات^(٧٦).

وكذلك قدم أحمد بن خلف المرادى الأندلسي (ق. ٥٠٠هـ / ١١م) - في كتابه "كتاب الأسرار ونتائج الأفكار" - أكثر من ثلاثين نوعا من الآلات الميكانيكية قابلة للاستخدام، منها الطواحين، والمكابس المائية، والعجلات التي تستخدم لتدوير الطواحين، والساعات المائية التي تستخدم لقياس كمية الماء، وخاصة في حالة شح المياه^(٧٧).

وبفضل الحصول على هذه المعارف وتطبيق ما بها من تقنيات، تم تطوير نظم ووسائل الري وتحسين أدواتها.

أما العنصر الثالث، من العناصر الأساسية لعملية الفلاحة، وهو ما يتعلق بالآوقات المناسبة لكل زرع، التي تختلف باختلاف البلدان وأجوائها. حيث ترتبط الدورة الزراعية بالمناخ وتغيراته، فهو عنصر يجب الرجوع فيه إلى العلم الذي يختص بدراسة التغيرات الجوية. وهو من العلوم التي قامت على أساس ما قدمته كتب الأوائل من نظريات عن الظواهر الطبيعية المناخية، مثل ما قدمه أرسطوطاليس في كتابه "الميتورولوجيا" الذي توفر على ترجمته ودراسته سنان بن ثابت (ت ٣٦٠هـ -) ^(٧٨) العالم بالظواهر الجوية. ثم ما قدمته المؤلفات التي اهتمت بالتعريف بهذه الظواهر، وتفسير ما يصاحب حدوثها من تغيرات، مثل كتب "الأقواء". وقد عدد ابن النديم ما يربو على ١٥ كتابا عربيا مؤلفا في الأقواء^(٧٩). مما مهد الطريق لظهور المؤلفات التي اهتمت بدراسة أثر هذه التغيرات في الأنشطة الحيوية، ومنها الفلاحة. وعلى هذه المعلومات استندت كتب اهتمت بدراسة علاقة الفصول والتغيرات في أشهر السنة المختلفة وأثرها في المحاصيل الزراعية. منها المعلومات التي قدمها كتاب "تقويم قرطبة" لعريب بن سعيد (ت ٣٧٠هـ / ٩٨٠م)، الذي أدرج فيه المواد الزراعية المناسبة لكل شهر من شهور السنة، كما أكمل تلك المعلومات نص آخر يرجع تاريخه إلى القرن ٤هـ / ١٠م، لمؤلف مجهول، يحمل عنوان "كتاب في تاريخ أوقات الغراسة والمغروسات"، جاء في عشرة فصول، قدم فيها حصرا للآوقات المناسبة لزراعة الأشجار ومزروعات البساتين^(٨٠).

وكان لهذه المعارف أثرها في ضرورة اختيار أنسب البذور التي تلائم هذه الظروف المناخية، وكذا اختيار الوقت المناسب لمراحل إنبات المحاصيل وجمعها وحصادها، والتنبيه لمدى مقاومة النباتات للأمراض الناتجة بفعل التغيرات الطقسية؛ التي قد تؤدي إلى هلاك المحاصيل^(٨١).

وهكذا؛ نستطيع أن نؤكد أن السعي في اكتساب هذه المعارف - من العلوم ذات الصلة بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها، والإمام المسبق بالتراث الزراعي، والتعامل معه بالمنهج التجريبي الذي اعتمده مؤلفو كتب الفلاحة - هو العامل الذي أدى إلى التطور الكبير في الأساليب الزراعية وتقنياتها، وهو الأمر الذي كانت تهدف كتب الفلاحة إلى التعريف به، ومن ثم تطبيقه.

الخاتمة:

تابع هذا البحث موقع علم النبات، بوصفه واحداً من موضوعات العلوم الطبيعية التي تتناول الكائنات الموجودة في الطبيعة، ضمن ما تناوله مبكراً علماء اليونان من علوم، ثم تابعه العلماء خلال العصر الهلنستي بإسهاماتهم، في المؤلفات التي اطلع عليها العرب ضمن ما وصل إليهم من ترجمات.

ولقد اهتم البحث أولاً بالوقوف على المنحى الذي اتخذته هذا العلم في مؤلفات العلماء العرب، التي تتابعت في شكل موسوعات ودراسات علمية، قامت على عرض نظريات تخص ذلك العلم، تأثراً بما سار عليه علماء اليونان. ثم ظهرت مؤلفات متخصصة في موضوع بعينه، عندما تفرع عن علم النبات علم العقاقير أو النباتات الطبية. وقد صاحبت هذه المؤلفات مرحلة الدراسة وتنقيح الأفكار، والنظريات الموروثة عن اليونان، ثم جاء الاتجاه إلى تأليف أبحاث ورسائل تناقش، أو تطرح، فرضيات جديدة خاصة بالعلماء العرب، قدموها بناء على ما قاموا به من تجارب ومشاهدات.

ثم تابعنا بعد ذلك: كيف أن طرح تلك الأفكار لم يستمر داخل الإطار النظري المعرفي فقط، بل انتقل إلى الجانب العملي التطبيقي، فظهرت مؤلفات في الفلاحة. وناقشنا كيف أسهم ما أنتج من مؤلفات في طرح أفكار للتطبيق، أدت إلى تقدم الزراعة وتطور تقنياتها. فكان ما عرف بالثورة الزراعية العربية أحد ثمار الاهتمام العلمي بعلوم النبات والفلاحة، والعلوم التطبيقية التي قدمت وسائل التقنية.

وقد اعتمدنا في تناولنا لهذه المؤلفات، وتصنيف نوعياتها، ومتابعة ما جاء بها من أفكار، على ما كتب عنها من تطبيقات، من مصادر تناولت المؤلفين وإنتاجهم الفكري، إلى جانب ما جاء في مقدمات سطرها مؤلفو هذه الأعمال بأنفسهم، بالإضافة إلى الدراسات التي تناولت تاريخ العلوم.

ولقد استهدف البحث: إظهار الدور الذي قام به علماء العرب في الحفاظ على تراث السابقين، ثم تنقيحه وتأصيله، حتى تمكنوا من وضع إضافاتهم بصورة أسهمت في تطور علم النبات، وعلم الفلاحة الذي أضافوه إلى قائمة تقسيمات العلوم لديهم، بوصفه علماً يمثل الجانب التطبيقي من علم النبات.

وتبين من المتابعة: كيف أن أسس التراث اليوناني الهليني، في علم النبات، قد وضعت على يد كل من أرسطوطاليس وثيوفراستوس. أما التراث الهلنستي فكان ديسقوريدس أبرز ممثليه، حيث انصب اهتمامه على موضوع النباتات الطبية واستخداماتها، وارتاد باب علم الأدوية والعقاقير.

وقد استلهم العرب هذا التراث بشقيه النباتي والطبي. فقدم اللغويون الأساس اللغوي العربي الذي استخدم في التحقيق والتعريف بأسماء النباتات وأنواعها، وحقائق أجزائها وصفاتها.

بينما اهتم العلماء وخاصة الموسوعيون منهم، بعالم النبات من منظور العلم الطبيعي، فانطلق ابن سينا من أفكار أرسطوطاليس، غير أنه طبق المنهج العلمي القائم على الملاحظة، والاستقراء والتحليل والتفسير، وهو المنهج الذي وضعه أرسطوطاليس كأساس لدراسة العلوم الطبيعية. فوصف النبات من حيث الشكل، وصنفه من حيث الخصائص، ثم قام بمقارنته من حيث أوجه التشابه والاختلاف، فانتقل بذلك من مرحلة العلم الوصفي، التي اقتصر عليها ثيوفراستوس، إلى مرحلة العلم التجريبي.

وعندما نحا علم النبات نحو الاتجاه الطبي، الذي سار فيه كل من ديسقوريدس وجالينوس خلال العصر الهلنستي، لفت هذا المنحى اهتمام العلماء العرب، بيد أن الوقوف على النهج الذي اتبعه من توفر على دراسة علم النبات الطبي، من العرب، يبين كيف أظهرت مؤلفاتهم في مجال الأدوية - خاصة الأدوية المفردة، لأنها تمثل النبات بخصائصه الأولية - خبرة بعلم النبات، كما أظهرت أن البحث عن المزيد من النباتات ودراسة خصائصها لاستخدامها في العلاج، قد ضاعف من الاهتمام بعلم النبات، على خلاف ما حدث عند اليونان، من الاهتمام بعلم النباتات الطبية، على حساب علم النبات. ومن ثم عكست المؤلفات، التي دونت في هذا الشأن، مواصلة تدارس علماء العرب لعلم النبات لذاته، إلى جانب ظهور التخصص في الكتابة تحت موضوع النباتات الطبية لتدوين النتائج.

<http://Archive.org/Sahihit.com>

أما عن المحور الثاني من البحث، الذي تابعنا فيه الشق التطبيقي من علم النبات وهو علم الفلاحة، الذي تفرع عنه في مرحلة لاحقة بعد ظهور علم العقاقير الطبية، فقد تبين أن العرب عثروا على كتب الفلاحة ضمن مؤلفات اليونان، واتضح لهم أنها ترجع إلى إسهامات البيزنطيين. فتعرف العرب من خلالها على مؤلفيها، ورددوا أفكارهم وناقشوها عندما أقدموا على كتابة مؤلفات في ذات الموضوعات التي تناولتها كتب الفلاحة البيزنطية. وكذلك قدم اللغويون المفردات العربية والأسماء المختلفة للعشب والمزروعات، وأجناسها، وأطوارها المختلفة.

وقد بحثت هذه المؤلفات في النبات، من حيث: زرعها ومراحل نموه، والأوقات المناسبة لبزرها وحصاده، وطرق تسميده، وما إلى ذلك من فنون الزراعة. وتبين أن أثر الأصول اليونانية في هذا النوع من المؤلفات، يتضح بصورة واضحة في التراث الزراعي الأندلسي، الذي امتد من القرن الرابع حتى القرن الثامن الهجري/ العاشر حتى الرابع عشر الميلادي. وقد تميزت هذه المؤلفات بإضافة إسهامات جديدة في مجال كتب الفلاحة؛ من حيث الشكل والمضمون، حيث يمكن تصنيفها إلى أعمال موسوعية، إلى

جانب رسائل متخصصة، ثم أعمال قائمة على المنهج النقدي، فضلاً عن أعمال يمكن أن توصف بالأعمال المتفردة. ونقصد بها تلك القصيدة التعليمية التي احتوت على معلومات زراعية، حيث يمكن اعتبارها قصيدة الأندلس الزراعية.

أما عن وضوح أثر هذه المؤلفات اليونانية في كتب الفلاحة العربية التي تناولناها، فقد تبين أنها، من حيث الشكل، تتبع نفس النمط الكلاسيكي، الذي اتبعته المؤلفات البيزنطية، في ترتيب الموضوعات وتوزيعها على أبواب. أما من حيث تناول فقد لوحظ تأثير هذه المؤلفات بنظرية الأخلاط الطبية عند كل من أبقراط وجالينوس، حيث طبقت على تصنيف التربة والماء والأسمدة، وكذلك عند الإشارة إلى خصائص أجناس النبات.

وعلى ضوء ما توافر من هذه النصوص؛ نستطيع أن نؤكد أن كتب الفلاحة تمثل مرحلة التخصص في الكتابة والتأليف عند العرب. حيث إنها أصبحت من التخصصات التي تحمل سمات عامة، تظهر تقريباً في أغلب مصنفات هذا النوع.

أما عن الموضوعات التي تناولتها هذه المؤلفات الأندلسية؛ فقد تركزت في أغلبها على التعرض لموضوع استجلاب النباتات، وكيفية زراعتها، ومتابعة مدى تأقلمها، والتجارب التي أجراها المؤلفون بأنفسهم في هذا المجال. كما احتوت على معلومات قيمة تتعلق بأنواع معينة من الزراعات، مثل زراعة البساتين والحدائق. وقد استعانوا في ذلك بالخبرة العملية، من خلال ما أجروه من تجارب، إذ كانت هذه البساتين بمثابة مزارع تجريبية لهم. كما كان أبرز سماتها هو المنهج التجريبي؛ القائم على مزج النظرية بالتطبيق. كما كان السعي في اكتساب معارف ذات صلة بالعلوم الطبيعية، وتطبيقاتها، هو الذي أدى إلى التطور الكبير في الأساليب الزراعية وتقنياتها، وكان التعريف بها، ومن ثم تطبيقها، هو الهدف من وراء كتب الفلاحة.

الحواشي

- (١) Lorande Loss Woodruff, 'History of Biology', The Scientific Monthly, vol. ١٢, No. ٣, ١٩٢١, US, pp. ٢٥٣-٢٨١, pp. ٣٥٣-٥٤.
- (٢) Simon Hornblower & Antony Spawforth, eds. The Oxford Companion to Classical Civilization, Oxford, ٢٠٠٤, p. ١٢٥.
- (٣) Ibid.
- (٤) Charles Singer, Greek Biology & Greek Medicine, Oxford, ١٩٢٢, pp. ٦٠-٦١.
- (٥) Simon & Spawforth, op.cit, p. ١٢٥.
- (٦) محمد بن إسحق النديم (٣٧٧هـ/٩٨٧م)، الفهرست، تحقيق وتقديم مصطفى الشويخي، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص ٢٥٢.
- (٧) جمال الدين أبو الحسن بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، تاريخ الحكماء، تحقيق جوليوس ليبيرت، ليبسك، ١٩٠٣م، ص ٧٥.
- (٨) Simon & Spawforth, op.cit, p. ١٢٦.
- (٩) Charles Singer, op. cit., p. ٦٩.
- (١٠) ابن النديم، مصدر سابق، ص ٤١٦-٤١٩.
- (١١) القفطي، مصدر سابق، ص ٨٣.
- (١٢) Charles D. Wise, 'The Status of Biology in Alexandrian and Greco-Roman Science', The American Biology Teacher, vol. ٢٧, No. ٨, ١٩٦٥, US., pp. ٦٢٣-٦٣١; pp. ٦٢٨-٦٢٩.
- (١٣) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، كتاب النبات، أبواب من الكتاب الخامس، نشر محمد حميد الله، حيدر آباد، ١٩٥٦م، المقدمة.
- (١٤) فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة عبد الله بن عبد الله حجازي، الرياض، ١٩٨٦م، المجلد الرابع، ص ٥٠٦-٥٠٨.
- (١٥) عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم وثور العلماء العرب في تقدمه، القاهرة، ط ٩، ١٩٩٦م، ص ١٧٩.
- (١٦) حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٦م، ص ١٠٨-١٠٩، ص ١١٩، ص ١٢٣.
- (١٧) نفسه، ص ٢٢٦-٢٢٧.
- (١٨) محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٠م، ص ٣٣٨-٣٣٩.

- (١٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ج٢، ص٢١٦-٢١٩.
- (٢٠) جاء ذكر هذا الكتاب في ترجمة نيقولاؤس عند القفطي، مصدر سابق، ص٢٢٠.
- (٢١) عبد الحليم منتصر، مرجع سابق، ص٢٠٠.
- (٢٢) Charles Singer, op.cit., pp.٢٩-٣١.
- (٢٣) Islamic and Arab Contribution to the European Renaissance, issued by:
Associated Institution for The Study and Presentation of Arab Cultural Values, Calro, ١٩٧٧, pp.١٩٢-١٩٣.
- (٢٤) ابن سينا، القانون في الطب، كتاب الأدوية المفردة والنباتات، شرح جبران جهور، قدم له خليل أبو خليل، تعليق أحمد الشطي، بيروت، د.ت، المقدمة.
- (٢٥) Lorande, op.cit., p. ٢٥٧; p.٢٦٦; p.٢٨١
- (٢٦) ابن رشد، الكليات في الطب، تحقيق سعيد شيبان، وعمار الطالبي، مراجعة أبو شادي الروبي، القاهرة، ١٩٨٩م، مقدمة المحقق.
- (٢٧) هوارد تيرنر، العلوم عند المسلمين، ترجمة فتح الله الشيخ، ومراجعة أحمد عبد الله السماحي، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص١٨٤، ص١٩٠.
- (٢٨) القفطي، مصدر سابق، ص١٧١.
- (٢٩) المكتبة الصقلية، نشر ميخائيل أماري، ليبسك، ١٨٥٧م، ص٥١٢.
- (٣٠) سليمان ابن جلجل (كتب ٣٧٧هـ/٩٨٧م)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٥٥م، المقدمة.
- (٣١) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص٣٤٠.
- (٣٢) محمد العربي الخطابي، الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م، ص٢٨.
- (٣٣) ابن البيطار المالقي، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، المقدمة.
- (٣٤) هوارد تيرنر، مرجع سابق، ص١٧٤.
- (٣٥) نفسه، ص١٨٧.
- (٣٦) محمد العربي الخطابي، مرجع سابق، ص٤٢.
- (٣٧) نفسه، ص٤٥.
- (٣٨) نفسه، ص٤٤.
- (٣٩) نفسه، ص٤٨.
- (٤٠) فؤاد سزكين، مرجع سابق، ص٤٣٤.
- (٤١) Emilio Garcia Gomez, "Sobre Agricultura Arabigoandaluza," Al-Andalus, vol.١٠, ١٩٤٥, Madrid & Granada, pp.١٢٦-١٤٦; p.١٤٢, n.l.
- (٤٢) Jose M. Millas Vallicrosa, "La Traduccion Castellana del Tratado de Agricultura

de Ibn Wafid", Al-Andalus. vol. ٨، ١٩٤٣، pp. ٢٨١-٢٩٩; pp. ٢٩٥-٢٩٦.

- (٤٣) فؤاد سزكين، مرجع سابق، ص ٤٦٣-٤٦٦.
- (٤٤) Mustafa Al-Shihabi, s.v. 'Filaha', Encyclopedia of Islam, New edition, Leiden, ١٩٩١, pp. ٨٩٩ff.; p. ٩٠٠.
- (٤٥) ابن النديم، مصدر سابق، ص ٧٤٩.
- (٤٦) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، ٦ مجلدات، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ١٦٠.
- (٤٧) Simon Hornblower & Spawforth, op. cit., p. ١٩.
- (٤٨) ابن النديم، مصدر سابق، ص ٣١٣-٣١٤، ص ٢٦٣-٢٦٥، ص ٦٨٠.
- (٤٩) مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا، إعداد رمضان ششن، تقديم أكمل الدين إحسان أوغلي، استانبول، ١٩٩٧م، ص ٩٠٦.
- (٥٠) أحمد عيسى، تاريخ النبات عند العرب، القاهرة، ط ١، ١٩٤٤م، ص ٩٤-٩٩.
- (٥١) Mustafa Al-Shihabi, op.cit., p. ٩٠٠.
- (٥٢) اكسبيراثيون سانشيز، "الزراعة في أمبانيا الإسلامية"، بحث منشور في كتاب "العضارة العربية الإسلامية"، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م، المجلد الثاني، ص ١٣٦٨.
- (٥٣) نفسه، ص ١٣٧٢.
- (٥٤) أحمد مختار العبادي، "الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي"، بحث ندوة الأندلس - الدرس والتاريخ - كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص ١٠٧-١٢٩، ص ١٢٧.
- (٥٥) نفس المكان.
- (٥٦) اكسبيراثيون سانشيز، مرجع سابق، ص ١٣٧٣.
- (٥٧) نفسه، ص ١٣٧٤.
- (٥٨) أحمد مختار العبادي، مرجع سابق، ص ١٢٧.
- (٥٩) Jose Vallicrosa, op. cit., pp. ٢٩٤-٢٩٥.
- (٦٠) Emilio G. Gomez, op. cit., pp. ١٣٥-١٣٦; ١٣٩.
- (٦١) أحمد مختار العبادي، مرجع سابق، ص ١٢٨.
- (٦٢) اكسبيراثيون سانشيز، مرجع سابق، ص ١٣٧٥.
- (٦٣) Jose. M. vallicrosa, 'La Traducccion Castellana del 'Tratado de Agricultura' de Ibn Bassal', Al- Andalus, vol. ١٣، ١٩٤٨، pp. ٣٤٧-٣٥٥; p. ٣٥٣.
- (٦٤) J. Esteban H. Bermejo & Expiracion G. Sanchez, "Economic Botany and Ethnobotany". Al-Andalus", Economic Botany, vol. ٥٢، no: ١، ١٩٩٨، pp. ١٥-٢٦; p. ٢٠; p. ٢٤.

- (٦٤) Jose M. Vallicrosa, op. cit., p. ٢٩٥.
- (٦٥) Emilio G. Gomez, op. cit., p. ١٣٥.
- (٦٦) J. Esteban & Expiración, op. cit., p. ١٩.
- (٦٧) عبد الحليم منتصر، مرجع سابق، ص ١١٧، ١١٨، ١٢٠.
- (٦٨) John H. Harvey, 'Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain.' Garden History, vol. ٣, no:٢, ١٩٧٥, pp. ١٠-٢١; pp. ١٢-١٣.
- (٦٩) Simon Hornblower & A. Spawforth, op. cit., p. ١٩.
- (٧٠) عبد الحليم منتصر، مرجع سابق، ص ١١٧-١١٨؛ Emilio G. Gomez, op. cit., p. ١٣٦, p. ١٣٩.
- (٧١) أحمد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٢٠٨-٢٠٩.
- (٧٢) نفسه، ص ٢١٠-٢١١.
- (٧٣) اكسبيراثيون سانشيز، مرجع سابق، ص ١٣٧٩.
- (٧٤) أبو بكر محمد بن الحسن الكرخي، كتاب إنباط المياه الخفية، تحقيق بغداد عبد المنعم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٧م، المقدمة.
- (٧٥) M. I. Finley, "Technical Innovations and Economic Progress in the Ancient World" The Economic History Review, vol. ١٨, no. ١, ١٩٦٥, pp. ٢٩-٤٥; pp. ٣٥-٣٧.
- (٧٦) أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص ١٤٦ وما بعدها.
- (٧٧) خوان فيرنيه، العلوم الفيزيائية والطبيعية والتقنية في الأندلس، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٣٠٢.
- (٧٨) Franz Rosenthal, The Classical Heritage in Islam, trans. E & J. Marmorstein, London, ١٩٧٥, pp. ١٦٢ ff
- (٧٩) ابن النديم، مصدر سابق، ص ٣١٣.
- (٨٠) اكسبيراثيون سانشيز، مرجع سابق، ص ١٣٦٩.
- (٨١) محمد حامد محمد، الميتورولوجيا، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ٣.

الدور العسكري لأبناء مَقرن في صدر الإسلام

٥-٢٢٢هـ / ٦٢٦ - ٦٤٢ م

د. عوض سعد محمد عيسى (*)

تمهيد

هذا البحث يلقي الضوء على الدور العسكري لأبناء مَقرن ، وينقسم إلى تمهيد: يبين نسبهم ، وموقع ديارهم وحياتهم قبل دخولهم الإسلام ، و مبحثين: المبحث الأول: يوضح عددهم والمكرمة التي نالوها في الإسلام ، ثم اشتراكهم في الغزوات بدءاً من غزوة الخندق ، والمبحث الثاني يتتبع دورهم العسكري في حروب الردة وفتح العراق وفارس.

ينسب أبناء مَقرن إلى قبيلة مزينة ، ومزينة هي: أم عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان^(١). وسمي عمرو بن أد باسمها ، وهي مزينة بنت كلب بن وبرة ابن تغلب بن حطان من قضاعة ، وقد أنجب عمرو ولدين: عثمان وأوسا ، فكل من جاء من نسبهما سمي مزينة ، ومن نسل عثمان جاء حبشية بن كعب ومن حبشية جاء أبناء مَقرن^(٢).

وكانت مساكن مزينة بين المدينة ووادي القرى ، إلى الجنوب من ديار بلى ، وهي في الشرق من منازل "جهينة" ، وإلى الغرب من ديار "سعد" ، وإلى الشمال من بلاد "خزاعة"^(٣).

ومن ديارهم وقراهم: فيحة الروحاء - تبعد عن المدينة واحداً وأربعين ميلاً والعق: وتقع بحذاء سقيا مزينة، والعطش، وهو موضع خلف المدينة وله ذكر في المغازي، وكذلك: فيف، ودهماء مرضوض، والجوار، وألاب، والأكاحل، والأحوص، وكذلك ثبير^(٤).

ومن أوديتهم: ثور، وشس، وصوري، وظير، وقرار، ورثم، وشمس ولاي، ويدوم، وساية وهو وادٍ عظيم به أكثر من سبعين بئراً، وأشهر الأودية هناك: العقيق، حيث كان وادياً كبيراً، وفيه بئر على مقربة منه، وهو مجموعة كبيرة من الأودية شققها السيول^(٥).

(*) مدرس بقسم التاريخ والحضارة - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر.

ومن أشهر الجبال هناك^(٦): جبل خشوب، وروادة، والعرجاء، وجبل غراب الذي قال عنه ابن هشام^(٧) في غزوة النبي - ﷺ - لبنى لحيان: خرج من المدينة فسلك على غراب وهو جبل من منازل مزينة، وجبل قلس، وآره، وميطان، وقُدس، ونهبان، وعينب^(٨).

حياتهم الاقتصادية قبل البعثة:

هي حياة معظم القبائل في شبه الجزيرة العربية، حياة بدوية قائمة على تربية المواشي، والترحال من مكان إلى آخر تبعاً لوفرة الماء والكلأ لرعاية مواشيهم، بينما تقوم منتجاتهم على ما تنتجه حيواناتهم من: ألبان، وأصواف، ولحوم، حيث كانت تتم المقايضة مع أبناء الحواضر، وهذه الحياة كانت عاملاً مشتركاً لجميع أبناء القبائل في الجزيرة العربية^(٩).

وكانت حياة مزينة دينية في الجاهلية وثنية، وهي حياة معظم القبائل العربية قبل الإسلام، فكانت تعبد الأصنام وأشهرها صنم يقال له "تهم" وبه كانت تسمى "عبد تهم"، وكان سادته يسمى - خزاعي بن عبد تهم^(١٠) فلما سمع بظهور النبي - ﷺ - ثار إلى الصنم فكسره، ولحق بالرسول وأعلن إسلامه^(١١).

ثم قدم النعمان بن مقرن على رأس وفد مزينة إلى النبي - ﷺ -، وقد بلغ عددهم أربعمائة رجل، ولابد أن أبناء مقرن جميعاً كانوا ضمن هذا الوفد، وهو أول وفد يفد على الرسول من مضر، وتاريخ وفوده في شهر رجب من العام الخامس الهجري^(١٢) فعن النعمان بن مقرن قال: ^(١٣) قدمنّا على رسول الله - ﷺ - أربعائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال: يا عمر: "رود القوم" فقال: ما عندي إلا شيء من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعا، قال: "انطلق فزودهم"، قال: فانطلق بهم عمر، فأدخلهم منزله ثم أصعدهم الطابق الثاني، فلما دخلوا إذا فيه من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم. قال النعمان: فكنت آخر من خرج فنظرت فما أفقد موضع تمرّة من مكانها.

وكان الرسول - ﷺ - قد جعل لهم الهجرة في دارهم، وقال "أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم". فرجعوا إلى بلادهم وأموالهم.

ولا شك أن هذا الذي حدث في بيت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لهو إحدى معجزات النبي - ﷺ -، حيث أخذ القوم حاجتهم من التمر وبقي كما هو بشهادة شاهد عيان، وهو الصحابي الجليل: النعمان بن مقرن رضي الله عنه.

وضع مزينة العسكري:

يبدو أن مزينة - قبل البعثة - كان عندها من القوة ما جعلها تدخل في أحلاف عسكرية مع غيرها أثناء الحروب، يتضح هذا من حرب "يوم بعاث"^(١١) حين انضمت للأوس ضد الخزرج، وكان يقودهم آنذاك "مقرن" والد أبناء مقرن^(١٢) موضوع بحثنا.

المبحث الأول: دور أبناء مقرن في الغزوات :

حول عددهم وفضلهم :

وأبناء مقرن: النعمان بن مقرن^(١٣)، وسويد^(١٤)، ونعيم^(١٥)، وسنان^(١٦) معقل^(١٧) وعقيل^(١٨) وعبد الرحمن^(١٩).

قال صاحب كتاب الشذا الفياح^(٢٠) هؤلاء هم بنو مقرن "المزينون، سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله - ﷺ - ولم يشاركهم فيما ذكر ابن عبد البر وجماعة - في هذه المكرمة غيرهم، وقد قيل إنهم شهدوا موقعة الخندق كلهم.

غير أنه - بعد البحث - اتضح أنهم لم يكونوا سبعة فقط، فكان هناك ضرار بن مقرن^(٢١).

وكذلك عبد الله بن مقرن^(٢٢) وسعيد بن مقرن^(٢٣).

هؤلاء عشرة، وزاد ابن حجر العسقلاني اثنين وهما: معاوية بن مقرن^(٢٤) وسواد بن مقرن^(٢٥) بينما زاد آخر^(٢٦) واحداً وهو: هند بن مقرن.

وبهذا يكون آل مقرن أحد عشر رجلاً كلهم صحبوا النبي - ﷺ -، وإنما اشتهر كونهم سبعة لما في صحيح مسلم من حديث سويد بن مقرن، قال "لقد رأيتني سبع سبعة من بني مقرن ما لنا خادم إلا واحدة، فلطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله - ﷺ - أن نعتقها"^(٢٧).

ويحتمل: أن من أطلق كونهم سبعة، أراد من هاجر منهم.

وأعتقد: أن سبب شهرة هؤلاء السبعة من أبناء مقرن، دون غيرهم من الإخوة، اشتهارهم في ساحات المعارك والغزوات والفتوح، فبمجرد دخول هؤلاء السبعة في الإسلام، في العام الخامس الهجري، اشتركوا في الغزوات وأولها "غزوة الأحزاب" التي وقعت في نفس العام الذي أعلنوا فيه إسلامهم، هذا بالإضافة إلى أن معظم فتوحات العراق وفارس كانت على أيديهم، كما سنوضح بعد ذلك إن شاء الله.

أما عن فضلهم: فقد ذكر بعض أصحاب كتب تراجم الصحابة^(٢٨) أن أبناء مقرن إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله - ﷺ - ولم يشاركهم في هذه المكرمة غيرهم.

ومما ورد في فضل مزينة - وفيهم آل مقرن - قوله - ﷺ - "مزينة وجهينة وأسلم وغفار؛ خير من بني تميم وأسد وغطفان ومن بني عامر بن صعصعة".

ولقد اجتمع الرسول - ﷺ - بأصحابه من المهاجرين والأنصار، ويبدو أن الاجتماع كان سراً للغاية، لذلك قال لهم "هل فيكم من ليس منكم؟ قالوا: لا إلا ابن أخت لنا، فقال: ابن أخت القوم منهم" والمعنى بـابن أخت القوم منهم: النعمان بن مقرن، والحديث يدل على أن بين النعمان وباقي الصحابة ارتباطاً وقرابة، وسياق الحديث يقتضي أن المراد أنه كالواحد منهم في إفشاء سرهم بحضرته ونحو ذلك، وهذه ثقة كبيرة من الرسول - ﷺ - في النعمان وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - "إن للإيمان بيوتاً، وإن بيت آل مقرن من بيوت الإيمان"^(٣٢)

دورهم في الغزوات

ارتبط إسلام آل مقرن بقدوم وفد مزينة على الرسول - ﷺ - في العام الخامس الهجري، وبمجرد إشهار إسلامهم بدأوا يشتركون مع إخوانهم المسلمين في العمليات العسكرية ضد الأعداء، وكان أولها كما يذكر معظم المؤرخين^(٣٣) غزوة الأحزاب في العام الخامس الهجري.

ومما يذكر حول هذه الغزوة: أن الرسول - ﷺ - جعل أربعين ذراعاً من الخندق بين كل عشرة، فوقع نصيب النعمان بن مقرن مع تسعة من كبار الصحابة^(٣٤)، فلما حفرُوا عرضت لهم صخرة كبيرة عجزوا عن كسرها أثناء الحفر، فذهب النعمان بن مقرن لاستشارة النبي - ﷺ - في ذلك، وحين حضر ضربها ثلاث ضربات ففتها، وقال إثر الضربة الأولى: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضربها الثانية، فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة^(٣٥).

وفي صلح الحديبية وأثناءبيعة الرضوان سنة ٦هـ:

يظهر دور النعمان بن مقرن، فعن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لابن عمر: أشهدتبيعة الرضوان مع رسول الله - ﷺ -؟ قال: نعم، قلت فما كان عليه؟ قال: قميص من قطن وجبة محشوة ورداء وسيف، ورأيت النعمان بن مقرن المزني قائماً على رأسه، قد رفع أغصان الشجرة عن رأسه والناس يبائعونه^(٣٦) وقد انتهى الأمر إلى عقد صلح الحديبية بعد ذلك.

وفي العام الثامن الهجري: أصيبت قريش بحالة جمود في إدارة سياستها؛ جطتها غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية،

وقد جرّها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغوّاً، وذلك أنها - مع حلفائها من بني بكر - هاجموا خزاعة - وهي مع المسلمين في حلف واحد - وقتلّوهم فأصابوا منهم رجالاً، فأمر الرسول - ﷺ - أصحابه بالتجهز للغزو ولم يعظمهم بوجهته، وقد استنفر القبائل التي حول المدينة ومنها مزينة، وكان الذي قام بحشد مزينة: بلال بن الحارث، وعبد الله بن عمرو المزني، بالإضافة إلى النعمان بن مقرن^(٣٧).

قال الواقدي: وكان النعمان بن مقرن أحد من حمل أُلوية رسول الله - ﷺ - لذلك وجدناه يقود مزينة يوم فتح مكة حين دفع إليه الرسول اللواء، وكان تحت لواء النعمان يومئذ حوالي ألف مقاتل، ومائة فارس، ومعهم مائة دارع شاركوا إخوانهم المسلمين فتح مكة.

وبنفس التشكيل العسكري الذي خاضت به مزينة الفتح، دخلت به معركة حنين في العام الثامن الهجري، وكانت بين المسلمين من ناحية وهوازن وثقيف من ناحية أخرى، غير أن النبي - ﷺ - جعل مزينة في مقدمته، يقودهم ويحمل رايتهم النعمان بن مقرن^(٣٨).

وفي العام التالي مباشرة - التاسع الهجري - عزم رسول الله - ﷺ - على قتال الروم الذين كانوا يفكرون في غزو المدينة المنورة، لأنهم أقرب الناس إلى حدود دولته، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين"^(٣٩).

لذلك: كانت غزوة تبوك، وسميت - أيضاً - بغزوة العسرة، لما أصاب المسلمين من الضيق الاقتصادي وقتها.

وعلى الرغم من تسابق الصحابة للإسهام في تمويلها، إلا أن الأمر بلغ بأناس ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج، إلى حد البكاء شوقاً للجهاد وتخرجاً من القعود حتى نزل فيهم قرآن "... ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون"^(٤٠).

فقد رأى بعض المفسرين لهذه الآية أنها نزلت في البكائين الذين قصرت بهم النفقة عن الجهاد، وأن المقصود بالبكائين أبناء مقرن الذين كانوا متشوقين للقتال في هذه الغزوة، وقد كانوا سبعة: النعمان، ومعقل، وعقيل، وسويد، وسمان، وعبد الرحمن، ونعيم^(٤١).

وقد قال القرطبي: "نزلت في بني مقرن، وعلى هذا جمهور المفسرين وكانوا سبعة إخوة كلهم صحبوا النبي - ﷺ -، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم.

ومال بعض المفسرين إلى قول مجاهد بأن البكائين أبناء مقرن، لكن ثلاثة منهم فقط وليس السبعة، والثلاثة هم: معقل بن مقرن، وسويد، والنعمان، سألوا النبي - ﷺ - أثناء الاستعداد لغزوة تبوك أن يحملهم على الخفاف المدبوغة والنعال المخصوفة، فقال "لا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا وهم يبكون.

وحين رآهم بعض الصحابة خارجين من عند الرسول وهم يبكون سألوهم عن سر بكائهم، واتضح أن السبب هو عدم استطاعتهم الخروج بسبب الفقر، وهم يكرهون أن تفوتهم غزوة مع رسول الله، فتعاون البعض ووفر لهم الزاد والراحلة فخرج البعض في الغزوة، ولم يستطع الباقون الاشتراك في هذا الجهاد فبقوا في المدينة^(١٢).

والواضح من الروايات المختلفة أن السبعة تسابقوا في الذهاب إلى الجهاد، لكن في النهاية لم يستطع اللحاق بالجيش إلا ثلاثة منهم، وقد خص النبي - ﷺ - هؤلاء المتخلفين المعذورين ممن حسنت نياتهم بقوله "إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر"^(١٣).

إنها لصورة مؤثرة للترغبة الصحيحة في الجهاد، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه، وإنها لصورة جميلة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين من أيام الرسول - ﷺ - وأود أن أقول: يمثل هذه الروح انتصر الإسلام، ويمثل هذه الروح عزت كلمته، فلننظر أين نحن من هؤلاء.

ولم لا وقد مدح الله تعالى أبناء مقرن في كتابه العزيز حين قال "ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته والله غفور رحيم".

عن مجاهد قال: المقصود بالممدوحين في الآية من الأعراب هم بنو مقرن، وهم الذين قال الله فيهم "ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت... الآية".

ومما جاء حول هذه الآية^(١٤) أن النعمان بن مقرن جاء بغنم يسوقها للنبي - ﷺ - فنزلت الآية.

المبحث الثاني: دورهم العسكري في حروب الردة وفتح العراق وفارس

١- دورهم في حروب الردة :

أبناء مقرن أبطال معركة ذي القصة^(٤٥) :

توقع أبو بكر الإغارة على المدينة من قبل المرتدين، بعد وفاة الرسول ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١هـ/٦٣٢م، فجعل على مداخل المدينة أربعة من كبار الصحابة، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد خوف الإغارة من العدو لقربهم، وبالفعل طوق المعتدون المدينة ليلاً وحاولوا اقتحامها من الداخل، إلا أن المقاتلين المسلمين منعواهم من دخولها، ليس هذا فحسب بل أتبعهم أبو بكر على رأس قوة حتى أبعدوهم عن المدينة تماماً، وبعد عدة اشتباكات عاد المسلمون للمدينة^(٤٦).

ظن الكفار بالمسلمين الوهن بعد انسحابهم إلى المدينة، فقد انضم إلى رجال طليحة الأسدي غيرهم من أصحابه، فبات أبو بكر يعين الجيش، ثم خرج ليلاً لقتال الأعداء، وجعل على ميمنته: النعمان بن مقرن، وعلى ميسرته: عبد الله بن مقرن أخو النعمان، وعلى الساقة "المؤخرة": أخوهما سويد بن مقرن وخرجوا من آخر الليل، فما طلع الفجر إلا وهم والمشركون في صعود واحد، ما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فما بزغت الشمس حتى ولوا الأدبار وغلب المسلمون المرتدين على أرضهم، واتبعهم أبو بكر حتى نزل "بذي القصة"، فوضع فيها النعمان بن مقرن على رأس حامية، ثم عاد إلى المدينة.

وقد كانت هذه الموقعة صغيرة ولكن كان للنصر الذي حدث شأن كبير، ووقع عظيم في النفوس، وقد ازداد المسلمون في المدينة، وفي كل قبيلة، بهذا الانتصار عزاً وثباتاً على دينهم، بعد أن كان المرتدون يتحدثون - فيما بينهم - بقلة عدد المسلمين. وعلى أثر هذا الانتصار^(٤٧) أقبل كثير من وفود القبائل تؤدي زكاتها إلى خليفة رسول الله، معتنين التزامهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وحين وثب المشركون في كل قبيلة يقتلون المسلمين الثابتين على دينهم، ويمثلون بهم، حلف أبو بكر ليقبض في كل قبيلة بمن قتل من المسلمين، لذلك: حين قدم أسامة وجيشه بعد أربعين يوماً من مخرجه - وقيل بعد سبعين - عقد أبو بكر أحد عشر لواءً، وجهها إلى المرتدين في مواطنهم في أرجاء شبه الجزيرة، وكان ضمن هذه الأكوية: لواء عقد لسويد بن مقرن، وكانت وجهته إلى تهامة باليمن^(٤٨).

٢- دورهم في فتح العراق

بعد انتهاء حروب الردة سار المثنى بن حارثة الشيباني^(٤٩) حتى قدم المدينة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وطلب منه التصريح بعمليات حربية ضد العراق تنطلق من البحرين موطن المثنى وقبيلته، وهي منطقة قريبة من أرض العراق، وكان المثنى - بمن معه من المسلمين - قد طاردوا المرتدين في هذه المنطقة حتى دخلوا

جنوب العراق، الأمر الذي شجع المثنى على التوغل في تلك المنطقة، وحين قبل أبو بكر ذلك رجع المثنى فجمع قومه وأخذ يغير على أسفل العراق، تارة على نواحي كسكر فيما بين دجلة والفرات، وتارة على أسفل الفرات، ويعد هذا بداية اكتساح المسلمين لجنوبي العراق^(٥٠).

وقد نظر أبو بكر - بعد الأخبار التي وصلتته بإحراز المثنى انتصارات هناك - إلى موضوع العراق نظرة أخرى، وأسند قيادة فتحه للبطل/ خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وكان أبناء مقرر ضمن جيوش خالد التي فتحت العراق.

أبناء مقرر في فتح الأبله ١٢هـ / ٦٣٣م

كان أمير الأبله "هرمز" من أبرز قادة الفرس، وقد دعاه خالد إلى واحدة من ثلاث: الإسلام، أو عقد الذمة، أو القتال، فكانت الثالثة، واستعد الفرس وربطوا بعضهم بعضاً بالسلاسل حتى لا يفروا، فسميت أيضاً "بذات السلاسل".

وطلب هرمز خالداً للمبارزة، مبيتاً الخيانة والغدر، إذ اتفق مع أصحابه على الغدر به، وبرز له خالد، وتضارباً فاحتضنه خالد، ولكن حامية هرمز حملت عليه غدراً، فلم يكثر خالد وقتل هرمز وسلبه، فحمل المسلمون وفيهم القعقاع بن عمرو التميمي عليهم، وانهزم أهل فارس وفر الباقون^(٥١).

سويد بن مقرن قائداً لمؤخرة الجيش

وبعد أن سيطر الجيش الإسلامي على "الأبله" وما حولها من القرى^(٥٢) نظر خالد فرأى أن الأبله التي يريد أن يخلفها وراء ظهره ليتقدم نحو "الحيرة"^(٥٣) منطقة لها أهميتها الاقتصادية القصوى وخطرها الاستراتيجي، فهي أكبر ثغور فارس البحرية وهي مدخل السفن إلى دجلة وإلى الفرات، فضلاً عن أنها باب يمكن السير منه إلى الحيرة، ومنها يمكن أن تتوغل القوات الإسلامية في باقي قرى فارس، وهذا كله قد يدفع الفرس إلى محاولة استردادها^(٥٤).

لذلك وتأميناً لسلامة قواته، وضع خالد حاميات مناسبة تجاه كل تلك المداخل، حتى تكون نقطة لما عسى أن يأتي منها^(٥٥).

وتنتهي قيادة هذه الحاميات جميعاً إلى سويد بن مقرن، الذي تولى جباية الجزية وجمع السبي عن طريق عماله الذين انتشروا في المنطقة لأجل ذلك، وكذلك نزل سويد "الحفير" في موقع خلفي متوسط بأطراف الصحراء ليجعلها قاعدة له، وليحمي ظهر جيش المسلمين المتقدم، وعلى الجملة: كانت الحاميات التي تولى قيادتها سويد بن مقرن أشبه بنقط الحدود تشرف على منافذ المنطقة وتقف عليها، وينظر بعضها إلى بعض^(٥٦).

ويبدو أن اختيار سويد بن مقرن لهذه المهمة، وهي قيادة مؤخرة جيش المسلمين - ثم تأت من فراغ، فقد سبق أن ذكرنا أن سويداً كان قائداً لمؤخرة جيش المسلمين الذي خاض معركة "ذي القصة" ضد المرتدين مع أبي بكر، وقد أثبت شجاعة في ذلك، مما جعل أبا بكر يختاره قائداً لأحد الفيالق التي تحركت لقتال المرتدين.

وكان لأبناء مقرن إسهام في فتح الحيرة ١٢هـ/٦٢٣م

كان ذلك في سنة ١٢هـ/٦٢٣م، حين وصلها الجيش الإسلامي فوجد أهلها في قصورهم - وكانت أربعة - متحصنين، فأمر خالد بحصارهم، وعين لكل قصر قائداً من قادته على رأس كتيبة من جنده^(٥٧).

أوكل لضرار بن مقرن حصار أحد القصور الأربعة وهو "قصر بني مازن"، وفيه: جيري بن أكال، وطلب خالد من ضرار - كما طلب من القادة الآخرين - دعوة جيري بن أكال إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، فاختر القتال.

وبعد انتهاء المهلة التي منحها خالد لأهل الحصون - وكانت يوماً - نشب القتال مع كل الحصون، فشدد ضرار بن مقرن في حصاره للقصر، واشتبك مع من فيه، وحين أدركوا أن لا جدوى من المقاومة واستمرار القتال، وانسحاب القوات الفارسية من الحيرة، نادى العرب الموجودون "يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بها وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً".

بعد توقف القتال: خرج جيري بن أكال من قصر بني مازن وسلم نفسه إلى ضرار بن مقرن، فقام بإرساله إلى خالد، بينما ظل هو ومن معه على مواقعهم محاصرين القصر^(٥٨).

ويذكر بعض المؤرخين^(٥٩) أن معقل بن مقرن - أحد الإخوة للنعمان - كان له أيضاً دور أثناء فتح الحيرة، وهو الذي عين على الأموال والسبي.

وهكذا - بعد أن استسلمت باقي الحصون للمسلمين - فتحت الحيرة أبوابها لهم، وازداد الأمل أمامهم في فتح العراق المحتل من الفرس كله - وضمه إلى الدولة العربية الإسلامية الناشئة^(٦٠).

واتخذ خالد الحيرة مقراً لقيادته، فكانت أول عاصمة إسلامية خارج الجزيرة العربية، وأول عاصمة من عواصم الأقاليم التي يحكمها بنو ساسان تسقط في أيدي المسلمين.

وقد أقام خالد - رضي الله عنه - سنة بعاصمته الجديدة، وصفها بأنها "سنة كأنها سنة نساء" فقد كان تواقاً إلى مواصلة القتال، إلا أن أبا بكر كان قد أمره ألا يبرح

الحيرة، أو يوغل في الفتح، ولذلك بعث خالد بعسال للجباية وبلغ عددهم خمسة، وكان منهم سويد بن مقرن حيث كانت وجهته مدينة "تستر" شرقي دجلة، فأشرف على جبايتها^(٦١).

أما ضرار بن مقرن فكان أحد أمراء الثغور الذين هم قواد الحاميات ؛ وكذلك أخوه سويد.

ثم أدخل خالد على تنظيم قواته وأمرائه على الثغور بعض التعديلات، فقسم ما فتح من العراق أحد عشر قسماً، سبعة بالحيرة، تولى ضرار بن مقرن قسماً منها، وكان أمراء الأبله أربعة، فتولى سويد بن مقرن إدارة شئون قسم منها^(٦٢).

وفي معركة القادسية^(٦٣) ١٤هـ / ٦٣٥م

لم تسلط الأضواء على أبناء مقرن في العمليات العسكرية في العراق، التي وقعت بين معركتي الحيرة والقادسية^(٦٤) حيث اتجه اهتمام المؤرخين - كعادتهم - إلى القادة المشهورين، ولا شك أن معركة القادسية تقع على قمة المعارك الحاسمة، ليس في تاريخ المسلمين وحدهم، وإنما في تاريخ العالم، فهي التي انفتحت على آثارها أبواب العراق، ومن وراء العراق فارس كلها، فسقطت الإمبراطورية الفارسية من الناحيتين الحربية والسياسية، وسقطت المجوسية من الناحية الدينية، ومن هنا انتشر الإسلام في العالم شرقاً وغرباً.

<http://Archive.360chrit.com>

وفي هذه المعركة حشد الفرس حوالي مائة وعشرين ألفاً، يتقدمهم عدد من الفيلة بلغ ثلاثة وثلاثين فيلاً، ويقود هذا الجيش الكبير أشهر قادة الفرس، وهو "رستم".

وفي ذات الوقت: استطاع المسلمون حشد جيش بلغ ستة وثلاثين ألفاً، يقوده الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -، وعلى الرغم من أن العدد يقل كثيراً عن عدد جيش الفرس؛ إلا أنه يعد أضخم جيش إسلامي عبأه المسلمون لغزو العراق^(٦٥).

وقبل أن ينشب القتال بين الطرفين، بعث عمر إلى سعد - رضي الله عنهما - أن يرسل وقداً إلى يزيد جرد ملك الفرس يعرض عليه: الإسلام أو الجزية أو القتال "وابعث إليهم رجالاً من أهل النظر والرأي والجلد يدعونهم..."^(٦٦).

فاختار سعد - رضي الله عنه - أربعة عشر داعية^(٦٧) وقائدهم النعمان بن مقرن، والملاحظ على هؤلاء الناس: أنهم من سادات القوم، كي يستطيعوا دعوة يزيد جرد بالحكمة والموعظة الحسنة، لعل الله يهديه هو وجنده للإيمان وتحقق دماء الطرفين.

ولقد كان هذا الوفد منتقى على درجة عالية من الكفاية والقدرة لما أوفد له، وكان يتمتع بميزتي الرغبة والرغبة التي تتوافر في جسامتهم ومهابتهم وجلدهم وشدة ذكائهم.

وتحرك هذا الوفد الميمون بقيادة النعمان بن مقرن، وأدخلوا على ملك الفرس، فسألهم بواسطة ترجمانه، ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا؟ فأجابه النعمان مبيناً بعثة الرسول - ﷺ -، وتاريخ الدعوة الإسلامية، وأهدافها وموقف العرب منها، واتضواءهم تحت لوائها، و"أن الرسول أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر الشرين هو أهون من آخر أشد منه: الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتكم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم وإلا قاتلناكم"، فغضب يزدجرد وقال "كولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي"، وهددهم بإرسال رستم إليهم ليدفنهم في خندق القادسية^(٦٨).

وجدير بنا أن نلاحظ في هذا البيان الرائع: أن التحرك لبداية الآخرين بالدعوة إلى الإسلام هو خصيصة ذاتية من خصائص هذا الدين، يدل على ذلك قول النعمان بن مقرن الأنف الذكر: "ثم أمرنا النبي - ﷺ - أن نبدأ بمن يلينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف" وفيه دليل على أن الحرب في الإسلام ليست دفاعية فقط، ولكنها قد تكون حرباً لإزالة العقبات من طريق الدعوة الإسلامية لتهيئة المناخ المناسب لدخول الناس في دين الله تحقيقاً لسعادتهم الحقيقية في العاجلة والآجلة، وأنه ينبغي أن ينشر المسلمون دعوتهم في إطار من القوة، كما فعل هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم.

وقد خاض النعمان بن مقرن معركة القادسية مع إخوانه المسلمين، واستمرت أربعة أيام، كانت المعارك سجالات بين الطرفين في البداية، إلى أن حسمها المسلمون بعد مقتل القائد الفارسي "رستم" وقرار باقي الجنود، وقد استشهد فيها قرابة ثمانية آلاف من المسلمين، وقتل من الفرس ثلاثون ألفاً.

وقد قال النعمان شعراً بمناسبة هذا النصر العظيم قال:

نزلنا بأحساء العذيب ولم تكن لنا همة إلا اختيار المنازل

لنحوى أرضاً أو تناهب غارة يضح لها ما بين بصري وبابل^(٦٩)

وفي هذا الصدد؛ يذكر أن النعمان بن مقرن هو الذي قدم على الخليفة عمر بشيراً بنصر المسلمين في القادسية^(٧٠).

كذلك شارك أبناء مقرن المسلمين فتح "المدائن" (٧١) :

حيث لم يحدث فيها قتال كثير، فقد انسحب يزدجرد بعيله وتبعه أهل المدائن، واستسلمت البقية الباقية من الفرس للمسلمين، وقد غنم المسلمون ما تركه الفرس وما في خزائن كسرى من أموال وذخائر كثيرة، فجمعها سعد - رضي الله عنه - وولى أمرها النعمان بن مقرن (٧٢).

هذا وقد وقف المسلمون بحركة الفتح شرقاً عند نهاية العراق العربي (٧٣) وذلك بأمر من الخليفة بعدم التقدم إلى ما وراءها، كي لا يتورط المسلمون فيما لا يعرفون مسالكه من البلاد، وحتى يتمكنوا من توطيد أقدامهم في المناطق التي استولوا عليها من الفرس. وبعد تقسيم غنائم القادسية ولى الخليفة عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص على ما غلب عليه، وولى النعمان وسويد "ابني مقرن" الخراج، سويداً على ما سقى الفرات، والنعمان على ما سقى دجلة، ثم استعفيا وقالوا: اعفنا من عمل يتغول علينا ويتزين لنا فأعفاهما (٧٤).

إلا أن عمر كان مقتنعاً تماماً بقيادة أبناء مقرن، فأسند حكم مدينة كسكر (٧٥) للنعمان، إلا أنه لم يمكث فكتب إليه "يا أمير المؤمنين اعزلني عن كسكر وابعثني في بعض جيوش المسلمين، فإنما مثل كسكر مثل مومسة تعطر وتزين في اليوم مرتين" فعزله، فكان عمر إذا ذكر النعمان بن مقرن بعد موته يقول: "يا لهف نفسي على النعمان" (٧٦).

<http://Archivebee4.Seehric.com>

٣- دورهم في فتح فارس:

بعد اشتراك أبناء مقرن في الغزوات - بدءاً من الخندق - ، وفي حروب الردة، وفي فتوح العراق ، اشتركوا - أيضاً - في فتح فارس ، وفي كل هذا كان منهم قادة ميدانيين ، ومن المعارك التي تولوا قيادتها في فارس:

فتح الأهواز (٧٧) سنة ١٧هـ / ٦٣٨م

ويرجع سبب فتحها إلى: أن يزدجرد، ملك الفرس، كتب إلى أهل فارس يدعوهم إلى التعاون مع أهل الأهواز ضد المسلمين قائلاً "قد رضيتم يا أهل فارس أن قد غلبتكم العرب على السواد وما ولاه والأهواز، ثم لم يرضوا بذلك حتى توردوكم - غزوكم - في بلادكم، وعقر داركم، فتحركوا أهل فارس تنصروا"، فتكاتب أهل فارس وأهل الأهواز، وتعاهدوا على العمل المشترك ضد المسلمين (٧٨).

وحين نقل سعد إلى عمر - رضي الله عنهما - هذه الصورة؛ كتب إليه أن يبعث إلى الأهواز جيشاً كبيراً من أهل الكوفة يقوده النعمان بن مقرن، وجيشاً مثله من أهل البصرة يقوده أبو موسى الأشعري (٧٩).

اتجه النعمان بجيشه صوب الأهواز، حيث يتحصن الهرمزان - حاكم الأهواز - برامهرمز^(٨٠) فلما سمع بمسير النعمان إليه التقاه على رأس جيش في أربك بناحية رامهرمز واشتد القتال بين الجيشين، وتراجع الهرمزان إلى رامهرمز ثم إلى تستر، فاستولى النعمان على رامهرمز ثم تحول إلى ايزج فهاجمها، فصالحه أهلها عليها، ورجع إلى رامهرمز فأقام بها في انتظار أوامر جديدة^(٨١).

وفي تستر تحصن الهرمزان بأسوارها وبروجها، واجتمع جيش الكوفة بقيادة النعمان بن مقرن بجيش البصرة، وعليه أبو موسى الأشعري، وتوجه الجميع لحصار الهرمزان في قلعة تستر، واستمر المسلمون في محاولاتهم لقهر قوة الهرمزان دون فائدة، بل كانوا يتعرضون لخسائر فادحة نتيجة لخروج الفرس من مواقعهم ومهاجمتهم، ثم العودة إلى الحصن، وبلغت المعارك في تستر ثمانين معركة، مرة ينتصر الفرس، وأخرى ينتصر المسلمون^(٨٢).

وحين طالت الحرب، وشدت المسلمون حصارهم، جاء رجل من أهل تستر إلى النعمان وطلب منه الأمان لنفسه على أن يدل المسلمين على مكان يكون منه فتح المدينة، ودله الرجل على مدخل الماء للمدينة، فندب أبو موسى مجموعة من جند البصرة، وندب النعمان مجموعة من جند الكوفة، والتقت المجموعتان ليلاً عند مخرج الماء، ودخلوا المدينة من سرب يجرى إلى جانب مدخل الماء، وقتلوا الحراس ثم علوا الأسوار وكبروا، وكبر المسلمون من الخارج وفتحت الأبواب، واشتبكوا مع الفرس وهزمهم بإذن الله. وحين سمع الهرمزان التكبير تولاه الفرز، وتوجه إلى القلعة وتحصن بها وهو يردد جزعاً "ما دل العرب على عورتنا إلا بعض من معنا ممن رأى إقبال أمرهم وإدبار أمرنا"^(٨٣).

وفتح المسلمون أبواب المدينة، واضطربت أمور الفرس داخلها، حتى إنهم كانوا يقتلون أولادهم وأهلهم خوفاً من أسرهم على أيدي المسلمين، وأحاط النعمان بالهرمزان في القلعة، ثم سلم نفسه، فبعثوا به إلى عمر في المدينة^(٨٤).

وأثناء حصار تستر كان أهل مدينة السوس^(٨٥) يناوشون المسلمين، وكان يقودهم شهریار أخو الهرمزان، لذلك اتجه النعمان - بعد أن أنهى مهمته في تستر - إلى السوس وحاصرها، وبقي على حصارها حتى نفذ ما بها من طعام، ثم أمر سلاح الفرسان باقتحام أبواب المدينة ففتحت فنادى المشركون: الصلح الصلح، فأجابهم إلى ذلك بعد ما دخلوها عنوة، ثم وصلت أوامر من عمر - رضي الله عنه - بترك مدينة السوس والتوجه بجيشه لقتال الفرس بنهاوند^(٨٦).

أبناء مقرر أبطال معركة نهاوند ٥٢١هـ / ٦٤١م :

بعد هذه الهزائم المتتالية، التي منى بها الفرس، أراد أمراؤهم أن يعيدوا صفوفهم من جديد للوقوف في وجه الزحف الإسلامي، فتجمعوا وكتبوا إلى كسرى ليكون على رأس التجمع الجديد والحشد المنتظر، فوجه رسله إلى البلدان يحثهم على القتال ويثير حماسهم، وكتب إلى جميع الولايات في مملكته يشجعهم على وحدة الصف، واستجاب الناس لدعوته، فبعث كل أمير جندا من عنده إلى نهاوند - منطقة الحشد - حتى أصبح عدد الجند بها مائة وخمسين ألفاً، واستقر الرأي على أن يتولى "الفيروزان" قيادة الجيش الذي جمع جنده، وخطب فيهم خطبة ألهمت حماسهم، وضح لهم فيها أنهم فقدوا العراق والأهواز، وأن عمر بن الخطاب لما طال ملكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا، ولم يكفه ذلك حتى غزانا في عقر دارنا، فأخذ بيت المملكة وانتقصكم السواد والأهواز، وهو آتيكم إن لم تأتوه...، وحين سمع الجند هذه الخطبة؛ أقسموا أن يبذلوا غاية جهدهم حتى يتم لهم النصر^(٨٧).

وتحركات القوات الفارسية من منطقة تجمعها وتابعت سيرها إلى حلوان^(٨٨)، وبلغت أخبار التحرك عمر بن الخطاب حين وصلت رسالته تصف له التجمع والمسير، وكان لزاماً عليه أن يطلع الناس في المدينة على خطورة الأمر، لذلك: صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وبين لهم فضل الإسلام عليهم، وأن أهل فارس حشدوا قوات ضخمة واستعدوا لقتال المسلمين، بل اجتياح أملكهم أيضاً^(٨٩).

اختيار النعمان بن مقرر قائداً للمعركة:

قرر الخليفة عمر مواجهة الفرس، وبدأ اختيار القائد المسلم الذي تسند إليه هذه العملية الخطيرة، وعرض الأمر على أصحابه قائلاً "أشيروا على برجل أوله أمر هذه الحرب"، فقالوا له "أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة، وأبصر بجنديك"، ففكر ملياً ثم قال: "أما والله لأولين أمرهم رجلاً يكون غداً لأسنة القوم جزراً" في إشارة إلى أن استئصال الجيش الفارسي سيكون على يديه، ولم يكن هذا سوى: النعمان بن مقرر، الذي ما سمع الصحابة ترشيحه حتى كبروا وقالوا "هولها"^(٩٠).

كان النعمان في هذا الوقت محاصراً لمدينة السوس بالأهواز، فكتب إليه عمر يبلغه أن جموعاً من الفرس كثيرة قد استعدوا لقتال المسلمين بمدينة نهاوند، وأمره بالتحرك بمن معه من الجنود صوب العدو، على أن يوافيه باقي جيش الكوفة بعد ذلك، وقال له: وإن حدث بك حدث (يقصد النعمان) - فعلى الناس حذيفة بن اليمان، وإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرر^(٩١).

ثم استنفر عمر رضي الله عنه قوات الكوفة، وأمر عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي بهم إلى النعمان، وكتب أيضاً إلى أبي موسى الأشعري أن يتحرك على رأس قوات البصرة حتى ينتهي إلى النعمان، وأمر قواد الأهواز ألا يبرحوا مكانهم قائلين "أشغلوا فارس عن إخوانكم، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري" (١٢).

ولا شك: أن هذه الإجراءات التي اتخذها الخليفة تدل على خطورة وأهمية اللقاء القادم، لذا تم حشد قوات الكوفة والبصرة لها، وقد علم عمر أن قائد الجيش الإسلامي لا يكون بعيداً عن أرض المعركة، لكنه يعيش في الصفوف الأولى، ويتقدم جنده والمعركة القادمة ستكون معركة فاصلة بالنسبة للقتال الدائر في بلاد فارس، لهذا لم يأمن عمر - رضي الله عنه - أن يظل النعمان قائداً للجيش الإسلامي طوال المعركة، لأنه يعرف عنه بسالته وشجاعته منذ أن دخل الإسلام، وشارك الرسول - ﷺ - وباقي الصحابة خوض الغزوات، ولهذا قدر عمر أن يقتل النعمان خلال الاشتباك مع العدو، ولأجل هذا جعل القيادة للنعمان، ثم لحذيفة، ثم لأخي النعمان: نعيم بن مقرن، ولا شك أن هذا الإجراء يجعل المقاتلين في اطمئنان نفسي، فلا ينزعجون إذا ما استشهد قائدهم.

على مشارف نهاوند تجمعت قوات المسلمين وقد بلغت ثلاثين ألفاً، وما أن تولى النعمان قيادتها حتى بعث بالعيون تأتيه بأخبار فارس وحين جمع معلومات مهمة، أمر بالتحرك إلى هناك، وكان قائد مقدمة جيش النعمان، أخوه: نعيم بن مقرن، بينما كان أخوه الثاني: سويد قائداً لإحدى المجنبتين، وما إن وصلت القوات إلى قرب مواقع الفرس حتى أمر رجاله أن يكبروا ثلاث تكبيرات، فلما كبروا اهتزت لها قلوب الأعداء (١٣).

المعركة:

أمر النعمان بحصار المدينة، فتقدمت القوات وحاصرتها، فحدث اشتباك كان سجالاً بين الطرفين، وأحاطت الفرس أسوار المدينة بحسك الحديد، فتعذر على خيل المسلمين اجتيازه، بينما ترك الفرس فرجاً يخرجون منها فيهاجمون المسلمين، ثم يعودون إلى داخل الأسوار (١٤).

وحينئذ عقد النعمان مجلساً مع مستشاريه، بعد أن رأى خوف المسلمين من إطالة مدة الحصار وقال لهم "قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاعوا، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضاييق من هذا الموقف، فما الرأي الذي نستخرجهم به إلى المنايذة وترك التطويل؟"، واتفق المجتمعون على خطة فحواها: أن يتظاهر المسلمون بالانسحاب، بحجة أن أمير المؤمنين مات، فإذا رأى الفرس ذلك فسيظنون أنها فرصة كبيرة للقضاء على المسلمين أثناء انسحابهم، فيتركون

حصونهم للحاق بهم ، وبالفعل نجحت الخطة ، فاندفع الجيش الفارسي خلف المسلمين ، وتركوا المدينة خالية من حماتها ، كما تركوا حرك الحديد وراءهم^(٩٥).

وقع الاشتباك بين الطرفين خارج المدينة ثلاثة أيام - من الثلاثاء إلى الخميس - دون حسم ، بينما كان يوقع أحدهم بالآخر جراحات ، فلما كان يوم الجمعة اقترب الفرس من المسلمين فرموهم بالسهم حتى قبيل وقت الزوال ، والمسلمون في مواقعهم لا يتحركون ، فإن النعمان لم يأذن لهم بالقتال انتظاراً لزوال الشمس ، وهي الساعة التي كان الرسول - ﷺ - يقاتل فيها ، فقال له المغيرة بن شعبه : إن القوم قد أسرعوا فينا فاحمل ، فقال النعمان : إنك ذو مناقب ، ولكني شهدت مع رسول الله إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح ، وينزل النصر^(٩٦).

وفي هذا يقول ابن حجر العسقلاني^(٩٧) يظهر أن فائدة التأخير لكون أوقات الصلاة مظنة إجابة الدعاء ، وهبوب الرياح قد وقع النصر به في "الأحزاب" فصار مظنة لذلك.

ومر النعمان بين الصفوف ، وتحدث إلى جنده فقال : كل رجل منكم مسلط على ما يليه ، فإذا قضيت أمري فاستعدوا ، فإني مكبر ثلاثاً ، فإذا كبرت الأولى فليتهياً من لم يكن تهيأ ، وإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليأهب للنهوض ، وإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معاً ، ثم اتجه النعمان إلى ربه وقال "اللهم أعز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك"^(٩٨). وهكذا يكون النعمان قد حدد ساعة الصفر وحث الناس وأعدهم للمعركة. ونظر الناس إلى الراية ، وحين كبر النعمان الثالثة اندفع واللواء في يده ، وانقض على الفرس ، والمسلمون من خلفه تشد عليهم ، ففوجئوا بالهجوم ، وسقطوا يتخبطون في دمائهم ، والمسلمون يطيحون بالرؤوس ، وعندما زال عن الفرس أثر المفاجأة ، هاجموا هم أيضاً المسلمين ، واشتد القتال ، وكثر القتل في الفرس لكثرة عددهم ، وانهمرت الدماء ، فلما رأى النعمان أن الله قد استجاب له ، ورأى الفتح جاءتته نشابة فأصابته خاصرته فوقع ، فجاءه واحد من قبيلته وبه رمق ، فصب على وجهه ماء حتى غسله من التراب ، فقال له النعمان : ما فعل الناس ؟ فقال له : فتح الله عليهم ، فقال : الحمد لله اكتبوا بذلك إلى عمر وفاضت نفسه^(٩٩).

وحين رأى معقل بن مقرن أخاه النعمان قد قتل غطاء بثوب ، وتقدم الجنود ثم قال : تقدموا رحمكم الله ، فتقدموا يقاتلون. أما أخوهما سويد : فقد حمل أخاه النعمان إلى فسطاطه وخلع ثيابه فلبسها ، وتقلد سيفه ، وركب فرسه ، واتفق مع حذيفة بن اليمان أن يخفيا خبر استشهاد النعمان حتى لا يؤثر على معنويات المقاتلين ، فلم يشك أكثر الناس أنه النعمان ، وأكمل المسيرة ، وثبتوا يقاتلون عدوهم حتى أكملوا النصر ، فترجع الفرس

منهزمين بعد أن أصابهم الإعياء، فإذا بحسك الحديد يوقف تراجعهم، وهذا أعطى المسلمين فرصة أن يمعنوا فيهم القتل، وهوى كثير من الفرس بخيلهم في خندق لم يروه من شدة الظلام، فهلك منهم في الخندق ثمانون ألفاً، وقتل منهم ثلاثون ألفاً، وفر الباقون، ولما انتهت المعركة اجتمع الناس وقالوا: أين الأمير - يعني النعمان؟ فقال معقل: هذا أميركم قد أقر الله عينيه بالفتح وختم له بالشهادة، واغتبط المسلمون بالنصر العظيم وسموه "فتح الفتوح". وكان عمر أشد الناس اغتباطاً وتقديراً وإعجاباً، إلا أنه حين جاءه خبر مقتل النعمان نعاه على المنبر، ووضع يده على رأسه وهو يبكي^(١٠٠).

وبسبب انتصار المسلمين على الفرس في نهاوند انحطت مغويات الفرس، وفقدوا العودة بدولتهم إلى ما كانت عليه، بل واهتم كل وال من الولاة الفرس بولايتهم التي من الممكن أن يزحف عليها المسلمون في أي وقت للاستيلاء عليها، وانقطعت صلتهم بكسرى، بل انقطعت صلتهم بعضهم ببعض، وترك كل منهم أيضاً أمره للقدر يفعل به ما يشاء.

وعلى الجانب الآخر: ارتفعت مغويات المسلمين بعد النصر العظيم الذي أحرزوه، فقرروا أن يكونوا سلاحاً طيعاً في يد الخليفة بوجهه أينما شاء، ولهذا قرر الخليفة أن يقضى على ما تبقى من الإمبراطورية الفارسية^(١٠١).
إخوة النعمان يكملون مسيرة الفتح:

ثم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه^(١٠٢) بهذه الكلمات توجهه الأحنف بن قيس^(١٠٣) إلى عمر بن الخطاب بعد انتصار المسلمين في نهاوند، ثم أكمل حديثه قائلاً "...فتسبح في بلادهم ونزيل ملكهم ونخرجه من مملكته وعز أمته، هنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويسكن جأشهم"^(١٠٤).

ولقد آمن الخليفة عمر بكلامه، وقرر أن يفتح باقي ملك الإمبراطورية الفارسية، لأن هذا سيحمي ظهر المسلمين، ويؤمن خط رجعتهم، ويعطيهم فرصة للسيطرة على طرق الإمداد من شبه الجزيرة العربية والعراق (العراق العربي).

وعلى الرغم من استشهاد النعمان بن مقرن في معركة نهاوند؛ إلا أن باقي إخوته استلموا راية القيادة بأمر الخليفة عمر، وشاركوا باقي إخوانهم المسلمين في معارك الاستيلاء على ما تبقى من أملاك الفرس، ومن هذه المعارك:

معركة همذان^(١٠٥) ٢٢هـ/٦٤٢م:

ارتبط فتح همذان - أولاً - بفتح نهاوند، وذلك أن الفيرزان ومن بقى معه حياً من الفرس في نهاية معركة نهاوند، هربوا يريدون النجاة صوب همذان، فشاهده، نعيم بن مقرن فمال إليه بقوة إسلامية، وأمر القطاع بن عمرو التميمي - قائد المجردة وهي

قوة من الفرسان - بمطاردته وتعقبه، فأدركه في ثنية همذان، حيث سدت بعض الدواب من الحمير والبغال الطريق أمامه، فترجل يريد الهرب في الجبال، فتبعه القمعاق راجلاً، وأدركه وقتله، وأطلق المسلمون على هذه الثنية اسم "ثنية العسل" وقالوا حين عرفوا أن الدواب كانت تحمل عسلاً "إن لله جنوداً من عسل".

وأما الفارون من الفرس: فقد لجأوا إلى داخل همذان، فأسرع وراءهم نعيم، وحاصرهم فيها، فلما علم أميرهم ما أصاب القوم، عند مدخل همذان، بعث يطلب الصلح فوافق المسلمون على أن يضمن لهم همذان، وألا يخونوا المسلمين، فأجابوهم (إلى ذلك) (١٠٦).

ولكن لم يدم هذا الصلح طويلاً، ففي الوقت الذي كانت تدور فيه معركة أصبهان (١٠٧) تجمعت أعداد ضخمة من الفرس تحت قيادة اسفنديار الراجي، شقيق رستم، وعلم أهل همذان بأخبار هذا التجمع؛ فتشجعوا ونقضوا صلحهم مع المسلمين فأمر عمر رضي الله عنه نعيم بن مقرن بالسير إليهم، وحين رأى أهل همذان القوات الإسلامية، عادوا وتدموا، وحين حاصرهم نعيم طلبوا الصلح، فوافق نعيم بشرط أن تبقى قوة من المسلمين في المدينة يقوم أميرها باستلام الجزية (١٠٨) لذلك بقيت قوات نعيم كاملة غير مجعدة حتى تلقى القوات المتجمعة تحت قيادة اسفنديار.

نعيم بن مقرن في مواجهة اسفنديار في "واج روذ" (١٠٩) ٢٢٢هـ / ٦٤٢م

لما تزايدت القوات التي حشدتها اسفنديار، وبدأت تتقدم نحو نعيم من جهات مختلفة: الديلم وعلى رأسهم أمير يسمى "موتا"، وأهل الري يقودهم الزينبي أبو الفرخان، وأهل أذربيجان وعليهم اسفنديار، وكانت هذه الجيوش تتجه إلى واج روذ، بعث نعيم بن مقرن بجماعات استطلاع تأتبه بأخبار التجمعات المعادية وتحركاتها، ثم غادر همذان - بعد أن ترك فيها حامية - وتحرك بقواته حتى أصبح في مواجهة مباشرة مع جيوش الفرس التي لم تمنحه فرصة للراحة، حيث سارعت بشن هجوم مفاجئ صمد له المسلمون، واشتد القتال، ولم يأت المساء إلا وكانت قوات الفرس قد انهزمت بعد أن قتل المسلمون منهم عدداً كبيراً، وبعث نعيم بأنباء الانتصار إلى عمر بالمدينة (١١٠).

وقال ابن الأثير (١١١) "وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند، فانهزم الفرس هزيمة قبيحة، وقتل منهم مقتلة كبيرة لا يحصون. وقتل ملك الديلم موتاً، وتمزق شملهم، وانهزموا بأجمعهم فكان نعيم بن مقرن أول من قاتل الديلم من المسلمين، وقد كان نعيم كتب إلى عمر يعظمه باجتماعهم فهمه ذلك، واغتم له، فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة، فحمد الله وأثنى عليه، وأمر بالكتاب فقري على ناس ففرحوا وحمدوا الله عز وجل".

وبمناسبة هذا الانتصار العظيم في واج روذ قال نعيم بن مقرن شعراً منه^(١١٢):

ولما أتاني أن موتاً ورهطه	بني باسل جروا جنود الأعاجم
نهضت إليهم بالجنود مسامياً	لأمنع منهم ذمتي بالقواصم
إلى أن يقـول:	
تبعضاهم حتى أوا في شعارهم	فقتلهم قتل الكلاب الجوامم
كانهم في واج روذ وجوه	ضنين أصابتها فروج المخارم

نعيم يزحف إلى الري^(١١٣) ٢٢هـ/٦٤٢م

"أما بعد: فاستخلف على همدان وسر حتى تقدم الري، وتلقى جمعهم ثم أقم بها، فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد"^(١١٤) بهذه الأوامر بعث الخليفة عمر إلى نعيم بن مقرن حيث جمعت قوات الفرس والديلم، المنهزمة في واج روذ، في الري، وكان ملكها - سياوخش بن مهران - قد أيقن أن المسلمين سيهاجمونه بعد أن يفرغوا من معركة واج روذ، لذلك: طلب المدد من ولايات فارسية أخرى^(١١٥) فأمدوه بقوات كبيرة حتى أصبحت قواته ضعف قوات نعيم عدداً وعدة، وتحصنت القوات داخل الري وهي ذات مناعة وقوة.

وحين انسحب الزينبي بقواته منهزماً في واج روذ، اتجه إلى الري وانضم للقوات الفارسية المتمركزة هناك بقيادة سياوخش. وقد حدث خلاف بين الزينبي وسياوخش ملك الري، إذ عنف الأخير الزينبي لانهازمه أمام المسلمين، وعزله عن عمله، فغضب الزينبي وقرر الانضمام إلى نعيم وحالفه^(١١٦).

وبدأ القتال واشتد، حتى مضى يوم دون حسم بسبب الحصون، فدل الزينبي نعيماً على طريق يدخلون منه المدينة، فقامت معه كتيبة فرسان ودخلت المدينة ليلاً، وأخذت المدافعين عن المدينة على غرة، فانهزموا، فدخل نعيم المدينة، وأمعن المسلمون في قتل أهلها، وفر ملك الري، وصالح نعيم الزينبي وعينه ملكاً مكان سياوخش، وهدم قلاع المدينة، وخرب حصونها، ثم كتب إلى الخليفة عمر بالفتح^(١١٧).

ثم مال نعيم بقواته إلى دنهاوند - تقع على جبل قريب من الري - فلما علم ملكها - اسمه مراد نشاه - بمسير نعيم إليه راسله في الصلح على شيء يفتدى به منهم، من غير أن يسأله النصر والمنعة، فقبل منه، وكتب بينه وبينه كتاباً على غير نصر ولا معونة^(١١٨).

نعيم بن مقرن يتمركز وأخوه سويد يجتاح باقي المدن:

نعيم بن مقرن يتمركز وأخوه سويد يجتاح باقي المدن:

بعد استيلاء نعيم بن مقرن على همدان وواج روز والري ودنيانود وما حولها، استقر بجنوده في هذه المناطق في انتظار أوامر جديدة.

وبالفعل: فقد كتب الخليفة عمر، رضي الله عنه، إلى نعيم أن قدم سويد بن مقرن إلى قومس^(١١٩) وكان سويد في جيش أخيه نعيم في الفتوحات الأخيرة، فترأس جيشاً وترك الري متوجهاً إلى قومس، فلم يجد مقاومة تذكر، وبعد حصار سهل لقومس؛ أخذها سلباً وعسكر بها، وكتب لهم كتاب صلح^(١٢٠)

سويد يفتح جرجان^(١٢١) وطبرستان^(١٢٢) ٦٤٢/٢٢ م :

تقدم سويد بقواته وعسكر في بسطام^(١٢٣)، وبعث إلى ملك جرجان يدعوه إلى الصلح أو القتال أو الإسلام، فبعث إليه ملك جرجان يطلب الصلح، فصالحه سويد على جزية يؤديها أهلها، ولهم الذمة والمنعة والأمان على أنفسهم وأموالهم وشرائعهم^(١٢٤).

وبمناسبة إيجاز هذا الصلح، قال أحد المسلمين شعراً منه^(١٢٥):

بلغ أسيداً أن عرضت بأننا	بجرجان في خضر الغراض النواضر
قلما أحسونا وخافوا صوائنا	أتانا بن صول راغماً بالجرائر
وأدى إلينا الخرج عن كل كورة	أقامت بها أخرى الليالي الغواير
وهل لكم في العيش غضا فإبني	أرى العيش قد ولى بتلك الحظائر

ولاحظ ملك طبرستان أن المسلمين قد أحاطوا به من الجنوب والشرق، فقد استولوا على الري، وصالحوا أهل جرجان، فأثر مصالحتهم، وراسل سويداً في الصلح على أن يتوادعا، ويجعل له شيئاً على غير نصر ولا معونة على أحد، فقبل ذلك منه، وكتب له كتاباً^(١٢٦).

انتهت - إذن - حروب العراق وفارس في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -^(١٢٧) وانتهت معها الإمبراطورية الفارسية على أيدي المسلمين.

وهكذا: كان المسلمون يواجهون، في قتالهم الفرس، عدواً فاقهم في كل نواحي المعركة فناً وعدة وعدداً وممارسة سابقة، على مستوى لم يعهده المسلمون من قبل، وبرغم هذا القارق الكبير، فقد خاض المسلمون فوق أرض العراق وفارس المعارك، وواجهوا جيوش الفرس على كثرة عددها ووفرة عدديتها، وانتصر المسلمون ودانت لهم كل بلاد العراق وفارس.

الخاتمة

وبعد استعراضنا لهذا البحث يمكن استنتاج بعض النقاط، منها:

أولاً: أن النعمان بن مقرن وإخوته عاشوا داخل قبيلة مزينة، وهي العيشة التي لم تكن تختلف عن عيشة بقية القبائل في الجزيرة العربية.

ثانياً: أن عددهم لم يكن سبعة فقط، وإنما أثبت البحث أنهم كانوا أكثر من عشرة، وإن لم يشتهر منهم إلا البعض فقط.

ثالثاً: نال أبناء مقرن مكرمة في الإسلام لم ينلها غيرهم، كإخوة عشرة أسلموا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، وكانوا ضمن أول وفد من مضر يشهر إسلامه.

رابعاً: وبمجرد إشهارهم الإسلام انخرطوا في العسكرية الإسلامية، وبدأيتهم معركة الخندق.

خامساً: تميز بعضهم بأنهم من الذين حملوا ألوية رسول الله، فأسند إليهم قيادة قبيلتهم في الغزوات لكفاءتهم، وكان يعز عليهم أن تفوتهم غزوة من الغزوات، فقد كانوا حريصين على متابعة القتال في سبيل الله.

سادساً: قاد النعمان بن مقرن وإخوته جيش المسلمين - تحت إشراف الخليفة أبي بكر - في التصدي للمرتدين والمتنبئين الذي أغاروا على المدينة عقب وفاة الرسول مباشرة، وأوقعوا بهم الهزيمة في معركة عرفت "بذي القصة".

سابعاً: ولثقة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في قيادة أبناء مقرن بسبب كفاءتهم، فقد أسند قيادة أحد الألوية التي وجهها لقتال المرتدين، في مواطنهم في أرجاء شبه الجزيرة العربية لواحد منهم وهو: سويد بن مقرن الذي كانت وجهته إلى مرتدي تهامة باليمن.

ثامناً: وحين أنشأ الخليفة أبو بكر القتال على جبهتي الفرس والروم في وقت واحد، كان قدر أبناء مقرن أن يكونوا ضمن الجيش الذي توجه للعراق بقيادة: خالد بن الوليد رضي الله عنه، وشهدوا معه فتح العراق العربي، وكان لهم أثر عسكري واضح في فتح مدنها.

تاسعاً: كذلك كان لهم دور دبلوماسي أثناء فتح العراق، حيث وقع الاختيار على النعمان بن مقرن من قبل سعد بن أبي وقاص، ليقود وفد الدبلوماسية الإسلامية إلى ملك الفرس، وقد أجاد في مهمته أثناء حديثه مع يزجرد.

عاشراً: وعلى الرغم من الفتوحات الإسلامية الكثيرة التي جاءت على أيدي النعمان وإخوته، إلا أنهم زهدوا في تولي مناصب إدارية حتى لا تجعلهم يركنون للدنيا، فقد كانت ساحات القتال رغبتهم.

أحد عشر: دفع الخليفة عمر بأبناء مقرن كقادة عسكريين لفتح بلاد فارس، فقاد كل من النعمان جيشاً، وأخوه نعيم جيشاً للاشتراك في فتح مدن الأهواز مع باقي القادة الآخرين.

ثاني عشر: وحين أعاد الفرس تنظيم صفوفهم بالقرب من نهاوند لخوض معركة فاصلة مع المسلمين، لم يجد عمر - ومعه كبار الصحابة في المدينة - أفضل من النعمان بن مقرن لقيادة المسلمين في هذه المعركة، والتي سميت "بفتح الفتوح" بعد انتصار المسلمين.

ثالث عشر: عمل تحت قيادة أبناء مقرن كبار الصحابة في معارك فتح بلاد فارس - مثل حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن عمر - وهذه منقبة عظيمة لهم.

رابع عشر: وعلى الرغم من مقتل النعمان في معركة نهاوند - بعد أن قُرت عيناه بالفتح - إلا أن باقي إخوته، كنعيم وسويد، أكملوا عملية الإنسيحاح في بلاد فارس كقادة ميدانيين، ونجحوا في فتح أجزاء عدة منها.

خامس عشر: ويتضح من عهود الأمان التي كتبها القادة من أبناء مقرن لأهالي البلاد المفتوحة، أن الإسلام دين عدل وإنصاف في ضوء: فرضت الجزية لحماية المغلوبين في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم - لم تفرض جزية على الأطفال والنساء والمرضى - لا يدفع الجزية من يشترك مع المسلمين في عمل عسكري - وضمنت هذه العهود حرية العقيدة والتنقل والأمان للمغلوبين.

وأخيراً...

إن كفاءة أبناء مقرن التي ظهرت في الغزوات أيام الرسول - ﷺ - هي التي رشحتهم لأبي بكر ليسند إليهم قيادة جوانب من حروب الردة بعد وفاة الرسول، وهي التي رشحتهم لعمر بن الخطاب فأسند لهم قيادة الجيوش في معارك كبرى في فتح العراق وفارس - كمعركة نهاوند مثلاً - وقد أجادوا في ذلك وجادوا بأرواحهم في سبيل رفعة الإسلام ونشره، وستظل العسكرية الإسلامية تتذكر النعمان بن مقرن وإخوته بكل فخر واعتزاز.

الهوامش

- (١) ابن حزم "أبو محمد علي بن أحمد بن سعد" - جمهرة أنساب العرب - دار المعارف - مصر سنة ١٩٤٨م ص ٤٨٠، السمعاني "أبو سعد عبد الكريم بن محمد" - الأنساب - تحقيق/ عبد الله عمر البارودي دار الجنان - بيروت ط (١) ١٩٩٨م ح ٥ ص ٢٧٧.
- (٢) الوزير المغربي "الحسين بن علي بن الحسين" - الإيناس بعلم الأنساب تحقيق: المرحوم حمد الجاسر - الرياض ١٩٨٠م ح ١ ص ١٢، ابن خلدون "ولي الدين عبد الرحمن بن محمد" - العبر وديوان المبتدأ والخبر - بيروت - لبنان سنة ١٩٦٨م ح ٢ ص ٣١٨.
- (٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦١م ح ٥ ص ٣٥٧.
- (٤) ياقوت الحموي "ياقوت بن عبد الله الرومي" - معجم البلدان - دار الفكر - بيروت - لبنان - بدون تاريخ ح ٢ ص ٧٢، ٢٩٢، ١٦٤، ٢٥٧، ٤٤٧، ح ٣ ص ٢٥٤، ٣٤٦، ٣٤٩، ح ٤ ص ١٥٦، ٢٨٥، وثبير هذا: هو الموضع الذي أقطعه النبي - ﷺ - شريحاً بن ضمرة المزني، وهو أول من حمل صدقته للنبي.
- (٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ٨٧، ح ٣ ص ١١٤، ٤٣٢، ٣٤٢، ووالدي العقيلي: أقطعه النبي - ﷺ - بلالا بن الحارث المزني.
- (٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ٣٧٤، ٣٤٥، ح ٣ ص ٧٥، ٢٦٦، ٢٧٧.
- (٧) "عبد الملك بن هشام بن أيوب" - السيرة النبوية - دار الفجر للتراث - القاهرة مصر ط (٢) ٢٠٠٤م ح ٣ ص ١٦٥.
- (٨) وجبل "عينب" هو الجبل الذي أقطعه النبي - ﷺ - لمعقل بن سنان المزني. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٤ ص ١٧٤.
- (٩) محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام - أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم - دار الثقافة - مصر سنة ٢٠٠٤م ص ٢٨١. وقد امتلك أهل مزينة بئرا في المدينة يبيعون للناس مياهها وهي بئر رومة، وكانت رومه امرأة منهم تبيع الماء للناس فنسبت إليها، ثم اشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه بأربعمائة دينار فتصنق بها على المسلمين، فدعا له النبي ﷺ فقال "اللهم أوجب له الجنة" ابن شبة "أبو زيد عمر بن شبة البصري" تاريخ المدينة المنورة - تحقيق/ فهمي محمد شلتوت - دار الأصفهاني للطباعة - جدة سنة ١٩٧٤م، ح ١ ص ١٥٤.

- (١٠) خزاعي بن عبد نهم بن ربيعة بن عدي بن ذؤيب المزني، أخو عبد الله ذي البجادين لأبويه، وعم عبد الله بن مغفل بن عبد نهم، أسلم مع وفد مزينة في العام الخامس الهجري، ودفع له رسول الله - ﷺ - لواء مزينة يوم الفتح ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ١ ص ٢٩١.
- (١١) الكلبي 'أبو المنذر هشام بن محمد السائب' - كتاب الأصنام - دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤م ص ٣٩، ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٤ ص ٢٦٢، ابن قيم الجوزية 'شمس الدين محمد بن أبي بكر' - زاد المعاد في هدي خير العباد - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - سنة ١٩٨٢ ح ٣ ص ٥٤٥، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٢ ص ٢٧٦.
- (١٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ١ ص ٢٩١، السيوطي 'جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر' - الخصائص الكبرى - دار الكتب العلمية - بيروت - سنة ١٩٨٥م ح ٢ ص ٣٨.
- (١٣) ابن الجوزي 'عبد الرحمن بن علي بن محمد' - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم تحقيق/ محمد عبد القادر مصطفى، وعطا عبد القادر مصطفى - دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٩٩٢م ح ١ ص ٣٤٢، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ح ٣ ص ٥٤٥، ابن كثير 'إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي' البداية والنهاية - مكتبة المعارف - بيروت - بدون تاريخ ح ٥ ص ٤١.
- (١٤) بعث: هو حصن لكوس على ليلتين - ٨٩ كيلو متراً تقريباً - من المدينة وكان يوم بعث آخر العداء والقتال بين الأوس والخزرج، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، فلما هاجر النبي - ﷺ - ظهر الله به قلوبهم من هذه الإحن، وأنعم عليهم بأخوة الإسلام ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ١ ص ٤٥١.
- (١٥) ابن خلدون: العبر ح ٢ ص ٢٨٩، جواد علي: المفصل ح ٥ ص ٢٣٠.
- (١٦) النعمان بن مقرن بن عائذ بن ميجا بن هجير بن نصر بن حبشية أبو عمرو المزني، كان صاحب لواء مزينة يوم فتح مكة وحنين، وقائد معركة نهاوند حيث استشهد بها سنة ٢١هـ / ٦٤١م.
- ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٦ ص ١٨، ١٩، ابن عبد البر: الاستيعاب ح ١ ص ٤٧٥.
- (١٧) سويد بن مقرن بن عائذ أبو عدي المزني، أخو النعمان بن مقرن بطل الإسبياح في بلاد فارس، فتح همدان، والري، وجرجان، ابن سعد: الطبقات الكبرى: ح ٦ ص ١٩، ابن حجر العسقلاني 'أحمد بن علي بن حجر' - الإصابة في تمييز الصحابة - تحقيق / علي محمد البجاوي - دار الجبل - بيروت ط (١) ١٤١٢هـ - ح ٣ ص ٢٢٩.

- (١٨) نعيم بن مقرن: أبو عمارة المزني، أخو النعمان، خلف أخاه النعمان حين قتل بنهاوند، وكانت على يديه فتوح، وهو وأخوه من جلة الصحابة وكانوا من وجوه مزينة، وكان عمر بن الخطاب يعرف لنعيم والنعمان موضعهما ابن عبد البر: الاستيعاب ج ١ ص ٤٧٦، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج ٣ ص ١٩٩.
- (١٩) سنان بن مقرن المزني أخو النعمان، له صحبة، قال ابن مندة: له ذكر في المغازي. ابن عبد البر: الاستيعاب ج ١ ص ١٩٩ ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج ٣ ص ١٩٠.
- (٢٠) معقل بن مقرن أبو عمارة المزني أخو النعمان، أثناء فتح خالد بن الوليد للعراق أرسله إلى "الأبله" ففتحها، وجمع الأموال بها وسبى ابن سعد: الطبقات الكبرى: ج ٦ ص ١٩ ابن عبد البر: الاستيعاب ج ١ ص ٤٥٠.
- (٢١) عقيل بن مقرن أبو حكيم المزني، قال ابن حجر العسقلاني: ذكره البخاري في الصحابة، وذكره الواقدي فيمن نزل الكوفة الإصابة ج ٤ ص ٥٣٢، وينظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٦ ص ١٩، وابن عبد البر: الاستيعاب ج ١ ص ٣٣٢.
- (٢٢) عبد الرحمن بن مقرن المزني، قال ابن سعد: له صحبة، ويقال: كان اسمه عبد عمرو بن مقرن، فغيره النبي ﷺ - الطبقات الكبرى ج ٦ ص ١٩، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج ٤ ص ٣٣٥، ٣٦٣.
- (٢٣) الأبناسي برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أيوب الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح، تحقيق/ صلاح فتحي هليل - مكتبة الرشد الرياض - السعودية ط (١) ١٩٩٨ م ج ٢ ص ٥٤٨.
- (٢٤) كان مع خالد بن الوليد أثناء فتح الحيرة سنة ١٢٣هـ / ٦٣٣ م ، وقال ابن حجر العسقلاني: ... وأن خالد بن الوليد أمره لما حاصر الحيرة، وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم) - أسد الغابة في معرفة الصحابة - تحقيق د. محمد البنا - ود. محمد عاشور - دار الشعب - مصر ١٣٩٣هـ ج ٢ ص ٣٢، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج ٣ ص ٤٨٥.
- (٢٥) كان على مسيرة جيش أبي بكر في ذي القصة، روى عنه ابن سيرين، وعبد الملك بن عمير. ابن الأثير: أسد الغابة ج ٢ ص ١٧٨، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج ٣ ص ٤٨٥.
- (٢٦) قال ابن حجر العسقلاني أحد الإخوة، ذكره الطبري في الصحابة، أمره خالد بن الوليد على شئ من العراق حين توجه إلى الشام في خلافة أبي بكر. الإصابة ج ٣ ص ١١٥.
- (٢٧) لم يزد ابن حجر العسقلاني على قوله: ومعاوية بن مقرن المزني معروف هو وأخوته. الإصابة ج ٣ ص ١٠٦.

(٢٨) أحد الإخوة، له ذكر في الفتوح، بعثه أخوه نعيم بن مقرن إلى 'قوس' ففتحها صلحاً، وكاتبه صاحب جرجان فصالحه على الجزية، وقد رجح ابن حجر أن 'سواد' هذا هو 'سويد' لعله لقب بالتصغير. الإصابة ح ٣ ص ٢٢٦.

(٢٩) العصامي 'العصامي بن الحسين بن عبد الملك' - سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي - بغاية: قاسم درويش فخرو، القاهرة ١٣٧٩هـ - ح ١ ص ٣٥٧.

(٣٠) مسلم 'أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم' - الجامع الصحيح دار الجبل - بيروت ودار الآفاق الجديدة - بيروت - بدون - ح ٥ ص ٩١.

(٣١) ابن عبد البر: الاستيعاب ح ١ ص ٤٧٦، الأبناسي: الشذا الفياح ح ٢ ص ٥٥٣، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٣ ص ١٩٩.

(٣٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري - دار المعرفة - بيروت سنة ١٣٧٩هـ - ح ٦ ص ٥٤٣، ٥٥٢.

(٣٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ٦ ص ١٨، ١٩، ٢٠، الحاكم 'محمد بن عبد الله بن محمد' - المستدرك على الصحيحين وبهامشه تلخيص المتشابه للذهبي - تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٩٩٠م ح ٣ ص ٣٣٢، ابن الجوزي: المنتظم ح ٢ ص ٣٢، الذهبي 'محمد بن أحمد بن عثمان' - سير أعلام النبلاء - تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرين - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان ١٩٨١م ح ١ ص ٤٠٣.

(٣٤) منهم: سلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان، وعمرو بن عوف المزني، بالإضافة إلى ستة من الأنصار.

(٣٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ٤ ص ٨٣، الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٩٢، ابن الجوزي: المنتظم ح ٢ ص ٣٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٣٠٤، ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ج ٧ ص ٢٧٩، ٢٨٠.

(٣٦) الطبراني 'سليمان بن أحمد بن أيوب' - المعجم الكبير - تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي - مكتبة العلوم والحكم - الموصل ط (٢) ١٩٨٣ ح ١١ ص ٦٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء ح ١ ص ٤٠٣، الهيثمي 'تور الدين علي بن أبي بكر' - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - دار الفكر - بيروت - لبنان. سنة ١٩٨٨م ح ٦ ص ٢١٦.

(٣٧) الواقدي 'أبو عبيد الله محمد بن عمر' مغازي رسول - تحقيق/ د. مارسدن جونس - عالم الكتب - بيروت - لبنان ط (١) ٢٠٠٦م ص ٥٤٠، ابن الجوزي: المنتظم ح ٢ ص ١٩٤.

(٣٨) المصدر السابق. ص ٥٤١، ٥٩٨، ٥٩٩.

- (٣٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢١٨ ، ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ج ٨ ص ٨٧ ، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٢ ص ٥ ، والآية من سورة التوبة رقم ٢٣
- (٤٠) أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة - محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية - مكتبة العبيكان - الرياض ط (٥) ٢٠٠٣ م ، ج ٢ ص ٥٢٤ ، وذكر أن تبوك تبعد عن المدينة المنورة ٧٧٨ كم حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر والآية من سورة التوبة رقم ٩٢ .
- (٤١) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن - تحقيق/ أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة - بيروت ط (١) ٢٠٠٠ م ج ١٤ ص ٤٢١ ، ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير المكتب الإسلامي - بيروت ط (٣) ١٤٠٤ هـ - ج ٣ ص ٢١٨ ، البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود - معالم التنزيل - تحقيق/ عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الخراشي - دار طيبة ط (٤) ١٩٩٧ م ج ٤ ص ٨٦ ، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم - تحقيق/ سامي بن محمد بن سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع ط (٢) ١٩٩٩ م ج ٤ ص ١٩٩ ، السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول - دار إحياء التراث - بيروت - بدون ، ج ١ ص ١٩٥ .
- (٤٢) "محمد بن أحمد الأنصاري" - أحكام القرآن - تحقيق/ محمد البهلاوي وآخرين - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - بدون ، ج ٨ ص ٢٢٨ ، ويراجع أيضا: الواحدي "أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري" - أسباب النزول دراسة وتحقيق/ السيد الجميلي - دار الريان للتراث - مصر - بدون - ص ٢١٠ ، الرازي "محمد بن عمر بن الحسن" - مفاتيح الغيب - دار الفكر - بيروت - ط (٣) ١٩٨٥ م ج ٨ ص ١٢١ ، أبو السعود "محمد بن محمد بن مصطفى" - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - دار إحياء التراث - بيروت - بدون تاريخ ج ٣ ص ٦١ ، وقد استطاع يامين بن عمير النضري، والعباس بن عبد المطلب، وعثمان بن عفان - رضوان الله عليهم - تمويل بعضهم فخرجوا مع النبي ﷺ - الواقدي: مغازي ص ٦٥٨ ، ابن سيد الناس "أبو الفتوح محمد بن محمد" عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير - دار الفكر ودار الآفاق مصر ١٩٨٢ م ج ٢ ص ٢٥٤ ، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ج ٣ ص ٤٦٠ .
- (٤٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ج ٨ ص ١٢٦ .
- (٤٤) الطبري: تفسير ج ١٤ ص ٤٣٣ ، البغوي: معالم التنزيل ج ٤ ص ٨٦ ، القرطبي: أحكام القرآن ج ٨ ص ٢٣٥ ، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج ٣ ص ١٩٥ ، والآية من سورة التوبة رقم ٩٩ .

- (٤٥) ذي القصة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً - ٤٤ كيلومتراً تقريباً - وهو طريق الربذة ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤ ص ٣٦٦.
- (٤٦) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٢٥٥، وذكر أن الأربعة الصحابة هم: علي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم جميعاً
- (٤٧) عن موقعة ذي القصة يراجع: الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٢٥٥، ابن الجوزي: المنتظم ج ١ ص ٤٧٧، ابن الأثير: الكامل ج ٢ ص ٢٤٣، ابن خلدون: العبر ج ٢ ص ٦٦.
- (٤٨) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٢٥٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٦ ص ٣١٥، ابن خلدون: العبر ج ٢ ص ٦٩.
- (٤٩) المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم... ابن شيبان، صحابي فاتح، من كبار القادة، أسلم سنة ٩هـ / ٦٣٠م، وغزا بلاد الفرس أيام أبي بكر، وشهد عدة وقائع في أيام عمر، وتوفي متأثراً بجراحه سنة ١٤هـ / ٦٣٥م، ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٢٣٩، ٢٩٧، ابن الأثير: أسد الغابة ج ١ ص ٩٧٢، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج ٥ ص ٧٦٦.
- (٥٠) الطبري: تاريخ ج ٤ ص ١٩، ابن عبد البر: الاستيعاب ج ٣ ص ٩٧، البحرين: اسم جامع لبلاد على ساحل الخليج العربي، بين البصرة شمالاً وحصان جنوباً. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٣٤٦.
- (٥١) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٣١١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١ ص ٣٨٣، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٧٩، والأهبة: في موقع البصرة الحالية، وكانت الأهبة مرسى السفن الوافدة من الهند والسند، وقد كانت أعظم موانئ فارس شأنًا. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٧٧.
- (٥٢) مثل: المذار، والولجة، وأليس، وأمغيشيا.
- (٥٣) نشأت إمارة الحيرة سنة ١٦٥م أو ٢١٢م مع قيام الدولة الساسانية في فارس، وكانت على حافة سواد العراق وحافة البادية تبعد عن موضع الكوفة نحو فرسخ = ٥,٥ كيلو متر. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٣٢٨.
- (٥٤) أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن - دار النفائس - بيروت ط (٢) ١٩٧٣م ص ٢٢٦.
- (٥٥) خلف خالد سويد بن قطبة الذهلي على ناحيته من منازل بني ذهل من جهة البصرة، وقطبة بن قتادة بن جرير السدوسي على جهته، وشريح بن عامر بن قين من بني سعد بن بكر بن هوازن على الخريبة. البلاذري. فتوح البلدان - تحقيق/ صلاح الدين المنجد

- مصر سنة ١٩٥٦م ج ٢ ص ٤١٨. ابن عبد البر: الاستيعاب ج ٣ ص ٢٤٧، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج ٥ ص ٤٤٥.

(٥٦) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٣١٢، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٤٥، أحمد عاتل كمال: الطريق إلى المدائن ص ٢٢٧، والحفير أول منزل لمن يريد مكة من البصرة، ويبعد عن البصرة أربعة أميال - حوالي سبعة كيلو مترات - ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٧.

(٥٧) حاصر ضرار بن الأزور الأسدي 'القصر الأبيض'، وحاصر ضرار بن الخطاب الفهري 'قصر العدسيين'، وحاصر ضرار بن مقرن 'قصر بني مازن'، وحاصر المثنى بن حارثة الشيباني 'قصر ابن بقلعة'.

(٥٨) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٣١٦، ابن الجوزي: المنتظم ج ١ ص ٤٥٠، ابن الأثير: أسد الغابة ج ٢ ص ٣٢.

(٥٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١ ص ٣٨٣، ابن خلدون: العبر ج ٢ ص ٧٩.

(٦٠) محمد فرج: الفتح العربي للعراق وفارس - تقديم/ أحمد حسن الباقوري - دار الفكر العربي - مصر ١٩٦٦م ص ٩١.

(٦١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٦٠٧، وتستمر: مدينة كبيرة ذات أسوار منيعة وأبراج، وكانت أعظم مدينة بالأهواز. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٤١٣.

(٦٢) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٣١٢، ٣١٦.

(٦٣) القادسية: موقع شرقي نهر الفرات جنوبي الكوفة، على سيف الصحراء، جرت فيه معركة القادسية سنة ١٤هـ / ٦٣٥م. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤ ص ٢٩١.

(٦٤) مثل: معركة الأنبار، وعين التمر، والفراض، وبابل، والجسر، والبويب، وسوق الخنافس، وتكريت.

(٦٥) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ١٤.

(٦٦) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء - تحقيق/ محمد كمال الدين عز الدين علي - عالم الكتب - بيروت ط (١) ١٤١٧هـ - ج ٤ ص ١٥٦.

(٦٧) وهم: النعمان بن مقرن، وبسر بن أبي رهم، وحملة بن جوية الكناني، وحنظلة بن الربيع التميمي، وقرات بن حيان العجلي، وعدى بن سهيل، والمغيرة بن زرارة بن النباش بن حبيب، وعطارد بن حاجب التميمي، والأشعث بن قيس الكندي، والحارث بن حسان الذهلي، وعاصم بن عمرو التميمي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، والمغيرة بن شعبة

الثقفي، والمعنى بن حارثة الشيباني. الطبري: تاريخ ح ٣ ص ١٧، ابن الأثير: الكامل ح ١ ص ٤١٠.

(٦٨) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٣٩١، ٣٩٢، ابن الجوزي: المنتظم ح ١ ص ٤٧٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤١٠، الكلاعي: الاكتفاء ح ٤ ص ١٥٦ ابن كثير: البداية والنهاية ح ٧ ص ٤١، ابن خلدون: العبر ح ٢ ص ٩٣.

(٦٩) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٤٢٧، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤١٥، الكلاعي: الاكتفاء ح ٤ ص ١٤٦.

(٧٠) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ح ٩ ص ٤٢٧.

(٧١) المدائن: عبارة عن مدينتين متقابلتين إحداهما على الشاطئ الغربي لدجلة وهي المدائن الدنيا أو بهرسير، وقد بناها السلوقيون خلفاء الإسكندر المقدوني وكان يسكنها طبقة العامة من الفرس، والثانية على الشاطئ الشرقي لدجلة وهي المدائن العليا وقد بناها ملوك الفرس وبها إيوان كسرى (القصر الأبيض). ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٥ ص ٧٤، لسترنج كي: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد - مؤسسة الرسالة - بيروت ط (٢) ١٩٨٥ م، ص ٣٤.

(٧٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٣٣، الكلاعي: الاكتفاء ح ٤ ص ٢٥٢.

(٧٣) تعد مدينة حلوان في العراق هي حد العراق العربي الذي كان محتلاً من الفرس، وكان المسلمون قد احتلوا حلوان، وتمكنوا من الاستيلاء على تكريت والموصل من أرض الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ٢٩٠، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٩٧، ٩٨.

(٧٤) الطبري: تاريخ ح ٣ ص ١٣١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٣٤.

(٧٥) كسكر: كورة واسعة في العراق العربي كانت مدينة واسط قصبتها، قيل سميت بكسكر بن ظهمورت الملك الذي هو أصل الفرس. فتحها النعمان بن مقرن صلحاً سنة ١٤ هـ / ٦٣٥ م. من قبل سعد بن أبي وقاص. البكري 'أبو عبد الله بن عبد العزيز'. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع - القاهرة سنة ١٩٥٤ م ح ٣ ص ٤٨٢، ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٣ ص ٤٨٢.

(٧٦) ابن المبارك 'عبد الله بن المبارك بن واضح' - الزهد - تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي - دار الكتب العلمية - بيروت - بدون تاريخ - ح ١ ص ١٧٢، الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥٢٤.

(٧٧) تقع الأهواز إلى الجنوب الشرقي من العراق، ويجري فيها من فروع دجلة نهير دجيل وكارون، وتفصلها بعض المرتفعات عن العراق العربي، واسمها مختصر من 'سوق الأهواز' وهي قاعدة الإقليم، وهي منطقة خوزستان الآن في إيران. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٢٨٥، كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٦٧، ٢٦٨.

(٨٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤٤٤.

(٧٩) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٣١١.

(٨٠) سميت بذلك نسبة إلى الملك هرمز حفيد أردشير بابكان، وأحياناً كان يختصر اسمها إلى رامز، كان يكثر في أرجائها القمح والقطن وقصب السكر، وهي إحدى مدن إقليم خوزستان في إيران الآن. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ١٧، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٢٥٨.

(٨١) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٣١١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤٤٥، وأيدج: بين خوزستان وأصبهان، كثيرة الزلازل والمعادن، وهي وسط الجبال، وكان بها بيت نار قديم كان يوقد إلى أيام الرشيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٢٨٨.

(٨٢) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ١٨٠.

(٨٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٨٢.

(٨٤) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ١٨٢، ابن الجوزي: المنتظم ج ٢ ص ٤٦، الكلاعي: الاكتفاء ج ٤ ص ٢٩٠، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ٨٥.

(٨٥) السوس: بلدة بالأهواز، كانت المقر الشتوي لملوك فارس، كما كانت عاصمة لملوك عيلام من قبل، هدمها آشور بانيبال ملك الآشوريين سنة ٦٤٠ ق.م. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ٢٨٠، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٢٧٤.

(٨٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤٤٦، ونهاوند: مدينة عظيمة تقع شرقي مدينة همذان، بينهما أربعون ميلاً - ٧٤ كيلو متراً -، كان يحمل خراجها مع خراج البصرة، وكانت مدينة جليلة منذ أيام الساسانيين. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥ ص ٣١٣، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٢٣٢.

(٨٧) أبو حنيفة الدينوري 'أحمد بن داود بن وند' - الأخبار الطوال - تحقيق/ عبد المنعم عامر - مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٦٠ ج ١ ص ١٣٤.

(٨٨) حلوان: وهي آخر سواد العراق مما يلي إقليم الجبال ليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها، فتحها جرير بن عبد الله البجلي صلحاً سنة ١٦هـ / ٦٣٧م. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٢٩٠، ٢٩١.

(٨٩) الدينوري: الأخبار الطوال ج ١ ص ١٣٤، وذكر أن الذي بعث الرسالة: الصحابي الجليل عمار بن ياسر رضي الله عنه فقد انضم مجموعة كبيرة من الصحابة تحت لواء النعمان خرجوا من المدينة ليحضروا موقعة نهاوند، وكان أميرهم: عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(٩٠) الدينوري: الأخبار الطوال ج ١ ص ١٣٥، الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٥١٢. الكلاعي: الاكتفاء ج ٤ ص ٣٠٢.

(٩١) كتب عمر رضي الله عنه إلى النعمان رضي الله عنه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطنهم وعرأ فتونهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار، فسر في وجهك هذا حتى تأتي ما (يعني نهاوند) - فإني كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم". الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٥١٨، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٨.

ARCHIVE

(٩٢) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٥٢٥.

(٩٣) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢١٤، الكلاعي: الاكتفاء ج ٤ ص ٣٠٤، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٩، وقد اعتمد النعمان في جمع المعلومات الحربية على: عمرو بن معدي كرب وطلحة بن خويلد، وجريز بن عبد الله البجلي، وعلباء بن الهيثم، وعمرو بن أبي سلمى المزني، وكانوا أيضاً مستشاريه في الحرب فقط. الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٥١٣، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج ٤ ص ٦٨٩.

(٩٤) الدينوري: الأخبار الطوال ج ١ ص ١٣٦، الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٠٣ والحسك من الحديد: ما كان يلقي حول العسكر ويثبت في مذاهب الخيل فينشرب في حوافرها، وهو يشبه ما يسمى الآن بالأسلاك الشائكة. ابن منظور 'مكرم المصري' - لسان العرب - دار صادر - بيروت - ط (١) - بدون تاريخ - ج ١٠ ص ٤١١، مجمع اللغة العربية بمصر - المعجم الوجيز - طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم بمصر سنة ١٩٩٧م ص ١٥٠.

(٩٥) الدينوري: الأخبار الطوال ج ١ ص ١٣٦، الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٠٣.

(٩٦) الحاكم: المستدرک ج ٤ ص ٤٥١، الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٠٤، وقال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث منقبة للنعمان، وفيه فضل المشورة، وأن الكبير لا نقص عليه

في مشاورة من هو دونه، وأن المفضل قد يكون أميراً على الأفضل، لأن الزبير كان في جيش النعمان، والنعمان أميره، والزبير أفضل منه باتفاق: فتح الباري ح ٦ ص ٢٦٦.

(٩٧) فتح الباري ح ٦ ص ٢٦٦.

(٩٨) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥٢٧.

(٩٩) الحاكم: المستدرک ح ٣ ص ٣٣٢، وذكر أن الذي جاءه من قبيلته هو: معقل بن يسار المزني.

(١٠٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ٦ ص ١٨، البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٧٣، الدينوري: الأخبار الطوال ح ١ ص ١٣٥، الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥٢٧، ابن عبد البر: الاستيعاب ح ١ ص ٤٧٥، ابن الجوزي: المنتظم ح ٢ ص ١٣.

(١٠١) محمد فرج: الفتح العربي ص ٢٤٠.

(١٠٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٤٧.

(١٠٣) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي، سيد تميم، وأحد العظماء الدهاء الفصحاء الشجعان، الفاتحين، يضرب له المثل في الحلم، ولد في البصرة وأدرك النبي - ﷺ - ولم يره، شهد الفتوح في خراسان، واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع علي، وولى خراسان، ومات سنة ٧٢هـ / ٦٩١م، والأحنف لقبه، واسمه الضحاك، ابن سعد: الطبقات ح ٧ ص ٩٣، الزركلي: الأعلام ح ١ ص ٢٧٦.

(١٠٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٤٧.

(١٠٥) همذان: إحدى محافظات إيران الآن، وتقع على خط العرض الشمالي ٥٣٥، في الطرف الغربي من جبال زاغروس، إلى الشرق من كرمنشاه، وإلى الغرب من قم، وهي على بعد مائتين وتسعين كيلو متراً للعاصمة طهران، وعلى ارتفاع ١٨٠٠ متراً فوق سطح البحر - يحيى الخشاب: موسوعة المدن العربية الإسلامية - دار الفكر العربي - لبنان ط (١) سنة ١٩٩٣م ص ٢٨١.

(١٠٦) الطبري: تاريخ ح ٤ ص ١٣٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ٣ ص ١٧.

(١٠٧) أصبهان - أصفهان - مدينة عظيمة من أعلام المدن، من نواحي إقليم الجبال، قيل سميت بأصبهان بن فلوج بن سام بن نوح فتحت في عهد: عمر بن الخطاب سنة ٢٣هـ / ٦٤٣م - علي يد عبد الله بن عتبان وقيل علي يد أبي موسى الأشعري، وهي إحدى محافظات إيران الآن. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ١ ص ٢٠٦ - ٢١٠، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٢٣٨.

- (١٠٨) الطبري: تاريخ ج ٤ ص ١٣٤، ١٤٦، ابن الجوزي: المنتظم ج ٤ ص ٣٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٧، ٢٢.
- (١٠٩) واج روذ: موضع بين همذان وقزوین، جرت فيه وقعة بين المسلمين والديلم لا تقل في أهميتها عن وقعة نهاوند. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥ ص ٣٤١.
- (١١٠) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٥٣٧، ٥٣٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٢١.
- (١١١) الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٢١، ويراجع أيضا الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٥٣٧، ٥٣٨.
- (١١٢) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٥٣٧، ٥٣٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٢١، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥ ص ٣٤١.
- (١١٣) الري: مدينة تقع في الطرف الشمالي الشرقي من إقليم الجبال، واسمها عند اليونان 'راكس'، وفي المائة الرابعة للهجرة/العاشرة للميلاد خرب أكثرها وتحول أهلها إلى طهران القريبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ١١٦، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٢٤٩، ٢٥٠.
- (١١٤) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٣٠.
- (١١٥) مثل: دناوند وطبرستان وقومس وجرجان.
- (١١٦) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٣١.
- (١١٧) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٣١، وكتب نعيم لأهل المدينة عهد أمان جاء فيه 'بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى نعيم بن مقرن، الزينبي بن مهران، أعطاه الأمان على أهل الري ومن كان معهم من غيرهم على الجزاء - الجزية - طاقة كل حال في كل سنة، وعلى أن ينصحوا ويدلوا، ولا يغلوا ولا يسلبوا وعلى أن يقرؤا - يضيفوا - المسلمين يوماً وليلة، وعلى أن يفخموا المسلم فمن سب مسلماً، واستخف به استحق عقوبة، ومن ضربه قتل، ومن بدل منهم فلم يسلم بذمته'. الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٣٢.
- (١١٨) كتب نعيم كتاباً لمراد نشاه جاء فيه 'أنت آمن ومن دخل معك على الكف أن تكف، وتتقى نفسك بمائتي ألف درهم وزن سبعة في كل سنة، لا يغار عليك ولا يدخل عليك إلا بإذن ما أقمت على ذلك حتى تغير، ومن غير فلا عهد له'. الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٣٢.
- (١١٩) قومس: منطقة واسعة تمتد بين الري ونيسابور، بها مدن وقرى ومزارع وتفصلها عن بحر قزوین جبال طبرستان التي تقع في شمالها. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤ ص ٤١٤، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٤٠٤.

(١٢٠) جاء في هذا الكتاب 'بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم على أن يؤدوا الجزية على كل حال - بالغ - بقدر طاقته، وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا، وعلى أن يدلوا وعليهم نزل من نزل بهم من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم، وإن بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة'. الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(١٢١) جرجان: هي المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين وتحتوي على عدة مدن أهمها جرجان التي سميت المنطقة باسمها. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ١١٩، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٤١٧.

(١٢٢) طبرستان: هي المنطقة الجبلية التي تحيط بجنوب بحر الخزر 'قزوين' وتضم بلداناً واسعة وحصوناً كثيرة، ومن أعيان مدنها آمل، ويطلق على طبرستان اسم 'مازندران' أيضاً وكان اسمين مترادفين. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٤ ص ١٣، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٤٠٩.

(١٢٣) بسطام: من مدن إقليم قومس وثاني مدينة فيه بعد الدامغان على جادة الطريق إلى نيسابور. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ١ ص ٤٢١، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٤٠٦.

(١٢٤) نص الكتاب 'بسم الله الرحمن الرحيم من سويد بن مقرن لرزيان صول بن رزيان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان، إن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال ومن استعنا به منكم فله جزاء في معونته عوضاً ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك، هو إليهم ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل، ونصحوا وقرأوا المسلمين، ولم يبد منهم سل ولا غل ومن أقام فيهم فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، وعلى أن من سب مسلماً بلغ جهده، ومن ضربه حل دمه'. الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٣٣، السهمي 'حمزة بن يوسف أبو القاسم' تاريخ جرجان - تحقيق/ محمد عبد المعيد خان - عالم الكتب بيروت ط (٣) ١٩٨١ م ص ٤٤، ٤٥.

(١٢٥) الشعر لسواد بن قطبة، السهمي: تاريخ جرجان ص ٤٥.

(١٢٦) جاء فيه 'بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان أصبهذ خراسان على طبرستان وجيل جيلان من أهل العدو، إنك آمن بأمان الله عز وجل، على أن تكف لصوتك وأهل حواشي أرضك، ولا تؤوي لنا بغية وتتقى من ولي فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك، فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك، ولا يطرق أرضك، ولا يدخل عليك (إلا بإذنك، سبيلنا عليكم بالأذن آمنة، وكذلك سبيلكم، ولا

تؤذون لنا بغية، ولا تسلون لنا إلى عدو ولا تغلون، فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم.
الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥٣٨.

(١٢٧) انتهت بعد أن أتم باقي الفاتحين الاستيلاء على بقايا فارس ففتح عتبة بن فرقد، وبكير بن عبد الله أنزيجان، وفتح عبد الرحمن بن ربيعة فرضه والجبالي المجاورة لها على بحر قزوين، وفتح عثمان بن أبي العاص الثقفي ولاية فارس، وفتح مجاشع بن مسعود سابور وأردشير وفتح سهيل بن عدي كرمان، وعاصم بن عمرو سجستان، والأحنف بن قيس خراسان كلها، ووقف المسلمون عند حدود الترك.



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- الأبناسي 'برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أيوب' ت ٨٠٢هـ -
- (١) الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح - تحقيق/ صلاح فتحي هـل - مكتبة الرشد - الرياض - السعودية ط (١) ١٩٩٨م.
- ابن الأثير 'علي بن أحمد بن أبي بكر' ت ٦٣٠هـ -
- (٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة - تحقيق د/ محمد البناء، و د. محمد عاشور - دار الشعب - مصر سنة ١٣٩٣هـ
- (٣) الكامل في التاريخ - بيروت - لبنان - سنة ١٩٧٨م.
- البغوي 'أبو محمد الحسين بن مسعود' ت ٤٣٦هـ -
- (٤) معالم التنزيل - تحقيق/ عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الخراشي - دار طيبة للنشر - السعودية ط (٤) ١٩٩٧م.
- البكري 'أبو عبد الله بن عبد العزيز' ت ٤٨٧هـ -
- (٥) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع - القاهرة ١٩٥٤م.
- البلاذري 'أحمد بن يحيى البغدادي' ت ٢٧٩هـ -
- (٦) فتوح البلدان - تحقيق/ صلاح الدين المنجد - مصر ١٩٥٦م.
- ابن الجوزي 'عبد الرحمن بن علي بن محمد' ت ٥٩٧هـ -
- (٧) زاد المسير في علم التفسير - المكتب الإسلامي - بيروت ط (٣) ١٤٠٤هـ.
- (٨) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - تحقيق/ محمد عبد القادر وعطا عبد القادر مصطفى - دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٩٩٢م.
- الحاكم 'أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد' ت ٤٠٥هـ -
- (٩) المستدرک علی الصحیحین، وبهامشه تلخیص المتشابه للذهبي تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٩٩٠م.
- ابن حجر العسقلاني 'شهاب الدين أحمد بن علي' ت ٨٥٢هـ -

- (١٠) الإصابة في تمييز الصحابة - تحقيق/ على محمد البجاوي - دار الجيل - بيروت - ط(١) ١٤١٢هـ.
- (١١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - تحقيق ومراجعة/ محب الدين الخطيب وآخرين - دار الريان للتراث - مصر (١) ١٩٨٦م.
- ابن حزم 'أبو محمد على بن أحمد بن سعيد' ت ٤٥٦هـ.
- (١٢) جمهرة أنساب العرب - دار المعارف - مصر سنة ١٩٤٨م.
- أبو حنيفة الدينوري 'أحمد بن داود بن وثند' ت ٢٨٢هـ.
- (١٣) الأخبار الطوال - تحقيق/ عبد المنعم عامر - مطبعة عيسى البسابي الحلبي - مصر ١٩٦٠م.
- ابن خلدون 'ولي الدين عبد الرحمن بن محمد' ت ٨٠٨هـ.
- (١٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر - بيروت - لبنان سنة ١٩٦٨م.
- الذهبي 'محمد بن أحمد بن عثمان' ت ٧٤٨هـ.
- (١٥) سير أعلام النبلاء - تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرين - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان ١٩٨١م.
- الرازي 'محمد بن عمر بن الحسن' ت ٦٠٦هـ.
- (١٦) مفاتيح الغيب - دار الفكر - بيروت ط(٣) ١٩٨٥م.
- الزبير 'أبو عبد الله المصعب بن عبد الله' ت ٢٣٦هـ.
- (١٧) كتاب: نسب قریش - دار المعارف - مصر سنة ١٩٥٣م.
- ابن سعد 'محمد بن سعد بن منيع' ت ٢٣٠هـ.
- (١٨) الطبقات الكبرى - تحقيق/ إحسان عباس - دار صادر - بيروت سنة ١٩٨٥م.
- أبو السعود 'محمد بن محمد بن مصطفى' ت ٩٨٢هـ.
- (١٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - دار إحياء التراث - بيروت - بدون تاريخ.
- السمعاني 'أبو سعد عبد الكريم بن محمد' ت ٥٦٢هـ.
- (٢٠) الأنساب - تحقيق/ عبد الله عمر البارودي - دار الجنان - بيروت ط(١) ١٩٩٨م.
- السمهودي 'علي بن عبد الله بن شهاب' ت ٩١١هـ.

(٢١) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى - مطبعة الآداب والمؤيد - مصر سنة ١٣٢٦هـ.

• السهمي "حمزة بن يوسف أبو القاسم" ت ٤٢٧هـ.

(٢٢) تاريخ جرجان - تحقيق/ محمد عبد المعيد خان - عالم الكتب - بيروت ط (٣) ١٩٨١م.

• ابن سيد الناس "أبو الفتح محمد بن محمد" ت ٧٣٤هـ.

(٢٣) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير - دار الفكر ودار الآفاق - مصر ١٩٨٢م.

• السيوطي "جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال بن محمد" ت ٩١١هـ.

(٢٤) الخصائص الكبرى - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٥م.

(٢٥) لباب النقول في أسباب النزول - دار إحياء التراث - بيروت - بدون تاريخ.

• ابن شبة "أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري" ت ٢٦٤هـ.

(٢٦) تاريخ المدينة المنورة - تحقيق/ فهم محمد شلتوت - دار الأصفهاني للطباعة - جدة ١٩٧٤م.

• الطبراني "سليمان بن أحمد بن أيوب" ت ٣٦٠هـ.

(٢٧) المعجم الكبير - تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي - مكتبة العلوم والحكم - الموصل ط (٢) ١٩٨٣م.

• الطبري "أبو جعفر محمد بن جرير" ت ٣١٠هـ.

(٢٨) تاريخ الرسل والملوك - دار الكتب العلمية - بيروت - بدون تاريخ.

(٢٩) جامع البيان في تأويل القرآن - تحقيق/ أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - بيروت ط (١) ٢٠٠٠م.

• ابن عبد البر "أبو عمر يوسف بن عمر القرطبي" ت ٤٦٣هـ.

(٣٠) الاستيعاب في معرفة الأصحاب - دار الكتاب العربي - بيروت - بدون تاريخ.

• العصامي "العصامي بن الحسين بن عبد الملك" ت ١٢٦٣هـ.

(٣١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي - بغاية/ قاسم درويش فخرو - القاهرة ١٣٧٩هـ.

- القرطبي "محمد بن أحمد الأنصاري" ت ٦٧١هـ.
- (٣٢) أحكام القرآن - تحقيق/ محمد الببلاوي وآخرين - دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ.
- ابن قيم الجوزية "شمس الدين محمد بن أبي بكر" ت ٧٥١هـ.
- (٣٣) زاد المعاد في هدى خير العباد - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٤م.
- ابن كثير "إسماعيل بن عمر القرشي" ت ٧٧٤هـ.
- (٣٤) البداية والنهاية - مكتبة المعارف - بيروت - بدون تاريخ.
- (٣٥) تفسير القرآن العظيم - تحقيق/ سامي بن محمد بن سلامة - دار طبعة للنشر والتوزيع - السعودية ط (٢) ١٩٩٩م.
- الكلاعي "أبو الربيع سليمان بن موسى" ت ٦٣٤هـ.
- (٣٦) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء - تحقيق/ محمد كمال الدين عز الدين علي - عالم الكتب - بيروت - ط (١) ١٤١٧هـ.
- الكلبي "أبو المنذر هشام بن محمد السائب" ت ٢٠٤هـ.
- (٣٧) كتاب الأصنام - دار الكتب المصرية ١٩٢٤م.
- ابن المبارك "عبد الله بن المبارك بن واضح" ت ١٨١هـ.
- (٣٨) الزهد - تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي - دار الكتب العلمية - بيروت - بدون تاريخ.
- مسلم "أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم" ت ٢٦١هـ.
- (٣٩) الجامع الصحيح - دار الجيل - بيروت - بدون تاريخ.
- ابن منظور "محمد بن مكرم المصري" ت ٧١١هـ.
- (٤٠) لسان العرب - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى.
- ابن هشام "أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري" ت ٢١٣هـ.
- (٤١) السيرة النبوية - دار الفجر للتراث - القاهرة - مصر ط (٢) سنة ٢٠٠٤م.
- الهيثمي "تور الدين علي بن أبي بكر" ت ٨٠٧هـ.
- (٤٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - دار الفكر - بيروت ١٩٨٨م.

• الواحدى "أبو الحسن على بن أحمد الشَّهابورى" ت ٤٦٨هـ.

(٤٣) أسباب النزول - دراسة وتحقيق/ السيد الجميلى - دار الريان للتراث - مصر - بدون تاريخ.

• الواقدى "أبو عبيد الله محمد بن عمر" ت ٢٠٧هـ.

(٤٤) مغازى رسول الله - - تحقيق/ مارسدن جونز عالم الكتب - بيروت ط(١) ٢٠٠٦م.

• الوزير المغربى "الحسين بن على بن الحسين" ت ٤١٨هـ.

(٤٥) الإيناس بعلم الأساب - تحقيق المرحوم/ أحمد الجاسر - الرياض - ١٩٨٠م.

• ياقوت الحموي "ياقوت بن عبد الله الرومى" ت ٦٢٦هـ.

(٤٦) معجم البلدان - دار الفكر - بيروت - لبنان - بدون تاريخ.

ثانياً: المراجع:

• أحمد عادل كمال.

(١) الطريق إلى المدائن - دار النفائس - بيروت ط(٢) ١٩٧٣م.

• أكرم ضياء العمرى.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة. محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية - مكتبة العبيكان - الرياض ط(٥) ٢٠٠٣م.

• جواد على

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - المجمع العلمى العراقى - سنة ١٩٦١م.

• الزر كلّى "خير الدين"

(٤) الأعلام - دار العلم للملايين - لبنان ط(٤) ١٩٧٩م.

• لسترنج كى.

(٥) بلدان الخلافة الشرقية - ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد - مؤسسة الرسالة - بيروت ط(٢) ١٩٨٥م.

• مجمع اللغة العربية.

(٦) المعجم الوجيز - طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم مصر سنة ١٩٩٦م/١٩٩٧م.

• محمد فرج

(٧) الفتح العربي للعراق وفارس - تقديم/ أحمد حسن الباقوري - دار الفكر العربي - مصري ١٩٦٦م.

• محمود عرفة محمود.

(٨) العرب قبل الإسلام - أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم - دار الثقافة مصر ٢٠٠٤م.

• يحيى الخشاب.

(٩) موسوعة المدن العربية الإسلامية - دار الفكر العربي - لبنان ط (١) ١٩٩٣م. و



سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاية علي البلدان

د. محمد سعد إسماعيل (*)

إن الحاكمية في الدولة الإسلامية ومجتمعها هي لله تعالى، فهو المختص بوضع التشريعات التي ينبغي على المسلمين الالتزام بأحكامها، وقد تمثلت هذه الشريعة في القرآن الكريم، ومن ثم فقد اقتصر دور الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده على تنفيذ هذه الأحكام والاجتهاد في فهمها أو تفسيرها، ولقد كان لتوقف نزول الوحي بعد وفاة الرسول فرصة كبرى منحت الخلفاء وقادة المسلمين حرية واسعة في الاجتهاد وبشكل خاص في مجالي السياسة والإدارة العامة.

كان الرسول والخلفاء من بعده قد أخضعوا إدارة الدولة والمجتمع وفق الأهداف والأحكام التي جاء بها القرآن الكريم، وكانت من أهم الأعمال التي ظهرت لتحقيق ذلك إمامة المسلمين في الصلاة في المسجد وتنظيم السرايا والغزوات للجهاد، وتعيين العمال أو الولاة على المدن التي تدخل في إطار الدولة العربية الإسلامية كمكة والطائف وغيرها لإدارة شئونها، أما المدينة فكان يتولى إدارتها الرسول مباشرة والخلفاء من بعده وكذلك الإمارة على موسم الحج في مكة وإرسال العمال إلى مختلف القبائل والأمصار لأخذ الصدقات والقضاء بين الناس وحسم المنازعات التي تنشأ بينهم من قبل الرسول أو أحد الصحابة.

وبعد اتساع حركة الفتوحات الإسلامية ظهرت هناك حاجة ماسة للاستعانة بالولاة لحكم البلاد المفتوحة، وفي هذه الفترة المبكرة كان يتم اختيارهم من الصحابة ومن قواد الجيش الفاتحين جرياً على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم. ودراسة سياسة الخلفاء الراشدين ونظمهم في اختيار الولاة والنظام الذي سار عليه الولاة في إدارة أعمالهم والمهام التي كانت التي توكل إليهم لها جدية بالاهتمام، وإدارتها من أهم الملامح التي تبرز سلطان الخلفاء الراشدين وترسم شخصيتهم وتستحق البحث، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال واقع ملموس تمثله قائمة الولاة الذين تعاقبوا على ولايات الدولة المختلفة، فكانوا هم الأداة التي وقع عليها عبء تنفيذ هذه السياسة نجاحها أو فشلها في ولايات الدولة المختلفة.

(*) مدرس بكلية آداب بورسعيد جامعة بورسعيد.

الولايات قبل الاسلام :

يقصد بالولاية الامارة على البلاد فيولي السلطان أو الملك من يقوم مقامه في حكومة الولايات، وهي الاعمال في اصطلاحهم، وكانت الشام لما فتحها المسلمون واحدة من ولايات الروم ويسمونها ولاية الشرق، وقد قسمت إلى ١١ اقليماً تحت كل اقليم عدة بلاد ولكل اقليم قصبه، وكان لكل اقليم حاكم أو عامل سماه الروم بطريقاً وهو لقب جماعة من اشراف المملكة الرومانية، وبعد انقسام الدولة قل شأن البطريق ولم يعد له عمل في الحكومة ولكن لما امتد شأن الرومان إلى أفريقيا وسائر المشرق أعادت الحكومة التفكير في الاستفادة من هذه الولايات البعيدة فولوا البطريق حكومة تلك المستعمرات وفي جملتها الشام ومصر. (١)

فكان على كل اقليم من أقاليم الشام حاكم يقيم في قصبته ومعه الجند في القلاع، وكان على كل من هذه الأقاليم حاكم عام يقيم في انطاكية ولهذا الحاكم أن يولي ويعزل من يشاء من حكام الأقاليم كما يتولى أيضاً جباية الخراج والانفاق على الجند وسائر أعمال الولاية. (٢)

الولايات في الاسلام :

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح، كانوا إذا أرسلوا قائداً إلى فتح بلد ولوه عليه قبل خروجه، أو شرطوا عليه إذا فتحه فهو أمير عليه وكان ذلك شأنهم من أيام النبي، وجاءت كتب الأحاديث لتوضح وجهة نظر النبي في هذا الأمر، في باب تأمير الامام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم : " كان رسول الله إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته يتقوي الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال (أغذوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله اغذوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا...) كما قال أيضاً (إن والله لا نولي على هذا العمل احداً سألته ولا أحد حرص عليه). (٣)

وقال النبي "صلى الله عليه وسلم" (ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة)، كما قال أيضاً في هذا الشأن (اتقوا الله وسودوا أكبركم) جاء رجل للنبي فقال : أنت سيد قريش، فقال النبي: السيد الله تبارك وتعالى، قلنا وأفضلنا وأعظمنا طولا فقال.. قولوا لقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان) سؤل رسول الله من السيد ؟ فقال يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام قالوا : فما امتك من سيد قال : يلي من آتاه الله مالا ورزقه سماحة فأدي شكره وقلت شكايته في الناس. (٤)

ولما تولى أبو بكر الخلافة وبعث البعوث لفتح الشام، كان إذا عقد لأحدهم لواء على بلد أو إقليم ولاه قبل ذهابه بفتحه، فعقد لواء لعمر بن العاص وأمره أن يسلك طريق ايله عامدا فلسطين، وعقد لواء آخر ليزيد بن سفيان وأمره أن يسلك طريق تبوك إلى دمشق، وولي كل واحد منهم البلد الذي هو سائر لفتحه وقال لهم : " إذا كان بكم قتال فأميركم الذي تكونون في عمله، ولما تولى عمرو بن الخطاب الخلافة ولي إيا عبيده بن الجراح أمر الشام كله وأمرة الأمراء في الحرب والسلم فتشابه في عمله هذا

علي ما كانت عليه الشام قبل فتحها، وهي أن يكون علي كل إقليم عامل، وعلي عمال الأقاليم وال عام، وهكذا كان العمال في عهد الخلفاء الراشدين قواد الجند اللذين افتتحوا تلك الاعمال وتركز عملهم في مراقبة سير الأحكام في البلاد التي فتحوها وأقامة الصلاه وجمع الخراج^(٥)

النظام المركزي في إدارة الدولة الإسلامية:

كانت السلطة المركزية تتكون من الرسول الكريم الذي جمع بين صفتي الرسول والحاكم، وكان اصحابه أشبه بحكومته يشاورهم في الأمور العامة والخاصة وحل مشاكل المسلمين وعلي رأسهم أبو بكر وعمر ومن باقي أفراد حكومته من العمال الذين كان يختارهم من الأكفاء القادرين علي القيام بالعمل علي خير وجه^(٦)

كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية قد خضعت إدارتها وإدارة المناطق المجاورة لها لسلطة النبي، أما بلاد العرب فقد قسمت إلى مقاطعات هي المدينة وتيماء والجند، ومقاطعة بني كندة، ومكة ونجران اليمن وحضرموت، وعمان والبحرين، وعين علي كلا منهما واليا عهد إليه بإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام فضلاً عن حفظ النظام وإعداد الترتيبات الخاصة بالقضاء ومن أمثلة هؤلاء عتاب بن أسيد علي مكة وعثمان بن أبي العاص علي الطائف وعمرو بن حزم الانصاري نجران، وزباد بن لبيد من بني بياضة من الأنصار حضر موت، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية صنعاء والمهاجر بن أمية المخزومي كنده والصدق، ومعاذ بن جبل الانصاري الجند والقضاء وتعليم الاسلام وشراعة وقراءة القرآن وقبض الصدقة من عمال اليمن^(٧).

والى جانب هؤلاء الولاة اختار النبي عمالاً علي كل قبيلة لجمع الزكاة (الصدقات) وقد تميز هؤلاء بالنزاهة والخلق الكريم فضلاً عن خبرتهم في ذلك لان النبي دربهم علي القواعد الخاصة بجباية الزكاة، ومن أمثلة هؤلاء عبد الرحمن بن عوف علي صدقات كلب، وعدى بن حاتم علي الحليين طيء وأسد، وعباد بن بشر الانصاري صدقات بني المصطلق من خذاعة والأقرع بن حابس التميمي صدقات بني دارم بن مالك بن حنظلة^(٨).

وقد حدث تطور إداري بعد الفتوحات واتساع رقعة الدولة ومبايعة القبائل للنبي علي الطاعة والولاء، حيث أسند النبي إدارة المناطق الخاضعة لبعض القبائل لرؤساء القبائل بها كما استخلف نواباً عنه في المدينة حينما كان يخرج عنها كما عين عمالاً علي المناطق الأخرى من الأمراء والملوك علي أعمالهم سواء من أسلم منهم أو من قبل دفع الجزية، وقد نجح هؤلاء العمال في إنشاء نظام عامة للمراقبة وجباية الضرائب وذلك لحماية الدولة الناشئة من أي خطر يهدد بانفصال هؤلاء عنها^(٩).

حرص النبي علي الرقابة الإدارية علي عماله أو ولاته بصورتها سواء كانت علي أشخاصهم أو علي أعمالهم ، فمن صور مراقبته علي الولاة حيث كان يمتلك سلطات تعينهم وتوقيع السلطات التأديبية عليهم، فقد ولي عثمان بن أبي العاص علي

الطائف، كما قام بعزل العلاء الحضرمي أميره على البحرين لأن وقد عبد قيس شكاه وتبين صحة ما نسب إليه^(١٠).

كما مارس النبي الرقابة على أعمال هؤلاء الولاة أو العمال ومن وسائله في ذلك: توجيه النصيحة والإرشاد والتوجيه وإصدار التعليمات سواء في صورة دوريات أو إرسال مفتش لإعداد تقارير عن ذلك، ومن أمثلة ذلك قوله لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن "وعلمهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم" كما سبقت الإشارة إلى قيام النبي بالتفتيش على الولاة والتحقيق في الشكاوى المقدمة ضدهم مثلما فعل وعزل العلاء الحضرمي أميره على البحرين^(١١).

ومن الملاحظ أن النبي أعلا من شأن بني أمية بعد أن اخلصوا في إسلامهم وفي زودهم عن العقيدة والدولة فولاهم الولايات فعين عتاب بن أسيد بن أمية علي مكة وخالد بن سعيد بن أمية علي صنعاء وصدقات اليمن وابان بن سعيد بن العاص علي البحرين وعمر بن سعيد بن العاص علي تيماء وخيبر تبوك وفدك وأبا سفيان بن حرب علي نجران، وهكذا عمل النبي علي القضاء علي عوامل النزاع والتنافس بين بني هاشم وبني أمية، فإذا كانت النبوه ورئاسة الدولة في يد بني هاشم أيام الرسول، فقد ولي الرسول بني أمية الولايات وأعلا من شأنهم واختارهم لأنهم كانوا أهل جزاء وغناء وكفاية ودراية بالحكم والادارة والسياسة^(١٢).

وكان الرسول لا يستعمل الرجل إلا لمصلحة راجحة وخبرة ودراية معينة لا توجد في غيره ومثال ذلك : تأميره لعمرو بن العاص في عمان لأنه كان يعرف ان عمرو أعلم من غيره ممن كان معه من كبار الصحابة، كما ولي عتاب بن أسيد علي مكة بعد فتحها وكان سنه لا يتجاوز الثالثة والعشرين ، كما ولي معاذ بن جبل منصب القضاء في اليمن وعمره دون العشرين^(١٣).

وكان الرسول قد ربي هؤلاء الرجال من الأمراء أو العمال علي أساس ان يحكموا بين الناس حسب الكتاب والسنة وألا يشقوا علي الرعية وان يشاوروا الناس خاصهم وعامهم فيما يعرض عليهم من أمور ليس فيها نص صريح من كتاب أو سنة، وأن يقبلوا رأي الأغلبية وكان الرسول مثلهم في ذلك يعظمهم ويضرب لهم الأمثلة كما رباهم، علي ان يحكموا الناس بالعدل (فالظلم ظلمات يوم القيامة) كما علمهم ألا يمدوا أيديهم لأموال الرعية فحرم الرشوة وجعل (هدايا العمال غلول)^(١٤).

وهكذا قامت الدولة الجديدة علي أساس مبادئ الإسلام في كل شيء، في إدارتها وسياستها وحربها وسلمها وصلاتها بالأفراد والجماعات، واتخذ المسلمون حاكمين ومحكومين من القرآن وسنة الرسول دستوراً لهم ينظم شئونهم، ويهيمن علي شئون الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتشريع، وهكذا جمع الرسول صلى الله عليه وسلم بين التشريع والتنفيذ والقضاء.

مركزية الحكم في الدولة الإسلامية زمن الراشدين

لم يخرج الخليفة أبو بكر في مدة خلافته القصيرة التي تولى خلالها أمور المسلمين عن الخطه التي رسمها رسول الله، فكان نهجه علي غرار النهج النبوي في طراز حكومته وأسلوب إدارته، فكان هو الخليفة (الرئيس الاعلي للدولة) المسيطر علي جميع الأنظمة السياسية والادارية والمالية والحربية والقضائية في الدولة، أقر الخليفة أبو بكر عمال الرسول ولكن قام بتعديل أماكن هؤلاء فولي زياد بن لبيد كنده والصدق إلي حضر موت وولي المهاجر بن أبي أمية صنعاء مكان خالد بن سعيد فولي عتاب بن أسيد مكة والطائف ثم ولي عثمان بن أبي العاص الطائف ثم أقر عتاب بن أسيد علي مكة فقط^(١٥).

فاستمر أبو موسى الأشعري واليا علي زبيد ورفع، كما عينه الخليفة عمر بعد ذلك علي الكوفة والبصرة وفتحت علي يده عدة أمصار^(١٦). وولي الخليفة أبو بكر العلاء الحضرمي أميراً علي البحرين وكان له أثر عظيم في قتال أهل الردة^(١٧).

وجعل أبو بكر يعلى بن منبه التميمي علي اليمن في عام ١٢ هـ / ٦٣٤ م كما عمل واليا لعمر بن الخطاب في اليمن والطائف وصنعاء^(١٨).

وجعل أبو بكر الصديق عمرو بن العاص أحد قادة الفتح أميراً في بلاد الشام ثم عينه عمر بن الخطاب علي فلسطين وسيرة في جيش إلي مصر لفتحها وعين أميراً عليها بهد ذلك وأستمر فيها لعدة سنوات من خلافة عثمان بن عفان، وانحاز عمرو بن العاص بعد ذلك إلي معاوية بن أبي سفيان في صراعه مع الإمام علي بن أبي طالب^(١٩). سار أبو بكر علي سياسة الرسول فقام بتولية بعض بني أمية الولايات^(٢٠) كما ولى بعضهم قيادة الجيوش ثم أقرهم بعد ذلك أمراء وحكاماً علي البلاد التي فتحوها ومن أمثلة هؤلاء خالد بن سعيد بن العاصي ولاة علي مخاليف اليمن، واستمر عثمان بن العاص والياً علي الطائف منذ أن عينه النبي وكذلك في عهد أبي بكر، كما احتفظ بعتاب بن أسيد وأبقاه أميراً علي مكة وعلي موسم الحج، وعين يزيد بن أبي سفيان قائداً لأحد الجيوش التي أنفذها لفتح بلاد الشام في بداية عام ١٣ هـ - ٦٣٤ م، وأرسل أبا سفيان بن حرب في جيش اليرموك يسير بين المقاتلين يحمسهم علي القتال ويذكرهم بأخبار الوقائع والفروسية والأمم وشجاعاتها وانتصاراتها^(٢١).

ولما أخذت حركة الفتح في التوسع لجأ أبو بكر رضي الله عنه إلي تعيين ولاة جدد أمثال المثني بن حارثة علي الكوفة، وعياض بن غنم الفهري إلي دومة الجندل كما عين سليط بن قيس والياً علي اليمامة وسويد بن قطبة علي البصرة، وحذيفة بن اليمان في عمان والبحرين^(٢٢).

وهكذا كان عمال أبي بكر هم قادة جيوشه وقد جمعوا بين ولاية الجهاد وولاية الخراج والجزية والقضاء علي أقاليمهم بل تولوا تعيين عمالاً من قبلهم في الأرض التي يفتحونها وأصبح هؤلاء لا يشغلهم مراجعة الخليفة في كل الأمور وتمتعوا بنوع من الاستقلال الذاتي ويبدو من النظرة الأولى للباحث أن سياسة الخليفة أبي بكر الصديق

في اختيار الولاة كانت امتداداً لسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فالكفاية والصحية كانت من أبرز الخصال فيمن اختارهم، كما جعل أهل الحنكة والدراية والسن من أهل قريش على العراق والشام وهو بذلك أراد أن يظهر للناس بولايتهم إمرة البيت القرشي على البيوت في مكة والمدينة ولاسيما وقد استقرت الخلافة في قريش، وأراد أن يضبط بالولاة من قريش أمور العراق والشام ويأمن ثورتهم لاستمرار ملكهم، ومن جهة أخرى أراد أبو بكر أن يضبط بالولاة من بنى أمية أمور الحجاز بغرض السيطرة عليه وضبط أموره لما لهم من خبرة سابقة ودراية بالحكم والإدارة والسياسة حيث سبق أن استعان بهم الرسول بعد أن أخلصوا في إسلامهم وفي دورهم عن العقيدة والدولة^(٢٢).

لم يحدث الخليفة أبو بكر تغييرات جوهرية واضحة بالنسبة لنمط الرقابة الإدارية فإدارته الحكومية على نهج الرسول فلم تكن بحاجة إلى نظام غير النظام الذي أنشأه الرسول من قبل فكان أبو بكر هو الرقيب الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا تتبعها كي يعرف مدى تنفيذ أحكام الشريعة في العدل والمساواة والإخاء بين المسلمين، وكان الخليفة يحرص على إنصاف المظلوم ورد الحق إلى أصحابه وذلك من خلال سؤاله لرعيته : هل من أحد يشتكى ظلامه^(٢٣).

وتعد الإدارة في عهد عمر بن الخطاب استمراراً لما وضعه الرسول وخليفته أبو بكر من أسس وتنظيمات في هذا المجال **إلا أنه نظراً للمستجدات العسكرية التي حدثت في هذا العهد في ميدان حروب التحرير والفتوحات وما ترتب عليها من توسعات كثيرة في مساحة الدولة مما دعى الخليفة عمر بن الخطاب إلى تطوير هذا النظام والقيام ببعض التعديلات التي تمكن الدولة من تلبية احتياجاتها الجديدة**^(٢٤).

وقد اتبع الخليفة عمر بن الخطاب أسلوب المركزية في الحكم والتنظيم الإداري وذلك بأن حصر الوظيفة الإدارية في يده وفي العاصمة، وفي يد ممثلي الحكومة المركزية في الأقاليم، وهكذا جمع الخليفة في يده السلطة التنفيذية فكان هو رئيس الحكومة في الدولة الإسلامية، كما مارس سلطاته الرئاسية على عماله وولاته من حيث تعيينهم أو نقلهم، كما كان يصدر لهم التوجيهات والأوامر الإدارية^(٢٥).

وكان الوالي أو العامل يحرص على أن يكون قيامه بمهام عمله في إطار خضوعه لمركز الخلافة محرراً بذلك شكلاً مثالياً للحكم المركزي الذي شاع آنذاك، وتأتي الرسائل المتبادلة بين الخليفة عمر بن الخطاب وعسرو بن العاص عاملة على مصر في شأن مصالح أهل مصر مقابل أدائهم للجزية دليلاً وشاهداً على ذلك^(٢٦).

وتأتي إشارات المصادر تؤكد حرص الخليفة عمر بن الخطاب على تحقيق هذا الشكل المثالي في الحكم فلا يترك عماله وشأنهم، بل كان يسعى إلى مراقبة أحوال الولايات عن كثب وذكر عنه قوله (لئن عشت إن شاء الله لأسير في الرعية حولاً فإنني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني إما أعمالهم فلا يرفعونها إلي وأما هم فلا يصلون إلي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين... والله لنقم الحول هذا)^(٢٧).

كان عمر إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول إني استعملكم علي أمة محمد علي أشعارهم ولا علي أيشارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل .. وكان يقتص من عماله إذا شكى إليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه (٢١).

وكان عمر بن الخطاب يستدعي ولاته من آن لآخر، لمعرفة ما يدور في الولاية فكان قدوم عمرو إلى عمر، ليتعرف على ما طرأ على حياته من تغيير حتى إنه كان يحتّم على عماله أن يدخلوا المدينة نهراً (٢٢).

فأبقى الخليفة عمر بن الخطاب بعض الولاة في أماكنهم مثل عتاب بن الأسيد في مكة كما غير أماكن البعض منهم كيطلق بن منية على الطائف وعثمان بن العاص على اليمامة والبحرين وحذيفة بن محصن على عمان وكان لهؤلاء خبرة ودراية في بعض الإدارة والحكم اكتسبوها منذ فترة سابقة (٢٣).

واحتفظ بيزيد بن أبي سفيان وعينه أميراً على دمشق بعد فتحها كما ولى أخاه معاوية على الأردن ولما مات يزيد في طاعون عمواس عام ١٨ هـ - ٦٢٩ م اسند لمعاوية ما كان لأخيه فاجتمع لمعاوية حكم بلاد الشام كلها وفي نفس الوقت لم يعهد عمر بن الخطاب لأحد من بني هاشم بإمارة الجند أو إمارة البلدان سواء في بلاد العرب أو في البلاد المفتوحة وأبقاهم بجواره في المدينة لمشاورتهم في أمور المسلمين أو لخوفه من افتتان الناس بهم إذا سمح لهم بالهجرة إلى الأمصار الإسلامية الجديدة (٢٤).

وكان عمر بن الخطاب يختار ولاته من العرب بناء لمقدرتهم في فهم أصول الشريعة الإسلامية وفهمهم لأصول الدين وليس تعظيماً لعرقهم أو جنسهم لأن عليهم أن يقيموا للناس الصلاة ويقضوا بينهم بالحق ويقسموا الغنائم والفيء والعشور (٢٥).

لقد تولى الخليفة عثمان بن عفان الخلافة بعد مقتل عمر بن الخطاب وألزم الخليفة نفسه بإتباع كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر وقد اتبع أسلوب المركزية في تنظيم وإدارة شئون الدولة، ففي البداية كان الخليفة على رأس الجهاز الإداري وبأسر سلطاته الإدارية تجاه ولاته وعماله وذلك بالإبقاء عليهم في أعمالهم لمدة عام كما أشار عليه الخليفة عمر بن الخطاب بذلك لأنه كان يشفق أن يتعجل الإمام من بعده في عزلهم وتولية غيرهم مما يؤدي إلى تعطيل ما بدأه هؤلاء في أعمالهم، فيضطرب أمر المسلمين والأمصار والثغور، وقد عمل عثمان رضي الله عنه بهذه الوصية وألزم هؤلاء بسياسة ما اتبع سلفه في اختياره لعماله من العرب الذين حسن إسلامهم وثبت كفايتهم (٢٦).

ولم تمضي سنة كاملة على خلافة عثمان حتى أسرع وعزل ولاة عمر بن الخطاب وعين رجالاً من قريش على الأقاليم بدلاً منهم لأنه كان يريد التقرب من قريش على عكس ما كان يتبعه عمر من إبعاده لأهل البيت وذوي العصبية من قريش من إدارة الأقاليم والتحكم في الناس وحتى الرسول نفسه كان يرى مثل عمر في ذلك، ولكن

عثمان رضى الله عنه فضل قريش دون العرب وآثر أقاربه بل وآثر فريقاً منهم على البقية^(٣٥).

ولكن عثمان بن عفان سار على نفس المنهج العمرى فقام بعزل عمرو بن العاص رغم مكانته وفضله ويولى بدلاً منه عبد الله بن سعد وقام بمراقبة هذا الوالى كما كان يستدعيه للمدينة فى موسم الحج، ويحاسبه نفس الحساب الذى كان يقوم به عمر من قبل وذلك حتى يتسنى له القيام بعمله فى إطار خضوعه لمركز الخلافة^(٣٦).

عمل الخليفة على بن أبى طالب على قيادة الدولة وفق المبادئ التى فهمها من رسالة الإسلام والتى جاهد من أجلها وكان بحاجة إلى قدر كبير من الاجتهاد لكى يتمكن من إدارة الدولة بصورة حسنة، لكنه تولى وسط ظروف صعبة لم تساعده على تحقيق أهدافه، كما فقد أهل المدينة من المهاجرين والأنصار امتيازهم فى إدارة شئون الدولة واختيار الخليفة بحكم تميزهم بصحبة الرسول والجهاد فى سبيل الله فأتى أهل الأمصار بقوة لمشاركتهم فى هذا الأمر، وحرص الخليفة على إتباع أسلوب المركزية فى تنظيم وإدارة الدولة، وبأشهر سلطاته الإدارية من خلال عزله وتعيينه لعمال وولاة جدد^(٣٧).

حرص الخليفة على بن أبى طالب فى إتباع سياسة جديدة فى اختياره لولاته وعماله على الأمصار فقام أولاً بعزل ولاة عثمان وعين بدلاً منهم آخرين يتمتعون بثقته الكاملة ويدركون أبعاد سياسته فى إدارة شئون الدولة رغم نصيحة بعض أنصاره والمقربين له أمثال المغيرة بن شعبة وابن عباس بإبقائهم على ولايتهم حتى تستقر الأمور وتتخذ له البيعة فى الأمصار، ولكنه رفض أن يداهن فى دينه حسب قوله وعزلهم^(٣٨).

وفى سنة ٣٦ هـ أرسل الخليفة ولاته إلى الأمصار فبعث عثمان بن حنيف إلى البصرة، وعماره بن شهاب إلى الكوفة وعبيد الله بن عباس إلى اليمن، وقيس بن عباد إلى مصر، وسهل بن حنيف إلى الشام، ويلاحظ على ولاة على بن أبى طالب أن ثلاثة منهم كانوا من الأنصار وأن الاثنين الآخرين كانا من قريش مما يدل على حرص الخليفة على تقريب الأنصار والاعتماد عليهم فى إدارة الدولة ولم يول أحداً من الخارجين على الخليفة عثمان^(٣٩).

ونظراً لتطور الأحداث والصراع المستمر فى البلاد بين الخليفة على ومعاوية فدعا ذلك علماً إلى الاعتماد على بعض أقاربه فى تولى أمر الولايات فعين قثم بن العباس والياً على المدينة ثم عاد وعينه على مكة والطائف فى أعوام خمس وثلاثين ثم سبع وثلاثين حتى سنة أربعين من الهجرة^(٤٠).

كما عين بعض الولاة استجابة لرأى أقاربه فقد أشار عليه ابن عباس بتولية زياد بن أبيه بلاد فارس فوافقه على ذلك، كما استعان ببعض مشاهير الصحابة وأبنائهم فى تولى بعض الولايات، فولى مالك بن الحرث بن الأشتر ولاية مصر ثم وليها بعد ذلك محمد بن أبى بكر الصديق^(٤١).

ومما يلفت النظر في اختيارات الإمام علي في الولاة والعمال والتي جرت على وجه السرعة كانت على مبدأ القرابة والكفاءة والمعرفة والدراية بأمور الحكم والسياسة فضلاً عن مشاهير الصحابة والشرف والشجاعة ولم تختلف كثيراً عما سبقه من الخلفاء.

ويبدو مما سبق أن السياسة الإدارية في عهد الراشدين تميزت بالمركزية الشديدة فكان الخليفة في المدينة المنورة بيده الأمر كله سواء في الأمور الدينية أو الدنيوية فهو الذي يسير الجيوش وينظم أمور الولايات ويحل مشاكل التشريع. وتنفيذ هذه المركزية تتطلب أن يكون للدولة منهج خاص في تعيين الولاة أو عزلهم ورقابتهم حيث لم يكن هؤلاء حكاماً عاديين بقدر ما كانوا دعاة إلى الإسلام وعنواناً للمثل العليا والدولة الجديدة، وكان يتم اختيار هؤلاء في البداية من الصحابة أصحاب الجهاد الأكبر والمكانة السامية في الحياة الإسلامية، ولم تكن للقرابة اعتبار، بقدر ما كان الاعتبار الأول هو للمصلحة العامة للمسلمين فقط، وكان اختيار الوالي إذا ما تم وفق ذلك كان لابد أن تراقبه الدولة وتلزمه بتنفيذ هذه السياسة وإذا ما ثبت مخالفتهم في أي شيء كانوا يعزلون على الفور ولأنه الأسباب.

اختيار الولاة في ضوء تطور الأماره علي البلدان في زمن الراشدين

١- في عهد أبي بكر الصديق

ومن الأمور التي استحدثت على النظام الإداري للدولة العربية الإسلامية في عهد أبي بكر تمتع نوابه وأمراء الجند في أقاليم الدولة لسلطات واسعة منها تعيين نواب لهم، وعقد معاهدات مع أهالي الإقليم أي ما يطلق عليه الاستقلال الإداري وظهر ذلك واضحاً في العراق والشام نظراً لبعدهم عن قاعدة الخلافة، فقد كان أكثر الولاة أحراراً في تصريف شئون ولاياتهم الإدارية بما يرونه ويخطر على الخليفة بما يطرأ إليهم من عظام الأمور، فلم يكن الأمر قد استقر في تلك النواحي استقراراً نهائياً، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما فعله خالد بن الوليد في العراق حيث صالح أهل الحيرة واشترط عليهم شروطاً، كما عقد المعاهدات مع أهل عين التمر وأهل البس بل وصل الأمر به أن كتب إلى رؤساء أهل فارس يدعوهم إلى الدخول في الإسلام^(٤٢).

كما باشر الخليفة أبو بكر توقيع السلطات التأديبية بالقدر المناسب لدرجة المخالفة فقد أنب خالد بن الوليد لزوجاه من ابنة مجاعة بن مرارة بأرض اليمن، نظراً لما ترتب عليه من انشغاله عن أمور المسلمين بتلك البلاد، كما وصلت صلة التأديب إلى حد العزل، كما فعل أبو بكر حين عزل خالد بن سعيد عن صنعاء وصدقات اليمن وعين مكانه شرحبيل بن حسبه لأنه أصلح للأمر وأقوى منه عليه، وعزل عامله على كندة زياد بن لبيد نظراً لسوء تصرفه فأدى ذلك إلى هياج الأهالي ورجوع بعضهم عن الإسلام ومنعهم الزكاة، فأرسل بكتاب إلى الأشعث ابن قيس ومن معه من قبائل كنده أعلن فيه عزل هذا العامل وأن يولى عليهم من يحبون^(٤٣).

٢- في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

لما وتولى عمر بن الخطاب الخلافة سار على نهج النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه فى الحكم والإدارة ومن ثم فهو يتحمل مسئولية حكم وإدارة من يعيشون فى حضرته بصورة مباشرة، أما الذين يعيشون بعيداً عنه فى المدن والأصوار فإنه مسئول عن تعيين ولاية قادرين على إدارة شئونهم بنفس الطريقة من أهل القوة والأمانة^(٤٤).

قسم عمر بن الخطاب الدولة العربية من الناحية الإدارية إلى ثمانى ولايات وهى مكة والمدينة والشام والجزيرة (وهى بلاد ما بين النهرين) البصرة والكوفة ومصر وفلسطين، وأبقى على الأقسام الإدارية التى كانت قائمة فى عهد الدولة الفارسية وهى: فارس وكرمان، وخراسان ومكران وسجستان، وأذربيجان، وكانت الدولة الفارسية بأسرها جزءاً من الإمبراطورية الساسانية القديمة^(٤٥).

كما أتخذ العديد من الأعمال والتغييرات الإدارية التى كان لها أكبر أثر فى تطور الأوضاع الإدارية فى الدولة من بعده ومن أهم تلك الأعمال والتى تقع ضمن مفهوم الإدارة بمفهومها الواسع، تمصير الأصوار، ووضع التقويم الهجرى، وتنظيم القضاء.

وقد طرأت عدة تغيرات فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب على من سبقوه فى اختيار الولاية أو العمال خاصة فى ولايتى البصرة والكوفة وطريقة محاسبتهن نظراً لاضطراب أمورهما وكثرة القلاقل فضلاً عن كثرة شكاوى الأهالى بهما، وانطلاقاً من حرص الخليفة على استقرار الأمور بالبلاد فكان يختار لهما رجلاً من صحابة رسول الله والمشاهير فضلاً عن كفاءتهم فى أمور الحكم والإدارة، وفى سنة ١٥م / ٦٣٦م عين المغيرة بن شعبة والياً على البصرة ثم عاد وعزله بعد شكوى الأهالى منه، ولما استدعاه وحضر معه الشهود وواجههم فلم تثبت عليهم التهم فعاقب الشهود، ثم عاد وولاية الكوفة فى سنة ٢٢هـ / ٦٤٣م كما عاد إليها بعض الوقت فى خلافة على بن أبى طالب، ووقف هذا الوالى على الحياد فى الأحداث التى جرت بعد ذلك بين على وخصومه^(٤٦).

ومن ولاية عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الكوفة سعد بن أبى وقاص على الكوفة فى عامى ١٥، ١٤هـ / ٦٣٧، ٦٣٦م، فاخطت الكوفة ثم حدث وأن شكاه الناس فجمع الخليفة بينه وبينهم فثبتت براءته ومن ولاية الكوفة أيضاً عمار بن ياسر فى أعوام ٢٢، ٢١، ١٨هـ / ٦٤٣، ٦٤١، ٦٣٩م ثم حدث وأن اشتكى أهلها وذكروا للخليفة بأنه لا يصلح للإمارة فأمره بالقدوم إليه مع وفد من الكوفة فلما سألهم لم يحسن الإجابة فى بعض ما وجه إليه فعزله ثم أراد أن يسترضيه بعد ذلك فرفض أن يعود للعمل كأمير للولاية^(٤٧).

ومن ولاية الخليفة عمر بن الخطاب فى ولايتى الكوفة والبصرة أبو موسى الأشعرى فى أعوام ٢٢، ١٨، ١٧هـ / ٦٤١، ٦٣٩، ٦٣٨م ويذكر أن هذا الوالى استأذن الخليفة وأخذ معه تسعة وعشرين رجلاً من المهاجرين والأنصار وكان منهم أنس بن مالك، وقد

فتحت على يده عدة أمصار، كما عمل واليا لعل بن ابي طالب رضي الله عنه ووقف على الحياد في الخلاف الذي نشأ بين الخليفة على ومعاوية وأخيراً كان الحكم لعل بن ابي طالب في واقعة التحكيم^(٤٨).

ويبدو من خلال ما سبق أن هناك عدة تغيرات ظهرت على الإدارة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب كان من أهمها :

١- كان إمام الخليفة مهمة كبيرة عليه انجازها وهي مواصلة سياسة التحرير والفتح في جبهات العراق والشام ومن ثم فقد شغل قادة الجيوش بمهامهم الأساسية في التحرير والإدارة في تلك البلاد مما أدى إلى صعوبة الفصل في هذه المرحلة بين أعمال كل من قائد الجيش أو العامل أو والي فكثيراً ما كان القائد الأعلى للجيش في المنطقة منوطاً بمسئولية الإدارة كما هو الحال بالنسبة لعمر بن العاص في مصر وأبو عبيدة بن الجراح في الشام.

٢- استعان ولاية الأقاليم بالأنظمة الإدارية السابقة في إدارة أمور البلاد نظراً لانشغالهم بأمور الحرب والجهاد ولكن في ضوء ما يتفق مع روح الشريعة الإسلامية سواء في بلاد العراق وفارس أو مصر وبلاد الشام.

٣- شهدت الدولة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب توسعاً كبيراً أو تغيرات واسعة مما دعاه إلى إجراء تغييرات دائمة في أوضاعها الإدارية مما أدى إلى كثرة تغيير الولاية مع عدم استقرار تلك الولايات عند حد معين^(٤٩).

٤- عندما أستقر النظام الإداري في البلاد حصر الخليفة سلطة عماله فأصبح إلى جانب العامل، القاضي وصاحب الخراج، وأعتبر العمال أقل سلطة من الولاية فلم تكن لهم أية صفة سياسية وانحصرت طبيعة عملهم في الشؤون الموضوعية.

٥- ويلاحظ على الولاية والعمال الذين استعان بهم الخليفة في أقاليم الدولة لم يكن كلهم من قريش ولم يوجد فيهم أحد من بني عدى رهط عمر، ولم يقتصر في التولية على حي من العرب وإنما كان الأساس في الاختيار عنده حسن إسلامه وكفايته في العمل فضلاً عن ضميره الديني اليقظ الذي امتلأت به صدور الرجال من صحابة الرسول ومثل هؤلاء أداة الحكم في عهدي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فكان منهم الخليفة والقواد والولاية والعمال.

٦- كان عمر بن الخطاب عندما يعين والياً فإنه كان يعطيه عهد تعيين يحتوى على أمر تنصيبه وتحديد ما يخول له من سلطات، ويحمل هذا الأمر خاتم الخليفة ويشهد عليه جماعة من المهاجرين والأنصار ويقرأ على الملاء حتى يعرف كل فرد حقيقة سلطات الولاية والعمال^(٥٠).

وراقب الخليفة عمر بن الخطاب الولاية مراقبة مالية دقيقة بحيث كان على كل منهم أن يقدم عند تعيينه قائمة بكل ما يملك ثم يراقب أية زيادة تطرأ عليه ثم يتخذ إجراء ضده، وكان يحرم عليهم العمل بالتجارة مع عملهم الأصلي ومن أمثلة ما فعله في هذا الصدد : ومصادرتة لمال عتبه بن أبي سفيان والي كنانة عندما زاد ماله من خلال

التجارة، وكذلك الثروة الطائلة لكل من أبي هريرة وعمر بن العاص والياه على البحرين ومصر^(٥١).

٧- سن الخليفة سنة جديدة في تعيين الولاة وهي أن يعين بعضهم بموافقة ورضاء أهل الإقليم، كما حدث وسمح لأهالي البصرة والكوفة اختيار جباة الضرائب بهما، كما أن بقاء الوالي كان مرهونا برضاء أهل الإقليم مثلما حدث وشكا أهل الكوفة من سعد بن أبي وقاص ثم من عمار بن ياسر فقام بعزلهم ثم أقر عليهم أبا موسى لما أرادوا ذلك^(٥٢).

٨- اتبع عمر بن الخطاب عدة أساليب للرقابة الإدارية للولاة لم يكن معروفة من قبل منها السؤال والتحري عن ولاته وذلك بسؤال أهل البلد عن حالهم معه وكذلك إرسال مفتشين عليهم ثم يرفعوا إليه تقرير بنتيجة هذا التفتيش كما كان أسلوب الرقابة يتم بإجراء التفتيش بمعرفة الخليفة بنفسه^(٥٣).

٣- في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه

يادر الخليفة عثمان بن عفان فور توليه الخلافة بكتابة رسائل إلى عماله وولاته وإلى عامة الناس حدد فيها المبادئ التي سيمضي عليها في إدارة الدولة ومما جاء فيها :

أ- بأن يكون هؤلاء رعاة لمصالح الأمة وحذرهم أن يكونوا جباة وإلا سينقطع عنهم الحياء والوفاء والأمانة.

ب- أشار عليهم بأن يسيروا بالعدل في كافة الأمور سواء للمسلمين أو غيرهم مع إعطائهم كافة الحقوق وإلزامهم بما عليهم من واجبات.

ج- أكد الخليفة عثمان تمسكه بسياسة سلفه عمر بن الخطاب وبخاصة في مجال حروب التحرير كما حذرهم من أي تغيير أو تعديل على ما وضعه لهم عمر بن الخطاب في ذلك، ووجه كتاباً إلى عامة الناس دعاهم فيه إلى اليقظة والحذر من المتغيرات التي بدأت تواجه مجتمعهم والتي قد تهدد وحدتهم بالخطر^(٥٤).

وبدأ الخليفة عثمان بن عفان في تنفيذ سياسته الجديدة وقد تحقق في عهده ضم إقليم أرمينية في الشمال وبلاد الهضبة الإيرانية وخراسان في المشرق، وطرابلس وتونس في المغرب، كم تابع حركات التمرد والثورات في خراسان والإسكندرية فنجده بجند الأجناد وبعث الجيوش فاستطاع القضاء على التمرد والثورات وإعادة البلاد إلى الطاعة وذلك بفضل مساعدة الولاة وقادة الجيوش في هذه المناطق^(٥٥).

وسار الخليفة عثمان بن عفان على طريق الخليفة عمر في سياسة اختيار الولاة ومراقبتهم مراقبة دقيقة، ففي الكوفة أقر عليها المغيرة بن شعبة ثم عزله وولى عليها سعد بن أبي وقاص حيث أوصاه عمر رضى الله عنه بأن يستعين به من بعده، حيث أنه لم يعزله عن سوء ولا عن خيانة، ولكن سرعان ما عزله الخليفة لخلاف ثار بينه وبين عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال لأنه عجز عن سداد قرض أخذه منه، وولى الوليد بن عقبة فاستمر في عمله لمدة خمس سنوات وكان محبوباً من الناس ثم

سرعان ما عزله، عندما بلغه أشياء ذكرها عليه بعض أهل الكوفة فأشاعوا أنه يشرب الخمر وصلى بالمسلمين أربع ركعات وهو سكران، وولى بعده سعيد بن العاص^(٥٦).

أما البصرة فقد أقر عليها أبا موسى الأشعري ثم عزله عنها عام ٢٧ هـ - ٦٤٨ م وذلك لكثرة خروجه عن البلاد غازياً واستخلافه عليها برجال آخرين أمثال : عمران بن حصين، وأحياناً زياداً وأخيراً غيلان بن خريشه فلم يرض الخليفة عن ذلك وعزله وعين عليها عبد الله بن عامر، وجمع له جند أبا موسى وجند عثمان بن العاص الثقفي من عمان والبحرين افتتح بهم بلاد فارس ثم بلاد خراسان في سنة ٣٠ هـ - ٦٥١ م^(٥٧).

وأقر على بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان وكانت سلطته تقتصر على عهد عمر بن الخطاب على ولايتي الأردن وفلسطين فأقره عليهما ثم ضم إليه حمص وقنسرين وجمع له قيادة الأجناد الأربعة بل وأطلق يده على تلك الجهات وذلك أصبح معاوية والياً على بلاد الشام كلها^(٥٨).

أما مصر فأقر عليها عمرو بن العاص حتى سنة ٢٧ هـ - ٦٤٨ م ثم عزله نتيجة لمؤامرة دبرها عبد الله بن سبأ لأنه كان يخشى من قوة عمرو ودهاله ويرى أنه لن تنجح مخططاته مادام عمرو على مصر فاتفق مع بعض رؤساء العرب أمثال كنانة بن بشر و سودان بن حمران، على عدم زراعة الأرض كلها فتقل الجباية وينكسر الخراج فيؤدي ذلك لقلة دخل البلاد فيتشكك الخليفة في عمرو بن العاص فتتهدأ الفرصة للدس لعمره عنده مما يؤدي إلى عزله فيتولى شخص آخر ضعيف لا يقف ضد أهدافهم فنجحت المؤامرة وقل الخراج فعين الخليفة عبد الله بن سعد على الخراج وجعل عمرو على الصلاة والحرب ثم استمرت المؤامرة للتخلص من عمر ونهائياً فأوقعوا بينه وبين عبد الله بن سعد فتشاجرا وتشاحنا فاعفى عثمان رضي الله عليه عمرو من عمله وجمع لعبد الله جميع أمور مصر صلاتها وخراجها وحربها^(٥٩).

ويلاحظ على العديد من ولاة البلاد السابق ذكرهم أمثال سعد ابن أبي وقاص، وأبو موسى الأشعري ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص سبق وأن استعملهم النبي صلى الله عليه وسلم وآخرين من جنسهم ومن نفس قبيلتهم كما استعان ببعضهم أبو بكر الصديق ثم جاء عمر بن الخطاب واستعان ببعضهم أيضاً في الإدارة، فالخليفة عثمان بن عفان وإن استعان بهؤلاء الرجال فلم يكن بمغير أو بمجدد عن سبقوه ولكنه سار في نفس الاتجاه و السياسه السابقة.

ولقد تشابه الخليفة عثمان بن عفان مع سلفه عمر بن الخطاب في بعض النواحي الإدارية منها : مراعاته لرأي أهل الإقليم إذا ما أرادوا تعيين والياً عليهم وأصبح بقاءه في منصبه مرهون برضاهم عليه، مثلما حدث وغضب أهل الكوفة على واليهم سعيد بن العاص وأخرجوه فمضى إلى الخليفة وأخبره بأنهم يريدون أبا موسى الأشعري أميراً عليهم بدلا منه فوافقهم عثمان رضي الله عنه على ذلك^(٦٠).

ومنها إتباع الخليفة عثمان سياسة إدارية تتمتع بمقتضاها ولايته في الأقاليم بسلطات واسعة وبدرجة كبرى من الاستقلال عن السلطة المركزية بل وأطلقت أيديهم على هذه الأقاليم ومما يدل على استقلال الوالي ما فطه مروان بن الحكم واليه على المدينة في أول خلافته فكان يجمع أصحاب رسول الله ويستشيرهم ويصل برأيهم، وهذا دليل على استقلال الوالي بسلطة البيت النهائي في بعض الأمور دون الرجوع إلى الخليفة^(٦١).

أما عن سياسة الرقابة الإدارية التي مارسها عثمان بن عفان على عماله وولاته فقد تحققت ولكن بصورة مختلفة جدا عن سلفه عمر بن الخطاب مما نتج عنها عواقب وخيمة، فكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم، كما كتب إلى الأهالي في الأمصار أن يأمرؤا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر وسار الناس على ذلك إلى أن اتخذهم أقوام وسيلة لتفريق الأمة^(٦٢).

ولما كثر الدس على الولاة للتقليل من شأنهم كما دس بعض الولاة من يمدحونهم عند الخليفة، اكتفى عثمان بن عفان بمواجهة هذا الخطر بتحذير الولاة والعمال من خطر الانحراف وترك هؤلاء يباشرون أعمالهم الإدارية دون التدخل فيها والتحقق من صحة الاتهامات، كما باشر الخليفة سياسة الرقابة الإدارية للولاة والعمال عن طريق الاستفسار عن هؤلاء من الوفود، كما بعث العيون للكشف عن أحوالهم، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة وعمار بن ياسر إلى مصر ولما عاد هؤلاء وأخبروه بأن ما وصله مجرد إشاعات لا أساس لها من الصحة^(٦٣).

كما اتخذ عثمان سلطته الرقابية على ولايته وأعمالهم متخذاً بعض أسلوب التوبيخ كما فعل سلفه عمر، وقد حدث ذلك عندما فوض عبد الله ابن عامر في توزيع الأموال والكسوة على قریش والأنصار فأرسل إلى علي بن أبي طالب ثلاثة آلاف درهم وكسوة فاعترض على ذلك ولما بلغ عثمان ذلك وبخ عبد الله بن عامر وأمره بإرسال عشرين ألف درهم واسترضاءه، كما كان العزل وسيلة من وسائل الرقابة الإدارية على نحو ما سبقت الإشارة لعزلة سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة لعلمه بارتكابه خطأ مالياً وعجزه عن تسويته^(٦٤).

دور الولاة في مواجهة الفتنة في عهد الخليفة عثمان بن عفان

تعرضت الخلافة في عهد عثمان بن عفان لأزمة حقيقية بدأت بوادرها في الظهور منذ عام ٣٠ هـ ثم تطورت واستمرت حتى سنة ٣٤ هـ، ولما شعر الخليفة بخطورة الموقف أرسل إلى بعض ولايته المقربين للحضور لمناقشة الوضع الراهن فحضر كل من معاوية بن أبي سفيان والي الشام وعبد الله بن سعد بن أبي سرح عن مصر وسعيد بن العاص عن الكوفة وعبد الله بن عامر عن البصرة واختلفت وجهة نظر هؤلاء وأبدى كل منهم رأيه في هذا الأمر خاصة بعدما عرض عليهم الخليفة ما وصل إليه من شكاوى الناس ومطالبتهم بإياه بعزل ولايته وتبديل سياسته العامة^(٦٥).

وأشار عليه المجتمعون أن هذه الشكاوى لا أساس لها من الصحة وأن أصحابها هم دعاة فتن، ثم عرض عليه المجتمعون ما يمكن عمله لمواجهة الموقف والقضاء على أسباب النقد والخلاف على نحو ما أشاروا عليه بعدة حلول للأزمة. نجح دعاة الفتنة والمعارضة في كل من مصر والكوفة وفي غيرهم في خلافة عثمان بن عفان، وفشل ولاته بالرغم من كفاءتهم الإدارية في مواجهة هؤلاء والقضاء عليهم وأصر الثوار على مطالبهم والتي تركزت على عدم قصر الوظائف على قريش بل يجب أن يتولوها وعدم قصر العطاء على المحاربين فقط، وأدت في النهاية إلى قيام الثورة على عثمان بن عفان، وذهب الثوار إلى المدينة المنورة وقاموا باغتيال الخليفة^(٦٦).

٤- في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

وتشير المصادر في البداية إلى امتناع علي بن أبي طالب عن قبول الخلافة نظراً لما كان يتوقعه من ظهور الفتن والاضطرابات من بني أمية، وخاصة من المقيمين منهم في المدينة ومن فر منهم إلى الشام أو إلى مكة، لكن نجح أحد زعماء الكوفة وهو الأشتر النخعي في النهاية في إقناعه، وقد شجع ذلك على دعوة الناس للاجتماع به ومبايعته^(٦٧).

عمل الإمام علي بن أبي طالب على إتباع سياسة جديدة في اختيار الولاة وكان منها استبعاد الولاة من بني أمية لقناعته بأن هؤلاء لا يصلحون لهذا الأمر وشرع في تنفيذ ذلك وقد خالف في ذلك سياسة من سبقوه ولكن جاءت اختياراته على وجه السرعة نظراً لتطور الأحداث بينه وبين معاوية من ناحية وبين طلحة والزبير والسيدة عائشة من جانب آخر فعين عبد الله بن عباس والياً على اليمن، وقتل بن العباس على المدينة ولم يولى أحداً ممن خرج على عثمان رضي الله عنه^(٦٨). كما أبقى علي بن أبي طالب على بعض الولاة أمثال والي مكة بعبد الله بن عامر الحضرمي وأبقاه في مكانة ظناً منه أن يمنحه ولاءه ولكن لم يلبث وأن الخاب ظنه وأظهر وقوفه إلى جانب المعارضين، فقام بعزله وعين قثم بن العباس بدلاً منه^(٦٩).

واختار علي بن أبي طالب أفضل رجاله لتولي أمر الولايات وقيادتها من ذوي الرأي والبأس أمثال قيس بن سعد ثم الأشتر النخعي على ولاية مصر ولكن ساءت اختياراته في نهاية عهده، مثلما حدث وعين محمد بن أبي بكر والياً على مصر، وكان غلاماً حدثاً ليس بذى تجربة للحرب ولا بمجرب للأشياء مما أدى إلى قتله^(٧٠).

ولقد تشابه علي بن أبي طالب مع سلفه عثمان بن عفان في مراعاته لأهل الإقليم إذا ما أرادوا والياً عليهم ففي سنة ٣٦ م بعث عمارة ابن شهيد والياً على الكوفة فلقية طلحة بن خويلد وذكر له أن أهلها يتمسكون بأمرهم أبي موسى الأشعري الذي لزم الجماعة وأرسل بالبيعة للخليفة الجديد^(٧١).

وتشابه مع سلفه عمر بن الخطاب في كتابته كتابا يسمى التقليد أو العهد يحدد فيه للوالي مهمة ويوصيه بالآداب التي ينبغي له التجل بها والسياسة التي يلزم إتباعها فقد كتب إلى الأشتر النخعي "هذا ما أمر به علي أمير المؤمنين الحارث بن مالك في عهده إليه حين ولاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح حالها، وعمارة بلادها، أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته وإتباع ما أمر به من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا بإتباعها" (٧٢).

واتبع علي بن أبي طالب أسلوباً خاصاً في الرقابة الإدارية عن طريق السؤال والتحري عن ولاته عن طريق جواسيس، كما حدث وعزل واليه عن مصر قيس بن سعد لما نما إلى علمه أن قيس من شيعة معاوية، كما عزل واليه علي الكوفة أبو موسى الأشعري عندما علما بعدم تعنته للناس وتجهيزهم للخروج لمعاونته في قتال المعارضين له (٧٣).

كما اتبع علي بن أبي طالب الرقابة العامة علي الولاة من خلال كتاب التولية الذي كان يقدمه لهم ومن أمثلة ذلك كتاب التولية الذي أنفذه الخليفة علي بن أبي طالب إلى قيس بن سعد واليه علي مصر.

جاء فيه " من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المسلمين والمؤمنين سلام عليكم أما بعد قد بعث إليكم بقيس بن سعد عبادة أميراً فأزروه وعاشروه وأعينوه علي الحق، وقد أمرته بالإحسان إلي محسنكم... وأرجو صلاحه ونصيحته..." (٧٤).

ويبدو ومما سبق أن الإدارة المركزية في عهد الخلفاء الراشدين تأثرت كثيراً بسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن طرأ عليها تغيرات طفيفة في عهد أبو بكر وبشكل واسع في عهد كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وجاءت اختيارات الخلفاء الراشدين للولاة والعمال على نمط سياسة الرسول وتركزت في العنصر العربي بشكل واضح لأنهم كانوا أكثر فهما للشريعة الإسلامية وقواعدها فضلاً عن خبرة الكثير منهم في النواحي الإدارية بالإضافة إلى الخبرة الحربية التي اكتسبوها من كثرة الحروب التي خاضوها.

الهوامش

- ١- جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي، دار الهلال، ١٩٦٨ ص ١٥٠
- ٢- جرجي زيدان : المرجع السابق: ص ١٥١
- ٣- الامام مسلم : صحيح مسلم، حديث رقم ١٧٣١ : ١٧٣٣، ج ٢ ص ٩٢٢، ٩٨١
- ٤- الامام مسلم صحيح مسلم، حديث رقم ١٨٢٩، ج ٢، ص ٩٨٤، حديث رقم ٢٣٧٨، ج ٣ ص ١٢٥٠ - ١٢٥١، ابي داود.. سنن ابي داود، ج ٤ مج ٤ ص ٢٥٥.
- ٥- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٣ ص ٦١٧، جرجي زيدان: المرجع السابق، ص ١٥١-١٥٣
- ٦- مسعود أحمد : أقاليم الدولة الاسلامية، ص ٨٦
- ٧- ابن خياط : تاريخه، ص ٤٨، مولوي -ان. الإدارة العربية، ص ٤٨ - ٤٩
- ٨- ابن الخياط : تاريخه ص ٤٨، البلاذري : أنساب الأشراف، الجزء الأول ص ٣٠، مولوي: المرجع السابق ن ص ٤٩
- ٩- ابن خياط: المصدر السابق، ص ٤٨-٤٩، مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ٨٧
- ١٠- ابن خياط: المصدر السابق، ص ٤٨، ابن الأثير الكامل في التاريخ، ص ٢ ص ٢٨٩، مسعود أحمد: المرجع السابق، ص ٩٠-٩١
- ١١- ابن خياط: المصدر السابق، ص ٤٨، مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ٩١-٩٢
- ١٢- البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٢٩، رجب محمد : تاريخ عصر النبي والخلافة الراشدة، ص ٣١١
- ١٣- البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٢٩ - ٥٣٠
- ١٤- الدرامي : سنن الدرامي، ج ٢، ص ٣٤٠، ٢٢٤، رجب محمد : المرجع السابق ص ٢٦٤
- ١٥- البلاذري : المصدر السابق، ج ١ ص ٥٢٩
- ١٦- ويذكر أن أبا موسى كان قد أسلم بمكة وهاجر إلى ارض الحبشة ثم قدم مع أهل السفينتين ورسول الله بخيبر كما بعثه الرسول هو ومعاذ إلى اليمن، وسبق أن عينه الرسول على عدن، ابن خياط: تاريخه، ص ١٨١، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ص ٢ ص ٤٦٤ ص ٥٣٢، الذهبي : العبر، ص ٥٢، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٤٩١، الخميس : تاريخه، ص ١٤٣ - ١٤٤.
- ١٧- كان العلاء الحضرمي من سادة الصحابة وقد بعثه النبي إلى المنذر الساوي العبدى ملك البحرين وكتب إليه كتابا دعاه فيه إلى الإسلام فأسلم، كما كان أمير الرسول على البحرين. الطبري: تاريخ الرسل، ج ٢، ص ٦١٧ - ٦٦٠، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٣، ص ١٩.
- ١٨- ومنه هي أمة واسم أبيه أمية التميمي كان إسلامه يوم الفتح ثم شهد حنين وكان الرسول قد ولاه أميرا على الجند في مأرب ثم تولى في عهد أبو بكر خولان ثم اليمن كلها.
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٨٨، ٣٤٠، ٣٥٤، ج ٣، ص ٤٠.

- ١٩- وكان الرسول قد سبق وان عينه واليا على عمان وأعمالها ثم عينه أبو بكر أميرا على الجند في بلاد الشام، ابن خياط : تاريخه، ص ٤٨-٨٩
- ٢٠- كان الرسول قد عين عتاب بن أسيد بن أبي العاص على مكة وخالد بن سعيد على صنعاء وصدقات اليمن وإبان بن سعيد على البحرين وعمر بن سعيد على تيماء وخيبر وتبوك وفدك وأبا سفيان بن حرب على نجران وذلك من منطلق القضاء على عوامل النزاع والتنافس بين بني هاشم وبني أمية، فإذا كانت النبوة والرياسة في يد بني هاشم أيام الرسول فقد ولى الرسول بني أمية الولايات وأعلى من شأنهم الطبري : المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣٢ - ٥٣٤، رجب محمد : عصر النبوة، ص ٣١١.
- ٢١- الطبري : المصدر السابق، ج ٢، ص ٦١٧ - ٥٣٢، ٥٣٤، ٦٦٠، ابن الجوزي المنتظم، ج ٣، ص ١٩، الخميس : تاريخه، ص ١٨١
- ٢٢- كان المثنى بن حارثة من زعماء بني شيبان كان أبو بكر استعمله على من أسلم من قومه وعياض هذا هو فاتح الموصل والقرى المحيطة بها وكان أبو عبدة قد استخلفه على عمله بحمص وقنسرين ببلاد الشام فاقره عمر كما عين بعد ذلك واليا على الجزيرة، وكان حذيفة بن اليمان قد كلفه عمر بمسح ارض العراق وتحديد مقدار الخراج عليها، ابن خياط: تاريخه، ص ٦٥، الطبري : تاريخ الرسل، ج ٣، ص ٦٦٠، ٦١٧، اليعقوبي: تاريخه، مج ٢، ص ١٣٨ - ابن الأثير : الكامل، ط ٣، ص ٤٠ - ٤٥، ابن خلدون: تاريخه، مج ٢، ص ٥٣١، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٩٧ القلقشندي: مآثر الأباقة، ج ١، ص ٩٢ - ٩٣، الخميس: تاريخه، ص ٢٨١ - ٢٤٢.
- ٢٣- رجب محمد : تاريخ عصر النبوة، ص ٣١١ - ٣١٢
- ٢٤- مسعود أحمد : أقاليم الدولة، ص ١١٦
- ٢٥- هاشم يحيى : الوسيط، ص ٣٩٠
- ٢٦- مسعود أحمد : المراجع السابقة، ص ١١٨
- ٢٧- محمد أحمد : تقليد عمرو بن العاص ولاية مصر، ص ١٤١
- ٢٨- الطبري : المصدر السابق، مج ٢، ص ٤١١
- ٢٩- الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٠٤
- ٣٠- أحمد مجاهد مصباح : دراسات في تاريخ مصر الإسلامية، ص ١٨٩
- ٣١- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٥٤
- ٣٢- ابن خياط : تاريخه، ص ٨٩، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤٠
- ٣٣- حسين الحاج حسن : النظم الإسلامية، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٠٨
- ٣٤- اليعقوبي : تاريخه، مج ٢، ص ١٦١، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤٠، محمد الخضري : محاضرات في التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٢٧
- ٣٥- مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ١٠٨ - ١٢٨
- ٣٦- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤٧
- ٣٧- هاشم يحيى : الوسيط، ص ٤٢٩ - ٤٣٠

- ٣٨- الطبري : تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٣٨، محمد الخضري : المرجع السابق، ج ٢، ص ٥١، إبراهيم أحمد العدوي، التاريخ الإسلامي، ص ٤٢٩
- ٣٩- كان قيس بن سعد من أعيان الصحابة ومن ذوي الرأي والبأس وصاحب راية الرسول مع الأنصار، كما كان عمارة بن شهاب من المهاجرين، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٠٣ - ١٠٥، ١٣٦، أبو الفدا : تاريخه، ج ١، ص ١٧٢، المقرئ : الخطط، ج ٢، ص ٣٠٠، ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١١٤١
- ٤٠- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٠٣، ١٧٧، ١٨٨، ١٩٤، ٢٠٠
- ٤١- ابن خياط : تاريخه، ص ١٢٢، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٣٩ - ١٧٧، ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١١٤ - ١١٦
- ٤٢- مسعود أحمد : أقاليم الدولة، ص ١١٦
- ٤٣- مسعود أحمد أحمد : المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧
- ٤٤- ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ٣، من ٢٥٥، الطبري : المصدر السابق، ج ٣، ص ٤١٤، هاشم يحيى : المرجع السابق، ص ٣٥٨-٣٦٢
- ٤٥- مولوي : الإدارة العربية، ص ٨٠-٨١
- ٤٦- كان المغيرة بن شعبه من دهاة العرب وعقلائها وأشرفها، ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٥٤-٣٤٠، ج ٣، ص ٤١، ١٩، ١٦، ٩، الذهبي : دول الإسلام، جزءان، ص ٥١-٥٢، أبو الفداء : تاريخ أبو الفداء، مج ١، ص ٢٧٧، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٥١٥-٥١٦
- ٤٧- كان سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة كما دعى له النبي فكان مستجاب الدعوة فضلاً على أنه كان فاتح القادسية، أما عمار بن ياسر كان من أصحاب النبي وبشره كذلك بالجنة، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٦، ٩، ج ٢، ص ٣٧٨، الذهبي : العبر، ص ٢٥، القلقشندي : مآثر الأنافة، ج ٢، ص ١٢
- ٤٨- الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٧٧-٤٨٧، ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٦-١١٨، الذهبي : المصدر السابق، ص ٥٢، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٥٢٣-٥٢٤
- ٤٩- هاشم يحيى : الوسيط، ص ٣٩١-٣٩٢
- ٥٠- مولوي : الإدارة العربية، ص ٨٢-٨٣، إبراهيم العدوي : التاريخ الإسلامي من ١٧٣-
- ١٧٤، أحمد إبراهيم : دور الحجاز، من ٣٦٢
- ٥١- الذهبي : دول الإسلام، ص ٥١-٥٢، محمد الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ج ٢، ص ١٣
- ٥٢- ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٧٨-٣٨٨، ص ١٦-١٩، مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ١٢٣
- ٥٣- كان الخليفة يسأل أهل البلد فإن اتوا عليه حمد الله، وإن قالوا لا استدعاهم للقنوم كما كان يرسل محمد بن مسلمة كمفتش من قبله على ولايته، كما فتش عمر بنفسه على حذيفة

بن اليمان عامله على المدائن، الذهبي : العبر، ص ٢٥، القلقشندي : مآثر الأنباقة، ج ١ ص ٣٤٣، مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ١٢٤ - ١٢٥

٥٤- الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٤٤ - ٢٤٥، ٤١٧، ٢٤٣، رجب محمد : تاريخ النبوة، ص ٣١٥، هاشم يحيى : الوسيط، ص ٤٠٣ - ٤٠٤

٥٥- مسعود أحمد : أقاليم الدولة، ص ١٠٦، صالح أحمد : الإدارة، ص ١١٥

٥٦- كان الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو أخ لعثمان من أمه أروى بنت كريض وأما البيضاء بنت عبد المطلب (أختا لعثمان من الرضاعة) فأم الوليد عمه رسول الله، وكان الوليد والياً على عرب الجزيرة وعلى بنى تغلب وغيرهم من العرب، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤١ - ٤٣، أبو الفداء : تاريخه، مج ١، ص ٢٣٣، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٥٤٦.

٥٧- كان عبد الله بن عامر بن كريض ابن خال الخليفة، ولكنه لم يولى عليها لأنه كريم العمات والخالات ولكنه كان شجاعاً وشهماً، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤٩ - ٩٥، الذهبي : العبر، ص ٣٠، ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٥٥١، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٥٥١

٥٨- كان معاوية بن أبي سفيان من كتاب الوحي لرسول الله، وأخ أم المؤمنين أم حبيب بنت أبي سفيان زوج الرسول، ابن خياط : تاريخه، ص ٨٩ - ١٠٦، اليعقوبي : تاريخه، مج ٢، ص ١٧٦، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٩٥

٥٩- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤٥، الذهبي : نول الإسلام، ص ٥١ - ٥٢، المقرئ : الخطوط، طبعة بولاق، ج ٢، ص ٢٩٩، ابن آيس : بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١١٢ - ١١٤، ٢٩٩، رجب محمد : تاريخ عصر النبوة، ص ٣٤٠.

٦٠- الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٦٨، ابن كثير : المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٧٢

٦١- مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ١٢٩

٦٢- مسعود أحمد : نفس المرجع والصفحة

٦٣- مسعود أحمد : نفس المرجع والصفحة

٦٤- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤٢، ابن خلدون : المصدر السابق، مج ٢ ص ٥٤٦

٦٥- الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٣٢ - ٣٣٤

٦٦- المسعودي : مروج الذهب، مج ٢، ص ٢٣٦ - ٢٣٧، ابن كثير : تاريخه، ج ١٠، ص ٢٧٠ - ٢٧٧، صابر محمد : المرجع السابق، ص ٧٣

٦٧- ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ص ٤٦، الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٣٣ - ٣٣٤

٦٨- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٠٤ - ١٠٥، أبو الفدا : تاريخه، ج ١، ص ١٧٢،

القلقشندي : مآثر الأنباقة، ج ١، ص ١٠٤

٦٩- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٢٠٠

٧٠- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٣٩، ١٧٧

- ٧١- ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ١٠٣، أبو الفدا تاريخه، ج ١، ص ١٧٢
- ٧٢- الطبري: تاريخه، ج ٥، ص ٩٥-٩٦، ابن آياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١١٤.
- ٧٣- الطبري: تاريخه، ج ٤، ص ٤٧٧-٤٩٩، طبعة دار المعارف، ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ١٣٦-١٣٩، المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٣٠٠
- ٧٤- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٥٤٧-٥٤٨ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٩٧، محمود عرفة: الرقابة الإدارية والمالية في الدولة العربية في القرنين الأول والثاني الهجريين مجلة البحوث والدراسات العربية جامعة الدول العربية- العدد السادس عشر، ١٩٨٨، يصدرها معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، ص ٢٠-٢١



المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ١- ابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ - ١٢٢٨ م): أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري الملقب بعز الدين.
أ- الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي - بيروت.
ب- أسد الغابة في معرفة الصحابة.
- ٢- الامام مسلم (٢٠٤-٢٦١ هـ) أبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، طبعة مميزة بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار بن رجب مصر، ط٢، ١٤٢٧/٢٠٠٦ م ج٢، ج٣.
- ٣- البخاري (١٩٤ - ٢٥٦ هـ): أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المغيرة الجعفي البخاري. صحيح البخاري حققه: محمد زهير بن ناصر الناصر المجلد الثالث ج٥، ج٦ المدينة المنورة - دار طوق النجاة.
- ٤- الدرايم (ت ٢٥٥ م / ٨٦٩ هـ) الامام أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام سنن الدرايم، دار الكتب العلمية، مصر بدون جزء ٢٩.
- ٥- أبي داود (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ): أبي داود: أبي داود سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، دار الخيل - بيروت ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢، المجلد الرابع.
- ٦- البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م): أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي فتوح البلدان - حققه وشرحه وعلق على حواشيه واعد فهرسه عبد الله أنيس الطباع - عمر أنيس الطباع ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ مؤسسة المعارف بيروت.
انساب الاشراف، تحقيق د/ محمد حميد الله، دار المعارف مصر بدون.
- ٧- ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٦٣ م): عبد الرحمن المغربي
أ- المقدمة - مقدمة ابن خلدون - الجزء الثاني، ج٢، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ م
ب- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر تاريخ ابن خلدون المسمى بديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر - دار الكتاب اللبناني، ج٢ بيروت ١٩٨٦ - ط١ - ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
- ٨- ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ / ١٢١١ - ٢٨٢ م): أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ج١ - ٨ حقق د/ يوسف على طويل د/ مريم قاسم طويل - دار الكتب - بيروت - لبنان ط١ ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- ٩- ابن خياط (ت ٢٤٠ هـ): أبي عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العسفرى الملقب بـ شباب، تاريخ ابن خياط - راجعه وضبطه ووضع حواشيه د. مصطفى نجيب فواز د. حكمت كشملي قواز - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- ١٠- الذهبي (٧٦٣ - ٧٤٨ هـ / ١٢٧٤ - ١٣٤٧ م): الإمام أبو عبد الله شمس الدين

أ- كتاب دول الإسلام وقد اختصره من كتاب تاريخ الإسلام وطبقت المشاهير والإعلام المسمى بتاريخ الإسلام الكبير حقق فهم محمد شلتوت - محمد مصطفى إبراهيم جزءان.

ب- العبر في خبر من غير دول الإسلام تحقيق د/ صلاح الدين المنجد - الكويت ١٩٦٠.

١١- ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع القرشي الهامشي ولاء البحري البغدادي، الطبقات الكبرى - طبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م - تحقيق د/ علي محمد عمر - مكتبة الخانجي - القاهرة.

١٢- الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ / ٨٣٨-٩٢٢م) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك : راجعه نخبة من العلماء تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - بيروت - لبنان.

١٣- ابن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ / ٨٢٨-٨٨٩م) : (أبو محمد عبد الله مسلم ابن قتيبة الدينوري) الإمامة والسياسة - المعروف بتاريخ الخلفاء لابن قتيبة، المعارف القاهرة ١٩٣٤.

١٤- القلقشندي (ت ٨١١ هـ - ١٤١٨م) : أبو العباس أحمد بن علي، مآثر الأنباة في معالم الخلافة ج١ تحقيق عبد الستار أحمد فرج - عالم الكتب.

١٥- ابن كثير القرشي (٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي. البداية والنهاية في التاريخ، ج٦، ٥، المجلد الثالث ج٧، (المجلد الرابع) دار الفكر العربي، ط٢، سنة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٦- ابن منظور : لسان العرب، المجلد الخامس عشر، دار صادر - بيروت

١٧- أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن تاريخ أبو الفداء، المؤيد ج١

١٨- الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) : جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، العصر الراشدي حققه د. سهيل زكار - الجزء الثالث دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

١٩- الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) : الأحكام السلطانية، القاهرة، ٢٠٠٥

٢٠- الديار بكري (ت ٩٩٦ هـ) : حسين بن محمد بن الحسن.

تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، بيروت، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، (د.ت).

٢١- المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي.

مروج الذهب ومعادن الجوهر ج١، ج٢، قدم له مفيد محمد فتيحة - دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦.

٢٢- المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) : تقى الدين أبو العباس أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئزية، طبعة بولاق.

٢٣- النويجتي : أبو محمد بن الحسن بن موسى، فرق الشيعة، بيروت، دار الفكر - بدون

٢٤- اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ - ١٩٧م) : احمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح. تاريخ اليعقوبى ج٢ - دار صادر بيروت بدون تاريخ.

ثانياً المراجع

٢٥- إبراهيم احمد العدوى، التاريخ الإسلامى - منابعه العليا وفروعه العظمى دار الفكر العربى - ١٢٩٤.

٢٦- احمد إبراهيم الشريف، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثانى للهجرة، دار الفكر العربى.

٢٧- احمد مجاهد، دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة، بدون.

٢٨- جرجى زيدان : تاريخ التمدد الإسلامى، دار الهلال، مصر، ١٩٦٨.

٢٩- حسين الحاج حسن، النظم الإسلامية ط ١ الأولى بيروت ١٩٨٧.

٣٠- رجب محمد عبد الحليم - دراسات فى تاريخ عصر النبوة والخلافة الراشدة - دار النهضة العربية.

٣١- صالح احمد العلى، الإدارة فى العهود الإسلامية الأولى شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

٣٢- مسعود احمد مصطفى : أقاليم الدولة الإسلامية، بين اللامركزية السياسية واللامركزية الإدارية تقديم الإمام جاد الحق على جاد الحق - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٣٣- الشيخ محمد الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية - الجزء الأول - الجزء الثانى.

٣٤- مولوى س. ا ت - حسنى، الإدارة العربية - ترجمة د. إبراهيم احمد العدوى راجعه عبدالعزيز عبد الحق.

٣٥- هاشم يحيى الملاح - الوسيط فى السيرة النبوية والخلافة الراشدة، العراق بدون.

٣٦- عبد السميع البراوى : لغة الإدارة فى صدر الإسلام، بدون، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب بدون.

ثالثاً الدوريات

٣٧- مجلة البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية العدد السادس عشر، ١٩٨٨ - معهد البحوث والدراسات العربية.

٣٨- مجلة الدارة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، العدد الثالث، السنة الثامنة عشر، ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة، ١٤١٣ هـ.

أثر المرأة في الحياة السياسية في العصر الرسولي في اليمن

د. عبد الحكيم عبد الحق محمد سيف (*)

يعالج هذا البحث أثر المرأة في الحياة السياسية، في العصر الرسولي، في اليمن، وهو يجيب، في الوقت ذاته، عن بعض التساؤلات التي أثارها بعض الكتابات، ذلك أن أقلاماً كثيرة حاولت النيل من التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، فقللت بداية من وجود فكر سياسي إسلامي، ثم حاولت تسطيح ما اعترفت بوجوده، فقصرت الحياة السياسية في التاريخ الإسلامي على المؤامرات والاغتيالات والتنافس على السلطة، إلى جانب المعارك والحروب والأسر الحاكمة، ولم توغل إلى عمق الفكر السياسي الإسلامي، ولم تعرض لما ألف فيه من مصنفات، في الفقه السياسي، ملأت المكتبات، وما قدمته من مفهوم للسياسة التي لا تعدو حسن التدبير، لا المراوغة والكذب، وعن محددات العلاقة بين الراعي والرعية.. وغير ذلك من القضايا.

وفي الوقت ذاته؛ صورت هذه الكتابات المرأة في التاريخ الإسلامي مجرد سلعة للتسلية، ودمية يتم تحريكها من خارجها، ليس لها رأي ولا دور في حياة مجتمعها، بل حتى فيما يتعلق بشأنها وحياتها الخاصة، متجاهلة التطور الضخم الذي أحرزته المرأة فيما يتعلق بحقوقها، ودورها في مجتمعها بظهور الإسلام، والمكانة الكبيرة التي حظيت بها في مجتمعها، والتأهيل المستمر الذي نالته، والأدوار الكبيرة التي قامت بها لتنمية مجتمعها.

إذا، فقد ارتبط حضور المرأة في التاريخ العربي باعتناقها للإسلام، الذي انتشلها من حياة الذل والظلم والاضطهاد، ثم صنع وعيها بنفسها وبمجتمعها، ومكنها من دورها الطبيعي في حياة مجتمعها، فمكّنها من حقوقها الكاملة: حق الحياة بعد أن كانت موؤدة، وحق التملك بعد أن كانت تملك، وحق الاختيار للدين والزوج بعد أن كانت تختار، دون أن تختار..^(١)

وبمرور العصور الإسلامية؛ كانت مكانة المرأة تتمكن، وأثرها يتزايد في الحياة وحضورها يتكثف في مجتمعها.

والمرأة في اليمن كان لها أدوار مشهودة، عبر مراحل التاريخ، في ميادين السياسة والعلم والأدب، لاسيما في الحقبة الرسولية التي شهد اليمن فيها استقراراً سياسياً واضحاً، ونهضة علمية لافتة، لم تكن المرأة الرسولية بمعزل عنها، لا بل كان

(*) أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي بجامعة تعز.

لها دور مهم فيها، سواء في ميادين السياسة أم في مجالات العلوم، فكان للمرأة اهتمامات ومشاركات في الحياة السياسية، سواء في صنع القرارات أو في اختيار الملوك، أو في تقديم الاستشارات والآراء، وكذا حضوراً في الحياة العلمية، سواء في بناء المدارس والإنفاق عليها من الأوقاف التي كانت تخصصها نساء بني رسول لهذا الغرض، أو في تحصيل العلوم أو في التعليم.

التمهيد:

الأوضاع العامة التي ساعدت على بروز دور المرأة في الحياة السياسية في العصر الرسولي :

حدّدت وضع المرأة في اليمن، ودورها في الحياة العامة، مجموعة من العوامل، منها ما كان داخلياً، ومنها ما ارتبط بوضع المرأة في البلاد الإسلامية، في عصر بني رسول وما قبله.

ولنبداً بوضع المرأة ومكانتها في الحياة العامة في بقية الأقطار الإسلامية: فالواضح أن المرحلة التي عاصرت الدولة الرسولية، وما قبلها، قد شهدت حضوراً واضحاً للمرأة في الحياة العامة، فنساء العباسيين شاركوا في الحقبة الأخيرة من عصر الدولة العباسية، في السياسة والإدارة، **وكن يباشرن الحكم نيابة عن أبنائهن أو معهن**، لاسيما الأطفال، وكان للمرأة في عصر الدولة الأيوبية - التي سبقت وعاصرت جزءاً من العصر الرسولي - دور في الحياة السياسية توجّج بمشاركة شجرت الدر زوجة الملك الصالح أيوب له في الحكم، ثم قيامها بأمر الدولة بعد وفاته. واستمرت مشاركة المرأة في الحياة العامة في العصر المملوكي، سواء في السياسة أو في مجالات الحياة العلمية، أو في غيرهما.

وفي اليمن؛ حظيت المرأة قبل العصر الرسولي بمكانة مهمة في المجتمع، وشاركت بناءً على ذلك في الحياة السياسية، فكانت الملكة بلقيس تحكم اليمن في مراحل تاريخية موهلة في القدم، قال تعالى على لسان هدهد سليمان: "إني وجَدْتُ امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم" حتى وصلت - قبيل العصر الرسولي - نساء إلى مراكز مرموقة في قيادة الدولة، فلمعت نساء مثل السيدة (أسماء الصليحي)^(٢)، و(السيدة أروى بنت أحمد الصليحي)^(٣)، وغيرهما ممن لم يأخذن حقهن في الذكر، ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذه المكانة التي تمتعت بها المرأة في اليمن قبل العصر الرسولي، وتلك الأدوار التي قامت بها في الحياة السياسية، قد هيأت الأرضية المناسبة للمرأة في العصر الرسولي لأن تقوم بأدوار مهمة في الحياة العامة، والحياة السياسية على وجه الخصوص، وقدمت ثقافة عامة تتقبل مشاركة المرأة في إدارة الدول، أو المشاركة فيها على الأقل.

وهكذا انطلق الرسوليون في تعاملهم مع المرأة، وفي تمكينها من دورها في الحياة العامة، وفي إشراكها في إدارة الدولة، من معطيات خارجية وداخلية، فهم منذ البداية أتوا من خارج اليمن، فكانوا يعملون لدى العباسيين، ولا شك أنهم قد احتكوا بهم، ثم عملوا لمدة مع الأيوبيين ولا ريب أنهم قد تأثروا بتعاملهم مع المرأة، في تمكينها من المشاركة في الحياة العامة، ثم استمروا في التعاطي مع الممالك طوال عصر دولتهم. ومن المؤكد أن التأثيرات قد تحركت هنا وهناك فيما بينهما، وكان لأسلوب التعامل مع المرأة نصيب من ذلك التأثير والتأثر.

وكان للمعطي الداخلي دوره الواضح في تهينة المجتمع، في اليمن؛ لتقبل مثل هذه الأدوار من المرأة من ناحية، وفي تشجيع بني رسول في إتاحة مجالاً لمشاركتها في الحياة العامة، وفي تشجيعها على الولوج إلى ميادين الحياة العامة، والقيام بأدوار في الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية، وهي تحمل في خواطرها ذكرى بلقيس وأسماء، وأروى.

مكانة المرأة في العصر الرسولي :

حظيت المرأة بمكانة فائقة وباحترام كبير في عصر الدولة الرسولية، وضح ذلك من أكثر من جهة، فأول ما يجد الباحث، بل والقارئ العادي، في مصادر تاريخ الدولة الرسولية، الألقاب التي تحلت بها المرأة الرسولية، التي تدل على التقدير الكبير والمكانة العالية للمرأة، من هذه الألقاب (الملكة)^(١)، و(أم الملوك)^(٢) والجهة الكريمة، والدار الكريمة^(٣)، وذات الشرف، والشريفة، وصاحبة القدر العالي، وذات المقام الرفيع والستر العالي، والحررة، وغيرها من الألقاب التي وصفت بها نساء بني رسول، ودلت على مكانة المرأة في العصر الرسولي، بل إن بعض المصادر تشير إلى أن بعض النساء، في العصر الرسولي، كن يتمتعن باحترام كبير في مجتمعهن، كان منهن مريم بنت محمد بن الحسن بن مرزوق، التي كان لها كرامات، وكانت من عالمات عصرها^(٤).

وكان من مظاهر اهتمام ملوك بني رسول بالمرأة؛ اصطحابها في رحلاتهم، سواء داخل اليمن أو خارجها، بما في ذلك معاركهم التي كانوا يخوضونها لتثبيت أركان حكمهم، في بداية عهد الدولة، أو في مواجهة الخارجين عليهم، وفي تنقلاتهم بين عواصم الدولة مثل تعز وزبيد، وغيرهما، فكان الملك المظفر يصطحب بعض نساءه في زياراته لبعض المواقع في دولته، مثل المدن والمدارس وغيرها، وهو ما أكدته المصادر حيث يقول (ابن حاتم)^(٥) : "ثم سار (الملك المظفر) إلى المدرسة المنصورية فجعل نزوله بها هو والجهات التي معه"، أو في رحلاتهم الخارجية لاسيما رحلاتهم إلى الحجاز - التي كانت جزءاً من الدولة الرسولية - للحج والعرة، سواء كانت زوجاتهم أو بناتهم أو أمهاتهم.

وتشير المصادر التاريخية إلى صور من إجلال بني رسول للمرأة، من ذلك أن الملك المظفر حج بوالدته، وكان يطوف حاملاً لها على ظهره^(٦)، وكان الملك المجاهد يصطحب أمه في رحلاته للحج^(٧)، ويجل أخته (الدار الفائز)^(٨) إجلالاً عظيماً.

وثمة مجموعة من المظاهر الأخرى دلت على المكانة الكبيرة التي تبوأتها المرأة في اليمن، في العصر الرسولي، تتضح في أسلوب تعامل السلاطين معهن، وطريقة مخاطبتهن، وتنفيذ طلباتهن، فهذا الملك المظفر يخاطب عمته (النجمية)^(١٢) بعد أن ظفر بالسلطان، وهي (بحصن التعكر)^(١٣)، بلغة كلها أدب ولطف بالرغم من أنها كانت تعمل لتحويل السلطان عنه: "إن رأيت أن تنزلي تلقي أخويك فافطي"^(١٤). وكان من مظاهر الاهتمام بالمرأة في العصر الرسولي، لاسيما نساء بني رسول، بناء المدارس بأسمائهن ومساعدتهن على القيام بغير ذلك من أعمال البر، فقد أسس الملك الظاهر مدرسة باسم أمه، بعد وفاتها، في المكان الذي دفنت فيه بزييد، ووقف عليها الأوقاف^(١٥).

وكان اهتمام المؤرخين بالمرأة، في العصر الرسولي، أحد مظاهر المكانة التي حظيت بها، فذكر عدد من المؤرخين المعاصرين أدواراً للمرأة في مجريات الحياة في عصرها، وسجلت تراجم للنساء، وفعاليات الحياة العامة للمرأة، ومن ذلك النساء اللواتي كن يعتنقن الإسلام من اليهود وغيرهم، فيذكر (الخزرجي)^(١٦) في أحداث سنة ٧٩٦هـ - وهو مؤرخ الدولة الرسولية - أن امرأة من اليهود أسلمت، وأن القاضي فرّق بينها وبين زوجها اليهودي. ويذكر المؤرخون أن (بدرية بنت محمد)^(١٧) كانت من المشاركات في سياسة عصرها.

وبالرغم من الاهتمام اللافت بالمرأة، في العصر الرسولي، فإن هناك بعض المظاهر تشدّ عن هذا الاتجاه، من ذلك استخدام النساء رهائن لضمان تنفيذ المعاهدات والاتفاقات السياسية، بين السلاطين والأمراء والمعارضين السياسيين، ومع ذلك فقد كانت المرأة المرهونة تحاط بالعناية والرعاية، وتفرض شروط لضمان سلامتها، فقدّم الملك المظفر كريمته رهينة لدى أم قطب الدين، لضمان وفائه بعدم إيذاها وابنها^(١٨). وكان يحدث أحياناً ما يسمى (بالزواج السياسي) فتستخدم المرأة للتقريب بين القوى المتصارعة، ولعقد التحالفات بين القوى المختلفة، فتذكر (المصادر)^(١٩) أنه لما تقرر، في سنة ٧٧٨هـ، الصلح بين الإمام وهمدان، دبر الإمام الحيلة في أخذ صنعاء من أيدي الأشراف فخطب والدّة الأمير (إدريس بن عبد الله بن داود)^{٢٠}، فأجابه الأمير إدريس إلى مطلبه، وتزوج (صلاح بن علي)^{٢١} بالشريفة (فاطمة بنت الحسين)^{٢٢} التي كانت تحكم صنعاء وما حولها من البلاد^(٢٣).

أثر المرأة في تولية السلاطين في العصر الرسولي:

لم يكن حضور المرأة في العصر الرسولي، في الحياة السياسية، مجرد حضور ترفي شكلي لإكمال المشهد، وإنما كان حضوراً مؤثراً في توجيه الأحداث، وترجيح بعض القوى والشخصيات المتنافسة على السلطة على بعضها الآخر، فأسهمت بعض النساء في اختيار السلاطين، سواء كانوا من أبنائهن أو من إخوانهن، أو من أزواجهن،

وفي تهيئة الظروف لاعتلائهم كرسي السلطة، أو في الحفاظ على سلطانهم في أوقات الأزمات والاضطرابات.

فكان لـ (بنت جوزة)^(٢١) زوجة السلطان نور الدين، أثر في تفضيله ولديها المفضل والفائز على أخيهما المظفر، وعقد ولاية العهد للأفضل، بالرغم من أن المظفر أكبر منه، كما حملته على خلع ابن أخيه (أسد الدين)^(٢٥) عن صنعاء وتولية ابنها المفضل مكانه^(٢٦).

وكان لأخت الملك المظفر (الدار الشمسي)^(٢٧) دور مهم في تهيئة الظروف لتولية حكم بني رسول، بعد مقتل والده الملك المنصور، سواء في اتلاف العسكر والأتباع^(٢٨)، أو في شراء بعض القلاع، أو في كف بعض المناوئين^(٢٩)، قبل أن يصل المظفر إلى دار ملكه زبيد^(٣٠) إذ كان حينذاك بعيداً في (المهجم)^(٣١)، ولما مات مالت إلى ابنه الملك المؤيد، وعملت على ترجيح كفته على أخيه الأشرف، وعندما عجزت عن ذلك خرجت معه من تعز إلى (الشحر)^(٣٢)،^(٣٣) وإن كان الأشرف لم يدم في الحكم أكثر من عام واحد، وآل الحكم من بعده إلى أخيه الملك المؤيد.

وكان لوالدة الملك المجاهد دور كبير في ترجيح كفته، في النزاع الذي نشأ على الحكم بينه وبين عمه المنصور بن المظفر، بعد وفاة أبيه الملك المؤيد، بعد أن مال المماليك مع عمه المنصور، وقبضوا المجاهد وأودعوه دار الأدب في حصن تعز، فتدخلت والدته المعروفة بـ (جهة صلاح)^(٣٤)، واستخدمت الرجال وبذلت لهم المال حتى أخرجوه من سجنه، واستولى على الملك^(٣٥).

ولم تقف أم المجاهد عند هذا الحد، بل عملت على تثبيت أركان الحكم لابنها بشراء الحصون، واتلاف المعارضين، فاشتريت (حصن الدملوة)^(٣٦)، وأغدقت الأموال والهدايا على القائمين عليه، لاستمالتهم إلى ابنها المجاهد^(٣٧).

وعملت (جهة صلاح) أم الملك المجاهد، على استخلاصه من الأسر، عندما أسره المماليك في الحجاز واقتادوه إلى مصر، وأعادته إلى ملكه من جديد، بعد أن نابت عنه في إدارة اليمن في فترات غيابه^(٣٨).

وكان لوالدة السلطان الأشرف إسماعيل بن العباس، المعروفة بـ (جهة طغي)^(٣٩) دور مهم في وصوله إلى حكم اليمن، بعد وفاة أبيه الملك الأفضل، عندما استدعت الأمراء وقادة الجند ووجوه الأشراف والمشايخ، وأغدقت عليهم الأموال، ووعدتهم بالتمكين لهم في دولة ابنها، إن هم أيدوه وانقادوا له، فكان لذلك أثر كبير في تهيئة الملك لابنها^(٤٠).

وهكذا قدمت لنا النصوص التاريخية، التي تعاملنا معها في هذه السطور، صورة واضحة للدور الأساسي الذي كانت تقوم به المرأة، في العصر الرسولي، في تولية السلاطين أو عزلهم.

مباشرة المرأة للحكم في العصر الرسولي :

لم تقف مشاركة المرأة، في العصر الرسولي، في الحياة السياسية، عند التأثير في اختيارات الحاكمين وترجيح بعضهم على بعض، وإنما تعدته إلى المشاركة الفاعلة في الحكم، بل في أحيان كثيرة: الأفراد بحكم اليمن، أو أجزاء منه. وتشير المصادر إلى مناسبات عديدة باشرت فيها بعض نساء بني رسول حكم اليمن، فنصت اليمن في تلك الفترات بالعدل والاستقرار، ونالت إدارتهن للبلاد القبول ورضا الناس.

فباشرت أم الملك المجاهد حكم اليمن، في فترة غياب ولدها الملك المجاهد في مصر^(١) مدة خمسة عشر شهراً، ضبطت فيها البلاد، ودوخت فيها الجبابرة من المناوئين، حتى وصل السلطان المجاهد من مصر^(٢)، فنصت بالعدل والإحسان والأمن والاستقرار^(٣).

وكان لبعض النساء، من خارج البيت الرسولي، مشاركة في الحياة السياسية، فحكم بعض أقاليم اليمن، سواء كان تحت مضلة الدولة الرسولية أم خارج سلطاتها، فتذكر (المصادر)^(٤) في أحداث سنة ٧٤٠هـ، أن الملك المجاهد ولي على (المعازبة)^(٥) في تهامة امرأة تعرف بـ (بنت عاطف)^(٦) فانقادوا إليها وامتروا بأمرها. وحكمت صنعاء امرأتان من خارج البيت الرسولي، ففي سنة ٧٩٤هـ استخلف (الإمام المنصور) والدته (فاطمة بنت أسد الدين) على صنعاء، عندما توجه إلى (جهران)^(٧) لمواجهة بعض خصومه، فحفظت صنعاء وغيرها من دولة ابنها حتى صعدة، وأرسلت بالمدد إلى ابنها في (جهران)^(٨). وبعد ما يقرب من نصف قرن حكمت صنعاء امرأة أخرى، هي الشريفة (فاطمة بنت الحسين بن صلاح الدين)^(٩) وما تبعها من أقاليم، بعد وفاة أهل بيتها الذين كنوا يحكمون صنعاء سنة ٨٤٠هـ^(١٠).

وهكذا تتضح مكانة المرأة اليمنية في مجتمعها، والمؤهلات التي تمتعت بها، والأدوار التي قامت بها في توجيه الأحداث في عصرها، من خلال هذه الصور التي قدمناها، فهي تحكم باستقلالية تامة، وتقف على رأس هرم السلطة في بعض الأحيان.

مشاورة المرأة في بعض القضايا السياسية في العصر الرسولي :

كان للمرأة، في العصر الرسولي، حضور واضح في مراكز صناعة القرار، وفي المداولات التي تسبق اتخاذ القرارات المهمة في الدولة، وكان يعتد برأيها ويؤخذ به في كثير من الأحيان، فهي جزء من الهيئات الاستشارية التي يرجع إليها في اتخاذ بعض القرارات المصيرية، مثل اختيار الحكام، والولاة، وفي إدارة الدولة، حتى في بعض المواجهات العسكرية، وفي غير ذلك من القضايا. ونورد في هذا السياق بعض النماذج التي تبين استشارة المرأة، في بعض القضايا، في شؤون الدولة، وهي على سبيل المثال لا الحصر: استشارة الملك المظفر اخته "الدار الشمسية" في قضايا الحكم والدولة، وكان لا يخالف رأيها^(١١).

بل كانت المرأة، في عهد بني رسول، تستشار في تعيين السلاطين، وهو أمر يبين المكانة المرموقة للمرأة، لأنها تشارك في تحديد رأس الدولة، وهي دور يبدأ بالضمور والاختفاء في المراحل التاريخية اللاحقة، فعندما توفي الملك الأشرف عمر بن يوسف، سنة ٦٩٦هـ^(٥٢)، كان لبعض نساء بني رسول دور في ترشيح خليفته، الملك المؤيد، للحكم، وهو ما يشير إليه (ابن عبد المجيد)^(٥٣) في قوله: "لما دخلت سنة ٦٩٦هـ توفي السلطان الملك الأشرف، فأجمع أراء من (بالحصن)^(٥٤) من الخاصة والعامة و(الستور)^(٥٥) المصونة، على تولية السلطان الملك المؤيد.

شفاعة المرأة لدى السلاطين:

من الثابت أن الشفاعة لا تكون إلا من الشخصيات التي تتمتع بنفوذ كبير لدى من يشفع عنده، لكن المرأة الرسولية كانت تقوم بمثل هذا الدور، فكانت تشفع للمذنبين وبعض المعارضين السياسيين - الذين كانوا يقعون تحت طائلة العقاب - لدى السلاطين، وهو أمر يشير إلى الحضور المكثف للمرأة في الحياة السياسية، وإلى مكانتها لدى السلاطين، وإلى وعيها بالقضايا السياسية التي تعمل في مجتمعاتها، وإلى السياسة العامة، للدولة الرسولية، التي اتسمت باللين والمدارة وخفض الطرف، وترك هامش كبير للآراء الأخرى، وهي أمور أطالت من عمر الدولة، وسمحت بالتنوع السياسي والمذهبي، والأهم من ذلك، في سياق هذا البحث: إعطاء المرأة مساحة للقيام بمثل هذه الأدوار، لتخفيف العقوبات أو إيقافها، للتقليل من خصوم الدولة ومناوئتها، ولحفظ كبرياء السلاطين وهيبة الدولة.

وتقدم المصادر التاريخية صوراً لقيام بعض نساء بني رسول في الشفاعة للناس، سواء كانوا من الخاصة أم من العامة، لاسيما المعارضين السياسيين، أو بعض من يعمل في الجهاز الإداري للدولة، فشفت الدور الكريمة (بنت أسد الدين) لدى زوجها الملك المؤيد، في إطلاق القاضي (حسان بن أسعد بن محمد العمراني) وابن أخيه (عمران بن عبد الله بن أسعد)، وبعض أهلها، فأطلقهم، ثم إنه قبض عليهم وأودعهم السجن بعد وفاة زوجته بنت أسد الدين^(٥٦)، فمات القاضي حسان في السجن، ومكث الباقون حتى قدمت (ماء السماء) ابنة الملك المؤيد من (ظفار الحبوذي) فشفت له عند والدها قائلة: "اجعلهم ضيافتي"، فأمر السلطان بإطلاقهم من السجن^(٥٧)، وكانت (جهة معتب)^(٥٨) كثيرة التوسط للناس لدى السلاطين، سواء زوجها السلطان الأشرف إسماعيل أو لدى ابنها السلطان أحمد الناصر، وهو ما يؤكد (الخزرجي)^(٥٩) في قوله: "وكانت (جهة معتب) واسطة خير إلى السلطان لكافة الناس".

وفي المقابل، كان العطاء يشفعون لبعض نساء بني رسول لدى السلاطين، فشفع (الشيخ الزين) (جهة شقيق) أخت السلطان الظاهر، لدى ابن أخيها (الأشرف بن الظاهر) فقبل شفاعته فيها، ولو أنه اغتالها بعد عودتها إليه^(٦٠).

تدخل المرأة لتسوية الخلافات داخل البيت الرسولي :

ومما يدل على مستوى الوعي السياسي لدى المرأة الرسولية، وحرصها على حفظ سلطان بني رسول ودوام دولتهم - وإدراكها نتائج الخلافات الداخلية، وما يمكن أن تؤدي إليه من صراعات في قمة السلطة، تؤدي في نهاية الأمر إلى زوال السلطان عنهم - أنها كانت تتدخل، في كثير من الأحيان، لتسوية الخلافات بين السلاطين وإخوانهم، أو بين الأمراء الرسوليين وأعوانهم، فكان لزوجته الملك المنصور المعروفة بأم قطب، دور في إنهاء الخلاف بين الملك المظفر، الذي خلف والده الملك المنصور، وبين إخوته من أبنائها الذين تمردوا عليه في حصن الدمولة، فنزلت من الحصن المحاصر، وطلبت مقابلة الملك المظفر، وجرى بينهما حوار كان مما قالت له فيه: "سبحان الله أما هؤلاء إخوتك فكيف تحاصرهم؟ فقال لها أنت الذي أردت هذا الأمر، وطلبت الاستيلاء على المال، ولم يخلفه الوالد لنقتل عليه بل لنستعين به على خارجي يخرج علينا وننفقه على من يحمي عنا، فقالت: قد جرى ما جرى ونعود إلى ما يعاد إليه، فقال ذلك إليك ولا خلاف مني".^(١١)

بهذا الحوار العقلاني؛ الهادئ استطاعت هذه المرأة أن تنهي خلافاً كان من الممكن أن يؤدي إلى اهتزاز في قمة السلطة، وسينتهي بقتل أحد الأخوين، وسيكون لهذا الحدث ما بعده من تأثير سلبي داخل البيت الرسولي، وعلى سلطاتهم في اليمن. وعندما رجع الملك المجاهد من مصر؛ طلبت منه أمه المعروفة بجهة صلاح، أن يطلق جميع من في السجن (ممن يعرفون اليوم بالسجناء السياسيين)، من بني رسول^(١٢) فأطلقهم وأسكنهم قرية السلامة^(١٣).

مشاركة المرأة في إدارة المواجهات العسكرية:

قد تبدو مشاركة المرأة في إدارة المواجهات العسكرية، غريبة لدى بعض المطلعين على التاريخ الإسلامي، خصوصاً أولئك الذين رسخت في تصوراتهم صورة نمطية للمرأة، في أنها مجردة من أي دور في الحياة السياسية لمجتمعها، وأنها هضمت وصودرت حقوقها في إبداء الرأي، والمشاركة في صنع القرارات المهمة.

لكن مصادر التاريخ الإسلامي تقدم ما يؤكد على أن المرأة المسلمة كانت مؤثرة في مجتمعها، وأن مجالات عديدة أسهمت فيها، من بينها المواجهات العسكرية، سواء في تقديم العون للمقاتلين، أم في المشاركة الفعلية في المعارك بالسلاح إلى جانب الرجل، لكن مصادر التاريخ اليمني، في العصر الرسولي، تقدم لنا أدواراً للمرأة في المعارك العسكرية، تخطيطاً وإدارة.

فكان (لبنت جوزة) أربعمائة فارس تسيطر بهم على قلعة الدمولة، وتغزو بهم إلى (الحوبان)^(١٤) بعد مقتل الملك المنصور^(١٥). وفي الوقت ذاته عندما علمت (الدار الشمسي) بمقتل والدها الملك المنصور، استولت على مدينة زبيد، بمساعدة الخدم، ومنعت (فخر الدين) والمماليك من دخولها، حتى أتى أخوها الملك المظفر^(١٦).

وثمة أدوار للمرأة في إدارة الحروب والمواجهات العسكرية، خارج البيت الرسولي، فقد جمعت إحدى الشريفات وتعرف (بامرأة أبي سفين) عدداً من القبائل

اليمنية لاستنقاذ زوجها (أبا سفين) وولدها من أمير حرص، بعد أن وقع في أسره^(١٧)، ومنعت (أم إدريس) زوجها الإمام من دخول صنعاء، سنة ٧٨٣هـ، فخرج منها إلى حصن (الفص)^(١٨)، وساندت فاطمة بنت الأمير أسد الدين ولدها علي بن صلاح عسكرياً ضد خصومه، سنة ٨٠٢هـ، في جهران، فأرسلت إليه المدد من المقاتلين والعتاد^(١٩).

الخاتمة :

وهكذا يتضح لنا، من خلال هذه الدراسة المتواضعة، لدور المرأة في الحياة السياسية، في عصر الدولة الرسولية - أن المرأة حظيت بمكانة مرموقة في مجتمعاتها، وأنها كانت حاضرة في الحياة السياسية، مشاركة في مجمل فعاليتها، بدءاً من تنصيب السلاطين، ومروراً بالمشاركة في الحكم والانفراد به أحياناً، وتسوية النزاعات التي كانت تنشأ بين أفراد البيت الرسولي، وانتهاءً بإدارة المواجهات العسكرية.

نتائج الدراسة :

- ١- أن القيم الإسلامية لا تعارض مشاركة المرأة في الحياة السياسية، فكان رسول الله يستشير بعض نساءه في بعض القضايا السياسية. وأن الذي أعاق المرأة في مراحل لاحقة بعض التقاليد القبلية.
- ٢- أن المراحل السابقة للعصر الرسولي، سواء في اليمن أو في الدولة الإسلامية قد هيأت لتقبل الدولة والمجتمع، في اليمن، دوراً للمرأة في الحياة السياسية في العصر الرسولي.
- ٣- أن سلاطين بني رسول كانوا يدفعون المرأة دفعاً للمشاركة في الحياة السياسية.
- ٤- أن مشاركة المرأة في الحياة السياسية في العصر الرسولي - كما تقدمه المصادر - ارتبطت بشرائع محددة، فاقترنت على نساء بني رسول، ونساء بعض الولاة والمشايخ والأشراف.
- ٥- أن كثيراً من زوجات الملوك الرسوليين كن من بنات العلماء والفقهاء، وهو أمر يشير إلى درجة إجلال ملوك بني رسول للعلماء، وعلى التظيم والوعي الذي أحرزته بنات الفقهاء.

الهوامش

- ١ - انظر : المقدم. محمد أحمد إسماعيل. المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، دار الإيمان، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- ٢ - زوجة الداعي علي بن محمد الصليحي، وقد كانت امرأة شريفة عفيفة عاقلة، وهي والددة المكرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي، وكل إليها زوجها التدبير فلم يكن يخالفها في غالب الأمور، وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين، وقد عملت على تولية أخيها التهام (الخزرجي). العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٤٨٥، انظر: صفت وصال حمزة. نساء حكمن اليمن، ص ١٣٥، ١٥٢، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
- ٣ - الحرة الملكة (سيدة) بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحي، اختلف في اسمها، فذهب بعضهم إلى أن السيدة صفة وليست اسماً، مثل محمد بن إسماعيل الكبسي في كتابه اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، ص ٣٦، والحشي في معجمه ص ١١، بينما ذهب آخرون إلى أن اسمها سيدة وليس أروى، بمعنى أن السيدة اسم وليس صفة، ولدت سنة ٤٤٠هـ وتولت أسماء بنت شهاب كفالته وتأديبها، كانت كاملة المعاسن تجيد القراءة والكتابة وتحفظ الشعر، راوية للأخبار عارفة بالأنساب والتواريخ، وكانت توصف ببلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها للملك، تزوجها المكرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٨هـ، في حياة أبيه، فلما توفي علي بن محمد الصليحي ورجع المكرم بوالدته إلى صنعاء بعد الاعتقال فوض أمور مملكته كلها إلى زوجته أروى، فاستبدت بالأمر، وانتقلت من صنعاء إلى جبلة بجيش جرار، توفيت بجبلة سنة ٥٣٢هـ وقد بلغت بضعا وتسعين سنة. (الخزرجي). العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٤٩٠، ٢٤٨٨، ٢٤٩٧، عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني، تاريخ اليمن (المعروف بـ تاريخ عمارة اليمني)، ص ١٧٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، انظر : صفت وصال حمزة، نساء حكمن اليمن، ١٥٥، ٢٠٢).
- ٤ - أطلق على الدار الشمسي أخت السلطان الملك المظفر لقب الملكة الشمسية، وقد كان لها دور كبير في ترجيح كفة أخيها الملك المظفر بالحكم بعد أبيها الملك المنصور، بنت عدداً من المدارس، توفيت سنة ٦٩٤هـ، قال عنها الإمام المطهر عندما بلغه موتها " ماتت بلقيس الصغرى" (ابن عبد المجيد. عبد الباقي ت ٧٤٣هـ. بهجة الزمن في تاريخ اليمن، ص ١٤٤، ١٤٥، تحقيق عبد الله محمد الحشي ومحمد أحمد السنهاتي، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، الحمزي. عماد الدين إدريس بن علي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، ص ١٢١، تحقيق : عبد المحسن المدعج، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط١، ١٩٢٢م).

٥ - أم الملوك : هي أم الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل، جهة الطواشي جمال الدين فرحان، لها مآثر بمكة وبتعز وبزبيد، منها المدرسة الفرحانية بزبيد، بنتها سنة ٨١٥هـ، ماتت سنة ٨٣٦هـ. (ابن الديبع الشيباني. بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، ص ١٠٢، تحقيق : عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، بامخرمة. أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد ت ٩٤٧هـ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج ٣، ص ٣٥٤٦، تحقيق محمد يسلم عبد النور، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ١٢، ص ١٥٥، دار الجيل الجديد، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ).

٦ - ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٥٦٦.

٧ - الشرجي. أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف ت ٨٩٣هـ. طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ص ٣٠٥، الدار اليمنية، صنعاء، ط ١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٨ - الأمير بدر الدين محمد (ت بعد ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، ص ٣٤٨، تحقيق ركس سمث، لوزاك، لندن، ١٩٧٤م.

٩ - ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٣٥٠.

١٠ - المقرئزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٨٤.

١١ - الدار الفائز : ابنة السلطان الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول، تعرف بالدار الفائز نسبة إلى الطواشي كمال الدين فائز بن عبد الله المؤيدي، شقيقة السلطان الملك المجاهد، عرفت بعلو الهمة وسمو النفس، بنت مسجداً في زبيد قبالة باب سهام، وعدداً من المرافق العامة مثل أسبلة الماء للناس وللدواب، وأوقافاً للفقراء والمساكين في وادي زبيد، توفيت سنة ٧٦٨هـ (الخرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٣).

١٢ - بنت الأمير شمس الدين علي بن رسول، أما نسبتها الدار النجمي فإلى زوجها الأمير نجم الدين أحمد بن أبي بكر، أحد الأمراء الذين جاؤوا مع الأيوبيين من مصر، عرفت بالصلاح والإحسان، بنت عدداً من المدارس مثل المدرسة النجمية نسبة إلى زوجها، وبنت مدرسة أخرى نسبتها لأخيها شمس الدين الذي توفي بمصر، وكانت تنفق على من بالمدرسة من طلبة وفقهاء وأيتام، كانت غالباً تلبس القطن من غزل يدها، توفيت ودفنت بذي جبلة، الخرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٨، ٢٥١٠، ٢٥٠٩.

١٣ - التعكر. جبل مظل على جبلة، وفيه قلعة عظيمة مكيئة في مخلاف جعفر، والمؤرخون على خلاف في ضم التاء وفتحها، فيورد ياقوت الحموي في معجم البلدان التعكر بضم الكاف، فيما يورده الحجري بفتح الكاف، ويوجد في عدن حصن يعرف بالتعكر (الحجري. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ١، ص ٣٦، ٣٧، تحقيق إسماعيل الأكوع، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ط ١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

- ١٤ - الجندي. السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج ٢، ص ٥٤٦، الخزرجي. العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج ١، ص ٩٥.
- ١٥ - زبيد مساجدها، ص ٩٠-٩١.
- ١٦ - العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج ٢، ص ٧٨٦.
- ١٧ - بدرية بنت محمد بن علي بن صلاح، كانت زوج الناصر بن محمد ثم قرر الفقهاء فسخ عقد زواجها منه أثناء غيابها، فتزوجها الإمام المظهر بن محمد بن سليمان، كانت موجودة سنة ٨٤٩هـ (كحالة. معجم النساء، ص ٣٤).
- ١٨ - ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٢٩٥-٢٩٦.
- ١٩ - يحيى بن الحسين. غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، ج ٢، ص ٥٢٧، ٥٢٩، تحقيق. سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- ٢٠ - إدريس بن عبد الله
- ٢١ - صلاح بن علي
- ٢٢ - فاطمة بنت الحسين
- ٢٣ - يحيى بن الحسين. غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، ج ٢، ص ٥٧٣.
- ٢٤ - ابنة الأتابك سيف الدين، وأرملة الملك المسعود الأيوبي آخر ملوك الأيوبيين في اليمن، لكنها تعرف ببنت جوزة، ثم تزوجها الملك نور الدين عمر بن علي بن رسول، فولدت له المفضل والفائز (الحداد. التاريخ العام لليمن، ج ٢، ص ٤٥٤، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م)
- ٢٥ - الأمير أبو الحسن محمد بن الحسن بن علي بن رسول الجفني الغساني، يلقب بأسد الدين، أحد قادة بني أيوب العسكريين، ابن أخ السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول، ولاء صنعاء وكلفه ببسط سيطرة الدولة على اليمن العليا، فاستولى على صنعاء وحكمها حكماً شبه مستقل، ولما ولي المظفر تقرب منه أسد الدين، وزوج السلطان المظفر ابنته، توفي سنة ٦٧٧هـ، وعمره نيف وستون سنة (الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٤، ص ١٨٥٥، ١٨٥١).
- ٢٦ - العقد الفاخر الحسن، ج ٤، ص ١٨٥١، انظر الأكوخ. إسماعيل بن علي، الدولة الرسولية في اليمن، ص ٣٢، دار جامعة عدن، عدن، ٢٠٠٣م، الفيضي. الدولة الرسولية في اليمن (دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية) ص ٤٧، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.
- ٢٧ - الدار الشمسي نسبة إلى أخيها الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، ابنة السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول، كانت من أعيان النساء وأعقلهن، عفيفة حازمة، كان لها دور كبير في وصول أخيها الملك المظفر إلى عرش الدولة الرسولية بعد وفاة والده الملك المنصور، لها مآثر كثيرة في نواحي اليمن من مدارس

ومساجد وأوقاف، توفيت سنة ٦٩٥هـ، وأوصت بأملكتها لابن أخيها المؤيد (الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٤٩٧، ٢٤٩٨، عبد الباقي. بهجة الزمن، ص ١٤٤، الجندي. كتاب السلوك، ج ٢، ص ٤١، الحمزي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار، ص ١٠٠، هامش العطايا السنية، ص ٢٤٩).

٢٨ - لما بلغ الملكة الدار الشمسي موت والدها أخرجت خادمها تاج الدين بدر من السجن وأنفقت على من يزيد من العسكر وغيرهم من العواريين من أهل المدينة وحفظت المدينة من المماليك الذين أتوا مع فخر الدين للاستيلاء على المدينة (عبد الباقي. بهجة الزمن، ص ١٤٤، ١٤٥، الجندي. بهاء الدين محمد بن يوسف، السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج ٢، ص ٤١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، الحمزي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار، ص ١٠٠، هامش العطايا السنية، ص ٢٤٩).

٢٩ - الحمزي. عماد الدين إدريس بن علي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار، ص ١٠٠، تحقيق: عبد المحسن مدعج، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط ١، ١٩٩٢.

٣٠ - دخل الملك المظفر زبيد وملكها في ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ (الوصابي. وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد الحبشي ت سنة ٧٨٢هـ، تاريخ وصاب، ص ١٤٨، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، مجهول. تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، ص ٢٧، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م).

٣١ - المهجم: إحدى مدن تهامة قبالة ساحل اللحية شرق مدينة الزيدية على ضفاف وادي سررد، كانت ثاني مدن تهامة في العصر الرسولي، بها جامع كبير جدد بناءه الملك المظفر (الهمداني. الحسن بن أحمد بن يعقوب. صفة جزيرة العرب، ص ٩٧، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، ابن الديبع. قرّة العيون، ص ١٧١).

٣٢ - الشحر: بكسر الشين وسكون الحاء المهملة - كما قال ياقوت - الساحل الضيق، فيما يعزي با مخرمة سبب التسمية إلى أن سكانها كانوا جيلاً من المهرة يسمون الشحراء بفتح الشين، وهي الآن مدينة معروفة على ساحل حضرموت، وإليها ينسب اللبان الشحري، وهي بلاد كثيرة الآبار والنخيل. (ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله الحموي. معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٢٧، ٣٢٨، دار الفكر، بيروت، د. ط، د. ت. الحجري. معجم بلدان اليمن وقبائلها، ج ٢، ص ٤٤٧، المحققي، معجم المدن والقبائل اليمنية، ص ٢٢٧).

٣٣ - ابن الديبع، قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص ٤٠٣.

٣٤ - جهة صلاح أو الدار الصلاحى، اسمها آمنة بنت الشيخ إسماعيل بن عبد الله الحلى المعروف بالنقاش، زوجة السلطان المؤيد داود، وأم ابنه السلطان الملك المجاهد علي بن داود، كانت، كما تصفها المصادر، شريفة النفس عالية الهمة رفيعة الأخلاق حسنة التدبير سديدة الرأي لبيبة رشيدة عاقلة، كثيرة الصدقات تحب العلماء وتقربهم، تقوم بالوافدين والمنقطعين، تدور على بيوت الفقراء وتتفقدهم وتواسيهم بالطايبات، أنشأت عدداً من المدارس والخانقافات والمساجد، منها المدرسة الصلاحية بزبيد، ومدرسة ومدرسة في قرية المسلب بوادي زبيد وأخرى في قرية السلامة، وخانقاه أمام المدرسة الصلاحية، ومسجد في قرية التريبة، وآخر في المجلية بتعز، توفيت في مدينة تعز سنة ٧٦٢هـ (الخرجي). العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٤٩٩، الحبشى. عبد الله محمد. معجم النساء اليمنيات، ص ١٨، ١٩، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط ١، ١٤٠٩هـ - / ١٩٨٨م، عبده علي هارون. الدر النضيد في تحديد معالم وآثار مدينة زبيد، ص ٧٠٤، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ - / ٢٠٠٤م).

٣٥ - لما توفي الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول واستولى ولده المجاهد علي المملكة اليمنية بأسرها تأمر عليه المماليك واستمالوا عمه المنصور أيوب بن المظفر يوسف وأطمعوه في الملك، فلزموا المجاهد في قصر ثعبات وحملوه إلى عمه المنصور فأودعه دار الأدب من حصن تعز، واستولى المنصور على الملك، ثم أن والدته المجاهد المعروفة بجهة صلاح استخدمت رجالاً وبذلت لهم الغرائب الجزيلة فقصدوا الحصن ليلاً وطلعوا من ناحية الشريف بمساعدة جماعة من داخل الحصن، فلما صاروا في الحصن دخلوا على المنصور، وساروا به إلى مجلس المجاهد، ثم سجنوه وأخرجوا المجاهد من سجنه، وبذلك استولى على الملك مرة ثانية بمساعدة والدته (الخرجي). العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٤٩٩، با مخرمة. تاريخ ثغر عدن، ص ١٤٥، ١٤٦، انظر كذلك الحبشى. معجم النساء اليمنيات، ص ١٨، ١٩).

٣٦ - الدملوة : بضم أوله وسكون ثانيه وضم اللام وفتح الواو، حصن عظيم باليمن بمحافظة تعز في عزلة الصلو، فيه قلعة في أعلى قمة في جبال الصلو، كان يسكنه آل زريع، وتسمى القلعة كذلك بقلعة أبي المغلس، يصعد إلى الحصن بسلمين، وفي الحصن مسجد وبركة للماء (الحجري). مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ١، ص ٢٣٦، ٢٣٧).

٣٧ - با مخرمة. تاريخ ثغر عدن، ص ١٧٧.

٣٨ - المقرئزي. السلوك لمعرفة نول الملوك، ج ٢، ص ١٨٤.

٣٩ - ابنة الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله البركاتي من ناحية لحج أبين، والدته السلطان الأشرف إسماعيل بن العباس، عرفت بجهة طغي نسبة إلى الطواشي جمال الدين طغي بن عبد الله الأفضل، عرفت بالعقل والحزم، لما مات الأفضل قامت وشمرت عن ساعد الجد، واستدعت الأمراء وأعيان العسكر ووجود الأشراف ومشايخ العرب وأمرت بالنفقة على سائر العسكر، وعلى الكافة في القيام بطاعة الله، ولولدها السلطان الأشرف، ووعدتهم بما

تطبيب به نفوسهم فانضوا جميعاً تحت طاعته وانقادوا له، وكان لها دور في إنشاء المرافق العامة مثل المدارس والمساجد والسقايات، والإتفاق على الفقراء والمساكين، كثيرة العتق للعبيد والجواري، توفيت سنة ٧٨٤هـ (الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٢، الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٥٥).

- ٤٠ - الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٥٥.
- ٤١ - المقرئزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٨٤، ١٨٧، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ١٦٤ انظر كحالة. عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج ١، ص ٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت.
- ٤٢ - الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٠.
- ٤٣ - الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٠، كحالة. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج ٣، ص ٥.
- ٤٤ - ابن الديبع. قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص ٣٣٨، يحيى بن الحسين. غاية الأمان في أخبار القطر اليمني، ج ٢، ص ٥١٣، الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٣٩.
- ٤٥ - هم بعض سكان تهامة بلادهم بين حيس وزبيد
- ٤٦ - كانت شيخة على قبيلة المعازبة، تقود قومها على دابة أو جمل وتتقدمهم سنة ٧٤٠هـ، وكانت من النساء العاقلات (الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٣٩)
- ٤٧ - جهران : سهل فسيح على بعد (٦٦) كيلو متر إلى الجنوب من صنعاء، من أعمال آس محافظة ذمار، ينسب إلى جهران بن وحصب بن دهمان بن مالك، من ولد سبا الأصغر، ويعرف بقاع جهران (المقحفي. إبراهيم أحمد، معجم المدن والقبائل اليمنية، ١٢٥، ١٢٦، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٥م).
- ٤٨ - الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ١٥٢.
- ٤٩ - فاطمة بنت الحسين بن صلاح الدين
- ٥٠ - يحيى بن الحسين. غاية الأمان، ج ٢، ص ٥٧٣.
- ٥١ - الخزرجي. العقود اللؤلؤية، في تاريخ الدولة الرسولية، ج ١، ص ٢٤٦، الزركلي. الأعلام، ج ٢، ص ٣٢٩، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٢م.
- ٥٢ - ابن الديبع. قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص ٤٠٩.
- ٥٣ - بهجة الزمن، ص ١٧٦.
- ٥٤ - المقصود به حصن تعز (قلعة القاهرة الآن) كان اسم الحصن تعز، فيما كانت المدينة التي يطلق عليها الآن تعز تعرف بذي عدينة، وشيئاً فشيئاً بدأ اسم الحصن ينسحب على المدينة، فأطلق اسم الحصن على المدينة، وكان الحصن مقراً للحكم في العصر الرسولي، وفي العصور التالية، على أن أول من أقام فيه كما تشير المصادر عبد الله الصليحي، وفيه دار للأدب (سجن) للمعارضين السياسيين (الحجري. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٢، ص ٦٤٦، المقحفي. معجم المدن والقبائل اليمنية، ص ٦٩، ٣٢٢).

- ٥٥- السطور : لقب للمرأة المجلة المحتجبة عن الناس، كان مستعملاً في العصر الرسولي للدلالة على نساء بني رسول لاسيما زوجات السلاطين والأمراء.
- ٥٦- الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٢، ص ٦٧١، ٦٧٢، با مخرمة. تاريخ ثغر عدن، ص ٨٠، انظر : الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٣٧.
- ٥٧- الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٢، ص ٦٧٣.
- ٥٨- جهة معتب : هي جهة الطواشي جمال الدين معتب بن عبد الله الأشرفي، والد الملك الناصر أحمد بن السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن العباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي رسول، اجتمعت فيها صفات الحلم والعفة والكرم، لها كثير من المآثر الدينية، لعل أهمها المدرسة المعتبية في ناحية الواسطة بمدينة تعز، وقد رتبت فيها فقهاء ومحدثين وطلبة، ومعيدا، وأيتاما، والمدرسة ما زالت إلى الآن وإن اقتصررت وظيفتها على أداء الصلوات الخمس، وكانت مهتمة بالمرافق العامة مثل إصلاح الطرقات العامة، وتقديم الخدمات للمارة فيها مثل أسبله الماء وتمهيد الطرقات، توفيت بدار النصر بزييد سنة ٧٩٦هـ (الخرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٤، ٢٥٠٥).
- ٥٩- العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٥.
- ٦٠- البريهي. عبد الوهاب بن عبد الرحمن، طبقات صلحاء اليمن، تحقيق : عبد الله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م
- ٦١- ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ٢٩٥ - ٢٩٦.
- ٦٢- هم ابن عمه محمد بن المنصور بن المظفر، وأحمد بن الناصر بن عمر الأشرف، وعمر بن حسن بن داود بن يوسف المظفر (يحيى بن الحسين). غاية الأمان في أخبار القطر اليمني، ج ٢، ص ٥١٦).
- ٦٣- يحيى بن الحسين. غاية الأمان، ج ٢، ص ٥١٦.
- ٦٤- إلى الشمال من مدينة تعز، وهو سهل فسيح فيه مدينة الجند ومسجد معاذ بن جبل، وكان الجند في العصر النبوي وما بعده أهم مخاليف اليمن ومقر لإدارة ولاية اليمن (المحقق). معجم المدن والقبائل اليمنية، ص ١٣٢.
- ٦٥- ابن عبد المجيد. بهجة الزمن، ص ١٤٧.
- ٦٦- الحمزي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار، ص ١٠٠.
- ٦٧- ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٤٣٦، ٤٣٧.
- ٦٨- يحيى بن الحسين. غاية الأمان، ج ٢، ص ٥٢٩.
- ٦٩- يحيى بن الحسين. غاية الأمان، ج ٢، ص ٥٥٤، ٥٥٦، الحبشي، معجم النساء اليمنيات، ص ١٥٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر :

- ١- تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها، تحقيق علي حسن الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م.
- ٢- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج٣، ص ٣٥٤٦، تحقيق محمد يسلم عبد النور، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.
- ٣- طبقات صنعاء اليمن، تحقيق : عبد الله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.
- ٤- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الجندی. بهاء الدين محمد بن يوسف.
- ٥- السموك في طبقات العلماء والملوك، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.
- ٦- السموك الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، ص ٣٤٨، تحقيق ركس سمث، لوزاك، لندن، ١٩٧٤ م.
- ٧- تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، تحقيق : عبد المحسن مدعج، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط١، ١٩٩٢.
- ٨- الخرجي. أبو الحسن علي بن الحسن ت ٨١٢ هـ.
- ٩- العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر أهل اليمن، تحقيق عبد الله بن قائد العبادي وآخرين، الجيل الجديد، صنعاء، ط١، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.
- ١٠- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.
- ١١- ابن الديبع. عبد الرحمن بن علي الشيباني الزبيدي ت ٩٤٤ هـ.
- ١٢- بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، ص ١٠٢، تحقيق : عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
- ١٣- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
- ١٤- السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن .
- ١٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل الجديد، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ.
- ١٦- الشرجي. أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف ت ٨٩٣ هـ.

١٢- طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ص ٣٠٥، الدار اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

ابن عبد المجيد. عبد الباقي ت ٧٤٣هـ.

١٣- بهجة الزمن في تاريخ اليمن، ص ١٤٤، ١٤٥، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنبراني، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني.

١٤- تاريخ اليمن (المعروف بتاريخ عمارة اليمني)، ص ١٧٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

المقريري.

١٥- السلوك لمعرفة دول الملوك.

ابن منظور. جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي. (ت ٧١١هـ / ١٣١١هـ).

١٦- لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة.

وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد الوصابي ت ٧٨٢هـ.

١٧- تاريخ وصاب، ص ١٤٨، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

الهمداني. الحسن بن أحمد بن يعقوب

١٨- صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

ياقوت. شهاب الدين أبي عبد الله الحموي

١٩- معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

يحيى بن الحسين.

٢٠- غاية الأمان في أخبار القطر اليمني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

ثانياً: المراجع:

الأكوع. إسماعيل بن علي

٢١- الدولة الرسولية في اليمن، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

الحبشي. عبد الله محمد.

٢٢- معجم النساء اليمنيات، ص ١٨، ١٩، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.

الحجري. محمد بن أحمد

٢٣- مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص ٤٦٢، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوع، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

الحداد. محمد يحيى.

- ٢٤- التاريخ العام لليمن، ج ٢، ص ٤٥٤، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م الزركلي.
- ٢٥- الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٢ م. عبده علي عبد الله علي هارون.
- ٢٦- الدر النضيد في تحديد معالم وآثار مدينة زبيد، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م). عفت وصال حمزة.
- ٢٧- نساء حكم اليمن، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) كحالة. عمر رضا.
- ٢٨- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت. الفيفي. محمد بن يحيى.
- ٢٩- الدولة الرسولية في اليمن (دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية)، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ١، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م. المقحفي. إبراهيم
- ٣٠- معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م). المقدم. محمد أحمد إسماعيل.
- ٣١- المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، دار الإيمان، الإسكندرية، ط ١، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

المطبخ السلطاني في اليمن في عصر بني رسول

(٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م)

د. سلوي عبد القادر السليمان (*)

كان للاستقرار السياسي الذي عرفه اليمن في عصر الدولة الرسولية^(١)، انعكاس واضح على الجوانب الحضارية التي وجدت كل الاهتمام والعناية من سلاطين هذه الدولة، حيث أولوا اهتماماً خاصاً بالتنظيم الإداري والمالي، وأوجدوا وظائف ودواوين متعددة، وشهد الجانب الاقتصادي نمواً وازدهاراً كبيراً، نتيجة للاستقرار السياسي والتنظيم الإداري والمالي، وكان التطور الثقافي والعمراني من أهم ثمار هذا الاستقرار، وأدى كل ذلك إلى مظاهر الرفاهية التي عاشها سلاطين آل رسول.

فقد حرص هؤلاء على بناء القصور والدور والحدائق، وتوفير كافة وسائل الترفية والرفاهية لهم ولعائلاتهم وأبنائهم^(٢)، وكان من ذلك الموائد السلطانية، وما تحتويه مما لذ وطاب من الأطعمة والأشربة للسلطان وعائلته، وضيوفه على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية، وهذا ما يجتنبنا نظرح العديد من التساؤلات حول المطابخ السلطانية وأنواعها، وموظفيها وإدارتها وطريقة تموينها، وأنواع الوجبات الغذائية والأشربة التي كانت تقدم في مختلف المناسبات.

وذلك للوصول إلى هدف الدراسة وهو: إبراز دور المطابخ السلطانية في تنوع الوجبات اليمنية وكيفية إعدادها، والطريقة التي يتم فيها تنظيم الموائد السلطانية، وأهم عادات تلك الموائد.

أولاً: أنواع المطابخ السلطانية وملحقاتها:

تنوعت المطابخ السلطانية وفقاً للمكان والتخصص، ومن تلك المطابخ، المطبخ الذي يتموضع داخل القصر السلطاني، وله عدة تسميات هي: المطبخ الكبير أو المطبخ داخل، أو المطبخ، وإن تعدد ذكره بصفات مختلفة فإن المقصود واحد، وهو أنه المطبخ الخاص بتحضير الطعام للسلطان وعائلته، داخل القصر.

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة الدمام.

كما عرف المطبخ العام أو المطبخ الخارجي^(٣)، وهذا المطبخ تخصص في تحضير الطعام الذي يوزع على الناس المتواجدين في الأبواب السلطانية.

وعرف نوع آخر يسمى مطبخ شكر، وهو أحد المطابخ السلطانية الملحقة بقصر السلطان "الملك المظفر الأول يوسف بن عمر" (٦٤٧-٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٥م)، ويبدو أن هذا المطبخ كان مخصصاً لإعداد المشروبات والمزة الخفيفة مثل السلطة والمخللات التي تعد من بعض الخضروات، وسمى مطبخ شكر باسم الطباخ المسئول عن إدارته. كما ورد اسم مطبخ البوارد، ويبدو أنه مخصص لطبخ وجبة غذائية بنفس الاسم^(٤).

وهناك نوع من الخيم مخصصة لأعمال المطابخ، فيها يتم طهو الطعام، وبها تحفظ القدور والصحون وأدوات المائدة المختلفة، وحاجات الطباخة من الدقيق والزيت والسمن وغيرها^(٥)، ومن الواضح أنها مطابخ متنقلة للرحلات.

وكانت هناك مطابخ أصغر، أو ما يسميه كتاب نور المعارف "بيت"، وهو مكان ملحق بالمطبخ، مخصص لإعداد الحلويات الخاصة بالسلطان والحاشية الملكية، كما اعتبر المساكن مكاناً مخصصاً لإعداد المشروبات يتبع المطبخ السلطاني، ويسمى أيضاً بيت المشروبات أو الشرايخانة السعيدة^(٦)، والمخبز وهو المكان المخصص لإعداد الخبز بأنواعه المختلفة، وبيت اللحوم، وهو المكان المخصص لإعداد اللحوم وهو أحد الوجبات المشهورة في اليمن حتى عصرنا الحالي، وبيت التحويح^(٧) وهو المكان المخصص للتوابل والبهارات، وهو تابع للمطبخ السلطاني، وتصرف فيه الحوائج أي التوابل للطباخين وفقاً للمقادير المطلوبة والمحددة لكل وجبة^(٨).

ثانياً: أدوات المطابخ السلطانية:

تنوعت أدوات المطبخ السلطاني في عصر الدولة الرسولية، إلى أدوات معدنية من نحاس وفضة، وخزفية وفخارية وخشبية وزجاجية وبلورية وحجرية، وفيما يلي نذكر بعض تلك الأدوات:

- الكراسي: وتصنع من الخشب خصيصاً للجلوس عليها عند تقطيع الخضار أو الطبخ على الموقد، وهي مقاعد واطئة يبلغ ارتفاعها شبراً تقريباً^(٩).

- المناسف: طبق كبير من سعف النخيل لتنقية الحبوب^(١٠).

- المناخل: لنخل الدقيق وتنقيته، والغرابيل لغرلة الحبوب، وتكون فتحاتها أكبر من المناخل.

- الثياب الخام: وهي أقمشة بيضاء غير مصبوغة، كانت تستعمل بكثرة في المطابخ السلطانية مثل (بيت الحلوى، والمخبز، والشرابخانة... وغيرها) ^(١١)، ونرى أن هذه الأقمشة كانت تستخدم لتغطية القدور والأطباق، إلى جانب استخدامها في مسح الأيدي وإزالة العرق من قبل العاملين في المطابخ.

- الملاكد: المكلد هو الوعاء الذي تدق فيه البهارات، والحبوب ومواد أخرى عديدة، ولا تعرف له في بلاد اليمن إلا هذه التسمية، بينما يسمى في بعض البلاد العربية الهاون، وهو مصنوع من الخشب أو النحاس أو الحديد ^(١٢).

- المهارس: ومفردها مهراس آلة الهرس، وهو الهاون، يهرس به وفيه الحب ^(١٣).

- القدور: وهي آنية للطبخ مصنوعة من أحجار مخصوصة غالباً، وهي ذات سعات وأحجام مختلفة عديدة، منها الزخميات وهي نوع من القدور الضخمة يطهى بها اللحم، حيث يستوعب بعضها ثلاثة من الأغنام ^(١٤).

- المقلّي: المقلّي إناء يخرط من الحجر مزال معروفاً بنفس الاسم في اليمن إلى يومنا، تطبخ فيه على النار الوجبات الشعبية، وميزت المقلّي عن غيرها من أواني الطبخ بأنها تظل محتفظة بسخونتها مدة طويلة . وهي تختلف من حيث أحجامها، فمنها الصغير ومنها الضخم ويسمى مقلّي الزخمي ^(١٥).

- المشافّة : آنية من الحجر، مازالت معروفة، وإن كانت في عصرنا تعمل من الفخار، وهي أصغر من الملحّة (آنية اللحوح) ويتم عمل نوع من الأرغفة الإسفنجية الشكل على سطحها، وهي ما يعرف بـ (القطايف) وهي المعروفة أيضاً في عصرنا، وخاصة في شهر رمضان، وجاء ذكر هذه الآنية باسم المشوفة وهو نفس النوع الذي ينضج عليه الخبز ^(١٦).

- الصحون و الزبادي: وجدت الصحون في عصر الدولة الرسولية من مواد مختلفة، كالقخار والصحون والزبادي الصيني، ويحدد من هذه الصحون ما يستخدم لطعام السلطان أثناء سفره، فتكون مفروزة وحدها ولا تستعمل إلا أثناء سفره، فإذا استقر به المقام استعملت أطباق وأوان من الصيني الخاص بطعام الملك، مخصصة لطعامه عند إقامته سواء في عاصمة الدولة أو المدن التي يزورها.

وتحفظ الأواني والأطباق الخزفية الصينية في الخزائن العامة للدولة، ومنها تصرف للمختصين لاستعمالها في الموائد الملكية، وحفظها في خزائن الدولة التي تحتوي على الأموال العامة يدل على قيمتها النفيسة، وعلى قصر استعمالها كامتياز على الأسرة المالكة وحاشيتها ^(١٧).

وهناك نوع من الصحون يصنع من الحديد والنحاس، بمقاسات مختلفة، منها ما يسمى المعاشير (جمع مِشْرَة) وهي طبق من النحاس كبير الحجم، توضع داخله أطباق الطعام، ويستخدم بعض أنواعه الصغيرة كإتاء للطعام، وتقدم بالمعاشير الصغيرة من النحاس مشهيات الطعام (المقبلات) ولا يزال هذا المصطلح مستخدم عند أهل اليمن، كما استخدمت صحن مخصصة للحلوى أطلق عليها البقلدانية، وهي مخصصة لتقديم البقلادة^(١٨). إلى جانب ما يسمى قِصاع (حُب) بأحجام مختلفة للحلوى.

— الملحّات: مفردا ملحّة وعاء من الفخار، وما زال معروفاً بنفس التسمية، يستعمل لتحضير الخبز الهش المسمى "اللحوح"^(١٩).

— المعاجن: مفردا معجّنة، وهي أوعية فخارية مازالت معروفة في مدينة زبيد^(٢٠) وهي ذات شكل دائري سميكة القاعدة، وعمقها يختلف تبعاً لاختلاف مقاساتها، وبها يعجن الدقيق ويهيأ ليكون خبزاً.

— الأقشمة: أوعية فخارية خاصة بالخضروات .

— السُفر: جمع سُفْرَة تتخذ من خوص النخيل، تفرش على الأرض وتقطع عليها اللحوم.

— القرامى: جمع (قِرْمَة) وهي قطعة من الخشب تقطع عليها اللحوم^(٢١).

— التُور: جمع (تُورَة) طبق مصنوع من خوص النخيل، يستخدم لأغراض متعددة، مثل وضع بعض الأطعمة لنقلها إلى المائدة مثل الخبز واللحوم، كما تحفظ فيه أطعمة أخرى^(٢٢). وتستخدم في زماننا وب نفس الاسم.

— قصور الحلوى: هي عبارة عن تشكيلة خشبية تصمم على هيئة قصر، ترتب عليها صحن الحلوى في المآدب السلطانية، وربما تخيلنا شكل هذه القصور لتقريب فهمها للأذهان، بما يماثل النظام المتبع في ترتيب أنواع الحلوى في أفخم الفنادق في عصرنا، مع فارق الزمن وتغير نوع المواد الحاملة لأصناف الحلوى^(٢٣).

هذه هي أهم أدوات المطابخ السلطانية، بالإضافة إلى الملاعق أو السكاكين، والجرار التي تنقل المياه و الأقداح التي يشرب فيها الماء، أو أنواع الشراب المختلفة، والقناني وهي الأنية الزجاجية التي كان يوضع فيها ماء الشرب أو الخل، والمغارف التي تغرف بها السوائل والمواد الجافة^(٢٤).

ثالثاً: موظفي المطابخ السلطانية:

ضمت المطابخ السلطانية، بمختلف أنواعها، عدداً من موظفي الدولة العاملين فيها، حيث يتولون إعداد الموائد الخاصة بالسلطان وأفراد أسرته، وكبار رجال الدولة المقيمين في قصوره، والأطعمة التي تجهز لضيوف السلطان والوافدين إليه في الدار السلطانية المعروفة بدار الضيف^(٢٥).

الطباخون: انقسم الطباخون إلى قسمين: قسم ارتبط بالسلطان ومطابخه، وهم الطباخون الدائمون، أو المستمرون في الخدمة داخل المطبخ السلطاني لا يغادرونه، سواء بقي السلطان في مقر إقامته أم غادره إلى دار أو موضع آخر. ومما يؤكد لنا ذلك الارتباط؛ ما كان يطلق عليهم في زمن السلطان الملك المظفر "يوسف ابن عمر الرسولي" الذي اضيف إليه لقب الخليفة إلى جانب تسميته بالسلطان والملك، وأطلق على الطباخين الخاصين بمطبخه السلطاني (الخليفة) ^(٢٦).

أما القسم الثاني فكان تحت تصرف السلطان، ينتقل معه حيثما ذهب أو سافر، وعرفوا بطباخي الطوارئ، وقد يكلفون بمهام خاصة كمرافقة قوات السلطان عند غزو أي منطقة، وقد يخرجون إلى بعض المناطق ضمن وفود السلطان التي تكلف باستقبال بعض كبار الشخصيات من الأشراف وغيرهم، إذ يتولون عملية الطباخة في خيمة تنقل معهم، تكون مخصصة لأغراض الطباخة وإعداد الأطعمة، وتخزين الحوائج وأدوات المطبخ^(٢٧).

– السبائرية: يطلق هذا اللقب على الطباخ المشرف والمسئول الأول عن المطابخ السلطانية (كبير الطباخين)^(٢٨).

– الشواء: هو الذي يعمل على إعداد اللحم وتحويجه (إضافة التوابل) وشويه.

– الشرائحي: هو من يعمل على تجهيز اللحم وتقطيعه إلى شرائح.

– المهرّس (الهرايسي): هو من يتولى إعداد وجبة الهريسة التي تتكون من القمح واللحم^(٢٩).

– الخبازون: ضمت المطابخ السلطانية عدداً من الخبازين (ذكور و إناث) ممن يصنعون أنواع الخبز التي يتم وضعها إلى جانب الأطعمة^(٣٠)، أو التي قد تكون من المقادير الرئيسية لوجبات يمنية شعبية، كخبز الرقاق الذي يعتبر العنصر الأساسي لأكثر من وجبة غذائية، وخبز اللحوح الكعك اليمني الذي يدخل في إعداد بعض الأطباق أيضاً.

– الكماخي "المخلاتي": هو الذي يعد ما لذ وطاب من (الكوامخ) وهي المخللات التي تقدم كمشهيوات للطعام^(٣١). (ما يسمى في عصرنا الحالي المقبلات).

- القنبريسي: وهو الذي يتولى إعداد القنبريس، وهو من الحليب الطبيعي الحيواني المجمد (اللبن في عصرنا الحالي) ^(٣٢)

- الحلواني: هو الذي يتولى إعداد الحلويات.

وإضافة إلى هؤلاء الطباخين؛ ضمت المطابخ السلطانية عدداً من الموظفين والحرفيين ممن لا دخل لهم في الطبخ وإعداد الطعام مثل:

- الكتاب: الذين يعملون على تسجيل الداخل والخارج من هذه المطابخ، وتسجيل كل ما يحتاج إليه الطباخون من حبوب وخضار وفواكه، وحوائج وأوعية وأدوات.

- الوزانون: الذين يعملون على وزن الأشياء من متطلبات المطابخ، وتحديد مقاديرها بشكل يومي، وجاء ذكر أحدهم في عصر السلطان المظفر الأول وهو (صبح الوزان) ^(٣٣).

- القمّاط: وهو الموظف المختص بشراء الأغنام والحيوانات بالجملة، وإيصالها إلى المطابخ السلطانية، ويكون ذلك بتكليف من المسئول الأول عن هذه المطابخ بعد إعطائه مبالغ مالية لهذا الغرض، للحصول على لحوم طازجة بشكل يومي؛ ومن هؤلاء شخص يعرف بأبي بكر بن مزي القمّاط ^(٣٤). وما زال هذا اللقب (القمّاط) يطلق على كل من يجلب الحيوانات والحبوب، ويبيعها في القرى والأسواق الأسبوعية أو في أسواق المدن.

- الجزارون: الذين يقومون بذبح الأغنام وتنظيفها وتقطيعها في المسالخ التابعة للمطابخ السلطانية، ومن عرف منهم في عصر السلطان "المظفر الأول" شخص يعرف بمقبل الجزار. وتضم هذه المسالخ عدداً من الغلمان المعروفين بقلمان السلخانة ^(٣٥). ويبدو أن مهمتهم تقتصر على أعمال التنظيف والحمال.

- المرقدار: الذي يتولى الإشراف على إعداد المائدة الملكية (السماط) وترتيب الأطباق والأطعمة عليها، ويكون مسئولاً عن كافة الأواني والأوعية من الصحون والزيادي والأطباق، وعن طرق حفظها وتخزينها ^(٣٦).

- الساقى: هو الذي يتولى بسط المائدة (السماط) وتقطيع اللحم عليها، ثم سقي المشروبات بعد رفعها. وإلى جانب هؤلاء؛ عمل عدد من الموظفين والمتخصصين في صنع أنواع المشروبات والعصائر التي تجهز للسلطان، فيما يسمى بالشراب بخانه، وهو بيت المشروبات، ويحتوي مختلف أنواع المشروبات، وما يحتاج إليه من مواد لتحضيرها مثل: السكر والمرببات والحلوى والفواكه والطور، إلى جانب أدوات المشروبات من أنية زجاجية، وخزف صيني، ومحلي، وكيزان، وصحاف وصحون من نحاس ^(٣٧).

- الغرافون: وهم من يتولون غرف الأطعمة في الصحن والآنية المختلفة^(٣٨).
- الحوائج كاش: وهو الموظف المختص بشراء كافة احتياجات الحوائج خاتناه^(٣٩).
التابعة للمطابخ السلطانية، وتكون تحت يده مبالغ مالية مائلة، بصورة دائمة
تمكنه من الحصول على ما يريد. واللفظ (كاش) يعني دفع القيمة نقداً^(٤٠).
- المنزّص: لقب لشخص يعمل في المطابخ السلطانية ومهمته غير مطومة،
واللفظ ليس له ذكر في العربية، وهو من الألفاظ الخاصة المستعملة في بلاد
اليمن، ويطلق لفظ (البرصاح) وجمعه (براصح) على الموضع الفسيح الذي
يكون ملحقا بالحقل، ترمى فيه الأحجار وغيرها، وتبعاً لهذا ربما كانت مهمة
(البرصاح) هي نقل الأدوات والأشياء وتنظيمها في المطابخ لإيجاد مساحة
واسعة في المكان، تتيج حرية الجلوس والحركة للعاملين به من الطباخين
والمشرفين وغيرهم^(٤١).
- الصكار: وهو من الحرفيين العاملين في المطابخ السلطانية، ومهمته العناية
بالتقودور النحاسية المستعملة في تلك المطابخ^(٤٢).

رابعاً: أنواع الموائد السلطانية (السماط):

- السماط لفظ يطلق على مائدة الطعام الخاصة بالسلطان، ونستطيع أن نطلق
عليها بلغة عصرنا: المائدة الملكية وكانت تنقسم إلى:
- السمات العام: ويسمى (الخرجي) أو المائدة الملكية العادية غير الفخمة، والتي
يمكن أن يأكل منها أي كان من الناس المتواجدين في الأبواب السلطانية.
- السمات الكريم: هذا هو السمات السلطاني، أو المائدة الملكية التي تُعد للسلطان
في الدار المخصص للضيوف^(٤٣).
- السمات الطّاري: السمات الخاص الذي يعمل للسلطان يومياً، بعد السمات الأول
الذي يمد أول النهار لا يأكل منه السلطان، ثم السمات الثاني ويسمى السمات
الخاص، قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ثم ثالث بعده يسمى الطاري ومنه
مأكول السلطان^(٤٤).
- سمات القدوم المبارك: هو أول سمات يمد للسلطان بعد وصوله مباشرة إلى ثغر
عدن أو غيره، وهو يمثل في عصرنا (مأدبة استقبال حاكم البلاد ورئيسها عند
زيارته لعاصمة محافظة من المحافظات)^(٤٥).

- السباط الكبير: خيمة كبيرة كانت تنصب للسلطان ومن معه، من أجل أن تتسع للناس في المناسبات الكبيرة مثل العرس، أو زيارة السلطان لبعض المدن^(١٦).

وقد يطلق سباط على (بدل تغذية) أو (مقابل طعام الجندي) وكان يخصم من مرتب الجندي السنوي؛ مرتب شهرين مقابل حصوله على تغذية لمدة عام، في الموقع الذي يقيم فيه^(١٧).

خاصة: مناطق ترمين الخطاب السلطانية:

عرف اليمن زراعة أصناف عديدة من حبوب الطعام، اختلفت أنواعها حسب المواقع التي زرعت بها، والظروف المتوافرة لها، إضافة إلى فترات زراعتها، وبذلك وفر لنفسه ولماشيقته الغذاء خلال أغلب فترات السنة، كما حرص أصنافاً عديدة من الأشجار المثمرة كاللوز والتين والعنب في اليمن الأعلى والتخيل في اليمن الأسفل، فوفر لنفسه غذاء إضافياً. وإلى جانب ذلك سمحت له الظروف الطبيعية، أو حتمت عليه، تربية أنواع مختلفة من الدواب، مكنته من إثراء غذائه النباتي بغذاء حيواني أساسه الحليب واللحم، أما البحر فوفر مصادر للرزق والغذاء، تمثلت في أصناف عديدة من الأسماك.

وتعتبر الذرة بأنواعها المختلفة، البيضاء والحمراء، من أهم المحاصيل في اليمن قديماً وحديثاً، وتسمى عند أهل اليمن "الخب" أو الطعام، وأهم مناطق زراعتها هي الأراضي التهامية والأراضي الجبلية^(١٨). وغالباً ما يكون الحديث عن الذرة مصحوباً بالحديث عن الدخن الذي يدخل في صناعة أصناف عديدة من الوجبات كالذرة^(١٩)، وتكثر زراعته في كل من تهامة ولحج^(٢٠) وأبين^(٢١)، وتنتشر زراعته في الجبال أكثر، وخاصة في الأراضي المتوسطة الخصوبة مثل: تعز^(٢٢) وإب^(٢٣)، والضالع^(٢٤). ويقال^(٢٥) وشبوة^(٢٦)، ووصاب^(٢٧) وحجة^(٢٨). ويعرف أهل اليمن ما يسمى (الطهف) وهو حب من نفس فصيلة الدخن لكنه أصغر منه حجماً، ويصنع منه حجاماً، ويصنع منه ومن الدخن الخبز اليمني، ويزرع في نفس ظروف زراعة الدخن^(٢٩).

أما القمح، فهو من المحاصيل الزراعية التي تحتل الموقع الثاني بعد الذرة، وكان ينتشر في اليمن الأعلى بمختلف مناطقها وخاصة المرتفعات. ويحتل الشعير مكانة متميزة ضمن محاصيل اليمن قديماً وحديثاً، وبعد من المحاصيل الهامة، خاصة وانه يمثل طعاماً للإنسان وعلفاً للحيوانات المختلفة، ويزرع في المناطق الباردة والمرتفعات. والقمح من المكونات الرئيسية لصناعة الخبز وبعض الحلويات.

وللجلجلان (السمن) أهمية في المطبخ السلطاني، وهو نبات حولي زراعي دهني يزرع لثبوره المأكولة والتي تشكل عنصراً هاماً من عناصر بعض الأطعمة

والحلويات اليمنية^(١٠)، ويستخرج من بذوره المنيرج، وهودهن السمسم بعد تحويله في معاصر خاصة. هذا الدهن له استعمالات عديدة - فإلى جانب الغذاء والاستعمالات الطبية مثل زيت السمسم - فهو مادة أولية في صناعة الصابون، أما مناطق زراعته فهي المناطق الحارة لذلك نجده في أودية تهامة، وعلى الأخص الكدراء^(١١)، والمحالب^(١٢)، ولحج، وأبين، وأحور^(١٣)، وتعر والجند^(١٤)، وخدير^(١٥)، وجبأ^(١٦). وقد استخدمت المطابخ نوعان من السكر الأبيض المنتج في زبيد، والآخر المصري المنسوب إلى البلاد المصرية، واشتهرت مدينة جبنة^(١٧) بعملية تكرير السكر واستخراجه من قصبه.

ولا تخلو المادة السلطانية من أنواع التمر والرطب التي تنتجها زبيد^(١٨)، وقشال^(١٩)، والقحفة^(٢٠)، والكدراء، ولحج، والشحر^(٢١). أما الجوز فهو من الأطعمة المعروفة في المطبخ السلطاني حيث تؤخذ ثماره فيشرب عصيرها، ويؤكل لحاؤه الداخلي أو يقشر، ويضاف على الحلويات لإعطائها مذاقاً طيباً، وتكثر زراعته في بعض بلاد تهامة وبعض بلاد حضرموت^(٢٢).

أما تصنيف المطابخ السلطانية باللحوم فكانت مهمة يتولاها القمّاط، وهو الموظف المسئول عن شراء الذوايب، وخاصة الأغنام التي تحتل لحومها المرتبة الأولى ضمن اللحوم المستهلكة في اليمن قديماً وحديثاً. وكان يتم جلبها من عدة مناطق وأهمها: أعمال وادي رَمَحَ^(٢٣) بتهامة. حيث تعد لحوم أغنامها من أجود اللحوم في اليمن ويمثلها في الجودة: لحوم أغنام لحج وأبين وبلاد حضرموت والمهرة^(٢٤). وبلاد ردّمان^(٢٥) التي يكثر فيها رعي الأغنام، لأن طباع أهلها تميل إلى البدو^(٢٦).

هذا إلى جانب ما يجلب من أغنام الصومال التي يطلق عليها "البرابر"^(٢٧) وهي معروفة إلى يومنا في سائر أرجاء الجزيرة العربية.

أما الأبقار فكانت من اللحوم الحاضرة في الموالد والمآدب السلطانية، وذلك للأهمية الغذائية للحومها وألبانها. وامتلك المزارعون ما أمكنهم من الأبقار في الكثير من المناطق الزراعية، من ذلك ما امتلكته قبيلة المعازبة^(٢٨).

ويأتي تصنيف المطابخ السلطانية، من الأسماك الطازجة، من مدن السواحل التي اشتهر أهلها باتهم يزاولون حرفة صيد الأسماك، كاهل عدن الذين قال عنهم ابن بطوطة^(٢٩) إنهم كانوا مابين تجار وحملّين وصيادين للسمك، أما ابن المجاور^(٣٠) فنذكر أن صيد السمك هو حرفة أهل عدن الأولى، وكذلك الشأن بالنسبة لسكان غلافة^(٣١)، الذين كانوا يزودون مدينة زبيد بخيرات البحر^(٣٢).

كما أكد الكثير من الرحالة على مهارة الصيادين في الشحر، وفي ذلك قال أحدهم: 'وهؤلاء الناس صيادو أسماك مهرة، يصيدون التونة بمقادير ضخمة'^(٣٣).

أما توابل وبهارات المطابخ السلطانية، فهي من الواردات التي تصل إلى ميناء عدن من الهند والصين. وقد تعددت أصناف التوابل وكان أهمها الفلفل، والقرنفل، والدار صيني القرفة والزنجيل وجوز الطيب، والهال "الهيل"، والكركم (الهرد) والزعفران وغيره^(٨٤).

سادساً: أصناف الأطعمة التي يهدها المطبخ السلطاني :

أولاً: أصناف اللحوم والطيور والأسماك:

- شراح ممرح: هي وجبة غذائية كاملة الأساس فيها إعداد شرايح من لحم الأغنام، وأهم مقاديرها البصل، الثنا، الزعفران، الخل، الودك، (السمن)، الجبن، السليط (الزيت) الفلفل، الكزبرة، القرفة، الملح^(٨٥).

- شواء: وهي وجبة الأساس، فيها لحم الغنم المشوي، وأهم مقاديرها إلى جانب اللحم: الزعفران، الخبز، السليط (الزيت)، والملح، الموز، الشمر (الريحان)، الليمون، الدقيق^(٨٦).

- شوي مدقوقي: وجبة شواء من لحم أغنام مفروم أو (مدقوقي)، وكان اللحم - قبل ظهور المفارم اليدوية أو الآلية في عصرنا - يدق يدوية خشبية في مدقات ضخمة مخروطية من الأحجار أو الأخشاب، وكان اللحم يدق بها حتى يصير ناعماً، ثم يشوى إما على هيئة كرات توضع في الزيت وتغطي فيه، أو يجمع على أسياخ من الحديد ويشوى على نار الفحم، فيما يعرف في أيامنا بهـ (الكباب) (الكفتة). وأهم مقادير هذه الوجبة الأغنام عربية، الزعفران، السليط، الخل، الباذنجان، الموز، الشمر (الريحان) الليمون، الملح^(٨٧).

- الكروانات: وجبة غذائية من طيور الكروان، جنس من فصيلة دجاجيات الأرض طوال الساق، وهي طوال المناقير دقاقها، تعيش حول الأنهار والمناقع وشطوط البحار، وأهم مقادير هذه الوجبة هي جانب الطيور، الأرز، والحمص، والذيت، والسليط (زيت السمسم)، والدقيق^(٨٨).

- المسحور: وهي وجبة غذائية تتكون من لحم الأغنام البربرية، والأغنام المكسوبة وهي الأكثر من الأغنام المحلية، وأغنام عربية^(٨٩)، والودك^(٩٠)، والسليط، والزيت والفلفل والكزبرة والجوز، والبصل اليابس، والبصل الأخضر، والحمص والقرفة والكمون والزنجيل والمصطكي، والسماق، والكراويا، والزعتر، والثوم والأرل والفتريس^(٩١).

- المسالة: وجبة غذائية قوامها مكون من: الغنم والسكر الأبيض، والدجاج والحمام والأرز، والفستق، والحمص، والسليط، والجوز والبندق، والزعفران، والتوز، والمصطكى والفلفل، والكزبرة، والزنجبيل، والكمون، والجبن، والشعر (الريحان)، والعسل، والقرفة والبصل، والنشا^(١٢).

- الرُمّانية: وجبة منسوبة إلى فاكهة الرمان لدخولها في قوام الوجبة، هي وجبة اختلقت من المطبخ اليمني، وليس لها وجود في عصرنا، وأهم مقوماتها لحم الغنم، السكر الأبيض، الدوك (الدهن) الرمان، خضار ورقية، بصل أخضر^(١٣).

- الكشك: وجبة غذائية قوامها لحم الغنم، دقيق البرّ، الدوك (الدهن)^(١٤).

- المُحنّشة: وجبة غذائية معدة من اللحوم، وما يطلق عليه مُحَنّش في اليمن هو (اللحم المحشش) ولعل له ذلك لأنه يطبخ مقلّياً بالزيت مع المواد المضافة إليه، ولا يتم إنضاجه إنضاجاً كلياً، بل يكون إنضاجه متوسطاً، ليس بالنّي وليس بالمطبوخ غاية، وأهم مقومات هذه الوجبة لحم الغنم، الدوك (الدهن) الفلفل، الكزبرة، البصل، خضار ورقية.

- الهريس: هي وجبة غذائية مكونة من خليط من القمح المجروش خشناً، أو السمّن واللحم الخالي من العظم، يطبخ الجميع في قدر بعد خلطها ببعض^(١٥)، وما زالت معروفة. وتسمى بنفس التسمية في اليمن وبلاد الجزيرة العربية، وخاصة في شهر رمضان.

- الممنّط: نوع من الشواء، حيث يشوى الحيوان بعد تنفّ صوفه بالماء الحار^(١٦).

- السطيط: وجبة قوامها الأساسي لحم الغنم ويضاف إليه السليط (زيت السمسم) والفلفل، والكزبرة، والملح، والدقيق.

- قديد العس: وجبة مكونة من قطع لحم أغنام بربرية مفقّدة، أي جافة، تخلط بحبوب العس، ويضاف إليها الدوك (الدهن) والسليط، والجبن، والفلفل، والزعر، والزعفران، والمصطكى، والقرفة، والسّمّاق، والكزبرة، والجوز، والزنجبيل والخضار الورقية، والبصل اليابس والأخضر، والثوم، والزيت، والكمون.

- المصنّوص: وجبة مكونة من لحم الأغنام العربية، والسكر الأبيض، والخل، والبصل، والزعفران^(١٧).

- رأس غنم: وجبة قوامها رأس غنم، بيض، سكر أبيض، عسل، تمر، أرز، سمّاق، خشخاش، زبيب، حب رُمّان، زعفران مصطكى، قرقة، جوز، طحينة،

نشأ، ودك (دهن) سليط، فلفل، كزبرة، كمون، ثوم، زنجبيل، باذئجان، يقطين، جزر، قنقاس، خضار ورقية، قنبريس، جبن، ملح^(١٨).

- البوارد: وجبة غذائية من الوجبات التي تعد وتجهز في المطابخ السلطانية وقوامها لحم غنم، بيض، عسل، تمر، سليط، زعفران، باذئجان، يقطين، عصفر، جبن، موز، نشأ، طحينية، شقر (ريحان)، خردل^(١٩).

- الملوحات: وجبة غذائية قوامها الأسماك المملحة، وسمك الظيرك على وجه الخصوص وهو الاسم القديم لسمك نيرك، ويعد من أجود أنواع الأسماك في بلاد اليمن، وهو ما يسمى سمك الكند في الكثير من البلاد العربية. وإعداد هذه الوجبة في المطابخ السلطانية يضاف إليها الثفت، الجبن، البصل، السليط، الخردل، الكراويا، الزعتر، الحليب، الزيت، السكر الأبيض، الجوز، الفلفل، الكزبرة، الثوم، الزنجبيل، الزعفران^(٢٠).

ثانياً: أطعمة مصنوعة :

- الفسيل: وجبة غذائية تتكون من الأرز، السكر الأبيض، الزعفران، المصطكي، السماق، القرطم (العصفر)، حب رمان طري (طازج)، الفلفل، الكمون، الكزبرة، الحمص، الثوم، البصل، اليايس والأخضر، الباذئجان، اليقطين، الجزر، القنقاس، الترمس، السليط، الفل، التيم (الليمون) الزيت^(٢١).

- العجة: هي البيض المقلّي بالزيت^(٢٢).

ثالثاً: أصناف الخبز :

- خبز الرقاق^(٢٣): هو عبارة عن أقراص هشة تخبز على قرص حديدي، ويتم مراعاة السرعة في تحضيره حتى لا يحترق، فهو هش جداً، وما زال هذا النوع من الخبز من أكثر الأكلات الشعبية في البلاد العربية، وبعض الدول في شرق آسيا وهناك وجبة يدخل الرقاق في أهم مقاديرها، وهذه الوجبة تسمى فت: وهو ما يفت من خبز الرقاق، ومعنى الفت هو تقطيع الخبز قطعاً صغيرة في وعاء أو تست من تجلس أو غيره، وإضافة المرق والسمن إليه، أو السمن والعسل وخلطه بهما ويقدم للمائدة^(٢٤).

- والتخثير: هو وضع أقراص الخبز في القدر، بعضها فوق بعض، ثم يسكب السمن أو غيره من الدهون عليها، وتقدم إلى المائدة على هذه الصورة.

- الخمير: نوع من الخبز يسمى (خمير) ما زال معروفاً باسمه إلى يومنا^(٢٥).

- خبز الكعك: صنف من الخبز معروف، ويتفنن أهل اليمن في غمله وإعداده، ويدخل الشمار والكزبرة والحبة السوداء في إعداده، وهو ما يزال معروفاً

وبنفس الاسم. وهناك نوع من الكعك الحلو يسمى البُسْتُود، والكعكاد اسم آخر للكعك المحلا، لم يعد له وجود في عصرنا^(١٠٦).

- خبز اللحوح: جمع لَحْوَحَة، ويصل من دقيق الذرة أو البر مع الخميرة، ويكون ليناً رقيقاً يكاد يشف عما وراءه، وتنتهي الخبزة الكاملة منه حتى تصير بحجم الكف وأصغر^(١٠٧). ولا يزال اللحوح من أهم الأكلات الشعبية في بلاد اليمن، حيث يؤكل مع المرق أو اللبن أو الحلبة اليمنية. وما زال سقاء اللحوح مصاحباً لصناعة إعداد خبز اللحوح، إذ يتم صب كمية من الزيت على خرقه من القطن، تسمى (المنمنة)، يسمح بها سطح المنحة بعد قلع اللحوح عن سطحها وقبل عمل اللحوحة الجديدة.

رابعاً: المقبلات :

- الكَوَامِخ : وهي المخللات التي تستعمل كمشبهيات للطعام، والكماخي هو لقب لمن عمله في المطبخ السلطاني إعداد الكوامخ^(١٠٨).

- المَتَوْرَة : من مشبهيات الطعام (أشبه بطبق السلطة) وهو عبارة عن السليط، والودك (الدهن) والثوم، والزنجبيل، والبصل، والفلفل، والكزبرة، والمصطكى.

- القنبريس المخوج: وهو من القنبريس (اللبنه) والزنجبيل والبصل

خامساً: الحلويات الشعبية اليمنية :

- الحلوى الصابوني: نسبة إلى أن شكلها يشبه الصابون من حيث النعومة والشكل، وهي مكونة من السكر، والعسل، والنشا، والسليط، و البيض.

- الأسبوطيّة: حلوى مكونة من السكر الأبيض، والعسل، والفستق، والبندق، والخشخاش، والزعفران، والسليط، والدقيق^(١٠٩).

- هريسة الفستق: نوع من أنواع الحلوى الممزوجة بلحم صدور الدجاج والفستق ومحتواها هو صدور الدجاج، والفستق، والسكر الأبيض، والعسل، والنشا، والسليط^(١١٠).

- حلوة الدجاج: وهي حلوى مقاومتها: الدجاج والسليط والبندق، والجوز، واللوز، والخشخاش، والسكر، والنشا، والرجلة^(١١١)، والزعفران والهيل والفلفل والقرقه^(١١٢).

- منبوسك محلا: هو نوع من الحلوى وقوامه: الدقيق والدهن، واللوز، والسكر الأحمر^(١١٣). ولا يزال معروفاً في اليمن وغيرها من البلاد العربية.

- الفانيد: هو نوع من الحلوى يصل بالنشا، وهو من أصل فارسي^(١١٤).

- **المستنوخ** : هو صنف من الحلويات قوامه السكر الأبيض، العسل، والسليط، والزعفران، والهبض، والخُل^(١١٥).

- **النَّاطِل** : نوع من الحلوى المصنوع من العسل أو الدبس.

- **الهبسية** : نوع من الحلوى قوامه الزبدى^(١١٦) على أنه الشعير يث بالزيت أو في السمن، وهو يشبه الفتوت أو الفتيت، في عصرنا الحالي، وما زالت الهبسية معروفة في مصر إلى يومنا.

- **القطايف** : نوع من الأروقة الإسفنجية وهي الحلوى المعروفة بنفس الاسم في العصر الحالي^(١١٧).

- **مربى الزنجبيل** : يصنع من العسل والزنجبيل^(١١٨).

- **القرعة** : يصنع من القرع والسكر، أو القرع والعسل، وهو معروف حتى عصرنا.

- **المشبك** : يصنع من الدقيق، والزيت، والنشا، والهيل، والزعفران، والسكر، وهو من الحلويات المعروفة في عصرنا^(١١٩).

سادساً : الأطعمة الخاصة بالخصائبات الدينية :

طبق المكسرات في الشعبانية : وهي لون من الأضحية يحمل التسمية المذكورة، ويبدو أن هذا الطبق كان يعد خصيصاً للسلطان بمناسبة الاحتفال في شهر شعبان، والشعبانية اسم يطلق في اليمن، إلى يومنا هذا، على ليلة منتصف شهر شعبان، وهذا الطبق يحتوي على المشاش وهو الموضع اللين الواقع في رأس العظام والذي يمكن مضغه ولونه يكون أبيضاً أو مائلاً للصفرة، وهو يكون في الركبتين والمرفقين وما بين الكتفين في الحيوان والإنسان، ويتضح من هذا الوصف، أن الموضع اللينة من أطراف العظام كانت تنتزع من مواضعها، وتسلق وتوزع على كامل الطبق وتقطع حبوب الليمون دوائر وأقراصاً، وتوضع في وسط المشاش مع بعض ثمر فاكهة الأجاجس والرطب والملفوف (الكرنب). وقرص حلوى من نوع خاص سبق وأن عرفناه يسمى ناطل^(١٢٠).

سابعاً : المشروبات السلطانية :

- **الخلّية** : شراب يتكون من ماء ومكر يمزج بهاء حب الليمون (يشبه الليموناضة في عصرنا)، ويطلق لفظ الخلّية في اليمن على ما يتم تناوله، من مشروبات أو حلويات، بعد وجبة الطعام.

- الفُقَاع: شراب يتخذ من الشعير، ويسمى بهذا الاسم لما يرتفع في رأسه من الزَبَد (الفُغَاعَات) أي أنه يشبه البيرة.

- السُوبِيَا: هو شراب ناتج عن نقع الحنطة أو الأرز^(١٢١). ويوضع معه أحياناً الزبيب وغيره من المتكّهات، وهو من المشروبات الشعبية في رمضان، في عصرنا الحالي في اليمن والحجاز، وقد عرفه البعض على أنه نوع من أنواع النبيذ^(١٢٢)، وربما كانت هذه حالته عند زيادة أيام نقع المواد السابق ذكرها

- الفُضِيخ: هو نوع من أنواع النبيذ، اشتهرت زبيد بصناعته لوفرة التمر فيها، حيث يصنع هذا الشراب من التمر والبر والرطب، ويستغرق صنعه يوماً وليلة، وشاع تناوله في سبوت النخيل، وهو الإحتفال المشهور في زبيد يوم السبت من كل أسبوع^(١٢٣)، وذلك للاحتفال بنضج التمر، كنوع من التشجيع على زراعة النخيل، وقد واجهت تلك الإحتفالات الكثير من المعارضة من فقهاء اليمن لما يحدث فيها من الاختلاط والمجون.

وهناك إشارة إلى نوع آخر من النبيذ، وهو نبيذ الزعفران، يصنع في عدن، إذ كان بها يثر يستخرج منها الماء خصوصاً لصنع النبيذ، يعرف ببلر الزعفران، فيقوم أهل عدن باستخراج مائه، ومزجة بشمرة الكادي ذات الرائحة النفاذة، ويترك في الشمس حتى يخمر، ويتحول بعدها إلى نبيذ كامل لا يحتاج إلى غسل. ويتم حمل هذا النبيذ وتصديره إلى كافة أرجاء اليمن^(١٢٤).

سابعاً: ترتيب المائدة الملكية (السماط):

جرت العادة أن تنقسم الأسطة التي يأمر الملوك والسلطين بتقديمها، إلى طعامين، طبقاً لما ذكره ابن بطوطة^(١٢٥) وهما "طعام العامة وطعام الخاصة" فأما الطعام الخاص، فهو الطعام الذي يأكل منه السلطان وقاضي القضاة، والنفات المرموقة في المجتمع اليمني وعلى رأسهم كبار الأشراف، وذلك لتسبيهم الشريف العائد إلى آل البيت، فيزهر سلطين بني رسول، ومن ذلك مشاركتهم للسلطين في المناسبات والإحتفالات والأعياد الخاصة بهم، حيث كانوا يجلسون، في أثناء أيام مراسيم هذه الإحتفالات، على مائدة طعام السلطان الخاصة، إلى جانب كبار رجال دولته من القضاة والفقهائ والضيواف^(١٢٦).

أما الطعام العام فيأكل منه سائر الأشراف والفقهائ والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد، ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه، ولا يراحم أحد منهم أحداً. ويطلق ابن بطوطة على هذا الترتيب بقوله إن هذا الترتيب شبيه بترتيب ملك الهند في طعامه، ولا يطعم أي منهما أخذه عن الآخر^(١٢٧).

ويختلف عدد الصحن والدسوت الكبار، والزبادي الصغير والكبار، بحسب اختلاف المناسبة والضيوف، فيحدد عدد الأبقار والأغنام ونوعها، وعدد الصحن لكل وجبة من الوجبات، وعدد أرغفة الخبز وصحن الحنوي^(١٢٨)، وتزين المائدة الملكية أخيراً بالورود والرياحين والأطياب الفاخرة^(١٢٩).

الخلاصة :

تبين لنا من خلال الدراسة النتائج التالية:

- تنوعت المطابخ السلطانية وفقاً لأماكنها، وتخصصها، فمنها مطابخ القصور السلطانية الدائمة، ومطابخ متنقلة، ومنها ما هو مختص بإعداد الوجبات الرئيسية، وأخرى تهتم بالخبز، وثالثة تهتم بالحلويات والمشروبات.
- يظهر اهتمام المطابخ السلطانية بإعداد الوجبات الغذائية المتنوعة؛ والتي تقوم على لحوم الحيوانات أو الطيور والأسماك.
- أهمية إعداد أنواع الخبز المصنوعة من الذرة، أو الدخن أو القمح.
- حرص ملاطين الدولة الرسولية على تزويد المطابخ السلطانية بعدد ضخم من الموظفين منهم الطباخين، ومن يقوم بتموين المطابخ بما تحتاجه من مواد غذائية للمطبخ، وأوان وأوعية وأدوات للمطابخ.
- للمائدة السلطانية آداب خاصة؛ يلتزم بها جميع من يشاركون السلطان المائدة (المعاطة)

المواضع

- (١) تنسب الدولة الرسولية إلى السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول ت ٦٤٧هـ/١٢٥٠م وقد قامت على أنقاض الدولة الأيوبية، حيث كان عمر بن علي من قواد الدولة الأيوبية، وكان نائباً لآخر ملوكها في اليمن الملك المسعود، ثم استبد بالأمر ودعا لنفسه ثم توالى أبناؤه وأحفاده في الملك وامتدت دولته من حضرموت إلى مكة بل في بعض الأحيان من ظفار إلى مكة وامتد حكمهم من سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م إلى سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م، للمزيد عن قيام الدولة الرسولية أنظر: الخزرجي ' علي بن الحسن ت ٨١٢هـ/١٤١٠م: ' العقود الزلزلية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح محمد الأكوخ، القاهرة، مطبعة الهلال، ١٩٨٣م، ج١، ص ٥١-٨٥.
- (٢) التجدي ' بهاء الدين محمد بن يوسف ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م: ' السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٥م، ج٢، ص ٦٥-٦٦.
- (٣) مجهول: نور المعارف في نظم وفرائين وأعراف اليمن في المهد المظفري السوارف، تحقيق: محمد عبد الرحيم جازم، صنعاء، المعهد الفرنسي للأثار والطوم الاجتماعية، ٢٠٠٣م، ج١، ص ٥٣٧.
- (٤) المصدر السابق، ج١، ص ٥٣٤، ج٢، ص ٢٣.
- (٥) المصدر السابق، ج١، ص ٢٠١.
- (٦) مجهول: نور المعارف، ج٢، ص ٨٩، ٩٠.
- (٧) التحويج: في لهجة أهل اليمن يقصد به إضافة التوابل والبهارات إلى المأكولات، أنظر: المصدر السابق، ج٢، ص ١٥، هامش (١).
- (٨) المصدر السابق، ج١، ص ١٥.
- (٩) المصدر السابق، ج١، ص ٢٣١ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية في اليمن عصر الدولة الرسولية، عدن، دار جامعة عدن، ٢٠١٠م، ص ٤٦١.
- (١٠) المرجع السابق، ص ٤٦١.
- (١١) مجهول: نور المعارف، ج٢، ص ٥.
- (١٢) مجهول: المصدر السابق، ج١، ص ٥٤؛ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص ٤٦١.
- (١٣) الزبيدي ' محمد مرتضى ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م: ' تاج العروس في شرح جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار صادر، ١٩٩٣م، ج٤، ص ٢٧١.
- (١٤) طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص ٤٦١.
- (١٥) مجهول: نور المعارف، ج١، ص ٥٠.

- (١٦) المصدر السابق، جـ١، ص ٥٠.
- (١٧) الخرجي: العقود للؤلؤية، جـ٢، ص ١١٩٥ مجهول: المصدر السابق، جـ٢١، ص ١١٦.
- (١٨) مجهول: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٩٩.
- (١٩) الخرجي: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٢٥.
- (٢٠) زبيد: تقع في سهل تهامة اليمن، للمزيد عن المدينة وتاريخها انظر: ابن السبع 'عبد الرحمن بن علي' ت ٩٤٤هـ / ١٥٧٣م: بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، صنعاء، ٢٠٠٦م، ص ٧٥؛ إبراهيم المقحلي: معجم المدن والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م، ص ١٨٩.
- (٢١) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ١١٤٦ جـ٢، ص ٧ هامش (٧) (٨).
- (٢٢) المصدر السابق، جـ٢، ص ١٣، هامش (٥).
- (٢٣) مجهول 'ت بعد ٨٣٠هـ / ١٤٣٦م: تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، دار الجيل، ١٩٨٤م، ص ٢٧٩.
- (٢٤) الخرجي: العقود للؤلؤية، جـ٢، ص ١١٩٥ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص ٤٦٢.
- (٢٥) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ١١٦ طه حسين هديل: المرجع السابق، ص ١٢٦.
- (٢٦) المصدر السابق، جـ١، ص ٥٦٩.
- (٢٧) ابن حاتم 'الأمير بدر الدين محمد ت ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م: السمع الطافي الثمن في أخبار الملوك من الغز في اليمن، تحقيق: ركس سميث، جامعة كمبودج (د.ت)، ص ٣١٢، ٥١١؛ يحيى بن الحسين 'ابن القاسم بن محمد ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٩م: غايصة الأمان في أخبار القطر اليمني، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، القسم الأول، ص ٤٤١.
- (٢٨) الفلقسندي 'أحمد بن علي ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق، محمد حسين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، جـ٤، ص ١١٣ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص ١٢٦.
- (٢٩) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ٥٣٨.
- (٣٠) الخرجي: العقود للؤلؤية، جـ٢، ص ٢١١-٢١٢.
- (٣١) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ١٤٨.
- (٣٢) الزبيدي: نتاج العروس، ص ٢٧٦.
- (٣٣) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ١٢٨.
- (٣٤) مجهول: المصدر السابق، جـ٢، ص ٥١٣.
- (٣٥) الخرجي: العقود للؤلؤية، جـ٢، ص ١٣٤ مجهول: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٤٨.

- (٣٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٤٧٠؛ محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٠م، ص ١٣٧.
- (٣٧) المصدر السابق، جـ ٥، ص ٤٥٤؛ مجهول: نور المعارف، جـ ١، ص ٩٧؛ جـ ٢، ص ٨٩؛ محمد دهمان: المرجع السابق، ص ٩٧.
- (٣٨) مجهول: المصدر السابق، جـ ١، ص ١٢٢.
- (٣٩) الحوائج غاتاه: هو المكان أو المستودع الذي يخزن فيه جميع المشتريات الخاصة بالمطبخ السلطاني من الحبوب، والبهارات والتوابل والأوعية وكافة الأدوات، أنظر: مجهول: المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٤٨.
- (٤٠) المصدر السابق، جـ ٢، ص ١١٥.
- (٤١) المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٢٨، هامش (أ).
- (٤٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٩٥، ٩٩، ١٤٨.
- (٤٣) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٢.
- (٤٤) ابن فضل الله العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م: مسالك الأبرار في ممالك الأمصار، تحقيق: أيمن فوزك السيد، القاهرة، دار الإقتصاد، ١٩٨٧م، ص ٤٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١، ص ١٥٦؛ محمد دهمان: معجم الألفاظ، ص ٩٢.
- (٤٥) مجهول: نور المعارف، جـ ٢، ص ١٠٨.
- (٤٦) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٩٤.
- (٤٧) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٨.
- (٤٨) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبرار، ص ١٥٤؛ مجهول: ارتفاع الدولة الموزينية، ص ٣١، ٩٨.
- (٤٩) البريهي: عبدالوهاب بن عبدالرحمن ت بعد ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م: طبقات صنعاء اليمن، المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٤م، ص ٢٠٤.
- (٥٠) لحج: مخلاف كبير في الشمال الغربي من عدن، أنظر إبراهيم الملقحي: معجم المدن، ص ٣٥٥.
- (٥١) أبين: مخلاف مشهور على ساحل البحر الهندي شرقي عدن، أنظر: المرجع السابق، ص ٨.
- (٥٢) نعل: مدينة مشهورة في سفح جبل صنبر الشمالي؛ بينها وبين صنعاء جنوباً ٢٥٦ كم. أنظر: المرجع السابق، ص ٦٩.
- (٥٣) إب: مدينة في الجنوب من صنعاء بمسافة ١٤٠ كم. أنظر: المرجع السابق، ص ٥.
- (٥٤) الضالع: بلدة على بعد ٩٦ ميلاً من عدن، أنظر: المرجع السابق، ص ٢٥٧.
- (٥٥) يافع: بلدة في الشمال الشرقي من عدن، أنظر: المرجع السابق، ص ٤٦٩.

- (٥٦) شبوة: منطقة أثرية بين مارب وحضرموت، أنظر: المرجع السابق، ص ٢٢٥.
- (٥٧) وصاب: جبل متسع بالغرب الجنوبي من صنعاء بمسافة ١١٢ كم. أنظر: المرجع السابق، ص ٤٦٥.
- (٥٨) حجة: مدينة كبيرة في الشمال الغربي من صنعاء بمسافة ١٢٧ كم. أنظر: المرجع السابق، ص ١١٠.
- (٥٩) محمد سعيد: الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد بني رسول، رسالة دكتوراه، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة تونس الأولى، ١٩٩٨ م، ص ٦٢٩.
- (٦٠) مجهول: نور المعارف، ج ١، ص ٣١٠؛ أسامة حماد: مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي 'حضر دولتي بني أيوب وبني رسول'، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤ م، ص ٢٥٩.
- (٦١) الكدرام: من مدن تهامة القديمة تقع في وادي سهام. أنظر: إبراهيم المقضي: معجم المدن، ص ١٤.
- (٦٢) المحالب: قرية تهامية خربة تقع في وادي مور على مقربة من (الزهرة)، أنظر: المرجع السابق، ص ٣٤٦.
- (٦٣) أهور: واد فيه أرى شرقي أبين، أنظر: المرجع السابق، ص ٣٦٤.
- (٦٤) الجند: بلدة مشهورة بالشرق الشمالي من مدينة تار بمسافة ٢٢ كم. أنظر: المرجع السابق، ص ٩٥.
- (٦٥) خذير: تقع في الشرق الجنوبي من تار بمسافة ٤٤٢ كم. أنظر: المرجع السابق، ص ٧٨.
- (٦٦) جبا: مدينة خربة غربي جبل صبر المطل على تار، أنظر: المرجع السابق، ص ١٤٢.
- (٦٧) جبلة: مدينة مشهورة بالجنوب الغربي من إب بمسافة ٥٧ كم. أنظر: المرجع السابق، ص ٨١. وللمزيد عن مسابك تكرير السكر في اليمن، أنظر: مجهول: تسور المصارف، ج ٢، ص ١٠٢-١٠٥.
- (٦٨) ابن مجاور جمال الدين يوسف بن يعقوب ت ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م: صلة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز السعادية تاريخ المستنصر، إعتلى بتصحيحها: أوسكر لوفقرين، بيروت، دار التنوير، ١٩٨٦ م، ص ٤٥.
- (٦٩) لفسان: بلدة تهامية خربة من أعمال رَمَع، شمالي زبيد، عمرت محلها قرية الحسينية، أنظر: المرجع السابق، ص ٣١٦.
- (٧٠) القحمة: قرية تهامية خربة في الشمال الشرقي من زبيد، أنظر: المرجع السابق، ص ٣٢٤.
- (٧١) الشحر: ميناء لحضرموت، أنظر: المرجع السابق، ص ٢٢٧.
- (٧٢) حضرموت: مدينة كبيرة تُعرف باسم الأحقاب، بها مركز المحافظة الخامسة من محافظات الشطر الجنوبي من اليمن، أنظر: المرجع السابق، ص ١٢٢.

- (٧٣) وادي رَمْع: وادي مشهور إلى الشمال من وادي زبيد: أنظر: محمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل الأكوخ، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٩م، ١م، ص ١٣٧: إبراهيم المقطفي: معجم المدن، ص ١٨١.
- (٧٤) المَهْرَة: من قبائل قضاعة في حضرموت، أنظر: محمد الحجري: المرجع السابق، ٢م، ص ١٧٢: إبراهيم المقطفي: المرجع السابق، ص ١٣٥: عبد الرحمن السقايف: معجم بلدان حضرموت المسمى (إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت)، تحقيق: أحمد المقطفي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٢م، ص ١٠٩.
- (٧٥) رَتَمَان: اسم مشترك بين عدد من الأماكن والقبائل، بلدة من رداح، وبنو ردمان من قبائل أرخب، وبنو ردمان بواحة حاشد عرفوا بني الزرقعة، أنظر: إبراهيم المقطفي: المرجع السابق، ص ١٧٦.
- (٧٦) مجهول: ارتفاع الدولة المؤيدية، ص ٣٩١.
- (٧٧) مجهول: نور المعارف، ج ٢، ص ٨.
- (٧٨) الغزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ١٢٢: محمد سعيد: الحياة الاقتصادية، ص ٦٨٥.
- (٧٩) تحفة النظائر، ص ٢٥١.
- (٨٠) صفة بلاد اليمن، ص ١١٦.
- (٨١) خلافة: قرية تهامية شمال غربي مدينة زبيد، وهي مرسى زبيد، أنظر: ياقوت الحموي: تهذيب البين أبو عبد الله ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٨٤م، ص ٢٠٨: إبراهيم المقطفي: معجم المدن، ص ٣٠٦.
- (٨٢) ابن مجاور: صفة بلاد اليمن، ص ٢٤٣.
- (٨٣) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ترجمة للإنجليزية: وليم مارسدن، ترجمة للعربية: عبدالعزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٦م، ج ٣، ص ٩٤.
- (٨٤) ابن بطوطة: تحفة النظائر، ص ١٣٢٣: ماركوبولو: الرحلة، ج ٣، ص ٦٩-١٧٢: سونيا هاو: في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيل رفعت، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م، ص ٣٣، ١١٥.
- (٨٥) مجهول: نور المعارف، ج ٢، ص ١، ٨٤.
- (٨٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ١: أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص ٣٠.
- (٨٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٥.
- (٨٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٥: أسامة حماد، المرجع السابق، ص ٣٠.
- (٨٩) مجهول: نور المعارف، ج ٢، ص ٨٧.
- (٩٠) الوندك: السمّن والدهن الحيواني.
- (٩١) القنبريس: هي لبنة حليب المعازل الطبيعي غير الميستر والمصنعة في الجرة.

- (٩٢) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٨٨.
- (٩٣) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩١.
- (٩٤) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩١.
- (٩٥) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٩١؛ جـ١، ص ٣٠٨.
- (٩٦) الزبيدي: تاج العروس، جـ٥، ص ١٦٠.
- (٩٧) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٨٧.
- (٩٨) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩١.
- (٩٩) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ٤.
- (١٠٠) المصدر السابق، جـ٢، ص ٨٦.
- (١٠١) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩.
- (١٠٢) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩٧.
- (١٠٣) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ٦٩.
- (١٠٤) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩٢؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص ٢٩.
- (١٠٥) المصدر السابق، جـ٢، ص ١١١.
- (١٠٦) المصدر السابق، جـ٢، ص ١١٢؛ جـ١، ص ٦٩.
- (١٠٧) الخزرجي: العقود الثلوثية، جـ٢، ص ١٣٥؛ مجهول: المصدر السابق، جـ١، ص ٥٣٩؛ أسامة حماد، المرجع السابق، ص ٢٨.
- (١٠٨) الزبيدي: تاج العروس، م ٢، ص ٢٧٦؛ مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ١٠.
- (١٠٩) مجهول: المصدر السابق، جـ٢، ص ٨٦.
- (١١٠) المصدر السابق، جـ٢، ص ١٠٠.
- (١١١) الرجلة: وتسمى الرجلة في كل من عدن وتعل وإب ومن اسمائها "البقلة" يؤكل ورقها مطبوخاً أو على شكل سلطة، أنظر: مصطفى الشهابي: معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٨م، ص ٨٦.
- (١١٢) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ١٠١.
- (١١٣) المصدر السابق، جـ٢، ص ١٠١.
- (١١٤) الخزرجي: العقود الثلوثية، جـ٢، ص ١٩٥؛ الزبيدي: تاج العروس، جـ٢، ص ٤٥٥.
- (١١٥) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٢٣.
- (١١٦) تاج العروس، جـ٢، ص ١٣٧.
- (١١٧) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ١١٦-٢٥٨؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص ٢٨.
- (١١٨) المصدر السابق، جـ٢، ص ١٠٦.
- (١١٩) الخزرجي: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٩٥.

- (١٢٠) مجهول: نور المعارف، ج٢، ص ١٣٧.
- (١٢١) المصدر السابق، ج٢، ص ١٤-١٦؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص ٥٣٢.
- (١٢٢) الزبيدي: تاج العروس، ج٢، مادة سوبة.
- (١٢٣) ابن المجاور: صلة بلاد اليمن، ص ٨٠-١٨١ ابن بطوطة: تحفة النظائر، ص ٢٢٤؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص ٥٠٥.
- (١٢٤) ابن مجاور: المصدر السابق، ص ١٣١؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص ٥٣٢.
- (١٢٥) تحفة النظائر، ص ٢٢٦.
- (١٢٦) الملك الأشرف: صر بن يوسف بن رسول ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م؛ طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق: ك. وسترسين، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م، ص ١٠٣؛ الفخرجي: العقود اللؤلؤية، ج١، ص ١١٥، ١٣٢٦ ج٢، ص ١٩٢؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص ٥٠٢.
- (١٢٧) الملك الأشرف: المصدر السابق، ص ٢٢٦.
- (١٢٨) مجهول: نور المعارف، ج٢، ص ٩٢-٩٣.
- (١٢٩) الفخرجي: العقود اللؤلؤية، ج٢، ص ١٩٥؛ مجهول: تاريخ الدولة الرسولية، ص ٩٤.

ARCHIVE

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المطبوعة:

١. البريهي، عبدالوهاب بن عبدالرحمن ت بعد ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م: طبقات صلحاء اليمن، المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٤م.
٢. ابن بطوطة * محمد بن عبدالله ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مراجعه: درويش الجويدي، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٧م.
٣. الجندي * بهاء الدين محمد بن يوسف ت ٧٢٢هـ / ١٢٣١م: الملوك في طبقات الطماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٥م.
٤. ابن حاتم * الأمير بدر الدين محمد ت ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م: السمع الطالبي الثمين في أخبار الملوك من الفز باليمن، تحقيق: ركن سميث، جامعة كمبريدج (دت).
٥. الخرجي * علي بن الحسن بن أبي بكر ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م: المقرد اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح محمد الأكوع، القاهرة، مطبعة الهلال، ١٩٨٣م.
٦. ابن الدبوع * أبو الضياء عبدالرحمن بن علي ت ٩٤٤هـ / ١٥٧٢م: بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، صنعاء، ٢٠٠٦م.
٧. الزبيدي * محمد مرتضى ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م: تاج العروس في شرح جواهر القاموس، تحقيق: علي لميري، بيروت، دار صادر، ١٩٩٣م.
٨. ابن فضل الله العمري * شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م: مسائل الأبرص في معالكة الأمصار، تحقيق: أمين فؤاد السيد، القاهرة، دار الإحصاء، ١٩٨٧م.
٩. القلقشندي * أحمد بن علي ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتحقيق، محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.
١٠. ابن المجاور * جمال الدين يوسف بن يعقوب ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة "تاريخ المستبصر" اعتنى بتصحيحها: أوسكر نوفقرين، بيروت، دار التنوير، ١٩٨٦م.
١١. مجهول * ت بعد ٨٣٠هـ / ١٤٣٦م: تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، دار الجول، ١٩٨٤م.
١٢. مجهول: نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف، تحقيق: محمد عبدالرحيم جازم، صنعاء، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، ٢٠٠٣م.

١٣. مجهول: ارتفاع الدولة المؤيدية ، تحقيق : محمد عبدالرحيم جازم ، صنعاء ، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، ٢٠٠٩م .
١٤. الملك الأشرف * عمر بن يوسف بن رسول ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م: طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق، له وسترستين، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م.
١٥. ياقوت الحموي "شهاب الدين أبو عبدالله ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٨٤م.
١٦. يحيى بن الحسين * ابن القاسم بن محمد ت ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م: غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨م.

المراجع العربية:

١٧. إبراهيم المقحفى: معجم المدن والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م.
١٨. أسامة حماد: مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي "عصر تولتى بني أيوب وبني رسول"، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤م.
١٩. طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية في اليمن عصر الدولة الرسولية، عدن، دار جامعة عدن، ٢٠١٥م.
٢٠. عبدالرحمن السقاف: معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تحقيق: إبراهيم المقحفى وعبدالرحمن السقاف، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٢م.
٢١. محمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل الأكوع، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٩م.
٢٢. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م.
٢٣. مصطفى الشهابي: معجم الشهابي في معجم مصطلحات العلوم الزراعية، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٨م.

المراجع العربية:

٢٤. سونيا هار: في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيز رفعت، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م.
٢٥. ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ترجمه للإنجليزية: ولیم مارسدن، ترجمه للعربية: عبدالعزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٦م.

رسائل علمية:

٢٦. محمد سعيد: الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد بني رسول، رسالة دكتوراه، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة تونس الأولى، ١٩٩٨م.

الرفقة قرطبة على الحياة العامة فيها

٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م

د. منيرة بنت عبد الرحمن الشرقي (*)

تعريف الرفقة وتسميتها :

عرف علماء اللغة الرفقة بكسر الفاء بمعاني كثيرة منها: الابتلاء والاختبار والامتحان، وأصلها مأخوذ من الفتن وهو إذابة الذهب والفضة بالنار، لتمويل الردي من الجيد. ومنها القتل والحروب، والاختلاف بين فرق المسلمين، إذا تحزبوا، وهو ما ينطبق على موضوع البحث. (١) وقد وردت كلمة الرفقة بمعنى القتل في عدة مواضع في القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٢). وقوله تعالى ﴿على خوف من فرعون ومنتهم أن يفتنهم﴾ (٣). * وقد أشار الرسول صل الله عليه وسلم إلى الرفقة بمعنى القتل بقوله "هل ثرون ما أرى؟" إني لأرى مواقع الفتن من خلال بيوتكم كمواقع القطر" (٤) وقوله "مكون فتن القاعد فيها خير من العالم والعالم خير من الماشي" (٥). وبذلك يكون القتل والحروب هو المدلول الخوي للرفقة.

أما المدلول التاريخي للرفقة، فقد أطلق المؤرخون مسمى الرفقة على الأحداث والثورات والحروب التي شهدتها قرطبة، في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وفي الوقت الذي اكتفى بعض المؤرخين بتسميتها بالرفقة، نسبها البعض إلى البربر، فسميت برفقة البربر. فمن النوع الأول: ابن بسام (٦) والإيلائي (٧) وابن بكسين (٨) وابن عذاري (٩) ومن النوع الثاني الذي ينسبها للبربر ابن حيان معاصر الرفقة الذي وصفها بقوله "الرفقة البربرية الشنعاء المدلهة، المفارقة للجماعة، الهادمة للملكة المؤتلة" (١٠)، ويعرفها كل من: ابن الخطيب (١١) وابن سعد (١٢) بالرفقة البربرية، ويطلق النباهي عليها اسم رفة البرابر (١٣) ولعل تسمية الرفقة برفقة قرطبة، نسبة للمكان الذي حدثت فيه، أكثر دقة من تسميتها برفقة البربر حيث أن الصراع انحصر في قرطبة وشارك في هذا الصراع سكان قرطبة من البربر، وعامة أهل قرطبة، ولم تكن قاصرة على البربر وحدهم.

(*) أستاذ مشارك بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة الملك سعود.

الحدود الزمنية والمكانية للفتنة :

تمتد الحدود الزمنية للفتنة، من الثورة على عبدالرحمن ابن أبي عامر المعروف بشنجول بزعامة محمد بن هشام المعروف بالمهدي، في جمادى الآخر عام ٣٩٩هـ / فبراير ١٠٠٩م (١٥)، وحتى إعلان الوزير أبو الحزم بن جهور عزل آخر خلفاء بني أمية، وإسقاط الخلافة الأموية في الأندلس في ذي القعدة عام ٤٢٢هـ / فبراير ١٠٣١م (١٥)، أي أن الفتنة امتدت لمدة اثنين وعشرين عاماً.

أما الحدود المكانية للفتنة فقد تركز الصراع في هذه الفترة على قرطبة، والتي تقع وسط الأندلس، وتمتد في سهل متسع على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير، وعلى سفح جبل العروس (١٦) بطول ثلاثة أميال من الغرب إلى الشرق، وعرض ميل من الشمال إلى الجنوب (١٧) وتتكون قرطبة من خمسة أكمام، وتضم واحداً وعشرين ربضاً (١٨)، وهي قرطبة العاصمة في الوسط، وشقطة جنوباً، والزاهرة شرقاً، والرصافة شمالاً، والزهراء غرباً (١٩)، وكان يحيط بقرطبة سور، أما البقية لها فلم تحيط بها الأسوار إلا في الفتنة (٢٠)، أما الأرباض فكانت ربضان في الوسط تابعة لقرطبة، وستة أرباض في الجانب الشرقي تابعة (للزاهرة) وتوسع أرباض في الغرب تابعة (للزهراء) وثلاثة أرباض في الشمال تابعة للرصافة، وربض واحد في الجنوب تابع لشقطة (٢١).

الفتنة وأسبابها وأحداثها :

كان تعيين عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر، المعروف بشنجول، ولياً لعهد هشام المؤيد، في ربيع الأول ٣٩٩هـ / نوفمبر ١٠٠٨م (٢٢)، الشرارة التي أدت إلى اندلاع الفتنة والثورة على هشام المؤيد، وحاجبه عبدالرحمن شنجول، وأظهرت رفض سكان قرطبة نقل الخلافة من بني أمية القرشيين إلى بني عامر المعافريين القططانيين. وعلى الرغم من محاولة عبدالرحمن شنجول إضفاء الشرعية على ذلك التعيين، معتمداً على الأثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه. " وقد ضمن ذلك الكتاب التعيين لولاية العهد (٢٣).

وإذا كان التعيين لولاية العهد هو السبب المباشر لاندلاع الثورة، فقد وجد عدد من الأسباب التي أدت إلى حدوث هذه الفتنة ثم استمرارها، وتمثلت تلك الأسباب برفض بني أمية تهجير مكانة الخليفة، وعزل الخليفة هشام عن الناس، وسحب الصلاحيات منه (٢٤)، وقتل الكثير من المؤيدين للخلافة من بني أمية على يد المنصور بن أبي عامر (٢٥) وفي المقابل زيادة مكانة الحاجب على حساب الخليفة، واتخاذ الألقاب السلطانية واستبداده بالحكم والدولة، وظهر ذلك مع المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر (٢٦). كما كانت تغيرات المنصور بن أبي عامر في الجيش وتقريبه للبربر والصقالبة - الفتيان العامرين - سبباً في حقد عامة أهل قرطبة على بني عامر، وتطلعهم للقضاء عليهم (٢٧). وكان العداء بين بني عامر أنفسهم سبباً في الفتنة، وتمثل

ذلك في حقد "الذلفاء" وأدلة عبد الملك المظفر، على عبد الرحمن شنجول، لاعتقادها أن لشنجول دورا في موت ابنها المظفر (٢٨)، كما أن عبد الرحمن شنجول لم يكن بحسبة والده المنصور وأخيه المظفر السياسية، فكان ضعيف الشخصية ميالا للهو والمجون وشرب الخمر، ولم يغير سيرته وأخلاقه بعد توليه الحجابة وولاية العهد، مراعاة لمكانته السياسية ولكسب رضى السكان عنه، بل على العكس؛ استعجل باتخاذ الانقلاب السلطانية التي لم يكن أهلا لها ومنها: المأمون وناصر الدولة، دون أن يحقق أمجادا للبلاد تؤهله لتلك الانقلاب، فكرهه الناس (٢٩). ولم يكن كره شنجول قاصرا على العامة، بل تعداه إلى رجال الدولة عندما أساء معاملتهم، وأمرهم بطرح قلائسهم الطويلة الملونة المميزة لهم، وأمرهم بلبس العائم، فاعتبر رجال الدولة ذلك إهانة لهم، وتقسلا لمكانتهم لتأثير مكانتهم عند العامة (٣٠). علاوة على حقد محمد بن هشام، الذي عرف بالمهدي، على عبد الرحمن شنجول لقتله والده هشام بن عبد الرحمن الناصر، بأمر من أخيه عبد الملك المظفر (٣١) وكان خروج عبد الرحمن شنجول لتفروا إلى جثبية، في ظروف غير مناسبة، حيث خرج في فصل الشتاء ببرده القارس وامطاره الكثيرة، إضافة إلى عدم ولاء كثير من الرجال المصاحبين له (٣٢) قد مكن أهل قرطبة النافعين عليه من إعلان ثورتهم، حيث قدمت الذلفاء الأموال لمحمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، التي مكنته من جمع المؤيدين حوله من عامة أهل قرطبة، وأعلن الثورة ضد هشام المؤيد وحاجبه عبد الرحمن شنجول (٣٣).

ونجح محمد بن هشام بثورته، وقتل عبد الرحمن شنجول وعزل هشام المؤيد عن الخلافة، وبيع له بالخلافة وتلقب بالمهدي في ١٧ جمادى الآخرة ٣٩٩هـ / ٦ فبراير ١٠٠٩م. وبدأت مناطق الأندلس ترسل البيعة للمهدي، وبذلك عادت الخلافة لبني أمية، وقضى على بني عامر (٣٤)، وكادت ثورة المهدي أن تعد الأمور إلى نصابها، بعد إعادة الخلافة إلى بني أمية، وتحافظ على استقرار الأندلس ووحدةها، إلا أن المهدي لم يكن الشخص المؤهل للخلافة، فكان لجهله السياسي، وعدم قدرته على المواجهة بين الأعراق والقوى السياسية في قرطبة، وحفده على بنسي عامر، واضطهاده للبربر والصقالبة - ساعدي بني عامر - الأثر البالغ في اندلاع الفتنة في قرطبة، والتي فشلت جميع خلفاء بني أمية في عصر الفتنة في إخمادها، وكانت نتيجتها سقوط خلافة بنسي أمية. ونظرا لسوء معاملة محمد المهدي للبربر، ورغبة البربر في المحافظة على مكانتهم السياسية، قرروا الثورة على المهدي وطالبوا بالخلافة باسم سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وتلقب بالمستعين بالله وبدأ الصراع ظاهريا بين اثنين من بني أمية محمد، المهدي، وسليمان المستعين وجوهريا بين عامة قرطبة مساندتي المهدي والبربر مؤيدي المستعين واستتجد كل منهم بالتصاري فاستتجد المستعين، والبربر بملك قشتالة سانتو غرسه، وطلب المهدي العون من بوريل الثالث Borell صاحب برشلونة وأرمينغول Ermangol صاحب أوريخ (٣٥)، وحدثت بين الطرفين معركة في قشتالة (٣٦) وعقبه البقر (٣٧)، وعانت قرطبة وسكانها الأمرين من هذا الصراع، والذي نتج عنه قتل

المهدي عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م، وإعادة هشام المؤيد للخلافة حتى عام ٤٠٣هـ—
 ١٠٣١م، ولم يكن سليمان المستعين بأفضل سياسية من المهدي، فأساء إلى سكان
 قرطبة، كما أنه أقطع زعماء البربر جنوب وغرب الأندلس وجنوب المغرب للأفراد
 بحكم قرطبة. وكانت نتيجة تلك السياسة أن زادت قوة البربر على قوته، وتطلع بنو
 حمود إلى الخلافة، ففرضوا خلق المستعين، فدخل علي بن حمود قرطبة، وأدعى أن هشام
 المؤيد قد ولاء ولاية العهد وقتل سليمان المستعين في ٢٢ محرم ٤٠٧هـ/يونيو ١٠١٦
 م، وبذلك خرجت الخلافة من بني أمية إلى بني حمود الحسنيين، لمدة سبع سنوات،
 حتى خلق القاسم بن حمود في جمادى الثاني عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م (٣٨). وقد تضرر
 سكان قرطبة من سياسة بني حمود التصفية معهم، وكان ذلك سبباً في خلق سكان
 قرطبة للقاسم بن حمود، وإعادة الخلافة إلى بني أمية، وذلك بمباينة عبدالرحمن بن
 هشام المستظهر عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م (٣٩). إلا أن الأوضاع السياسية لم تتحسن بعد
 الخلافة إلى بني أمية، فاستمر التدهور العام في قرطبة، وتحكم العامة في الخلافة
 والخلفاء، يقتل هذا وخلق الآخر، حتى سلم السكان من هذه الأوضاع المتدهورة، وتقبلوا
 رأي الوزراء بزعماء الوزير أبي الحزم بن جهور، بإسقاط خلافة بني أمية في
 الأندلس، في ذي القعدة ٤٢٢هـ/١٠٣١م، وعزل آخر خلفاء بني أمية: هشام بن محمد
 المعتد بالله، وتعيين أبو الحزم بن جهور على قرطبة (٤٠).

كانت السمة البارزة للأحداث في قرطبة، في عصر الفترة ٣٩٩-٤٢٢هـ/
 ١٠٠٩-١٠٣١م، هي الصراع على منصب الخلافة، واتحصر الصراع على قرطبة
 وتدخل العديد من الأطراف في هذا الصراع، وخرجت الخلافة لفترة من الزمن من بني
 أمية إلى بني حمود، وتولى الخلافة أشخاص غير أكفاء لمنصب الخلافة. وكان لهذا
 الصراع أثر كبير على الحياة العامة في قرطبة، في جوانبها المختلفة، وهذا ما سنحاول
 التعرف عليه في بحثنا هذا.

أولاً : الآثار السياسية للفتنة :

لقد كان للفتنة آثار جسيمة على الأوضاع السياسية داخل قرطبة، ومدى قدرة
 خلفاء الفتنة على فرض قوتهم ونفوذهم داخل الأندلس، والمحافظة على حدود دولتهم
 الخارجية. وعند النظر في الآثار السياسية داخل قرطبة، يتبين لنا كثرة من تولى منصب
 الخلافة، فقد تولى الخلافة تسعة خلفاء، تولى أربعة منهم مرتين في مدة لا تتجاوز اثنين
 وعشرين عاماً (٤١). ومن الآثار السياسية أن جميع الخلفاء في الفتنة وصلوا إلى
 الخلافة، إما بالثورة أو باختيار سكان قرطبة لهم، فمن وصل إلى الخلافة بثورة: محمد
 المهدي وسليمان المستعين، وعلي بن حمود، وعبدالرحمن المستظهر بالله (٤٢). ومن
 وصل إلى الخلافة بدعوة من سكان قرطبة - سواء أكانوا من البربر أو من العامة -
 القاسم بن حمود ومحمد المستنكي بالله وهشام المعتد (٤٣). وكانت جميع الشخصيات
 التي وصلت إلى الخلافة غير مؤهلة لهذا المنصب فاتسموا بالضغط وقلة الخبرة

والحنكة السياسية، فعجزوا عن ضبط الأوضاع في قرطبة، وإعادة الاستقرار السياسي لها. ونتج عن الضعف السياسي للخلفاء: ضياع هيبة الخلافة، ومكائنة الخليفة الروحية لدى العامة، فخلع الخلفاء في فترات وقتلوا في فترات أخرى، وتولى خليفتان في وقت واحد أحياناً أخرى، وظل منصب الخلافة شاغراً فترة من الزمن. فمعن انتهت خلافته بالخلع: هشام المؤيد الذي خلع عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م (٤٤) وخلع محمد المستنصر بالله في ٢٥ ربيع الأول ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م (٤٥) كما خلع هشام المعتد بالله في ذي الحجة عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م (٤٦). ومن انتهى حكمه بالقتل محمد المهدي، الذي قتل في ذي الحجة عام ٤٠٠هـ/ ٢٣ يوليو عام ١٠١٠م (٤٧) وسليمان المستعين، الذي قتل في ٢٢ محرم ٤٠٧هـ/ ١٠١٧م (٤٨) وعبد الرحمن المستنصر بالله الذي قتل في ٣ ذي الحجة ٤١٤هـ/ ١٠٢٤م (٤٩). وشهدت الأندلس، ولأول مرة منذ قيام حكم بني أمية فيها، وجود خليفتين في وقت واحد ومكان واحد ولكل منهما أنصاره ومؤيدوه وهما محمد المهدي، وسليمان المستعين (٥٠). وبعد مقتل محمد المهدي عام ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م وإعادة هشام المؤيد للخلافة أصبح هناك خليفتان وهما: هشام المؤيد وسليمان المستعين، واستمر الوضع حتى عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، عندما نجح سليمان المستعين في دخول قرطبة وقضى على هشام المؤيد، وأصبح هو الخليفة الأوحد (٥١). وقيل لمنصب الخلافة شاغراً في قرطبة، عندما هرب يحيى بن علي بن حمود، المعروف بالمعتلي بالله وترك تدبير أمور قرطبة لوزيريه: أحمد بن موسى، ودوناس بن أبي روح في محرم عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٥م وطرد الوزيران منها في ربيع الأول من السنة نفسها (٥٢) وظل المنصب شاغراً حتى قدم هشام المعتد بالله إلى قرطبة في ذي الحجة عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، على الرغم من أن أهل قرطبة كانوا قد أرسلوا يبعثهم له هشام المعتد في مقره بالبوت، في ٢٥ ربيع الأول ٤١٨هـ/ ١٠٢٦م (٥٣). ولعل هذا الفراغ السياسي لمدة عامين ومبعة أشهر، وضعف الخلفاء، وضياع هيبة الخلافة حيث كان الخليفة صورياً يعزل ويقتل ويتطاول عليه، وليس له من الخلافة سوى الاسم من العوامل التي ساعدت على تقبل سكان قرطبة إسقاط خلافة بني أمية عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور وذلك في عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، مقارئة بمعارضتهم وثورتهم على عبد الرحمن شنجل عندما حاول نقل الخلافة من بني أمية لبني عامر، بتوليته ولاية العهد لهشام المؤيد.

ومن الآثار السياسية: أن السياسة لم تعد نخبوية يسيرها الخاصة من الخلفاء والوزراء، بل تدخل الجميع في السياسة، على اختلاف أعرافهم ومكائنتهم الاجتماعية، من البربر والصقالبة والسودان، ومن الفقهاء والجند والعامة وغيرهم (٥٤).

ومن الآثار السياسية: تقلص نفوذ بني أمية داخل الأندلس وخارجها، ففي داخل الأندلس، اتحصن الصراع على قرطبة، وعلى منصب الخلافة، فشهدت بذلك الأندلس بداية التشرذم والتمزق السياسي، والانحلال عن الخلافة، حيث لم تتجاوز سلطة الخليفة العاصمة قرطبة. وكان ذلك الانحلال إما بإقطاع من بعض الخلفاء، كما فعل سليمان

المستعين عندما أقطع قبائل البربر جنوب وجنوب غرب الأندلس، ليحكم قرطبة منفرداً بعيداً عن سيطرته^(٥٥)، أو استقطاعاً وخروجاً عن الطاعة، كما فعل الصقلية في شرق الأندلس^(٥٦) أو أفراداً بحكم مناطقهم، كما فعل بنو عباد في إشبيلية وبنو تحبب في سرقسطة، وبنو الأفلح في بطليوس^(٥٧) وفي عصر الفتنة هذه بدأت بنو دول الطوائف في التشكيل والظهور.

وظهر تقلص نفوذ بني أمية خارج الأندلس بخروج الجزء الغربي من المغرب الأقصى عن سيطرة بني أمية، إذ كان بنو أمية قد نجحوا في مد نفوذهم على تلك المنطقة منذ عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، واستمرت سيطرتهم على تلك المنطقة حتى بداية عصر الفتنة، حيث استقل سكان المغرب (تشقال بني أمية بصراعهم على الخلافة، واستقلوا بحكم منطقتهم، وبذلك خرجت المغرب من تبعيتها لبلاد الأندلس^(٥٨)).

ومن الآثار السياسية لهذه الفتنة: استقلال ملوك وإمراء النصارى للأحداث السياسية، وبدأوا في التدخل في الصراع، فلعب سانشو غريسه ملك قشتالة دوراً في إيصال سليمان المستعين إلى الخلافة وشارك كل من بوريل الثالث صاحب برشلونة وأرمغول صاحب أورخل، في إعادة محمد المهدي إلى الخلافة^(٥٩) ونتج عن تلك المساعدات التي بذلها ملوك وإمراء النصارى، لخلفاء الفتنة، أن فقد المسلمون في الأندلس أجزاء من مناطق الحدود في الشمال عندما تعهد سليمان المستعين بالتنازل لسانشو غريسه عن بعض الحصون والقلاع على نهر الدوير^(٦٠) كما تعهد محمد المهدي بمساعدة النصارى بالاستيلاء على مدينة سالام، وإن يخليها لهم من المسلمين^(٦١). وعندما رأى النصارى مدى الضغط الذي حل بالمسلمين، أخذوا يهددون بني أمية ويطالبونهم بالتنازل عن عدد من المناطق في الشمال، كما فعل سانشو غريسة ملك قشتالة؛ عندما أرسل لهشام المؤيد يتهده، ويطالبه بالتنازل عن الحصون الواقعة على الحدود بينهم، والتي افتتحها المسلمون منذ عهد الحكم وحتى عهد المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر فاضطر هشام المؤيد إلى قبول ذلك وتنازل عن ٢٠٠ حصن، ووقعت معاهدة بذلك بحضور الفقهاء^(٦٢) وبذلك بدأت حركة الاسترداد النصراني في الازدياد، مستغلين الصراع الدائر في قرطبة خاصة، وفي الأندلس عامة، لمصالحهم.

مما سبق يتبين أن للفتنة أثراً جسيماً على الأوضاع السياسية داخل الأندلس وخارجها، فمن أثارها: أسقاط حكم بني أمية في الأندلس، بعد أن دام قرابة الثلاثة قرون، ولغنت الأندلس وحدتها السياسية، وبدأ معها عصر التشرذم وملوك الطوائف، كما تقلصت حدود دولة بني أمية جنوباً وشمالاً ففي الجنوب خرج الجزء الغربي من المغرب الأقصى عن حكم بني أمية وفي الشمال تراجعت الحدود بسيطرة النصارى على العديد من المناطق والحصون وكان ذلك دافعا للنصارى لضرب المسلمين بعضهم ببعض، والتقدم في حركة الاسترداد النصراني للأندلس.

ثانياً: أثر الفتنة على الإدارة :

لقد تأثرت الإدارة بالفتنة، فاختلفت بعض المناصب التي كان لها دور رئيسي في إشعال الفتنة وهما: منصب الحجابة، وولاية العهد، فاختلف منصب الحجاب، فسي بداية عصر الفتنة على الرغم من أن محمد المهدي كان قد عين ابن عمه، عبد الجبار بن المغيرة، في منصب الحجابة (٦٢) إلا أن المصادر لا تذكر أي دور سياسي لعبه الجبار بن المغيرة ولعل في هذا دلالة على تحجيم هذا المنصب. وكانت هناك محاولة فاشلة لإعادة منصب الحجابة مع واضح الصلبي الذي تولى الحجابة على هشام المؤيد بعد مقتل محمد المهدي في ذي الحجة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م، ولكنه لم يستمر طويلاً في منصبه هذا، حيث قتل في عام ٤٠١هـ/ ١٠١١م، على يد أهل قرطبة الذين رفضوا السيطرة على الخليفة من قبل الحجاب (٦٤). ولعل اختفاء هذا المنصب يوضح كره السكان لسيطرة متولي هذا المنصب على الخليفة، والذي ارتبط بالسيطرة العاسرية على الخليفة والخلافة.

وتأثر منصب ولاية العهد في الفتنة، فلم يظهر إلا في حالات ثلاث: اثنان بالتعيين وواحدة بالإدعاء، وظهرت الحالة الأولى عندما عين محمد المهدي ابن عمه سليمان بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، ولما لعده، إلا أنه لم يستمر طويلاً في منصبه، حيث سجنه المهدي ثم قتله، عندما ثار والده هشام بن سليمان على المهدي لسوء سياسته، وادعى أنه أحق منه بالخلافة، وفشلت محاولات ابن حزم وابن ذكوان في إعادته للثورة (٦٥). أما الثانية، فكانت عندما ادعى علي بن حمود أن هشام المؤيد قد ولاه عهده عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٥م، وأظهر كتاب نسبه إلى هشام المؤيد، وجعل ذلك سبباً للثورة على سليمان المستعين، ونجح في دخول قرطبة عام ٤٠٧هـ/ ١٠١٧م، ومبايعة بالخلافة (٦٦). وكانت الثالثة عام ٤١٥هـ/ ١٠١٥م، عندما عين محمد المستفي ابن عمه سليمان بن هشام بن عبد الله بن الناصر ولماً لعده، إلا أن هذا التحين لم يوصله إلى الخلافة، لأن من ولاه العهد خلع من الخلافة، عام ٤١٦هـ/ ١٠١٦م (٦٧).

كما تأثر منصب الوزارة بالفتنة، وظهر ذلك جلياً بوصول طبقة غير مؤهلة للوزارة، وكان السبب الرئيس لوصولها هو: مساندتهم للخليفة لإصائله إلى الحكم، كما حدث مع محمد المهدي، عندما ولي الوزارة لبضعة عشر رجلاً من أراذل العامة من الحجامين والخرازين والزبائين والكنافين. لمساندتهم له في القضاء على بني عامر (٦٨). على الرغم من أنه لم يكن لهم أي معرفة بالإدارة أو السياسة، وكان الحسين بن يحيى للتجبي من تقرب إلى المهدي وكان أحد دعاة فلوله الوزارة ثم ضم له المطالم (٦٩) فجمع له بين وظيفتين مدنية ودينية، وهذا يدل على مدى الاختلال والقوضى الذي عانت منه الإدارة في عصر الفتنة. واستمر صفار الناس في الوصول إلى منصب الوزارة، مع محمد المستفي، الذي ولي الوزارة لأحمد بن خالد وهو رجل حاك ليس له دراية بالسياسة، فأساء إلى السكان (٧٠). وجعل عبد الرحمن المستظهر الغرابة والتأييد هما الأساس للتعين في الوزارة بعد أن أعيدت الخلافة لبني أمية لعين عدداً من بني

مروان من صغار المن ولم يكن لهم معرفة بالسياسة، فاستبدوا بالحكم عن غورهم من كان لهم دراية سياسية، فكان ذلك سبباً في خلق المستنظر وقتله (٧١). وبلغ الأمر غاية السوء مع هشام المعتد، الذي ولي الوزارة ابن القزاز وأطلق يديه في الحكم، فحجر ابن القزاز على الخليفة واستبد بشئون الدولة وأساء إلى جميع السكان كما أساء إلى بقية الوزراء والجنود، فأخر أعطيائهم مما كان سبباً في تحالف الجنود مع الوزراء، وأشاوروا العامة على ابن القزاز، فكانت سياسته سبباً في قتله ومن أسباب إسقاط حكم بني أمية في الأندلس (٧٢).

وبلغ من اضطراب الأوضاع الإدارية، في عصر الفتنة، أن المناصب كانت تشتري وتنتج عن ذلك أن وصل للإدارة أشخاص لم يكن لهم دراية بالسياسة، من العامة والفقهاء (٧٣). وليس أدل اضطراب الإدارة في عصر الفتنة، من تباين صلاحيات وقوة الوزراء، ففي الوقت الذي كانت سلطة بعض الوزراء محدودة، واستبد الخلفاء في الأمور دونهم كما حدث مع أبي عبيدة حسان بن مالك بن أبي عبيدة، وزير عبدالرحمن المستنظر فقد كان المستنظر يبت في كثير من الأمور دون الرجوع إليه (٧٤). وقد فالت صلاحيات وقوة البعض الآخر قوة الخلفاء أنفسهم، كما حدث مع أحمد بن خالد الحائك وزير محمد المستنكر (٧٥) وابن القزاز وزير هشام المعتد (٧٦) وبلغ من سوء بعض الوزراء أن نقضوا أحكام الخلفاء، كما حدث في عصر عبدالرحمن المستنظر، عندما سجن بعض شيوخ قرطبة لرغبتهم في تولية الخلافة سليمان المرتضى، فكتبوا صاحب المدينة الذي أخرجه من السجن مخالفاً لرأي المستنظر (٧٧). وكان من استغلال الوزراء لمناصبهم وتسلطهم على العامة، أنهم هم الذين قاموا بالسلب والنهب في عهد محمد المهدي دون رادع لهم (٧٨). وبلغ استغلال بعض الوزراء لمناصبهم أن استولوا على بعض ممتلكات الخلافة، كما فعل ابن منا ذو الوزيرتين، وزير هشام المؤيد عندما رأى تردي الأوضاع السياسية عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، فأخذ كل متاع رفيع من قصر الخلافة، وحمله لبلد وهرب إلى بطليوس (٧٩).

وبلغت قوة الوزراء، في بعض الأحيان، أن تولوا تعيين وعزل الخلفاء، وظاهر ذلك جلياً عندما قاد الوزراء الثورة على القاسم بن حمود، وقرروا إعادة الخلافة إلى بني أمية (٨٠). ووصلت تلك القوة ذروتها في اجتماع الوزراء، برعاية أبو الحزم ابن جمهور، عندما قرروا عزل هشام المعتد، وإسقاط خلافة بني أمية، والتصاع لقرار الوزراء هذا الخليفة هشام المعتد، وجميع سكان قرطبة، وبذلك قطعت خلافة بني أمية بأمر من الوزراء (٨١). ونل هذا التباين في أوضاع الوزراء وقوتهم، جعل الكثير يتنافسون على منصب الوزارة وغيره من المناصب الإدارية، على الرغم من أن بعضهم لم يحصلوا على مرتبات من تلك المناصب (٨٢). ومن اللافت للنظر إيجاد عدد من الخطط والمناصب الجديدة في عهد عبدالرحمن المستنظر مثل خطة المدينتين الزهراء والزاهرة - على الرغم من تدميرها وكتابه التخطيب المحاسبية، وخطة الحشم، وخطة مواريت الخاصة وخطة الطرار وخطة المعالي وخطة خزاة الطب والحكمة وغيرها. ووصف ابن حبان

هذه المناصب بأنها عبث، ومراتب نصبت لغير طائل (٨٣). والجدير بالذكر، أن هذه القوة التي وصل إليها بعض الوزراء لم تكن استمرار قوتهم وتغلؤهم، بل تغيرت أوضاعهم بتغير الخلفاء، كما فعل المهدي عندما نكب وزراء بني عامر، بعد أن قضى على حكمهم (٨٤) ونكب سليمان المستعين مؤيدي المهدي، ومنهم الوزير الحسين بن حي بن عبد الملك التجيبي (٨٥) وتعرض الوزراء من بني حزم للنكبة عدة مرات، ونهبت منازلهم وممتلكاتهم، وكانت أول نكبة تعرضوا لها على يد المهدي عندما نكب أحمد بن حزم، لأنه من وزراء بني عامر، ونهبت منازلهم في شرق الزاهرة، فانتقلوا إلى بلاط مغوث في الجانب الغربي لقرطبة فمات من أحمد بن حزم إلا أن نقل ولاءه لمحمد المهدي، ليضمن استقرار وضعه. وبعد قتل المهدي وعودة هشام المؤيد للخلافة، كان أحمد بن حزم من وزراء المهدي الذين امتنعهم المؤيد وسجنوا وأغرموا وظل أحمد بن حزم مسجوناً حتى مات عام ٤٠٢هـ / ١٠١٢ م (٨٦). وعند وصول المستعين للخلافة المرة الثانية، استمر في الإساءة إلى بني حزم، حتى اضطروا إلى الهرب من قرطبة عام ٤٠٤هـ / ١٠١٤ م (٨٧). كما نكب محمد المستنكفي علي بن حزم وابن عمه أبا المغيرة الذين عادوا إلى قرطبة في عام ٤٠٩هـ / ١٠١٩ م، لأنهم كانوا من وزراء عبد الرحمن المستنظر (٨٨)، كما اضطهد علي بن حمود عدداً من وزراء المستعين، منهم أحمد بن برد وأبو الحزم بن جهور، فاعتقلهم وصادر أموالهم (٨٩).

وكان للفتنة تأثير على الجيش، وكان الجيش في عهد بني عامر جيشاً قوياً وضم ذوي الخبرة العسكرية من البربر والصفقاتية، وقد بلغ عدد الصفقاتية في جيش المنصور ١٠٥٠٠ (٩٠). ونظراً للعداء بين المهدي وبني عامر، فقد غير المهدي بعد وصوله إلى الخلافة في الجيش، فضم إليه الآفا من عامة قرطبة، من سفلة الناس، من المهن المختلفة، ولم تكن لهم خبرة ولا دراية في الحرب والقتال فكانوا عبئاً عليه أكثر من كونهم دعماً له (٩١). وأخذ العامة في التطوع في جيش المهدي فرساناً ومشاة ووزعت عليهم الأسلحة رغبة في الحصول على الأسوار والعطاء والقبائل في حروب المهدي (٩٢). ولم يقتصر وجود العامة في الجيش على الجند في جيش المهدي بل تعداه إلى القادة، فمن قادة المهدي: الفضالري الطيب وابن الوكيل، وغيرهما من الحواتين والجزارين وأشباههم (٩٣). وتضخم جيش المهدي من العامة حتى بلغ عدد جيشه في عام ٤٠٠هـ / ١٠١٠ م، ثلاثين ألفاً في حربه لمسلمان المستعين عندما دعى كل من بلغ الحلم وقدر على حمل السلاح إلى الانضمام للجيش (٩٤). وأصبح هذا العدد الكبير من الجند عبئاً على خزينة الدولة (٩٥). مما دفع المهدي إلى إخراج سبعة آلاف من جنده وقطع أرزاقهم (٩٦) وعندما عجز المهدي عن ضبط الأوضاع في قرطبة، فكر في الاستعانة بالجند من خارج قرطبة لذا دفع إلى واضح الصقلي ٥٠ ألف دينار ليوفرها في جند مدينة سالم للانضمام إليه إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل (٩٧).

وفي الوقت الذي استكثر فيه المهدي من العامة في جيشه، أساء إلى البربر والصفقاتية، وهما عماد جيش بني عامر فنفى جماعة من الصفقاتية العامريين إلى خارج

قرطبة، فاتهموا إلى شرق الأندلس (٩٨). كما أساء إلى البربر عندما أمرهم بوضع السلاح، وحاول إخراجهم إلى المغرب وإعادتهم للعمل بالزراعة (٩٩). ولعل محاولة المهدي إخراج البربر من الجيش، ومحب صلاحياتهم العسكرية والمالية، من أهم الأسباب التي دفعتهم للثورة ضده، ومبايعة سليمان المستعين بالخلافة.

وقد اضطرب وضع الجيش كإضطراب الأوضاع السياسية، ففي الوقت الذي اعتمد فيه المهدي على العامة، جعل سليمان المستعين البربر صاعد جيشه، كما حاول استقطاب الجند الصقلية وجذبهم إلى صفه، رغبة في تقوية مركزه ضد منافيه، فأرسل إليهم يدعواهم إلى الانضمام إليه والدخول في الطاعة، مع استمرار سيطرتهم على مناطقهم وزيادة الطاء لهم، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل (١٠٠).

ولقد تولقت قوة الجند، في عصر الفتنة، على قوة الخلفاء، وحرصوا على المحافظة على تلك القوة، لذا ثار الجند من عامة قرطبة على واضح الصقلية، وقتلوه عندما فكر في مصالحة البربر، حفاظاً على وجودهم وقوتهم (١٠١). وبلغ من نفوذ الجند أن أوكل إليهم هشام المؤيد، عام ٤٠٢ هـ / ١٠١٢ م، تسيير أمور الدولة، وتولى الصراع مع البربر، بالتعاون مع وزيره ابن منادون الرجوع إليه (١٠٢). ونظراً لزيادة قوة البربر في جيش سليمان المستعين، وهم الذين ساعدوه للوصول إلى الخلافة، ورغبة من سليمان المستعين في إبعادهم عن العاصمة قرطبة ليخلص من نفوذهم وليتمنى له حكم قرطبة منفرداً، قام بإقطاعهم مناطق في جنوب وجنوب غرب الأندلس (١٠٣). وعندما وصل علي بن حمود إلى الخلافة ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م، رأى ما وصل إليه كل من العامة والبربر في الجيش قرر أن يحدث تغيير في الجيش وبدأ بإدخال السودان في الجيش لإضعاف نفوذ البربر وسار أخيه القاسم بن حمود على نهجه فزاد من السودان في الجيش (١٠٤). وبلغ من قوة الجند قتلهم كل من حاول التصدي لأطماعهم من متولي الوظائف العامة كما حدث في عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م، عندما قتل البربر كل من تولى الشرطة في قرطبة زمن هشام المؤيد لمعارضتهم مصالحهم، فقتلوا كلا من محمد بن قاسم الأموي المعروف بالجالطي، وعبدالله بن حسين بن إبراهيم بن حسين بن عاصم (١٠٥). كما لعب الجند دوراً في قتل الوزير ابن القزاز وزير هشام المعتد، عندما أخرجواهم (١٠٦).

لقد تأثرت الوظائف الدينية بالفتنة كنتأثر الوظائف المدنية، ومن أبرز الوظائف التي تأثرت في الفتنة: خطة القضاء، وعلى الرغم من أهمية هذا المنصب الدينية والاجتماعية، فقد تأثرت أوضاع القضاء بالأحداث السياسية، فأسقطت عن بعضهم الألقاب ونفي البعض الآخر، وسجن البعض، وبلغ الأمر بتعطيل خطة القضاء في بعض الفترات. فبعد نجاح محمد المهدي بالقضاء على بني عامر، أسقط لقب قاضي القضاء عن القاضي أبي العباس أحمد بن ذكوان، وقصره على قاضي الجماعة، لغرب ابن ذكوان من بني عامر وتوليته القضاء في عهدهم. واكتفى المهدي بإسقاط اللقب عنه، ولم يستطع عزله أو إيداعه لمكانته من الخاصة والعامة (١٠٧) وتعرض القاضي ابن ذكوان

هو وجميع أسرته للنفي إلى المغرب عام ١٠١١هـ/ ١٠١١م، لمناصحته لهشام المؤيد، وحاجبه واضح الصقلي، في حربهم مع البربر واتهم بميله للبربر (١٠٨). واكتفى سليمان المستعين بسجن القاضي يحيى بن وألفد التخمي، عند دخوله قرطبة عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، بعد استعطاف الكثير من الناس عليه حيث كان ينوي قتله لأن ابنه وألفد كان من مؤيدي هشام المؤيد، ومعارضاً لسليمان المستعين وقتل ابن وألفد مسجوناً حتى مات عام ٤٠٤هـ/ ١٠١٤م (١٠٩). ولعل خوف سليمان المستعين من قوة القضاة وتأثيرهم على الناس، كان سبباً في تعطيله خطة القضاء طوال حكمه الذي دام ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر، وبذلك تعطل مذهب القاضي حتى أعاده علي بن حمود وعندما عين عبدالرحمن بن بشر على القضاء، واستمر قاضياً حتى عزله في خلافة هشام المعتد عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م لمعاينة بعض الفقهاء ضده لسوء معاملتهم له (١١٠).

ومن الثلاث للظن تدخل القضاة، في عصر الفتنة بالسياسة كثيراً، ومن ذلك: أن هشام المؤيد أشهد للقضاة والفقهاء، على خلع نفسه لمحمد المهدي (١١١)، وأرسل محمد المهدي قاضيه ابن ذكوان مع وزيره ابن حزم، لإعادة هشام بن سليمان للطاعة، ومنعه من الثورة ضد المهدي (١١٢). كما أرسل محمد المهدي القاضي ابن ذكوان إلى البربر يدعوهم للطاعة على أن يعيد هشام المؤيد للخلافة ويكون نائباً عنه (١١٣). وشارك القاضي والفقهاء في صياغة المعاهدة التي وقعت بين هشام المؤيد والنصارى، على تسليم جميع الحصون الشمالية التي استعادها الحكم والمنصور والمظفر، مقابل عدم تهديدهم لأراضي المسلمين (١١٤). ولعب القاضي ابن ذكوان دوراً في الصراع الذي دار بين هشام المؤيد وواضح الصقلي وسليمان المستعين والبربر، فشجع القاضي ابن ذكوان على محاربة البربر وتعهدهم بتأمين ٥٠٠ فرس من مال الأحياس، ليحصل عليها مرتجلة العبيد (١١٥). وتزعم القاضي ابن ذكوان وفد الفقهاء إلى سليمان المستعين ورؤساء البربر، عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، لتأمين سكان قرطبة بعد انتصارهم عليهم (١١٦).

ولعل انغماس القضاة بالسياسة، وتداول الخلفاء عليهم، كان سبباً في ضياع هيبتهم أمام العامة، الذين تناولوا بدورهم عنهم، وهذا ما حدث مع القاضي ابن ذكوان، الذي رفض طلب العامة بدفع أموال الأحياس للنصارى اتقاء لشهرهم فقطاولوا على القاضي وكسروا مقصورة الجامع وأخذوا الأموال دون موافقته ودفعوها للنصارى (١١٧). وفي عصر الفتنة، لم يعد الظم والكفاة هما المعيار الرئيس لتسولي منصب القضاء، بل كان التأييد للخلفاء والشوار هو الأساس لتولي هذا المنصب، فكان هذا سبباً في أن وصل البعض إلى القضاء مع قلّة علمهم (١١٨). ولعل اضطراب الأوضاع السياسية، والتناول على القضاة وعدم قدرتهم على إمضاء أحكامهم، وخولهم على أنفسهم وأموالهم من الأسباب التي دفعت البعض للاستعفاء أو رفض منصب القضاء، فمن طلب الاستعفاء: عبدالرحمن بن أحمد بن أبي المطرف المعافري الذي استغنى من هشام المؤيد عام ٤٠٢هـ/ ١٠١٢م بعد توليه القضاء مدة سبعة أشهر وثلاثة وعشر

يوماً (١١٩)، ورفض القضاء كل من: أبي العباس أحمد ابن ذكوان، وأخيه أبي حاتم، بعد عودتهم من نفيهم في المغرب، بعد قتل واضح الصقلي، كما رفض عبدالله بن أحمد الجذامي القضاء، عندما عرضه عليه محمد المستكفي (١٢٠). وفي الوقت الذي رفض البعض القضاء، نجد أن هناك من استفاد من القضاء واستغنى بعد فقر، مثل يونس بن مغيث بن الصفار آخر قضاء بني لمية (١٢١).

ولقد تأثرت بقية الوظائف الدينية بالفئنة كتأثر القضاء، منها خطة الرد والمظالم والشورى والشرطة. ونيس أدل على اضطراب تلك الوظائف من زيادة محمد المستكفي للمشاورين من خمسة إلى أربعين (١٢٢). كما ولي محمد المستكفي خطة الشرطة لبعض العامة، والتجار الذين استغلوا مناصبهم دون رادع، وأسأوا إلى السكان (١٢٣)، وانتهت حياة بعض متولي تلك المناصب بالقتل، كما حدث مع راشد بن إبراهيم بن راشد، متولي خطة الرد، الذي قتل عام ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣ م (١٢٤). ومن الملاحظ في هذه الفترة الجمع بين الوظائف الدينية والمدنية كالجمع بين القضاء والوزارة، كما حدث مع عبدالرحمن بن محمد بن فطيس وعبدالرحمن بن بشر (١٢٥)، وجمع الحسين بن حي بن عبدالملك التجيبي بين المظالم والوزارة (١٢٦).

أثر الفئنة على العمران :

بلغت قرطبة أوج ازدهارها العمراني في عصر الخلافة، في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وتفوقت على سائر المدن الأندلسية (١٢٧) وكانت قرطبة في عصر الخلافة تتكون من خمسة أقسام وإحدى وعشرين ريفاً (١٢٨)، وقد استحدث اثنتان منها في عصر الخلافة وهما: الزهراء التي أسسها الناصر، والزاهرة التي أسسها المنصور بن أبي عامر (١٢٩). وبلغ من توسع العمارة في قرطبة، أن اتصلت العمارة فيها وامتدت بطول ضفة نهر الوادي المسمى الوادي الكبير، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع. وامتدت الأرباض حتى تلاصقت ببعضها، حتى إن الزاهرة في الجانب الشرقي اتصلت عمراً بالزاهرة في الجانب الغربي المقابل مروراً بقلب المدينة. وبلغ من ازدهار عمارة قرطبة وتطورها، أنه كان يمشي فيها بالأنوار بالسرج مسافة عشرة أميال (١٣٠). وقد صور المؤرخون والجغرافيون المسلمون، تطور قرطبة العمراني، بإحصاء لإعداد مراقفها العامة فبلغ عدد مساجدها ١٣٨٧، وقيل ١٨٦٧، وفي رواية ٣٨٧٧ (١٣١) وعدد دور العامة أو منازلهم ١١٣٠٧٧ داراً، أما منازل الأمراء والوزراء والقادة فبلغت ٦٠٠٣٠٠ دار وكانت الرصافة هي مبان الخاصة، أما العامة فكانت مساكنهم في أرباض قرطبة (١٣٢)، وبلغ عدد الحمامات ٣٧١١ حماماً (١٣٣)، وعند الخانات والفنادق ١٦٠٠ فندق (١٣٤) ووصل الازدهار والتطور العمراني إلى الأسواق، حيث وصلت أعداد الجوانب إلى ٨٠٤٥٥ (١٣٥). علاوة على القصور والمنزلات، فمن قصور قرطبة: قصر الخلافة، وقصر الزاهرة، والكامل، والمجدد، والحائر، والروضة، والزاهر، والمعشوق، والمبارك، والرشيق، والتاج، والبديع (١٣٦). ومن منزلات قرطبة:

المستندة مقر المراقب شمال قرطبة، ومنزرة البند، ومنزرة قصر الرصافة الذي زرع فيه غراب الفروم والأشجار والمنية المصطفية، والمنية العامرية (١٣٧).

ونتيجة لاهتمام خلفاء وحجاب بني أمية بالعصارة، أصبحت قرطبة تنافس العواصم الإسلامية الأخرى، بالتخطيط والتنظيم وفخامة العمارات وتنوعها، إلا أن هذا التطور لم يقدر له أن يستمر، حيث تأثرت العمارات كثيراً بالفتنة التي حصلت بقرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وكانت الزاهرة - مقر بني عامر - أول مناطق قرطبة العمرانية تأثراً بالفتنة، فبعد وصول محمد المهدي إلى الخلافة عام ٣٩٩هـ/١٠٠٨م، أطلق يد مؤيديه من العامة في الزاهرة فنهبت الممتلكات، وأمر بنقل الأموال والذخائر الخاصة إلى قصر الخلافة. وقيل إن المهدي نقل منها ٥ ملايين و ٥٠٠ آلاف درهم ومليون و ٥٠٠ ألف دينار، واستخرج من الدفائن ٢٠٠ ألف (١٣٨). واستمر نهب الزاهرة لمدة يومين، وقيل لأربعة أيام. وبعد أن فرغ المهدي من نقل الأموال والذخائر أمر بهدمها، وتدمير قصورها واقتلاع أبوابها ثم إحراقها، ونجح فسي طمس أثرها فلم يترك حجراً فوق حجر فلم يعد للزاهرة أي أثر سوى اسمها، ليمحو بذلك كل أثر لبني عامر (١٣٩).

ولم يقف التدمير العمراني، في عصر الفتنة، على تدمير الزاهرة وإلتهائها، وإنما استمر التدمير والتخريب لقرطبة، طوال الفتنة وبدأت الزهراء تتعرض للتدمير بعد هزيمة سليمان المستعين في عقبة البقر عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م، وخروجه من الزهراء - حيث كان قد اتخذها قاعدة له ولأتباعه من البربر، ليوثد عن أهل قرطبة - فهاجم عامة قرطبة الزهراء ونهبوا ما وجدوا من آلات البربر، ودخلوا المسجد الجامع ونهبوا حصره وقناديله ومصاحفه وصفائح أبوابه (١٤٠). وتعرضت الزهراء للتدمير مرة أخرى، بعد خروج المستعين منها للمرة الثانية، عام ٤٠١هـ/١٠١١م، بعد حصار دام ثلاثة أيام، وأضطعت النيران في المسجد الجامع فيها، وكان المسجد الوحيد الذي دمر في الفتنة (١٤١). كما تعرضت الزهراء للتدمير مرة ثالثة في عام ٤١٥هـ/١٠١٥م، في عهد محمد المستنكفي الذي كان بحاجة إلى الأموال فنتطع إلى قصور الزهراء التي تضم ثروات مصارية هائلة، فافقتعت أبواب النحاس والرصاص والمرمر والأخشاب الجديدة (١٤٢). كما تعرضت الرصافة للتدمير والتخريب على يد واضح الصقبي عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، عندما أطلق يد العامة فيها فخرّبوها وقطعوا أشجارها وأحرقوها، ليحول دون دخول البربر إلى قرطبة من جهتها (١٤٣). واستمر التدمير لقرطبة، فدمر سليمان المستعين طرق المواصلات بين الزهراء وقرطبة، محاولة منه للضغط على سكان قرطبة ثم أخذ في تدمير أرباض قرطبة ففي عام ٤٠١هـ/١٠١٣م بدأ البربر أتباع سليمان المستعين في تدمير أرباض قرطبة وعاثوا فيها فساداً (١٤٤)، واستمر تدمير تلك الأرباض حتى عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م. كما تعرضت أرباض قرطبة للتدمير ومنه ربضها الغربي - بلاط مغوث - فخرّبت مهانيها ودمرت حتى هجرها سكانها (١٤٥). واستخدم سليمان المستعين، وأتباعه من البربر، التدمير العمراني للضغط على أهل

قرطبة لتسليمه المدينة، وذلك بتخريب بنائها وقطع مرافقها (١١٦). وعندما تمكن سليمان بن سعيد والبربر من دخول قرطبة، عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، أخذ في تدمير وإحراق أي منطقة تقاومهم (١١٧). واستمر تدمير قرطبة مع علي بن حمود الذي هدم دوز بعض أهل قرطبة بعد إيساعته لهم (١١٨). كما تأثرت أسواق قرطبة بالثورة، فبعد قيام محمد المهدي أخيراً، سوق السرداق (١١٩). وفي عام ٤٠١هـ/ ١٠١١م أحرق عدد من أسواق قرطبة، منها سوق الإسراجين وسوق الخشابين (١٢٠).

ولم تكن الحروب هي الدينب المؤخذ لتغيير الممراتي الذي حل بقرطبة، فقد تعرضت قرطبة، في عام ٤٠١هـ/ ١٠١١م، لفيضانات نهر الوادي الكبير والذي استمر لمدة ثلاثة أيام وكان سبباً في هدم ألفي دار وعدد من المساجد والقناطر، وهدم معها أجزاء السور الجنوبي لقرطبة (١٢١).

كما تأثرت طرقات قرطبة بالفتنة فعندما خاف محمد المهدي، عام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، من البربر قام بحفر الخنادق حول فحس السرداق، وفي أرباض قرطبة، ليحول دون تقدم البربر إلى قرطبة (١٢٢). وبعد عودة محمد المهدي لقرطبة، في خريفه الثانية، أمر ببناء سور يدور حول أرباض قرطبة جميعاً، حيث كان السور في السابق للمدينة دون أرباضها، وأحيط السور بخندق وجعل للسور ثلاثة أبواب وهي: باب عباس وباب الحديد وباب الفرج (١٢٣). ولقد تأثرت شوارع قرطبة، فخرت الشوارع من جراء التصراع داخل قرطبة، ومن حفريات الخنادق حتى تراكت أكوام التراب والحجارة على جوانب الشوارع (١٢٤). ونتيجة للتدمير فقد تراجعت مرافق قرطبة العاصمة، فتقلصت حماماتها من ٣٧١١ إلى ٧١١ حماماً (١٢٥). وأحرقت الأسواق وقتل أعداد المنازل لهدم الكثير منها (١٢٦). وقد دمرت بعض المساجد، ومنها مساجد الزاهرة والزهرراء، وتعرضت أجزاء من المسجد الجامع في قرطبة للتدمير حيث كسروا ودمروا باب مقصورة الجامع، عندما رفض القاضي ابن ذكوان إعطائهم أموال الأحياس (١٢٧). كما تحولت المنزهات الخاصة إلى منزهات عامة لجميع الطبقات، ولم تعد تلقى الاهتمام والعناية من الخلفاء كالمابق (١٢٨).

أثر الفتنة على الحياة الاقتصادية :

نتيجة للاستقرار السياسي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، اهتم خلفاء بني أمية وحجابها بالاقتصاد بأشكاله المختلفة، فزادت موارد الدولة، وسكنت العملة الذهبية وبرز أثر الاقتصاد بازدهار النواحي الحضارية المختلفة، من العمارة وغيرها، إلا أن الاقتصاد تدهور تدهوراً واضحاً، في عصر الفتنة، لعدم قدرة خلفاء الفتنة على المحافظة على أموال الدولة العامة والإسراف في العطاء في بداية الفتنة، وتحول ملكيات الدولة إلى ملكيات شخصية، واستنزاف الأموال في الحروب، ونقل أموال الأندلس إلى خارجها، وتوقف مناطق الأندلس عن إرسال الخراج السنوي إلى قرطبة،

لخروج سكانها عن طاعة خلفاء بني أمية، وإطلاق يد أتباع الخلفاء في السلب والنهب والمغارم والمصادرات التي فرضت على العامة.

وبدأ أول تأثير على الاقتصاد مع انتصار محمد المهدي؛ على عبدالرحمن شنجول وقتله عندما أسرف في العطاء لكل من تبعه، فأنضم إليه عامة أهل قرطبة من الطعام والتجار، فأخذوا عليهم العطاء (١٥٩). كما أطلق يد أتباعه في نهب ممتلكات بني عامر في الزاهرة، وشارك محمد المهدي بنهب الأموال من الزاهرة، ونقل بيت المال من الزاهرة إلى قصر الخلافة في قرطبة، وحوله إلى ملكية خاصة. وبلغ مقدار ما استولى عليه ٥ ملايين و ٥٠٠ ألف دينار فضة، ومليون و ٥٠٠ ألف دينار ذهب، ومن السدقات ٢٠٠ ألف دينار (١٦٠). كما سمح المهدي بنهب منازل بعض الخاصة من البربر فأثر ذلك على أوضاعهم الاقتصادية، ودفعهم إلى معاندة سليمان المستعين (١٦١).

ولقد استغفرت مخرات بني أمية وأموالها، وأموال الخاصة، في الحروب الدائرة على منصب الخلافة (١٦٢) وفي جمع المؤيدين كما فعل محمد المهدي عندما أعطى "واضح الصقلي" ٥٠ ألف دينار، ليوزعها على جند مدينة سبالم لينضموا إليه (١٦٣) وفي دفع الأموال للنصارى طلباً لمساعدتهم، كما فعل محمد المهدي عندما طلب العون من النصارى ضد سليمان المستعين، مقابل الكثير من الأموال، فتعهد لهرويل الثالث صاحب برشلونة ورمنجول صاحب أورخل بدفع مائة دينار لكل منهما عن كل يوم ولكل جندي من جنودهما دينارين في اليوم، طوال مساندتهم له ضد سليمان المستعين، إضافة إلى إطلاق أيديهم في الغنائم (١٦٤). وزاد تقاوص الأموال باستيلاء النصارى والبربر على الكثير من الأموال والأمتعة لأهل قرطبة، في حروبهم معهم، مثل معركة وادي آرة عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م، حيث بلغ مقدار ما استولى عليه الوزير اليهودي لملط قشتالة ٣٠ ألف مثقال علاوة على ما استولى عليه بقية الجند النصارى الذين امتلأت مناطقهم بالدراهم والدينارين (١٦٥). وبذلك أخذت أموال من قرطبة في الانتقال إلى الخارج إلى النصارى. وبلغ من قلة الأموال لدى الخلفاء، أن اضطر سكان قرطبة لجمع الأموال، إضافة إلى أموال الأجناس، لدفعها للنصارى ليخرجوا عن قرطبة (١٦٦).

ونتيجة لقلة الأموال في أيدي خلفاء بني أمية، فقد عمدوا إلى فرض المغارم والضرائب والمصادرات على سكان قرطبة، ليوفروا الأموال للإساق على الحروب والجند، ففرض محمد المهدي، عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م على سكان قرطبة المغارم والضرائب التي عرفت باسم "الفريضة" لئتمكن من تجهيز الجيوش لمحاربة البربر وسليمان المستعين (١٦٧). كما فرض هشام المؤيد، وحاجبه واضح الصقلي الكثير من المغارم على التجار عام ٤٠١هـ/١٠١١م (١٦٨). وزاد هشام المؤيد بفرض الضرائب والمغارم على سكان قرطبة وأجحف عليهم عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م (١٦٩). وكان من نتائج معارضة عامة قرطبة لسليمان المستعين، أنه فرض عليهم المغارم والضرائب، عندما دخل قرطبة عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، والتي فاقت طاقتهم، حتى إنه أغرم أحدهم، ويدعى ابن السرح، مائة ألف دينار (١٧٠). وصادر البربر، بتأييد وموافقة من سليمان المستعين،

ممتلكات وأموال عامة قرطبة حتى اضطر البعض إلى الهرب، تاركين أموالهم وديارهم، حفاظاً على أرواحهم (١٧١). وأسرف على بن حمود عام ٤٠٧هـ/١٠١٧م مع سكان قرطبة، بعد محاولة عبدالرحمن المرتضى الثورة بشرق الأندلس بتأييد من أهل قرطبة لفرض عليهم المغارم وشاظرهم أموالهم وأسلحتهم ودورهم حتى خافه الناس واضطروا إلى التخفي في الأقبية تحت الأرض (١٧٢). كما صادر على بن حمود أموال عدد ممن خدموا سليمان المستعين وسجن البعض الآخر حتى لقتلوا أنفسهم بالأموال، ومنهم أبو الحزم بن جهور، وأحمد بن برد الأكبر وغيرهما (١٧٣). وعند عودة الخلافة لبني أمية، من بني حمود، لم تتحسن أحوال سكان قرطبة المالية، بل استمروا في فرض الضرائب والمغارم، حيث فرض عبدالرحمن المستظهر المغارم على عالية القوم، من السوزراء والمشيع، لئلا حاجات الدولة ودفع مرتبات الجند ومتطلبات القصر (١٧٤). وصار ابن الغزال، وزير هشام المعتد، أموال التجار ينفق بها على البربر (١٧٥). ولعل تأثر سكان قرطبة ماليًا بالمصادرات وقلة دخلهم، من بين الأسباب التي جعلتهم يتقبلون إسقاط خلافة بني أمية، رغبة منهم في عودة أوضاعهم الاقتصادية إلى سابق عهدها.

وبلغ من قلة الأموال، في عصر الفتنة، أن توقفت مرتبات الجند في بعض الفترات، أو أن مرتباتهم لم تعد تكفي متطلباتهم، ويشير إلى ذلك ابن عذاري عن وضع الجند في عصر هشام المؤيد بقوله: " **الجند فقراء** " (١٧٦)، كما يشير ابن حزم إلى قلة موارد الدولة وأن مرتبات الجند كانت تدفع من الضرائب المفروضة على المواد الغذائية في الأسواق، من الدقيق والزيت والحب (١٧٧). وليس أدل على قلة الأموال ونفاذها عند مبايعة هشام المؤيد للمرة الثالثة، من اضطرابه إلى بيع مقتنيات قصره من الحلي الثمينة والأخاخر، وأواني الذهب والفضة والثياب، وبلغ الأمر ببيع الكتب والأدوية (١٧٨). كما لجأ محمد المستنكفي إلى تدمير قصور الزهراء وبيع ثرواتها المصارية، من أبواب النحاس والمرمر والأخشاب ليحل المشكلة المالية التي واجهته (١٧٩). وأجبر الوزير ابن الغزال، وزير هشام المعتد، كبار تجار قرطبة على شراء الرصاص والحديد المطلوب من قصور بني أمية، ليحل المشكلة المالية (١٨٠). ولم تكن الحروب وحدها هي التي أثرت على الأموال بل كان للسيول التي تعرضت لها قرطبة عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، واستمرت لمدة ثلاثة أيام أثر على الأموال، فذهب كثير من أموال سكان قرطبة وأمتعتهم في تلك السيول (١٨١).

وعلى الرغم من التدهور الاقتصادي وقلة الأموال في قرطبة، في عصر الفتنة، فقد أثرى البعض في هذه الفتنة، ومنهم الحاجب واضح الصقبي، الذي وجد معه بعد قتله عام ٤٠١هـ/١٠١٠م الكثير من الأموال، وكان عازماً على الهروب بها إلى خارج قرطبة (١٨٢)، وأثرى ابن منلو- ذي الوزارتين- أحد وزراء هشام المؤيد، في خلافته الثانية، وهرب إلى بطليوس عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، بعد أن استولى على الكثير من الأموال والأمتعة (١٨٣). وأثرى زاوي بن زيري في الفتنة، حيث استولى على الكثير من الأموال وخرج بها من الأندلس إلى المغرب، عام ٤١٦هـ/١٠١٦م (١٨٤)، كما أثرى

الوزير ابن القزّاز عندما أطلق هشام المعتد يده في الأموال (١٨٥). كما أصبح ابن باسه من أكبر الاغنياء من خلال تدميره لقصور بني أمية، ونهب كل ما تحويه تلك القصور (١٨٦).

وعلى الرغم من التدهور الاقتصادي التي شهدته قرطبة، في عصر الفتنة، فقد استمر سك العملة في الفتنة، ولعل ذلك لكون العملة شارة من شارات الخلافة، فوجدت دلائل لكل من: محمد المهدي، وسليمان المستعين، وهشام المؤيد في خلافته الثانية، وبني حمود ومحمد المستكفي وسليمان المستعين إلا أن التزييف كان ظاهراً في عملة هذه الفترة ولعل ذلك لقلة الذهب والفضة ونضبط الرقابة (١٨٧).

ولم يقف تأثير الفتنة على الاقتصاد، على قلة الأموال والمقارم، بل تعداه إلى التأثير على النشاط الاقتصادي لقرطبة، بحافة أشكاله من زراعة وصناعة وتجارة. ولقد كان للفتنة أثر سلبي على الزراعة، وذلك لانشغال الخلفاء بالصراع والحروب وإهمالهم الاهتمام بالأراضي الزراعية ولهجر بعض الزراع مناطقهم، وتركوا العمل في الزراعة وشاركوا في الحروب رغبة في الحصول على الأموال. وتعدى الأمر ذلك عندما استخدم الخلفاء التدمير الزراعي من بين أساليب الضغط على السكان، ففي عام ٤٠١هـ/ ١٠١٠م، فخرّب واضح الصقلبي مدينة الرصافة وقطع شوارعها (١٨٨)، واستخدم كل من محمد المهدي، وسليمان المستعين أسلوب التدمير الزراعي لقرطبة (١٨٩)، ولم يقف التدمير على المدن بل تعداه إلى القرى والبوادي، من ذلك استخدام البربر أسلوب التدمير من عام ٤٠١هـ/ ١٠١٠م، وحتى عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، لقرى قرطبة، فتمسكوا بزروعهم وقنوت مواشيتهم (١٩٠). وكان من سبب الضغط على القرى والبوادي، انه في عام ٤٠١هـ/ ١٠١٠م، عندما شدد سليمان المستعين والبربر الحصار قرطبة أن خرج السكان إلى السواحل والبوادي فاتجه البربر إلى تدمير تلك المناطق للضغط على السكان ومنع سكان قرطبة من الخروج عنها فخلت تلك البوادي والقرى من السكان (١٩١).

كما تأثرت الصناعة بالفتنة، فهجر الكثير من الصناع الحرفيون حرفهم، فأنضم بعضهم للجنّد، في الفتنة، في حين أن البعض الآخر هاجر من قرطبة إلى أماكن أكثر استقراراً حاملين معهم أصول صناعتهم فانتقل بذلك عدد من الصناعات، ذات الشهرة في قرطبة إلى المدن الأندلسية المختلفة. كما تأثرت الصناعة بإحراق الأسواق وتدمير المنشآت، وظهر تأثير الصناعة بإحراق الأسواق، مثل سوق السراجين والخشابين، فخلت حوائط الحرفيين من أصحابها والتي كانت مدارس لتعليم الصبيان أصول الصنعة. كما تأثرت صناعة المنسوجات بتدمير دار الطراز عام ١٠١٠م (١٩٢). ومن الصناعات التي انتقلت من قرطبة: صناعة الحرير والوشى، حيث انتقل إلى المرية (١٩٣) والتي أصبحت من أفضل مدن الأندلس بتلك الصناعة (١٩٤). كما انتقلت صناعة نسج الكتب والتفسير بعد شلت هذه الصناعة في قرطبة، إلى مدن الأندلس المختلفة، بسبب المنافسة العمية لدى ملوك الطوائف (١٩٥)، وانتقلت صناعة العاج إلى طليطلة بعد تدمير دور

صناعة العاج فهاجر بعض صناعها إلى طليطلة (١٩٦) حيث شجعهم المأمون بن ذي النون، فبرزت قوتكة (١٩٧) كمركز بارز في صناعة العاج بالأندلس (١٩٨).

وقد ظهرت صناعة الخمر، في عصر الفتنة، والتي حاول خلفاء بني أمية، في عصر قوة الخلافة، منعها والحد منها في قرطبة، وذلك عندما فكر الحكم المستنصر بقطع أشجار العنب من قرطبة لمنع صناعة الخمر والنبيذ (١٩٩). ولعل شيوخ شرب الخمر بن خلفاء الفتنة، وجنود النصاري، شجع على ظهور تلك الصناعة، والتي قيل إنها تصنع سرا (٢٠٠).

ونقد تأثرت التجارة بالفتنة نتيجة للظروف السياسية وضرب الحصار على قرطبة، وقطع المواصلات حولها (٢٠١)، فتوقفت التجارة الداخلية والخارجية بين قرطبة وبقية مناطق الأندلس وبينها وبين العالم الخارجي، ففقدت قرطبة دورها التجاري الهام، حيث أنها كانت مركزا للتبادل التجاري وكان التجار الأجانب يقدمون إليها تجاراتهم المختلفة (٢٠٢).

كما تأثرت التجارة المحلية بالفتنة، فأحرق عدد من الأسواق مثل: سوق المرداق، وسوق السراجين، والخشابين وغيرها (٢٠٣). ودمرت السيول بعض أسواق قرطبة عام ٤٠١هـ/ ١٠١١م (٢٠٤)، وتعرضت الأسواق للنهب بأمر بعض الخلفاء، كما حدث عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م عندما أمر محمد المهدي بنهيب سلاح الصليبية والفراسين (٢٠٥)، كما تأثرت التجارة عندما هجر البعض تجارتهم وانضموا إلى المهدي بثورته (٢٠٦)، وكان للخوف الذي أشاعه البربر، إقبال المستعين، أثر على حركة البيع والشراء (٢٠٧)، وبلغ الأمر بالفقهاء أن أفتوا للتجار بجواز الصلاة في حوانيتهم، حفاظاً على أملكهم من السرقة (٢٠٨)، وظهر أثر الفتنة على التجارة خلت الأسواق من الناس في خلافة علي بن حمود نتيجة لسوء معاملتهم للناس وللتجار (٢٠٩). كما تعرض التجار للمصادرات المالية من قبل الخلفاء والوزراء، كما فعل محمد المهدي والوزير ابن القزّاز وزير هشام المعتد (٢١٠). وحاول هشام المؤيد في خلافته الثانية، وحاجبه واضع الصقلي، الاستفادة من أموال التجار لمواجهة سليمان المستعين والبربر، إلا أن التجار رفضوا لتعرضهم للمصادرات وعدم توفر الأموال لديهم (٢١١)، كما فرضت الضرائب على المواد الغذائية في الأسواق (٢١٢).

وكان للاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي، والسيول والأمطار، أثر على الأسعار فعانى سكان قرطبة من الغلاء، ففي عام ٤٠١هـ/ ١٠١٠م، بلغ الأمر بارتفاع الأسعار وعجز السكان عن شراء أن أكلوا الميتة والدم (٢١٣). واستمر الغلاء في عصر سليمان المستعين وقلت المؤن في عهده (٢١٤)، وبلغ من ارتفاع الأسعار أن وصل سعر مد القمح ٣٠٠ دينار (٢١٥). وتحصنت الأسعار قليلا في بداية حكم علي بن حمود ولحسن معاملته للسكان فرخست الأسعار إلا أن ذلك لم يستمر طويلا، حيث تغيرت معاملته بعد ثورة المرتضى في شرق الأندلس، فتشدد مع السكان فتأثرت الأسعار والتجارة في عهده (٢١٦).

مما سبق يتبين أن الفتنة أثرت على الاقتصاد كثيراً، فبعد الازدهار الاقتصادي والثراء في عصر الخلافة، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي حدثت الفتنة في أوج ثراء بني أمية بعثر خنفاء الفتنة تلك الأموال وانفقت على الحروب، ومحاولة جمع المؤيدين والأتباع داخل قرطبة وخارجها. كما تدهور النشاط الاقتصادي في قرطبة بالنواحي المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة.

أثر الفتنة على الحياة الاجتماعية .

كان المجتمع القرطبي، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، يتكون من عدد من الأعراق وهم: العرب والبربر والموندون والصقالبة. في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بدأ العرب والبربر الداخلون إلى الأندلس مع الفتح بالتمازج مع الموندون مكونين ما عرف بالأندلسيين. على الرغم من محافظة بعض العرب على أصولهم (٢١٧). وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بدأ أعداد من البربر في الدخول إلى الأندلس بأمر من الحكم المستنصر، والمنصور بن أبي عامر الذي اعتمد عليهم في الجيش، وقد حافظ هؤلاء الوافدون حديثاً على الأندلس - على أصولهم ونعوا دوراً سياسياً وعسكرياً (٢١٨). كما دخل أعداد من الصقالبة إلى الأندلس مع المنصور بن أبي عامر، عندما أراد تغير - صقالبة بني أمية - حتى إنهم أصبحوا يعرفون بالفتيان العامرين، وقد بلغ عددهم ثلاثة عشر ألف وسبعمئة وخمسين (١٣٧٥) (٢١٩). ونظراً لأن البربر والصقالبة كانوا ساعدي بني عامر، فقد تساءلوا بالفتنة .

وعند قيام الفتنة في قرطبة، شاركت جميع الأعراق فيها، وكان لهذه المشاركة أثر على التركيبة الاجتماعية، فعندما وصل محمد المهدي إلى الخلافة، تعصف مع الصقالبة وأمرهم بالخروج عن قرطبة، ففقدوا النزوح إلى مناطق شرقي الأندلس المختلفة، وتمكنوا من تأسيس مناطق لحكمهم هناك، مثل مجاهد العامري الذي اتجه إلى دانية (٢٢٠) وتمكن من تأسيس حكم هناك. وأسس خيران حكم في المريسة والجزائر الشرقية، واتجه مبارك إلى بنمسة مؤسساً حكماً هناك (٢٢١). إلا أن هذا لا يعني خروج جميع الصقالبة، بل خرج جثهم وبقي البعض، بدليل تأييد واضح الصقالبي لـ هشام المؤيد، وأن علي بن حمود قتل على يد جنوده من الصقالبة (٢٢٢). كما أساء محمد المهدي إلى البربر الذين قرروا المحافظة على مكانتهم العسكرية والسياسية في قرطبة، فأتجهوا إلى تأييد سليمان المستعين فأبدوه وتجهوا في إبعاله إلى الخلافة، فزاد المستعين من البربر، واستقدام أعداد منهم من المغرب. وعندما نجح سليمان في القضاء على هشام المؤيد، وأراد الأفراد بالحكم في قرطبة أقطع قبائل البربر مناطق جنوب وجنوب غرب الأندلس (٢٢٣) وأخرجهم بذلك عن قرطبة، وبذلك أعطاهم فرصة للسيطرة على مناطق في الأندلس، وتأسيس حكم لهم هناك. وعلى الرغم من استقرار

جل البربر في الأندلس، إلا أن البعض فرروا العودة إلى المغرب، مثل زاوي بن مناد
 تلمسانجي الذي خرج إلى المغرب عام ٤١٦هـ/ ١٠١٦م، حاملاً معه أهله وماله (٢٢٤).
 لقد أثرت الفتنة على التركيبة الاجتماعية، حيث خرج أعداد كبيرة من سكان
 قرطبة إلى خارجها، وكان ذلك الخروج إما بأمر من الخلفاء، كما حدث مع الصقالبة
 الذين أخرجهم محمد المهدي، أو البربر الذين أخرجهم سليمان المستعين بإقسطاعهم
 مناطق جنوب وجنوب غرب الأندلس، أو هرباً من قبل بعض السكان أنفسهم، للمحافظة
 على أرواحهم، سواء أكانوا من مؤيدي الخلفاء السابقين، مثل بني حزم الذين خرجوا
 إلى شرق الأندلس بعد اضطهاد المستعين لهم (٢٢٥). وكما فعل الوزير أبو عامر بن
 شهيد (٢٢٦)، أو من العلماء أو العامة ممن رغبوا في المحافظة على أرواحهم وعقولهم.
 ونتيجة لقلّة أعداد السكان في قرطبة لهجرة البعض إلى خارجها، زاد سكان بعض مدن
 الأندلس، كما حدث في المرية التي زاد سكانها لتقوم الفارين إليها من قرطبة
 وغيرها (٢٢٧). ولم يكن النفي أو الهجرة من قرطبة لدخول الأندلس وخارجها هو السبب
 الوحيد لقلّة سكان قرطبة، بل كانت الحروب من الأسباب التي أدت إلى قتل أعداد كبيرة
 من سكان قرطبة، فقد قيل إن عدد من قتل في كل من معركة: عقبة البقر، وقتشيش،
 يتراوح بين ٢٠ ألفاً و ٣٥ ألفاً (٢٢٨)، وعلى الرغم مما في هذا العدد من مبالغة إلا أن له
 دلالة على كثرة القتلى. واستمر القتل طوال عصر الفتنة حيث قتل البربر أعداداً كثيرة
 من سكان قرطبة، عندما نجحوا في السيطرة عليها عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م (٢٢٩). كما
 أساء على بن حمود، عام ٤٠٧هـ/ ١٠١٧م، إلى سكان قرطبة بعد شورة المرتضى،
 لقتل أعداداً كبيرة من السكان وعزم على إبادةهم وإخلائها من السكان (٢٣٠). وبلغ من
 كثرة القتل أن الناس قتلوا في المسجد الجامع، في عهد عبدالرحمن المستظهر (٢٣١).
 وكانت السيول من أسباب قلّة السكان فغرق في النيل الذي تعرضت له قرطبة عام
 ٤٠١هـ/ ١٠١٠م، خمسة آلاف شخص (٢٣٢)، وتناقصت أعداد من سكان قرطبة بسبب
 الأمراض والأوبئة، مثل الطاعون الذي تعرضت له قرطبة عام ٤٠١هـ/ ١٠١٠م (٢٣٣).
 وكما كان الجوع وقلّة الغذاء من الأسباب التي أدت إلى موت أعداد من سكان
 قرطبة (٢٣٤)، ولعل السبب من أسباب قلّة السكان، حيث سبى النصارى أعداداً من سكان
 قرطبة، وخاصة النساء، وبلغ الأمر أن سببت حرم الخلفاء، كما حدث مع حرم
 عبدالرحمن بن هشام الملقب بالظافر بالله (٢٣٥). وكان لهذه الأسباب مجتمعة أثر على
 أعداد سكان قرطبة، فلم يبق منهم إلا أعداداً قليلة (٢٣٦). وفي الوقت الذي خرج فيه
 الكثير من السكان إلى قرطبة قدم بعض الأعراق إليها من السودان الذين اعتمد عليهم
 بنو حمود وجعلوهم جنداً لهم (٢٣٧). كما دخل أعداد من النصارى إلى قرطبة، سواء
 أكانوا من مملكة قشتالة أو أرجون أو برشلونة (٢٣٨). ونتيجة للفتنة، فقد خست بعض
 المناطق من السكان فأخذ الناس يتنقلون من منطقة إلى منطقة أخرى بحثاً عن مناطق
 أكثر أمناً، كما حدث مع آل حزم الذين انتقلوا إلى بلاط مغيث في الربض الغربي في عام

٣٩٩هـ/١٠٠٩م، بعد أن خرب الجانب الشرقي من الزاهرة (٢٢٩)، ثم دمر كل من بلاط مغيث والرسافة وخلت من السكان (٢٤٠).

ومن الآثار الاجتماعية للفتنة: قلة الأمن فكثر السلب والنهب، وتعرضت منازل الخاصة للنهب في الرسافة وقرطبة، مثل منازل بني زيري، وبني حزم (٢٤١). وبلغ من قلة الأمن وانتشار الخوف أن قتل كل من خرج منفرداً، وبلغ الخوف في سكان قرطبة في عصر علي بن حمود أن اختفوا في الإنفاق في باطن الأرض (٢٤٢). ونتيجة لقلة الأمن كثر المسي وبغ الأحرار، وفقد البعض حرياتهم وهتكت الأعراض (٢٤٣). وبلغ من شدة الخوف وانتشار العصابات أن تأخر دفن الأموات إلى ثلاثة أيام، وكان بعض الموتى يدفنون دون تصيد أو تكفين أو صلاة، وبلغ الأمر أن دفن البعض قرب منازلهم وليس في المقابر وامتنع السكان عن أداء صلاة الجنائز (٢٤٤). كما جمعوا بين صلتي المغرب والعشاء (٢٤٥).

كما أثرت الفتنة على مظاهر الحياة الاجتماعية العامة، فقلل الزواج نتيجة للخوف وقلة الأموال، وقتل الشباب والشيوخ (٢٤٦)، واشتقت النساء عن الاهتمام بالزينة والتي جهلت المرأة عليها، فأصبحت المرأة تبدو أكبر من سنها (٢٤٧). وتوقفت الاحتفالات بالأعياد فتوقف الاحتفال بآخر رمضان وبعيد الفطر، ولم يخرج الناس إلى المصلى خارج قرطبة، واكتفوا بأدائها في المسجد الجامع (٢٤٨). ومن آثار الفتنة انتشار الخمر والفجور والزنا واللواط والمعازف والغناء، وكان شرب الخمر منتشرًا بين خلفاء الفتنة، فكان لمحمد المهدي مائة خابية من الخمر ومائة بوق للزمر، ومائة عود للعزف، وكان له فتى صقلياً يشقه، وكان مجاهرًا بالسق وشرب الخمر والزنا حتى تعرض الشعراء لسيرته (٢٤٩). وانفس محمد المستكفي بالشهوة والنساء والضرب، وبلغ الأمر أن لبس ثياب المغنيات عندما أراد الهرب من قرطبة (٢٥٠)، وانفس هشام المعتد بالنساء والشرب والمنهيات، بتدبير من الوزير ابن القزاز ليشفقه عن الحكم (٢٥١). ولم يكن سوء الأخلاق قاصراً على طبقة الخاصة من الخلفاء وجلسائهم، بل أصبح ظاهرة في قرطبة في عصر الفتنة (٢٥٢). وأشار ابن بسام إلى أن تأثير الفتنة وصل حتى الغناء والملاهي فقد قتل في الفتنة قنبوط الملهي وزريوط المغربي (الطنبوري) (٢٥٣).

ومن آثار الفتنة ظهور المناولين للإسلام من النصاري، ومجاهرتهم بسب الدين وسب الرسول صلى الله عليه وسلم، وحدث في عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م أن قُتل رجل نصراني في أعظم شوارع قرطبة، وسب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يوجد من ينكر عليه أو يمتنع من فعله (٢٥٤) وكان النصاري إذا سمعوا الأذان يتلفظون بكلام بسئ ولا يعترض عليه أحد بشيء (٢٥٥).

ومن الآثار الاجتماعية للفتنة: زيادة الفوارق المادية في المجتمع، ففي الوقت الذي أثرى فيه البعض من الوزراء والخاصة، المقربين للخلفاء، عانى جل السكان من الفقر والمصادرات والجوع، حتى اضطروا إلى أكل الميتة والسرقه لسد الجوع (٢٥٦).

كما أثرت الفتنة على المهن الحرفية، فهجر أصحاب الحرف مهنتهم وانضموا إلى الجيش، رغبة في تحسين أوضاعهم المالية (٢٥٧).
 مما سبق يتبين أن للفتنة أثراً على الحياة الاجتماعية، فقد تغيرت التركيبة الاجتماعية بخروج عدد من الأعراف من قرطبة، وقل عدد السكان لأسباب متعددة، وانتشر الكثير من العادات السيئة، وظهرت الفوارق المالية بين السكان، وهجرت بعض الحرف .

أثر الفتنة على الحياة العلمية :

كانت قرطبة المركز العلمي الأوحده، دون منافسة، في الأندلس في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، نتيجة لجهود خلفاء بني أمية، وخاصة الحكم المستنصر الذي قام بجهود كثيرة لتشجيع العلم والعطاء، فأصبحت لقرطبة مكانة علمية متميزة في الأندلس خاصة وفي العالم الإسلامي عامة، وقدم إليها الراحلون لطلب العلم من داخل الأندلس وخارجها (٢٥٨). [لا أن هذه المكانة العلمية المتميزة لقرطبة تأثرت بالفتنة، نتيجة للاضطرابات السياسية وكثرة الحروب وقلة الأمن والتدهور الاقتصادي، حيث إن الاستقرار السياسي وما يترتب عليه من الأمن والرفاهية الاقتصادية، مطلبان أساسيان لازدهار العلم. ولم يول خلفاء الفتنة أي اهتمام للعلم أو العطاء، على الرغم من أن بعض خلفاء الفتنة كانوا شعراء وأدباء مثل سليمان المستعين، وعبد الرحمن المستظهر (٢٥٩) لا تشغاهم بالصراع السياسي. ولم يكتف بعض الخلفاء بإهمال العلم والعطاء بل تعدوا ذلك إلى اضطهاد العلماء، فقتل بعض العلماء بأمر الخلفاء، أو في الحروب والمعارك التي شاركوا فيها، وسجن البعض وصودرت أموالهم ونفسي البعض الآخر (٢٦٠) واضطر البعض إلى الهرب والخروج من قرطبة بحثاً عن أماكن أكثر أمناً واستقراراً، كما توقفت عطايا الشعراء الذين كانوا يتكسبون بالمدح، مما دفعهم للخروج عن قرطبة بحثاً عن الأمن والعطاء (٢٦١).

لقد أثرت الفتنة على أعداد العلماء، فتناقصت أعدادهم تناقصاً واضحاً، نتيجة لقتلهم أو هجرتهم، وقتل الكثير في معركة قشتش، مثل أحمد بن مطرف بن هاني المكتوب (٢٦٢)، وسعيد بن سعد بن أبي سعيد (٢٦٣)، وعمر بن عثمان بن خطاب بن بشر (٢٦٤)، ومحمد بن عبد السلام الأديب (٢٦٥). ويبلغ من تأثير معركة قشتش على التعليم " وأعريت سفانهم في غداة واحدة منهم وتعلل صبيانهم لعدمهم (٢٦٦)" وقتل أعداد من العلماء في معركة عقبة البقر، مثل سليمان بن هشام ابن الوليد بن كليب العمري (٢٦٧)، وعبد الله بن أحمد بن قند النغوي (٢٦٨)، ومحمد بن أحمد بن يحيى المعروف بابن الفصائل (٢٦٩)، وقتل الكثير من العلماء على يد البربر عند دخولهم قرطبة، مثل أبي الوليد ابن الفريسي (٢٧٠)، وأحمد بن محمد بن مسعود (٢٧١)، وخلف بن مسلمة بن سليمان ابن خميس (٢٧٢)، وسعيد بن منذر بن سعيد البلوطي (٢٧٣)، ومحمد بن سعيد

السري الأموي (٢٧٤)، وحمد بن قاسم بن محمد الأموي (٢٧٥)، وعبدالله بن حسين بن إبراهيم بن حسين بن عاصم (٢٧٦). ومات بعض العلماء في الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها قرطبة مثل احمد بن محمد بن احمد بن سعيد بن الجباب بن الجسور (٢٧٧)، وعمر بن حسين بن محمد بن ثابت الأموي (٢٧٨). وهاجر عدد من علماء قرطبة إلى داخل الأندلس وخارجها، بحثا عن مناطق أكثر استقرارا، فأتجهوا إلى إحدى المدن واستقروا بها، وتنقل البعض بين عدد من المدن بحثا عن أفضل مكان (٢٧٩)، وخرج عدد من العلماء من قرطبة هربا من الاضطهاد وسوء المعاملة التي لحقت بهم، مثل علي بن احمد بن سعيد بن حزم حيث تعرضت دورهم للنهب، وسجن فترة من الزمن (٢٨٠)، وكذلك الحال مع أبي عامر احمد بن عبد الملك بن شهيد، الذي سعى به للمعتلي، يحي بن حمود، فسجنه وخرج من قرطبة بعد سوء معاملة هشام المعتد ووليه ابن القزازل (٢٨١)، وخرج راشد بن إبراهيم بن عبدالله بن راشد فارأ من سوء معاملة البربر (٢٨٢)، وكذلك الحال مع أبي عبدالله محمد بن يحي بن الحذاء (٢٨٣)، وخرج محمد بن عمر بن يوسف المالكي لخوفه من البربر (٢٨٤).

ولم يقتصر تأثير الفتنة على العلماء أنفسهم الذين تعرضوا للقتل أو السجن والمصادرة والهجرة، فتعطلت مجالس العلم، وترك تعليم الصبيان، بل تعداه إلى الكتب والمؤلفات فكانت قرطبة تضم عددا من المكتبات العامة والخاصة، ومن أبرزها مكتبة الخليفة الحكم المستنصر، ومكتبة الجامع بقرطبة ومن المكتبات العلماء الخاصة: مكتبة القاضي عبدالرحمن بن فطيس، وعائشة بنت احمد بن محمد بن قادم (٢٨٥)، وتأثرت تلك المكتبات بالفتنة فنهبت الكتب وبيع بعضها، ونقل بعضها الآخر إلى داخل الأندلس وخارجها من المغرب والشرق، وأحرق البعض (٢٨٦)، وكانت حاجة الخلفاء للأموال سببا في بيع الكتب والمؤلفات من مكتبات بني أمية، كما فعل هشام المؤيد (٢٨٧)، وبذلك تراجعت مكانة قرطبة العلمية تراجعا واضحا، نتيجة التدهور السياسي وإهمال الخلفاء للعلم، وقلة أعداد العلماء لقتلهم أو لهجرتهم، كما فقدت الكتب والمؤلفات فتوقفت الرحلة العلمية إلى قرطبة، بعدما كانت هي الوجهة الأولى للعلماء. ونتيجة للتراجع العلمي لقرطبة وهجرة كثير من علمائها إلى مناطق الأندلس المختلفة برزت مراكز علمية في الأندلس لترحب حكام تلك المناطق بالقدامين إليهم من العلماء وتوفير الجو المناسب لنشر علمهم، فتعددت المراكز العلمية وتنوعت العلوم التي اشتهرت بها تلك المناطق تبعاً لرغبة الحكام، فبرزت دانية بالعلوم الدينية والفقه، وطرطوشة في القراءات، وإشبيلية في الأدب والشعر، وطليطلة وسرقسطة في العلوم العلمية (٢٨٨).

مما سبق يتبين أن الفتنة أثرت على الحياة العلمية في قرطبة، ففقدت مركزها العلمي الرائد في الأندلس، ودمرت مكتباتها، وأتلفت الكتب وأخرجت من قرطبة، وقل علماءها بقتلهم أو بهجرتهم، وتوقفت الرحلة إليها، وبرزت مراكز علمية منافسة لها في الأندلس.

الخلاصة :

حدثت فترة قرطبة في الفترة من ٢٦٦هـ/١٠٠٩م إلى ٤٢٢هـ/١٠٣١م، وكان السبب المباشر لهذه الفترة هو معارضة عامة قرطبة تعيين عبد الرحمن شسجول ولياً لعهد هشام المؤيد، لأن ذلك يعني انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني عاصم، فشهدت قرطبة سلسلة من الحروب، والتي تدخل فيها عامة أهل قرطبة والبربر، وكان الصراع منصباً على منصب الخلافة ومنحصرأ في قرطبة. وتولى خلال هذه الفترة تسعة خلفاء، تولى أربعة منهم مرتين.

حدثت الفترة في فترة كانت قرطبة في أوج استقرارها السياسي داخلياً وخارجياً، وازدهارها الحضاري في كافة مجالاته، فأثرت الفترة على الحياة العامة في قرطبة. فبعد النظر في أثر الفترة على الناحية السياسية داخل الأندلس وخارجها، تبين أن أبرز آثارها في داخل الأندلس هو: إسقاط خلافة بني أمية بالأندلس، بعد أن دام حكمهم قرابة ثلاثة قرون وفقدت الأندلس وحدتها وبدأ عصر التشردم وملوك الطوائف. وكما أثرت الفترة على حدود الدولة فقدت الأندلس سيطرتها على الجزء الغربي من بلاد المغرب، ونجح النصارى في الشمال باقتطاع العديد من المناطق، وبدأت حركة الاسترداد النصراني في التقدم. كما أثرت الفترة على الإدارة، سواء أكانت مناصب مدنية أو دينية فاختفى منصب ولاية العهد والحجابة، وكان تأييد الخليفة هو السبب الرئيس للوصول إلى الوزارة، مما كان سبباً في وصول أشخاص غير مؤهلين لهذا المنصب. وتأثر الجيش بالفترة فأبدت القيادات العسكرية السابقة، وأصبح العامة هم الجند، ولم تكن لهم خبرة عسكرية. وتأثر منصب القضاء بالفترة، فقد القاضي مكانته المتميزة، وانغمس للقضاء بالسياسة، وعطل منصب القضاء في بعض الفترات.

كما تأثرت العمارة بالفترة، فدمرت مناطق بأكملها، مثل الزاهرة، أو أجزاء كبيرة منها مثل الزهراء والرسافة، ووصل التدمير للقصور والمنال والمساجد، وقطعت المواصلات بين مدن قرطبة المختلفة، وخربت الشوارع، وحفرت الأنفاق والخنادق، وأقيمت الأسوار حول قرطبة وأرباضها المختلفة. كما أثرت الفترة على الاقتصاد، فقلت الموارد المالية للدولة واستنفد الخلفاء مخدرات بني أمية، حتى اضطروا إلى المصادرات والمقارم وبيع الممتلكات لسد حاجاتهم وتوفير المال. وتأثرت الحياة الاقتصادية بأشكالها المختلفة فتدهورت الزراعة وتوقفت التجارة الداخلية والخارجية، واضطربت التجارة المحلية، وتأثرت الصناعة بانقراض عدد من صناعات قرطبة إلى مناطق الأندلس المختلفة، حاملين معهم صناعاتهم فبرزت مراكز صناعية جديدة في الأندلس، مثل المرية التي اشتهرت بصناعة الحرير والوشى. كما أثرت الفترة على الحياة الاجتماعية، فتغيرت التركيبة الاجتماعية بخروج البعض مثل الصقالبة، وقدم عناصر جديدة مثل البربر الذين قدموا من المغرب والسودان. وقُل عدد سكان قرطبة لكثرة القتل والهجرة منها. وتأثرت العادات الاجتماعية فانتشر الفساد وقُل الزواج، وتعطلت بعض الاحتفالات، وساد الخوف، وزادت الفوارق المالية بين السكان. كما أثرت الفترة على الحياة العلمية،

لُفقدت قرطبة مركزها العلمي الرائد في الأندلس، ودمرت مكتباتها وأتلفت وأحرقت، وأخرجت بعض الكتب من قرطبة، وقتل علماء قرطبة بقتلهم أو هجرتهم داخل الأندلس وخارجها، وتوقفت الرحلة العلمية إلى قرطبة، وبرزت مراكز علمية منافسة لقرطبة، لخروج علماء قرطبة لتلك المناطق، مثل دانية، إشبيلية، طليطلة، سرقسطة .. وغيرها.



ملحق رقم (١)
خلفاء الفتنة وفترات حكمهم

الخلافة	فترة حكمه
١ محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدي	١٧ جمادى الآخرة ٣٩٩هـ / فبراير ١٠٠٩م إلى ١٣ ربيع الأول ٤٠٠هـ / نوفمبر ١٠٠٩م (خلافته الأولى)
٢ سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمستعين بالله	١٥ ربيع الأول ٤٠٠هـ / ٧ نوفمبر ١٠٠٩م إلى شوال ٤٠٠هـ / مايو ١٠١٠م (خلافته الأولى).
٣ محمد بن هشام المهدي	شوال ٤٠٠هـ / مايو ١٠١٠م إلى ذي الحجة ٤٠٠هـ / يوليو ١٠١٠م (خلافته الثانية).
٤ هشام بن الحكم المؤيد بالله	شوال ٤٠٠هـ / يوليو ١٠١٠م إلى ٢٧ شوال ٤٠٠هـ / مايو ١٠١٣م (خلافته الثانية)
٥ سليمان بن الحكم المستعين بالله	٢٧ شوال ٤٠٣هـ / مايو ١٠١٣م إلى ٢٢ محرم ٤٠٧هـ / يوليو ١٠١٦م (خلافته الثانية)
٦ علي بن حمود بن ميمون بن حمود الحسني المعروف بالناصر	٢٢ محرم ٤٠٧هـ / ١٦ أيار ١٠١٦م إلى ذي القعدة ٤٠٨هـ / مارس ١٠١٨م (خلافته الثانية)
٧ القاسم بن حمود بن ميمون بن حمود الحسني المعروف بالمأمون	٨ ذي القعدة ٤٠٨هـ / مارس ١٠١٨م إلى ٢٣ ربيع الأول ٤١٢هـ / أغسطس ١٠٢٢م
٨ يحيى بن علي بن حمود الحسني المعروف بالمعتي بالله	جمادى الأول ٤١٢هـ / ١٠٢٢م إلى ذي القعدة ٤١٣هـ / فبراير ١٠٢٣م
٩ القاسم بن حمود الحسني المعروف بالمأمون	ذي القعدة ٤١٣هـ / فبراير ١٠٢٣م إلى جمادى الثاني ٤١٤هـ / سبتمبر ١٠٢٣م
١٠ عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر المعروف بالمستظهر بالله	١٦ رمضان ٤١٤هـ / يناير ١٠٢٤م إلى ٤ ذي القعدة ٤١٤هـ / يناير ١٠٢٤م
١١ محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر المعروف بالمستنكى بالله	٣ ذي القعدة ٤١٤هـ / يناير ١٠٢٤م إلى ٢٥ ربيع الأول ٤١٦هـ / مايو ١٠٢٥م
١٢ يحيى بن علي بن حمود الحسني المعتي بالله	٢٥ ربيع الأول ٤١٦هـ / مايو ١٠٢٥م إلى ١٠٢٥هـ / مارس ١٠٢٦م
١٣ هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر المعروف بالمعتد بالله	٢٥ ربيع الأول ٤١٨هـ / يونيو ١٠٢٧م إلى ٤ ذي القعدة ٤٢٢هـ / نوفمبر ١٠٣١م

- انظر ابن عذاري ، ابن الخطيب ، النووي ، المقري .



ملحق رقم (٢)

علماء قرطبة الخارجين منها إلى داخل الأندلس وخارجها

المنطقة	الذي توجه	المصدر	اسم العلم	م
إشبيلية	إشبيلية	ابن بسلام، ج ١، ص ١٨٣	أبو أمية بن هشام	١
إشبيلية	إشبيلية	ابن بشكوال، ج ١، ص ٦١	أحمد بن محمد بن هشام الأندلسي	٢
إشبيلية	إشبيلية	عياض، ج ٨، ص ٢٢، ابن بشكوال، ج ١، ص ٦٢	أحمد بن إبراهيم بن أبي سليمان الغافقي	٣
إشبيلية	إشبيلية	ابن بشكوال، ج ١، ص ٦٥-٦٦	أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج بن عيسى اللخمي	٤
إشبيلية	إشبيلية	عياض، ج ٨، ص ٩، ابن بشكوال، ج ١، ص ٧٥-٧٦	أحمد بن عفيف بن عبد الله بن مريول الأموي	٥
إشبيلية	إشبيلية	ابن بشكوال، ج ١، ص ٩٧-٩٨	أحمد بن خلف بن عبد الله اللخمي	٦
إشبيلية	إشبيلية	المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٢	أحمد بن يحيى بن أحمد بن واسل	٧
إشبيلية	إشبيلية	المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٤	أحمد بن عبد الله بن مفرج الأموي	٨
إشبيلية	إشبيلية	المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٠	أسماعيل بن زويد بن محمد الأندلسي	٩
إشبيلية	إشبيلية	المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٧	أحمد بن كصيب بن أحمد الأندلسي	١٠
إشبيلية	إشبيلية	المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٩-٢٤٠	أحمد بن ملز بن سعيد بن عبد الله	١١
إشبيلية	إشبيلية	عياض، ج ٧، ص ٢٩٨، ابن بشكوال، ج ١، ص ٢٥١	حماد بن حمار بن هشام الزاهر	١٢
إشبيلية	إشبيلية	ابن بشكوال، ج ١، ص ٢٦٣	خلف بن سعيد بن أحمد بن محمد الأزدي	١٣
إشبيلية	إشبيلية	المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧١، الذهبي، ص ٦٢٥-٦٢٦	خلف بن مروان بن أحمد التميمي	١٤
إشبيلية	إشبيلية	ابن بشكوال، ج ١، ص ٢٧١-٢٧٢	خلف بن محمد بن باز القيسي	١٥
إشبيلية	إشبيلية	ابن بشكوال، ج ١، ص ٢٦٥، الذهبي، ج ٦، ص ٥٧٨	خلف بن حصن بن عتي الطائي	١٦
إشبيلية	إشبيلية	ابن بشكوال، ج ١، ص ٢٦٧-٢٦٨	خلف مولى جعفر الفتي	١٧
إشبيلية	إشبيلية	المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١٥	سليمان بن محمد المعروف بابن الشيوخ	١٨
إشبيلية	إشبيلية	عياض، ج ٨، ص ١٥	سليمان بن بوطر بن سليمان بن ربيع	١٩



م	اسم المؤلف	المنطقة التي توجه إليها	المصدر
٢٠	سلمة بن سعيد بن سلمة بن حفص الأنصاري	إشبيلية	ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٥١-٢٥٠
٢١	سراج بن سراج بن محمد	سرقسطة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥٣
٢٢	عبدالله بن عمر بن عبدالله بن عمر القرشي	سرقسطة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٠٦
٢٣	عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المغزومي	البيرة	عياض ، ج ٧ ، ص ٢٨ - ٢٨٥ ، ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٠٠
٢٤	عبد الرحمن بن مخلد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد	طليطلة	ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٨٨-٤٨٩
٢٥	عبد الرحمن بن أحمد بن نصر بن خالد القرشي	إشبيلية	ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٥٢٧
٢٦	عبد الوهاب بن أحمد بن سعيد بن هزم	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٥٥
٢٧	عامر بن إبراهيم بن عامر بن عروس الحميري	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٢٤
٢٨	الثوب بن أحمد بن هريش الحميري	المرية	عياض ، ج ٨ ، ص ١٢ ، المخني ، ص ٤٣٩
٢٩	محمد بن نعان الفسائي	مألفة	ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧٢٤
٣٠	محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد التميمي	الثغر الأعلى	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٤١ - ٧٤٣
٣١	محمد بن يوسف بن محمد الأموي	الثغر الأعلى	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٦١
٣٢	محمد بن عبدالله بن مزين	إشبيلية	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٦٧
٣٣	محمد بن عبد الرحمن بن عيسى الحجري	إشبيلية	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٧٠
٣٤	محمد بن عيسى بن محمد الأموي	إشبيلية	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٨٣ - ٧٨٤
٣٥	محمد بن عبد الرحمن بن يحيى القرشي	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٨٠ - ٧٨١
٣٦	وليد بن عبدالله بن عباس الأصبهي	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٢٩
٣٧	محمد بن عبدالله بن أحمد البكري	مرسية	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٧٠-٧٧١
٣٨	يحيى بن سعيد بن يحيى بن بكر الرصافي	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٥٧ -

م	اسم المؤلف	المبطلقة التي توجه إليها	المصدر
٢٩	إسحاق بن الحسن	سرقسطة	ابن الأثير : <u>الصلة</u> ، ج ١ ، ص ١٢٦
٤٠	أصبع بن محمد بن أصبغ بن السمع	خرناطة	المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٤
٤١	عبد الرحمن بن غلبون	بلنسية	ابن الأثير : <u>الصلة</u> ، ج ٢ ، ص ٢٨٤
٤٢	عبد الرحمن بن أحمد بن مثنى	بلنسية	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨٥
٤٣	محمد بن سعيد التكراتي	بلنسية	الضبي ، ص ٧٠ ، ابن الأثير :
			<u>المثبطل</u> ، ص ٢٠١-٢٠٢
٤٤	يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد القير	شاذلية	أحمد ، ج ٥ ، ص ٥٨٦-٥٨٨ ، الضبي ، ص ٤٧٤-٤٧٦
٤٥	سعيد بن فارس السلمي	أشبيلية	أذهبي ، ج ٢ ، ص ٦١١
٤٦	أحمد بن محمد بن أحمد الأديب	تنقل بين أشبيلية والمرية	ابن بشير كوال ، ج ١ ، ص ٦٩
٤٧	أحمد بن مطرف	تنقل بين المرية وميورقة	المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧١ ، الذهبي ، ج ٢ ، ص ٥٨١-٥٨٢
٤٨	أحمد بن حمد بن عبد الله بن أبي هومي	تنقل بين المرية ومرسية وسرقسطة	عباس ، ج ٨ ، ص ٣٣-٣٢ ، ابن بشير كوال ، ج ١ ، ص ٨٣-٨٥
٤٩	تمام بن غالب بن عمر التغوي	تنقل بين مرسية والمرية	ابن بشير كوال ، ج ١ ، ص ٢٠٠-٢٠١
٥٠	عثمان بن سعيد الأموي	تنقل بين سرقسطة و دانية	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٩٢-٥٩٣ ، أذهبي ، ج ٢ ، ص ٦١٧
٥١	محمد بن معالي بن جميل	طزولطة وسرقسطة	ابن بشير كوال ، ج ١ ، ص ٣٥١-٣٥٠
٥٢	هشام بن غالب بن هشام الخافقي	خرناطة وأشبيلية	المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٣٧

المصدر	المنطقة التي توجّه إليها	اسم العبد المملوك	م
ابن الأثير :	بلنسية والمرية	حسن بن عبدالعزيز بن حسن بن أبي عبة	٥٣
الخصلة ، ج ١ ، ص ١٧٥	القران	أحمد بن خصيب الأنصاري	٥٤
ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ١٠٥	صقلية	صاعد بن الحسن بن عيسى قرقي	٥٥
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٧١	العدوة	محمد بن عبدالله بن نصر بن أبيض الأموي	٥٦
المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٤٦-٧٤٥	بونة في إفريقيا	مروان الأسدي القحطاني	٥٧
المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٨٩-٨٨٨	مكة	مفرج بن عبدالله المالكي	٥٨
المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٩٢	مكة	أحمد بن عباس بن أسبع بن عبد العزيز	٥٩
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧٣	تشيلية	أحمد بن همداني	٦٠
— ٧٤	المشرق	أحمد بن همدان بن غالب بن حزم	٦١
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨٠	تشيليا	أحمد بن محمد بن عيسى بن أسباعيل	٦٢
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨١	طبرنة	أحمد بن محمد بن عيسى بن أسباعيل	٦٣
— ٨٢	تشيلية	أحمد بن محمد بن عيسى بن أسباعيل	٦٤
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨٥-٨٦	سرقطة	أحمد بن يحيى بن أحمد بن واصل	٦٥
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٧ ، ١٠٢	المرية	أحمد بن الحسين بن يحيى بن عبد الملك	٦٦
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٠-١١١	داخل الأندلس دون تحديد مدينة	أحمد بن محمد بن يحيى بن محمد	٦٧
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٠-١١١	غرب الأندلس	أحمد بن محمد بن يحيى بن محمد	٦٨
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٩	الحجاز	أحمد بن محمد بن يحيى بن محمد	٦٩
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٠	مالقة	أحمد بن محمد بن يحيى بن محمد	٧٠
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥١	التغر	أحمد بن محمد بن يحيى بن محمد	٧١
— ٢٥١ ، حياض ج ٨	تشيلية	أحمد بن محمد بن يحيى بن محمد	٧٢
— ٢٥١ ، حياض ج ٨	سرقطة - دانية	أحمد بن محمد بن يحيى بن محمد	٧٣
— ٢٥٩ ، حياض ج ٨	سرقطة - دانية	أحمد بن محمد بن يحيى بن محمد	٧٤

- ٧٥ عبيد الله بن مسلمة بن حزم اليحصبي
 ٧٦ عبد الملك بن احمد بن محمد بن عبد الملك
 ٧٧ بن الاصمغ
 ٧٨ عثمان بن سعيد الاموي القزويني
 ٧٩ علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال
 ٨٠ محمد بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد
 ٨١ الخولاني
 ٨٢ محمد بن همر بن يوسف المالكي
 ٨٣ محمد بن فتحون بن مكرم التنجيني
 ٨٤ محمد بن عبد الله بن احمد البكري
 ٨٥ هشام بن ثابت بن هشام الخافقي
 ٨٦ يحيى بن احمد بن محمد بن عبد الله
 التميمي
 ٨٧ ابراهيم بن محمد بن احمد بن عبيد الله
 ٨٨ اصمغ بن محمد بن اصمغ بن السمع
 المهري
 ٨٩ اسحاق بن الحسن
 ٩٠ حسن بن عبد العزيز بن حسن بن ابي
 عدة
 ٩١ محمد بن الحسن بن الحسن المذهبي
 ٩٢ محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي
 ٩٣ عبد الرحمن بن ظيرون
 ٩٤ عبد الرحمن بن احمد بن مثنى الكاتب
 ٩٥ محمد بن سعيد التكريتي
 ٩٦ سعيد بن ادريس السلمي
 ٩٧ علي بن احمد بن سعيد بن حزم
 ٩٨ ابو حنبل احمد بن عبد الملك بن شهيد
- ٢٤ - ٢٥ لورقة
 اشبيلية - المشرق
 بلنسية
 الاندلس دون
 تحديد وجهة
 مرسية
 غرناطة - اشبيلية
 بجاية
 اوربونة
 غرناطة
 سرقسطة
 بلنسية - المرية
 سرقسطة
 الجزائر الشرقية
 بلنسية
 بلنسية
 بلنسية
 اشبيلية
 المرية
 تنقل في عدد من
 مناطق الاندلس
- بن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٠٥
 - ٤٠٦
 بن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤١٢
 ، ٤١٣ ، عياض ج ٨ ص
 ٢٦ - ٢٧
 بن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤١٥
 المصدر نفسه ، ج ٢ ،
 ص ٤٥٥ - ٤٥٦
 المصدر نفسه ، ج ٢ ،
 ص ٥٢٧ ، ابن فرحون ، ج ٢
 ، ص ١٨
 ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٥٩٢
 - ٥٩٣ ، ابن فرحون ، ج ٢
 ، ص ٨٤
 ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٦٠٣
 المصدر نفسه ، ج ٢ ،
 ص ٧٣٩
 المصدر نفسه ، ج ٢ ،
 ص ٧٤٧ ت ٧٤٨ ، عياض ،
 ج ٧ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٩
 ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧٥٨
 المصدر نفسه ، ج ٢ ،
 ص ٧٧٠ - ٧٧١

ملحق رقم (٢)
علماء قرطبة الذين قتلوا في الفتنة

اسم العالم	المصدر
١ احمد بن مطرف بن هاني الجبلي المكنى	ابن بشكوال ، ج ١ ص ٤٧
٢ احمد بن بريل المقرئ	المصدر نفسه ج ١ ص ٥٠ - ٥١
٣ احمد بن محمد بن مسعود	المصدر نفسه ج ١ ص ٥٩
٤ الحسن بن حي بن عبد الملك بن حي النجدي	المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٩ - ٢٣٠
٥ خلف بن سلمة بن سليمان بن حميس	المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٠
٦ راشد بن ابراهيم بن عبدالله بن ابراهيم بن راشد	المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦
٧ سليمان بن هشام بن وايد بن كليب المقرئ	المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠٩ - ٣١١
٨ سعيد بن عثمان بن ابي سعيد بن محمد بن سعيد	المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٧ - ٣٢٩
٩ سعيد بن ملز بن سعيد	المصدر نفسه ج ١ ص ٣٣٤
١٠ سعيد بن احمد بن خالد بن عبدالله الجذلي	المصدر نفسه ج ١ ص ٣٤٤ - ٣٤٥
١١ عبدالله بن احمد بن كند اللخوي	المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٩
١٢ عبدالله بن محمد بن يوسف اللخوي المعروف بابن قارضي	المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩١ - ٣٩٢
١٣ عمرو بن عثمان بن خطار بن بشير بن عمرو بن يزيد	المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٥٠
١٤ هرويب بن مطرف بن عريب	المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٥٤ - ٦٥٥
١٥ محمد بن عبد الملك الاكبي	المصدر نفسه ج ٢ ص ٧١٥
١٦ محمد بن احمد بن يحيى المعروف بابن الفضال	المصدر نفسه ج ٢ ص ٧١٥ - ٧١٦
١٧ محمد بن سعيد القري الاموي	المصدر نفسه ج ٢ ص ٧١٧
١٨ محمد بن قاسم بن محمد الاموي	المصدر نفسه ج ٢ ص ٧١٨ - ٧١٩
١٩ عبدالله بن حسين بن ابراهيم بن حسين بن عاصم	ابن الاثير ، التكملة ، ج ٢ ص ٢٠٨

الفهرست

- ١ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١هـ) : لسان العرب، القاهرة، دار الحديث، ٢٠٠١م، ج ٧، ص ١٨ - ٢٠، الفيروزبادي، محمد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ) : القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م، ص ١٥٧٥، الزبيدي، السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني (ت ١٢٠٠هـ) : تاج العروس من جواهر القاموس، وضع هوامشه عبدالمعزم خليل إبراهيم وكريم سيد محمد محمود، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م، ص ٢٥١-٢٥٢.
- ٢ سورة النساء آية ١٠١.
- ٣ سورة يونس آية ٨٢.
- ٤ مسلم أبو الحسين بن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) : ميجيع مسلم، الرياض، دار المفتي، دار ابن حزم، ١٤١٩هـ، ص ١٥٤١.
- ٥ المصدر نفسه، ص ١٥٤٢.
- ٦ ابن بسلام، أبو الحسن علي بن بسلام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ) : الخطيرة في معاني أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨ - ١٩٧٩م، ج ٣، ١، ص ٩.
- ٧ الإبلاني، أبو علي صالح بن عبدالحليم (ت بعد ٧١٦هـ) : مفاتيح السير، تحقيق عبدالقاسم بوباية، الربط، دار أبي رزاق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م، ص ١٤٧.
- ٨ ابن بلكين، عبدالله بن بلكين بن زيري (ت ٤٨٣هـ) : مذكرات الأمير عبدالله المسماة بكتابات التبيين، نشر وتحقيق ليلي بروفنسال، مصر، دار المعارف، د. ت. ن، ص ٥٦-٥٨.
- ٩ ابن عذاري، أبو عباس احمد (في نهاية القرن السابع الهجري) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م، ج ٣، ص ٢٧، ٤٢.
- ١٠ ابن بسلام، نقلًا عن ابن حبان، ج ١، ص ٢٧، ص ٥٧٦.
- ١١ ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن سعد بن عبدالله قرطبي (ت ٧٦٦هـ) : تاريخ أربابنا الإسلامية الجزء الثاني من أعمال الأعلام فيمن يوعى قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليلي بروفنسال، بيروت، دار المنشوف، ١٩٥٦م، ص ٩٨.
- ١٢ ابن سعد، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ) : المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م، ج ١، ص ١٥٥-١٥٦.

المراجع

- ١٢ **النهاي** ، أبو الحسن عبدالله بن الحسن النهاي الملقب (ت بعد ٧٩٢هـ) : تاريخ قضاء الأندلس المسمى المرقية العليا فمن يستحق القضاء والغنا ، تحقيق لجنة إحياء التراث الإسلامي في دار الخلق ، بيروت ، دار الأفاق الجديدة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٣م ، ص ٨٨.
- ١٤ **ابن الأثير** ، أبو الحسن علي بن أبي التكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني (٦٣٠ هـ) : الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار الكتب العربي ، ١٩٨٣م ، ج ٧ ، ص ٨٤ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٤٨-٤٩ ، النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم (ت ٧٣٢ هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : أحمد كمال زكي ومحمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١م ، ج ٢٣ ، ص ٤١٠-٤١١ ، ابن الخطيب ، ص ١٠٩ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١١٤٩-١٥٠ ، المقرئ ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ق ١٠٤١ هـ) : نفع الطبيب في غصن الأندلس ، الطب و ذكر و ربحا لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق : يوسف أشوخ محمد شباقي ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٦م ، ج ١ ، ص ٤٠٩.
- ١٥ **ابن الأثير** ، ج ٧ ، ص ٢٩٠ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٥٠-١٥١ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٣٧ ، ابن الخطيب ، ص ١٣٨ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٢ ، المقرئ ، ج ١ ، ص ٤٢٠.
- ١٦ **ياقوت** ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن بن عبد الله الحموي قرومي (ت ٦٢٦ هـ) : معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٩م ، ج ٤ ، ص ٣٢٤ ، ابن الشباط ، محمد بن علي بن محمد المصري التوزري ، (ت ٦٨١ هـ) : وصف الأندلس وهو جزء من صلة السبط وسبط العرب ، تحقيق : أحمد مختار العبادي ، مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٧١م ، ص ١٤٧ ، أحمد فكري : إرطية في العصر الإسلامي تاريخ وجيزة ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٠.
- ١٧ **الإبريسي** ، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحموي الحسني (ت ٥٦٠ هـ) : لزجة المشتكى في الخرق ، الأفاق ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٨٩م ، ج ٢ ، ص ٥٧٥.
- ١٨ **كلمة** ريش المقصود بها : الضاحية وهي المكان المحوط بالمدينة خارج مركز المدينة السكني وملها اشتقت الكلمة الإسبانية (أربال) arrabal وترد في معظم المعاجم العربية بمعنى الكلمة الإسبانية. نفسها تظفر : تزيدي ، ج ١٨ ، ص ١٧٤ ، ليوبولد نورس بالباس : البلد الإسبانية الإسلامية ، ترجمة : فيودور دي لانا ، مراجعة : نادية محمد جمال الدين وعبد الله بن إبراهيم العمير ، الرياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ٢٠٠٣م ، ٢٥٧.
- ١٩ **الإبريسي** ، ج ٢ ، ص ٥٧٥.

المراجع

- ٢٠ ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي (ت نحو ٣٦٧هـ -
(: صورة الأرض ، بيروت ، مكتبة الحياة ، ١٩٧٩م ، ص ١٠٨ ، المقرئ ، ج ٢ ،
ص ١٥ .
- ٢١ المقرئ ، ج ٢ ، ص ١٤ ، أحمد فكري ، ص ١٧٢-١٧٣ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قِربة
الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي - الخامس الهجري الحياة الاقتصادية
والاجتماعية ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٨م ، ص ١٨-١٩ .
- ٢٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٤٢ ، ابن الخطيب ، ٩٠-٩١ ، محمد عبد الله خان : دولة الإسلام
في الأندلس العصر الأول - القسم الثاني للخلافة الأموية والدولة العاصرية ، القاهرة ،
مكتبة الختامي ، الطبعة الرابعة ١٩٩٧م ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .
- ٢٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٤٥ ، ابن الخطيب ، ص ٩٢ ، أحمد جبرون : الفكر السياسي في
المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري في تشكيل الهوية السياسية في المغرب
وتكريس الفتنة في الأندلس ، الرباط ، دار أبي رقرق للطباعة والنشر ، ٢٠٠٨م ،
ص ٢٢٨ .
- ٢٤ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٠٤-٤٠٥ ، محمد عبد المنعم حسين :
تاريخ وحضارة المغرب والأندلس ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ص ٥١٠-
٥١١ ، عبد المجيد نعمي : تاريخ الدولة الأموية في الأندلس - التاريخ السياسي ،
بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٩م ، ص ٤٣٣-٤٣٤ .
- ٢٥ النويري ، ج ٢٣ ، ص ٦٠٦ ، ابن الخطيب ، ص ٧٧-٧٨ .
- ٢٦ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ ، ج ٣ ، ص ٤٠٣ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٠٤ ، إبراهيم
بيضون : دولة العربية في إسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة ، بيروت ، دار
النهضة العربية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م ، ص ٣٢٦ ، صالح محمد فهاض أبو ديان :
الوحيل في تاريخ المغرب والأندلس من الفتح في بداية العصر المرابطي ومملوك
إلى ألف دراسة سياسية وحضارية ، الأردن مكتبة الكتاني ، ١٩٨٨م ، ص ٣٨٠-
٣٨١ .
- ٢٧ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٩-٢٨٠ ، ابن الخطيب ، ص ٨٩ ، ديهرت دوزي :
المسلمون في الأندلس الجزء الثاني إسبانيا الإسلامية ، ترجمة : حسن حسين ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص ١١١-١١٢ ، ١٦٠ .
- ٢٨ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، محمد عبدالله خان ، ص ٦٣٠-٦٣١ ، حسين مؤنس : معايير
تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، دار مطابع المستقبل ، ١٩٨٠م ، ص ٣٥٢-٣٥٤ ،
إبراهيم عبد المنعم سلامة ، ص ٤٩٦ ، scole, (pater): the fall of caliphat ,
of cordobu, P260 , Leiden-NewYork, 1994,P.40, Arodo,
Bleye(p.P Manual de la Historia de Espana, Madrid 1947 p.441

- ٢٩ ابن الأثير، ج ٧، ص ٨٤، ابن عذاري، ج ٣، ص ٢٩، ٤١، ٤٧، محمد عبد الله عزان، ص ٦٢٤.
- ٣٠ ابن عذاري، ج ٣، ص ٤٨.
- ٣١ المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٤-٣٥، ٥٢.
- ٣٢ ابن الخطيب، ص ٩٦.
- ٣٣ ابن عذاري، ج ٣، ص ٥٠، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ): العرب وبيوتهم المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، ١٩٧٩م، ج ٤، ص ١٥٠.
- ٣٥ ابن الأثير، ج ٧، ص ٨٤، ابن عذاري، ج ٣، ص ٦٦-٦٧، ابن خلدون، ج ٤، ص ١٥٠. ابن عذاري، ج ٣، ص ٩٤، المقرئ، ج ١، ص ٤١١، عبد المجيد نعمي، ص ٥٠٨. شكيب ارسلان: الجزء السندسية في الأخصم والآثار الأندلسية، القاهرة، دار الكتاب الاسلامي، د.ت، ص ٢١٨-٢١٩، إبراهيم عبد المنعم سلامة: العناية في الأندلس في عصر الدولة الأيوبية، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب جامعة الاسكندرية، ١٩٩٧م، ص ٥٥٤.
- ٣٦ معركة فنتيش حدثت في ١٢ ربيع الأول عام ٤٠٠ هـ / ٥ نوفمبر ١٠٠٩م في سفح جبل فنتيش بين محمد المهدي وأتباعه وعامة قرطبة وسليمان المستعين وأتباعه من البربر وانتهت بانتصار سليمان المستعين وقتل فيها الكثير من سكان قرطبة قبل حوالي ١٢٠ ألفا وبهذه المعركة يبيع سليمان المستعين بالخلافة في خلافته الأولى انظر ابن الأثير، ج ٧، ص ٨٤-٨٥، ابن عذاري، ج ٣، ص ٩٢، عبد الواهد المراكشي، محيي الدين أبو محمد (ت ٦٤٧ هـ): المعجب في تلخيص الخيل المغرب، تحقيق: محمد سعيد العربي، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٣م، ص ٨٨-٨٩، ابن خلدون، ج ٤، ص ١٥٠، المقرئ، ج ١، ص ٤١، محمد عبد الله عزان، ص ٦٤٧، أحمد إسماعيل أحمد الجمال: دراسات في تاريخ الأندلس دوليات الصقلية العلبيريين في شرق الأندلس، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٧م، ص ١٢٧.
- ٣٧ معركة عقبة البقر حدثت في شوال ٤٠٠ هـ / مايو ١٠١٠م في شمال قرطبة على بعد ٢٧ كيلو و ١٧ ميلا بين محمد المهدي وأتباعه من النصارى وسليمان المستعين وانتهت بانتصار محمد المهدي ويبيع له بالخلافة للمرة الثانية انظر: الحميدي، أبو عبد الله محمد أبو نصر الأزدي، (ت ٤٨٨ هـ): جذوة المقتبس في ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة - بيروت، دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٥م، ص ٤٨-٤٩، الضمعي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، (ت

- ٥٩٩-: بنية الملتصق في تاريخ رجال الإنجليس ، مدريد ، مطابع روخس ، ١٨٨٤م
 ، من ٢٠-٢١ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٤-٩٥ ، عبد الواحد المراكشي ، ص ٨٩ ، شكيب
 ارسلان ، ج ٢ ، ص ٢١٨-٢١٩ ، محمد عبد الله عنان ، ص ٢٤٨ .
- ٣٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢٠ ، ابن الخطيب ، ١٢١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٢ ،
 لويس سيكردي لوثينا : الجموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء ، ترجمة : عدنان
 محمد آل طلحة ، دمشق ، مطبعة اشراق ، ١٩٩٢م ، ص ١٩-٢٠ .
- ٣٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٣٨ ، ابن الخطيب ، ص ١٣٤ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٣٥ ،
 حمدي عبد المنعم حسين ، ص ٥٦٤ ، عبد المجيد نغمي ، ص ٥٢٣ .
- ٤٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٥٠-١٥١ ، ابن الخطيب ، ص ١٣٨ ، النويري ، ج ٢٣ ،
 ص ٤٣٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٢ ، إبراهيم بوضون ، ص ٣٤٦ ، حمدي عبد المنعم
 حسين ، ص ٥٦٧ .
- ٤١ انظر الملحق - اعداد وفكرات من تولى الخلافة بقرطبة .
- ٤٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٥٢ ، ٨٢ ، ١١٥ ، ابن الخطيب ، ص ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٧ ،
 ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٤٩-١٥٠ ، ١٥٢ ، المقرئ ، ج ١ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ،
 صالح محمد فياض أبو ديساك ، ص ٣٩٠-٣٩٢ ، إبراهيم بوضون ، ص ٣٤١ ، ٣٤٣ ،
 لويس سيكردي لوثينا ، ص ١٩-٢٠ .
- ٤٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٢-١٥٣ ،
 لويس سيكردي لوثينا ، ص ٢٣ .
- ٤٤ ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٨٤ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٥٩ ، المقرئ ، ج ١ ، ص ٤٠٩ ،
 محمد عبدالله عنان ، ص ٩٣٤ .
- ٤٥ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٣ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٣٦ ، محمد عبدالله عنان ،
 ص ٦٦٩ .
- ٤٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٥١ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٣٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ،
 ص ١٥٢ .
- ٤٧ ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٨٥ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٠ ، المقرئ ، ج ١ ، ص ٤١١ .
- ٤٨ الأثير ، ج ٧ ، ص ٢٨٥ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١١٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص
 ١٥٢ .
- ٤٩ الأثير ، ج ٧ ، ص ٢٨٧ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٣٨ ، ابن الخطيب ، ص ١٣٥ .
- ٥٠ الأثير ، ج ٧ ، ص ٨٤ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩١ ، ٩٥ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص
 ٤٢٤ ، ٤١٩ .
- ٥١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٠ ، ١١٣ ، ابن الخطيب ، ص ١١٦ ، ١١٩ ، النويري ،
 ج ٢٣ ، ص ٤٢٩ ، ٤٢٦ .
- ٥٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٣-١٤٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٦٨ ، لويس
 سيكردي لوثينا ، ص ٣١ .

المبشرين

- ٥٣ ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٢٩٠ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ ، المقرئ ، ج ١ ، ص ٤٢٠ ، محمد عبدالله غنان ، ص ٦٦٨ .
- ٥٤ ابن سعيد ، ج ١ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، دراسة تاريخية ، صراتية أثرية في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ص ١٩٨٤ م ، ص ٧٦ ، محمد عبدالوهاب خلاص : تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، القاهرة ، المطبعة العربية الحديثة ، ١٩٩٢ م ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .
- ٥٥ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٧ ، ٨٢ - ٨٣ ، ١١٥ ، ابن أبي زرع ، أبو الحسن علي بن عبدالله (ت ٧٢٩هـ) : الأندلس المطرب بروض قرطوس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، مراجعة عبدالوهاب بنصور ، الرباط ، المطبعة الملكية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٩ م ، ص ١٤٩ ، عبدالعزيز فيلاي ، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب العربي ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣ م ، ص ٢٦٠ - ٢٦٩ ، عبدالله بنملح : الرق في بلاد المغرب والأندلس ، بيروت ، دار الانتشار العربي ، ٢٠٠٤ م ، ص ٥٣١ ، ٥٤٥ ، محمد عبدالله غنان ، ص ٦٥٨ .
- ٥٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٢ - ٨٣ ، أحمد محمد اسماعيل أحمد شعمال ، ص ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٣٥ ، المير حبيب مطلق : الحركة اللغوية في الأندلس من الفتح العرشي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٦٧ م ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ جذية طرووشة الإسلامية وحضارتها في عصر دويلات الطوائف في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، الأندلس قرون من الثقباء والعتاء ، الرياض ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م ، ص ١٧٢ ، نكسي فيصل الرواشدة : الحياة العلمية في مرسية الإسلامية في القرن الخامس الهجري إلى القرن السابع الهجري ، الأردن ، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٤ م ، ص ٤١ .
- ٥٧ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٧٥ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ - ٢٢٦ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٤٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٦ ، ١٦٣ ، عبدالرحمن علي الحجى : تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ، بيروت ، دار القلم ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ م ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ، سحر السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ بطونيين الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩١ م ، ص ٣٥٦ - ٣٦٠ .
- ٥٨ الإبلاني ، ص ٤١ - ٤٢ ، عبدالعزيز فيلاي ، ص ٢٧١ .

المراجع

- ٥٩ ابن عذاري، ج٣، ص ٨٢، ٩٤، ابن الخطيب، ص ١١٢، عمر مصطفى لطف: تاريخ قصصية في الأندلس، دراسة تاريخية جديدة، القاهرة، د. م. د. ن.، ٢٠٠٣م، ص ٦٨-٦٩، إبراهيم عبدالمعتم سلامة، ص ٥٠٥، Scales, (Peter): The Handing over the Duero of fortresses- 1009- 1002 AD Al Quntar, Mudrid, 1984, p.112-112, Alfonso Elsalbio: primeracornica General despan, ITTpor Ramom, Mendendas, pided, Madrid, 1933, p.436
- ٦٠ ابن عذاري، ج٣، ص ٨٦، النويري، ج٢٣، ص ٤٢٥، عبدالمجيد نعمي، ص ٥٠٩، محمد عبدالله عنان، ص ٦٤٦-٦٤٧، السيد عبدالعزيز سالم، ص ٨٦.
- ٦١ ابن عذاري، ج٣، ص ٩٢-٩٤، عبدالمجيد نعمي، ص ٥٠٨، محمد عبدالله عنان، ص ٦٤٨، رجب محمد عبدالحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأشبانيا النصرانية في عصر بن أمية وملوك الطوائف، القاهرة، بيروت، دار لكتاب المصري - دار لكتاب اللبناني، د. ت. ن.، ص ٢٦٥، حمدي عبدالمعتم حسين، ص ٥٥٤.
- ٦٢ ابن الأثير، ج٧، ص ٢٤٨، ابن عذاري، ج٣، ص ١٠٣-١٠٤، النويري، ج٢٣، ص ٤٢٧، ابن خلدون، ج٤، ص ١٥١، رجب عبدالحليم، ص ٢٦٧، عبدالمجيد نعمي، ص ٥١٢-٥١٣، السيد عبدالعزيز سالم، ص ٨٧، حمدي عبدالمعتم حسين، ص ٥٥٩.
- ٦٣ محمد عبدالله عنان، ص ٦٣٣، إبراهيم عبدالمعتم سلامة، ص ٥١٠، Le'vi Provencal, L' Espagne Musulmane au xesiede, Paris, 1932, P.49
- ٦٤ ابن عذاري، ج٣، ص ١٠٤-١٠٥، ابن الخطيب، ص ١١٧-١١٨، محمد عبدالله عنان، ص ٦٥.
- ٦٥ ابن عذاري، ج٣، ص ٧٨-٧٩، محمد عبدالله عنان، ص ٦٤٥، أحمد جبرون، ص ٢٢٩-٢٤٠.
- ٦٦ ابن عذاري، ج٣، ص ١١٦، ١٢٠.
- ٦٧ المصدر نفسه، ج٣، ص ١٤٢-١٤٣.
- ٦٨ المصدر نفسه، ج٣، ص ٧٤، أحمد فكري، ص ١٢٢، حمد صالح السحباني: الحالة الأمنية في قرطبة خلال الفترة النورية (٣٢٩-٤٤٢هـ/١٠٠٩م-١٠٣١م)، الرياض، الجمعية التاريخية السعودية، ١٩٩٩م، ص ٩١.
- ٦٩ عياض، عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت ٥٤٤هـ): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعد أحمد أعراب، الرباط، مطبعة فضالة، ١٩٨٧م، ص ١٩٩-٢٠٠، محمد عبد الوهاب خلاف: القضاء في الأندلس، ص ٥٥٢.

٧٠. عبدالواحد المراكشي، ص ١٠٧، عبدالمجيد نعفي، ص ٥٢٦، حمد صالح السحبياني، ص ٨٩-٩٠.
٧١. ابن عذاري، ج ٣، ص ١٣٧.
٧٢. المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٧-١٤٩، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبية، ص ١٠٧.
٧٣. محمد عبدالوهاب خلاص: القضاء في الأندلس، ص ١١٦، عبدالمجيد نعفي، ص ٥٢٦.
٧٤. الفتح بن خاقان، أبو النصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي (ت ٥٢٩هـ): مطبخ الأندلس ومسيرح للتأنيس في ملح أهل الأندلس، القاهرة، تحقيق محمد شوابكة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م، ص ٢١٤-٢١٥.
٧٥. عبدالواحد المراكشي، ص ١٠٧، حمد صالح السحبياني، ص ٨٩-٩٠.
٧٦. ابن عذاري، ج ٣، ص ١٤٧-١٤٩، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبية، ص ١٠٧.
٧٧. ابن عذاري، ج ٣، ص ١٣٧، حمد صالح السحبياني، ص ٧٩.
٧٨. ابن عذاري، ج ٣، ص ٢٧، حمد صالح السحبياني، ص ٩٠.
٧٩. ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٩.
٨٠. المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٥-١٣٦، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبية، ص ١٠١-١٠٣.
٨١. ابن عذاري، ج ٣، ص ١٥٥-١٥١، ابن خلدون، ج ٤، ص ١٥٢.
٨٢. ابن بسلام، ج ١، ص ١٥٢، ابن عذاري، ج ٣، ص ١٣٦.
٨٣. ابن بسلام، ج ١، ص ١٥١، أحمد عبدالله صان، ص ٨٦.
٨٤. ابن عذاري، ج ٣، ص ٧٤.
٨٥. عياض، ج ٧، ص ٢٠٠-٢٠١، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن هدمملك (ت ٥٧٨هـ): الصيلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، بيروت، دار للكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩م/ج ١، ص ٢٢٩-٢٣٠. محمد عبدالوهاب خلاص: القضاء في الأندلس، ص ٥٥٢.
٨٦. ابن حزم، أبو عبدالله علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ): طبقات الحماة في الألفة والآلاف، تحقيق حسين كامل الصيرفي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٦٤م، ص ١١١، محمد حسن قجة: مخطوطات أندلسية دراسية في التاريخ والأدب الفني الأندلسي، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م، ص ١٣٢، عبدالرحمن عبدالرزوق الخاتجي: أثر فتنة قرطبة على المراكز النفسية والأخلاقية لأن حزم الأندلس في كتابه طوق الحمامة: الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات - القسم الأول، الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ١٩٩٦م، ص ١٣٨.
٨٧. ابن حزم، ص ١١١، عبدالرحمن الخاتجي، ص ١٣٩.
٨٨. ابن حزم، ص ١١٢، ابن سعيد، ج ١، ص ٥٤-٥٥، عبدالرحمن الخاتجي، ص ١٤٢، محمد حسن قجة، ص ١٣٧.

الهيوانيين

- ٨٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢٣-١٢٤ ، أحمد محمد اسماعيل الجبال ، ص ١٤٦ .
- ٩٠ ابن بلقين ، ص ١٦-١٧ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٣٦ ، ولاء عبدالله سليمان المزروع ، لغزو الصليبية في الأندلس في عصر الإمارة أو الخلافة ، الأندلس قرون من تنكيات والعطاءات - القسم الأول ، ١٩٩٦م ، ص ١١٥ .
- ٩١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٤-٧٥ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٣٨ ، عبدالمجيد نغمي ، ص ٥٠٤-٥٠٥ ، كمال السيد أبو مصطفى ، ص ١٧٢ .
- ٩٢ محمد عبدالله عنان ، ص ٦٣٤ ، شكيب أرسلان ، ج ٢ ، ص ٢١٨-٢١٩ .
- ٩٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٨ .
- ٩٤ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٦-٩٨ ، ابن الخطيب ، ص ١١٣ .
- ٩٥ عبد العزيز نغمي ، ص ٥٠٤ .
- ٩٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٨ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٤-٦٤٥ ، إبراهيم عبدالمعز سلامة ، ص ٥٠١ ، Gulchard ، Le'vi - Provençal p.436 . (Pierre) Al-Andalous Estrutura Antro Poigica de una sociedad Islamica en occidente , Borden , 1976 , P.109
- ٩٧ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩١ .
- ٩٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٧ ، ٨٢ ، كمال السيد مصطفى ، ص ١٧٣-١٧٤ ، عبدالعزيز فيلالي ، ص ٢٦١-٢٦٢ ، البربر مطلق ، ص ٢٥٢ ، عبدالآله بتمليح ، ص ٥٢٩-٥٤٥ .
- ٩٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٢ .
- ١٠٠ ابن بسام ، ج ١ ، ص ١١٠-١١٢ ، عبدالآله بتمليح ، ص ٧٤٨-٤٨٠ .
- ١٠١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .
- ١٠٢ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٢-١١٤ .
- ١٠٣ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٨-١٠٩ ، السيد عبدالعزيز سالم : قريطية ، ص ٨٥ ، لويس سيكودي لوثينا ، ص ١٩ .
- ١٠٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٣٠ ، السيد عبدالعزيز سالم : قريطية ، ص ٩٤ ، عبدالعزيز فيلالي ، ص ٢٦٦ .
- ١٠٥ ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧١٨-٧١٩ ، ابن الأثير ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القاضي (ت ٦٥٨هـ) : التكملة لكتاب الصلاة ، ضبط وتعليق جلال الأسبوعي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ج ٢٠٠٨م ، ص ٢٠٨ ، حمد صالح السحباني ، ص ٦٤ .
- ١٠٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٩-١٥٠ .
- ١٠٧ عياض ، ج ٧ ، ص ١٧١ ، البهاضي ، ص ٨٦ ، محمد عبد الوهاب خلاف : انقضاء في الأندلس ، ص ١٠٥ .

- ١٠٨ عياض ، ج ٧ ، ص ١٧٢-١٧٤ ، النهاية ، ص ٨٦-٨٧ ، حسين مؤنس : شيوخ
العصر في الأندلس ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ م ، ص ٧٩ .
- ١٠٩ عياض ، ج ٧ ، ص ١٧٨-١٧٩ ، ابن سعيد ، ج ١ ، ص ١٥٥-١٥٧ ، النهاية ، ص ٨٨ ،
حمد صالح المسحوقاني ، ص ٥٠ ، حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ص ٧٩ .
- ١١٠ عياض ، ج ٧ ، ص ١٠-١١ ، النهاية ، ص ٨٩ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء
في الأندلس ، ص ٨٩ ، حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ، ص ٧٩ .
- ١١١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٦٠ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ، ص ١٠٤ .
- ١١٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٩ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ، ص ١٠٧ .
- ١١٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٩ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ، ص ١٠٥ .
- ١١٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٣ .
- ١١٥ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ، ص ١٠٥ .
- ١١٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١١٢ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ، ص ١٠٥ .
- ١١٧ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٨ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ، ص
٢٢١ ، حمد صالح المسحوقاني ، ص ٤٩ .
- ١١٨ محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ، ص ٢٢١ ، حمد صالح المسحوقاني ، ص ٥٥ .
- ١١٩ ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ ، حمد صالح المسحوقاني ، ص ٥٧ .
- ١٢٠ النهاية ، ص ٨٧ ، حمد صالح المسحوقاني ، ص ٥٧ .
- ١٢١ عياض ، ج ٨ ، ص ١٧٦-١٧٧ ، ابن سعيد ، ج ١ ، ص ١٥٥-١٥٧ .
- ١٢٢ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٣٥-٤٣٦ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء في
الأندلس ، ص ٢٦٢-٢٦٤ .
- ١٢٣ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٣٥ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ،
ص ٥٠١ .
- ١٢٤ ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٢٩٥-٢٩٦ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ،
ص ٥٢٢ ، حمد صالح المسحوقاني ، ص ٦٨-٦٩ .
- ١٢٥ ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ ، النهاية ، ص ٨٩ ، محمد عبد الوهاب خالفا : القضاء
في الأندلس ، ص ١١٣ ، حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ، ص ٧٩ .
- ١٢٦ عياض ، ج ٧ ، ص ١٩٩-٢٠٠ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٢٩-٢٣٠ ، محمد
عبد الوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ، ص ٥٥٢ .
- ١٢٧ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٣ ، يوسف احمد بن يمين : بلد الأندلس في أصقال
واقوت الحموي الجغرافية دراسة مقارنة ، الامارات المتحدة ، دار زايد للتراث والنشر ،
٢٠٠٤ م ، ص ٢٤١-٢٤٢ ، محمد كمال شهاة : الأندلس دراسة تاريخية حضارية ،
القاهرة ، دار العالم العربي ، ٢٠٠٨ م ، ص ١٢٤ ، ليوبولدو لورين بالباس ، ص
١٧٤ .

- ١٢٨ نظر الحدود المكتوبة .
- ١٢٩ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، ٢٧٥ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٦ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٤٤ ، ١٤٨ .
- ١٣٠ مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة الإسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥-١٩٦٦م ، ص ١٦٨ ، المقرئ ، ج ٢ ، ص ٧-٦ ، البير مطلق ، ص ٢٥٣ ، يوسف أحمد بن ياسين ، ص ٤٢١ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي - الخامس الهجري الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، السدار التونسية للنشر ، ١٩٧٨م ، ص ٢٥-٢٦ ، محمد عبدالله الحماة : التخطيط العمراني لمدينة الأندلس الإسلامية ، الأندلس قرون من الثقافات والعطاءات - تقدم ثلاث الحضارة والعصارة والفنون ، الرياض ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٩٩٦م ، ص ١٦١ .
- ١٣١ المقرئ ، ج ٢ ، ص ٧٩ ، البير مطلق ، ص ٢٥٣ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٤٦-٤٧ .
- ١٣٢ مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة ، ص ١٦٩ ، المقرئ ، ج ٢ ، ص ٨٠ ، البير مطلق ، ص ٢٥٣ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٦ ، أحمد فكري ، ص ١٨٥ ، محمد عبدالله الحماة ، ص ١٦٠ .
- ١٣٣ مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة ، ص ١٩٦ ، أحمد فكري ، ص ١٨٥ ، البير مطلق ، ص ٢٥٣ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٦ ، محمد عبدالله الحماة ، ص ١٦٠ ، البير مطلق ، ص ٢٥٣ ، محمد عبدالله الحماة ، ص ١٥٩ .
- ١٣٤ المقرئ ، ج ٢ ، ص ٨١ ، البير مطلق ، ص ٢٥٣ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٨٣ ، محمد عبدالله الحماة ، ص ١٥٩ .
- ١٣٦ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ، المقرئ ، ج ٢ ، ص ١٢-١٣ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٣ ، أحمد فكري ، ص ١٨٠ ، ليوبولد توريس بالباس ، ص ١٠٠ .
- ١٣٧ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ، المقرئ ، ج ٢ ، ص ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٤ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٢١٢-٢١٣ ، أحمد فكري ، ص ١٨٢-١٨٣ .
- ١٣٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٦٣-٦٤ ، ابن الخطيب ، ص ١١١ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤١٤ ، محمد عبدالله علان ، ص ٦٣٥ ، أحمد بن عبد : جوامع من الوقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، تطوان ، مطبعة النور ، ١٩٧٨م ، ص ٥٥ .
- ١٣٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٦٣-٦٤ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤١٣-٤١٤ ، المقرئ ، ج ٢ ، ص ١٢٣-١٢٢ ، إبراهيم بوشسسون ، ص ٣٤١ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ليوبولد توريس بالباس ، ص ١٠١ ، محمد أحمد اسماعيل الجمل ، ص ١٢٤ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ١٢٤ .

أحمد فكري

- ١٤٠ ابن عذاري، ج ٣، ص ٩٥، أحمد فكري، ص ١٢٣، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ٢٥١، أحمد بن حنبل: جواب من التاليف الأندلسي، ص ٥٥.
- ١٤١ الضبي، ص ١١٤، ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٢، ١٠٧، الحميري، ص ٢٩٥، أحمد فكري، ١٢٤، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ٢٥٢، محمد عبدالوهاب خلاص: قرطبة، ص ١٥٣.
- ١٤٢ ابن عسما، ق ١، ج ١، ص ٤٣٦، ابن سعد، ج ١، ص ٥٤-٥٥، ابن عذاري، ج ٣، ص ١٤٢، السيد عبدالعزيز سالم: في تاريخ حضارة الإسلام في الأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، الطبعة الثالثة، ١٩٦١م، ص ٤٧، أحمد عبود: البنية الاقتصادية في الأندلس خلال عصر الطوائف، المغرب والأندلس دراسات في التاريخ والارثو لوجية، تطوان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٦م، ص ٤٨-٤٩.
- ١٤٣ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٢، أحمد فكري، ص ١٩٦، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ١١٢-١١٣.
- ١٤٤ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٢، أحمد محمد اسماعيل الجمال، ص ١٣٠، حمدي عبدالمنعم حسين، ص ٥٥٦.
- ١٤٥ ابن حزم، ص ٩٤، مؤلف مجهول: أخبار الأندلس، ص ٢٣٩، ابن الخطيب، ص ١٠٦-١٠٧، يوسف أحمد بن ياسين، ص ٤٢١-٤٢٢، محمد كمال شهبانة، ص ١٢٧، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ١١٢، ١١٦-١١٧، محمد عبدالوهاب خلاص: قرطبة، ص ٢٩.
- ١٤٦ عياض، ج ٧، ص ١٧٦-١٨٠، ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٤، ليوبولد تورس بالباس، ص ١٢٤.
- ١٤٧ ابن عذاري، ج ٣، ص ١١٥، حمدي عبدالمنعم حسين، ص ٥٥٨.
- ١٤٨ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٢٣، أحمد محمد اسماعيل الجمال، ص ١٤٦، أحمد بن عبود: البنية الاقتصادية، ص ٥٤.
- ١٤٩ ابن عذاري، ج ٣، ص ٨٠.
- ١٥٠ المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٧، ليوبولد تورس بالباس، ص ١٤١.
- ١٥١ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٥، أحمد فكري، ص ٢٦٦، محمد عبدالوهاب خلاص: قرطبة، ص ٣٩، ٧٥.
- ١٥٢ ابن عذاري، ج ٣، ص ٨٧-٨٨، محمد عبدالوهاب خلاص: قرطبة، ص ٢٩٨.
- ١٥٣ ابن عذاري، ج ٣، ص ٩٩، محمد عبدالوهاب خلاص: قرطبة، ص ٢٩٨، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ١٧١.
- ١٥٤ ابن عذاري، ج ٣، ص ٨٧، محمد عبدالوهاب خلاص: قرطبة، ص ٢٩٨.

المصادر

- ١٥٥ مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة ، ص ١٧١ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٢-٢٣ .
- ١٥٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٧ ، ١٢٣ .
- ١٥٧ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٨ ، محمد عبد الوهاب خلاف : القضاء في الأندلس ، ص ١٠٥ ، حمد صالح السحيباني ، ص ١٤٩ .
- ١٥٨ محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٢٥ .
- ١٥٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٦١-٦٢ .
- ١٦٠ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦١ ، ٩٥ ، ابن الخطيب ، ص ١١١ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٨٣-٨٤ .
- ١٦١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨١ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٥ .
- ١٦٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٦ .
- ١٦٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٥ .
- ١٦٤ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٤-٩٦ ، عبدالمجيد نعفي ، ص ٥٠٨ ، شكيب ارسلان ، ج ٢ ، ص ٢١٨-٢١٩ .
- ١٦٥ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٨ .
- ١٦٦ المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٤٤ ، أحمد بن عبود : إليية الاقتصادية ، ص ٩٦ .
- ١٦٧ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٩ ، التويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٢٤ ، عبدالمجيد نعفي ، ص ٥١٠ ، أحمد بن عبود : إليية الاقتصادية ، ص ٦٩ .
- ١٦٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .
- ١٦٩ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٨٣ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥١-٦٥٢ .
- ١٧٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١١٢ ، التويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٢٩ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٨٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥٣ .
- ١٧١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١١٥ .
- ١٧٢ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٩٩ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢١ ، ١٢٣ ، ابن الخطيب ، ص ١٢٩ ، أحمد محمد اسماعيل الجسار ، ص ١٤٦ ، أحمد عبود : إليية الاقتصادية ، ص ٧٥ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٩٦١ .
- ١٧٣ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
- ١٧٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢٧ ، ابن الخطيب ، ص ١٢٣ ، عبدالمجيد نعفي ، ص ١٢٥ .
- ١٧٥ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٩٨ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٦ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة ، ص ٨٥ ، حمد صالح السحيباني ، ص ١٧ .
- ١٧٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .

- ١٧٨ ابن الخطيب، ص ١١٧، السيد عبدالعزيز سالم: قُرطبة، ص ١١٤، محمد عبدالله حسان، ص ٦٥١.
- ١٧٩ ابن بسلام، ج ١، ص ٤٣٦، ابن سعيد، ج ١، ص ٥٤-٥٥، أحمد فكري، ص ١٢٦، أحمد بن عهود: التيبة الاقتصادية، ص ٤٨-٤٩.
- ١٨٠ السيد عبدالعزيز سالم: قُرطبة، ص ١١٦.
- ١٨١ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٥.
- ١٨٢ المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٥.
- ١٨٣ المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٩، وبطلون تقع في القلم ماردة وتبعد عنها أربعين ميلاً على نهر وادي أنه وقد بنيت تلك المدينة على يد عبدالرحمن بن مروان الجليقي بموافقة الأمير عبدالله بن محمد انظر الحميري، ص ٩٣، سحر السيد عبدالعزيز سالم، ص ١٦١.
- ١٨٤ ابن بسلام، ج ١، ص ٤٥٨، ابن عذاري، ج ٣، ص ١٢٨.
- ١٨٥ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٤٧.
- ١٨٦ أحمد بن عهود: التيبة الاقتصادية، ص ٧٣-٧٤.
- ١٨٧ محمد عبدالوهاب خلاص: قُرطبة، ص ١٧٢-١٧٣، ١٨٥-١٨٦، ١٩٠.
- ١٨٨ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٢، رجب محمد عبدالحليم، ص ١٨٠، محمد عبدالوهاب خلاص: قُرطبة، ص ٩٣١.
- ١٨٩ عبدالمجيد نعمي، ص ٥٠٩-٥١١.
- ١٩٠ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٢، رجب محمد عبدالحليم، ص ١٨٠.
- ١٩١ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٦-١٠٧، ابن خلدون، ج ٤، ص ١٥١ المقري، ج ١، ص ٤١١، محمد عبدالوهاب خلاص: قُرطبة، ص ٢٣١.
- ١٩٢ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٧، محمد عبدالوهاب خلاص: قُرطبة، ص ١٣٠.
- ١٩٣ المربة مدينة بشرق الأندلس من كورة البيرة وهي مرسى ميناء الأندلس في الشرق انظر بالقوت، ج ٥، ص ١١٩.
- ١٩٤ الإدريسي، ج ٢، ص ٥٦٢، بالقوت، ج ٥، ص ١١٩، محمد عبدالوهاب خلاص: قُرطبة، ص ١٠٤، ٦٧، السيد عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الأندلس، ص ٢٦٥-٢٦٧، لوي بروفسنال: ألب الأندلس وتاريخها، ترجمة محمد عبدالهادي شعيرة مراجعة عبدالحميد العبادي، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥١م، ص ١٠٤.
- ١٩٥ محمد عبدالوهاب خلاص: قُرطبة، ص ١٧٠، إبراهيم بن عبدالمعتم سلامة، ص ١٨٨.
- ١٩٦ طليطلة مدينة خصبة في وسط الأندلس على ضفة النهر الكبير وتشتهر بالزراعة وتربية المواشي التي تصدر إلى المناطق المختلفة انظر الحميري، ص ٣٩٢-٣٩٤.
- ١٩٧ قونكة مدينة وسط الأندلس من أعمال شنتيرية انظر بالقوت، ج ٤، ص ٤١٥.
- ١٩٨ السيد عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الأندلس، ص ٢٦٥.

- ١٩٩ المقري ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ .
- ٢٠٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قُرطُبة ، ص ١٦٣ ، إبراهيم سلامة ، ص ١٨٢ - ١٨٦ ، Levi-Provençal, P200
- ٢٠١ عبد المجيد نعمتي ، ص ٥١١ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قُرطُبة ، ص ٩٨ ، ١١٨ .
- ٢٠٢ أوليفيا ريمي كونستول : التجارة والتجار في الأندلس ، ترجمة فوسل حيدانه ، الرياض ، مكتبة الصبيكان ، ٢٠٠٢ م ، ص ١١٢ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قُرطُبة ، ص ٢٣١ .
- ٢٠٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٥٧ ، ٨٠ ، ١٠٧ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قُرطُبة ، ص ٢٩٧ ، ليوپولد تورس بالباس ، ص ٤٤ ، إبراهيم عبدالمعص سلامة ، ص ٢٠٠ ، Levi-Provençal, P44
- ٢٠٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .
- ٢٠٥ المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٧ .
- ٢٠٦ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٦ ، ٦٢ .
- ٢٠٧ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٢ .
- ٢٠٨ حمد صالح السحيباني ، ص ٩٨ .
- ٢٠٩ ابن هشام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١١٠ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .
- ٢١٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٩ ، ١٤٦ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قُرطُبة ، ص ٨٥ ، حمد صالح السحيباني ، ص ١٧ .
- ٢١١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .
- ٢١٢ احمد بن عهود : الثبة الاقتصادية ، ص ٤٤ .
- ٢١٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قُرطُبة ، ص ٨٤ ، ٢٣١ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٩ - ١٠ .
- ٢١٤ التلويري ، ج ٢٢ ، ص ٤٢٨ .
- ٢١٥ المصدر نفسه ، ج ٢٢ ، ص ٤٢٧ .
- ٢١٦ ابن هشام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٩٨ .
- ٢١٧ محمد عبد الوهاب خلاف : قُرطُبة ، ص ٢٣٥ ، عصمت عبداللطيف ونفق : الأندلس في نهاية المرابطين ومستقبل الموحدين في عصر الطوائف الثاني ، بيسروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨ م ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، عبدالمعصم بن المختار شعكور : اليونان الأندلسية بحث في المكونات والضوابط والنتائج : الأندلس قرون بين التقلبات والعطاء ، الرياض ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، القسم الأول التاريخ وفلسفة ، ١٩٩٦ م ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .
- ٢١٨ ابن بركين ، ص ١٦ - ١٧ ، الإيلائي ، ص ١٤٧ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قُرطُبة ، ص ٢٣٧ - ٢٣٩ ، ٢٥٤ ، محمد حقي : تدوير في الأندلس ، دراسة التاريخ مجموعة أثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية ، الدار البيضاء ، شركة النشر والتوزيع ، ٢٠٠١ م ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .
- ٢١٩ وفاء المزروع ، ص ١١٥ ، عمر مصطفى لطف ، ص ٥٥ ، حسن يوسف دويدار ، المجتمع

- الأندلسي في العصر الأموي ، القاهرة، مطبعة الحملي الإسلامية ، ١٩٩٤م ، ص ٢٨٩ .
- ٢٢٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٦٠-١٦١ ، أحمد محمد إسماعيل الجمال ، ص ٢١٦-٢١٧ ، مصطفى لطف ، ص ٦٧ .
- ٢٢١ ابن الخطيب ، ص ١٢٢-١٢٣ ، أحمد فكري ، ص ١٢٢ ، عبدالعزيز فيلاتي ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، محمد حقي ، ص ٩٠-٩١ ، رجب عبدالحليم ، ص ١٨١ .
- ٢٢٢ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٠٠ ، محمد عبد الوهاب خلافا : قُرطبة ، ص ٢٥٥ .
- ٢٢٣ ابن الخطيب ، ص ١١٩ ، محمد حقي ، ص ٥٣ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥٤ .
- ٢٢٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ، محمد حقي ، ص ٢١٨-٢١٩ .
- ٢٢٥ ابن حزم ، ص ١١٢ ، ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، محمد حقي ، ص ٥٣ ، عبدالرحمن الخاتمي ، ص ١٢٩-١٤٠ .
- ٢٢٦ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .
- ٢٢٧ ليو بولد تورس بلناس ، ص ١٢٦ ، إبراهيم عبد المنعم سلامة ، ص ١٣٩ .
- ٢٢٨ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٣-٤٤ ، ابن خلكان ، أبو العباس أحمد بن محمود (ت ٦٨١هـ) : وليات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق إسماعيل عباس ، بيروت ، دار صادر ، د. ت .
- ن ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٨٤-٨٥ ، عبدالواحد المراكشي ، ص ٨٨-٨٩ ، المقرئ ، ج ١ ، ص ٤١١ ، شكيب أرسلان ، ج ٢ ، ص ٢١٨-٢١٩ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٢٤٤ ، رجب عبدالحليم ، ص ٢٦٤-٢٦٨ .
- ٢٢٩ ابن الأثير : إحالة ، ج ٢ ، ص ٧ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٢ ، عبدالواحد المراكشي ، ص ٨٧ ، مؤلف مجهول ، ص ٢٤٠ ، محمد حقي ، ص ٢١٨-٢١٩ ، محمد عبد الوهاب خلافا : قُرطبة ، ص ٦٥-٦٦ .
- ٢٣٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢١ .
- ٢٣١ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٥٤ .
- ٢٣٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .
- ٢٣٣ ابن يشكوال ، ج ٢ ، ص ٥٧٦-٥٧٧ ، عبدالرحمن الخاتمي ، ص ١٤٤ ، محمد عبد الوهاب خلافا : قُرطبة ، ص ٥٥ .
- ٢٣٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٢-١٠٣ ، النويري ، ج ٢٢ ، ص ٤٢٧ .
- ٢٣٥ ابن الخطيب ، ص ١٣٥ ، عبدالعزيز فيلاتي ، ص ٢٥٨-٢٥٩ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٥ .
- ٢٣٦ الأندلسي ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ ، بالوت ، ج ٤ ، ص ٣٢٤ ، الحميري ، ص ٤٥٨ .
- ٢٣٧ عبدالعزيز فيلاتي ، ص ٢٦٥ ، L'evi Provencal P.481 .
- ٢٣٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٤ ، كمال السيد أبو مصطفى ، ص ١٧٠ ، رجب عبدالحليم ، ص ١٨١ .
- ٢٣٩ ابن حزم ، ص ١١١ ، عبدالرحمن الخاتمي ، ص ١٢٨-١٤٠ .
- ٢٤٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢ ، أحمد فكري ، ص ١٩٦ ، السيد عبدالعزيز سالم : قُرطبة ، ص ١١٢-١١٣ .

- ٢٤١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨١ ، محمد حقي ، ص ٢١٨ ، عبدالرحمن الخسائبي ، ص ١٣٩ ،
 اسعد بن عويد : جوانب الواقع ، ص ٣١ .
- ٢٤٢ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٠٠ ، ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، محمد حقي ، ص ٢٠٩ ،
 إبراهيم عبدالمعتم سلامة ، ص ٥٠٩ ، Al-Fonso P.462
- ٢٤٣ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٧-٩٨ ، التويري ، ج ٢٢ ، ص
 ٤٢٩ ، مؤلف مجهول ، ص ٢٣٩ ، حمد صالح السحباني ، ص ٩٤ .
- ٢٤٤ ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٠٢-٤٠٤ ، ابن الأثير : الصلة ، ص ٢٠٨ ، محمد عبدالوهاب
 خلاص : قريظة ، ص ٢٢٠-٢٢١ .
- ٢٤٥ حمد صالح السحباني ، ص ٩٣ .
- ٢٤٦ محمد عبدالوهاب خلاص : قريظة ، ص ٢٧٢ .
- ٢٤٧ ابن حزم ، ص ١١٢ ، محمد عبدالوهاب خلاص : قريظة ، ص ٢٧٣ ، حمد صالح السحباني ،
 ص ١٠٤ .
- ٢٤٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٧ ، حمد صالح السحباني ، ص ٩٣ .
- ٢٤٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٠ ، ٩٩ ، محمد عبدالوهاب خلاص : قريظة ، ص ٣١٢ .
- ٢٥٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤١ ، ١٤٢ ، محمد عبدالوهاب خلاص : قريظة ، ص ٣١٢ .
- ٢٥١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ، محمد عبدالوهاب خلاص ، ص ٣١٢ .
- ٢٥٢ ابن حزم ، ص ١١٩ ، عبدالرحمن الخسائبي ، ص ١٤٩-١٥١ .
- ٢٥٣ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٤ .
- ٢٥٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٦١ .
- ٢٥٥ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٧-٩٨ ، حمد صالح السحباني ، ص ٨١-٨١٠ .
- ٢٥٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ، ١٤٦ .
- ٢٥٧ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦١ .
- ٢٥٨ محمد عبدالله علان ، ص ٧٠١-٧٠٤ ، وفاء عبدالله سليمان المزروع : الخليفة الأيوبي الحكيم
 المستنصر ، جده ، إدار المعبودية للنشر والتوزيع ، د . ن . ن . ص ١٢٣-١٤٥ .
- ٢٥٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ ، ١٠٩ ، اسعد بن عويد : النية الاقتصادية ، ص ٧٣-٧٥ .
- ٢٦٠ عياض ، ج ٧ ، ص ٢٩٧ ، ج ٨ ، ص ١٠ ، ابن سعيد ، ج ١ ، ص ١٥٥-١٥٧ ، التباي ،
 ص ٤٨٨ ، حسين مؤنس : شيوخ الخضر ، ص ٧٨-٧٩ .
- ٢٦١ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٦٧ .
- ٢٦٢ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٤١ .
- ٢٦٣ المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٧-٣٢٩ .
- ٢٦٤ المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٥٠ .
- ٢٦٥ المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧١٤-٧١٥ .
- ٢٦٦ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٤ .
- ٢٦٧ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٣٠٩-٣١١ ، الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن احمد بن

- ضمان (ت ٧٤٨ هـ) : طبقات القرام ، تحقيق احمد خان ، الرياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٩٩٧ م ، ج ٢ ، ص ٥٧٣-٥٧٤ .
- ٢٦٨ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٣٨٩ .
- ٢٦٩ المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧١٦-٧١٥ .
- ٢٧٠ ابن حزم ، ص ١١٩ ، ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٦١٤-٦١٥ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٣٩١-٣٩٢ ، ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ابن سعد ، ج ١ ، ص ١٠٣-١٠٤ .
- ٢٧١ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٥٩ .
- ٢٧٢ المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٠-٢١١ .
- ٢٧٣ ابن حزم ، ص ٤٤-٤٥ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .
- ٢٧٤ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٧١٧ .
- ٢٧٥ عياض ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ ، ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧١٨-٧١٩ ، الضبي ، ص ١١٤ .
- ٢٧٦ ابن الأثير : الميلية ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .
- ٢٧٧ الحميدي ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٥٤-٥٥ ، النصبي ، ص ١٤٣ .
- ٢٧٨ ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٥٧٦-٥٥٧ .
- ٢٧٩ النظر ملحق رقم (٢) علماء قرطبة الخارجين منها إلى داخل الأندلس وخارجها .
- ٢٨٠ ابن حزم ، ص ١١٨ ، احمد بن جبرون ، ص ١٤٥ ، عبدالرحمن الخاتجي ، ص ١٣٩-١٤٢ .
- ٢٨١ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٢٠٤-٢٠٥ ، ابن الأثير ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر (ت ٦٥٨ هـ) : إحياء الكتاب ، تحقيق صالح الأثير ، دمشق ، مجمع اللغة ، ١٩٩١ م ، ص ٢٠٣-٢٠٥ .
- ٢٨٢ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٩٥-٢٩٦ .
- ٢٨٣ عياض ، ج ٧ ، ص ٧ ، ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧٤١-٧٤٢ .
- ٢٨٤ عياض ، ج ٧ ، ص ٢٨٩-٢٨٩ ، ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧٤٧-٧٤٨ .
- ٢٨٥ حامد الشافعي دياب : الكتب والكتاب في الأندلس ، القاهرة ، دار إقام للطباعة والنشر ، ١٩٩٨ م ، ص ١٠١ ، ١١٠ ، ولعماد عبدالله المزروع : الحكم المستنير ، ص ١٣١-١٣٢ .
- ٢٨٦ حامد الشافعي دياب : الكتب والكتاب في الأندلس ، ص ١٣٤ .
- ٢٨٧ ابن الخطيب ، ص ١١٧ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ١١٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥١ .
- ٢٨٨ أكبر مطلق ، ص ٢٥٩ ، محمد عبدالوهاب خلاص : قرطبة ، ص ٢٣٧ ، محمد عبدالوهاب خلاص : القضاء في الأندلس ، ص ٨٥ ، كمال السيد مصطفى ، ١٨٩-١٩٠ ، احمد محمد اسماعيل الجمال ، ص ١٦٠-١٦١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، محمد بن صبور : جواب من الواقع الأندلسي ، ص ٣٧ .

النظم القضائية والتشريعية في إنجلترا
عهد الملك هنري الثاني ١١٥٤ - ١١٨٩م
 د. أسامة إبراهيم حسيب (*)

مقدمة:

لفظ القانون Law ليس بهربي وجمعه قوانين ومفردة قسانون، والقوانين هي الأصول^(١)، وكتب في عهد الملك هنري الثاني Henry II الذي تأثر بدوره بالعديد من القوانين السابقة منها القانون الروماني وقوانين جستنيان والآنجلوسكسون والنورمان. ويُعد القانون الروماني أساساً للعديد من النظم القانونية السائدة في العالم اليوم والمعروفة بالنظم القانونية اللاتينية، وترجع القيمة العلمية لدراسة القسانون الروماني إلى ما يحتويه من مفاهيم ونظريات قانونية تبلورت عبر مئات السنين وما زالت راسخة في علم القانون حتى اليوم^(٢).

ولعب العرف Mores Majorum دوراً مهماً، في نشأة القسانون الروماني وتطوره، سواء كان ذلك بشكل صريح أم مستتر، والعرف بمثابة قاعدة للقانون الذي يستند إلى عادات الناس، مادام التشريع يعتمد قوته من قبول الشعب لحكمه، فإن ما يرتضيه الشعب دون أن يكون مدوناً ينبغي أن يكون ملزماً للجميع^(٣).

ولقد تصدى رجال الدين لمهمة تفسير القانون والإفتاء وظل القانون يقوم على مجموعة من الأعراف والتقاليد الدينية التي ينفرد رجال الدين العلم بها، وبذلك يعد القانون تقنياً للأعراف المتبعة، حتى وإن كان لا يتناول بالتنظيم كافة تفاصيل النظم والمعاملات القانونية، واقتصر تفسير القانون في البداية على رجال الدين، ثم ظهرت طائفة من المدنين شاركوا رجال الدين في تفسير القانون^(٤).

ومن القوانين التي استفاد منها الملك هنري الثاني قوانين الإمبراطور جستنيان التي أسفرت جهوده عن تقسيم القانون الروماني إلى أربع مجموعات، المجموعة الأولى وهي مجموعة الدساتير أو الشرائع Institutions ٥٢٨-٥٣٤م، وقسمه إلى اثنتي عشر كتاباً وينقسم كل كتاب إلى عدد من الأجزاء، ويضم كل جزء منها عدداً من الدساتير الإمبراطورية ويحمل كل دستور اسم إمبراطور بداية من تراجان (١١٧-١٣٨م) حتى جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)، ثم المجموعة الثانية وهي الموسوعة القانونية

(*) مدرس بكلية الآداب - جامعة سوهاج.

الديجست Digest ٥٢٠ - ٥٢٢ م ، ثم المجموعة الثالثة وهي النظم وتتكون من أربعة كتب ينقسم كل منها إلى عدة أجزاء يبلغ عددها تسعة وتسعين جزءاً ، وكانت محل إعجاب القانونيين ، وتتمثل المجموعة الرابعة في التجديدات Novella Leges وبلغ عدد الدساتير مائة وثمانية وستين دستوراً ، أصدر منها جستنيان مائة وأربعة وخمسين والباقي في عهود لاحقة^(٥).

وكانت مجموعة القوانين المدنية Corpus Juris Civilis والتي تعد أكبر مجموعة قانونية جمعت وقد جعلت قوانين جستنيان المطلقة في إصدار القوانين وتنفيذها رهناً بمشيئة الإمبراطور أو القانون الملكي Lex Regia^(٦).

وكانت إنجلترا هي البلد الأوروبي الوحيد التي لم يخضع نظامها القانوني لتأثير قوانين جستنيان خضوعاً كاملاً ، فبينما كان القانون قد بدأ يتسرب داخل النظم القانونية في ألمانيا وفرنسا في القرن الثاني عشر ، كان القانون الإنجليزي يسير في اتجاه آخر ، ويطور النظم والمؤسسات والمبادئ التي كانت تختلف اختلافاً بيناً عن الأسس النظرية والإجراءات التي يقوم عليها القانون الروماني ، ولا يمكن تجنب الموضوع الذي يطرح نفسه في أن إنجلترا قد طورت نظامها القانوني الخاص بمنأى عن النظام القانوني الروماني^(٧).

وليس حقيقياً أن مجموعة قوانين جستنيان لم تكن معروفة في إنجلترا فقد كان هناك واحد من أبرز العلماء البيولونيين وهو إيرنيريوس Innerius يقوم بالتدريس في إنجلترا في أربعينات القرن الثاني عشر ، كما أن كثيراً ممن عملوا في الجهاز الإداري الملكي في الشطر الأخير من عهد هنري الأول (١١٠٠-١١٣٥م) تلقوا تعليمهم في فرنسا وإيطاليا ، كما كانت غالبية القضاة في عهد هنري الأول والثاني من رجال الكنيسة الذين تلقوا الدراسات التمهيدية المعادة في الإجراءات القانونية الخاصة بالقانون الروماني والقانون الكنسي ومبادئ كل منهما ، ومن المؤكد أنهم كانوا على درجة كافية من الدراية بالقانون الروماني بحيث يدخلونه إلى إنجلترا ، والقانون الجرمانى الذي يرجع أصلاً إلى الفترة الانجلوسكسونية كان من النقاء والقوة بحيث لم يكن أمام القانون الروماني الدارج في إنجلترا إلا التأثير به ، بحيث صار النظام القانوني الجرمانى هو الذي يحكم الممارسات والمذاهب القانونية الإنجليزية خلال فترة ما قبل الغزو النورمانى ، ولم يكن للحكام الانجلو-نورمان بعد الغزو ليهتموا بالحفاظ على القانون الروماني. ولقد فرض هنري الثاني القانون المدني الروماني على إنجلترا لأنه يتلاءم مع مبادئه العامة مثلاً كان مناسباً لألمانيا وفرنسا. وينبغي في النهاية أن نشير إلى وجود قانون جرمانى بسيط في الإمبراطورية لم يمنع الحكام الألمان من تطبيق القانون المدني الروماني في بلادهم ، أما سلطنة هنري الثاني في إنجلترا فكانت أعظم كثيراً^(٨).

واستعان الملك هنري الثاني بالقوانين التي سنّها الملوك الانجلوسكسون مثل قوانين الملك اثبرت Athelbert (٥٥٠-٦١٦م) ملك كنت Kent ، والملك آسن Ine (٦٨٨-٧٢٦م) ملك Wessex ، والملك أوفلا Offa (٧٥٨-٧٩٦م) ، والملك

الفرد Alfred (٨٧١-٨٩٩م)، والملك إدوارد Edward (٨٩٩-٩٢٤م)، والملك
إيثلستان Ethelstane (٩٢٥-٩٣٩م)، والملك إدموند Edmund (٩٢٩-٩٤٦م)،
والملك إدجار Edgar (٩٥٩-٩٧٥م)، والملك إثلرد Ethelred (٩٧٥-١٠١٦م)،
والملك كانت Canute (١٠١٦-١٠٣٥م)، وكذلك قوانين سجلات الأراضي Land
Book، كل هذه القوانين استفاد منها الملك هنري الثاني في تشريعاته القانونية
بالإضافة إلى القوانين النورماني^(١٠).

والنظيم القانوني والقضائي عند الإنجولوسكمون ينقسم إلى قسمين: قوانين
القضاء المحلي، وقوانين القضاء الملكي، فالقسم الأول: ثم تكن توجد محاكم خاصة في
البلديات الصغيرة Township أو القرى نظراً لصغر حجمها، ولكن توجد محكمة تسمى
المائة Hundred Court وتعد كل شهر، كما توجد محكمة المقاطعة Shire
Court وتعد مرة أو مرتين في العام^(١١).

ولم تضم هذه المحاكم قضاء متخصصين يطبقون القانون عن دراسة وعلم،
ولكنها كانت أشبه باجتماع يعقد للنظر في المنازعات بين الأفراد، حيث كانت اختصاص
المحاكم تشريعياً وتنفيذياً وقضائياً ويقتصر الحضور على الأحرار فقط^(١٢).

والقسم الثاني، القانون الملكي أو مجلس شورى الملك واثان Witan^(١٣)، وكان
يتكون من كبار رجال المملكة من النبلاء والأساقفة وكبار مساهد الأرض، وكانت
اختصاصاته محدودة للغاية، يأخذ رأيه في المراسيم والقوانين التي يصدرونها، كما
يفصل في النزاع بين أفراد فقط، وليس له حق الفصل في المنازعات التي تنشأ بين
العامة، أو الحق في التدخل في أحكام المقاطعات ومحاكم المائة^(١٤).

ولقد وجه الملوك الإنجولوسكمون اهتماماً كبيراً لضمان سير العدالة وتطبيقها
على جموع المواطنين دون تميز، فراجع الملك الفرد الأحكام التي صدرت من القضاء،
وإن جاءت بها أخطاء تعرض القضاء للتوبيخ، ويجبرونهم على الاستقالة أو يقبلوا على
دراسة المزيد من القانون بإتقان، وعاش المواطنون في جو من العدالة والطمأنينة
فأمنت البلاد، لمع اللصوص والقتلة والخارجين عن القانون أنهم لن يفلتوا من
العدالة^(١٥).

أما القانون النورماني فكانت محكمة المقاطعة تُعقد تحت رئاسة الشريف^(١٦)،
مرتين كل عام، أما محكمة المائة فتعقد برئاسة شخص يتم تعيينه من قبل الشريف
لإدارة إقليم المائة يسمى المعاون Bailiff واختصاصات المحكمتين إدارية وتنفيذية
وقضائية. وتصدر قراراتها بالأغلبية، وكان الاختصاص النوعي لكل من محكمة
المقاطعة ومحكمة المائة في كافة المسائل المدنية والجنائية، وللمدعي حرية رفع دعواه
أمام أي من المحكمتين^(١٧).

وقد تبلور النظام القانوني في إنجلترا وفي عهد الملك هنري الثاني، فاستحق
بجدارة أن يطلق عليه لقب مؤسس القانون الإنجليزي، فبدأت الدولة في عهده تسيطر
سيادتها ممثلة في سيادة القانون على كافة أرجاء المملكة، وانتصار سلطان القانون

الديني والأعراف المحلية التي كانت سائدة، ولم يكن تطور القانون يتم فجأة بل كان يحدث تدريجياً إلى أن تطور النظام القانوني الإنجليزي^(١٧).

يذكر بعض المؤرخين أن هنري الثاني بعد من أعظم شخصيات العصور الوسطى على الإطلاق وحاكم ذو عقلية قانونية إنشائية، بلغ بقوة عقله ومضاء عزمته مبلغ العاقرة، وأعطى للقرن الثاني عشر أعظم نموذج للملكية القوية المستندة، وكان هو الدولة حقاً، وأفاد إنجلترا في نقوية قواعد الحكم القانونية^(١٨).

وكان الملك هنري الثاني هو رأس الحكومة المركزية في البلاد ويعاونه مجلس البلاط Curia Regis ويتكون من رجال الحاشية المقربين والقواد العسكريين وكبار الإقطاعيين وكبار رجال الدين فضلاً عن كبار الموظفين، ويجتمع ثلاث مرات في العام^(١٩)، أما مجلس البلاط لا يجتمع إلا مرات قليلة في العام. وإدارة شئون البلاط اليومية تم تقسيم مجلس البلاط إلى مجلسين؛ الأول يسمى المجلس الكبير Magnum Concilium، والثاني يسمى المجلس الصغير Regis Concilium ومع مرور الزمن أصبح المجلس الكبير نواة البرلمان الإنجليزي والمجلس الصغير نواة المحاكم القضائية^(٢٠).

ويؤكد هلدروث Holdsworth^(٢١)، أن مجلس البلاط هو الهيئة القضائية العليا في البلاد، وقد كان له في هذا العصر نوعان من الاختصاصات فهو بوصفه محكمة إقطاعية تضم كبار الإقطاعيين، كان يختص بالنظر في المنازعات التي تنشأ بين الإقطاعيين والمتعلقة بالأرض والمجلس بوصفه مجلساً للعرش يجمع أعيان المملكة، فكان ينظر في القضايا العادية، واختصاصه الأخير ذو شقين، شق ابتدائي، ينظر بوصفه محكمة من الدرجة الأولى في كافة القضايا الجنائية التي تمس أمن المملكة.

ويؤكد جلاتيلف Glanvill^(٢٢)، أن محاكم أمن الملك Kings Peace كان ينظر إليها بوصفها محكمة استئنائية في الطعون التي ترفع إليه من أحكام المحاكم المحلية أو الإقطاعية، وكان الطعن يقدم من المتضرر من الحكم، ثم يصدر المجلس أوامر إلى المحكمة الدنيا بإرسال ملف الدعوة مصحوباً بمذكرة الدفاع، وما هو مطلوب منها بصحبة أربعة من أعضائها يتولون الدفاع عن حكمها أمام مجلس البلاط، ولمجلس البلاط أن يؤيد حكم المحكمة أو يعيد القضية إليها بطلب إعادة النظر أو التصدي للنظر فيها، وفي الحالتين الأخيرتين يحكم على المحكمة بغرامة بدفعها أعضاؤها.

ويمكن الطعن في الحكم بعد صدوره عندما يتظلم أحد الخصوم إلى مجلس البلاط، ويكون لديه أسباب تدفع إلى الشك في حيادية المحكمة ونزاهتها. فيصدر الملك أوامره بإحالة الدعوى إلى مجلس البلاط، أو يحذر المحكمة التي تنظر القضية بتوخي الحذر والحيدة، وللملك الحق في أن يصدر أمر استحضار Writ of Certiorari تسحب عن طريق الدعوة إلى محكمة مجلس البلاط، وكان للمحاكم اختصاصات في القضايا، وللملك الحق أن يصدر أوامره للمحكمة بالامتناع عن الاستمرار في نظر الدعوى Writ of Prohibition إن كانت المحكمة غير مختصة، أو يصدر أمراً بنظر الدعوى Writ of

من الواضح أن امتيازات الملك في القانون الإنجليزي في تلك الحقبة كانت واسعة حتى الأوامر الملكية التي يصدرها لم يكن منحها بمثابة حق للخصوم، وغالبا كانت هذه الأوامر تشتري نظير مبلغ من المال يدفعه طالب الأمر إلى الملك.

وساعد الملك هنري الثاني في أحكام قبضته القانونية ثلاثة موظفين، الأول هو نائب الملك ويحل محله عند غيابه، ويتوب عنه في رئاسة مجلس البلاط، ويقوض عنه في إصدار القوانين^(٣٤). ونائب الملك في النظام القانوني وهو المسئول عن تنفيذ المهام الصعبة مثل تحصيل الضرائب وقبادة الجيش، والمهر على الأمن Watch and ward وتعقب المجرمين الفارين من وجه العدالة Hue and Cry. فضلا عن أنه يرأس الإقليم Shire Moot الذي يجتمع فيه الملاك الأحرار على فترات معينة لتصريف الشؤون القانونية. وكان القضاء المتقنون Justices in Eyre، يقومون من آن لآخر بزيارة تلك الأقاليم - كما يفعل المبعوثون أيام الفرنجة - لسماع الشكاوى ضد الملك وللتفتيش على الإدارة ومحاكمة المجرمين، ولتنظر القضايا المدنية وخاصة القضايا المهمة التي روى حفظها لإصدار حكمهم فيها، وهؤلاء القضاء المتقنون يختارون من بين هيئة محكمة الملك وهي محكمة مقسمة إلى ثلاث محاكم للقانون العام ومقرها وستمنستر^(٣٥).

وثاني هؤلاء الموظفين المستشار Chancellor وقد لعب دوراً مهماً للغاية في تطور النظام القانوني الإنجليزي، ونظراً للطابع الديني للمملكة، كان المستشار هو كبير قساوسة القصر، ثم أصبح فيما بعد مدنياً ذا اختصاصات مدنية، وكسالم أسرار الملك ورئيس ديوانه، ويعد المرجع القانوني الأول في البلاط، وكثيراً ما كان يوفده المجلس الملكي إلى بعض أرجاء المملكة للفصل في القضايا المهمة^(٣٦).

وثالث هؤلاء الموظفين هم الحكام Justices وكان لقب الحاكم يُطلق على كل عضو من أعضاء مجلس البلاط، ثم أصبح يُطلق على الموظفين الذين يرسلهم الملك إلى أرجاء المملكة للتفتيش على إدارة البلاد والحكم في الدعاوى^(٣٧).

قانون كلاريندون Assise Clarendon ١١٦٤م:

لم يصادف الملك هنري الثاني توفيقاً في حل المشاكل المترتبة على ازدياد سلطة رجال الدين، الذين أرادوا الاستقلال بالكنيسة عن السلطة العثمانية ومضاعفة نفوذها وممتلكاتها في ضوء الحرب الأهلية التي أعقبت وفاة هنري الأول، وساعدهم في ذلك ازدهار القانون الكنسي في القرن الثاني عشر، مما زاد من سلطان المحاكم الدينية، حتى أصر رجال الدين على ألا يحاكموا إلا أمام المحاكم الكنسية وحدها^(٣٨).

والحقيقة أن الكنيسة ورجالها تمتعوا بنفوذ عظيم منذ حكم الإنجوسكون، فكان لهم الحق في تنويع الملك عن طريق رئيس أساقفة كانتربري، ولهم كذلك صلاحيات قانونية عديدة، فهم الذين يشرفون على المحاكمات وتنظيم القسم والشهادة والعديد من

الامتيازات^(٣١)، وكانت الكنيسة حسب القانون تتقاضى جزءاً من أموال الغرامات التي تقع على المواطنين، وتحصل غرامات عديدة على مرتكبي الجرائم كل حسب جرمه، وكان القانون الكنسي يحسب رجال الدين من التعدي عليهم من قبل أي مواطن^(٣٢).

لذلك قرر الملك هنري الثاني اختيار صديقه الحميم ومستشاره توماس بيكت Tomas Becket لمنصب رئيس أساقفة كانتربري، الذي درس القانون المدني في بولونيا، أملاً أن يؤدي اختياره إلى إحكام سيطرته على رجال الدين، على أن بيكت تمسك بقوة بحقوق الكنيسة وسموها، وأصبح المدافع الأول عن حقوق الكنيسة وتمسك بعدم محاكمة رجال الدين، ومن هنا كان الصدام مع الملك^(٣٣).

ومما يستوجب الالتفات إليه في سياسة هنري الثاني أنها اصطدمت اصطداماً عنيفاً مع الكنيسة. لأنها كانت الهيئة الوحيدة دون غيرها من الهيئات العامة التي اتفردت بالوقوف في وجهه وناقشة الحساب في أفعاله، حين عد إلى الحد مما تمتعت به من حصانة قانونية Benefit of clergy كي يخطئها خاضعة لسلطة المحاكم الملكية، وقد لاحظ الملك أن تطبيق القانون الكنسي على المتهمين من رجال الدين أخف وطأة من القانون العادي، مما جعل الناس تفضل في عرض قضاياهم المدنية أمام المحاكم الكنسية، حيث يمكنهم استئناف أحكامهم أمام المحاكم البابوية في روما، وأصبح من حق البابا عن طريق الاستئناف أن يتدخل في سلطة القضاء الإنجليزي، وإن كان هناك الآلاف من رجال الدين وأتباعهم في إنجلترا، ارتكب الواحد منهم العديد من الجرائم ولم ينل أحكاماً رادعة من المحاكم^(٣٤).

وكان الملك هنري الثاني يرى بسط سلطانه على جميع الطبقات بما فيهم رجال الدين، خاصة عندما وجد أن المحاكم الكنسية تتواطأ مع رجال الدين ولا تعاقبهم على ما يرتكبونه من جرائم^(٣٥)، وانتهز الملك الوضع السياسي المتردي للبابوية في ضوء النزاع على العرش البابوي بعد وفاة البابا هارديان الرابع سنة ١١٥٩م بين البابا إسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١م) في ليون الفرنسية والبابا المضاد فيكتور الرابع (١١٥٩-١١٦٤م). وقرر حسم جميع القضايا القانونية المتعلقة بالإصلاحات الكنسية بدون الرجوع إلى روما، ومنها عرقلة الالتماسات البابوية، وإعادة حقوق التاج على الأساقفيات الشاغرة، وتأكيد حقه في محاكمة رجال الدين المذنبين، وفرض ضريبة على الكنيسة وأصدر تحريماً عاماً على رئيس أساقفة كانتربري ثيوبالد ورجال الدين بالاعتراق بأي من البابويين المتنازعين^(٣٦).

وكانت أولى مراحل النزاع بين الملك ورئيس الأساقفة توماس بيكت أوائل أكتوبر ١١٦٢م في المجمع الذي عقد في وستمنستر، وطالب الملك فيه بوضع قانون لمحاكمة رجال الدين المذنبين في حضور القاضي الملكي، وإذا تمت إدانتهم يجردوا من مناصبهم الدينية ويسلموا للمحكمة المدنية للعقاب مرة أخرى على جرائمهم. ورفض بيكت هذا القانون الذي من شأنه تقليد سلطة الكنيسة في الحل والعقد، ورفض إزال عقوبتين عن إهانة واحدة طبقاً للقانون^(٣٧).

وتعارضت رغبة بيكت المدافع عن الحقوق الكنسية وامتيازاتها على رأسها عدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية، ورغبة الملك هنري الثاني الذي يطمح في بسط سلطانه على كافة الطبقات، وانقسم رجال الدين بين مؤيد ومعارض رغم إعلان احترامهم للحقوق والتقاليد الملكية الموروثة، ومنهم هيلاري أسقف شستر Hilary of Chester الذي وعد باحترام التقاليد، وارنولف ليسيويس Arnulf of Lisieux وريتشارد أسقف رومستر Worcetr وأسقف وينشستر Winchester الذين صمموا على تأييد البابا^(٣٧)، في المقابل تجد أساقفة سالسبوري ونوريتش Norwich رافضوا الوقوف مع بيكت ووقفوا في صف الملك خوفاً من بطشه، كما أنهم حاولوا إقناع بيكت بتسوية الأمر مع الملك^(٣٨).

وجاء رد الفعل البابوي على غير المتوقع، فقد طلب البابا من بيكت الاعتذار وعدم الدخول في نزاع معلن ومباشر مع الملك، ويرجع بعض المؤرخين وعلى ذلك لعدة أسباب منها : أن البابا في مناه في فرنسا ولا حول له ولا قوة، وتأيد الإمبراطور الألماني فردريك الأول بقوته للبابا المضاد، وخوفاً من انضمام حليف قوي مثل هنري الثاني إلى معسكر فردريك الأول، وفي هذا الصدد لم نتوقع من البابا أكثر من ذلك، وأصاب أسقف بواتييه كبد الحقيقة ١١٦٣م بقوله : " لا نتوقع المساعدة من البابا في أي شيء يمكن أن يؤدي إلى الإساءة إلى الملك"^(٣٩).

وفي غضون ذلك، أرسل الملك مبعوثيه إلى إنجلترا وهما : فيليب رئيس دير ايمون L'Aumone وروبرت ميلون R. Melun حاملين تعليمات البابا ورسائله لحث توماس على طاعة التقاليد الملكية القديمة الموروثة، وردا على رسائل البابا أعلن الملك احترامه لأية توصية يتم للتوصل إليها^(٤٠).

واستدعى الملك هنري الثاني أشراف إنجلترا وفرنسانهم وأساقفتهم في اجتماع عقد في مدينة كلارندون Clarendon - الواقعة في الجنوب الشرقي لاسالسبوري - في الثالث عشر من يناير ١١٦٤م، لإقرار القانون الخاص بالتقاليد الملكية والذي تمت صياغته باسم قانون كلارندون Assize of Clarendon^(٤١).

واجبر الملك هنري الثاني الحاضرين على التوقيع على القانون الذي يقضي على المزايا التي تمتع بها رجال الدين لفترات طويلة، ووقع العديد من الأسماء البارزة في المملكة بالموافقة على القانون^(٤٢).

وبعد هذا القانون ذو أهمية فائقة في تاريخ القانون الإنجليزي ، نظرا لما تضمنه من تغيرات في إدارة العدالة سواء في القانون الكنسي أو القانون العثماني ، التي مهدت الطريق أمام الحكم النهائي في إنجلترا.

وأهم بنود هذا القانون :

(١) إذا اندلع نزاع بين العثمانيين أو بين رجال الدين والعثمانيين أو حتى بين رجال الدين أنفسهم بخصوص أملاك أو ترككات فإنه ينظر في ذلك من خلال محكمة الملك.

(٢) تعد الكنائس إقطاعاً تابعاً للسيد الملك، ولا يمكن أن تُمنح لأحد دون موافقته أو التنازل منه .

(٣) في حالة ثبوت الاتهام علي رجال الدين يتم استدعاؤهم بواسطة محكمة الملك، وإرسال قاضي ملكي إلى محكمة الكنيسة المقدسة للإشراف علي المحاكم دون تدخل وإذا ثبتت إدانة رجل الدين أو اعترافه بالإثم لا يحق للكنيسة حمايته .

(٤) لا يحق للأساقفة ورؤسائهم وكبار رجال الدين مغادرة المملكة بدون إذن من الملك نفسه، وفي حالة موافقة الملك علي مغادرتهم، يجب أن يقدموا ضماناً للملك بعدم إلحاق الأذى بالملك والمملكة.

(٥) لا يحق للأشخاص المحرومين كنسياً أن يُعطوا عهداً أو يؤدوا قداساً أو قسماً، ولكن عليهم فقط التعهد بالمثل أمام محكمة الكنيسة لئتم تبريرتهم.

(٦) المتهمون العلمانيون لا يجب اتهامهم إلا من خلال القانون وشهود في حضور الأسقف، وإذا أُلقيت التهمة علي أحدهم حينئذ ليس من حق أحد آخر أن يجرؤ علي اتهامهم، وعلي الشريف حاكم المقاطعة بناءً علي التماس يقدم للأسقف أن يدعو اثني عشر من الرجال والقانونيين من المناطق المجاورة أو المدينة التابع لها هؤلاء للقيام في حضور الأسقف (المحققين) الذين يستطيعون التوصل إلى الحقيقة.

(٧) لا يحق لأي شخص حرمان أي فرد من اتباع الملك، وعدم وضع احد منهم تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، إلا إذا عرض ذلك علي الملك سواء كان المحروم داخل المملكة أم خارجها، أما فيما يتعلق بحقوق المحكمة الكنسية فوجب إرساله إلى هناك لتسوية الأمور.

(٨) وينظر في الالتماسات إذا استدعت الضرورة، حيث إن الالتماسات يجب أن تصدر من رئيس الشمامسة للأسقف، ومن الأسقف إلى رئيس الأساقفة وتُنظر القضية أمام محكمة الملك، وبناءً علي أمره يحسم النزاع في محكمة رئيس الأساقفة، ولا يجب اتخاذ إجراء آخر بدون إذن الملك.

(٩) عند حدوث نزاع بين رجل دين وآخر علماني بخصوص أحد الأبنية، ما يرى رجل الدين أنه يتعلق بالامتلاك الكنسية، وفي المقابل يرى العلماني أنه إقطاع دينوي، حينئذ يتم تحكيم اثني عشر رجلاً من العدول، ويحكم الأمر عن طريق القاضي الرئيسي الذي يصدر حكمه في القضية الرئيسية الخاصة بالبناء المتنازع علي ملكيته، وإذا رأى القاضي أن البناء خاص بامتلاكات الكنيسة في هذه الحالة تستأنف القضية أمام محكمة الملك. وفي حالة عدم التحقق من ملكية الإقطاع أمام المحاكم العلمانية أو الكنسية فإن الذي يمتلك البناء في البداية لا يفقده حتى يتم إثبات ذلك من خلال الاستئناف (يبقى الحال علي ما هو عليه).

(١٠) إذا تم استدعاء أي فرد يعمل في المدينة أو القلعة أو الضيعة الإقطاعية التابعة للسيد الملك، من الكنيسة متمثلة في رئيس الشمامسة أو الأسقف عن إهانة

اقتربها أو غير ذلك عليه الاستجابة فوراً، وإذا رفض يتم وضعه تحت طائلة عقوبة اللعنة وليس الحرمان الكنسي، حتى يقوم التابع الرئيسي للملك في التنفيذ، ويضع نفسه تحت رحمة عقوبة الملك الصارمة، ويكون من حق القاضي الملكي والأسقف زيارة المتهم.

(١١) يطبق القانون الملكي علي رؤساء الأساقفة والأساقفة، وكل الأشخاص في المملكة الذين يحوزون أملاكاً بوصفهم من مستأجري أراضي الملك Tenants in cheif مثلهم مثل سائر البارونات عليهم الحضور لسماع أحكام الملك، والالتزام بالحكم سواء كان في صالحهم أم ضدهم.

(١٢) للملك الحق في اختيار رئيس الأساقفة أو الأسقف أو رئيس الدير عندما يصبح هذا المنصب شاغراً (التقليد العثماني في المناصب الكنسية) ويحصل الملك علي جميع الإيرادات المرتبطة بهذه المناصب الكنسية الشاغرة، يقوم الملك باستدعاء أكثر رجال الدين نفوذاً في الكنيسة، ويتم الانتخاب في كنيسة الملك وبموافقة رجال الدين في المملكة، يقدم رجال الدين فروض الولاء والطاعة لسيدهم الملك بوصفه سيدهم الإقطاعي الأعلى، ويتعهد رجال الدين بذلك قبل رسامتهم.

(١٣) إذا أقدم أحد النبلاء في المملكة علي سلب اختصاصات رئيس الأساقفة أو أحد الأساقفة أو حتى رئيس الشمامسة، يقوم الملك برد الحق لأصحابه وإرغامه علي تنفيذ العدالة، وإذا ما تجرأ أحدهم علي انتهاك حق من حقوق الملك الأصلية، يحق لرؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الشمامسة إرغامه علي تقديم التعويض للملك حسب القانون.

(١٤) الذين توقع عليهم عقوبة فقدان إقطاع الملك، لا يحتفظ هؤلاء بملكية الكنيسة أو المقبرة، لأن ممتلكاتهم صودرت وأصبحت من حق الملك، سواء كانوا داخل الكنائس أم خارجها.

(١٥) تنظر الالتماسات الخاصة بالديون في دائرة اختصاص الملك وليس الكنيسة.

(١٦) من المعروف أن رسامة الأشخاص من اختصاص الكنيسة ورجال الدين، ولكن الملك نهى عن ذلك، فلا يجب أن تتم رسامة أبناء الريفين بدون موافقة سيد المنطقة التي ينتمون إليها لمعرفة بمواليد المنطقة وهو كذلك فصل إقطاعي للملك^(١٧).

من الواضح أن هذه البنود القانونية قضت علي كثير من الحصانات التي تمتع بها رجال الدين، وأدت إلى تفاقم النزاع بين الملك ورئيس أساقفته بيكت، الذي رفض التوقيع علي هذه القوانين المهينة، ورفض ختم الوثائق بخاتم أسقفية الكبرى^(١٨).

وأرسل الملك هذا القانون للبابا الكسندر الثالث الذي رفض الموافقة عليه رغم صعوبة موقفه في فرنسا، ومن الواضح أن إصرار بيكت وعناده علي عدم التوقيع علي القانون يرجع إلى اتفاق مسبق بين البابا وبيكت علي عدم مراعاة أي وعد عثماني من

شأنه الحط من حرية الكنيسة أو حقوق الأسقفية الكبرى.

وفي غضون ذلك، أجبر الملك هنري الثاني الحاضرين علي التوقيع علي قانون كلارندون، غير عابئ برفض رئيس الأساقفة، وقدمه إلى المحاكمة ليحاكم أمام المحكمة الملكية وليس أمام المحكمة الكنسية، وجاء بيكت وعارض في هدوء أساقفته الذين أعلنوا مع الملك انه مذنّب لخروجه علي قوانين سيده الإقطاعي الأعلى ملك البلاد، وأعلن بيكت من جانبه انه سيستأنف القضية أمام محكمة البابا ثم خرج سالماً من القاعة بثيابه الأسقفية التي لم يجرؤ أحد علي لمسها^(٤٤).

وفي محاولة من جانب الملك لإذلال بيكت وتشويه سمعته طالبه بدفع ثلاثمائة جنيه إسترليني إيراد قلاع آي وبركهامستيد Eye and Berkhamsted أثناء عمله مستشاراً للملك، وخمسمائة جنيه إسترليني اقترضها من اليهود بضمان الملك، وإيرادات جميع الإقطاعيات التي بقيت شاغرة أثناء عمله مستشاراً للملك، مما دفع بيكت للهرب سرا إلى فرنسا^(٤٥).

واستقبله البابا بترحاب وأعلن علي الفور إدانته ثانية لقانون كلارندون، وأعاد ترسيم بيكت رئيس أساقفة كانتربري، وألغى البابا العقوبات التي فرضها الملك علي رئيس الأساقفة في نورثهامبتون، وأعلن البابا إذا ظل الملك علي عناده حتى ١١٦٦م سوف يكون لبيكت مطلق الحرية في توقع العقوبات الكنسية عليه وعلي أتباعه الكنسيين^(٤٦).

ونتيجة لعناد الملك قام البابا بتعيين بيكت في إبريل ١١٦٦م مبعوثاً بابوياً في مقاطعة كانتربري، وأصدر له تفويضاً بمعاقبة الذين اغتصبوا ممتلكات أسقفية كانتربري، وإعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد ما يقرب من ثلاثين من خصومه في إنجلترا وعلي رأسهم رئيس أساقفة لندن وسالسبوري، ولذلك مال رجال الدين في إنجلترا إلى التزامهم بطاعة مبعوث البابا بيكت، وأصبح وضع الملك صعباً بسبب فقدان ولاء رجال الدين، وعاد الملك ليؤكد من جديد للبابا أن قانون كلارندون لا يتضمن أي شيء من شأنه أن يؤدي للاستياء الحقيقي للأسقفية المقدسة^(٤٧).

وباعت المفاوضات بين الملك من ناحية والبابا ورئيس الأساقفة والأساقفة من ناحية أخرى بالفشل، وخوفاً من وقوع المملكة تحت عقوبة اللعنة اتخذ الملك شروطاً صارمة تضاف إلى قانون كلارندون وهي :

١. يعاقب بالخيانة العظمى للملك والمملكة كل من يحاول إحضار عقوبة اللعنة والحرمان الكنسي للمملكة سواء من البابا أم من رئيس الأساقفة.
٢. لو وافق أي شخص من أتباع الكنيسة أو حتى العثمانيين علي مثل هذه العقوبة، يتم نفيه هو وأقاربه من المملكة ويجردوا من مناصبهم وممتلكاتهم.
٣. من يثبت تعاطفه مع البابا أو رئيس الأساقفة بكتابة التماس أو غير ذلك يعاقب كخائن للملك والمملكة، وعلي رجال الدين عدم مغادرة المملكة بدون إذن من الملك.

٤. من يثبت تردده علي البابا أو رئيس الأساقفة يُعرض ممتلكاته للضياع. وأقسم الجميع علي مراعاة ذلك، وتم جمع بنس القديس بطرس للخزانة الملكية^(٤٨). وفي الرابع عشر من يونيه ١١٧٠م أقدم الملك علي تتويج ابنه هنري ملكاً نكاية في رئيس الأساقفة، وطلب الملك تتويجه في كنيسة ويستمنستر علي يد روجر رئيس أساقفة يورك، وعلم البابا بالتتويج الوشيك فأرسل رسالة إلي روجر لمنع التتويج، إلا إذا قام الملك هنري الثاني بإلغاء قانون كلارندون^(٤٩). وقام البابا في التاسع من أكتوبر ١١٧٠م بإرسال عدد من رجال الدين لحثه علي تنفيذ وعده بإلغاء قانون كلارندون، وفوض البابا بيكت باتخاذ ما يتراءى له في حالة عدم موافقة الملك^(٥٠). غير أنه تم اغتيال توماس بيكت في التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١١٧٠م علي مذبح كاتدرائية كانتربري، وبعدها تم إصدار مرسوم من البابا بموافقة الملك يقضي ببطلان قسم الأساقفة في اجتماع كلارندون وأن التوقيع علي هذا القانون يعد باطلاً ولاغياً^(٥١).

من الواضح مع نهاية عهد الملك هنري الثاني بدأ انحسار الأمور القانونية الدينية، فبدأ بفصل الشؤون الدينية للكنيسة عن الشؤون الدنيوية للدولة، وهذا واضح من خلال عرض قانون كلارندون.

والدليل علي انحسار القانون الديني في عهد هنري الثاني وهو اختصاص المحاكم الكنسية في عهده بالدعاوي الدينية دون غيرها من الزندقة والحنث باليمين، ودعاوي تأديب رجال الدين، ودعاوي الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق في الكنيسة والمواريث وغير ذلك من الأمور التي ترتبط بالدين، ولذلك أصبح نظر تلك الدعاوي يدخل في اختصاص محكمة الأسقف بدلاً من محاكم المئات كما كان متبعاً من قبل^(٥٢).

ومع اتساع اختصاص المحاكم الملكية التي تنظر في القضايا المدنية وأحياناً الكنسية، قابل ذلك عدم إقبال واضح من المواطنين علي السلطة القضائية في الكنيسة، وفضلوا التقاضي أمام محاكم الملك، الذي قام بتشكيل هيئة قضائية استئنافية لكل مقاطعة تسمى محكمة المفوضين^(٥٣). ولعل هذا يدل علي ضعف السلطة القضائية الكنسية في الانتقال التدريجي لاختصاصاتها إلي المحاكم الملكية، وأصبح اختصاصاتها في القضايا الجنائية والمدنية ضئيل.

قانون نورثامبتون Assize of Northampton ١١٧٦م:

أن تأثير كل من القانون الروماني والقانون الكنسي علي القانون الإنجليزي قد توقف عن هذه المرحلة وعند ذلك الحد، واتسم هذا القانون الأخير في عهد هنري الثاني بعدة سمات من أهمها العدالة والإنصاف Equity التي سن لها الملك هنري الثاني قانوناً خاصاً.

ولم يكن هذا القانون له بنود مثل سابقه، ولكنه مجموعة من القواعد القانونية والأحكام المنتقاة التي ذهبت بانجلترا إلي مصاف الدول الأوروبية في التطور الدستوري، وبذلك أصبحت أول دولة برلمانية في أوروبا، ومن هذه الأحكام والقواعد الإجرائية في

المحاكمات، وتعديل نظام التقاضي في المحاكم، وتوسيع نظام المحلفين في التقاضي، ووضع سلطة للقضاة الملكيين المتنقلين، ومحاولة إرساء العدالة عن طريق الأوامر الملكية والابتعاد عن محاكم السادة الإقطاعية غير العادلة إلى غير ذلك من القواعد القانونية المهمة^(٥١).

القواعد الإجرائية:

القانون الإنجليزي في عهد الملك هنري الثاني تم التمييز فيه بين الدعاوي الخاصة والعامة، فالخاصة تتعلق بحقوق الأفراد القانونية سواء كانت مدنية أم جنائية، أما العامة فتتعلق بمصلحة الملك بصورة مباشرة سواء بال جرائم الخطيرة المتعلقة بأمن الملك أم بالإيرادات العامة، وترفع الدعاوي الخاصة بطلب من المدعي، أما العامة فيدعي فيها موظف ملكي للملك^(٥٢).

وكانت المحاكمات في عهد هنري الثاني قد تطورت، فعند نظر أي قضية تُحدد الجلسة، ويحضر المدعي والمدعي عليه، ويقوم المدعي بعرض قضيته ويحلف يميناً على صدق دعواه ويؤكد اليمين بحضور عدد من الشهود لا تنصب شهادتهم على صحة وقائع الدعوى كما ذكرها المدعي، بل على صحة يمين المدعي لثقتهم فيه واشتهاره عندهم بالصدق والأمانة، ويستغنى عن التزكية يمين المدعي بالشهود إذا توفرت دلائل دامغة على صحة دعوى المدعي كالدليل الكتابي في المسائل المدنية أو حالة التلبس في المسائل الجنائية. ثم يجيء دور المدعي عليه، إذا أقر حكم المدعي، وإن أنكر يحلف يميناً على عدم أحقية المدعي فيما يطلب، وفي هذه الحالة تلجأ المحكمة للإثبات على طريق ما يلي: التزكية Compurgation من المدعي عليه، والبيئة، والمحنة أو الاختبار الإلهي Chaneary والتقاتل Battle^(٥٣).

والتزكية هي أن يذكي المدعي عليه بيمينه بإنكار الدعوى بعدد من الشهود - ضعف شهود المدعي عليه - يشهدون لا على وقائع الدعوى ولكن على ثقتهم في المدعي عليه حسب العرف القانوني، وعادة يكون المزكون اثني عشر شخصاً وقد يقل العدد إلى ثلاثة، ويزيد إلى اثنين وسبعين شخصاً^(٥٤)، وقد يكون المزكون أقارب للمدعي عليه، وهم عادة يحلفون على الكتاب المقدس أو أثر مقدس مهم بجثة السكان في المقاطعات، وتختلف قيمة اليمين باختلاف صاحبه فاللورد يوزن أضعاف يمين الرجل الحر، ولا يمين لغير الأحرار^(٥٥).

ووجدت فئة من الرجال تحترف التزكية، لا يرددهم العقاب عن الحنث في اليمين مقابل المال. مما دعا إلى إنكار عمل هذه الفئة وتحريمها في بنود قانون كلارندون ١١٦٦م^(٥٦).

وثاني طرق الإثبات البيئة - شهادة الشهود - وهي شهادة على صحة الوقائع التي يذكرها المدعي والمدعي عليه، وشهادة الشهود من أدلة الإثبات الشكلية بمعنى أنه بمجرد قسم الشهود ثم النطق بالشهادة يقيم أركانه، ولا سلطة للمحكمة على الشهود في

مناقشتهم أو وزن أقوالهم. وليس للمحكمة من سلطة في التقدير إلا إذا تعارضت أقوال المدعي والمدعي عليه في واقعة واحدة، وفي هذه الحالة فقط يجوز للقاضي الملكي أن يُقدر شهادة الشهود لكل طرف منهما على حدة للتوصل للحقيقة، وإظهار على من تكون البينة^(١٠).

أما الإثبات الثالث فهو المحنة Ordeal أو الاختيار الإلهي، وهي إرادة إلهية لا تدخل للبشر فيها، وتصدر في كل قضية على حدة، فالإدانة والبراءة كانت تحدد بتدخل الآلهة إلى جانب البريء وضد الجاني، ولهذا تم اللجوء إلى الاختبارات القضائية الغيبية والتي يطلق عليها المحنة مؤمنين أن الآلهة ستقف إلى جانب العدل وكانت أكثر تلك الاختبارات شيوعاً واستخداماً النار والماء والسم، فكان يطلب من المتهم لعق حديدة مُحماة فإذا ظهر به أثر النار كان كاذباً مذنباً، أو يُلزم بغمس يده في الماء المغلي لالتقاط قطعة حديد يُلقي بها في الإناء، أو يُلقي به في النهر مكبلاً بالأغلال على اعتبار أن الماء مقدس^(١١). أو استعمال نظام البشعة ومفاده أن أهل القتل إذا ما أعوزهم الدليل، فإنهم يلجئون إلى المُبشع الذي يثبت ما إذا كان المتهم بريء أم مذنب، بإحماء إناء من النحاس على النار ثم يطلب من المتهم أن يلغقه ثلاث مرات، ثم يرد للحاضرين فإذا وجد أن هناك أثر للنار على لسانه حكم بإدانته، وإلا فيقضي ببراءته، أو أن يُطعم لقمة من الخبز عليها التعاويذ من قبل الكنيسة لتقف في حلقة^(١٢). من الواضح أن سلطة تقدير الأدلة كانت رهناً بوسائل الغيب، ولكن كان ضرورياً وجود جهاز قضائي يعتمد على قواعد العقل والمنطق في دراسة الأدلة للحكم بالعدل على الأفراد.

وإن كانت طريقة الحكم في المحنة تختلف باختلاف الجرم في عهد هنري الثاني أو باختلاف شخصية المتهم. ففي جرائم ممارسة السحر والشعوذة، يُقذف بالساحر في النهر. أما المتهمون من المتقنين ورجال الدين - الهرطقة - فكانوا يُطعمون اللقمة المقدسة في ساحة الكنيسة، أو إشعال نار ضخمة ويُقذفون فيها أو يمسون قضيباً محمياً من النار، أو يُغمس ذراعهم في ماء مغلي^(١٣).

وظل نظام المحنة مطبقاً فعلياً في إنجلترا حتى ١٢١٥م عندما قرر مجمع اللاتيران Lateran بإدانته ومنع الأساقفة من المشاركة في إجراءاته^(١٤).

ورابع طرق الإثبات النقاتل - ادخله النورمان عند فتح إنجلترا سنة ١٠٦٦م - وفي عهد هنري الثاني أصبح من ركائز القانون الإقطاعي، فأصبحت المبارزة وسيلة إثبات رئيسية، وهي معركة حقيقية تتم أمام المحكمة وفق إجراءات معينة، والمنتصر هو صاحب الحق، فكان انتصار المتهم دليلاً على براءته والعكس صحيح، وجوهر هذه الطريقة هو وقوف عدالة السماء إلى جانب الحق، وتتبع المبارزة في دعاوي الأراضي والدعاوي الجنائية، ولم يكن يسمح بالمبارزة إلا بين الرجال البالغين الأقوياء، أما النساء المسنونات والأطفال والمعوقون فيحق لهم بموجب القانون أن ينيبوا أحدا عنهم،

ومع مرور الزمن أصبح الشهود هم الذين يتبارزون من أجل إظهار الحق، فاستأجر الأغنياء الشهود الأكثر قوة لينالوا الحق بالقوة لا بالعدل^(١٥).

ومع مرور الوقت اتسع اختصاص المحاكم الملكية وبخاصة في تكاثر القضايا بإشكالاتها المختلفة أمام مجلس بلاط الملك، ونظراً لكثرة مشغوليات الملك وتعدد انتقالاته الخارجية تفرع مجلس البلاط إلى عدد من المحاكم المختصة وكانت كالتالي:

١- محكمة الطلبات العامة Court of Common Pleas :

اختصت هذه المحكمة بنظر المنازعات التي لا تتعلق بحق الملك، وهي الدعاوي المدنية ودعاوي الأراضي، وتتشكل هذه المحكمة من عدد من أعضاء مجلس البلاط وهم الشريف والمستشارون وأمين الخزانة العامة بالإضافة إلى كبار القساوسة وحكام المقاطعات^(١٦)، وقد انفصلت هذه المحكمة تماماً عن مجلس البلاط، في أواخر القرن الثاني عشر.

وكانت هذه المحكمة قبل انفصالها عن مجلس البلاط تنتقل مع الملك حيث يُقيم، ولما كثرت أعمالها عين لها رئيساً من القضاة Chief Justice واستقرت في العاصمة لندن بعد انفصالها واستقلالها^(١٧).

٢- محكمة منصة الملك Court of the King's Bench :

دعاوي هذه المحكمة تتعلق بمصلحة الملك ودعاوي الجرائم الماسة به، وهذه كلها من الدعاوي العامة، وبالطعون التي ترفع أمامها في أحكام المحاكم الدنيا، وفي بداية الأمر لم يكن تشكيل هذه المحكمة يختلف عن تشكيل مجلس البلاط، فمجلس البلاط ينظر في القضايا التي لم تخرج عن اختصاصه بعد. ولما درج الملك على عدم حضور اجتماعات مجلس البلاط لأسباب مختلفة، وأصبحت محكمة منصة الملك تعقد جلساتها للنظر في الدعاوي المرفوعة إليها، مما أدى إلى تميزها عن مجلس البلاط من ناحية، وإلى عدم اعتبار حضور الملك جلساتها أمراً رئيسياً من ناحية أخرى. وكان يساعد هذه المحكمة الملكية لجنة من القضاة الملكيين Circuits^(١٨).

٣- محكمة بيت المال Court of Exchequer :

وقد تفرعت هذه المحكمة من ديوان الخزانة العامة أو ديوان بيت المال، وكان يتكون من عدد من أعضاء مجلس البلاط، فكانت تختص بكل ما يتعلق بالأحوال العامة من رقابة على الإيرادات والمصروفات وضبطها، ودعوة شريف كل مقاطعة للحساب مرتين في العام^(١٩)، وقد استقل هذا الديوان من مجلس البلاط وأصبح له رئيسه الخاص به بدأ من ١٢٣٤م.

وكانت طبيعة عمل ديوان بيت المال تحتم عليه أن يفصل في المنازعات المتعلقة بحسابات الدولة، كمنازعات الضرائب وجباية الأموال وهي منازعات تقوم بين الملتزمين ودافعي الضرائب بشأن تقدير قيمة الضريبة وأصل استحقاقها.

وتميزت محكمة بيت المال ببساطة الإجراءات وتيسيرها التي كانت تتقيد بها المحاكم الأخرى. ولقد ابتدعت محكمة بيت المال مبادئ جديدة على النظام القانوني في

عهد هنري الثاني، ومنها إلزام الخصم بتقديم دليل لديه ولو لم يكن في صالحه^(٧٠). ونظراً لسهولة إجراءات محكمة بيت المال ولجوتها إلى مبادئ العدل والإنصاف، فقد تحايل الأفراد على عرض قضيتهم أمامها حتى ولو لم تكن القضايا متعلقة بالأموال الملكية، ويتم ذلك بأن يدعو أنهم مدينون بأموال عامة ويعجزون عن سدادها، وسميت هذه الدعوة المقدارة Quo Minus أي الدعوة المقدرة في حدود الدين المزعوم للخزانة العامة^(٧١)، وتوسعت محكمة بيت المال حتى أصبحت تنظر أحياناً الدعاوى المدنية التي تدخل في اختصاص محكمة الطلبات العامة أو محكمة منصة الملك.

القضاة المتنقلون Itinerant Justices :

هم قضاة يوفدهم الملك هنري الثاني للتفتيش على الإدارة والمحاكم، وفي البداية كانت إقامتهم محددة في المحاكم الملكية في العاصمة الإنجليزية لندن، بحيث تنظر فيما يدخل في اختصاصها على قواعد قانونية، إلا أنه كان لابد أن يمتد سيادة قضاء الدولة (القضاة الملكي) إلى كافة أنحاء إنجلترا ومن هنا ظهرت فكرة نظام القضاة المتنقلين في كل أرجاء البلاد^(٧٢).

ومع مرور الوقت أصبح الملك هنري الثاني يرسل مندوبين عنه للتفتيش على المقاطعات تفتيشاً إدارياً ومالياً وقانونياً، وكانت لجان مندوبي الملك تدعو شريف المقاطعة وأعيانها وجميع رجالها الأحرار وزعماء المدن والقرى وتباشر في حضورهم الاختصاصات المنوطة بها، ومنها نظر المظالم والتفتيش على المحاكم الأهلية لتطبيق القانون، وكانت أعلى سلطة في إنجلترا في عهد هنري الثاني هو المجلس القضائي The Cariaregis^(٧٣).

واعتماد الملك هنري الثاني على إرسال قضاة متخصصين ليست لهم أي اختصاصات سوى القانونية فقط في الفصل في المنازعات، وانقسم هؤلاء القضاة إلى لجنتين في المملكة، واحدة تفصل في القضايا المدنية والأخرى في القضايا الجنائية التي يكون المتهمون فيها محتجزين رهن المحاكمة، وتسمى بلجنة الاستماع والحكم Commission of yet and terminer واللجنة الأخرى تنظر في الدعاوى الجنائية التي يكون المتهمون فيها محجوزين رهن المحاكمة، وهي التي أطلق عليها لجنة إخلاء السجون Commission of Goal Delivery^(٧٤).

وظهر في عهد هنري الثاني نظام قاضي الحيازة المتنقل الذي حل بالتدريج محل اللجان القضائية، وكانت دعاوى الحيازة تدخل في اختصاص المحاكم الإقطاعية، التي تتبع وسائل الإثبات كالتقاتل، فاستحدث هنري الثاني نظام القاضي الملكي (فرد أو هيئة) تطوف البلاد للفصل في المنازعات المتعلقة بالحيازة. ويلجأ القاضي الملكي في إثبات الدعوى إلى أهل المقاطعة أو الاسترشاد برأي أربعة من الأعيان يجلسون إلى جواره في المحكمة، ومارسوا دورهم على قدر كبير من الكفاءة والعدل، وكان يتم إرسال هؤلاء القضاة مرة واحدة كل عام، وعرفوا باسم قضاة الشرع Justices in Assize^(٧٥).

نظام المحلفين في إنجلترا Jury :

كلمة محلف مشتقة من الحلف باليمين، لأن المحلفين يقسمون علي أن يؤدوا مهمتهم بالأمانة والحياد التام^(٧٦)، ويعد من النظم التي تميز بها القانون الانجليزي وبنية هذا النظام أن يجلس في هيئة المحكمة مع القضاة عدد من المواطنين بتطبيق حكم القانون في الوقائع حسبما انتهى إليها المحلفون^(٧٧).

ويرى بعض المؤرخين أن أصل هذا النظام يرجع إلى النورمان، حيث رأى الفاتحون النورمان أن عليهم إشراك الأهالي في تمحيص وقائع الدعوى، واتخذ النظام طريقاً أفضل من الطرق البدائية المتبعة لدى الانجلوسكسون والغالب أن هذا النظام يرجع أصله إلى عام ٨٢٩م حين أمر الإمبراطور لويس التقى (٨١٤-٨٤٠) Louis le Pieux ألا تثبت حقوق الملكية إلا بإقرار من جيران موثوق بهم بعد أن يحلفوا اليمين، ويعتقد بعضهم أن أصله انجلوسكسوني وضعه الملك اثلرد^(٧٨).

في حين يؤكد المؤرخ ستبس أن نظام المحلفين أصله نورماني ويرجع بالتحديد إلى عهد الملك وليم الفاتح (١٠٦٦-١٠٨٧م) في محاولة منه لتحسين الوضع القانوني في إنجلترا، فادخل نظام الاستجواب الفرنجي وكلف القضاة أن يستخدموه في الدعاوي التي تخص المقاطعات في البداية مثل الضرائب والأراضي الملكية، ثم أصبح اللجوء إلى هذا الاستجواب امتيازاً يمنحه الملك لمن يشاء وغالباً بمقابل مادي، ثم استخدم في فض المنازعات بين كبار البارونات، وخولت محاكم المقاطعات حتى استجوب بعض الرجال الذين يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة، وكانت شهادتهم من عوامل الحسم في القضايا القانونية المتعلقة بالشئون المدنية، وفي إطار إصلاحات هنري الثاني القضائية استخدم نظام المحلفين - صار أساس العملية القانونية في إنجلترا - في القضايا المدنية^(٧٩).

أما الدعاوي الجنائية فيرجع تاريخ نظام المحلفين فيها إلى قرار قانون كلارندون سنة ١١٦٦م، الذي أوجب أن تنتخب كل مقاطعة اثني عشر في كل إقليم، فيها أربعة من كل قرية يحلفون علي إخبار القضاة المتنقلين، عن كل ما ارتكب من جريمة قتل أو سرقة أو نهب أو إيواء مجرمين، ويحاكم المتهمون أمام الشريف في حالة غياب القضاة المتنقلين وبمرور الوقت انتقل الاختصاص الجنائي من الشريف إلى قضاة الأمن^(٨٠)، وأصبح هؤلاء القضاة يطلبون من الشريف اختيار اثني عشر من المشهور عنهم بالصدق يقومون بالفصل ما إذا كان الشخص مذنباً أمر بريئاً^(٨١).

ولقد مكن ذلك الملك هنري الثاني من تنظيم إجراءات الإثبات ومبادئه، وقام المحلفون بالحكم في الدعاوي المدنية والجنائية، وهو نظام يترك تقدير الأدلة لسلطة المحلفين طبقاً لقناعتهم^(٨٢)، وإن كان القانون الفرنسي المعاصر للانجليزي في عهد الملك هنري الثاني قد أنعش الأدلة القانونية، فأصبح الاتهام من شأنه أن يؤدي مباشرة إلى إدانة الشخص، كما أن شهادة شخصين علي المتهم دليل علي إدانته.

وامتد نظام المحلفين ليشمل اكتشاف الجرائم والمجرمين إلى جانب المسائل المدنية، وكان المحلفون في الأصل يقضون بما يعملون، وتتكون هيئة المحلفين من اثني

عشر محلفاً ويجب أن يصدروا حكمهم بالإجماع، ثم أدخلت تعديلات على نظام المحلفين فأصبح لا يشترط الإجماع واكتفوا أن يصدر القرار بموافقة عشرة فقط من العدول الانجليز^(٨٣).

وأكد المؤرخون على أن عنصر جماعة المحلفين Local Juries هم الفئة المختارة من أعيان إنجلترا والمقيمون فيها، والعارفون لجميع المواطنين والملمون بالقانون العام، ويستعين بهم القضاة المتجولون في تحقيق الجنايات والدعاوي ومعرفة أسرار الأمن ومخالفات القانون من اللصوص والأشرار وقطاع الطرق، والتبليغ عنهم وتقديمهم للمحاكمة، وبذلك أحل هنري الثاني نظام المحلفين محل النظم البدائية الشائعة وقتذاك في تحقيق الجنايات والدعاوي المدنية، كإمتحان المدعي عليه بالنار أو الماء الساخن أو البارد أو تأدية اليمين على من أنكر، والاحتكام إلى السيف، وغير ذلك من الوسائل التي اعتمدت على القضاء والقدر للوصول إلى الحق^(٨٤)، واقتضى نظام المحلفين أن ترسل كل مدينة أربعة رجال من أبنائها وكل مائة مزرعة اثني عشر رجلاً للمثول أمام الشريف للتبليغ - بعد أداء القسم - عن ارتكاب جريمة قتل أو سرقة في دائرته. ثم يدعي المتهم قوفاً أمام المحكمة بحضور المحلفين، وتجري الاختبارات البدائية السابقة الذكر، فإن دلت على براءته وأصر المحلفون على إدانته، أخذ هنري الثاني بوجهة نظر المحلفين وأمر بنفي المتهم^(٨٥).

وكانت المحاكم المألوفة عند الانجليز وسائر القبائل الجرمانية ادعاء ودفاعاً بين المدعي والمدعي عليه أمام القضاة، وكان الحكم يبتى إما على الشهادة أو الامتحان التعذيبي أو على الامتحان في القتال، ولكي يُنجي هنري الثاني ملك الأراضي الأحرار من خطر المجازفة في هذه الامتحانات، قرر أن تبنى الأحكام على الحقائق فجرى ذلك أولاً: في الدعاوي المدنية ثم في الدعاوي الجنائية، وذلك كان بداية المحكمة التي تدعى الآن مجلس المحلفين، وأما كيف نشأت طريقة المحاكم فمسألة مختلف عليها، ولم يستتبها هنري الثاني ولكن أجراها وعممها في القضاء الانجليزي^(٨٦).

وكانت محكمة المحلفين في عهد هنري الثاني نوعين:

أولاً: محلفو التحقيق في القضايا المدنية :

مثال: إذا نازع زيد قطعة أرض لعمر تجري المقاضاة هكذا: يستحصل عمر من المجلس القضائي على أمر بإيقاف كل عمل شرعي، وأما زيد فينتدب أربعة فرسان محلفين من مقاطعته وهؤلاء ينتدبون اثني عشر فارساً محلفين آخرين ينظرون في ما إذا كانت الأرض له أو لعمر، ويؤيدون رأيهم بالإيمان الصادقة، وحينئذ يمثل كل من زيد وعمر أمام المحلفين الستة عشر لدى القضاة، حالما يتفق القضاة على أحد وجهي القضية يصدر حكمهم، وإذا تعذر اتفاق المحلفين الستة عشر ينتخب محلفون آخرون^(٨٧).

ثانياً: المحلفون العظماء:

كان المتقاضون يلجئون إليهم في القضايا الجنائية وهؤلاء ينتخبون محلفي

التحقيق، وكان عددهم محدوداً كعدد هؤلاء - ستة عشر أو علي الغالب اثني عشر - وكانوا شهوداً محلفين يشهدون بما يعلمون من حقائق القضية. وكانوا يختلفون عن المحلفين في الوقت الحاضر بأنهم لا يصدرن حكماً. وظلت الأحكام وقتاً طويلاً تبني علي نتائج الامتحانات التعذيبية، وفي أول الأمر كان الشريف (أي رئيس محكمة الولاية الثاني) هو الذي ينتخب المحلفين، ولكن بعد ذلك صارت المحكمة الجزئية تنتخبهم، لأنها تعد ممثلة للمقاطعة كلها، فهذا هي أحق بانتخابهم، ولا يخفى أن من شروط الانتخاب أن يكون المحلفون من جيران المتداعي^(٨٨).

وهكذا أصبح المبدأ الانتخابي هو السائد، وشمل أنواع الحكم الانجليزي من قضاة وغيرهم، فالمحلفون تنتخبهم المحاكم الجزئية المؤلفة من نواب ينتخبهم الشعب. وسرعان ما ألف الناس ذلك النظام واطمأنوا إلى عدالته مع قلة تكاليفه، وبذلك وضعت أسس القانون العام الانجليزي، ولقد تطور نظام المحلفين، فيجلس اثنا عشر رجلاً في منصتهم جنباً إلى جنب مع أعضاء المحكمة العادية، ويصدرون رأيهم في القضية سرّاً قبل أن يعلن رئيس المحكمة حكمه^(٨٩).

الأوامر الملكية Writs :

بدأ الملك هنري الثاني حقيقة نسج الموارد الحكومية في إنجلترا لتكون قوة موحدة، ويبرز هذا بوضوح أكثر في مجال العدالة، فقد كان إرساء العدالة هو الواجب الأول المتوقع من المحاكم في القرن الثاني عشر. ولم يشهد عهد هنري الثاني جهداً كبيراً للتحقيق في الجرائم والسيطرة عليها فحسب، ولكنه شهد أيضاً سعيًا حثيثاً لكي يقدم للمجنى عليهم وسيلة سريعة وفعالة لتعويضهم، وقد أمكن تحقيق ذلك من خلال الأوامر القضائية، وهي عبارة عن خطابات رسمية باسم الملك توضح الإجراءات التي يتم اتخاذها بمقتضى القانون لتصحيح الأخطاء التي كان الأفراد قد شكوا منها^(٩٠).

واستعانت المحاكم الملكية في بسط سلطانها وتحقيق سيادتها علي كافة أنحاء المملكة بوسيلة هذه الأوامر الملكية، وكان الملك هو رأس السلطة القضائية في المملكة، فالشخص الذي يتعدى علي حقه يقدم تظلمه للملك، أو حكم عليه في محكمة دنيا، يصدر الملك أوامره للمحكمة الدنيا يبين فيها موضوع الطلب وما يجب علي المحكمة عمله، وبهذا الأمر تنشأ دعوى جديدة تمثل سابقة قضائية علي المحاكم ويجب الأخذ بها في المستقبل، ونظراً لكثرة التظلمات أصبح مستشار الملك هو الذي يصدر هذه الأوامر ويختتمها بخاتم الملك^(٩١).

وعندما يتعلق الأمر الملكي بموضوع الدعوى كان يأمر الملك المحكمة أن تجيب الشاكي إلى طلبه، وقد يتعلق الأمر بالإجراءات القضائية الخاصة بإرسال ملف الدعوى أو إحالة الدعوى إلى المحكمة الملكية أو الرد علي التظلمات وفحصها بدقة، وكل ذلك كان من اختصاص محكمة الملك بعد الاطلاع علي الأوامر الملكية^(٩٢).

وثمة نوع آخر من الأوامر الملكية القضائية، مثلاً، كان علي شكل خطاب موجه إلى المقاطعة يأمره إذا رأى أن رجلاً قد أساء لآخر عمداً بالاستيلاء علي أرضه أو

بضاعته أو اتهامه زورا، بأن يتخذ الخطوات اللازمة لتعويضه، أو يحضر إلى بلاط الملك ليشرح السبب في عدم قيامه بذلك، وكل ما كان علي كنية الملك أن يقوموا به، إذا اشتكى رجل من ضرر لحق به هو أن يسجلوا اسمه علي الأمر الملكي القضائي المناسب ويرسلوه إلى الموظف المختص. وكان الملك يرسل القضاة من بلاطه بانتظام إلى المقاطعات لتتناول القضايا المرفوعة بهذا الشكل، ولكي يحكموا فيها باسمه. وعندما كانت الضرورة توجب تأكيد حقائق القضية، كانت الأوامر الملكية القضائية تطلب من حكام المقاطعات ممن يعرفون الحقيقة أن يحضروا أمام القضاة للإدلاء بها^(١٣).

كان مستشارو الملك هنري من الرجال القانونيين، إذا أبدوا من خلال ممارستهم روح المدارس القانونية السائدة آنذاك، وكانت الأوامر الملكية القضائية لديهم تصنيف الأخطاء الواجب تصحيحها بيد الملك، والتفريق بين الضرر الواقع علي الأفراد أو الممتلكات والأضرار بالسمعة الطيبة وتقديم الوسيلة المناسبة للتعويض في كل الحالات^(١٤).

وبمرور الزمن قننت الأوامر الملكية وأصبح هناك قياس علي الأوامر الملكية السابقة. وبسبب كثرة الأوامر الملكية تم صدر "قانون ويستمنستر" سنة ١٢٨٥م حظر بمقتضاه إصدار أوامر جديدة وقضى بالقياس علي الموجود. ومن ثم زاد عدد المتقاضين الساعين إلى تحقيق العدالة بشكل أساسي مما كان متاحا قبل ذلك. وخاصة بين أبناء الطبقات الدنيا أي المستأجرين في غير الضياع الملكية، وهكذا بدأت السلطة الملكية تصبح شيئا ذا معنى بالنسبة لقطاع من الناس أكبر من ذي قبل، حينما كانت الحماية التي وفرها الملك من خلال الأوامر الملكية والقضائية في محاكمة بدأت تشكل قانوناً عاما للبلاد كلها^(١٥).

قانون حمل السلاح لسنة ١١٨١م Assisa de Armis :

أصدر الملك هنري الثاني قانون السلاح في العقد الأخير من فترة حكمه، وبمقتضاه يسمح به لرجال الدين الأحرار في المملكة من جميع الطبقات إحرار السلاح وحمله للدفاع عن البلاد، وخاصة وأن الأخطار قد أحاطت بها من الداخل في ثورات أولاده عليه أو من الخارج من ملوك فرنسا، وأمر الملك نوابه في كل المقاطعات بجمع أولئك المسلحين في عاصمة الإقليم ثلاثة أو أربعة مرات سنوياً لتدريبهم وإعدادهم إعداداً عسكرياً قوياً ليكونوا في أهبة الاستعداد لمساعدة الملك^(١٦).

وأهم بنود هذا القانون الاثنى عشر هي:

- ١- يحق للفرسان الحائزين علي الإقطاع امتلاك الأسلحة من خوذة ودرع وترس ورمح، ويحق لهم ملكية هذه الأدوات كل حسب سعة الإقطاع الذي يملكه، فكلما زاد الإقطاع كان من حق الفارس زيادة حيازته من الأدوات الحربية.
- ٢- من حق كل رجل حر لديه ممتلكات منقولة أو إيجار ستة عشر مارك أن يمتلك خوذة ودرع ورمح، وأن كان لديه منقولات أقل أو إيجار يبلغ عشر مارك يملك غطاءً للرأس ورمحاً وخنجرًا فقط.

٣- يسمح لكل الأحرار في المملكة في امتلاك صدره واقية وغطاء للرأس ورمح.

٤- يجب أن يقسم كل رجل حر في المملكة قبل عيد القديسة هيلاري . St Hilary علي أن يمتلك الأسلحة السابقة كل حسب وضعه ويكونون في خدمة الملك إخلاصاً وولاءاً لشخصه والمملكة. ولا يحق لهؤلاء الذين يملكون تلك الأسلحة أن يبيعوها أو يرهنوها أو إهدائها لأحد المقربين لهم، كما لا يحق لأي سيد إقطاعي مهما كانت سلطته أن يحرم رجاله الأحرار من امتلاك تلك الأسلحة، التي ترفع من شأن الملك والمملكة في مواجهة الأعداء.

٥- إذا توفي أحد حائزي هذه الأسلحة يحصل الوريث عليها كاملة وإن كان دون السن القانوني - أي غير مؤهل لاستخدامها - حينئذ يتعين علي الوصي لهذا الوريث أن يكون وصياً علي أسلحته أيضاً، حتى يبلغ السن القانونية ويستخدمها في مصلحة الملك والمملكة.

٦- وحدد قانون الملك هنري نوع الأسلحة وعددها التي يمتلكها كل رجل حر، وغير مسموح بموجب هذا القانون أن يمتلك أسلحة أكثر من المسموح بها، وإذا حدث وامتلك أكثر فعليه أن يقوم ببيعها للأشخاص الذين حددهم الملك وهم الأحرار، أو منحها لأي رجل يحتفظ بها لخدمة سيده الملك.

٧- لا يجوز لأي يهودي أن يمتلك درعاً أو سيفاً وإذا أحدث فعليه التخلص منها فوراً، لأي شخص بحيث تبقى في خدمة الملك، وذلك لأنهم ملكية خاصة للملك.

٨- لا يُسمح لأي شخص مهما كان يحمل السلاح خارج المملكة إلا بأمر مباشر من الملك، وكذلك لا يجوز لأي فرد أن يبيع الأسلحة لشخص يستخدمها خارج المملكة، ومن يفعل ذلك يُعرض نفسه للمساءلة.

٩- يتعين علي القضاة حسب القانون أن يجعلوا البارونات والفرسان وكبار الإقطاعيين أن يقسموا بإعطاء أسماء كل الرجال الأحرار في مقاطعتهم، ممن يمتلكون دخل ستة عشر مارك سواء إيجار أو أملاك أو ما قيمته عشرة ماركات، ويقوم القضاة بتسجيل أسماء الذين أقسموا في السجلات الملكية Close Rolls، ويتلى عليهم بنود قانون السلاح، ويقسمون علي الحصول علي تلك الأسلحة طبقاً لقيمة الممتلكات الشخصية لهم، وتكون رهن خدمة الملك والمملكة، وإذا تصادف عدم وجود أحد الأشخاص الممتلكين لهذه الأسلحة داخل المملكة أثناء وجود القضاة، يحدد له القضاة ميعاداً آخر للمثول أمامهم للقسم، وإذا تخلف للمرة الثالثة فيحدد مكان معلوم في مدينة وستمنستر ووقت معلوم في الثامن من عيد القديس مخائيل St. Michael للقسم، حتى يحوز الأسلحة قبل عيد القديسة هيلاري، وإلا سيُعرض حياته وممتلكاته للخطر.

١٠- علي القضاة أن يعلنوا في كل أنحاء المملكة بأن كل الذين لا يملكون الأسلحة طبقاً للشروط سالفة الذكر، فإن الملك سوف يأمر بالقبض عليهم، وسوف يعرضون أنفسهم للقتل أو مصادرة أراضيهم ومنقولاتهم.

١١- لا يجب أن يقسم أحد في المملكة مهما كانت مكانته نيابة عن رجل حراً آخر وأعظم سيد إقطاعي من الذين يملكون ستة عشر ماركاً أو حتى العشرة ماركات سواء إيجار أو ملكية.

١٢- يتعين على القضاة بأمر من الملك أن يصدرُوا الأوامر في كل أنحاء المملكة بأن لا يُسمح لأي شخص إذا كان حريصاً على حياته وممتلكاته، بأنه لا يحق له شراء سقينة أو بيعها لأعداء المملكة في الداخل والخارج أو تصدير الألواح الخشبية الخاصة بها خارج المملكة، ومن يخالف يعارض نفسه لعقوبات مملكة قاسية^(٩٧).

وفي النهاية يأمر الملك بعدم قبول القسم على قانون السلاح إلا من الرجال الأحرار فقط.

والحقيقة أن مثل هذا القانون كان ضرورةً عسكرية ملحة، فعلى المستوى الداخلي كانت هناك شحنة دائمة بين الملك هنري وزوجته الياتور - وضعها في عزلة زهاء ستة عشر عاماً - التي دائماً كانت تحرص أولادها ضده، حتى أن الملك ريتشارد أكبر أولاده لم يتورع عن التحالف مع الملك الفرنسي ضد والده، والخطر الخارجي يتمثل في أسرة آل كابيه في فرنسا التي تنتظر أي فرصة للانقضاض على الملك والمملكة.

وأدرك الملك هنري الثاني تماماً أن النظام الإقطاعي في تكوين الجيش لا يتناسب مع هذا العصر لأنه بموجب هذا النظام كان على الأفاضل أن يخدموا في جيش الملك أربعين يوماً فقط في السنة، وهو الأمر الذي لم يجد الملك هنري له حلاً في الحملات العسكرية الطويلة ضد أعدائه من ملوك فرنسا. وأمر الملك هنري الثاني السماح للأفاضل بإرسال الفرسان للخدمة في الجيش الملكي الإقطاعي لقاء مبلغاً يتم تقديره حسب حجم إقطاع الفصل، وعُرف هذا النظام باسم البدلية أو الاسكوتاج Scutage^(٩٨).

وأصبح النظام الإقطاعي الذي كرهه هنري الثاني ومحاكمه إلى زوال، فكان للمحاكم الإقطاعية اختصاص عام في منازعات الأراضي التي تنشب بين أواسط الحائزين وصغارهم ونوع من الاختصاص الجنائي الذي كان يُعد منحة من الملك، أما المنازعات المدنية ومنازعات الأراضي بين كبار حائزي أرض الملك، وكذلك الجرائم التي تمس أمن الملك تدخل في اختصاص المحاكم الملكية، وانتشر أمر هذه المحاكم الملكية وطمح على المحاكم الإقطاعية حتى تلاشت، وأصبحت المحاكم الملكية في عهد هنري الثاني لها السيادة^(٩٩).

ويرجع السبب في كراهية المواطنين للمحاكم الإقطاعية إلى تحيزها وعدم تحري الدقة والعدل في أحكامها، وفي تخلف إجراءاتها البالية، ولجوءها إلى الوسائل البدائية، وقصور مبادئها القانونية التي تطبق على المجتمع، وقد تقلص اختصاص هذه المحاكم الإقطاعية في عهد الملك هنري الثاني، وخاصة بعد إدخاله أمر الإحقاق Writ of Right في المحاكمات وهو أمر ملكي يوجه من الملك إلى المحكمة الإقطاعية إذا لم يسبقها أمر الإحقاق^(١٠٠).

فقد كان أمر الإحقاق هو أول خطوة في الابتعاد عن المحاكم الإقطاعية، وكانت الخطوة الثانية هي نظام المُحلفين بدلاً عن المحنة، التقاتل، وفي هذه الحالة تحال الدعوى وجوباً إلى المحاكم الملكية لنظرها، أما الثالثة هم قضاة الشرع وهم ملكيون، ويطلق عليهم القضاة المتنقلين الملكيين، وكانت مهمتهم الفصل في المنازعات التي من اختصاص المحاكم الإقطاعية^(١٠١).

وكان هناك بديل آخر أمام الملك هنري الثاني وهو الاستعانة بالمرتزقة واثبت هذا النظام فشله، وكرهه الانجليز كراهية شديدة بسبب معاناتهم منه، عندما احل الملك ستيفن (١١٣٥-١١٥٤م) المرتزقة محل الجيوش الإقطاعية، وخاضت البلاد حروباً إقطاعية طاحنة استمرت عشرين عاماً دمرت وخربت الأراضي الزراعية وإصابته حالة من الركود، وانتشرت المجاعات والأوبئة المدمرة بين الفلاحين، وهذه الحروب تعني ضياع الإيرادات وخسارتها وتكررت هذه الأفكار والمبادئ الفوضوية في عهد هنري الثاني ١١٧٤م في حروبه مع أولاده^(١٠٢).

ولم يكن أمام الملك هنري الثاني بديلاً عسكرياً سواء لإحياء النظام القانوني الانجلوسكسوني القديم Fyrd أم المقاومة الشعبية إلا من خلال إصدار قانون السلاح ١١٨١م، الذي بمقتضاه يسمح لكل الرجال الأحرار في المملكة بحمل السلاح والدفاع عن المملكة ضد أي خطر في الداخل أو الخارج، وذلك عن طريق إعدادهم إعداداً عسكرياً ليكونوا عوضاً له عن الجيش النظامي^(١٠٣).

قانون الإنصاف Law of Equity

سن الملك هنري الثاني هذا القانون لاعتبارات إنسانية و لرفع الظلم عن كاهل المواطنين وتطبيق ما يسمى بروح القانون، وخاصة بعد ظهور العديد من حالات الظلم الصارخ، ويبدو فيها تقيد القضاء بالمبادئ القانونية علي حساب المصالح الاجتماعية، وتطبيق قانون الشريعة العامة وأحكام محاكمها، لذلك كثرت الشكاوى والتظلمات التي تقدم إلى الملك لرفع الظلم، فكون الملك محكمة المستشارية Chancery Court للنظر في تظلمات المواطنين، وحكمها يبني علي اعتبارات العدالة وليس علي السوابق القانونية والقضائية التي تقيد المحاكم الملكية، وأصبح بجانب قانون الشريعة العامة قانون يسمى قانون الإنصاف Equity Law وابتدع مبادئ قانونية طورت من النظام القانوني الانجليزي^(١٠٤).

ولقد أنشأ في البداية مكتباً للمستشار Chancery office سواء ملكي أم لأحد الأمراء، يمثل ذلك المكتب التواة الأساسية لظهور المحكمة المستشارية التي كان المستشار فيها هو رأس القضاء فكانت عادة الملوك والأمراء أن يتخذوا لهم مستشاراً يكون عمله الأساسي صياغة الوثائق كالمواثيق والمراسلات الدبلوماسية كالخطابات والمعاهدات وغير ذلك، وتمهر هذه الوثائق بخاتم الملك ثم يعهد بها للمستشار لحفظها^(١٠٥).

وكان الملك إدوارد المعترف (١٠٤٣-١٠٦٦م) أول من اتخذ لنفسه مستشاراً،

وأول من اصطنع خاتماً وكان يتحتّم علي الملك اختيار أفضل من تلقى قدراً عالياً من العلم والثقافة، لذلك اختار رجال الدين والقساوسة فهم أفضل علماً وجمعوا بين العلوم الدينية ودراسة القانون ، فكان المستشار الأمين الأول لسر الملك، والقائم علي الأحكام القضائية ويتمتع بنفوذ هائل في البلاد^(١٠٦).

ومع اختفاء وظيفة قاضي القضاة حل محلها المستشار الذي أصبح بالفعل هو الذي يشرف علي العمل القضائي في المملكة كلها، فكانت تخرج من تحت يده الأوامر الملكية Writs التي توجه مباشرة إلى محكمة شريف المقاطعة أو أتباعه الإقطاعيين الذين يقومون بالفصل في أي نزاع مدني أو جنائي، ولعبت هذه الأوامر الملكية دوراً مهماً في تطور التقاضي أمام المحاكم الملكية، وكانت هذه الأوامر الملكية تكتب بواسطة المستشار وأتباعه وتختتم بدون مراجعة من الملك، بخاتمته، فأصبح المستشار من الناحية القانونية هو الشخص الأول في إنجلترا ويمارس عمله باستقلال تام دون تدخل من أحد^(١٠٧).

وأصبح المستشار الملكي في عهد هنري الثاني يمثل حلقة الوصل بين محاكم الشريف العامة التي كان لها وجود مستقل عن الإدارة المركزية القضائية وبين مجلس البلاط الملكي، فكان المستشار هو أمين سر الملك وناصحه الأمين، وبالتالي أصبح أكثر الأعضاء في مجلس البلاط أهمية، وبخاصة أن الأوامر الملكية كانت تخرج من تحت يده، فأصبح علي صلة وثيقة بمحاكم الشريعة العامة^(١٠٨).

وفي نهاية عهد الملك هنري الثاني تحول هذا الجهاز القضائي وعلي رأسه المستشار إلى محكمة قضائية تفصل في المنازعات وليس مجرد جهاز قضائي يصوغ الأوامر الكتابية، وسار العمل في القضايا التي يكون فيها أحد موظفي جهاز المستشار طرفاً في القضية يفصل فيها بنفسه، ثم أضيف اختصاص قضائي آخر للجهاز وهو النظر في القضايا التي ترفع ضد الملك^(١٠٩)، وكان علي المستشار أن يطبق القانون العام أو قواعد الشريعة العامة في أحكامه القضائية.

وبعد دخول نظام المحلفين في القانون العام الإنجليزي أدخلها المستشار علي جهازه، وأصبحت من الأنظمة المهمة للفصل بين وقائع الدعاوى المختلفة ولقد كان الرأي الأخير في الفصل في القضايا يرجع إلى هذا المستشار نفسه ليطبق الحكم والقانون^(١١٠).

لقد كانت أحكام الشريعة العامة الانجليزية جامدة وتطبق كما هي ، ولم تعدم نهائياً وسائل إكسابها طابع المرونة ولكن في حدود ضيقة، فقد كفلت الصلة بين المحاكم الملكية وبخاصة محكمة منصة الملك وبين مجلس البلاط تحقيق بعض المرونة لتكون هناك روح للقانون يطبق علي من يرى القاضي أنه مظلوم فيرفع الظلم عنه، ولا يطبق نص الشريعة العامة وإن كانت هناك أوامر ملكية تصدر لقضاة بذلك لتحقيق مبادئ العدل^(١١١).

وكانت الطبقات الفقيرة هي التي يقع عليها الظلم، ومن الصعب رفع هذا الظلم

بسبب التكلفة المادية، فكان علي الفقراء أن يستصعدوا دعوة من محكمة الشريعة العامة ويدفعون مبلغ كبيراً استصدار إعلان للدعوى المرفوعة أمام القضاء، ويمكن للمحكمة قبوله أو رفضه، فكانت العملية صعبة لذلك لجأ هؤلاء المعدمون إلى المحكمة الملكية يطلبون إنصافهم لا علي أساس قواعد الشريعة والقانون، ولكن علي أساس العدل لرفع الظلم، ومن ثم تقدم الالتماسات مباشرة إلى الملك أو مجلس الملك^(١١٢).

وأصبح المستشار بعد ذلك هو الذي ينظر في الالتماسات مكان الملك وكانت تذهب له من مجلس الملك وخاصة أن المستشار كان أحد أعضاء المجلس الملكي البارزين، ثم أصبح بعد ذلك المستشار هو صاحب الحل والعقد فيها وحده وبدون الرجوع إلى الملك^(١١٣).

ولقد تجاوزت المحكمة المستشارية القائم علي رأسها المستشار الملكي أحكام الشريعة العامة، وأصدرت أحكاماً تتفق ومبادئ العدل، وقضائها يتسم بالغموض أحياناً لاعتقاد المستشارين أن يصدرها في أحكامهم بوازع من الضمير، متأثرين بالقانون الكنسي، فاهتموا برفع الظلم أكثر من اهتمامهم بتشريع القوانين، وأدى ذلك إلى ظهور نظم ومبادئ تشريعية جديدة^(١١٤).

مثال ذلك اشترط تكاليف مؤيده علي مشتري الأرض مثال: يبيع الشخص أرضه ويشترط علي المشتري أن يحتفظ البائع بفلتها مدى حياته، أو تخصص لورثته أو للغير، فكانت محاكم الشريعة العامة تحكم البيع وانتقال الملكية من البائع إلي المشتري مع بطلان الشرط وإعفاء المشتري من تنفيذه، وكان هذا البيع شائعاً في إنجلترا بقوة وبخاصة مع خروج الحملات الصليبية من إنجلترا، فكان المواطنون يبيعون أراضيهم قبل التوجه للأراضي المقدسة، ويشترطون علي المشتري أن يخصص ريعها لهم في حال حياتهم إذا عادوا من الحرب، ولورثتهم أو للكنيسة إن قتلوا في الحرب، وهذا النظام يشبه الوقف، يقتصر حق المالك فيه علي مجرد الإدارة، وكان المالك يسمى المؤتمن Owner in trust ومنها جاء نظام الترس Trust الانجليزي^(١١٥).

واتبعت محكمة المستشار نظام التنفيذ العيني للالتزام إذا كان التعويض عن الإخلال بالالتزام أو التعهد فلا يقوم مقام الوفاء به عيناً، إذا كان مبدأ التنفيذ العيني الجبري غير معروف في الشريعة العامة، وفي الوقت الذي كانت هذه المحاكم لا تملك الحكم بالأمر بالامتناع عن فعل معين سيجلب ضرراً محققاً كل ما تفعله محكمة المستشارين هي أن تأمر هذا الشخص بالامتناع عن الفعل لأنه سيلحق ضرراً بالآخرين، وحتى يكون الالتزام ملزماً للمدين فلا بد من سبب قانوني^(١١٦)، لو تعهد شخص بمبلغ قرض لم يحصل عليه فهو تعهد ملزم له أمام محاكم الإنصاف وليس أمام محاكم الشريعة، وكذلك لو تعهد شخص بدفع ثمن بضاعة وثبت أنه لم يتسلم الشيء المباع في محكمة المستشارية كأن شيئاً لم يكن، أما في الشريعة العامة تدفع المبلغ الذي تعهد به رغم أنه لم يتسلم البضاعة.

ومن الواضح أن المحكمة المستشارية كان لابد أن يطلق عليها محكمة الإنصاف

لأن أحكامها كانت تتميز بالعدل والإنصاف وروح القانون حتى أنها اعترفت باستقلال الزوجة ومن حقها التصرف في أموالها بحرية تامة، في حين أطلقت الشريعة العامة يد الزوج في أملاك زوجته^(١١٧).

وكانت هناك نظرية العقد الناقل للملكية Writ of debt في عهد هنري الثاني كان يطلق عليها أحيانا دعوى الدين وكانت هذه الدعوى كغيرها من الدعاوى التي يمكن الحصول على أمر ملكي بشأنها بدفع مبلغ من المال إلى الديوان الملكي موجه إلى المحكمة الذي يلجأ إليها من له حق يرفض المدين الوفاء به^(١١٨).

وقد حددت محاكم الشريعة العامة بموجب كتابة العقود في القانون لإثبات الحق، فلا دعوى على المدين في هذه العقود إذا لم يكن ثمة سند كتابي، ولكن المحكمة المستشارية - عملاً بمبدأ رفع الظلم - انتهت إلى إلزام المدين بتعده في مثل هذه العقود إذا اعترف بالعقد أو أخفى السند^(١١٩).

واستحدث الملك هنري الثاني دعوى تحقيق استلاب الحيازة Assize of Novel desseisin فلم تعرفه إنجلترا لفترة سابقة على الغزو النورماني، وظهرت دعوى تحقيق استلاب الحيازة عن طريق شراء Writ من الملك أو من ديوانه لحماية الملاك من اغتصاب حيازتهم، وكانت الدعوة في هذه الأنظمة تحمي الحيازة في ذاتها، حتى ولو لم يكن الحائز الذي استلبت حيازته هو المالك الحقيقي على العكس من دعوى ذلك نجد دعوى تحمي المالك نفسه^(١٢٠).

وطبقاً لما ذكره أحد المؤرخين فإن الملك هنري الثاني هو الذي أدخل دعوى تحقيق استلاب الحيازة في الفترة من ١١٥٥م إلى ١١٦٦م حتى يسمح للمالكين الذين نزع منهم حيازتهم قهراً وقسراً، ويدون رضاهم من استعادة ما يملكون وكانت هذه طريقة قانونية تحقق كثيراً من الفاعلية وأكثر ملائمة من استخدام طريق المبارزة التي تؤدي إلى الموت^(١٢١).

وفي النهاية تعلم الانجليز بعد وفاة هنري الثاني أن الإجرام جريمة ضد الدولة وتفصل فيه محكمة الملك، وتعلموا كذلك وجود قانون واحد يسري على جميع البلاد، وتقوم محكمة الملك بتطبيقه عن طريق قضاتها المتنقلين، وكذلك التعاون في شئون الحكم وتضامن المواطنين عامة في القبض على الفارين من وجه العدالة وقيام المحلفين بتقدير الضرائب، وتجريم المجرمين أو تبرئة البريئين أمام الدوائر الجنائية، فضلاً عن الفصل في القضايا المدنية في المحاكم المركزية^(١٢٢).

الخاتمة ، تعود جذور النظم البرلمانية الانجليزية وفكرة حكم القانون إلى غابات ألمانيا وأحراشها حيث تعيش القبائل الجرمانية، وأن شجرة الليبرالية الباسقة لا بد وأن تكون نمت من بذرة القانون الجرمانى، ولكن التطور القانوني في تاريخ إنجلترا يسير في اتجاه الحكم المطلق، واستغرق الأمر عدة قرون من التجريب والنضال السياسي قبل أن تنتصر سيادة الشرعية القانونية. ولكن الحقيقة أن إنجلترا أخذت عن القانون الجرمانى تقاليد سيادة الجماعة القانونية على الملك. وكان من الممكن أن ترث كل بلدان

أوروبا الغربية التقاليد القانونية نفسها، إلا إن ما حدث هو مبدأ الحكم المطلق الذي عرفه القانون الروماني وقد ساد أنحاء أوروبا سنة ١١٠٠م، علي حين كانت إنجلترا وحدها هي التي حافظت علي الفكرة الجرمانية الباكرة عن أن القانون يوحد بين أفراد الشعب وليس مرهوناً بإرادة الملك^(١٢٣).

لم يكتف الملك هنري الثاني بإصلاح مبادئ القوانين الجرمانية والنورمانية القديمة التي ورثها عن الملوك السابقين عليه، ولكنه جاء بأفكار قانونية راديكالية جديدة ليس لها مثيل من قبل في أي قانون أوروبي آخر ومعاصر له.

لقد ساعد القانون في عهد هنري الثاني في القضاء علي النظام الإقطاعي القضائي السائد، وحلت محله محاكم لا ترتبط بالسلطة المركزية، ولذا كانت تعد نوعاً من القضاء الخاص الذي يحكم قضايا في منازعات الأرض وأحياناً امتد ليشمل المسائل الجنائية التي تنشأ بين حائزي الأرض.

ولقد شهدت إنجلترا تغيرات قانونية أساسية راعت متطلبات الوضع، والتغيرات كانت بارزة في النظم القانونية والقضائية السائدة، وهي تغيرات حدثت في نظم الإدارة والحكم من ناحية وفي نظام القضاء من ناحية ثانية، وفي القواعد المطبقة من ناحية ثالثة.

لقد أسهم القانون بشكل كبير في تطوير مجال اللغة الإنجليزية في العصور الوسطى نحو ما يمكن أن يسمى "الدولة"، إذ أولاً: حفز التفكير السياسي إلى حد كبير من الاشتباكات بين الملوك والكنيسة علي السلطة النسبية. وثانياً: قدمت دراسة القانون الروماني والكنسي في القرن الحادي عشر حتى وقت متأخر كثيراً من اللغة والعديد من الأفكار القانونية الخاصة في الدولة، وثالثاً: كثيراً ما يستخدم القانون لاختبار وجود الدولة هو أنه ينبغي أن يكون لها احتكار العنف المشروع في العصور الوسطى - كما هو الحال في جميع الدول - وكان القانون هو الطريق الوحيد لتسوية المنازعات، وبدلاً عن اللجوء للعنف، وسعى الحكام للحد أو منع العمل المباشر من هذا القبيل، لتوجيه النزاعات من خلال قانون الملكية، ورابعاً: كان القانون مهماً في إقامة علاقة بين الملك وشعبه في إطار من القانون.

وفي النهاية تبلور النظام القانوني والقضائي في عهد الملك هنري الثاني في إنجلترا، وتتلخص ملامحه في أن الدولة بدأت تدريجياً تبسط سيادتها ممثلة في سيادة قضائها علي كافة أرجاء المملكة، وهذا يعني سيادة القضاء الملكي، وانحسار القضاء الديني والمحلي والإقطاعي، وسيادة القواعد القانونية التي يطبقها هذا القضاء، وهي ما تسمى بقواعد الشريعة العامة، ولم يكن التطور هذا يتم فجأة بل يحدث تدريجياً إلى أن تبلور النظام القانوني ليصل إلى الصورة التي عليها الآن.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

1. Asser, Life of king Alfred (ed.) E.H.D., 2vols, London , 1968.
2. Glanville R ., The Law and Customs of the Kingdom of England (ed.) John B.E, London , 1812.
3. Heinrich B., The Sources of English Law, The Jury of presentment and Assize of Clarendon, vol.56, No.223, Boston,1908.
4. Henderson, Select Historical Documents, London,1916.
5. Incipit Assisa de Clarenduna facta a rege Henrico, scilicet Secund in Stubbs (ed.) select charters , Oxford , 1921.
6. Materials for the history of Thomas Becket, (ed.) Robertson in (R.S.), 1965.
7. Roger Wendover , Flower history, trans. Gilles, London, vol.1, 1849.
8. Stubbs W., select charters, oxford, 1921.
9. The Laws of Alfred (ed.) E.H.D, vol.1, London , 1968.
10. William of Newburgh, Historical rerum Anglicarum, in chronicles of the reigns of Stephen , Henry II and Richard I , ed., R. Hewlett, 2 vols, (R.S), 1884-1885.

المراجع الأجنبية :

1. Adams G.B, The history of England from the Norman conquest to the death of John (1066-1216), London , 1905.
2. Arthuy Ogle M.A., The Canon Law in Mediaeval England , London , 1912.
3. Belloc H., A shorter history of England , London , 1934.
4. Coilint P. et Ciffard A., Precis de Droit Romain, T.1, Paris , 1926.
5. Crook A., Law and life in Rome, London, 1971.
6. Cross A.L., A History of England and Greater Britain, New York , 1921.
7. Davis H. W, England under the Normans and Angevins,

London, 1930.

8. Doroth Whitelok, The Beginning of English society, Penguin Book, 1984.
9. Frederick P. & Maitland F.W, History of English Law, press, 1953.
10. Gastonmay ,Elements de Droit Romanain , paris , 1932.
11. George Duby, Feodalite Encyclopedia,vol.9,Paris, 2002,
12. Henry Hallam, view of state of Europe during the Middle Age, 2 vol , London, 1855.
13. Holdsworth, history of England law , London , 1903.
14. Hume D., The History of England, from the invasion of Julius Caesar to Revaluation , London , 1930.
15. Knowles, Tomas Backet, Stanford , 1970.
16. Lord Mackenzie, Studies in Roma Law, London , 1876.
17. Maitland F.W, The constitutional history of England, London , 1919.
18. Maitland F.W, Law Renaissance , Press, 1953.
19. Melville R.D., A manual of principles of roman law, Edinburgh, 1918.
20. Petit-Dutaillis C.H., La Monarchie Feodale en France et en Angleterre, Paris , 1933.
21. Radcliff G.R.Y & Cross G., The England legal system ,London , 1946.
22. Stenton, English society in the early ages (1066-1307), penguin book, 1959.
23. Stephenson G., Mediaeval history, New York , 1943.
24. Stubbs W, The constitutional history of England, oxford, 1873.
25. Trevelyan G.M.,A short end history of England, New York,1942.
26. Vinogradoff P., English society in the Eleventh century, oxford, 1908.
27. Willson D.H., A history of England, London, 1972.
28. Whitelok D, The Beginning of English society, Penguin Book, 1984.

المراجع العربية والمصرية.

١. موزيس كين : حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبد قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٤.
٢. هـ. و. ديفل : أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، ط١، ١٩٥٨.
٣. نظير حسان سعداوي: تاريخ اتلنترأ وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٨.
٤. داللد واطسن رائى : تاريخ أساس الشرائع الانجليزية ، ترجمة نقولا حداد، المكتبة الشرقية، ١٩٢٣.
٥. نورمان ف. كاتتور: التاريخ الوسيط، ترجمة : قاسم عبده قاسم، ج٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧.
٦. ولي ديورانتست : قصة الحضارة ، م ١٥-١٦، عصر الإيمان ، ترجمة: محمد بدران، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١.



الهوامش

(^١) المختار من صحاح اللغة، محمد محي الدين وآخرون، دار الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ص ٤٣٧.

(^٢) Walton , Historical introduction to the Roman Law, London , 1916, p.255.

(^٣) Glanville R., The law and customs of kingdom in England (ed.) John B. E, London , 1812, p. xxxviii ; Crook A., Law and life in Rome, London, 1971, p. 21.

(^٤) Melville R.D., A Manual of principles of Roman law, Edinburgh, 1918, p. 35.

(^٥) Lord Mackenzie, Studies in Roma Law, London, 1876, pp.28-29; Roly H., Roman Law in C.M.H.(ed)Bury, vol.11, p.59.

(^٦) نورمان ف. كاتنور: التاريخ الوسيط، ترجمة : قاسم عبده قاسم، ج ٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧، ص ٤٣٠.

CF: Waliton, Historical introduction to the Roman Law, London, 1916, p.292; Gaston May, Elements de Droit Roman, paris, 1923, p.9.

(^٧) نورمان ف. كاتنور: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٣٨.

CF. also. Lord Mackenzie , op.cit, pp.25-26.

(^٨) نورمان ف. كاتنور: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٣٨ - ٤٣٩.

- Radcliff G.R.Y & Cross G., The English legal system, London, 1990, pp.2-3.

(^٩) الواقع أن البدايات الأولى لنشأة القانون الإنجليزي وتطوره تبدأ مع الغزوات الإجلوسكسونية في القرن الخامس الميلادي، مروراً بالفتح النورماني، حتى تبلور الشكل القانوني، وتطورت الفواعد الموضوعية للقانون من خلال تطور المحاكم وطبيعتها واختصاصاتها وتشكيلها على يد الملك هنري الثاني، انظر:

- Asser , Life of king Alfred (ed.) E.H.D., vol.1, London , 1968, pp. 264-265; Frederick P. & Maitland F.W, History of England Law, press, 1953, p.64 ; Cross A.L., A History of England and Greater Britain , New York , 1921, p. 80 ;

Trevelyan G.M., A shortend history of England, New York, 1942, p. 118.

(10) قسمت البلاد إلى مقاطعات Shires والمقاطعات إلى وحدات أصغر تسمى العشرات Hundred والعشرات إلى وحدات أصغر تسمى عشرات Tenth. ويذكر البعض أن المائة تشير إلى مساحة الأرض وهي مائة هاید Hide (٢٢٠ ياردة) بشرط أن تكون وحدة واحدة، ومنهم من أرجعها إلى عدد ملك الأراضي في المقاطعة الواحدة، ومنهم من ذكر أنهم عدد العائلات الأرستقراطية في المقاطعة. انظر :

Roger Wendover , Flower history, Tr.Gilles, London, vol.1, 1849, p.227; Henry Hallam , view of state of Europe during the middle Age , London, 1855, vol.2, pp. 280-281.

- (11) Vinogradoff P., English society in the Eleventh Century, oxford, 1908, pp.28-29.

(12) يكون الملك ومجلس اللواتان محكمة عليا للقضايا المدنية والجنائية، مما يعني أن مجلس الحكماء كانت له اختصاصات تشريعية وتنفيذية وقضائية في المراسيم والقوانين التي تصدر. انظر :

- Willson D.H., A history of England, 1972, p.58; Gross, op.cit p.79; Stanton, English society in the early Ages (1066-1307), penguin book, 1959, p.209.

- (13) White Lack D., The Beginnning of England society, penguin, 1959, p.149; Hume D., The History of England , from: the Invasion of Julius Caesar to Revolution of 1688 , London , 1930, p.52.

- (14) Laws Alfred (No.33) , 43; Roger of Wendover, vol.1, pp.227-228.

(15) يعد الشريف هو الحاكم العثماني الرئيسي للمقاطعة، ويرأس محكمة المقاطعة، والمختص بالأمن وتنفيذ العدالة والقانون وفقاً لتوجيهات المحاكم، ويتمتع بنفوذ هائل وسلطة واسعة، وكانت تعقد جلسات المحكمة برئاسة في الأقاليم المختلفة، وأصبحت هذه المحاكم تسمى طواف الشريف Court of sheriffs tour نظراً لطوفه بإقليم العشرات لإقرار العدالة، ويشرف على تنفيذ الأحكام وخاصة الإعدام. انظر :

- Stubbs , The constitutional history of England , oxford , 1873, vol.1, pp.225-226 ; the Cambridge historical

- encyclopedia of great Britain and Ireland, London , 1985 p.62.
- (16) Glanville, op.cit, pp. 277-278; Maitland F.W, The constitutional history of England , London , 1919 , p.45.
- (17) Holdsworth, History of England law , London , 1903, vol.1,p.5.; Petit-Dutailis C.H., La Monarchie féodale France et en Angleterre , Paris, 1933, p.123.
- (18) نظير حسان معداوي: تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٧٨.
- (19) Maitland , The constitutional history of England, p.61.
- (20) Holdsworth, op.cit, vol.1,p.42.
- (21) History of England , op.cit, vol.1,p.27.
- (22) بعد راتولف جاتلفيل من إبريل القضاة في إنجلترا، ولد في نورماني، وانتقل إلى إنجلترا فعينه هنري الثاني رئيس قضاة وستامفورد ثم سولفوك، ثم حازن لبيت المال، وعين شريفا لمقاطعة يورك سنة ١١٦٢م حتى موت هنري الثاني. وأبقى عليه الملك ريتشارد وعينه كبير قضاة لانجلترا سنة ١١٧٦م، ثم رئيسا للقضاة سنة ١١٨٠م، وتوفي في بلاد الشلم سنة ١١٩٠م.
- The law and customs, op.cit , p. x-xiii ; Holdsworth, op.cit, vol.1,pp.21-22.
- (23) Holdsworth, op.cit, vol.1,p.22.
- (24) Maitland , The constitutional history of England, p.61
- (25) هـ . و. ديفز : أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، ط١، ١٩٥٨، ص ١٦٨ - ١٦٩.
- Dorothy Whitlek, The Beginning of English society Penguin book, 1984,p.67.
- (26) شغل المستشار وضعا مهما في المملكة باعتباراه الأمين الأول لسر الملك، وأصبح له دور قضائي مهم في البلاد، وكان يطلق عليه اسم القضاة اللاتيني Latin Jurisdiction لأن سجلات الأحكام Reports تكتب باللاتينية، وأصبح بعد ذلك القضاء الإنجليزي England Jurisdiction لأنه كتب بالإنجليزية ، وكان يرأس كل موظفي القصر، وكان له دور كبير في القضاء الإنجليزي في عهد هنري الثاني، أنظر:-

Glanvill, op.cit , p. 98 ; Stubbs W. Historical introduction to the (R.S) , New York , 1902, p. 139 ; Radcliff & Cross , op.cit , p. 110.

(27) Glanvill, op.cit , p.205 ; Holdsworth, op.cit, vol.1,p.32.

(28) Stephenson G., Mediaeval history, New York , 1943, p.422.

(29) Laws of Alfred (No.33),8.

(30) كانت هناك حماية لرجال الدين من خلال القانون، فمن يعتدي على رئيس الأساقفة
يغرم بثلاثة جنيهات، وإذا اعتدي على الأسقف أو القس أو أي رجل دين آخر
يغرم بجنيهين، ولرجال الدين الحق في تحصيل الغرامات على مرتكبي الجرائم.
-Laws of Alfred (No.33),5.

وإذا ألتهم شخص ببيت رئيس الأساقفة يدفع غرامة تسعون شلن، وإذا حدث مع الأسقف
أو القس ستون شلنًا.

-Laws of Alfred (No.33),40.

(31) Panlter S., A History of the Middle Ages , New York , 1954,
p.251.

(32) نظير حسان سعادوي: المرجع السابق، ص ٨٦.

(33) كانت محاكمة رجال الدين تتم في الكنيسة بشكل صوري على سبيل المثال، عندما
قتل أحد رجال الدين لأمر من لكونون، حكمت عليه المحكمة الكنسية بالبراءة،
وأراد أهله الانتقام وعرضت القضية على محكمة الملك فلم يجد بديلا سوى
الموت، وفي القانون الإنجليزي:
- إذا اتهم رجل الدين بقتل أو إثم خطير يطرد من رحمة الكنيسة، ويذهب للحج
ويقرر مصيره لياها.
- وإذا أدلى رجل الدين بشهادة زور أو ماعد في جريمة التواطؤ في سرقة يحرّم
من منصبه الكنسي.

CF: Knowles, Tomas Backet, Stanford , 1970, p. 78.

(34) Knowles , op.cit, p.63 ; Adames , op.cit, p.280.

(35) Materials for the history of Thomas Becket, (ed.) Robertson
In (R.S.), 1965, vol.1, p.12 ; Knowles , op.cit, p.78 : Lunt,
History of England , London , 1928, p. 203.

(36) Adams , op.cit, pp. 280-281 ; Lunt, op.cit, p.212.

(37) Materials , op.cit, vol.1 , p.16.

(38) Adams , op.cit , p. 282 ; Knowles , op.cit , pp.86-87 ; Lunt ,
op.cit, p. 204.

- (39) Belloc H., A shorter history of England , London , 1934, pp. 135-136 ; Davis H. W, England under the Normans and Angevins, London, 1930, p. 212.

(40) Assize تعني مرسوم أو قانون أو إقرار استعملها جلانفيل Glanvill كبير قضاة هنري الثاني، وكلمة assize نسبة إلى assideo الجلوس المشترك في مجلس واحد، وتطلق الكلمة على قرارات المحلفين والأحكام الصادرة عنهم، وينكر أن القانون صدر لتخفيف صرامة الإجراءات ضد المجرمين المنفيين، ونص في أحد بنوده على السماح للمتهمين بجرائم خطيرة ولم يعد أمامهم سوى النفي من البلاد، ولمعجزهم عن تطهير أنفسهم أن يبقوا في البلاد أربعين يوماً للتبشير من مدمهم بما يحتاجون إليه في المنفى ، انظر:

- Holdsworth , op.cit, vol.1 , p. 153 – p. 441.

(41) حضر التوقيع على القانون الملك هنري الثاني واللوردات والبارونات رؤساء الأساقفة ورجال الدين والقضاة والعديد من أشراف المملكة منهم من وافق ووقع ومنهم من رفض ولم يوقع وعلى رأسهم رئيس الأساقفة بيك، ومن الحضور: الملك ورئيس أساقفة كانتربري ووجر Roger رئيس أساقفة يورك، وجيلبرت Gilbert رئيس أساقفة وينشيسر، ونيجل Nigel أسقف Ely، ووليم أسقف نورتش، وروبرت أسقف هيرفورد Hereford، وروبرت أسقف لنكولن وهيلاري أسقف شيشستر وجويسلين Jocelyn أسقف سالسبوري، وريتشارد أسقف تشستر، واللوردات منهم: روبرت إيرل ألستر وريجنالد إيرل كورنوال Reginald of Cornwall وكونان Conan إيرل بريتانى، ووجر إير كلير Ciare، وإيرل جيوفرى دي ماندفيل Geoffrey de Mandeville ، وريتشارد دي وسي R. Luci وريجنالد دي مويراي R. Mowbray وليام مالت Malet، وروبرت دي دنستفيل R. de Dunsterville ، وجودفري دي فير G. Vere ، وليام هاستنجز W. Hastings، هيو دي مورفيل H. Moreville ، آلان دي نيفل Alan de Nevill، وليام تشامبرلين W. Chambrlain (الحاجب)، وجون مارشال وبيتر دي ماريا P. de Mara ، والعديد من العظماء والنبلاء على هذا سواء من رجال الدين والعلمانيين . انظر:

- Handerson, Select historical of documents, London, 1916, p. 11; Materials, op.cit , p. 18.

(42) عن بنود قانون كلارتون ، انظر:

Incipit A assica de Clarenduna facta a rege Henrico, scilicet in stubbs (ed.) select charters , Oxford , 1921, pp. 170-173 ; Handerson , Select historical , pp. 11-16 ;

Materials for the history of Thomas Becket , vo.,1 , pp. 18-23 ; Knowles , op.cit , pp.87-90.

- (⁴³) **Davis , op.cit , p. 215 ; Belloc H. , op.cit , p.136.**

(⁴⁴) ول ديورانت : قصة الحضارة ، مج ١٥-١٦ ، عصر الإيمان ، ترجمة، محمد بدران، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١، ص ١٩٠.

(⁴⁵) الجدير بالذكر أن الفترة الفاتونية المسموح بها لبقاء عرش الكنيسة شاغراً هي ثلاثة أشهر ويتم خلالها انتخاب راع لها، وأكد على ذلك مجمع القليران في نوفمبر ١٢١٥م، ويستمتع الملك خلال تلك الفترة ببيع الكنيسة وممتلكاتها ، حتى يحصل جماعة الرهبان في الكنيسة على رخصة من الملك للانتخابات، وكان الملك يمد المدة أصول فترة ممكنة ليتمتع ببيع الكنيسة. انظر:

- Roger of Wendover, *Flowers of history* , trans: Gilles, London , 1849, vol.2, p. 345 ; Knowles , op.cit, p. 104 ; Adams , op.cit , pp. 287-288.

- (⁴⁶) **Davis , op.cit, p. 218; Knowles , op.cit, p. 105-106; Belloc H., op.cit, 136.**

- (⁴⁷) **Adams , op.cit, p.293 ; Knowles , op.cit, pp.212-213.**

(⁴⁸) كانت ضريبة بنس القديس بطرس يجمعها رجال الدين، وتنتقل إلى رؤساء الكهنة والموظفين والأساقفة أو جامعي الضرائب البابوية ، ثم ترسل الأموال إلى روما حوالي ثلاثمائة مارك فقط، ويحتفظ جامعي الضرائب من رجال الدين بالجزء الأكبر الذي يقدر بنحو ألف مارك، ولكن الملك هنري الثاني أصدر قرار بجمعهما لحساب الخزينة الملكية. انظر :

-Knowles , op.cit, pp.124; Davis , op.cit, p. 220; Adams , op.cit, p.293 ; Lunt , op.cit , p. 213.

- (⁴⁹) **William of Newburgh, vol.1, p.160; Davis , op.cit, p. 220 ; Lunt , op.cit, p. 213**

- (⁵⁰) **Knowles , op.cit, pp., 106- 107.**

(⁵¹) يذكر المؤرخون في هذا الصدد أن الملك هنري وهو في نورماندي وصلته أخبار بصورة محرفة من بعض رجال الدين من هرمان لرجال الكنيسة وأتباع الملك، وأنشاء مائدة للطعام وجه هنري حديثه لمن حوله قائلاً: ' عجباً أيجز رجل يطعم خبزي ... علي أن يهين الملك والمملكة، ولا يأخذ بحق واحد من أولئك الكسالى الذين يطعمون علي مائنتي '، فأتجه أربعة فرسان دون علم الملك ونهبوا رويس الأساقفة أمام مذبح كنيسة كانتربري. انظر:

- William of Newburgh, vol.1, p. 160; Knowles, op.cit, pp.139; Adams, op.cit, pp. 294 – 295.
- (52) Holdsworth , History of English law , vol.1, pp. 371-372.
- (53) Holdsworth , History of English law , vol.1, pp. 373.
- (54) Holdsworth , op.cit, p. 21 ; Heinrich B., The Sources of England , pp. 26-27 ; George Duby , Feodalite Encyclopedia , Paris , 2002, vol.9, p. 308.
- (55) Frederick P. & Maitland F.W., op.cit, vol.1, p.138 ; Mchugh W. D., English law courts , pp. 9-10.
- (56) Glanville, op.cit, p.346 ; Stubbs W., Historical introduction , pp. 139-140
- (57) Fredric P. & Maitland , F.W, op.cit , vol.1, p.601.

- نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨٩.

- (58) Maitland , The constitutional history of England , p. 117.
- (59) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 153.
- (60) Stubbs W., Historical introduction , pp. 142.
- (61) كانت المحاكمة عن طريق الماء الباردة هي الوسيلة المفضلة في إنجلترا، حيث يوجد عدد كبير من الأنهار والبحيرات، فكان يلقي بالمتهم في الماء وهو مقيد اليدين والقدمين، فإذا غاص كان بريئاً، وإذا طفا على سطح الماء يكون مذنباً على أساس أنهم يعتبرون الماء عنصراً مقدساً يرفض قبول الشخص المذنب. انظر :
- حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨٩؛ نورمان كانتور: المرجع السابق، ج ١، ص ١٨٠-١٨١.

- (62) Holdsworth, op.cit, vol. 1, p. 142; Stubbs W., Historical Introduction, pp. 142
- (63) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 142 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 396-397.

(64) أولى البابا النوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) مجمع اللاتران الرابع اعتماداً كبيراً، فتجده يحضر له قبل العقادة بعامين تقريباً، وفي نوفمبر ١٢١٥م انعقد المجلس وحضره كل مندوبي الكنائس اللاتينية واليونانية ومندوبي الملك والأمراء، وناقش عدد من القضايا الدينية المهمة، وقام بإلغاء نظام المحنة ordeal بالنار والماء، ويقال في هذا الصدد أن رئيس حركة الفرنسيسكان أراد مقابلة الملك الكامل أثناء الحملة الصليبية الخامسة علي دمياط (١٢١٩ - ١٢٢١م) ، وحاول إقناعه

بالمسيحية وعرض عليه استئجار التنازل أو الماء المغلي، ولكن الملك رفض، وكان ذلك في فترة انعقاد مجلس اللاتران الذي ألغى نظام المحنة، ولم يكن الخبر قد وصله عن قرارات مجمع اللاتران انظر:

Roger of Wendover , op.cit , vol. 2, p. 345 ; Matthew of westminster , The Flowers of history , Tr. Yong , London , 1853, vol.2, pp. 121-122 ; Thatcher , A source book for , Medieval history , New York , 1905. pp. 538-539.

(65) لم يتوفر الحل المقدس في الإتيات عن طريق النزول، لأن الإبدانة أو البراءة تنقذ وفقاً لقوة الخصم، فكان يوسع الرجل الثري أن يستأجر أضخم رجل في البلاد ليحل محله، وبذلك يستطيع أن يتخلص من أعدائه بتلقيق التهم لهم، فلم تقدم الحل الكافي للعدل، والغريب أن هذه الطريقة ظل معمولاً بها في إنجلترا حتى عام ١٨٦٩. انظر: نورمان كانتور: المرجع السابق، ج ١، ص ١٨١.

-Stubbs W., Historical introduction, pp. 142-143 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 397

(66) Gnanville, op.cit , p.33; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 34-35; Stubbs W., Historical introduction , pp. 139-140.

(67) Gnanville, op.cit , p.223; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 398 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 35.

(68) Holdsworth , op.cit, voi.1,p.78; Stubbs W., Historical introduction, pp. 132.

(69) يطلق عليه ديوان المعاسبة ويشرف على أعمال نواب الملك والقضاة من الناحية المالية وتسلم إليه إقرارات نواب الملك التي يقومون بإعدادها كل ستة أشهر، كما تعد فيه المواد التي ستكون موضع تحقيق القضاة المتتبعين وديوان المالية - في الأصل فرع من المحكمة المالية وخزينة أموال الملك - ظل دائماً على اتصال وثيق بالنظام القضائي طالما أن إحدى محاكم القائلون الثلاثة تختص أصلاً بنظر القضايا التي تنصل بالإيرادات الملكية . انظر : هـ. و. ديكل: أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، ١٩٥٨، ص ١٦٨-١٦٩.

(70) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p.28-29 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 390.

(71) Stubbs W., Historical introduction, pp. 131-132 ; Henrich B., The source of England law , p. 23.

(72) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p.22-23.

(73) Henrich B., The source of England law , p. 26-27 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 398 ; Stubbs W., select charters , p. 99.

(74) Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 112-123.

(75) كلمة Assess بالإنجليزية تعني يفرض الشخص أو يفرض شيئا ، الاسم Assessor يفرض أو يقرر ، ويبدو أنها مشتقة من الفعل الفرنسي Assoir وتعني جلس ، واصطلاح Court Assises تعني بالفرنسية القضاء الجالس ويقابلها التوقف Parquet وكانت الكلمة في عهد هنري الثاني Assize وتعني قانون وتم تحريفها كما سبق. انظر في ذلك:

- C. Oxford Dictionary , pp. 68-69 .

معجم الفتون المصري، ص ٥٧ : المعجم القانوني: هارث سليمان الفاروقي، ج ١، ص ٥٩.

(76) المحفلون هم مساعدون شعبيون لا يتمتعون بنفس التكوين القانوني والمهني للقضاة، وبالتالي ليس لديهم الإلمام الكافي بالقوانين حتى يصدروا أرائهم بناء على الأدلة القانونية التي ينص عليها القانون في ظل نظام الإثبات العقيد هذا من جهة، ومن الناحية الثانية فإن المحفلين يطلقون على وقائع القضايا التي يبدون رأيهم فيها أثناء الجلسة، بينما القضاة يكتفهم الاصطلاح على وقائع القضية أثناء دراستها وتحضيرها للجلسة، لذلك فإن المحفلين يبدون حكمهم بما يمليه عليه ضميرهم وقناعتهم الشخصية في ظل ميادئ العدالة. انظر:

Naomi D. Hurnard , The English historical review , p. 374 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 681; Lunt , op.cit, p. 213.

(77) Pellock & Maitland , op.cit, p.138 .

(78) يذكر بعض المؤرخين أن نظام المحفلين أصله إسلاحي، وكان معروفاً في شمال إفريقيا بداية انتشار الإسلام بها ويسمى ' التليف ' ، أي مجموع الناس الذين يعيشون في المنطقة ويستعين بهم القضاء في أحكامهم. انظر : حسان سعادوي: المرجع السابق، ص ٨١.

Stubbs W ; The constitutional of England , p. 681.

(79) Stubbs W; The constitutional of England, p. 681-682; Lunt, op.cit, p. 213.

(80) قضاة الأمن Justices of the peace ، كان اختصاصهم معظمه مدني، أما الجنائي فكان مقتصرأ على الجرائم التي تدخل في المحاكم الملكية، وتحقيق الأمن

من اختصاص الشريف في المقاطعة، فهو الذي يحقق في الحوادث الجنائية، ويستمع إلى رأي المحلفين، ويجس المتهمين، ويتولى إدارة السجن، وأصبحت لهم هيئة قضاة الأمن، وتم توسيع اختصاصها على حساب اللجان القضائية وقضاة الشرع المتنقلين. انظر:

Holdsworth , op.cit , vol. 1, p.131-133 ; Maitland , The History English Law , vol.1 , pp. 206-207.

- (81) Stubbs W., select charters, p. 99 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 223.

- (82) Stubbs W., select charters , p.100.

- (83) Gianville , op.cit, p. 240 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 681-682

- (84) Adams G.B, The history of England from the Norman conquest to the death of John (1066-1216). London , 1905, pp.322-323.

(85) دالغ واطمن رائي : تاريخ أساس الشرائع الإنجليزية . ترجمة نقولا حداد، المكتبة الشرفية، ١٩٢٣، ص ٣٩.

(86) دالغ واطمن رائي: المرجع السابق، ص ٣٩ - ٤٠.

(87) دالغ واطمن رائي: المرجع السابق، ص ٤٠.

- (88) Gianville , op.cit, p. 240 ; Stubbs W., select charters , p.99.

(89) نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨٠.

Stubbs W., select charters , p.100.

(90) موريس كين : حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبد قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٤، ص ١١٧.

- (91) Gianville , op.cit, p. 293 ; Maitland , The constitutional history England , vol.1 , pp. 172-173

(92) من الأوامر الملكية المختصة التي نقلت من اختصاص مجلس البلاط إلى محكمة منصة الملك:

أ- أمر استحضار الأوراق من المحاكم.

ب- أمر الامتناع الذي تصدره محكمة الملك إلى المحاكم الدنيا بالامتناع عن نظر الدعوى.

ت- أمر يصدر لمحكمة أدنى أو موظف عام بالقيام بعمل مغروض عليه قانونياً.

ث- أمر تحقيق للبحث والتفتيش عن الأساس القانوني.

ج- أمر الإحضار للمحكمة الحق في إحضار الشخص لتتظر في قانون حبسه.

موريس كين : المرجع السابق، ص ١١٧.

Maitland , The constitutional history England , vol.1 , pp. 172 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 92-93.

- (93) Radcliffe & Cross, The English legal system, p. 20 ; Holdsworth , op.cit, vol. 1, p.95.

(94) موريس كين : المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨.

- (95) Mchugh W.D, English law Courts , p. 23 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 130.

(96) نظير حسان سعادوي: المرجع السابق، ص ٨٨.

- (97) Roger Hovden, Chronicles (ed.) Stubbs W., vol. II, (R.8), London , 1816, p.261; Stubbs select charters, op.cit, pp.183-184; English historical documents, 1042-1189(ed.)David G. Douglas, pp. 416-417; Basic Documents of English history (ed.) Stephen B. Baxter , Boston , 1968, p. 22.

(98) استحدث الملك هنري الثاني ضريبة البلية، وهي رسم يدفعه إتهاع الملك الإقطاعيين إذا ما وغروا بدلاً من تقديم الخدمة العسكرية المفروضة عليهم تجاه ملكهم، وفرض هذه الضريبة وفقد للحاجة، ويذكر المؤرخ جروس، أن الملك هنري الثاني فرضها سنة ١١٦٢م لأغراض حربية لمواجهة النفقات ، وتوالى الملوك الإنجليز بعده في فرضها. انظر :

جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة في التاريخ، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٢، ص ١٣١-١٣٢.

-Cross , op.cit, p. 81.

- (99) Stubbs W. , Historical introduction , p.141; Belloc, op.cit , p.132.

(100) كان أمرا الإحقاق ضروري للمتنازعين قبل رفع الدعوى أمام محكمة الإقطاعي خوفاً من ظلم الإقطاعي الذي يحكم حسب السطوة والمال، فوطلب الملك منه الحكم بالعدل، وهو أمر الإحقاق، وإلا أحيلت الدعوى إلى محكمة الشريف، وأصبح أمر الإحقاق في عهد هنري الثاني ضرورياً قبل انعقاد المحكمة الإقطاعي. انظر:

- Glanville m op.cit, p. 239 ; Maitland , the constitutional history of England , pp. 111-112.

- (101) Glanville m op.cit, p. 240.

- (102) Sayles G. O., The medieval foundation of England, press , 1950, p. 323.

(103) المقاومة الشعبية كان لها دور بارز في الحروب، وكان أعضائها يمثلون ملاك الأراضي الأكثر ثراء، ولديهم قوتهم الخاصة، والذين يدفعون بهم في وقت الحروب، وتحول نظام المقاومة الشعبية إلى قانون الخدمة العسكرية الإجباري فإذا لم يكن هناك في العائلة أحد يصلح عليهم أن يستأجر شخص من خارج الأسرة ليتقدم إلى الخدمة العسكرية. انظر:

- جوزيف داموس: المرجع السابق، ص ٨٩ - ٩٠.

Stubbs , op.cit, p. 181 ; Trevelyan , op.cit, p. 144.

- (104) Glanville , op.cit, p. 55 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 398 ; Stubbs W. , Historical introduction , pp. 139.

- (105) Holdsworth, op.cit, vol.1, pp. 398-399; Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit, pp.109-110; Petit. T. Dataillis, op.cit, p. 123.

- (106) Derry , Great Britain History from Earliest times to present day, oxford , 1962, p. 55.

- (107) Glanville , op.cit, p. 293 ; Maitland , The constitutional history England , vol.1 , pp. 172 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 96- 97.

- (108) Stubbs W. , Historical introduction , pp. 139-140.

- (109) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 111.

- (110) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 113-114

- (111) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 399

- (112) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 113-114

- (113) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 113-114.

- (114) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 399.

(115) كان نظام الترتست من النظم الشبيهة بالوقف في الإسلام، ويقال انه مأخوذ منه، والوقف هو نقل ملكية المال الموقوف إلى شخص آخر يتصرف فيه لمصلحة المستفيدين، ففي شمال إفريقيا يسمى الوقف بالحبوس وهو حبس المال على نمة حكم الله، فينقل الملكية من الواقف إلى حكم الله، وبالتالي يصحح المال خير قابل التصرف فيه ، وفي الترتست إذا انتقلت الملكية من دير أو كنيسة كمؤسسة يكون استثمار هذا المال وتصريف غلاته طبقاً لنص الترتست المنشئ عليه. انظر:

- Monica Gaudiosi ; The Influence of the Islamic Law and The Development of the trust in England , 1988, p.55 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 239-240
- (¹¹⁶) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 400 ; Stubbs W. , Historical Introduction , p. 139 ; Mchugh W.D, English law Courts , p. 23 .
- (¹¹⁷) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 400.
- (¹¹⁸) Glanville , op.cit, p. 249 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 424.
- (¹¹⁹) Glanville, op.cit, pp. 205-206; Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 196 - 197
- (¹²⁰) Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 196 - 197.
- (¹²¹) Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 196 - 197.

(¹²²) انظر ، حسان ممداني: المرجع السابق، ص ٩٢

(¹²³) نورمان ف. كاتنور: المرجع السابق، ص ١٨٣.

ARCHIVE

المكانة العلمية لجاوري مكة إبان العصر السلجوقي

(٤٢٩هـ/١٠٣٧-١١٩٢م)

د. محمد طه بن صلاح بن صالح بكري (*)

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل الله فلا تدر له وإيا مرشدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.... وبعد

فقد تمتعت مكة المكرمة بمكانة سامية بين جماهير المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي الذين تولفوا عليها طلبا لجوار بيت الله الحرام، تبركا بها، واستجابة لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام: في سورة إبراهيم "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ" (٣٧).

ومصادقا لقول الرسول الكريم ﷺ: "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنك لأخر جولي منك ما خرجت" (١).

وعلى أرض مكة الطاهرة، وبجوار بيت الله الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمانا، فضل كثير من الناس لاسيما العلماء والأبناء منهم، وأهل الفكر والראى- بعد أداء فريضة الحج - الإقامة بها، مفضلها على بلده الأم.

والمجاورة في اللغة هي الاعتكاف في المسجد، أما المجاورة بجوار الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، فيراد بها الإقامة بهما، بغیر الالتزام بشروط الاعتكاف الشرعي (٢).

وكانت المجاورة، على مر عصور التاريخ الإسلامي، هدفا يسعى إليه كثير من أئمة العلماء والمفكرين، حتى إن الإمام الشافعي جعلها قرية يتقرب بها إلى الله. والإمام "أحمد بن حنبل" (رحمه الله) روي عنه أنه قال: "لويت لى الآن مجاورة بمكة".

وتعتبر المجاورة، في رحاب بيت الله الحرام، ظاهرة دينية واجتماعية، أملتها رغبة بعض المسلمين، من جميع طبقات المجتمع الإسلامي، في قضاء فترة صفاء روحي وذهني بجوار مكة المكرمة (٣).

(*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى

والحق أن هجرة العلماء والأدباء إلى مكة، ومجاورتهم لبيت الله الحرام، اختلفت دوافعها وأسبابها المحركة لها خلال فترة البحث.

الرحلة العلمية وأثرها في دفع حركة المجاورين:

كانت الرحلة معلما قويا حرص عليه طلاب العلم في العصر السلجوقي، ودأبوا عليه، لاسيما الراغبين في مجاورة بيت الله الحرام، إذ كانت المجاورة الراقدة الذي يغنيهم بمختلف المعارف والعلوم آنذاك.

والتواقع أن الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة المدينة المنورة، مما زاد المسلمين إقداما على الأسفار، ولهذا ارتحل العلماء إلى البلاد القصية لطلب العلم ولقاء الشيوخ، إذ كان البعض منهم ينتهز موسم الحج فيخرج على الشيوخ أثناء سفره، للسمع منهم، وكثرا ينفقون جهدا كبيرا وأموالا طيلة خلال تلك الرحلات.

وكان الخلفاء العباسيون وسلاطين السلاجقة^(١)، يعنون عناية فائقة بتنظيم طرق الحج وتعبئها وتوفير أبارها، كما فعل السلطان السلجوقي "ملكشاه بن ألب أرسلان"، عندما أمر بحظر الأبار في طريق مكة، كما بنى منارة القرون في طريق مكة، كي يهتدي بها الحجاج المتجهون إلى بيت الله الحرام^(٢).

ويؤكد ابن الجوزي^(٣) (وهو من مؤرخي القرن السادس الهجري) على بقائها واستمرار تأدية مهمتها حتى عصره، بقوله: "وهي باقية إلى الآن، وتسمى منارة القرون"^(٤).

وتعتبر الرحلة من أهم وسائل المسلمين في طلب العلم، إذ كان العلماء يحثون الطلبة عليها، فكان الطالب يترك بلدته بعد أن يحصل ما لدى علمائها، فيتوجه إلى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، ويكابد مشاق السفر وأخطاره التي يعجز عن وصلها آنذاك، ولم يقف بعد المشقة، وتلك الأخطار حائل دون تلك الرحلات، التي ملأت أخبارها بطون الكتب، لاسيما بعد أن وفرت لهم السلطات السلجوقية الأمن على الطرق المؤدية لمكة المكرمة.

وبفضل هذه الرحلات استمر تبادل الأفكار بين سكان مختلف الأقاليم الإسلامية، مما أبقى على الوحدة الثقافية للعالم الإسلامي، وزاد من تماسكها بعد انقسامها سياسيا، حين ضغطت الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجريين، ولكن هذا الانفصال لم يكن إلا انفصالا سياسيا وحسب، ذلك لأن الدول التي امتلكت عن الجسم العباسي، كانت كلها ذات طابع واحد، هو الطابع العربي الإسلامي، وكثفت الحياة العلمية والمذاهب التربوية وحدة متصلة تمام الاتساق. وكان العالم الإسلامي في أية بقعة من بقاع العالم، يجوب الديار، فيحاضر وينقل

وينظر، وهو بين قوم بلغه مونه وبفهمهم، لا فرق بين العراقي والفراسي، والمصري والمغربي، والأندلسي والحجازي، فكل من يدرس في ذلك واحد، ويسير في ذلك واحد، ويدرسون برنامجاً تطويعاً واحداً، وربما اختلفت الصور والأشكال والهيئات والأساليب، أما حقائق الأمور وطبائع الأشياء فثابتة متحدة، حيث استمر هذا النشاط العلمي في دار الإسلام، من أقصى المشرق الإسلامي إلى أقصى المغرب الإسلامي.

وهكذا كان للطعام المسلمين أثر كبير في ربط أجزاء العالم الإسلامي المترامية الأطراف من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، إذ كانوا يعتبرون كل بلد يحلون به في هذه الأقطار التسعة بلدهم، وأهله أهلهم، يقيمون بينهم ويترحلون ولا يشعرون بالاختلاف، وكان مهمهم الأكبر منصباً حول تحصيل المعرفة والاعتراف منها، ولخوض أصولها على علمائها، ثم يعودون بعد أن يتزودوا بكل نعيم، فيلجئون بما تعلموا أثناء البلاد التي يحلون بها، كما أن الطعام المسافرين كانوا يعتقدون مجالس الدرس للطلبة من أهل المدن التي يمرّون بها، كذلك يحضرون مجالس المناظرة التي تعقد مع علمائها.

ومن أجل هذا: من الطعام الارتحال إلى البلاد القاصية في طلب العلم ولقاء الشيوخ، فلم يكن ينبغ عالم أو فقيه أو أديب، ويرتكب إلى علمه حتى يطوف في الأقطار، يلقي كبار العلماء وأجله الشيوخ، ويحصل العلم من شيوخ كثيرين في بلاد مختلفة.

وقد عقد "ابن خلدون"، في مقدمته الشهيرة، فصلاً عن الرحلة في طلب العلم، يشير فيه إلى أن الرحلة في طلب العلوم، ولقاء المشيخة، لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال، فيحصل الطالب على ملكة علمية أقوى مما لو درس على شيخ واحد، ويحل ذلك بأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفصائل، تارة علماً وتطويلاً وإلقاء، وتارة محاكاة وتقليداً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتقليد أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ، يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال^(١).

وكان الطعام في العراق والمشرق الإسلامي في رحلات دائمة، وأسفار غير منقطعة، فهم ينتقلون من بلد إلى بلد آخر دون أن تكون ثمة حواجز أو موانع تعوق تلقائهم بين مدن خراسان، وما وراء النهر، والعراق، والشام، ومصر، وديار المغرب والأندلس، ومنهم من يجاور بمكة، وكان هؤلاء العلماء يلقون الحفاوة والتقدير من أعيان وأبناء البلد الذي يحلون فيه.

التخاصم والتعاضد الذهني وانعكاساته الاجتماعية :

كان في الحجاز لهذا العصر إمارتان، إمارة مكة وإمارة المدينة^(٢) وكانت إمارة مكة للحسينيين^(٣) من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، في حين كانت إمارة المدينة للحسينيين^(٤)

من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وكانت الإماراتان تدينان بقولاء للخلافة الفاطمية في مصر^(١١).

وقد شجع البويهيون مبعوثي الفاطميين، غير أن هدفهم من ذلك لم يكن تمكين الخليفة الفاطمي من تولي الخلافة على المسلمين أجمعين ؛ لأنهم كانوا يريدون خليفة مسلوب القوى، لتتحقق لهم السيطرة عليه، ولذلك لم يعملوا على خلع الخليفة العباسي، غير أنهم وإن كانوا قد أبقوا على الخليفة السني، إلا أنهم عملوا على التآكل به وبقبائعه^(١٢).

ومن العجيب، في العصر البويهي، أن يكون السلطان الشيعي حامياً للخليفة السني. وإن كان هذا السلطان لا يعتقد في صحة خلافة العباسيين، حمله على ذلك رغبته في المحافظة على مكتسباته السياسية، وذلك بناء على نصيحة أحد مستشاريه بالإبقاء على الخليفة السني الضعيف آنذاك، وعدم الاعتراف بسلطان الخليفة الفاطمي الشيعي لأن ذلك خطر عليه. ويحدثنا ابن الأثير عن الحوار الذي دار بينهما بقوله : إنك أنت اليوم مع خليفة عباسي تعتقد أنت وأهلك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرت بقتله لقتلوه مستحطين دمه، ومتي أجلسك بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأهلك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك للعلوه^(١٣)، فأعرض عن ذلك (١٤).

وكان من جراء هذه السياسة أن تزايدت الأمور بين الفريقين أكثر من مرة، حتى إن عصر البويهيين كان يعرف بأنه عصر اضطهاد لأهل السنة، واضطر كثيرون منهم إلى الرحيل عن ديارهم، احتجاجاً على ما كان يقع أيها من أمور تشين كرامتهم.

ظهور السلاجقة :

بقيت البلاد التي كان يسيطر عليها البويهيون على هذه الحال زهاء قرن من الزمان، إلى أن ظهر السلاجقة لأول مرة في خراسان حوالي سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٤م)^(١٥)، واستتب لهم الأمر حوالي سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧م) وكفوا يتبعون المذهب السني، واتجهت أنظار التابعين للمذهب إليهم، مما مهد لهم السبيل للسيطرة على الولايات المجاورة لخراسان رويداً رويداً.

غير أن ظهور السلاجقة في المشرق الإسلامي، وزيادة نفوذهم فيه، لم يقض على الفتن المذهبية التي كانت قائمة في ذلك الوقت، والتي كانت تسفر، في كثير من الأحيان، عن حوادث دامية يذهب ضحيتها كثير من الأهلين^(١٦).

وكانت سنة النولة السلجوقية بمكة والمدينة وثقة منذ قيامها، لأنهما المنبع الأصلي للإسلام، حيث كان إمارة مكة المكرمة الأولى في العالم الإسلامي، إذ كان المسلمون - ولا يزالون - يؤمنونها سنوياً من بقاع الأرض قاصبوها ودانيها لأداء فريضة الحج، وكان من يدعو لنفسه من الخلفاء على منابرهما - سواء من الخلفاء العباسيين، أو الفاطميين - يعد نفسه خليفة للمسلمين قاطبة.

والواقع أنه لم يوجد عالم من علماء الممننين - في الغالب - إلا وشد الرحال إلى مكة لأداء فريضة الحج، ووجد من الطعام من استهواه بريقها، فظل يدرس بها ويفتي، ومنهم من كان ينتهل فرصة وجوده هناك ليأخذ من الشيوخ ويسمع عنهم، ويقطف من جناهم أطيب الثمار وأشهى الأكل من مختلف العلوم والفنون.

ومن الأمور التي تلفت النظر، في العصر السلجوقي، أن هناك عددًا غير قليل من كبار المثقفين، كالقضاة والأبباء وعلماء النحو واللغة، قد تركوا ديارهم ونزحوا إلى مكة، ومن غير الممكن أن يكون هؤلاء قد تركوا بلادهم ولديهم أسباب الحياة الكريمة، فلا يعقل أن رجالاً بهذه الدرجة من الثقافة والعلم يهجروا أو يطعمهم دون أسباب وجيهة، مع العلم أنهم لم يهاجروا في طلب العلم، لا سيما وأن كلا من العراق والعراق الإسلامي، في العصر السلجوقي، كانا متارة للعلم والمعرفة، يحج إليهما طلاب الثقافة من كل فج عصى، إذن لماذا تركت هذه الصفوة المختارة بلادها واتجهت إلى الأراضي المقدسة؟

والواقع أن العصر البويهي عرف بأنه عصر اضطهاد لأهل السنة، مما اضطر كثيرًا من العلماء إلى الرحيل عن ديارهم احتجاجًا على ما كان يقع من أمور تشين كرامتهم، إلا أن ظهر السلاجقة في المشرق الإسلامي، واستتب الأمر لهم في العراق، وكثرتا يتبعون المذهب السني، فتجهت أنظار التابعين للمذهب إليهم.

غير أن ظهور السلاجقة في المشرق الإسلامي أولاً، ثم في العراق ثانياً، لم يقض على الفتن المذهبية التي كانت قائمة بين أصحاب المذاهب الإسلامية في ذلك الوقت، والتي كانت تسفر في كثير من الأحيان، عن حوادث دامية يذهب ضحيتها الكثير.

ولم يكن العراق وحده مرتعاً للحوادث العنيفة، بل امتدت تيارات الفتنة إلى غيره من مدن المشرق. وكانت "نيسابور" مسرحاً لفتن كثيرة، منها ما حدث في عصر السلطان "طغرل بك"، عندما أمر بلعن الرافضة الشيعة على منابر خراسان أيام الجمع، فاستقل وزيره "صيد الملك الكندري" (١٧) هذه الفرصة وقرن اسم الأشاعرة - لما كان بينه وبين الشافعية من عداوة - بأسماء أرباب البدع والأهواء (١٨).

ولما كان معظم الأشعرية (١٩) شافعية، فقد غلف الكندري طعنه على الشافعية بغلاف الأشعرية، حتى لا يتهم بالتعصب لمذهبه (٢٠).

ولم يقف الأشاعرة مكتوفي الأيدي، فقلعوا بأصابع عنف وشغب احتجاجاً على ما تلقوا من المحنة، عندئذ أمر السلطان طغرل بك بالقبض على زعماء الأشاعرة، وعلى رأسهم الإمامين "أبي القاسم القشيري" و "أبي المعلى الجويني"، ولكن إمام الحرمين أحسن بالأمم فاختفى، بينما كان "أبو سهل بن الموقف" بعيداً عن خراسان فلم يقبض عليه، وإنما قبض على القشيري

وآخرين، إلى أن عاد أبو سهل إلى نيسابور فجمع أعدائه وهاجموا السجن، وأخرجوا من فيه من الأشاعرة، بعد أن ظلوا في السجن أكثر من شهر^(٢١).

ويذكر السيكي^(٢٢) أن الوزير الكندري صار يقصد الأشاعرة بالإهانة والأذى والمنع من الوعظ والتدريس، وعزلهم عن الخطابة، وأغرى السلطان السلجوقي "طغرل بك" بمذهب الشافعي عموماً، وبالأشعرية خصوصاً، حتى طار شرر هذه الفتنة في الألق، وطل ضررها وعظم خطيئها.

كانت هذه المحنة سبباً في مفكرة كثير من أعلام المذهب الشافعي منطقة خراسان، فمنهم من ذهب إلى العراق، ومنهم من جاء إلى الحجاز^(٢٣)، فممن ذهب إلى الحجاز الإمام "البیهقي"^(٢٤) و"القشيري"^(٢٥) و"إمام الحرمين الجويني"^(٢٦)، حتى قيل إن عدد من خرج من خراسان بسبب هذه الفتنة، أكثر من أربعائة من فقهاء الشافعية^(٢٧).

وتختلف المصادر بصدد الدافع الذي أدى إلى خروج الإمام الجويني من نيسابور : يذكر عبد الغافر الفارسي - ويوافقه على ذلك السيكي وابن العماد^(٢٨) - أن عبد الملك اضطر إلى النزوح عن نيسابور مع بعض المشايخ من بينهم أبو القاسم القشيري وذلك بعد أن ظهر التعصب بين الفريقين، ويذكر ابن خلكان^(٢٩) أنه سافر إلى بغداد، ونقي بها جماعة من العلماء، كما يذكر ابن الجوزي^(٣٠) أن الإمام تنقل في كثير من البلاد، وتلقى العلم في بغداد على أبي محمد الجوهري وأخيراً قاتل ابن تغري بردي أنه سجع بابلاد، وجاور بمكة، ثم عاد إلى نيسابور^(٣١).

هكذا نجد أنه باستثناء عبد الغافر ومن نقل عنه لا يشير المترجمون للإمام إلى أن قيام التعصب، بين فريق أهل السنة والشيعة، يعتبر سبباً من أسباب خروج مشايخ الأشاعرة من نيسابور، وهم - إذ لا ينكرون التعصب المذهبي كدافع لنزوح مشايخ الأشاعرة عن هذه البلدة - يرون أنهم سافروا ليتلقوا العلم عن كبار العلماء وأجلة المشايخ، بمختلف البلدان على عادة القوم في ذلك الحين.

غير أننا نرجح ما ذكره عبد الغافر الفارسي تلميذ الإمام، فقد كان أعلم بقرواف حياة أستاذه من غيره من المترجمين، ويكون نزوح الإمام عن نيسابور بسبب ما كان قائماً من الفتنة المذهبية، خصوصاً وأن المؤرخين للحوادث العامة يثبتون ما يزيد قول عبد الغافر الفارسي، على نحو ما تبين لنا ذلك من سرد حوادث العصر في ذلك الحين. وسواء كان خروجه بسبب هذه الفتنة أو غيرها، فقد استغل فترة ابتعاده هو ورفاقه عن هذه البلدة أحسن استغلال، فقصدا كبار العلماء وجلسوا معهم للمناقشة وتثبيت أمور العقائد.

على أية حال، تذكر المصادر أن الإمام الجويني نزع عن نيسابور واتجه إلى بغداد، وقد ذاع صيته أثناء وجوده ببغداد، واشتهر أمره، وبعد أن أقام فترة بها رحل بعدها إلى الحجاز، وأقام بمكة أربع سنوات يذاخر ويقتي وينشر العلم، حتى صار مقصد الطلاب والمتطعين من كل قطر، بعد

أن تلقى تجمعه وعقد له لواء الزعامة بين علماء مكة، وقد بلغ من فضله أن حرص المسلمون على تلقيه بإسماهم الحرمين تكريماً له، واعتراكاً منهم بجهوده في نشر العلم^(٣٦).

ويقول السبكي^(٣٧) في ذلك "وجاور بمكة أربع سنين يدرس ويفتي ويجتهد في العبادة ونشر العلم، شرف به ذلك النذوي، وأشرقت قلاع ذلك الوادي، وأسبلت عليه الكعبة ستورها، وأقبلت عليه وهو يطوف بها كلما أسود جتح الليالي، بيض نيجورها وصفت نوبته مع الله، فلو كانت الصفا ذات لسان لشافهته جهاراً، وشكر له المسعى بين الصفا والمروة إقبالاً وإدباراً".

ولم يلبث أن عاد إمام الحرمين إلى نيسابور، وذلك بعد وفاة المصلحان "طغرل بك"، وتولي من بعده ابن أخيه "ألب أرسلان" سدة الحكم، الذي اتخذ لنفسه وزيراً شافعياً هو "أبو الحسن بن علي" المنقب بنظم الملك، فأمر بعودة علماء الشافعية الذين هاجروا من قبل، وأكرمهم وأحسن إليهم وأسقط ذكرهم من السبب، والافتقار على لعن الرافضة^(٣٨).

ومن العلماء الذين خطوا الرجال في مكة، العالم الجليل "طراد بن محمد اللزيني" مسند العراق، وتلقيب الثقباء الهاشمي العباسي البغدادي، الذي كان حنفياً من جلة الناس وكبرائهم، ثقة ثباتاً، ساد الدهر رتبة وعلوّاً، وفضلاً، ومتع بسمعة طيبة حتى إنه ذهب إلى أصفهان وحدث بها، وأصبح له في مكة مكانة علمية بارزة نظراً لنبوغه وتلقفه، وكان له مجلس علم في رحاب الحرم، وكان يحضر مجلس إمامه جميع أهل العلم^(٣٩)، ثم ذهب إلى مكة والمدينة وأملى بهما^(٤٠) حتى قال عنه الذهبي^(٤١)؛ "أحق الصنف بالتكبار".

فضلاً عن "أحمد بن سلمان التيسابوري" الذي سافر الكثير وتلقى المشايخ ووقف نيافاً وثلاثين مؤلفاً بمكة، وكانت له علاقة طيبة مع شيخ الحرم بمكة المكرمة^(٤٢).

ويذكر عبد الغافر الفارسي^(٤٣) أن "أحمد بن علي بن محمد التيسابوري" تنبأ مكانة سامية في مكة حتى إنه أصبح قاضي الحرمين، وكان يكرم كل من دخل مكة من المعارف والبلديين (أهل بلده) والأصدقاء، إلى جانب "القاسم بن الفضل بن أحمد" رئيس أصفهان وابن رئيسها، يقول عنه عبد الغافر الفارسي^(٤٤)؛ "صدر التجار في وقته، أيسر أهل عصره ثروة ونعمة وتجارة وضيافة، سمع ببلده وبمكة من "ابن نظيف"، وعقد له مجلس الإمام بأصفهان فملأه سنين".

ولهذا لا تعجب إذا رأينا الحافظ الكبير والمحدث الشهير أبا طاهر السنقي الأصفهاني المعروف بـ "الحافظ السنكي" وترك موطن رأسه في أصفهان، وبتجه إلى مكة المكرمة، ويتخذها دار إقامة^(٤٥).

والحقيقة أن التعطش لطلب العلم هو الدافع الأكبر للسنكي ليطوف في البلاد ويرحل إلى أماكن عدة، يلتقي فيها بالشيوخ فينتهل من علمهم في كل مكان يحل فيه، فذهب إلى بغداد حاضرة البلاد وكعبة القصد، وفي أرجائها ازدهر العلم واستوى على سوقه، فاقبل السنكي على علماء بغداد ينهل من علمهم، فدرس عدة علوم لا يمكن أن يستغني عنها دارس الحديث، فدرس الفقه

الشافعي على كبار فقهاء بغداد، ودرس اللغة والحديث على فطاحل الأئمة الأفاضل^(٤٧) ثم غادرها إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج وسمع بها من علماء الحديث، ولم يترك عالماً بارزاً من علماء العراق والحجاز إلا اتصل به وأخذ عنه^(٤٨)، ثم اتجه إلى الشام وأقام دمشق فأقام بها فترة، ثم وصل إلى الإسكندرية بعد أن حصل من العلوم الكثير، فاشتغل بالتدريس، وتكرس الحديث بوجه خاص، وقصده طلاب الحديث من جميع أنحاء مصر وخارج مصر^(٤٩).

ولم يمكث السلفي في مكة إلا قليلاً حتى عرف واشتهر، وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات درسه، وتكثر طلابه وأقبلوا على دروسه وأحبوه، حتى أصبح مقصد الطلاب والمتعلمين من كل قطر، وأصبح مرحولاً إليه بعد أن كان راحلاً، فلم يكن في ألق من الألقاق في عصره من هو أسند ولا أحفظ منه^(٥٠).

ومن رحل إلى الحجاز قائماً من المشرق لنشر العلم "أبو نصر البزنطي" المعروف بـ"فقيه الحرم" لأنه جاور بمكة أربعين سنة ينشر العلم، وكان من كبار أصحاب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي^(٥١)، من كبار محدثي والفقهاء، ولا شك أنه قد بث بمكة قدرًا كبيراً من علمه الفزير بلدي حصله في المشرق، حتى قيل إن الشيخ "أبا إسحاق الشيرازي" كان يتبرك به، ويحضر مجالس علمه^(٥٢).

الواقع أن عدداً من العلماء لمجاورين، العراقيين والمصريين، قد فرضوا تميزهم العلمي وثقافتهم الواسعة باعتلاء رئاسة بعض العلوم في مكة حتى إن بعضهم أصبح مفتي مكة ومحدثها الأول بلا منازع.

ومن كان له جهد تأليفي وتعليمي بالحجاز الإمام "أبو عبد الله الحسين بن علي الطبري" الشافعي مفتي مكة ومحدثها، كان من كبار الشافعية، تلقاه عليه جماعة كبيرة من أهل مكة حتى كان يدعى بإمام الحرمين؛ لأنه جاور بمكة نحواً من ثلاثين سنة يدرس ويلقي ويسمع^(٥٣)، وكان قد سافر إلى بغداد، ولزم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، حتى تولى التدريس بنظمية بغداد ثم غادرها إلى مكة، بعد أن حصل من العلوم الشيء الكثير، وظل مقوماً بها حتى وفاته^(٥٤).

والملاحظ أن العلوم الشرعية بلوغها المختلفة من "فقه" و"تفسير" و"حديث" وما يرتبط بها من علوم ومعارف إسلامية أخرى، مثل: "علوم اللغة العربية وآدابها" و"السيرة النبوية والتاريخ" كانت تلك العلوم هي محور التدريس، ومن أجلها تشد الرحال إلى جوار مكة المكرمة^(٥٥).

نعل هذا يفسر لنا كثيراً من مظاهر الحياة الثقافية في العصر السلجوقي، وكيف اتجهت هذه الحياة في معظمها إلى العناية بالعلوم الدينية بجميع فروعها، وفي مقدمتها علم الحديث، حتى قال بعضهم: "من لم يكتب الحديث لم يتغرر بحلاوة الإسلام"^(٥٦).

الجدير بملاحظة أن الإقامة بمكة، أو ما اصطلح عليه بالمجاورة، لم يكن يلزم صاحبه بقضاء فترة محددة فيها، سوى الإقامة بجوار الحرم مدة قد تطول وتقتصر ولقاء العلماء والمشايخ، أو نشر العلم والفكر.

كما كان "علي بن يوسف بن محمد الجويني" النيسابوري، من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، جاور بمكة مدة، حتى صار يطلق عليه "شيخ الحجال"، وهو أخو ركن الإسلام أبي محمد الجويني، ثم عاد إلى بلده، وكان يعتد له مجلس الإمام في مسجد "المطرز" بنيسابور^(٩٢).

وأحمد بن محمد بن عبد الله الهروي الحافظ، من أهل الحديث، ومن المجاورين بمكة، وكان من كبار مشايخ الحرمين. كان ورعاً زاهداً عالماً، لا يدخر شيئاً للغد، حتى أصبح يشار إليه بالتصوف^(٩٣).

وكان من أبرز هؤلاء "الزمخشري" الذي كان يكنى بأبي القاسم ويلقب "بجار الله" وشهر بالزمخشري نسبة إلى بلدة "زمخشري"، فقد كان محباً للعلم والمعرفة، نشأ في عصر ازدهرت فيه الحياة العلمية، وانتشرت في كل ركن من أركان البلاد، حتى كان يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة^(٩٤).

درس الزمخشري صبياً في خوارزم، ثم رحل إلى بخارى لطلب العلم، لأنها كانت على حد قول الثعالبي^(٩٥) "مأثرة المجد وجمعة الملك وجميع أفراد الزمان ومطلع نجوم أبناء العصر" وهناك لقي الزمخشري الطعام والأفضل وأفاد منهم الكثير، وساعده على ذلك حفظه الكثير للأدب واللغة، حتى صار يضرب به المثل في هذين العلمين^(٩٦).

وبعد أن ارتوى الزمخشري من العلم والأدب ومن فنون المعرفة الأخرى، قرر الرجول إلى خراسان، وورد العراق، ثم عاد إلى خوارزم، قال عنه النقطي^(٩٧)، "كان علامة الأدب ونسابة العرب، أقام بخوارزم تضرب إليه أكياد الإبل، وتحط بفنائه رجال الرجال".

بيد أن كثرة التباهين المشهورين في شتى صنوف المعرفة، في العصر السلجوقي، صار من المتعذر على أي عالم، مهما علت منزلته العلمية، أن يلفت الأنظار إليه وسط هذا الحشد الهائل، ففكر قسم من هؤلاء النوايع أن سهل العيش الرغد ليست ميسورة، فضلاً عن أن الكثرة بطبيعتها تؤدي إلى التحاسد والتباغض بين أصحاب الحرفة الواحدة، فصار الغني والجاه العريض من نصيب قوم، على حين كانت الأكثرية تشكو الفقر وضيق ذات اليد.

وتشير المصادر إلى أن "الزمخشري" دفعه طموحه إلى الاتصال برجال الدولة السلجوقية، محاولاً أن يبين لهم أنه على الرغم من علمه وفضله، لم يظفر بالمكفة اللائقة به، بينما ظفر من هم دونه بذلك ويظهر ذلك من خلال أبيات أنقاها يتباهى فيها بنفسه ويمجسه وعلمه حينما قال:

ألم تر أني حيثما كنت كعبة يحفون بي كطفتين طوافيا
فشرقهم يهوى إلى النور قابسا وغربهم يسعى إلى البحر غارقا^(٥٨)

ولكن يبدو أن رجال الدولة السلجوقية أعرضوا عنه ؛ لأن الزمخشري كان معزاليا مجاهداً باعتراله^(٥٩)، ولذلك قرر الرحيل إلى مكة المكرمة، وفي طريقه إليها مر بالعراق ومكث فيه حقبة من الزمن، سمع فيها الكثيرين من علمائها ومناظريها، حيث التقى بالشيخ أبي الشجرى، الذي مدحه بقصيدة طويلة، مهللاً بقومه ومثباً عليه، كما اجتمع في بغداد بالفقيه الحنفي "الدامغاني" والشيخ "أبي منصور الجواليقي"، ثم سافر إلى مكة^(٦٠) فوجد بها للشيخ السيد الفاضل الكامل "أبا الحسن علي بن عيسى بن حمزة الحسني"^(٦١) الذي عرف محله وفضله ورفع من قدره، وقدمه على كثير من أقرانه، وأكثر الاستفادة منه، وأخذ عن الزمخشري، وأخذ الزمخشري عنه، وكان له دور كبير فيما ألفه من مصنفات، حتى قيل إن الزمخشري ألف تفسيره الكشف من أجله^(٦٢).

قال الشريف صافحاً الزمخشري:

جمع قرى الدنيا سوى للقرية التي تبوأها داراً قداً زمخشراً
وأخبر بأن ترهى زمخشر بامروء إذا عد في أسد الشرى لمخ الشرى^(٦٣)

وكان الشريف عيسى بن حمزة جنول القدر من علماء مكة وشرافها وأمرائها، وكان ذا فضل عظيم وله تصنيفات مفيدة وأثرية في النظم والنثر مجيدة، قرأ على الزمخشري بمكة حتى فاقه ونبع عليه^(٦٤) يقول عنه ياقوت^(٦٥) الحموي "وصرفت أجرة طلب العلم إليه" كما كان محباً للعلم والعلماء يقرهم إليه ويضيق عليهم، ولهذا جمعت الصداقة بينه وبين الزمخشري فأشاد بذكره في عدة أبيات.

بقي الزمخشري مجاوراً لبית الله الحرام حتى لقب بجار الله، وعلى الرغم من حبه لمكة، وهذو نفسه بتلك المجاورة، لم يستطع البقاء هناك طويلاً ؛ لأنه اشتاق إلى موطنه وأهله، فترك مكة وسافر إلى خوارزم، ولكنه ما إن وصلها حتى حنت نفسه إلى مكة ثانية وندم على تركه إياها، وأخذ ينظم القصائد المملية بالشوق إليها، وعندما سئل عن ذلك قال: "القلب الذي لا أجده ثم أجده هاهنا"^(٦٦)، ولم يلبث أن عاد مرة ثانية إلى مكة ليستكشف سيرته الأولى وليتفرغ للعلم والتتظيم^(٦٧).

ويبدو أن الزمخشري كان راضياً عن نفسه بذلك الارتحال الذي نأى به عن الضيم الذي رآه في بلاده وعدم وضعه في المكانة اللائقة به، وعدم إصابته منزلة التدريس، أو حقولة عند الأمراء والوزراء، فتقلب في البلاد لطلب العلم والبحث اللذين نقي في سبيلهما التعب.

ومع ذلك لم تنقطع علاقة الزمخشري، أثناء وجوده بمكة، بعلماء المشرق ورجله، فقد كتب إليه منتخب الملك "أبو جعفر محمد" أحد كتراء السلطان "سبحر بن ملكشاه" رسالة وقصيدة ومبرهما إليه إلى مكة عند مقامه بها، توضح مدى العلاقة بينهما، "كتابي إلى جاز الله العلامة عن سلامة كمل الله أسباليها، ونسمة أوطف بالفرغاب صاحبها والحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه محمد وآله الطاهرين^(٩٠)

بعد الملتقى وشط المزار وتمادى لوصولك الانتظار^(٩١).

ولا تغفل أيضاً عن ذكر المراسلات الفكرية التي كانت متصلة بين الزمخشري والحافظ السلفي، مما يدل على عمق الصلات العلمية بين العلماء من أجل الحصول على المعرفة وتنمية الفكر^(٩٢).

ومن العلماء الذين رحلوا إلى الحجاز، وأقاموا به ينشرون العلم، الإمام الفقيه المقتي مسند خراسان وفتية الحرم "أبو عبد الله الفراوي" للثيسابوري الشافعي المعروف بفتية الحرم، لأنه أقام بالحرمين مدة طويلة، ينشر العلم ويسمع الحديث ويعظ الناس ويذكرهم، وكان من تلاميذ إمام الحرمين الجويني، تلقاه عليه حتى صار من جملة المذكورين من أصحابه^(٩٣)، حتى يقال إنه قد أُملي أكثر من ألف مجلس، وحكي عن بعضهم أنه قال الفراوي : "ألف راوي"^(٩٤).

ولاشك أن امتزاج ثقافة هؤلاء المؤلفين من بلدان المشرق الإسلامي بثقافة أبناء علماء مكة، كان له أثر جلي، لا سيما بعد أن عادوا إلى بلادهم، وقد نهلوا من منابع ثقافات البلاد التي طوفوا بها . ومن أمثلة هؤلاء "الزمخشري" الذي جاور بمكة سنتين كثير، واستفاد من علم وأدب الأمير "ابن وهاس" وغيره^(٩٥).

كان "ابن وهاس" يحترم الزمخشري ويحله، ويتضح ذلك من خلال أبياته التي مدحه بها عندما قال :

وكم للإمام الفرد عذى من يد هاتيك مما قد أطاب وأكثرا

فليس شاة بالعراف وأهله بأعرف منه بالحجال وأشهرها

وقد مدحهم الزمخشري بنسبهم للرسول الكريم، ومساندتهم للدين الإسلامي، كما يمدحهم بالشجاعة والكرم، ويبين فيها مقدار حبه وتقديره له، كما يتضح فيها فضل هذا الأمير عليه في قوله :

بمكة أخيت الشريف وفتية حواليه من آل النبي خطارها^(٩٦)

وكان ابن وهاس لجنبي حارسا كما تفعل الأم الحفية لأخطا^(٩٧)

وكانت الرغبة الملحة لدى كثير من علماء المسلمين في الاطلاع على شئون تلك البلدان، التي تربط بينها وشائج الدين والقربى، ودرس أحوالها عن كثب هي الحفاظ المهم لشدة الرحال

للمسلم والتجوال بين تلك البلدان المتباعدة شرقاً وغرباً، فمنهم من كان يرحل للعلم، والوقوف على جغرافية المملكة الإسلامية، والتعرف على أحوال إدارتها ودرجة رفاهة أهلها وخيرات بلادها، مثل الرحالة الفارسي "ناصر خسرو" الذي قام برحلة زار فيها بلاد خراسان وأرمينية والشام ومصر والحجاز، وصف فيها أحوال أهل تلك البلدان وعاداتهم وتقاليدهم، وما شهد فيها من أراض وبلاد وأمم ودول وملوك وعلماء وعادات وأخلاق^(٣٦)، وكتب كتاباً أسماه "سفرنامه" الذي يعد مرجعاً رئيساً للتعرف على أحوال بلاد إيران في العصر السلجوقي، بما احتواه للكتاب من معلومات قيمة في التاريخ والجغرافيا وأحوال المجتمع^(٣٧).

ويحدثنا "ناصر خسرو" عن زيادة أعداد الوافدين إلى مكة لأداء فريضة الحج، وزيادة الرسم أو الضريبة التي كانت السلطات الفاطمية تفرضها على الحجاج والمعتمرين القاصدين مكة^(٣٨) وكان الحجاج والمعتمرين يؤدون هذا الرسم في مدينة جدة - وأميرها تابع لأمير مكة - ويذكر لنا "ناصر خسرو" من خلال رحلته المشهورة، قصة قدومه إلى مكة، وكيف أن أمير جدة أكرم وفادته، وأعطاه من دفع المكس المفروض عليه ولم يطلبه منه شيئاً، بل إنه كتب إلى أمير مكة آنذاك "تاج المعالي بن أبي الفتح"^(٣٩) (الذي هو أمير المدينة أيضاً) يقول له: "هذا رجل عالم فلا يجوز أن يؤخذ شيء منه"^(٤٠).

وقد زار الرحالة "ناصر خسرو" مكة أربع مرات، ومكث بها مجاوراً ما يقرب من عام، وصف لنا خلالها مشاهداته الكثيرة التي تعتبر من الوثائق المهمة التي تحكي لنا عن مكة في ذلك العصر، إذ يذكر لنا أنه يوجد بمكة لكل مدينة من مدن خراسان، وما وراء النهر، والعراق، منازل، ويكن أغنيهاً كان خراباً، ولقد بني بها خلفاء بغداد عمارات كثيرة وأبنية جميلة، وكان بعضها وأنا هناك خراباً، وبعض الآخر اشتراه الناس (أصبح ملكاً خفياً)^(٤١).

ويحدثنا أيضاً أن آبار مكة لم تكن صالحة للشرب لملوحة مياهها، لذلك أنشئ بها كثير من الأحواض والمصانع الكبيرة، بلغت تكاليف الواحد منها أكثر من عشرة آلاف دينار. وهي تملأ من ماء الأمطار الذي يتدفق من الأودية.

ويذكر أنه رأى بمكة "الخيار" و"الأترنج" و"البانجان"، وكانت كلها طازجة، وكانت الفاكهة متوفرة طوال الشتاء لم تنقطع قط^(٤٢).

والواقع أن مذهب الاعتزال قد انتشر في إقليم خوارزم انتشاراً كبيراً، وهو مذهب يؤمن بميلان العقل، ولذلك نشطت عندهم الدراسات البلاغية، وهي دراسات متأثرة بالفلسفة والمنطق، حتى أصبحت لفظة الخوارزمي مرادفة لللفظة المعتزلي من حيث العقيدة، يؤكد ذلك ما ذكره باقوت الحموي، عندما سأل الأديب الشاعر القاسم بن الحسين الخوارزمي عن مذهبه، فقال: حنفي، ولكن لست خوارزمياً. ينفي عن نفسه أن يكون معتزلياً^(٤٣).

وظهر كثير من علماء هذا الإقليم في العديد من المجالات، عرف عنهم المقنرة، والتبحر في فنون مختلفة، منهم الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨هـ/١١٤٢م) وشهرة الزمخشري، وخاصة في التفسير، لا تحتاج إلى إشارة، فقد شهد له معاصروه بالعلم والفضل والأدب، وأثنى عليه معظم مؤرخيه، قال عنه ياقوت الحموي^(٨٦) : كان إماما في التفسير والتحو واللغة والأدب، واسع العلم كبير الفضل متقلنا في علوم شتى" وقال ابن خلكان^(٨٧) : كان إمام عصره من غير مدافع، تشد إليه الرحال في فنونه، وصنف التصانيف البديعة .

أما القطفي^(٨٨) فقد قال عنه: تصابى العرب، تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بقنائه رجال الرجال، وكان أعلم فضلاء الحزم في زمانه بالعربية، وأكثرهم أنسا واطلاعا على كتبها، وبه ختم فضلائها".

وهذا السيوطي^(٨٩) يقول فيه: كان واسع العلم كثير الفضل غاية في النكاه وجودة القريحة، متقلنا في كل علم، معتزلا قويا في مذهبه .

المجاورون المتصوفون ومكانتهم العلمية في المجتمع المحلي

اتخذ التصوف أشكالا سلوكية تتلخص في الانقطاع عن ممارسة كل النشاطات الاجتماعية، والتفرغ لممارسة الشعائر الدينية وهداه، مع قهر النفس وترويضها على تحمل أشق حالات الزهد في الحياة، وحرمتها من كل مشتبهات العيش^(٩٠) .

وقد اتسعت في العصر السلجوقي موجة التصوف، لاسيما بعد أن انتشرت فلسفة الفقر بين الناس، وانكفاء العديد من رجال الدين والعلماء يحتجون على الوضع الاجتماعي، والأوضاع السائدة على المسرح السياسي، والذين راحوا يدافعون عن فلسفتهم الجديدة، معنيين تمسكهم بمبادئ الإسلام الأساسية، زاهدين في الدنيا، حتى فاضت تلك النزعة على البلاد من أقصاها إلى أقصاها .

وهناك أقوال مختلفة في اشتقاق كلمة "صوفي" وهل هي من الصوف، لأن المتصوفين كانوا يلبنونه تمييزا لهم عن أهل الرقة والتنع، أم هي من صفاء النفس، وبقاء الروح ؟ أو هي من الصفة نسبة إلى "أهل الصفة" الذين كانوا ينقطعون للعبادة في مؤخرة مسجد الرسول ﷺ ؟ والذين كان الرسول الكريم يسبق عليهم بره ورحمته، وبه القديس سائر القادرين من أصحابه . والواقع أن نسبة صوفي إلى أهل الصفة لا تجد قبولا عند كثير من المؤرخين والباحثين، لأنه لو كان الانتساب إلى أهل الصفة، لقول "صلي" بضم الصاد وتشديد اللام بغير واو بينهما^(٩١) . والأقرب إلى الحقيقة أنها مشتقة من ليس الصوف، لأن كثيرا من الزهاد بداية من القرن الثاني الهجري (٨م) كانوا يلبنونه، ثم شاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك^(٩٢) .

وكان لجوء المسلمين في ذلك العصر إلى علم المنطق، ثم تحوله إلى علم الكلام، رديفا طبيعيا لتلك الظواهر التي أصبحت أكثر بروزا في هذا العصر، والذي كان التصوف أحد رواده وفنونه^(٩١).

والواقع أن يزوغ تلك النزعة الفلسفية، في ذلك العصر، كان انعكاسا طبيعيا فرضته معطيات فكرية واجتماعية فرضت نفسها على المجتمع الإسلامي آنذاك، لاسيما بعد اطلاعهم على ذلك الكم الهائل من التراث العلمي والأدبي، الذي خلقتته حركة الترجمة من الكتب اليونانية بجميع فروعها، من طب ومنطق وطبيعة وكيمياء، وبخاصة بعد أن ترجمت الكثير من الكتب الهندية والفارسية والسريقية، ونتج عن هذا التلاقح الفكري، والمزج بين الثقافات المختلفة، أن تلبثت ألباق جديدة للمعرفة أمام المسلمين، فتكونت نزعة زاهدة لحمتها التقوى وسداها الورع والتدين، حمل لواءها أعلام كرام عرفوا بالصلاحي وحب الحق والتمسك بأهذاب الدين .

وكان لتنافس مجبى الخير على إقامة العديد من "الربط"^(٩٢)، وتخصيص مساكن مختلفة في أزقة مكة وشوارعها ، لإقامة الطلاب والعلماء الذين يرغبون في تلقي العلم من مفكري عصرهم، لاسيما في الدخل المحدود^(٩٣) .

ويذكر ابن الجوزي^(٩٤): أن أمير الحاج "خنتل بن كنتكين" المتوفي سنة (١٠٨٩هـ/١٠٨٩م) لبث في إمرة الحاج التي عشرة سنة. كان حسن السيرة، محافظا على الصلوات في جماعة، يهتم القرآن كل يوم، ويختص به الطعام والقراء، وله أثر جميلة في المشاهد والمساجد والمصانع بين مكة والمدينة .

ومن هذا المنطلق فقد شخص إلى مكة عدد كبير من الطعام من أجل التزود بالعلم على أيدي متلقي مكة، فضلا عن نشرهم العلم، ورغبين في المجاورة .

وقد ساعدتهم على تلك المجاورة كثرة "الربط" التي أنشئت في مكة من ذوي الناصر، والتي أسهمت بدورها في إيجاد سكن مناسب لهؤلاء المجاورين^(٩٥).

ومن هذه الربط التي كانت قائمة آنذاك في مكة "ربط المدرسة" والذي يرجع بناؤه إلى مطلع القرن الخامس الهجري (١١م) ويقع بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل من باب بني شيبه، وكان من شروط وأقلية أن يكون لسكنى المجاورين المنقطعين للعبادة^(٩٦) .

ورباط القاضي "صدر الدين أبي بكر المراغي" ويقع بجوار باب الجنتر بمكة، وقد جاء في وصية وأقلية سنة (١١٧٩هـ/١١٧٩م) أن يكون لإقامة الغريب الواصلين إلى مكة والتالزين فيها^(٩٧).

كما وجدت "ربط" بمكة اشترط وأقلوها أن تخصص لسكنى المتصوفين والزهاد من المجاورين، مثل رباط "أم الخليفة الناصر العباسي" وتاريخ وقته سنة (١١٨٣هـ/١١٨٣م)، ورباط

الختون "فاطمة بنت محمد بن أنوشروان" والتي أوقفته على الصوفية والرجال الصالحين سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) (١٨).

ولما كثرت الغاية الكبرى لمعظم هؤلاء المجاورين الانقطاع للعبادة، والاحتشاء بحرم الله، وابتغاء فضله ورضوانه (١٩) جاور عدد غير قليل من العلماء المشرقين، لاسيما المتصوفين منهم، الذين ألزموا أنفسهم الزهد في متاع الحياة الدنيا، كما ألزموا أنفسهم ضروباً من المجاهدات والرياضات التي قصد بها تصفية النفس وتقوية الروح .

ومن الملاحظ أن هناك العديد من المجاورين، سواء من العراق أو المشرق الإسلامي، قصدوا مكة من أجل حياة الزهد والورع التي كثرت سائدة في ذلك العصر، واشتغلوا من التصوف مسلكتهم .

وتحدثنا المصادر التاريخية (٢٠) أن "أبا نصر محمد بن هبة الله البندنجي" المتوفى سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م)، على الرغم من كونه ضريباً، إلا أنه كان عالماً مبرزاً، مضى إلى مكة مجاوراً بها أربعين سنة، متشاعلاً بالعبادة والتكديس والفتيا، ورواية الحديث .

ويذكر أن "أبا المعالي الجوهري" جاور بمكة أربع سنوات، يناظر ويفتي وينشر العلم، محاولاً أن يدخل الطمأنينة إلى النفوس التي اعتراها القلق، بسبب سياسة بليلة الطول التي اتخذها النورثيون، وقد بلغ من اجتهاده في ذلك أن حرص المسلمين على تلقيه بهام الحرمين تكريماً له، واعتزالوا منهم بجهوده .

ويبدو أن إمام الحرمين قد بلغ من انغمسه في الشطرنج الإسلامية أنه كان يواصل ليله بنهاره في الانشغال بها، كل ما هنالك أنه كان يبقى نهاره للناس بفتيهم ويناقشهم ويهديهم إلى سواء السبيل، معتمداً في ذلك على البراهين والحجج العقلية، ويكرس ليله للتعب والتجهد لتتقرب إلى الله عز وجل، فقد ورد عنه أنه كان يقضي ليله طافاً متعبداً في الكعبة الشريفة، حتى علا قدره، وصفت نيته، فكان من الواسلين.

يقول السبكي في ذلك: "جاور بمكة أربع سنين يدرس ويفتي ويجتهد في العبادة، ونشر العلم حتى شرف به ذلك النادي، وأشرقت تلاح ذلك الوادي، وأسبلت عليه الكعبة ستورها، وأقبلت عليه وهو يطوف بها، كلما أسود جتح الليلي يبيض ديجورها، وصفت نيته مع الله، فلو كانت الصفا ذات لسان لشافهته جهازاً، وشكر له المعنى بين الصفا والعمرة إقبالا وإقبالا" (٢١).

وهكذا نكتبين كيف كانت فترة وجود إمام الحرمين في مكة فترة مجاهدة لنفسه، ومراجعة لها ليردها عن الدنيا وظلالها الزائفة، ويخلصها من المادة وشوائبها وأدرانها، وذلك لكي تصفو نيته، فيصل إلى التحقيق بالمعرفة السنية.

وقد ورد عنه أيضاً أنه كان في مجالسه الصوفية، التي كان يمارس فيها رياضته الروحية، يبعث الحاضرين ببكائه، لاحترافه في نفسه، وتحققه بما يجري من دقائق الأسرار، فكان

الفترة التي أمضاها في مكة (بين الصفا والمروة) فترة ممارسة لأحوال الصوفية ليرتقي بنفسه بين مقاصدهم، وما يترتب عليها من أحوال .

والحقيقة أن ما ورد عن تصوف إمام الحرمين قليل، لا يدعو تلك العبارات التي نكرها السبكي وأثبتناها في معرض حديثنا، ولم يرد عنه أنه كتب في علوم الصوفية، أو أرخ لهم على نحو ما فعل معاصروه ورفيقه أبو القاسم القشيري في رسالته، التي تعرف باسم "الرسالة القشيرية" غير أنه يكفينا أن يكون القشيري من بين مرافقيه في رحلته هذه لنرجح صدق منقول إشارات السبكي التي تنبئ عن ممارسته لأحوال الصوفية، وليكون لدينا إثبات على أن إمام الحرمين كان من الذين خاضوا في هذه الأحوال عن علم ثابت، وطريقة قديمة في تحصيلها .

وبعد قضاء فترة الأربع سنين بمكة رجع إمام الحرمين إلى نيسابور، ونكر السبكي أنه رجع بعد انتهاء ثوبة التصبب بين أهل السنة والشيعة، باعتلاء الملك "ألب أرسلان" كرسي الحكم بنيسابور، وعمله على إرجاع شيوخ الأشاعرة الذين هاجروا من قبل عن ديارهم .

ومن المجاورين المتصوفين "سعد بن علي بن الحسين الزنجاني" المتوفى سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) كان إماما حافظا ورعا متعبدا متقيا، انقطع أواخر عمره بمكة، قال عنه ابن الجوزي^(١٠٦) : " كان الناس يتبركون به، فإذا خرج يطوف قبلوا يده أكثر مما يقبلون الحجر الأسود" . ويقول أيضا : " لما عزم سعد على الإقامة بالحرم، عزم على نفسه نيفا وعشرين عزيمة أنه يلزمها من المجاهدات والعبادات، ومات بعد أربعين سنة، ولم يخل منها بعزيمة واحدة" ^(١٠٧) .

ومما يجدر نكره أن المجاورة، في العصر السلجوقي، لم تكن قاصرة على الرجال فقط، بل شاركت المرأة فيها مشاركة واضحة، فقد ترجمت كتب التراجم والطبقات للعديد من النساء المشغولات بالطوم الدينية، وفي مقامتهن محدثة كبيرة اسمها "كريمة بنت أحمد المروزية" من أهل "مرو"، اشتهرت برواية الحديث، طافت البلاد والأقطار لسماع الحديث وروايته، وأخذ عنها الكثير من علماء عصرها ^(١٠٨) .

كما كانت بارعة في كثير من العلوم، لاسيما الحديث والوعظ، قرأ عليها عديد من الأئمة البارزين كالخطيب البغدادي وأبي سعد السمعملي صاحب الأنساب، وقلنت تلقى العلم حتى توفيت في مكة وهي مجاورة لبית الله الحرام سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) ^(١٠٩) .

كما كانت إسهامات المرأة السلجوقية عظيمة في مكة لاسيما أعمال البر والخير، كان من أبرزها ما ينسبته الخاتون^(١١٠) أئمة صاحب أصفهان^(١١١) يقول عنها "ابن جبير" وقد شاهد موكبها أثناء وجوده في مكة لأداء فريضة الحج ^(١١٢) : " وهي كبيرة القدر عظيمة الشأن منافسة في أفعال البر..." .

كما يصف لنا ابن جبير^(١٠٠) جانباً من الأعمال الخيرية التي كان يقوم بها نساء سلاطين السلاجقة في مكة لاسيما في موسم الحج بقوله : " ولهنّ لاء انعموا الخواتين في كل عام، إذا لم يحججن بأنفسهن، تواضع مسئلة من الحاج يرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل في المواضع المعروف فيها الماء، وفي الطريق كذا، وبعرفات، وبالمسجد الحرام، في كل يوم وثيلة، قلن في ذلك أجر عظيم ... فتسمع المنادي على التواضع يرفع صوته بالماء للسبيل، فيهبط إليه المرملون من اللزاد والماء يقرّبهم وأبريقهم فيملئونها، ويقول المنادي في إشارته بصوته : أبقي الله الملكة خاتون ابنة الملك الذي من أمره كذا، ومن شأنه كذا، ويحنيه بحلاه، إعلاناً باسمها وإظهاراً لفضلها، واستجلاباً للذعام لها من الناس" .

التلاح الفكرى بين علماء العراق والمشرق وعلماء مكة :

لم تكن الحواجز السياسية أو الحدود الجغرافية لتقف حجر عثرة دون أماني العراقيين والمشرقيين الراغبين في المعرفة، ولطامحين إلى علم غورهم من إخوانهم المكيين، حيث لم يمنع العدم السياسي من تدفق العلماء إلى مكة يحملون معهم تراثهم العلمى . وبقينا تمتع المجاورون العراقيون والمشرقيون بكرم أهل مكة الذين أحسنوا استقبال جوار هؤلاء الغرباء، بحسن أخلاتهم ومكرهم .

ومن الأمور التي تسترعى النظر ما ذكره "ابن بطوطة"^(١٠١) من أن أهل مكة بلغ بهم التكرم وحسن الضيافة أنهم متى صنع أحدهم طعاماً، أو وليمة، إلا دعا إليها أولئك المنقطعون المتعبدون، ويتوخي أن يستدعهم يرفق، وحسن خلق، ثم يطعمهم. كما كان أهل مكة يجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين، والمحتاجين في الولائي المباركة^(١٠٢) .

وهكذا فتحت مكة أبوابها ، وذراعها للعديد من العلماء والأدباء، من الذين ناقث أنفسهم إلى المجد والشهرة في هذا البلد المضيايف، وفي جوار المسجد الحرام أمن هؤلاء العلماء على أنفسهم، وأحدثوا بها نهضة علمية كبيرة لثرت في مسيرة الثقافة والفكر الإسلامى .

وكان لاشتداد التزاح بين الفرق الإسلامية المختلفة، أن ساد الحياة السياسية اضطراب وتشتت ومنازعات، مما أدى إلى ضعف مركز الخلافة العباسية، في وقت دقت فيه ججائل الحروب الصليبية أبواب العالم الإسلامى^(١٠٣)، واستخدم العلم والفلسفة أداة للمجالات المذهبية .

ولما كانت الحياة العقلية جزءاً لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية، فقد كان من الطبيعى أن تتأثر بما تأثرت به الحياة العامة من ضعف وتخاقل، وينعكس ذلك على سلوك الناس، مما أدى إلى تزلزل الروح المعنوية من تردى تلك الأوضاع، ودعا العلماء والمفكرين للبحث عن واحة أمان يفرّون إليها يطعمهم وفكرهم، فحطوا رحلتهم في مكة المكرمة مجاورين لبيت الله الحرام .

ويبدو أن العلاقات السياسية الطيبة، التي جمعت بين أشراف مكة والخلفاء العباسيين، كان لها دور كبير في ارتحل هؤلاء العلماء في جو من السكينة، فينكر ابن الجوزي^(١١٣) أن "جعفر بن يحيى التميمي" كان من ذوي الهوليات النبلاء و العلماء الأفاضل الذين يشاء إليهم في عصرهم، والذي رحل في طلب العلم ولاسيما الحديث إلى كل من الشام، والعراق، وفارس، كان يترسل (رسول) عن ابن أبي هاشم أمير مكة إلى الخلفاء والأمراء، ويتولى ما يوقع له من مال وكسوة .

وكان أبو حامد الغزالي^(١١٤) من الذين ارتحلوا إلى مكة، حيث قضى لأخصب فترات حياته العلمية، إذ برع في المنطق والمحاورة، وعرف مناهج الفلاسفة وطرق الرد عليهم، وبدأ يكتب ويؤلف حتى قيل إن إمام الحرمين كان يغاز منه، وإن حرص على ألا يبدى له شيئا من ذلك^(١١٥).

وكانت شهرة الغزالي العلمية وقوته العقلية قد بلغت مصلمع الوزير "نظام الملك"^(١١٦) فدعاه إلى مجلسه، وأظهر له احترامه وتقديره، وعينه أستاذا في المدرسة النظامية في بغداد^(١١٧).

وفي سنة (١٠٩٤هـ/١٠٩٤م) كتفه الخليفة "المستظهر بالله"^(١١٨) العباسي، أن يكتب له كتابا يخلص فيه آراء الشيعة الإمامية^(١١٩)، فأجابته إلى سؤاله، وكتب ثلاث رسائل حمل فيها على آرائهم ومعتقداتهم حملة قاسية؛ تدل على تعمقه في دراسة مذاهبهم واستبطان خلفاء عقائدهم^(١٢٠).

غير أنه بعد هذا المجد الذي أحرزَه في سنَى التكريس والتأليف؛ لم يلبث أن أحس بحاجة منحة إلى العزلة، والتفلي عن جميع مظاهر الحياة المادية، فتوكل كرسى التدريس، كما هجر أسرته، وارتحل إلى مكة فأنشأ فريضة الحج، ثم عاد إلى مسقط رأسه في مدينة "طوس" ثم أكب على تأليف أهم كتبه وأرقاها وهو كتاب "إحياء علوم الدين" الذي كان قد صنّفه إبان رحلته^(١٢١).

ويبدو أن نزوح ملكات الغزالي العلمية قد اكتملت في هذه المرحلة من مراحل حياته، حتى يقال إن تلك الرحلة كانت لها انعكاسات قوية في تصنيفه للكثير من مؤلفاته، التي امتدت إلى الفقه والفلسفة والجدل والخلاف، إلى غير ذلك .

ومن العجيب أن الإمام "أبا بكر البيهقي" المتوفى سنة (١٠٦٥هـ/١٠٦٥م) الحافظ الفقيه الدين الورع واحد زمنه في الحفظ وال إتقان والضبط، كانت له رحلة إلى بلاد الحجاز سمع خلالها من مشايخ مكة وتلقى العلم على أيديهم^(١٢٢).

وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الصديلاوي يقول عنه عبد الغفار^(١٢٣) : " من أولاد الميسير سمع ببغداد والحجاز، ومن المشايخ الذين سمع منهم: أحمد البيهقي، والإمامين : أبي محمد الجويني، و"أبو القاسم القشيري"، وسمع من "ابن نظيف" في مكة " .

وعبد العزيز بن محمد الحافظ، كان ثقة ورعا مجتهدا طاف البلاد وحج . سمع القاضي أبا الحسن محمد بن علي بن صخر بمكة^(١٢٤) .

ومحمد بن منصور السمعاني، سليل الأسرة السمعانية بمرو، كان عالماً بالحديث والفقه والأدب والوعظ، ونبلغ من شهرته أنه جئ من للوعظ بالمدرسة النظامية ببغداد، رحل إلى مكة لتلقي الحديث على علمائها، وعقد له مجلس التدريس هناك^(١٢٥).

ومن هؤلاء "محمد بن أحمد بن جعفر الحاكم العدل الشافعي، من وجوه العلماء النيسابوريين ومن وجوه المشايخ، سمع بمكة على كبار العلماء^(١٢٦).

ومحمد بن أبي سعيد بن سختويه الأسفرايني، من العلماء الكبار، حدث بصحيح البخاري بمكة، ونقل مجاوراً بها إلى أن توفي^(١٢٧).

ومحمد بن علي بن صير القهنتزي من أهل هراة، سمع بها، ثم رحل إلى مكة، ونيسابور، وسجستان، قال عنه ابن الجوزي^(١٢٨) : "كان متقناً فهما فقيهاً فضلاً كبيراً ديناً ورعاً زاهداً، حدث بالكثير".

ومن الذين كان لهم جهد تعليمي بمكة "أطراذ بن محمد الزيلبي" نقيب العباسيين ببغداد المتوفي سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م) من بيت معروف بالرياسة، وكان يرسل من ديوان الخلافة إلى الملوك والأمراء. كان يحضر مجلسه جميع المحدثين والفقهاء، وأملى بمكة والمدينة^(١٢٩).

والذي تجمع عليه المصادر التي ترجمت للزمخشري، أنه قضى الفترة التي عاشها في الحجاز يعلم الناس، فأتوا عليه وأحبوه وأقنوا منه فعلاً اسمه. وبعد صيته، كما أجمعت على وصفه بأنه أستاذ الدنيا وفخر خوارزم ومن أكابر الأئمة ألفت إليه النجوم أطراف الأئمة، وجمع بجوار بيت الله الحرام بين الفضائل والمحاسن^(١٣٠).

الهوامش

- (١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، ص ١٥١ ، ط٢ : القاهرة ١٩٣٨ م .
- (٢) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٢ ص ٢٥٩ ، دار الحديث للطباعة والنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٣ .
- (٣) عبد العزيز بن راشد السندي : المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة (٥٧٠-٦٦٠هـ/١١٧٤-١٢٦١م) ص ٧ بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ .
- (٤) السلاجقة : هم مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم "القرز" ، ونظراً لسوء الأحوال الاقتصادية في تلك المنطقة هاجرت إلى شرق العالم الإسلامي . وقد أطلق على هذه القبائل اسم السلاجقة نسبة إلى زعيمهم "سلجوق بن دقاق" الذي وحدهم تحت زعامته فأصبحت تعرف باسمه . واعتنقت الإسلام وألقت مبادئ المذهب السني . وأخذ التاريخ يذكر اسم السلاجقة بعد أن جلس أول سلاطينهم "طغرل بك" على عرش السلطنة في مدينة ليماسور سنة (٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م) . الحسيني : زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقيين ص ٢٣ ، تحقيق د. محمد نور الدين ، دار إقرأ بيروت ١٩٨٢ م . عهد النعم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ١٦ - ١٨ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩ م .
- (٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٥٦ ، تحقيق شعيب الأرسؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، بيروت ١٩٨٤ .
- (٦) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : طبع دائرة المعارف العثمانية ، ج ٩ ص ٣٥ ، ط١ حيدر آباد ١٣٥٩هـ .
- (٧) يذكر أن السلطان "ملكشاه" خرج للصيد ، فاصطاد هو وعسكره ألوفاً من الأتعام ، بنسى من حوافرها تلك المنارة ، حتى قيل إنه كان فيها أربعة آلاف رأس . ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ص ٣٥ .
- (٨) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٤١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٠ م .
- (٩) ظل العباسيون يتمتعون بالسيادة والنفوذ على مكة والمدينة لا ينازعهم في ذلك مفازع حتى أقام الفاطميون خلافهم في إفريقيا فأخذوا ينقلون إلى بسط نفوذهم على الأراضي المقدسة في الحجاز حتى يكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامي ، وقد تحقق لهم ذلك في خلافة المعز لدين الله حتى أقيمت الخطبة الفاطمية في كل من مكة والمدينة سنة ٣٥٨هـ . وأصبح الحجاز خاضعاً للنفوذ الفاطمي ومنذ ذلك الحين احتدم النزاع بين الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة على السيادة الرسمية على بلاد الحجاز . وقد تمخض هذا الصراع عن محاولات عدة من كلا الطرفين على هذه السيادة إذ أن ذلك سوف يكسبها سمعة طيبة في نظر العالم الإسلامي وينظر إليها في نظر عموم

المسلمين على أنها الخلافة الشرعية الواجب اتباعها. أحمد عمر الزينعي: مكة وعلاقتها الخارجية (٢٠١-٤٨٧هـ) ص ٢٣. محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٣، دار الفكر العربي، ط٤، للقاهرة ١٩٧٣م.

(١٠) كان يحكم مكة لهذا العصر من الحسينيين أسرة الهواشم وهم ينسبون إلى محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن أبي الكرم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان يتخذ الحكم آنذاك من الهواشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم الذي عظم ذكره بين قومه فحارب بني سليمان بمكة سنة ٤٥٤هـ للاستيلاء على الحكم وأوقع بهم الهزيمة وأخرجهم من الحجاز وقد بدأ عهده بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله تعبيراً عن ولائه للفاطميين في مصر. القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ص ١٦١، تحقيق إبراهيم الأبراري، دار الكتب الحديثة، ط١ القاهرة ١٩٦٣ م.

(١١) كان يحكم المدينة آنذاك الحسينيون وهم فرع من بني الحسين بن علي الذين صلوا على تأسيس دولة لهم بزعامة رجل علوي يدعى طاهر بن مسلم من أحفاد الحسين بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي حتى نجحوا في ذلك سنة ٣٦٠هـ، والذي أعلن ولاءه للخلافة الفاطمية في مصر. القلقشندي: قلائد الجمان، ص ١٦٣، محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين، ص ٢٢.

(١٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج ٥، ص ١٢. دار المعارف، ط٣ القاهرة ١٩٧٣ م.

(١٣) حدث رد فعل قوي في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وبدأ المذهب السني يسود من جديد، بعد أن ضيعت الدولتان "الفاطمية" و "الابويهية" (الشيعيتان) بظهور دولة سنية كبيرة في المشرق الإسلامي، كان هدفها القضاء على الدول والمذاهب الشيعية في كل مكان، بل وكان سلاطينها مهتمين بالمحافظة على المذهب السني وذيوعه، ويرون ضرورة التخلص من كل الحركات الهدامة في العالم الإسلامي، وإعادة الوحدة الإسلامية من جديد على أساس متين، فولية حسين محمود الجويني إمام الحرمين، ص ٣٢. سلسلة أعلام العرب، العدد (٤٠) اذار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤ م.

(١٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٢٠٨، راجعه وصححه: د / محمد يوسف النفاق دار الكتب العلمية ط ٣ بيروت ١٩٨٨م.

(١٥) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٢، ص ٣٩، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة ١٩٣٢م.

(١٦) لعبت الخلافات المذهبية دوراً كبيراً في احتقان الوضع السياسي في العراق، فقد حدث في بغداد سنة (٤٤٣هـ) أن كتب أهل الكرخ (محلة الشيعة ومكان تجمعهم) بأحرف من ذهب على أبراج باب السماكين "محمد وعلی خير البشر"، وهنا قامت الفتنة، وتشابهت الفريقتان. وحدث أن قتل هاشمي وحمله أهله وطافوا بتمثله في المدينة، وأثار هذا

الحادث نفوس أهل السنة فترجعوا إلى قبور الملوك والوزراء من بني بويه ونهبوها وسلبوها، فإزداد بذلك الاضطراب والفوضى. وهذه حادثة أخرى تتم ضمن مدى تآزم الأمور بين الفريقين لتتابع حوادث التصالم؛ حدث سنة (٤٤٤ هـ) أن اختطفت جماعة القواد الأتراك السنيين رجلا شيعيا من أهل الكرخ وذبحوه على مرأى من لسانه، فصرخ ونثرن شعورهن. فأنار ذلك شعور العامة من أهل الكرخ وتشابكوا بغض مع أهل السنة فما كان من القواد الأتراك إلا أن أهرقوا أسواق الكرخ وتكبد كلا الفريقين خسائر فادحة، ولم يتوقف القتال إلا بعد أن المسحب القواد الأتراك، وتأسفوا على ما بدر منهم. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل قامت فتن سنة (٤٤٧ هـ) بين فقهاء الشافعية والحنابلة عندما قال الأخيرون بملع الجهر بسم الله الرحمن الرحيم، والترجيع في الأذان والقبول، إذ غضب فقهاء الشافعية لذلك، وقيل أن يتطور الأمر إلى أكثر من ذلك رجس الحنابلة عما قالوا. ولم تكن بغداد وحدها مرتعا للحوادث الخفيفة، بل امتدت نيران الفتنة إلى غيرها من البلدان، وكانت نيسابور مسرحا لفتن كثيرة. لمزيد من التفاصيل حول الصراعات الدامية بين السنة والشيعة أنظر: ابن الجوزي: المنتظم في أكثر من جزء.

(١٧) حميد الملك الكندري: محمد بن منصور الكندري، ولد سنة (٤١٥ هـ/١٠٢٤ م) في كندر إحدى قرى نيسابور، بدأ حياته العلمية بدراسة الفقه، حتى وصل فيه إلى درجة عالية من الإحقان وبشهرة، "فلت نظر السلطان طغرل بك" فحببه وجعله مشيره، ثم أعطاه حكومة "خوارزم" (لا أن حميد الملك حاول التمرد على السلطان في خوارزم، فما كان من السلطان إلا أن تحرك ضده وتحرك بجيشه، ثم قبض عليه وأمر بخصيه. ويقال إن سبب هذه العقوبة البدنية أن طغرل بك أرسله ليخطب له امرأة، فزوجهما لنفسه وعصاه، فلما ظفر به أمره على خدمته بعد أن خصاه. الباهرزي: ندية القصر وعصرة أهل العصر، ج ١ ص ١٢٠، تحقيق ودراسة د/ محمد التولجي، دمشق ١٩٧٢ م.

(١٨) ابن الجوزي: المنتظم ج ٨، ص ١٥٧، السبكي: طبقات الشافعية ج ٣، ص ٢٥٥.
(١٩) الأنصاري: هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة (٣٢٤ هـ/٩٣٥ م) وهو من جملة العلماء الذين يثبتون الصفات لله تعالى، وأيد عقائد السلف بحجج كلامية متخذة من سلطان العقل وسيلة للإقناع، ولكنه اتخذ مذهباً وسطاً بين المعتزلة والسلف الصالح وهو الذي حارب المعتزلة بسلاحهم من منطق وفلسفة، وأصبح من مؤسسي لزعة علم الكلام في الإسلام، وفي النزعة التي تحاول التقريب بين تعاليم الدين وبين مبادئ الفكر اليوناني. والمعتزلة من أهم الفرق الدينية التي ظهرت في العالم الإسلامي، ولاسيما في عصر الخليفة المأمون العباسي الذي وافق المعتزلة على القول بخلق القرآن، واستخدم نفوذه في إقرار هذه الفلسفة في أذهان الناس. الشهرستاني: الملوك والنحل، ص ٧٣ مؤسسة ناصر للثقافة، ط ١، بيروت ١٩٨١ م. عبد النعيم حسنين: سلافة إيران، ص ١٧٤ - ١٧٧.

(٢٠) عبد المجيد أبو الفتح بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب الشيعي في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد . ص ١٠٩ . دار الوقاء للطباعة والنشر . ط ٢ المنصورة ١٩٨٨ م .

(٢١) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٧١.

(٢٢) طبقات الشافعية: ج ٢، ص ٢٧١، ٢٧٢.

(٢٣) عملت التغيرات السياسية التي مرت بها بلاد الحجاز آنذاك على تشجيع مجموعة من العلماء وطلاب العلم للقدوم إلى مكة والمجاورة فيها . والمتمثلة في الصراع بين العباسيين والفاطميين على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة . ولما بسط العباسيون سيطرتهم الكاملة على مكة ، وأصبحت الطرق آمنة ، كان ذلك حافزا مغريا لمجموعة كبيرة للمجاورة لاسيما بعد تهيأت لهم الأجواء العلمية المناسبة . عبد العزيز بن راشد : المجاورون في مكة ، ص ٤٤ .

(٢٤) الإمام البيهقي: هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الفقيه الشافعي الحافظ الكبير المشهور واحد زمانه، وفرد أقرانه في الفنون رجل كثيرًا وحصل علما واسعا بالحديث وطلب إلى نيسابور لتدريس فقه الشافعي. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١ ص ٧٥، ٧٦ . تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ م. ابن عساكر: تبیین کذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص ٢٦٥ ، مطبعة التوفيق، دمشق ١٣٤٧ هـ.

(٢٥) أبو القاسم القشيري: هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوزن بن عبد الملك بن طححة بن محمد القشيري النيسابوري اتفقيه الشافعي ، شيخ خراسان في عصره ، علامة الفقه والحديث والتفسير والأصول والأدب وعلم التصوف . وكان ثقة حسان السوء وله تصانيف مشهورة منها "الرسالة القشيرية" و"التيسير في علم التفسير" وتوفي سنة (٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م). ابن عساكر: تبیین کذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص ٢٧٤ . ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨ ص ٢٨٠.

(٢٦) أبو المعالي الجويني: هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي الملقب بإمام الحرمين أعظم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة علمه وتفقهه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وهو من أهل نيسابور رحل إلى بغداد ولقي بها جماعة من العلماء وذهب إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين ولذا قيل له "إمام الحرمين" ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية التي درس فيها، وحضر دروسه الأكابر والأئمة وله مصنفات كثيرة منها "العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية" و"الإرشاد" و"الورقات" وغير ذلك وتوفي الجويني سنة (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م). ابن عساكر: تبیین کذب المفتري، ص ٢٧٨ السبكي: طبقات الشافعي ج ٣، ص ٢٤٩، ٢٩١.

(٢٧) ابن عساكر: كذب المفتري، ص ١٠٩، السبكي: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٧٢.

- (٢٨) ترجم عبد الغفار الفارسي لشيوخه أمام الحرمين في طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ص ٣٥٨.
- (٢٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦١ .
- (٣٠) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج ٨ ص ١٨ .
- (٣١) ابن تفرج بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥ ص ١٢١ ، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٣٥ م .
- (٣٢) ابن هداية: طبقات الشافعية، ص ١٧٤ ، ١٧٥ تحقيق: د. عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة ط٣ ، بيروت، ١٩٨٢ م.
- (٣٣) طبقات الشافعية: ج ٢، ص ٢٥٢ .
- (٣٤) ابن عساكر: كذب المفترى، ص ١٠٨ .
- (٣٥) أبو طاهر السلفي: معجم السفر ، ص ٢٧١ . تحقيق : عبد الله عمر البشارودي ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٣ م ابن الجوزي: المنتظم ج ٩، ص ١٠٦ .
- (٣٦) ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ١٢، ص ١٥٥ ، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٢٢٨ . دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤ هـ .
- (٣٧) سير أعلام النبلاء: ج ١٩، ص ٣٩ .
- (٣٨) عبد الغفار الفارسي : المنتخب من السباقي لتاريخ نيسابور، ص ٩٩ . دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤ هـ .
- (٣٩) المنتخب من السباقي - ص ٩٧ .
- (٤٠) المنتخب من السباقي : ص ٤٢٢ .
- (٤١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٠٥ .
- (٤٢) السيوطي: طبقات الحفاظ، ص ٤٦٩ ،
- (٤٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٠٦ .
- (٤٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣٥٤ .
- (٤٥) جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٢٦ .
- (٤٦) ابن قاضي شبهة: طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٧٢ . تحقيق د/ عبد العليم خان، عالم الكتب ط١ بيروت ١٩٨٧ م.
- (٤٧) ابن الأثير: الثبا، ج ١، ص ١٤٧، دار صادر بيروت، ١٩٨٠ م.
- (٤٨) ابن قاضي شبهة: طبقات الشافعية ، ج ١ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .
- (٤٩) السكبي: طبقات الشافعية، ج ٣، ص ١٥٢ .
- (٥٠) عبد العزيز بن راشد : المجاورون في مكة ، ص ٤٥ .
- (٥١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٣، ص ١١٢١ ، السيوطي: طبقات الحفاظ، ص ٤٢٩ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٥١ .
- (٥٢) عبد الغفار الفارسي : المنتخب من السباقي ، ص ٣٨٤ .
- (٥٣) السباقي : ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .

- (٥٤) ياقوت الحموي: معجم الألقاب، ج ٥، ص ٤٨٩، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت، ١٩٩٦ م.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٨.
- (٥٥) ربيعة الأدهر في محاسن أهل العصر: ج ٤، ص ١١٥، تحقيق د. مفيد محمد متمية، دار الكتب العلمية ط ١ بيروت ١٩٨٣.
- (٥٦) ياقوت الحموي: معجم الألقاب، ج ٥، ص ٤٩٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٩.
- (٥٧) إنباه الرواة: ج ٣، ص ٢٦٦ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي ط ١ القاهرة ١٩٨٦ م.
- (٥٨) هند حسين طه: الألب العربي في إقليم خوارزم منذ الفتح العربي ٩٣ هـ، حتى سقوط الدولة الخوارزمية ٦٢٨ هـ، ص ٢٢٠، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٦ م.
- (٥٩) تآثر المعتزلة تأثراً شديداً بالفلسفة الإغريقية، فاقبستوا منها، وأجهدوا أنفسهم في أن يضيفوا إلى المعاني الإسلامية التي جاء بها القرآن، جميع ما احتوته الثقافة اليونانية من أفكار علمية وفلسفية وأن يلائموا بينها، ويخرجوا منها مزيجا جديداً يتلاقى وتعاليم الإسلام وأصوله، وظل المعتزلة أقوياء، لا ينافيهم منازع حتى تصدى لهم "أبو الحسن الأشعري" الذي حمل عليهم وحاربهم حرباً شعواء، ووالق أهل السنة في كثير مما ذهبوا إليه. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٨. عبد التميم حسنين: سلاجقة إيران، ص ١٧٥، ١٧٦.
- (٦٠) القفطي: إنباه الرواة، ج ٣، ص ٢٦٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢١٩.
- (٦١) علي بن عيسى الحسني: علي بن حمزة بن وهاس، ويعرف بابن وهاس من ولد سفيان بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كان شريفاً جليلاً من أهل مكة وشرفائها وأمرائها وكان ذا فضل عزيز وله تصانيف مفيدة وقريحة في النظم والنثر مجيدة قرأ على الأزمخشري بمكة وتوفي في سنة ثيف وخمسين وخمسمائة. ياقوت الحموي: معجم الألقاب، ج ٤، ص ١٩٧، ابن الأثير: نزهة الألباء، ص ٢٩٠. الألباء تحقيق د/ إبراهيم السامرائي مكتبة المنار ط ١ الأردن ١٩٨٥ م.
- (٦٢) ياقوت الحموي: معجم الألقاب، ج ٤، ص ١٩٧، القفطي: إنباه الرواة، ج ٣، ص ٢٦٨.
- (٦٣) القفطي: إنباه الرواة، ج ٣، ص ٢٦٨.
- (٦٤) ياقوت الحموي: معجم الألقاب، ج ٤، ص ١٩٧.
- (٦٥) معجم الألقاب: ج ٤، ص ١٩٧.
- (٦٦) القفطي: إنباه الرواة، ج ٣، ص ٢٦٦، هند حسين طه: الألب العربي في إقليم خوارزم، ص ٢٢٨.
- (٦٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٩.
- (٦٨) القفطي: إنباه الرواة، ج ٣، ص ٢٧١.

- (٦٩) القلطي: إنباه الرواة، ج ٣، ص ٢٧١.
- (٧٠) ابن خلكان، ولغات الأعيان ج ٥، ص ١٧٠.
- (٧١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ١٩، ص ٦١٥، ابن عساكر: كذب المفترى، ص ٣٢٢.
- (٧٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٦١٩، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢١١.
- (٧٣) ياقوت الحموي: معجم الألقاب، ج ٥.
- (٧٤) غطارفا: جمع غطريف، وهو السيد الشريف.
- (٧٥) الحظيفة: كناية عن المبالغة في الكرم.
- (٧٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٤، ص ٥٨٣.
- (٧٧) ياقوت الحموي، معجم الألقاب، ج ٥، ص ١٢٢، ١٢٣.
- (٧٨) ابن جبير: رحلة ابن جبير المسماه (تذكرة بالأخبار من اتفاقات الأسفار) ص ١٢٨، بيروت ١٩٨١ م.
- (٧٩) تاج المعالي بن أبي الفتح: هو أبو الفتح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسيني العلوي أمير مكة تولى إمارة مكة سنة (٣٨٤هـ / ٩٩٤م) واستمر في حكمها حتى سنة (٤٢٠هـ / ١٠٢٨م) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٣٢١.
- (٨٠) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٣٧. ترجمة: د/ يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.
- (٨١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٤٠.
- (٨٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٤١.
- (٨٣) معجم الألقاب: ج ٥ ص ٥٨٢، ٥٨٣. القزويني: آثار السالك وأخبار العباد، ص ٥٢، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.
- (٨٤) معجم الألقاب: ج ٥ ص ٤٨٩.
- (٨٥) ولغات الأعيان: ج ٥ ص ١٦٨.
- (٨٦) إنباه الرواة: ج ٣ ص ٢٦٥.
- (٨٧) بغية الوعاة: ج ٢ ص ٢٧٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت، ١٩٦٤م.
- (٨٨) كان في صدر الإسلام الإقبال على الدين والزهدي في الدنيا غالباً على المسلمين، وإسم يكونوا في حاجة إلى وصف يمتازون به عن غيرهم، وإتما كان يشار إليهم بمسلم ومؤمن، ثم تطور الاسم إلى زاهد وعابد، ومن رحم تلك النزعة نشأ ألقاب تطلقوا بالزهد والتعبد، واتخذوا ذلك طريقة تميزوا بها، وكان ذلك ردة فعل لما زاد إقبال الناس على الدنيا، وجنوحهم إلى مخالطة المتاع الدنيوي. مريزن سعيد مريزن صيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص ١٤٤. مكتبة الطائفة الجامعي، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م.

- (٨٩) أمانة محمد نصير : أبو الفرج ابن الجوزي (٥١٠هـ/٩٧٠م) وآراؤه الكلامية والأخلاقية ، ص ١٩٦ . دار الشروق ، ط ١ ، القاهرة ١٩٨٧ م .
- (٩٠) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني) ص ١٠٦ .
- (٩١) عبد المنعم حمادة : من رواد الفلسفة الإسلامية ، ص ١٢٨ . مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١ القاهرة ١٩٧٣ .
- (٩٢) الربط : والرباط والمرابطة هي ملازمة العدو ، وربما سميت الخيل نفسها رباطا ، مصدقا لقوله تعالى في سورة الأنفال : وَأَعْتُوا لِهَيْمَ مَا اسْتَقْبَعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِمُونَ بِهِ غَدَاً اللَّهُ وَعَوَّكُمُ ، والرباط في الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب . وفي هذا العصر أصبحت الكلمة تطلق على الأماكن التي يرادها المتصوفون والزهاد للعبادة والانقطاع إلى الله ، ومجاهدة النفس ، كما أصبحت تلك الربط تؤدي خدمة اجتماعية ودينية وثقافية في الوعظ والإقراء والتحديث ، ومنح الإجازات العلمية ، وتصنيف الكتب . ابن منظور : لسان العرب ، ج ٤ ص ٤١ . مريز سعيدي مريز : الحياة العلمية ، ص ٢٣٩ .
- (٩٣) عبد العزيز بن راشد : المجاورون ، ص ٤٦ .
- (٩٤) المنتظم : ج ٩ ص ٣١ .
- (٩٥) حسين سيد عبد الله مراد : المجاورون المصريون ، ص ١٢١ .
- (٩٦) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ص ٣٣٠ . ١٢١٠ . حسين سيد عبد الله مراد : مرجع سابق ص ١٢٢ .
- (٩٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ ص ٦٧ . حسين سيد عبد الله مراد : مرجع سابق ، ص ١٢٢ .
- (٩٨) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ ص ١١٩ .
- (٩٩) حسين سيد عبد الله مراد : المجاورون المصريون في الحرمين الشريفين (٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م) ص ١٠٨ ، المجلة التاريخية المصرية ، تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد (٣٨) ١٩٩٥ م .
- (١٠٠) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ص ١٣٣ .
- (١٠١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٣ ص ٣٥٢ .
- (١٠٢) المنتظم : ج ٨ ص ٣٢٠ .
- (١٠٣) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٨ ص ٣٢٠ .
- (١٠٤) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٨ ص ٢٧٠ .
- (١٠٥) السابق : ج ٨ ص ٢٧٠ .
- (١٠٦) الخاتون : معناها السيدة الجليلة القدر في اللغة التركية ، وهو ما يليق بهذا اللفظ الملوكي من نساء الملوك والأمراء في العصر السلجوقي . ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤٧ .

(١٠٧) لم يذكر لنا ابن جبير اسم الخاتون المشار إليها في رحلته ، ولكنه قال ابنة السدقوس ، ولعله يذكر السلطان خوارزمشاه . الرحلة ص ١٤٤ .

(١٠٨) ابن جبير : الرحلة ص ١٤٥ .

(١٠٩) الرحلة ص ١٤٧ .

(١١٠) رحلة ابن بطوطة المسماه (تحفة النظار في غرائب الأمصار) ص ١٦٨ ، شرحه وكتب هوامشه : طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ١٩٨٧م .

(١١١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٩ .

(١١٢) الحروب الصليبية : هي الحروب التي جرت وقائعها في الشرق العربي الإسلامي خلال الفترة من (٤٨٩-٦٩٢ هـ / ١٠٩٥-١٢٩١م) بين المسلمين وبين جيوش الغزو الأوربي ، التي جاءت على شكل حملات متعددة بقيادة بعض ملوك أوروبا الغربية وبعض أمرائها الإقطاعيين ، مستغلين حالة التمزق السياسي الضخم على الشرق الإسلامي حتى نجح الصليبيون في زرع إمارتهم وممتلكاتهم ومحو الإمارات العربية والإسلامية الصغيرة في بلاد الشام واحدة تلو الأخرى . ولم يمض قليل من الوقت حتى نجحت الحملة الصليبية الأولى في تأسيس إمارات أربع: ثلاث منها في الشام واحدة في شمال غرب الجزيرة . ستيفن رنسيومان: تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ٢٩١ ، ترجمة د/ السيد الهادي العربي، دار الثقافة ط ١ ، بيروت ١٩٩٧م . قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص ١٤ سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٠م .

(١١٣) المنتظم : ج ٩ ص ٦٤ .

(١١٤) النغزالي : أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد النغزالي ، الملقب بحجة الإسلام ، الفقيه الشافعي لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله ، كان صديقا لتوليد نظام الملك وهو الذي فوض إليه التدريس في نظامية بغداد ، وله التصانيف الكثيرة ولد سنة (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م) وتوفي سنة (٥٠٥ هـ / ١١١١ م) . السبكي : طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٠١- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢١٦ ، ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ .

(١١٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٢١٦ . ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ .

(١١٦) الوزير نظام الملك الطوسي : هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ولد بقرية من نواحي طوس سنة (٤٠٨ هـ / ١٠١٧م) صل في بداية حياته في دواوين الدولة الغزنوية بخراسان فلما أكل نجمهم وسقطت دولتهم على أيدي السلاجقة ، انتقل إلى خدمتهم ، ثم ما لبث أن اتخذه نائب أرسلان وزيراً له ، ولما قتل نائب أرسلان عام (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢م) اتخذه ملكشاه بن نائب أرسلان وزيراً له . قتل على يد اتباع الحسن الصباح سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م) . ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ص ٦٤ . الحسيني: الزبدة ، ص ١٤٠-١٤٥ . ابن الأثير: الكامل ، ج ٨ ، ص ١٦١ . السبكي: طبقات

- الشافعية الكبرى، ج ٣، ص ١٣٥. خواتمير: دستور السوزراء، ص ٢٤٥. ترجمة: د/ حربي أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠ م.
- (١١٧) ابن خلكان: وفیات الأعيان، ج ٤ ص ٢١٦.
- (١١٨) الخليفة المستظهر بالله: هو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المقتدي بأمر الله، وكان عمره ستة عشر سنة. وكان كريم الأخلاق لسن الجانب سخي النفس، متصفا بالعدل والإحسان، وكان حسن الخط جيد التوقعات لا يقاربه فيها أحد، يدل على فضل عزيز وعظم واسع. ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ٨١، ٨٢ - السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٧٦ - ٤٨٠.
- (١١٩) الفرقة الإسماعيلية: هم الفرقة التي أدعت أن الإمام: جعفر الصادق قد نص علي إمامة ابنه إسماعيل، وقد ظهرت هذه الفرقة في القرن الخامس الهجري، وهي مزيج من فرق غالبية معظمها من الشيعة. البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٦٢.
- (١٢٠) الشهرستاني: الملل والنحل ص ٨٢، ٨٣.
- (١٢١) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٤ ص ١٠١.
- (١٢٢) عبد الغافر الفارسي: المنتخب من السياق، ص ١٠٣.
- (١٢٣) المنتخب من السياق، ص ٣١٥.
- (١٢٤) عبد الغافر الفارسي: المنتخب من السياق، ص ٣٤٨، ٣٤٩.
- (١٢٥) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩ ص ٩٨٨.
- (١٢٦) عبد الغافر الفارسي: المنتخب من السياق، ص ٣٩.
- (١٢٧) السابق: ص ٤٦.
- (١٢٨) المنتظم: ج ٩ ص ١٠١.
- (١٢٩) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩ ص ١٠٦.
- (١٣٠) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٥ ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر:

- «ابن الأثير: علي بن أبي الكرم (٦٣٠هـ)» .
- ١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٢- التلخيص في تهذيب الأنساب، دار صادر بيروت، ١٩٨٠م.
- «ابن الأثير: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (٥٧٦هـ)» .
- ٣- نزهة الألباء في طبقات الألباء، تحقيق د/ إبراهيم النصار في مكتبة المنار ط١، الأردن ١٩٨٥م .
- «الباخرلي: علي بن الحسن بن أبي الطيب (٤٦٧هـ)» .
- ٤- دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق ودراسة د/ محمد التونجي، دمشق ١٩٧٢م.
- «ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي (٧٩٧هـ)» .
- ٥- رحلة ابن بطوطة المسماه (تحفة النظار في غرائب الأمصار)، شرحه وكتب هوامشه:
- طلال حرب، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٩٨٧م.
- «البغدادي: عبد القاهرة بن طاهر بن محمد البغدادي (٤٢٩هـ)» .
- ٦- الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم، تحقيق: محمد عثمان الخشب، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٨٨م.
- «الثعالبي: أبو منصور بن عبد الملك بن محمد التوسايري (٤٢٩هـ)» .
- ٧- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر تحقيق د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ط١، بيروت ١٩٨٣م.
- «ابن جبير: محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ)» .
- ٨- الرحلة (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) بيروت ١٩٨١م .
- «ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي (٥٩٧هـ)» .

- ٩- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر آباد ١٣٥٩هـ.
- =الحسني: صدر الدين علي بن ناصر (٦٢٢هـ).
- ١٠- زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق: د/ محمد نور الدين، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٢م.
- =ابن خاوند شاه: محمد بن خاوند شاه بن محمود (٩٠٣هـ).
- ١١- روضة الصفا في سيرة الأئبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.
- =ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨هـ).
- ١٢- العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.
- =ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ).
- ١٣- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- =خواندشير: خياث الدين خواندشير (٩٤٢هـ) م.
- ١٤- دستور الوزراء، ترجمة: د/ حربي أمين سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.
- =الذهبي: أبو عبدالله شمس الدين بن محمد الذهبي (٧٤٨هـ).
- ١٥- تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤هـ.
- ١٦- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت ١٩٨٤.
- =السبكي: تاج الدين بن تقي الدين السبكي (٧٧١هـ).
- ١٧- طبقات الشافعية الكبرى، دار المعرفة، ط٢ بيروت (د.ت).
- =السمعاني: أبو سعد بن محمد بن منصور (٥٦٢هـ).
- ١٨- الأنساب، وضع حواشي: محمد عبد القادر صفا، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت ١٩٩٨.
- ١٩- التحرير في المعجم الكبير، تحقيق: منيرة ناجي سالم، بغداد ١٩٧٥ م.
- =السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ).

٢٠- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،

المكتبة

المصرية، بيروت، ١٩٦٤م.

٢١- طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية ط١، بيروت، ١٩٨٢م.

= الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ).

٢٢ - النمل والنحل، مؤسسة ناصر للثقافة. ط١. بيروت. ١٩٨١م.

= أبو طاهر السلفي: أحمد بن محمد السلفي (٥٧٦هـ).

٢٣- معجم السفر، تحقيق: عبد الله عمر التارودي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م.

= عبد الغافر الفارسي: إبراهيم بن محمد بن الأثرر الصريفي (٦٢٢هـ).

٢٤- المنتخب من السبائك لتاريخ نيسابور، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار

الكتب

العلمية، بيروت ط١ ١٩٨٩م.

= ابن عساکر: أبو القاسم علي بن الحسين (٥٧١هـ).

٢٥- تبیین کذب المفتری فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، مطبعة التوفيق،

دمشق ١٣٤٧هـ.

= الفاسي: كفي الدين محمد بن أحمد (٨٣٢هـ).

٢٦ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، مكة المكرمة ١٩٥٦م.

٢٧- العقد الثمين بأخبار البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيده القاهرة ١٩٦٧م.

= ابن قاضي شهاب: أبو بكر أحمد بن محمد (٨٥٩هـ).

٢٨ - طبقات الشافعية تحقيق د/ عبد العظيم خان، عالم الكتب ط١ بيروت ١٩٨٧م.

= القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (٦٨١هـ).

٢٩- آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.

= القفطي: جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (٦٤٦هـ).

٣٠- إنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر

العربي،

ط١ القاهرة ١٩٨٦م.

= القفطندي: أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ).

٣١ - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار

الكتب الحديثة، ط١ القاهرة ١٩٦٣م.

= ابن كثير: صمد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ).

٣٢- البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

= أبو المحاسن: جمال الدين بن تغرلي بردي الأتابكي (٨٧٤هـ).

٣٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة،

١٩٣٥م.

- = ابن منظور: محمد بن مكرم المصري (٧١١هـ) .
 ٣٤- لسان العرب، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٦ م.
 -ناصر خسرو: ناصر خسرو علوي (٤٨١هـ) .
 ٣٥- سفرنامه:، ترجمة: د/ يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣ م.
 =ابن هداية: أبو بكر بن هداية الله الحسيني (١٠١٤هـ).
 ٣٦- طبقات الشافعية، تحقيق: د/ عادل نويهض، دار الأفاق الجديدة ط٣، بيروت، ١٩٨٢ م.
 -ياقوت الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (٦٢٦هـ).
 ٣٧- معجم الأديباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأئيب، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت، ١٩٩١ م.

ثانياً- المراجع :

- =آمنة محمد نصير (دكتور)
 ١- أبو الفرج ابن الجوزي (٥١٠هـ/٥٩٧م) وآراءه الكسبية والأخلاقية، دار الشروق، ط١، القاهرة ١٩٨٧ م .
 -حسن إبراهيم حسن (دكتور)
 ٢- تاريخ الإسلام السياسي، دار الجيل، ط٨ بيروت ١٩٩٦ م.
 -ستيفن رلسمان
 ٣- تاريخ الحروب الصليبية ترجمة د/ السيد الهال العريشي دار الثقافة، ط١ ١٩٦٧ م .
 -شوقي ضيف (دكتور)
 ٤- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، دار المعارف ط٣، القاهرة، ١٩٧٣ م.
 ٥- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات) دار المعارف، ط٣ القاهرة ١٩٨٣ م
 -عبد المجيد أبو الفتوح بدوي (دكتور)
 ٦- التاريخ السياسي والفكري للمذهب الشيعي في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط٢، المنصورة ١٩٨٨ م.
 -عبد المنعم حمادة (دكتور)
 ٧- من رواد الفلسفة الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ القاهرة ١٩٧٣ .
 -عبد النعم حسن (دكتور)

- ٨- سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩ م .
 -طوقية حسين محمود (دكتور)
 ٩- الجويني إمام الحرمين، سلسلة أعلام العرب، العدد (٤٠) الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤ م .
 -حسبم صيد قاسم (دكتور)
 ١٠- ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون
 والأدب، الكويت ١٩٩٠ م .
 -مريون سعيد مريون صيري (دكتور)
 ١١- الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط١ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م .
 -مهد حسين طه (دكتور)
 ١٢- الأئمة العرب في إقامتهم كوارزم منذ الفتح العربي ٩٣هـ، حتى سقوط الدولة الخوارزمية ٦٢٨هـ، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٦م.

ثالثاً - الدوريات:

- حسين سيد عبد الله مراد (دكتور)
 ١- المجاورون المصريون في الحرمين الشريفين (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م)
 المجلة التاريخية المصرية، تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد
 (٣٨) ١٩٩٥ م .
 -عبد العزيز بن راشد السندي (دكتور)
 ٢- المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة (٥٧٠-٦٦٠هـ/
 ١١٧٤-١٢٦١م) بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية
 ١٤٢٦هـ .

الأسيرات في الشرق الأدنى الإسلامي زمن الحروب الصليبية

د. محمد عبد الله المقدم (*)

مقدمة :

اندلعت الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي / أواخر القرن الخامس الهجري واستمرت في أدوارها النشطة طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ القرنان السادس والسابع من الهجرة وتوسعت من بلاد الشام لتشمل أجزاء من مصر والعراق وبلاد الجزيرة الفراتية، ورافقتها عمليات أسر واسعة، شملت النساء جنباً إلى جنب مع الرجال والأطفال.

في البداية ينبغي التنويه إلى أن موضوع الدراسة تكتنفه بعض الصعوبات، مثل ندرة الإشارات المصدرة وتناثرها، وقلة المعلومات الإحصائية، كما أن غالبية مؤرخي ذلك العصر تجاهلوا العنصر النسوي، وأدواره الهامة في الحرب والسلم.

فمن المعلوم أن الدوافع التي حركت الجموع الصليبية كانت مزيجاً من البواعث الدينية والدنيوية، فقد تاجع الحماس الديني مصحوباً بالمطامع المادية، والمطامع السياسية، والرغبات الشهوانية، والأحلام الرومانسية بنساء في غاية الحسن والجمال، فحب النساء، ومفاتيح المرأة الشرقية استتار سائر فئات المجتمع الأوروبي، الذين تصوروا أن البلاد الشرقية مليئة بالمتع والملذات الحسية^(١).

ومن المفارقات أن الرجل الغربي الذي راودته المتع والشهوات في بلاد الشرق، خشي على المسيحيات الغربيات من أهل تلك البلاد الذين دأبت الكتابات المسيحية على وصمهم بالهوى والانحسار في الشهوات، واغتصاب الأسيرات المسيحيات^(٢).

ونتيجة لتلك المخاطر المحتملة، لم تتحس البابوية لمشاركة النساء في الحملات الصليبية، وأوصت بمكوئهن في ديارهن^(٣) لكن الوصايا البابوية لم تلق استجابة كاملة، حيث اندلعت نساء من مختلف فئات المجتمع الغربي للمشاركة في الحملات الصليبية، فقمن بخدمة أهلهن، وإعداد الطعام والشراب، ومداواة المرضى، وتضميد الجرحى، والتضرع للرب، وتحفيز المحاربين على القتال، وحملت بعضهن السلاح، وساهمت أخريات في توفير وسائل الترفيه للمحاربين الصليبيين^(٤).

(*) أستاذ مساعد بجامعة تعز.

وفي هذا السياق يميز الفقه الإسلامي بين النساء العجائز والفتيات الشابات، فلا يُجيز خروج الشواب بصحبة الجيوش الإسلامية، خشية الخلطة والفتنة، وخوفاً من وقوعهن سبايا بأيدي الأعداء، ويسمح للنساء المُنمّات بمرافقة المحاربين للقيام بأعباء الخدمة والطبخ والسقي والمداواة^(٥).

ولم يكن لتمييز الفقه الإسلامي إي أثر عملي في أرض الواقع، فالمسلمون كانوا في مرحلة جهاد الدفع وليس جهاد الطلب، فقد اتسعت الحروب الصليبية في بواكيرها الأولى بطابع هجومي استهدف المسلمين في مثلهم وقرامهم، وبالتالي وقعت سائر الفئات العرقية النسوية بأيدي الفرنجة، فالتصق فوشيه الشارترتي بغاخر بأن قومه ذبحوا رجال أنطاكية، وألقوا على 'زوجاتهم وعائلاتهم'^(٦).

ومع توالي تماثل المدن الإسلامية، وقع كثير من النساء المسلمات أسيرات في أيدي الغزاة الصليبيين في الكثير من المدن الشامية والجزرية والمصرية^(٧) والغريب أن عبيد أوروبا الذين تلقوا للتخلص من قيود القتيّة وأصفاد العبودية، فرضوا العبودية على نساء المسلمين في الشرق الأدنى الإسلامي.

وشملت قائمة الأسيرات المسلمات فئات متنوعة، ويأتي على رأسها نساء من أصحاب الشوكة والسنان، كزوجة قنّج أرسلان الأول سلطان سلجقة الروم (٤٨٥-٥٠١هـ/١٠٩٢-١١٠٧م) التي أسرتها القوات البيزنطية الصليبية في عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م^(٨) كما أن باغي ميان صاحب أنطاكية فرّ من مدينته عام ٤٩٢هـ/١٠٩٨م تاركاً زوجته سبية بأيدي الفرنجة^(٩) وولّعت أميرة سلجوقية من عقابيل^(١٠) الأمير جكرمش في أيدي تاتكرد الذي صد هجوماً سلجوقياً على الرها في عام ٤٩٨هـ/١١٠٤م^(١١) ووجدت زوجات تلك بن بهرام أنفسهن أسيرات بعد احتيال الأسرى الفرنج في الاستحواذ على قلعة خربتبت^(١٢) عام ٥١٧هـ/١١٢٣م^(١٣) وداهم الفرنجة في عام ٥٢٧هـ/١١٣٢م حصن القبة^(١٤) وأسروا حريم خلف بن ملاعب وبنّت سالم بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر^(١٥).

ومع أن المسلمين تعرضوا لهرالم مريرة في البواكير الأولى للحروب الصليبية، إلا أنهم استعدوا زمام المبادرة، وولّعت كثير من نساء الفرنج سبايا في أيدي المسلمين^(١٦)، فقبض فتح بيبرس مدينة أنطاكية عام ٦٦٧هـ/٢٦٨م تقاسم الناس النساوان والبنات^(١٧) وتمكنت أسرة قلاوون من طرد البقايا الصليبية من بلاد الشام، وسيفت كثير من الأسيرات الصليبيات إلى ديار الإسلام^(١٨).

وتضم قوائم الأسيرات الصليبيات فئات عمرية واجتماعية متنوعة، فكما أن هناك أسيرات كثر من الشرائع الدنيا، فكذلك وجدت أسيرات نسيات، حيث يُعتقد أن الكونتيسة إدا النمساوية Ida of Austria التي شاركت في صليبية ٤٩٥هـ/١٠١٠م وقعت أسيرة بأيدي المسلمين^(١٩) وإذا كانت الشكوك تحوم حول قتل أو أسر إدا النمساوية، فإنه من المؤكد أن زوجة رينيه بروس Renier Brus صاحب بنساس وقعت مع العديد من النساء الصليبيات أسيرات في أيدي قوات شمس الملوك إسماعيل

بن يوري أمير دمشق (٥٢٦ - ٥٢٩ هـ / ١١٣٢ - ١١٣٥) الذي استطاعت قواته فتح مدينة باتياس سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م^(٢٠).

وجرت العادة على معاملة الأسيرات بحسب أهميتهن السياسية، ومكانتهن الاجتماعية، وجاذبيتهن الجمالية، وقدراتهن العقلية، وخبرتهن العملية، ومردودتهن المادية^(٢١) وينسحب هذا الأمر على عصر الحروب الصليبية، والعصور الوسطى بشكل عام.

فقد اندهش الفرنجة من المعاملة الكريمة التي حظيت بها زوجة كلج أرسلان من قبل الإمبراطور البيزنطي الكسوس كومنين^(٢٢) وبالطبع كانت الجموع الصليبية تتسوق لإرضاء غرائزها الإنتقامية، وإشباع رغباتها المادية، فالمؤرخ الصليبي وليم الصوري يشير إلى وليم William رافق كونت تولوز ريموند الصنجيلي Raymond de Saint-Gille الذي كان من "حسن طالع" ^(٢٣) أن وقعت زوجة باغي سيان في قبضته مع طفلين صغيرين لأنها شمس الدولة، فلم يتخلى وليم عن تلك الثغمة إلا "بقدر كبير من المال"^(٢٤).

ومما يؤكد حقيقة النهم الصليبي للأموال أن الأمير جكرمش عرض فداء أميرة سلجوقية، إما بمبادلتها بكونت ارها الأسير بلدوين دي بويرج، أو ببلغ فدية كبيرة، لفضل بوهيموند وتانكرد الأموال **على رقيقهما الذي ظل قابعا في محبسه**^(٢٥) ولا ريب أن هذه الواقعة تكشف حقيقة أولئك الأشراف المتأثرة الذين لا تجمعهم وشائج أسرية، ولا روابط اجتماعية، ولا قيم دينية أصيلة.

بل كثيراً ما دبت الغيرة والكراهية بين الصليبيين نتيجة الأموال التي يحصلونها من الفداء الأسيرات المسلمات ذوات المكانة العالية في المجتمع المسلم^(٢٦) غير أن ذلك لا يعني انعداماً تاماً لتجوانب الإنسانية في الشخصية الصليبية، فالمملك الصليبي بلدوين الأول الذي هاجم إحدى القبائل العربية في الأردن عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م، تعامل بروح إنسانية راقية مع زوجة أحد كبار شيوخ القبيلة، والتي كانت تصان من آلام المخاض، حيث أطلق سراحها، ووفر لها كل ما تحتاجه من الفرائش والرزاق والشراب، وخصص لها وصيفة تقوم بخدمتها ورعايتها^(٢٧).

وبالطبع كان ذلك التعامل الإنساني يمثل حالة استثنائية في الجانب الصليبي، بينما تعامل المسلمون برفق ورحمة مع سائر الأسيرات الفرنجيات، ففي أثناء فتوحات صلاح الدين وقعت كثير من النساء الصليبيات سبياً بأيدي المسلمين، وعاملهن صلاح الدين بغاية الإجلال والاحترام، ومنح الأمان لنساء كبار الأمراء الفرنجة، وأذن لهن بالخروج من بيت المقدس بكرامة^(٢٨).

وإذا كانت سيدات المجتمع الأسيرات قد حظين بمعاملة كريمة سواءً من قبل المسلمين أو الصليبيين، فإن ذلك لا ينسحب غالباً على الأسيرات اللاتي ينحدرن من الفئات الدنيا في المجتمعين الصليبي والإسلامي، فهؤلاء النعمة عاتين من مسلمة

الحروب والهزائم، وما يتلوها من متاعب ومعاناة، وحياة ذل وعبودية، وعيش في الغربة والمتأني بعيداً عن الأهل والديار.

إذ تعرضت الأسيرات للقتل والضرب والتعذيب والتمثيل والاعتصاف، واعتاد الفرنجة في فجر الحروب الصليبية على قتل الأسرى والأسيرات، لكنهم غيروا من سياستهم في المراحل الزمنية التالية، حيث خفت حماسهم الدينية، وهذات رغباتهم الانتقامية، وأصبحت حروبهم ذات طابع توسعي، وازدادت حاجتهم للأيدي العاملة^(٣١).

وتجدر الإشارة إلى أن احتمالية بقاء الأسيرات على قيد الحياة كانت أكبر بكثير من بقاء الأسرى الرجال، ويعود ذلك للأعراف والتقاليد المسائدة في تلك العصور، ومساهمة المرأة المحدودة في الحروب، وكذلك مطامع الرجال في إشباع رغباتهم وغرائزهم.

لذلك كانت فرص بقاء الأسيرات على قيد الحياة تتفاوت بحسب مظهرهن الجمالي، فالأسيرات الجميلات كن أكثر حظاً في البقاء على قيد الحياة، مقارنة بالأسيرات الأقل جمالاً، فالمغول اقترفوا مذبحه مروعة عند اجتياحهم لبغداد، لم يسلم منها سوى البنات الحسان^(٣٢).

وكما أن للجاذبية الجمالية دوراً في الإبقاء على حياة الأسيرات، فكذلك يرتبط الأمر بفنائهن العنصرية، فكثيراً ما أقدم الغزاة الفرنجة والمغول على قتل العجائز واستحياء الفتيات الصغيرات والشابات^(٣٣) وهذا التوجه ينسجم مع ما ورد في الكتاب المقدس من حض على قتل النسوة اللاتي سبق لهن مضايعة الرجال والإبقاء على حياة الفتيات العذارى^(٣٤).

وكان يتم قتل الأسيرات والتمثيل بجثثهن أحياناً، فالحسن فوشيه الشارترى يفاخر ويتلذذ بوحشه رفاقه الصليبيين الذين اجتاحتهم أنطاكية ولم يؤذوا النساء الأسيرات ولم يقتلوا شراً معين بحسب قوله "وإنما بقروا بطونهن" بحسب^(٣٥).

ولم تقتصر الوحشية للصليبية على الأسيرات المسلمات فقط، بل تعدتها أحياناً إلى المسيحيات الشرقيات، فلم تتورع إحدى كتالهم عن نزع نهدي امرأة مسيحية كانت تدافع عن دارها أثناء صليبية عام ٤٩٥هـ/١١٠١م^(٣٦) وبدورها تسبهم الكتابات الصليبية الخوارزمية باستباحة بيت المقدس عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، وتشريح صدور الأسيرات الفرنجيات، ونزع أذانتهن من أماكنهن وهن ما زلن على قيد الحياة^(٣٧).

ولا شك أن الأسيرات تعرضن للإذاء والضرب^(٣٨) كما كان يتم توثيقهن بالحبال والقيود، ويتم اقتيادهن وهن مكبات بأصفاة الحديد، فتدفع لرويتهن العيون، وتتفطر لاكتسارهن الأكباد، وتذوب لمواجههن القلوب بحسب تعبير ابن جبير^(٣٩) وإجمالاً فقد تعرضت الأسيرات للتركيب والإذلال، وكان يتم سوقهن إلى المدن والأسواق كما تصاق المواشي والأغنام^(٤٠).

فالنساء الأسيرات غالباً ما يتحولن إلى إماء، يبعن في أسواق النخاسة، في حين يفضل بعض الأسرى الاحتفاظ بسباياهم للقيام بالخدمات المنزلية، بالإضافة طبعها إلى

الخدمات الترفيهية لساكناتهن، وهذا الأمر كان شائعاً لدى المسلمين والصليبيين، مع الفارق أن هذا السلوك له مبرر شرعي ضمن قواعد الفقه الإسلامي، بينما قام به السادة الفرنج تجاوزاً للقواعد الكنسية.

وكان يتم فرز وتصنيف الأسيرات بحسب قدراتهن البدنية، ومحاسنهن الجمالية، وما يحسن من الحرف والأعمال، فالأسيرات ذوات القدرات البدنية يستخرن للقيام بالأعمال الشاقة، والأعباء المنزلية، فالفرنجة الذين قاموا بمذابح لسكان المدن الإسلامية لمسي فجر الحروب الصليبية^(٣٦) احتفظوا بأسيرات قيسارية^(٣٧) لمسي رجب ٤٩٤هـ/مايو ١١٠٩م لتدوير الطواحين اليدوية^(٣٨) ومن المؤكد أن كثير من الأسيرات قمن بالخدمة في بيوت ساكناتهن المسلمين والصليبيين كطباخت وخدامات، وفي كافة الشئون والأعمال المنزلية، والأشغال اليدوية^(٣٩).

أما الأسيرات ذوات الفطنة والذكاء، فكان يعن كمدرات للقصور، ومربيات لأطفال ساكناتهن، كما استخدمهن القادة الطموحين في أعمال الجاسوسية^(٤٠) وبالتسبب للأسيرات ذوات الطبايع الرقيقة، واللاحي يتسمن بقدر عال من الحس والجمال، فقد تم استغلالهن للقيام بالحرف والرقص والغناء والطرب، وفي كل ما يتطرق بالترف والرفاهية، فقد استخدم فرنج يافا الأسيرات المسلمات في الحانات للتسلية وإشباع رغبات السادة الفرنج^(٤١) وهذا الأمر يدل بوضوح على تعرض المرأة الأسيرة للاستهانة والإذلال.

ولعل أفظع ما تخشاه المرأة هو وقوعها في أسر الأعداء، وكان هذا الهاجس يفرح آباتهن وإخواتهن وأرواجهن، فقيس هجوم سانكرد على الأتارب^(٤٢) سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م قام أهالي البلدة بترحيل نسائهم إلى حلب^(٤٣) وهو إجراء يبدو الغرض منه الحرص على سلامتهن، وتجنبهن أي فظائع وتجاوزات قد يفتقرها الفرنج. كما أن أهالي مدينة صور المحاصرين من قبل الصليبيين عام ٥١٨هـ/١١٢٤م هموا بقتل نسائهم وأطفالهم "غيرة من تملك النصارى لهم"^(٤٤) لكن فقهاء المدينة زجروهم عن القيام بتلك المذبحة^(٤٥).

ولا شك أن أهالي صور خافوا على نسائهم من السبي والفضيحة، وهذا النوع من التفكير يذكرنا بنحر اليهود نساءهم وأطفالهم في مدن حوض الراين خلال الصليبية الأولى.

ويتجسد خوف المرأة على شرفها وعفتها في قصة الفتاة الكردية رافول بنت أبي الجيش (ت ق ١٢هـ/١٢٠٦م) والتي أسرها الفرنجة، لكنها تمكنت من الفرار من فوق سور أسرها، وألقت بنفسها في النهر^(٤٦) حرصاً على عفتها، وفضلت الموت على ذلك، وحافظت على شرفها وشرف أهلها وعشيرتها، ولذلك أورد الفارس والشاعر أسامة بن منقذ قصتها في سياق مدحه لنخوة النساء الشريعات وشجاعتهن.

كما أورد أسامة قصة أمه مع أخته أثناء قيام التزارية بالهجوم على شيراز - شمال غرب حماة - حيث وضعت الأم ابنتها في شرفة البيت، لتقف بها إلى الوادي إذا

ما وصل النزارية إلى الدار، مفضلة موت ابنتها على أن تراها مسبية بأيدي الفلاحين الأجلح من النزارية^(٥٠).

ومن جهة أخرى، كان الفرنجة يتخوفون من وقوع نسيانهم أسيرات بأيدي المسلمين، فالحشود الصليبية التي تجمت قبيل حطين، أسرعت لإقنائه الكونتيسة إشيلا Eschiva أميرة الجليل وزوجة ريموند الثالث Raymond III صاحب طرابلس التي حاصرها صلاح الدين في مدينة طبرية^(٥١).

وأثناء حصار صلاح الدين للقدس، حزم الفرسان الفرنجة على القتال مهما كانت النتائج، لكن البطريرك الصليبي للقدس هرقل Heraclius (١١٨٠ - ١١٩١م) نصحهم بالتفاوض مع صلاح الدين، بهدف إقنائه النساء الفرنجيات من التلوع في برائن العبودية، مع ما قد يترتب على ذلك من تغيير دينهن، وانتهاك شرفهن^(٥٢).

وعاشت سيدة فرنسا الأولى الملكة مارجريت دي بروفانس Marguerite de Provence زوجة لويس التاسع Louis IX (١٢٢٦ - ١٢٧٠م) أبماً عصيبة في دمايط، حيث كانت تخشى الوقوع في شباك الأسر بعد أسر زوجها أثناء الحملة الصليبية السابعة^(٥٣).

وتعكس قصة نور الدين ومريم النزارية ضمن قصص ألف ليلة وليلة، مخلوفاً الأمهات من امتحان بناتهن، فيجد أن عادت مريم بعد فترة أسر طويلة، بادرتها أمها بالسؤال إن كانت ما زالت بكراً، فتدهشت مريم من سؤال أمها، إذ كيف يمكن للمرأة أن تحافظ على موطن شرقها بعد سبيها وبيعها، وأخبرتها بأن التاجر الذي اشتراها هدهدا وتوعدها وضربها وأكرهها وانقض بكرتها^(٥٤).

ومن الطبيعي أن تتعرض الأسيرات الحسانات للاغتصاب بشكل أكبر من الأسيرات الأقل فطنة وجمالاً، فخلال الحملة الصليبية الرابعة، غطي البيزنطيون وجوه نسايتهم الجميلات بالطين والأوساخ والأوحال، لمنع امتثارة الفرنج الذين كانوا يبحثون عن النساء ذوات الهيئة الجميلة والوجوه المليحة^(٥٥).

وكان من الصعوبة أن تستطيع المرأة الأسيرة الحفاظ على عفتها وشرفها في ظل الظروف الصعبة للأسر، وإزاء ذلك فقد اعتقد كل من المسلمين والفرنجة واليهود أن أسر المرأة العفيفة النظيفة أسوأ من الموت، فخلال اندفاع حملة الرعاع الصليبية باتجاه الشرق، تعرضت نساء يهوديات للاغتصاب في مدن حوض الرابن، وهذا الأسر أدى إلى حالة من الذعر في أوساط يهود تلك البلاد، فأقدمت يهوديات على الانتحار، بينما قامت أخريات بشد الأحزمة بقوة على مواضع عورتهم، وذبحن بناتهن خشية تعرضهن للاغتصاب^(٥٦) ولم يقتل الفرنجة باغتصاب يهوديات شمال فرنسا وحوض الرابن، بل واصلو اقتراسهم للأسيرات اليهوديات عند اجتياحهم للقدس ومدن الشرق الأدنى الإسلامي^(٥٧).

كما تعرضت الأسيرات المسلمات للاغتصاب عند احتلال الفرنجة لأندلسية والقدس، حيث انتابت الفرنجة شهوة عارمة لافتراش ومضاجعة الوثنيات بحسب

توصيف الكتابات الفرنجية^(٨٨) وانتَهكت حُرمة نساء الأمير بنك بن ارتق أثناء استيلاء الفرنجة على قلعة خربتت عام ٥١٧هـ / ١١٢٣م^(٨٩) ووقع الأمير جوسلين الثاني Oselin II لدى الأسر أثناء انتهاكه حُرمة أسيرة تركمانية ٥٤٥هـ / ١١٥٠م^(٩٠).

ولوث الفرنجة شرف الأسيرات المملكات خلال اقتحامهم لمدينة دمياط في عام ٦١٤هـ / ١٢١٩م، حيث باتوا في المسجد الجامع يُفجرون بالنساء ويفتضون البنات^(٩١) وتكررت الانتهاكات الصليبية للأسيرات المملكات أثناء مباغظة القبارصة الصليبيين مدينة الإسكندرية عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م^(٩٢).

والحقيقة أن النساء الأسيرات تعرضن لمعاملات اغتصاب فردية وجماعية، كنتيجة متوقعة للإباحية التي تعقب الانتصارات والغزوات، حيث يُطلق المنتصرون غنائم المكبوتة، وشهواتهم الجامحة، وتكون الأسيرات ضحايا لتلك الرغبات المسعورة، والمشكلة أن تلك التجاوزات والانتهاكات التي تعرضت لها الأسيرات لم تنبجها أي ضوابط دينية أو أخلاقية أو إنسانية، بل صارت جزءاً من ثقافة الحرب في العصور الوسطى.

وفي المقابل يتهم الفرنجة المسلمون بأنهم لم يحترموا حُرمة الأسيرات الصليبيات^(٩٣) فالمؤرخ الصليبي وليم الصوري أشار إلى أن زوجة رئيسه دي بروس فشلت في الحفاظ على عفافها خلال فترة أسرها عام ٥٢٧هـ / ١١٣٢م^(٩٤) كما أن الكتابات الصليبية اتهمت الجنود المماليك بالاعتداء على بارجنيات عكا عام ٦٩١هـ / ١٢٩١م^(٩٥).

ومن المفارقات المؤلمة سبى النساء المملكات من قبل المسلمين أنفسهم، فبنك بن بهرام بن ارتق الذي خسر مدينة سروج لصالح الفرنجة، توجه في عام ٤٩٧هـ / ١٠٩٧م إلى مدينة عانة^(٩٦) الإسلامية، وسبى نساءها^(٩٧) كما أن الخوارزمية عاثوا فساداً في المدن الشامية عام ٦٢٧هـ / ١٢٣٩م وسبوا نساء المسلمين، وارتكبوا الموبقات بحقن في الجوامع^(٩٨) مع أنه لا يجوز في الفقه الإسلامي سبى المملكات، فالمسلمة لا تسبى ولا تسترق من قبل إخوانها المسلمين^(٩٩) ناهيك عن اغتصابها، كما أن التشريعات الكنسية الصليبية لا تجوز للصليبي سبى المسيحية الكاثوليكية واسترقاقها^(١٠٠).

وكما اغتصبت النساء المملكات، فقد اغتصبت النساء المسيحيات على أيدي الصليبيين، فالعصابات الصليبية انتهكت حرمة المسيحيات في البلقان أثناء الحملة الشعبية^(١٠١) كما أن القائد الصليبي رينود دي شاتيلون Renauld de Chatillon وجنوده عاثوا فساداً في جزيرة قبرص عام ٥٥١هـ / ١١٥٦م، واغتصبوا نساءها^(١٠٢) وأثناء الحملة الصليبية الرابعة انتهكت أعراض النساء البيزنطيات في بيوتهن وأديرتهن وكنائسهن^(١٠٣).

وبالرغم من كل ضروب المعاناة التي تعرضت لها الأسيرات، إلا أنه كان يتم أحياناً مراعاة بعض الجوانب الإنسانية، كزيارة الأمرى وتفقد أحوالهم، وكان هذا

المساح يتم بشكل شخصي أو بطرق رسمية، فقد سمح الحكام المسلمون للفرنجة بتفقد أسراهم في دمشق في عهد كل من مجير الدين أبي وصلاح الدين الأيوبي^(٧٤) كما تعاطف أفراد من المجتمع الإسلامي مع محنة الأسيرات الصليبيات بعد معركة حطين، وسحوا لهن بالفداء والتراور لتخفيف مصائبهن وأحزانهن^(٧٥).

وفي المقابل سمحت بعض الفئات الصليبية الرسمية والشعبية للمسلمين بتفقد أحوال أسراهم لدى الجانب الصليبي^(٧٦) ولم يكن سماح الجانبين الإسلامي والصليبي بزيارة الأسيرات ذا جانب إنساني صرف، بل تداخلت عوامل دينية ومادية في هذا الجانب، فأهالي الأسيرات خافوا على نسايتهم من التحول الديني، كما تطلع الأسرون أحياناً للفدية المالية، وسحوا بالزيارات من أجل تحقيق هذا الهدف.

ونتيجة للمخاطر الجمة التي تتعرض لها النساء الأسيرات، أولت المجتمعات الإسلامية والمسيحية واليهودية عناية خاصة لتحرير الأسيرات، فقدمت الأسيرات في الفدية على الأسرى الرجال، وبالطبع كانت الأولوية في الفدية للأسيرات حتى لا يفقدن حريتهن، وتلتهم عفتن، ويقتن في دينهن.

وتجدر الإشارة، إلى أن طرق تحرير الأسيرات كثيرة ومتنوعة، فالمن والتبادل والفداء، كانت من أبرز الطرق والوسائل التي تحرر من خلالها الكثير من الأسرى والأسيرات^(٧٧) ففي بعض الأحيان تطوع الملوك والأمراء وبعض الفئات الاجتماعية في المن على الأسيرات وعقبن بدون فدية، ومن المحطات التاريخية التي تجسد فيها هذا النهج، قيام الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومننين بإطلاق زوجة السلطان قنج أرسلان وحاشيتها بدون فدية مالية^(٧٨) وإطلاق بلدين الأول سراح زوجة أحد الأعراب مع وصيفتها في رجب ٤٩٥هـ/مايو ١١٠٢م^(٧٩) وبرزت هذه الطريقة بجلاء أثناء فتوحات صلاح الدين، وخصوصاً عند تحرير بيت المقدس، حيث أطلق سراح كثير من الأسرى والأسيرات الذين عجزوا عن افتداء أنفسهم^(٨٠).

كما نظمت العديد من الهدن والمعاهدات والمفاوضات الدبلوماسية بين الدول الإسلامية والصليبية عملية تبادل الأسرى بين الجانبين^(٨١) وبذلت جهود فردية ومجتمعية من أجل تحرير الأسيرات والفتدالهن بالأموال، فالزوج كان ملزماً دينياً وأخلاقياً وأدبياً بافتداء زوجته، فالكثير من الأفراد المسلمين والمسيحيين واليهود سعوا بهمة من أجل افتداء زوجاتهم، حتى مع احتمال عدم استمرارية الحياة الزوجية، نتيجة للانتهاكات التي تعرضن لها أثناء فترة الأسر^(٨٢).

فكوهين اليهودي الفدي زوجته الأسيرة لدى الفرنجة^(٨٣) والنبيل الصليبي رينيه دي بروس Reinier de Brus الفدي زوجته الأسيرة لدى الدماشقة^(٨٤) والحقوقية أن أي تقاض عن الفداء الأسيرات، وخصوصاً المتزوجات منهن، يعني تحلل العلاقات الزوجية، وتفكك الروابط الأسرية، ويبدو أن المسلمين كانوا أكثر تسامحاً وتسامحاً في نسوجهم الاجتماعي والقيمي من الصليبيين.

فنتيجة للروابط الاجتماعية والأسرية الوثيقة لدى المسلمين، ونتيجة أيضاً لتفوق الجانب الأخلاقي لديهم، اهتم رجال مسلمون ليس في إطلاق سراح زوجاتهم لحسب، بل والسعي لاقتداء طليقاتهم، فسلطان بن منقذ عم الفارس أسامة بن منقذ القتي طليقته التي أسرها الفرنجة بخمسمائة دينار قسائلاً " ما أدع امرأة تزوجتها واكتشفت عني في أسر الفرنج" (٨٥).

ومتى ما كان الأزواج ملزمين بغداء زوجاتهم، فلا شك أن الآباء اهتموا بغداء بناتهم، واهتم الإخوة بغداء أخواتهم وعصاتهم وخالاتهم، وسائر قريباتهم وأرحامهم، بل إن النساء اللاتي لا عائل لهنّ يذلن ما في وسعهنّ لاقتداء قريبتهنّ (٨٦).

كما رأى المسيرون وأهل الثراء من المسلمين والصليبيين واليهود أن من واجبهنّ إتفاق أموالهم في الفتك الأسرى والأسيرات، فالأثرياء المسلمون ضخوا الكثير من أموالهم في الوقفيات التي خصصت لاقتداء الأسرى والأسيرات (٨٧) كما أن الصليبيين الأغنياء في الشرق والغرب أنفقوا بمخاض على الجماعات المهتمة بالأسرى والأسيرات (٨٨).

وأسهم الأمراء والحكام في شراء حرية الأسيرات، فبذل كل من معين الدين أنر ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وأخوه العادل وتقسي الدين عمر الأيوبي وغيرهم أموالاً طائلة سواءً من ممتلكاتهم الخاصة، أو من الخزائن العامة لإماراتهم ودولهم في عملية اقتداء الأسرى والأسيرات (٨٩).

كما أسهم ملوك وأمراء ونبلأء غرب أوروبا والدويلات الأسبانية، بالإضافة إلى ملوك وأمراء الصليبيين في الشرق في دعم أنشطة المنظمات الدينية المسيحية المهتمة بشئون الأسرى في مشرق الوطن العربي ومقره (٩٠).

وشاركت الخواتين (٩١) وسيدات المجتمع أيضاً في عمليات تحرير واقتداء الأسرى والأسيرات (٩٢) كما أن نساءً من الفئات الدنيا والوسطى لمنّ بدور مهم في شراء حرية الأسيرات المختطفات لدى الفرنجة (٩٣).

وإذا كانت البابوية قد وقفت بقوة من وراء تأسيس المنظمات المهتمة بالأسرى والأسيرات، فقد اقتصر دور المؤسسات الإسلامية على تشجيع الأثرياء والحكام ورعاياهم في دعم الوقفيات التي رُصدت لاقتداء الأسرى والأسيرات (٩٤) مع الأخذ بعين الاعتبار أن الجهد المسيحي لتحرير الأسرى كان منظماً ومنسقاً عبر جمعيات وهيئات خصصت جزءاً من نشاطها أو جلّ اهتماماتها لقضية افتكالك الأسرى، بينما اكتفى المسلمون بحسب الأوقاف دون إنشاء أي منظمات متخصصة في اقتداء الأسرى .

ومن نافلة القول أن الفئات التي اهتمت باقتداء الأسرى والأسيرات، كان لها مزيج متداخل من الأهداف الدينية والإنسانية والدعائية والسياسية، فكل الشرائع السماوية حضت على افتكالك الأسرى والأسيرات لتخليصهم من حياة الرق والعبودية، وجعلت جزءاً ذلك المغفرة وتكفير الخطايا (٩٥) ولا شك أن أناس كثر من الشرائع المهتمة باقتداء الأسرى حركتهم الدوافع الدينية.

وإلى جانب الدوافع الدينية نجد الدوافع السياسية، فالملوك والأسراء والحكام جنوا مكاسب سياسية ودعائية من وراء عمليات الفداء الأسيرات، إذ أصبح هذا الأمر ميداناً للتنافس والاستعراض في أوساط مجتمعاتهم وبين رعاياهم، فشتاع ذكركم، وإزادات مكائتهم، وتخل حكمهم وسلطاتهم.

كما أن مبادرة الملوك والأمراء بإطلاق سراح أسيرات الأعداء، قد خفف من حالة العداء بين المتحاربين، وقارب بين الخصوم، وسمح بقيام نوع من العلاقات بين الدول قائمة على الاحترام، ولم يقتصر الكسب الدعائي على السياسة بل تعداه إلى المنظمات التبشيرية المهمة بالأسرى، إذ ارتفعت أسهمها في الغرب الأوربي، وذاع صيتها في عوالم المسيحية برمتها، نتيجة لتعالفها وتفاهها في الفداء الأسيرات والأسرى المسيحيين، فلفتت الأنظار إلى نشاطاتها، وجذبت الانتباه لمنظماتها وقادتها ومبشرها، كما ضخت الكثير من الأموال في خزائنها، وبالطبع لا يضي هذا غياب البعد الإنساني في عمليات تحرير الأسرى.

ويؤيدنا الحديث عن الفداء الأسيرات إلى الكلام عن أمثالهن والاحتجار بهن، فقد تأرجحت أسعار الأسيرات وفقاً لمواصفات الأسيرات وكنيجة طبيعية للعرض والطلب، إذ ارتفعت أسعارهن في أوقات السلم، وانخفضت أسعارهن بعد اجتياح المدن ذات الكثافة السكانية، وفي أعقاب المعارك الكبرى بين المسلمين والصليبيين، ولا ريب في أن المكانة الاجتماعية، والمواصفات الجمالية والعقلية والبدنية لعبت دوراً مهماً في تحديد قيمة الأسيرات.

ونتيجة لكثرة الأسرى والأسيرات بعد معركة حطين، كان بيع الأسير الصليبي في أسواق دمشق بثلاثة دنانير^(٩٦) وبما أن المرأة الأسيرة يتم شراؤها عادة بنصف سعر الرجل، فمن المفترض أن يتحدد سعرها بدینار ونصف.

وسمح صلاح الدين لصلبيي القدس بمغادرة المدينة عام ٥٨٤هـ / ١١٨٧م، على أن تلقي المرأة نفسها بخمسة دنانير، والرجل نصف فدية المرأة^(٩٧) وفي العصر المملوكي انخفضت أسعار الأسيرات الصليبيات بشكل لافت، فعقب فتح السلطان بيبرس لمدينة أنطاكية عام ٦٤١هـ / ١١٦٨م، انخفض سعر الأسيرة إلى خمسة دراهم^(٩٨) وازداد انخفاض أسعار الأسيرات مع طرد البقايا الصليبية من عكا عام ٦٩١هـ / ١٢٩١م إذ تدنى سعر الأسيرة الصليبية إلى درهم واحد فقط^(٩٩).

تلك كانت هي أسعار الأسيرات العادية، أما الأسيرات ذوات الجمال والخسن، فلم يبالى الناس بشرائهن مهما ارتفع سعرهن^(١٠٠) كما أن الأسيرات التنبيلات لم يكن يعرضن في أسواق النخاسة، وإنما يقوم سهرن، ويتم الفداءهن، فعقيلة الأمير جكرمش تم افتكاكها بخمسة عشر ألف دينار^(١٠١) كما تم شراء حرية زوجة باغي سويان بمبلغ كبير من المال^(١٠٢).

وتجدر الإشارة إلى أن عكا كانت من أهم أسواق الرقيق لدى الجانب الصليبي، في حين اشتهرت القاهرة ودمشق وحلب بهذه التجارة لدى الجانب الإسلامي^(١٠٣) وتغوى

البنادقة والجنوية على غيرهم في تجارة الرقيق زمن الحروب الصليبية^(١٠١)، وتعجب ابن جبير من التجارة النشطة بالسيايا بين المسلمين والصليبيين، وعد ذلك نوعاً من الاعتدال في السياسة^(١٠٢).

وكما تم بيع وشراء الأسيرات، تم أيضاً إهداؤهن، فبعد اقتناع غبار المعارك، كان يتم تقسيم السيايا بين المنتصرين، وتتلقى الأسيرات الجميلات، ويتم إهداء بعضهن للقادة الذين أسهموا في الفتوحات والانتصارات، وتهدى أخريات للأصدقاء ولذوي الحظوة والسultan^(١٠٣).

وإضافة إلى فقدان الأسيرات لحریاتهن، وانتهاك عفتهن، والانتقاص من إنسانیتهن، فقد تعرضت الأسيرات لمخاطر تحويلهن عن دينهن، فقد حاول السادة الصليبيين إغراء الأسيرات اليهوديات والمسلمات باعتناق المسيحية مقابل توديعهن لحياة العبودية^(١٠٤).

ومثلما استخدم الفرنجة أساليب الإغراء، استخدموا أيضاً أساليب الإكراه لإجبار الأسيرات على الزواج في عالم المسيحية، فقد اختطف صليبيو صور فتاة مسلمة ونصروها بعد أن كانت أمها قد نجحت في اقتدالها من أسرهم عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م^(١٠٥). وبدورهم شجع المسلمون الأسيرات الصليبيات على الدخول في الإسلام كبوابة لتلبي الحرية والكرامة، والاندماج في المجتمع الإسلامي بيسر وسهولة^(١٠٦).

لما كان الزواج دليلاً على الاندماج والتفاعل الاجتماعي، ونتيجة لقلّة النساء في صفوف المستوطنين الصليبيين^(١٠٧) فقد تزوج العديد من الملوك والأسراء والنسلاء الفرنجة بمسيحيات شرقيات، بينما ارتبط بعض فرنج الفئات الدنيا بأسيرات مسلمات اعتنقن المسيحية^(١٠٨).

ومع أن الكتاب المقدس يربح بالزواج من السيايا الحسنان^(١٠٩) إلا أن حاجز العقيدة كان يقف حاجلاً دون الزواج بين الفرنجة والأسيرات اللاتي لم يقتسمن بماء المعمودية^(١١٠) لكن من المعلوم أن الفرنجة اتخذوا لهم محظيات من بين الأسيرات الحسنات، إذ شاع لدى الفرنجة التسري بالأسيرات المسلمات، والتمتع بهن تحت غطاء الخدمات المنزلية في تحد واضح للقواعد التشريعية الكنسية^(١١١).

وكانت الأسيرات الصليبيات يُقسمن على المجاهدين المسلمين ضمن الثغالم، فيصبحن ملك يمين لهم^(١١٢) ولم توجد عوائق دينية لدى المسلمين تحول دون زواجهم من حرائر صليبيات، لكن المانع العقدي وجد لدى الفرنجة، إذ ترفض المؤسسات الكنسية زواج المسيحية من مسلم، كما يتضح ذلك جلياً من خلال مقررات مجلس نابلس لعام ٥١٤هـ/١١٢٠م التي حرمت الارتباط بأهل عقيدة مخالفة^(١١٣).

وكان لسبي النساء تأثيرات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية، ودينية وثقافية ونفسية في زمن الحروب الصليبية، إذ أدى أسر النساء أحياناً إلى قيام تحالفات عسكرية جديدة، فأبن عمر صاحب حصن عزال-شمال حلب - تحالف مع القائد

الصليبى جودفري عام ٤٩١هـ/ ١٠٨٩م ضد سيده رضوان الملقب بـصاحب حلب، بتأثير من أسيرته الفرنجية التي أحبها^(١١٧).

وكما أن أسر النساء أسهم أحياناً في إعادة ترتيب شبكة العلاقات والتحالفات بين المتحاربين، فكذلك أدى تحويل الأسيرات عن دينهن إلى تداعيات عسكرية في بعض الأحيان، فالسلطان بيبرس شن في عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م هجوماً عسكرياً على صليبي صور الذين خطفوا إحدى الأسيرات المحررات وفتتوها عن دينها^(١١٨).

ويتضح جلياً أن الخشية من وقوع النساء في الأسر، سواء في ميادين المعارك الحربية، أو أثناء حصار المدن، مثل عامل ضغط على المحاربين، لدفعهم أحياناً إلى الحرب حتى النهاية، وأجبرهم على الاستسلام في أحيان أخرى، وفي كلا الحالتين كان ذلك من أجل الحفاظ على سلامة وحرية النساء، فمن المتصور أن النساء المرافقات للجيوش المتحاربة ألهين حماسة المحاربين، ودفعهم للقتال بكفاءة عالية لخشيتهم من رؤية نساءهم مكبات في سلاسل العبودية.

كما أن وجود النساء داخل المدن المحاصرة كان عامل ضغط آخر على القوى المدافعة، فقبل معركة حطين اندفع الفرنجة بمغامرة عسكرية للحفاظ على مدينة طبرية من السقوط بأيدي صلاح الدين، وإنقاذ صاحبتهما اثنيها من الأسر^(١١٩) كما أن فرنج بيت المقدس فضلوا الاستسلام بدون قتال لصلاح الدين خشية وقوع نساءهم في الأسر^(١٢٠).

ومما لا شك فيه أن أسر النساء كان له آثار وتداعيات سياسية، فالأسيرات المحظوظات صرن زوجات وأمهات لقادة وحكام في عصر الحروب الصليبية، وأصبح لهن دور في الحياة العامة، وفي تدبير شئون الحكم، فالأسيرة الفرنجية التي صارت ملك يمين لشهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جبر، سيطرت على مقاليد الأمور بعد وفاة زوجها، وأصبحت هي "الأميرة الناهية"^(١٢١) في دولة ابنها بدران^(١٢٢).

ويبدو أن تلك الأسيرة الفرنجية كانت أثرية في حياة زوجها، حيث استقلت سحرها وحظوتها في ارتقاء ابنها بدران إلى ولاية العهد، وحكم قلعة جبر، وهو أمر يبدو أنه قد أوفر صدر أخيه علي بن مالك الذي تأمر على حياة بدران، وملك القلعة سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م^(١٢٣).

كما أن أسر النساء وإطلاق مرادهن فيما بعد استخدم أيضاً لتحقيق مكاسب سياسية، فالإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين أطلق سراح زوجة قسج أرسلان كبادرة حسن نية، ورغبة في "اكتساب مودة الترك"^(١٢٤) ولزع فتيل التوترات المستقبلية بين البيزنطيين وسلاجقة الروم.

وبالإضافة إلى التداعيات السياسية والعسكرية لمسي النساء، فكذلك كان لأسرهن آثار اقتصادية واجتماعية، فاستخدمت الأسيرات في زمن الحروب الصليبية كأيد عاملة، فمنهن من عمل في الخدمة المنزلية، وقامت أخريات بالأشغال اليدوية وتدوير

الطواحين^(١٢٥) ولا شك أنهم نقلن مهارتهن الحرفية وخبرتهن الاقتصادية التي اكتسبتهن في مواطنهن الأصلية إلى مجتمعاتهن الجديدة.

ونشطت تجارة السبي في كبريات المدن الإسلامية والصليبية، كنتيجة طبيعية لاتساع دائرة الحروب الصليبية واستمراريتها لفترة زمنية طويلة، وأصبحت المتاجرة بالأسيرات مصدر دخل لغزاة البر والبحر، وحقت الدول والمدن والأفراد أرباحاً وفيرة من وراء هذه التجارة، كما أن تجار السبي راكموا أموالاً طائلة نتيجة لشغل بعض الفئات الاجتماعية بشراء الأسيرات للصناعات بأسعار مغرية^(١٢٦) حيث مثل امتلاك الجوارى في ذلك العصر عنواناً للثروة والرفعة.

وقد كلفت الفئات الدنيا الشرائح العليا في شراء الأسيرات والتسري بهن، ومن المتوقع أن ذلك قد انعكس سلباً على الاقتصاديات الأسر الفقيرة التي تكاثرت عدد أفرادها وقلت مداخيلها، ولا شك أن اتفاق عنية القوم على شراء الأسيرات أو القتلتهن بأموال هائلة، قد أرقى الاقتصاد، وأضاف أعباءاً جديدة على العامة ومصادر رزقهم المحدودة، إذ إن تلك الكلفة الاقتصادية الثقيلة يتحملها في النهاية المجتمع وليس النخب الحاكمة.

وكما كان للأسيرات تأثيرات على الحياة الاقتصادية، فإن لهن أيضاً تأثيرات على شتى الجوانب الاجتماعية، كالزواج والطلاق والروابط الأسرية والأمراض الاجتماعية، فمن المتصور أن الأسيرات العازبات كن مرغوبات لدى أسرهن أكثر من الأسيرات المتزوجات، ومن المتوقع أن فرص الزواج بالأسيرات العازبات قد قلت بعد إطلاق سراحهن، كنتيجة متوقعة للشكوك التي تراود أبناء مجتمعاتهن في سلوكهن، واحتمال انتهاك عفتهم أثناء مهنة الأسر.

وبالنسبة للأسيرات المتزوجات، فبالرغم من أن الفقه الإسلامي يحكم بانقطاع الرابطة الزوجية للأسيرات غير المسلمات اللاتي يقعن بأيدي المسلمين، واستمرارية رابطة الزوجية للأسيرات المسلمات اللاتي يقعن بأيدي أعدائهم^(١٢٧) إلا أن الزواج ينقطع عملياً بوقوع الأسيرة المتزوجة بأيدي الأعداء بغض النظر عن ديانتها، مع الافتراض بإمكانية استمرار الرابطة الزوجية عند إطلاق سراح الأسيرات المتزوجات، لكن هذا الأمر يعتمد على أوضاع المرأة الأسيرة أثناء فترة الأسر، ومدى رغبة زوجها في استمرارية عقد الزوجية.

فلا شك أن انحراف المرأة الأسيرة اختياريّاً أو انتهاك حرمتها جبرياً يقتل من احتمالية عودة المرأة المتحررة من الأسر إلى زوجها، وخصوصاً في الحالة الأولى، حتى وإن حافظت المرأة الأسيرة على طهرها، فإن كلا من المسلمين والصليبيين واليهود نظروا برؤية وتوجس إلى الزوجة الأسيرة، وافترضوا مسبقاً عدم قدرتها المحافظة على عفتها^(١٢٨).

وبينما يجد المسلمون واليهود الحل في طلاق الزوجة المتحررة من الأسر، والارتباط بأخرى لم تظلم قبود الأسر والعبودية، فإن الصليبيين لا يستطيعون الارتباط بزوجة ثانية، بل هم ملزمون بموجب القانون الكنسي بالاستمرار في عقد الزوجية حتى

وفاة الزوجة^(١٢١) ولكن يجب التلويح إلى أن استمرار عقد الزوجية بين الصليبي وزوجته المحررة من الأسر لا يعني بأي حال من الأحوال استمرارية الحياة الزوجية الطبيعية بين الزوجين، فأنجيل الصليبي رينيه دي بروم هجر زوجته بعد أن تبين له أنها لم تحافظ محافظة المرأة الشريفة على فراش الزوجية^(١٢٢) أثناء فترة الأسر، فتم إيداعها في أحد أديرة القدس، وانضمت بشكل قسري إلى زمرة الراهبات، لكنه لم يتمكن من الزواج إلا بعد موتها^(١٢٣).

ومن النتائج الاجتماعية لاستمرارية الحروب الصليبية، واكتساظ الأسواق بالسبايا، عزوف الشباب عن الزواج بالحرار^(١٢٤) طالما كان بإمكانهم إشباع غرائزهم ورغباتهم مع النساء الأسيرات بدون تحمل الكثير من التكاليف الماثلة والالتزامات الأسرية.

كما لا يستبعد أن يكون الرجال المتزوجون قد فضلوا معاشرة الأسيرات والتمتع بهن على حساب الزوجات اللاتي فترت علاقتهن بأزواجهن، وأصبحت حياتهن الزوجية رتيبة كنتيجة طبيعية لمزاحمة الأسيرات للزوجات الحرار، مع ما ترتب على ذلك من وهن الأسر وتصدها. والخلاصة أن كساد الزواج من الحرار، وتطور العلاقات الزوجية ساهم في انغماس الحرار في اللهو والمجون والمتع الحرام، وكل ذلك أدى إلى التحلل الأسري والتفكك الاجتماعي.

ولا يستبعد أن تكون الجرائم الأسرية التي شاعت في المجتمعات الصليبية، والتي أشار إليها رجل الدين الصليبي جيمس الفيتري Jacques de Vitry^(١٢٥) نتاجا للتفسيخ الأسري الذي ساهمت الأسيرات في تغذية جذوره ومنابعه. كما أن كثرة الأسيرات أدى إلى انتشار الدعارة ودور البغاء بشكل سائر أحياناً، وتحت ستار الفندقة والخانات^(١٢٦) ودور القيان والخمارات في أحيان أخرى^(١٢٧).

ومما تجدر ملاحظته، أن الإسلام ينظم الأوضاع الاجتماعية للأسيرات، إذ يحرم موافقة الأسيرة الحامل^(١٢٨) ولا يجزئ التفريق بينها وبين أبنائها وأخواتها وأقاربها^(١٢٩) كما يمنع بيع الأسيرات اللاتي صرن أمهات أولاد^(١٣٠).

فلا مرأى بأن زواج الأسيرات من رجال أحرار يعني فيما يعني تكريمهن ورفع شأنهن، إذ كان هذا الزواج بمثابة رافعة لنقلهن من طور العبودية إلى طور الزوجية، وتعاقبت مكانة الأسيرات وزادت رفعة وعلوا بعد أن صرن أمهات أولاد حيث نصن بالحرية والمنزلة الاجتماعية الرفيعة^(١٣١).

وأدى التسري بالأسيرات مع تعدد الزوجات إلى كثرة الأبناء من أمهات مختلفات، ونتج عن ذلك اختلاف توجهات الأبناء وتنوع مشاربهم^(١٣٢) ومن المتوقع أن بعض الفئات الاجتماعية دأبت على التفرقة بين أبناء الأسيرات وأبناء الحرار، إذ تلقى أبناء الحرار معاملة تفضيلية من قبل بعض الآباء، كما أن أبناء الحرار كانوا ينظرون بدونية لإخواتهم من أبناء الأسيرات، وهذا الأمر أوجع الصدور، وأثار الشحناء وكان له انعكاسات سلبية على الصلات بين الأبناء.

ومما تجدر ملاحظته، أن أسر الفتيات الصغيرات^(١١١) كان له آثار اجتماعية بعدة المدى، إذ تكاثبت على تلك الأسيرات الصغيرات، حياة الغربة عن الأهل والديار، مع الشعور بالحرمان، وتجرع مرارة اليتيم، والافتقار لدفاء الحياة الأسرية والعائلية، فعمت حياة يعثر بها العذاب والنكد والبؤس والشقاء.

ومن المعلوم أن مجتمعات الشرق الأدنى الإسلامي كانت غنية بأعراقها وأجناسها وطوائفها، وإزدادت هذه التركيبة الاجتماعية غنى، بتزاوج المسلمين من أسيراتهم الصليبيات من فرنسيات وإيطاليات وإنجليزيات وألمانيات وأسبانيات، ومن سائر أجناس أوروبا، كما عاشر الفرنجة أسيراتهم المسلمات من عربيات وتركيات وكرديات وبربريات وفارسيات، ولا شك أن كل ذلك الإخصاب والتجهين والتلاقح كان له تأثيرات اجتماعية عميقة، حيث تفاعلت الأعراق واختلطت الدماء، وتمازجت الأجناس، وهذا الأمر وفر للمنطقة ثراءً عرقياً نادراً، وسبوتة اجتماعية غير مسبوقه، مما جعل منها مجتمعا عالمياً مصغراً.

وبقي أن نشير إلى التأثيرات الدينية للأسيرات، فمن المعروف أن الحاجز بين الإسلام والمسيحية قد تم اختراقه، وخاصة من قبل الأسرى والأسيرات، فلي هذا الوسيط وقعت تحولات دينية قسرية واختيارية، فبعض الأسيرات تشرعن دين الإسلام^(١١٢) كما أن أسيرات مسلمات ويهوديات **حولن أو تحولن** إلى المسيحية الكاثوليكية^(١١٣) ولا يستبعد أن يكون لهؤلاء الأسيرات تأثيرات دينية على أسريهن، كما لا يستبعد أيضاً قيام الأسيرات بمحاولات لتحويل أزواجهن وأبنائهن إلى ديانتهم الأصلية.

ومن لافتة القول أن الأسيرات كان لهن تأثيرات ثقافية ومعرفية، فمن غير المستبعد أن يكون من بين الأسيرات نساء على درجة عالية من الخبرة والمعرفة في كلا الجانبين الإسلامي والصليبي، ولا شك أنهن أسهمن في نقل تجاربهن الكثيرة وخبرتهن المتراكمة وثقافتهن الأصلية إلى مجتمعاتهن الجديدة.

ومن المؤكد أن الأسيرات قد واجهن صعوبة في التواصل والتفاهم مع أسريهن في المراحل الأولى لأسرهن، بسبب الحواجز اللغوية والثقافية، ومن المتصور أن الصعوبات التي واجهت الأسيرات الصليبيات كانت أكبر بكثير من العوائق التي واجهت الأسيرات المسلمات، لأن بعض اللغات الصليبية حرصت على تعلم اللغة العربية، بينما لم تكثر الغالبية العظمى من المسلمين بتعلم لغات ولهجات المستوطنين الصليبيين^(١١٤).

ومن المحتمل أن تكون الأسيرات قد أسهمن في التفاعل الثقافي والتأثير اللغوي بين الجانبين الإسلامي والصليبي، وخصوصاً الأسيرات المسلمات، فمن المعلوم أن بعض الألفاظ والمصطلحات العربية تسربت إلى اللغات الأوروبية في عصر الحروب الصليبية^(١١٥) ولا يستبعد أن يكون للأسيرات دور في نقل الكلمات المتطابقة بالشكل المنزلي والأطعمة والأشربة وشلون الطبخ والفن والغناء والطرب إلى اللغات الأوروبية.

ومن المحتمل أن يكون أبناء الأسيرات قد تعلموا لغات أمهاتهم، وشربوا أسلوب حياتهن، ونهلوا من ثقافتهن وحضارتهن، وبالتالي كانوا قناة للتواصل الثقافي

بين المسلمين والفرنجية، خصوصاً وإن كتب التراجم والطبقات تُطلق مصطلح "ابن الفرنجية" على العديد من الفقهاء والوجهاء المسلمين^(١١٦).

ولا ننسى أيضاً تأثير سبي النساء وأسرهن على الحياة الأدبية، إذ كان الأسر من الموضوعات الأدبية لكتاب وشعراء ذلك العصر، والذين حرصوا على استئثارهم المسلمين وغيرتهم لمجاهدة الفرنجة الذين انتهكوا حرمة الأسيرات المسلمات^(١١٧) وتصور قصص من ألف ليلة وليلة أحوال الأسيرات ومعاناتهن في قالب قصصي جميل، كقصة مريم الزنارية، وقصة الصعدي وزوجته الفرنجية^(١١٨) ولا ريب أن كل تلك الكتابات الشعرية والقصصية قد أسهمت بشكل أو بآخر في إثراء الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية.

أما تأثير الأسيرات في مجالات التغذية والصحة والنظافة والجودة، فقد كان تأثير الأسيرات في غاية الوضوح، حيث أسهمت الأسيرات المسلمات في نقل تقاليد وعادات وفنون الطهي الشرقي إلى المطبخ الصليبي، فتمتعت بعض الفئات الصليبية بطعام "لي غاية النظافة والجودة"^(١١٩).

ويبدو أن بعض الصليبيين قد تكيفوا مع أساليب الحياة الشرقية، فهم بحسب وصف أسامة "قد تلبدوا وعاشروا المسلمين"^(١٢٠) وهؤلاء القوم تبَنُوا طرائق المعيشة الشرقية، وتشربوا أذواقها وفنونها ورغباتها في مجالات الأطعمة والأشربة، وطرق تقديم الطعام، وتركيب المائدة وتزيينها، حيث يُباهي أحد الصليبيين بأن لديه طبابخات مصرية لا يأكل "إلا من طبخهن"^(١٢١).

ولم تثر المصادر إلى تأثير المسلمين بالأطعمة الفرنجية وفنون الطهي المجلوبة من أوروبا عن طريق الأسيرات الصليبيات، لكن لا يستبعد تذوق بعض الفئات الإسلامية لقوائم الأطعمة الغربية، مع الإشارة بالطبع إلى تواضع فنون ومهارات المطبخ الفرنجي مقارنة بنظيراتها الشرقية.

وتعتبر المؤثرات النفسية من أخطر المؤثرات التي انعكست على المرأة الأسيرة، فطالما دغدغ منظر النساء الأسيرات أحلام رجال الشرق والغرب، ولكم كانت هذه الأحلام المجنونة تثير الذعر في نفوس النساء، فقد عاشت النساء في زمن الحروب الصليبية في قلق وتوتر وخوف خشية وقوعهن في الأسر، فزوجة القديس لويس عاشت في دمياط في رعب بعد أسر زوجها، وكان يُخيل إليها أن حجرتها مليئة بالمسلمين، وكانت تقوم من نومها مغزوعة، وهي تصرخ النجدة النجدة، ولم تعد قادرة على النوم لوحدها في حجرتها^(١٢٢) وعاشت الأمهات ألياً وليالي عصيبة خوفاً وفرعاً على بناتهن الشابات من الوقوع في الأسر^(١٢٣).

وعانت الأسيرات الكثير من المتاعب النفسية إذ عشن في ذل وهوان وعبودية، مع ما رافق ذلك من الحرمان والآلام والأحزان، وتعاطت الصدمات النفسية للأسيرات بتركيبتين وامتتهن، وتكرار عمليات اغتصابهن، ويكون الاغتصاب أكثر إبلاهاً للنفس عندما يحدث أمام أبائهن وأزواجهن وأقاربهن^(١٢٤) ويشعر الأهل بالخزي والعار لانتهاك

حرمة قريبتهم الأسيرات مع ما يسببه ذلك من جروح نفسية غائرة، فوالد رفول الكردية انتابه الذعر والاضطراب عندما علم بأسر الفرنج لابنته، لكن حاله تبدل عندما تأكد أن ابنته فضلت الموت على انتهاك عفتها، فهدأت نفسيته، واطمئن قلبه، وسكنت لوعته^(١٠٠).

والخلاصة أن النساء في عصر الحروب الصليبية عشن في رعب وخوف وهلع وضغط نفسي رهيب، وسادت في أوساطهن مشاعر القلق والتوتر، والشعور الدائم بالخوف والتهديد المستمر، وقلة الطمأنينة، ولا شك أن كل تلك المشاعر السلبية قد أفسدت حياتهن الطبيعية، وحطمت معنوياتهن، وضغطت على أعصابهن، وهو أمر أدى بلا ريب إلى انتشار الأمراض النفسية والعصبية في أوساط النساء العائشات في مصعنة الصراع الإسلامي الصليبي.

وأخيراً نحب أن لنوه إلى جنسية الأسيرات وهويتن الدينية، والأطوار الزمنية لأسر النساء، والتوزيع الجغرافي للأسيرات، وأماكن أسرهن، فهالنسبة لجنسية الأسيرات وديانتن، فقد وقعت أسيرات من جميع الأعراق الإسلامية القاطنة في الشرق الأدنى الإسلامي، كما أن أسيرات من شتى أجناس غرب أوروبا وقعن في شباك الأمر، وتنوعت ديانة الأسيرات ما بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وحتى الوثنية التي جلبتها القبائل المغولية من جوف آسيا.

أما بالنسبة للأطوار الزمنية لعمليات السبي، فيلاحظ تصاعد عمليات السبي في فجر الحروب الصليبية النشطة وفي خواتمها، بينما تراجعت عمليات السبي في مراحل توازن القوى الإسلامية الصليبية، وهول التموضع الجغرافي للأسيرات، فقد وقعت أسيرات في أيدي الفرنجة من كل البلاد التي هاجموها أو احتلوها، ويُعتقد أن أكثر الأسيرات تعود جنودهن للبلاد الشامية وتليها الديار المصرية والجزرية، فبلاد الشام تعتبر البؤرة الأساسية للصراع الإسلامي الصليبي، وقد استمر الاحتلال الصليبي لبعض أجزائها مدة تقارب القرنين من الزمان.

ومن المنطقي أن أكثر الأسيرات للصليبيات كن من مملكة بيت المقدس، مقارنة بإمارات الرها وأنطاكية وطرابلس، باعتبار أن مملكة بيت المقدس كانت الجبهة الرئيسية للصراع، وفيها أبرز الكتل الاستيطانية الصليبية.

وتنوعت الأماكن التي أخذت منها الأسيرات، في البحر أو البحر، من خلال الرحلات البحرية أو أثناء سفر القوافل التجارية، من داخل المدن والقلاع الحصينة أو من الأماكن المحيطة بها، وأخذت الأسيرات من البيوت والمساجد والكنائس والحمامات، أثناء اقتحام المدن أو بعد المعارك الفاصلة أو خلال الغارات الخاطفة.

ولا نعرف على وجه الدقة أو التقريب أعداد الأسيرات في عصر الحروب الصليبية، سواء تلك التي أطلق سراحهن بعد أسرهن، أو الثلاثي مكنن في قيود الأسر طوال حياتهن، كما لا نعرف إلا أسماء قليل من الأسيرات التيبليات، أما أسماء أسيرات الفئات الدنيا فقد طواهن النسيان.

وفي الختام نشير لأهم نتائج البحث:-

- يُعد عصر الحروب الصليبية من أكثر العصور التاريخية التي برزت فيه ظاهرة الأسيرات، وأصبحت سمة من السمات المميزة له، نظراً لتوسع الحروب الصليبية واستمراريتها.

- تعرضت الأسيرات للاستعباد والتحول الديني عند كلا الجانبين الإسلامي والصليبي.

- تعرضت الأسيرات لشتى صنوف الذل والهوان، وخصوصاً الأسيرات المسلمات، نظراً لقسوة الفرنجة ووحشيتهم، وقلة احترامهم للتشريعات والقوانين الكنسية.

- كان المسلمون أكثر رفقا ورحمة في تعاملهم مع الأسيرات مقارنة بالصليبيين، وهذا يعود بالدرجة الأولى لامتناعهم لتعاليم الدين الإسلامي ووصايا.

- ساهمت جل الفئات الإسلامية والمسيحية واليهودية في فداء الأسيرات، لكن الجهد المسيحي اتخذ طابعاً مؤسسياً ومنظماً.

كان للأسيرات تأثيرات ايجابية وسلبية على كلا المجتمعين الإسلامي والصليبي في شتى جوانب الحياة العامة والخاصة.

ARCHIVE

المواضيع

- (١) - عن ذلك، انظر : أنا كومنينا: ألكسباد ، ترجمة : حسن حبشي ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤ م ، ص ٣٨٩ ؛ علي محمد عودة الغامدي : الرؤية الأوربية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٩٩م، ص ٦١ وانظر أيضاً
- Brandt :The Recovery of the Holy Land, New York, 1956, p.124.
- (٢) - عن صورة المسلمين في السيرة الغربية، انظر : جيمس أ. برونديج : « إلزنا (الدعارة) واختلاط الأجناس والتطهير الجنسي في الحرب الصليبية »، ترجمة وتحرير: حسن عبد الوهاب حسين، ضمن مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م، ص ١٧٩-١٨٠ وانظر أيضاً
- Jeuissat: François d'Assise et les Musulmans, Abidjan, 1986, p.39.
- Munro : The Western Attitude toward Islam during the Period of the Crusades Speculum, Volume 6, Issue 3 (Jul., 1931), p.342.
- (٣) - ميشيل بالاز: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة: بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط ١ ، ٢٠٠٣ م، ص ٦٥ ؛ برونديج : مرجع سابق، ص ١٧٢ - ١٧٣ ؛ وانظر أيضاً
- Strayer and Others: The Middle Ages 395-1500, New York, 1970 , p..229.
- Strayer : op. cit. , p.229.
- (٤) - عن الأتوار التي كانت بها المرأة الصليبية ، انظر : ميشيل بالاز : مرجع سابق ، ص ٦٦ ؛ برونديج : مرجع سابق، ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛ ول ديورانت : قصة الحضارة .. عصر الإيمان ، ترجمة : محمد بدران ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠١ م ، مج ٨ ، ص ١١٩ جوزيف شلخت و كليفورد بوزورث : تراث الإسلام ، ج ١ ، ترجمة : محمد زهير السمهوري و حسين مؤنس ، تعليق وتحقيق : شاكز مصطفى ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٢٢ ، يناير ١٩٧٨ م، ص ٤١؛ وانظر أيضاً
- Krijnle and Others: East and West in the Crusader States, leuven, 1999 , pp.136- 137.
- (٥) - أبي الحسن علي عبد الجليل الرشداقي ، ٥٩٤هـ / ١١٩٦ م : الهداية شرح بداية المبتدى، المكتبة الإسلامية ، صان ، (د. ت) ، ج ٢ ، ص ١٢٧ ، وانظر أيضاً

Thorau: *The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the near East in the Thirteenth Century*, Translated by p.m. Holt London, 1992, p. 165.

(6) - فوشيه الشارترى : تاريخ الحملة إلى بيت المقدس الاستيلاء الصليبي في فلسطين ، ترجمة ودراسة وتعليق : قاسم عبده قاسم ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١م ، ص ١٢٤ ، وانظر أيضاً

Hay : « Gender Bias and Religious intolerance in Accounts of the 'Massacres' of the First Crusade, » in : *Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in the Age of the Crusades*, ed. by : M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001, p.9.

(7) - عن الأسيرات المسيحية ، انظر : فوشيه الشارترى : مصدر سابق ، ص ١٢٤ ، أولفر أوف بالديون : الاستيلاء على دمياط ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : سيويل لكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٠م ، ج ٢٤ ، ص ٥٢ ، محمد صلاح بي يونس و عيسى محمود الغرام : دور سكان الشام في مقاومة الغزو الفرنجي حتى نهاية الحملة الفرنجية الأولى ١٠٩٠ - ١٠٩٢هـ / ١٠٩٦ - ١١١٦م من خلال المصادر العربية ، ضمن مؤتمر بلاد الشام ، ج ١ ، نوفمبر ١٩٩٩م ، ص ٢٣ ، ٤٣ ، ٤٣٧ ، وانظر أيضاً

Hitti : « The Impact of the Crusades on Moslem Lands, » in : *A History of the Crusades*, volume. V, ed. by : Setton, London, 1985, p. 48.

Hadia : « Natives and Franks in Palestine Perceptions and Interaction, » in : *Conversion and Continuity : Indigenous Christian Communities in Islamic Lands eighth to eighteenth Centuries*, ed. by: M. Gervers and R. J. Bikhazi, Toronto, 1990, p.171.

(8) - وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشي الهيئة العامة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (ط ١٩٩١م) ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ، سكيان راسميان : تاريخ الحملات الصليبية ، ترجمة : نور الدين خليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٤م ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

(9) - وليم الصوري : الحروب الصليبية ج ٢ ، ص ١٣٢ ، وانظر أيضاً
Gabrieli : *Arab Historians of the Crusades*, selected and translated from the Arabic sources translated from the Italian, by: E.J Costello, New York, 1989, p.16.

ويذكر ابن الأثير أنها ابنته وليست زوجته ، عن ذلك ، انظر : عز الدين أبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ، ت : ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٩٥ م ، ج ٩ ، ص ٥٦ ، ويشير في موضع آخر إلى ندم ياشعريسيان لتركه أهله وأولاده في قبضة الفرنج ، انظر : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٥ .

(١٠) - العقيلة : هي المرأة النفيسة ، كريمة الأصل ، والعقيلة جمعها عقائل ، ويطلق هذا المصطلح على سيدات النساء وخيارهن ، عن ذلك ، انظر : محمد بن مكرم بن منظور الأتريقي المصري ، ت : ٧١١ هـ / ١٣١١ م : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، (د . ت) ، ج ١١ ص ٤٧٤ ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، ت : ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م : مختار الصحاح ، تحقيق : مصدق حاط ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٥٠ ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(١١) - فاطمة عبد الطلوف سيد أحمد الشناري : معاملة المسلمين الأسرى الصليبيين في بلاد الشام ومصر ١١٣٧ - ١٢٩١ م / ٥٣١ - ٦٩٠ هـ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ص ١٢١ ، علي عبد السميع الجنزوري : إمارة الرها الصليبية ، سلسلة تاريخ المصريين (٢١١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠١ م ، ص ٢٢٤ ، علي السيد علي : العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٦ م ، ص ١٢٧ ، راسيمان : مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٧٥ ، وانظر أيضاً Oldenbourg: The Crusades, Translated from the French, by: Anne Carter, New York, 1967, p.234.

(١٢) - خربتوت : يُسمى حصن زياد ، ويقع في أقصى ديار بكر ، انظر : ياقوت بن عبد الله الحموي ، ت : ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م : معجم البلدان ، دار الفكر ، بيروت ، (د . ت) ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

(١٣) - راسيمان : الحملات الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٩٦ .

(١٤) - حصن القبة : حصن يقع في أطراف حلب في الطريق ما بين حلب والسلمية ، ويُطلق عليه قبة أبي ملاعب ، لأن الذي بناه هو خلف بن ملاعب الأنشوبي ، عنه انظر : كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي ، ت : ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م : بغية الطلب من تاريخ حلب ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ج ٧ ، ص ٣٣٥٤ .

(١٥) - كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، وضع حواشيه : خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦ م ، ص ٣٠٨ .

- (16) - عن الأسيرات الصليبيات، انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٨٧ : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدس المعروف بابي شامة ، ت : ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق : إبراهيم فزيق ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، جـ ٤ ، ص ٢٤١ ولهم السوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٢ ، وانظر أيضاً
Hitti : op. cit, p.48.; Duggan: The story of the Crusades 1097-1291, London, 1963, p.161, Pernoud: The Crusades, London, 1962, p. 110.
- (17) - محي الدين ابن عبد الظاهر ، ت : ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر : عبد العزيز الخويطر ، (د.ن.) ، الرياض ، ط ١ ، ١٩٧٦م ، ص ٣٢٤ ، وانظر أيضاً Pernoud : op. cit, p. 280.
- (18) - رالسيمان : الصلوات الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٤٦٩.
- (19) - تحكي الأساطير العربية أن صناد الدين ركني يعود في جذوره لأصول مسيحية، فهو ابن للكونتيسة آدا ، عنها ، انظر : مكسيم رودنسون : جاذبية الإسلام ، ترجمة : إلياس مرفص ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٨م ، ص ٢٩ ، وانظر أيضاً Cate : « The Crusade of 1101, », in : A History of the Crusades, volume I ed. by : Setton, London, 1969, p. 362 ; Munro : op. cit, p. 339.
- (20) - ولهم السوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ ، وانظر أيضاً Friedman : « Women in captivity and their ransom during the Crusader period, » in : Cross Cultural Convergences in the Crusader Period, ed. by : M.E. Goodich , New York, 1995, p . 83.
- وباتياس: هي مدينة الجولان الحالية، وتبعد عن دمشق حوالي ستين كيلو متر مربع، وهي تختلف عن باتياس الساحلية التي تقع شمال مدينة طرطوس، لذلك تسمى الأولى باتيامس الداخلية - انظر : الحموي : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٣٤ .
- (21) - عن معايير معاملة الأسرى والأسيرات ، انظر : محمد مؤمن عوص : « دراسات التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية الصادرة في الخمس والعشرين سنة الأخيرة » ، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م ، ص ١٧٢ : شادي إبراهيم عبد القادر : المبني في صدر الإسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة النجاح ، ٢٠١٠م ، ص ٧٣ - ١٧٤ علي السيد علي محمود : نور الأسرى الأقطب في المجتمع المصري في

- عصر سلاطين المماليك ، مجلة لتاريخ والمستقبل بكلية آداب المنيا ، العدد ٢ ، مج ٢ ، ١٩٨٨م ، ص ١٢٨ ؛ وانظر أيضا
- Hay : op. cit, p.9 ; . Lev : « Prisoners of War During the Fatimid-Ayyubid Wars with the Crusaders, » In : Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in the Age of the Crusades, ed. by: M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001,p.16.
- (22) - ولهم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢١ ؛ وانظر أيضا Runciman: « The First Crusade : Constantinople to Antioch », In: A History of the Crusades, volume. I, Ed. by: Setton, London, 1969, p.291.
- (23) - ولهم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٢٢ .
- (24) - المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢ .
- (25) - فاطمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٢١ ؛ علية الجنزوري : مرجع سابق ، ص ٢٢٤ ؛ وانظر أيضا Oldenbourg : op. cit, p.234.
- (26) - متى الباريسي ، ت : ٦٧٢هـ / ١٢٧٢م : لتاريخ الكبير ، ص ١٢٧ ؛ الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥م ، ج ٤٠ ، ص ١١١٧ .
- (27) - ولهم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٢١١ - ٢١٢ ؛ وانظر أيضا Friedman: Captivity and Ransom in the Latin Kingdom of Jerusalem, Leiden, 2002, p.81
- (28) - ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٧ ؛ أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ١٠٣ ؛ ول ديورانت : مرجع سابق ، مج ٨ ، ص ٢٨ ؛ وانظر أيضا Baldwin: « The Decline and fall of Jerusalem, 1179-1189 », In : A History of the Crusades, volume. I, ed. by: Setton, London, 1969 , p.617 ; Lev: op. cit, p. 24; Lamp: The Crusades The Flame of Islam, London, 1930, p.80.
- (29) - عن حاجة الفرنجة لتكديف تعامل المسلمة ، انظر : سعيد الببشايي : الاستيطان الفرنجي في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها ١٠٩٩ - ١١٨٧م ، ضمن كتاب بحوث في تاريخ العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٩١ ؛ راجب حامد البكر : الاستيطان الفرنجي في القدس ، ضمن مؤتمر بلاد الشام ، نوفمبر ١٩٩٩م ، ج ٢ ، ص ٦٢١ ؛ حسين محمد عطية : « المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام » ، حوليات كلية آداب عين شمس ، مج ٢٧ ، العدد ٢ ، ١٩٩٩م ، ص ٦٧ ؛ عبد المجيد بهيني : أوضاع المسلمين

تحت الإدارة الصليبية من خلال رحلة ابن جبير ، النصوص التاريخ لواقع التاريخي
، مجلة التاريخ العربي ، العدد ١١ ، صيف ١٩٩٩م ، ص ١٩٠ ، ونظر أيضا
Mayer : «Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of
Jerusalem», In: Problem des lateinischen Königreichs
Jerusalem, ed.by:H.E. Maye, London, 1983, p.180.

- (30) - راسيمان : الحملات الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ .
(31) - تقي الدين أحمد بن علي المازري ، ت : ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م : السلوك لمعرفة دول
الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ،
١٩٩٧م ، ج ١ ، ص ٤٧٧ ، ولهم السوري ، الحروب الصليبية ، ج ٢ ،
ص ٢٢٢ .
(32) - ورد في الكتاب المقدس " القتل كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً
بمضاجعة " عد ٣١ : ١٧ .
(33) - فوشية الشارترى : مصدر سابق ، ص ١٢٢ .
(34) - برونيج : مرجع سابق ، ص ١٨٠ .
(35) - قاسم عبده قاسم : المسلمون وأوروبا التطور التاريخي لصورة الآخر ، عين للدراسات
، القاهرة ، ٢٠٠٩م ، ص ١٣٧ ، ميخائيل روتنيدج : الأعالي ، ضمن كتاب تاريخ
اوكلورود للحروب الصليبية ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات ، القاهرة
، ط ١ ، ٢٠٠٧م ، ص ٩٥٩ .
(36) - عن ضرب الإمام ، انظر : ناهلا محمد عبد النبي : المسلمون في مملكة بيت المقدس
الصليبية ، مجلة بحوث كلية آداب الملوقية ، العدد ٢٤ ، يناير ١٩٩٦م ، ص ٧٩ ؛
سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة
العربية ، القاهرة ، ١٩٩٢م ، ص ١٤٩ .
(37) - أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن محمد ابن جبير ، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م :
رحلة ابن جبير ، ضبطه ووضع فهرسه : محمود زينهم ، دار المعارف ، القاهرة ،
٢٠٠٠م ، ص ٢٤٤ ، علي السيد : العلاقات الاقتصادية ، ص ٦٦ ، محمد عبد الله
المقدم : الجهود التبشيرية للكنيسة الكاثوليكية في عصر الحروب الصليبية ، رسالة
دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٠٠١م ، ص ١٧٦ .
(38) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٣٤ ، عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ،
ص ٥١٧ .
(39) - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ريمولجيل : تاريخ الفرنجة غزاة
بيت المقدس ، نقلة إلى الإنجليزية جون هيوم هيل و لوريتال هول ، نقلة إلى
العربية : حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجمعية ، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٩٩م
، ص ١٦٣ ، ٢٤٧ ، بطرس تونيبود : الرحلة إلى بيت المقدس ، نقلة إلى العربية

وعلى عليه، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠١م،
ص ١٨٤، ٢٥٧، ٣١٨؛ فؤديه الشاذلي : مصدر سابق، ص ١٢٨؛ وانظر
أيضاً

Hay : op. cit, p.4.

(40) - قيسارية : مدينة على الساحل الفلسطيني ، تقع بين مدينتي يافا وحيفا ،
الحوي : مصدر سابق ، ص ٤ ، ص ٤٦١ .

(41) - فؤديه الشاذلي : مصدر سابق ، ص ١٧١ ؛ حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ
قيسارية الشام في العصر الإسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠
م، ص ١٧٢ ؛ علي السيد : العلاقات الاقتصادية ، ص ١٩ ؛ محمود محمد الحوي :
الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد
(عصر الحروب الصليبية) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م ص ٨٧ ؛ وانظر
أيضاً

Mayer : op. cit, p . 187; Hay : op. cit, p.8.

(42) - مؤيد الدولة أبو مظهر أسامة بن منذر بن مرشد الكتاني الشوزي ، ت :
٥٨٨هـ/١١٨٨م : الاعتبار ، حرره : أوليب حتى ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ،
١٩٨١م، ص ١٤٠ ؛ جان ريتشارد : « وضع المرأة في الشرق اللاتيني » ،
ترجمة وتحرير : حسن عبد الوهاب حسين ، ضمن مقالات وبحوث في التاريخ
الاجتماعي للحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ص
١٦٤ ؛ عطية : المسلمون ، ص ٧٧ ؛ علي السيد : العلاقات الاقتصادية ، ص
١٦٥ ؛ سهر محمد إبراهيم نعيم : التأثيرات الحضارية المتبادلة بين المسلمين
والصليبيين في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، ضمن
ندوة العرب وأوروبا عبر العصور ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، حصاد (٧)
١٩٩٩م ، ص ١٨٥ ؛ وانظر أيضاً

Hussein : Knowledge of Arabic in the Crusader States in the
twelfth and thirteenth Centuries, Journal of Medieval History,
Volume 25, Number 3, September 1999 p.208, Holmes :
«Life Among the Europeans in Palestine and Syria in the
Twelfth and Thirteenth Centuries, » in : A History of the
Crusades, volume, IV, ed. by : Setton, London ,1975, p . 22
، Lev : op. cit, p . 17..1

(43) - حسين محمد عطية : مجلس ليلس ٢٣ يناير ١١٢٠م * ولحوال مملكة بيت
المقدس الصليبية ، حولية التاريخ الإسلامي والوسط ، مج ١ ، ج ١ ، ٢٠٠٠ /
٢٠٠١م ، ص ٥٠ ؛ أحمد رمضان أحمد : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في

عصر الحروب الصليبية ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ٩١.

(44) - ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٢٩٣ ؛ يوشع براور : عالم الصليبيين ، ترجمة وتعليق : قسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٩م ، ص ١١٥ ؛ علي السيد : العلاقات الاقتصادية ، ص ٢٠ ؛ الحويري : مرجع سابق ، ص ٢٤٣ ؛ سبهر نعيم : مرجع سابق ، ص ١٨٩ .

(45) - الأكارب : قلعة وقعة بين حلب ولسطكية ، وهي إلى حلب أقرب ، انظر : الحموي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٨٩ .

(46) - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ؛ وانظر أيضاً
Azhari: The Salguqs of Syria, Berlin , 1997, p.130.

(47) - ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٣ .

(48) - المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ؛ يونس : مرجع سابق ، ص ٤٤ .

(49) - ابن منذ : مصدر سابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ؛ عوض : دراسات التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ، ص ١٧٢ ، وانظر أيضاً Friedman: Captivity , p 84

(50) - ابن منذ : مصدر سابق ، ص ١٢٥ ؛ وانظر أيضاً
Friedman: aptivity , p , 84.

(51) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ ؛ الراسبيدي : الحملات الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥١٤ ؛ وانظر أيضاً

Stevenson: The Crusaders in the East, Beirut, 1968, p.242,

Hindley : Saladin, London, 1976 , pp. 132- 133.

(52) - مؤرخ مجهول : نيل ولیم للصوري ، ترجمة : حسن حشيش ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص ١١١ ؛ جيمس رستون : مقاتلون في سبيل الله .. صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة ، تعريب : رضوان السيد ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ص ١٢٦ ؛ وانظر أيضاً
Lamp ; Islam, p.79.

(53) - مذكرات جوناثان : القديس لويس حياته وحملاته علي مصر والشام ، ترجمة وتعليق : حسن حشيش ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٤٩ .

(54) - محمد سيد كيلاني : الحروب الصليبية وأثرها على الأدب العربي في مصر والشام ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٩م ، ص ١٢٧-١٢٨ ؛ عاشور : عماليك ، ص ١٤٨ .

(55) - فايز نجيب أمكندر : نيكيتاس خونياتس واعترافه بتسليم المسلمين وبيبرية الصليبيين قراءة نقدية لتجاوزات الحملة الرابعة سنة ١٢٠٤م / ٦٠٠هـ ، ضمن كتاب صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، المكتبة العلمية ، المتصورة ، ص ٩٥ .

- (56) - عن مخاوف النساء اليهوديات من الاغتصاب، انظر : محمد مؤنس عوض : « الإضطهادات الصليبية لليهود في حوض الراين بألمانيا عام ١٠٩٦م / ٤٩٠هـ من خلال حولية الربى اليعازر بن ناثان » ، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م ، ص ١٩ ، ٢٣ ، قاسم عبده قاسم : الإضطهادات الصليبية لليهود أوروبا من خلال حولية يهودية القاهرة ومقارناتها ، ضمن ندوة التاريخ الإسلامي والوسط ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، مج ١ ، ص ١٥٠ للمقدم : مرجع سابق ، ص ٣٥ .
- (57) - كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : أحمد الشيوخ ، سونا للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٥م ، ص ٢٨٧ ، هانس إبرهارد ماير : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق : عماد الدين خانم ، منشورات مجمع الفاتيكا للجامعات ، باريس للنشر ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٠ .
- (58) - حسن عبد الوهاب حسين : « الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام » ١٠٩٥ - ١١٨٧ / ٤٨٨ - ٥٨٣ هـ ، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة الأوربية في العصور الوسطى ، (المجتمع الصليبي في بلاد الشام) . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ م ، ص ١٤ ، ماير : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٠ .
- (59) - راسميمان : الحملات الصليبية ج ٢ ، ص ١٩٦ .
- (60) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ : عبد الوهاب : الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي ، ص ٣٩ .
- (61) - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتاتكي ، ت : ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة وزارة الثقافة ، القاهرة ، (د ت) ، ج ٩ ، ص ٢٢٨ .
- (62) - سهير نعنوع : مرجع سابق ، ص ١٨١ .
- (63) - عن ذلك ، انظر :

Cate : op. cit, p. 357.

- (64) - وإيم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ١٢٥ عبد الوهاب : الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي ، ص ٣٠ وانظر أيضاً Friedman: Women , p 83.
- (65) - راسميمان : الحملات الصليبية ، ج ٣ ، ص ١٨١ وانظر أيضاً Pernoud : op. cit., p. 284.
- (66) - عاتة : مدينة في أعالي الفرات، وتقع حالياً في غرب العراق، عنها، انظر : الصوي : مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٧٢ .
- (67) - ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٧٠ .

- (68) - ابن العديم : زبدة الخطب ، ص ٥٠٤ ، المقرئزي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٠٦ .
- (69) - علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي ، ت : ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م :
الحاجي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني تحقيق :
الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩ م ، ج ٩ ، ص ٢٤٤ ؛ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
الحراني ، ت : ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م : كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ،
تحقيق : عبد الرحمن محمد النجدي ، مكتبة ابن تيمية ، (د ، ب) ، ج ١٨ ، ص ٣٤٥ .
- (70) - عن ذلك ، انظر :
Prawer : « Social Classes in the Crusader States: The "Minorities" ,
» in : A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton,
London ,1985, pp.111- 112.
- (71) - قاسم : المسلمون وأوروبا ، ص ١٢٤ ، وانظر أيضاً
Pernoud : op. cit., p. 31.
- (72) - راسيمان : الصلوات الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .
- (73) - لسكنر : مرجع سابق ، ص ٩٢ ؛ ديورانت : مرجع سابق ، مج ٨ ، ص ٥١ - ٥٢ .
- (74) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٠١ ، علي السيد : العلاقات الاقتصادية ، ص ١٩ .
- (75) - ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١١٥١ ، وانظر أيضاً
Pernoud : op. cit., p. 173.
- (76) - ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٨٢ ؛ ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧ ، وانظر
Kedar : Crusade and Mission, New Gersey, 1984, p.153. أيضاً
- (77) - عن آليات وأساليب تحرير الأسرى والأسيرات ، انظر : المقدم : مرجع سابق ، ص ٢١٤ ، وانظر أيضاً
- Friedman : Captivity , p. 77 : Prawer : op. cit, p.111.
- (78) - وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢١ ، وانظر أيضاً
Runciman : op. cit, p.291.
- (79) - وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٢١١ - ٢١٢ ؛ عاشور : الحركة
الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ، وانظر أيضاً
- Friedman : Captivity , p. 81 : Duggan : op. cit, p.88 ;
Lamb : The crusades, Iron Mien & Saints, London, 1934, P.246.
- (80) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٤٠١ ؛ ديورانت : مرجع سابق ، مج ٨ ، ص ٣٨ ، وانظر أيضاً
Baldwin : op. cit, p.617 : Lamp : Islam, p.80.

- (81) - أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ٤ : ص ٤٢.
- (82) - ولیم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ ؛ فاطمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٢١ ؛ علي السيد : العلاقات الاقتصادية ، ص ١٢٧ ؛ رالسيمن : الحملات الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٥.
- (83) - عن فداء كوهين اليهودي لزوجته ، انظر :
Friedman: Captivity , p . 81- 82.
- (84) - ولیم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥.
- (85) - ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٧١.
- (86) - ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧.
- (87) - عن دور الأترياء المسلمين في الفداء الأسرى والأسيرات ، انظر : ابن منقذ : مصدر سابق ، ص ٨٢ - ٨٣ ؛ ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٢١٤ ؛ صلاح الدين خليل ابن أبيك الصفي ، ت : ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م : الوالي بالولايات ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠م ، جـ ١٨ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٨ ؛ وانظر أيضاً
- Selim : « Captives Waqf in Syria and Egypt (491-589h/1097-1193ad) , » in : La liberazione del 'cattivi' tra cristianità e islam : oltre la crociata e il gihad, tolleranza e servizio umanitario, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000, p.560..
- (88) - عن جهود الأغنياء الصليبيين ، انظر :
Vasilescu : « Even more special Sons ? : the Importance of the Order of the holy Trinity to Pope Innocent III, » in : La liberazione del 'cattivi' tra cristianità e islam : oltre la crociata e il gihad, tolleranza e servizio umanitario, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000, p . 722.
- (89) - عن دور الحكام المسلمين في الفداء الأسيرات ، انظر : أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٧١ ؛ ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٨٢ ؛ ابن جبير : مصدر سابق ، ص ١٢١ ؛ وانظر أيضاً : Lev: op. cit, p . 27 ; Selim : op. cit, p.561.
- (90) - عن دعم الحكام المسيحيين للمنظمات المهمة بالأسرى ، انظر : المقدم : مرجع سابق ، ص ١٢٢ ؛ وانظر : Vasilescu : op. cit, p . 722.
- (91) - الخواتين جمع خاتون، وهي المرأة الجليلة الشريفة، ويُطلق المغول والترك هذا اللقب على زوجات وبنات الملوك والأمراء والسلاطين ، عن ذلك ، انظر : محمد بن

وعقوب الغرور آبادي ، ت : ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م : القاموس المحيط ، (٥ ب) ، ج ١ ، ص ١٥٤٠ .

- (92) - ابن جببر : مصدر سابق ، ص ٢١٤ .
- (93) - ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧ .
- (94) - عن الأوقاف ودورها في تحرير الأسرى ، انظر : أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٠٤ ؛ ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧ ، المقرئ : مصدر سابق ، ج ٧ ، ص ٩٩ ، وانظر أيضاً
- Selim : op. cit, pp.559 - 570. Lev: op. cit, p. 27.
- (95) - شمس الدين السرخسي ت : ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م : المبسوط ، دار المعرفة ، بيروت ، دت ، ج ١٠ ، ص ١٣٩ ؛ عبد الطيف عابر : أحكام الأسرى المهابا في الحروب الإسلامية ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦ م ، ص ٣٨٨ ؛ أنس ١ : ١١ ، وحث الإسلام على الفتك بالرقاب ، قال تعالى " فَلَا تَقْتُلُوا الْعُقَبَةَ وَمَا كُنَّا بِمَا نَعْبُدُ فَكَرِهَ رَقَبَةً " سورة البلد ١١ : ١٣ .
- (96) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ ، عثور . شجرة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ، وانظر أيضاً
- Duggan : op. cit, pp.160 - 161; Baldwin : op. cit, p.614.
- (97) - ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٦ ، وانظر أيضاً
- Baldwin : op. cit, p.616; Lamp : Islam, p.79; Pernoud : op. cit, p. 172.
- (98) - الرسيمان : الصلوات الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ ، وانظر أيضاً
- Stevenson : op. cit, p. 341.
- (99) - الرسيمان : الصلوات الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٨١ .
- (100) - عن أسعار الجواني والأسيرات ، انظر : عاشور : العماليك ، ص ١٤٦ ؛ هاید : التجارة في الشرق الأدنى ، ج ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩١ م ، ج ٤ ، ص ٥٨ .
- (101) - فاعمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٢١ ؛ عليّة الجنزوري : مرجع سابق ، ص ٢٢٤ ؛ وانظر أيضاً Oldenbourg : op. cit, p.234.
- (102) - وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٢٣ .
- (103) - ناجلا : مرجع سابق ، ص ٨٠ ؛ سهير نعينع : مرجع سابق ، ص ١٧٦ ؛ عاشور : العماليك ، ص ١٤٧ .
- (104) - سهير نعينع : مرجع سابق ، ص ١٧٦ ؛ طي السيد : العلاقات الاقتصادية ، ص ٦٤ .
- (105) - ابن جببر : مصدر سابق ، ص ١٠٩ ، وانظر أيضاً

Small: The Crusaders in Syria and the Holy Land, Printed in Great Britain, 1973, P.78.

- (106) - ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٤٠ والنظر أيضاً
Hitti : op. cit, p.47: Pernoud : op. cit., p. 110.
- (107) - علي السيد: العلاقات الاقتصادية ، ص ١٦٥ والنظر أيضاً
Mayer : op. cit, p.187.
- (108) - ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ١٤١٧ والنظر أيضاً
Kedar : « The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries », In
: The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries, ed. by :
B.Z. Kedar, London , 1993, ,p163.
- (109) - جمة محمد مصطفى الجندى : الاستيطان الصليبي في فلسطين ١٩٢ - ١٩٠ هـ /
١٠٩٩ - ١٢٩١ م) ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١٧٦
والنظر أيضاً Friedman : Women,p.85 : Hitti : op. cit,p.49.
- (110) - عن قلة النساء الصليبيات في الشرق، انظر: جاك دي لوتري، ت :
١٢٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م : تاريخ القدس ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب
الصليبية ، جـ ٣٤ ، ترجمة: سهيل زكو ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨م ، ص
١٨٧ والنظر أيضاً
- Prawer : « Social Classes in the Latin Kingdom: The Franks, » In
: A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton,
London ,1985 , p.120.
- (111) - فوشيه الشارترى : مصدر سابق ، ص ٢٨١ عوض : دراسات التاريخ
الاجتماعي للحروب الصليبية ، ص ١٦١ والنظر أيضاً
Prawer: Franks,p.120:Lamp:Crusade,p.262:Hadia: op. cit,p.170.
- (112) - لشوية ٢١ : ١٠٠.
- (113) - عطية : نابلس ، ص ٥١ عطية : المسلمون ، ص ٨٥ والنظر أيضاً
Friedman : Captivity,pp.141 - 142: Zeitler : op. cit,p.33.
- (114) - بالاز : الحملات ، ص ٦٦ ؛ برونديج : مرجع سابق، ص ١٧٨ والنظر أيضاً
Holmes : op. cit,p.18.
- (115) - ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٠ عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم ابن شداد ،
ت : ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م : الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، حققه
: يحيى زكريا عبادة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩١م، جـ ١ ، ص
١٣١ : فاطمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٤٤ والنظر أيضاً

Hitti : « The Impact of the Crusades on Moslem Lands, » In : A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985 ,p.47.

(116) - عن الموانع الكنسية لزواج مسيحية بأهل عقيدة مخالفة، انظر : عطية : نيلس ، ص ٥١ ، سهور محمد ملهجي : المرأة الصليبية في بلاد الشام ١٠٩٨-١٢٦٨م، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٢ م، ص ٢٢٥ ، وانظر أيضاً

Zeitler : Sinful Sons, Falsifiers of the Christian Faith': the Depiction of Muslims in a 'Crusader' Manuscript, Mediterranean Historical Review, (MHR) Vol. 12, no. 2, (1997,p.33, Friedman : Captivity,p.141.

(117) - علي السيد: العائلات الاقتصادية ، ص ١٧ - ١٨ ، راسيمان : الحملات الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

(118) - ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣١٧ وانظر أيضاً Kedar : Mission,pp.153- 154.

Friedman : Captivity,p.82. (119) - عن ذلك ، انظر :

(120) - مؤلف مجهول: ديل ولهم الصوري، ص ١١١ ، وستون: مرجع سابق، ص ١٢٦ .

(121) - ابن منقذ : الاختصار ، ص ١٣٠ .

(122) - عن أم بدران الفرنجية، انظر : الصلادي ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٩١ ، محمد مؤنس عوض : الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ١٩٩٥م، ص ٢٥٢ وانظر أيضاً

Hillenbrand: The Crusades Islamic perspectives, Edinburgh, 1999,p.377.

Lamp : Crusade,p.299 : Holmes : op. cit,p.23.

(123) - عن مقتل بدران ، انظر : ابن شداد : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٢١ .

(124) - ولهم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(125) - فوشيه الشارترتي : مصدر سابق ، ص ٧١ ، حسن عبد الوهاب: قيسارية ، ص ٧٢ ، عطية : المسلمون ، ص ٩١ وانظر أيضاً

Lev : op. cit,pp.18 - 19 : Mayer : op. cit,p.187.

(126) - عن المتاجرة بالأسيرات، انظر : ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٢٠٩ ، علي السيد علي : المرأة المصرية والشامية في عصر الحروب الصليبية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م، ص ١٩ ، علي السيد: الأسرى الأجانب ، ص ١٣٠ - ١٣٦ ، عاشور : الممالك ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

- (127) - الماوردي : مصدر سابق ، جـ ٩ ، ص ١٣٥٦ : علمر : مرجع سابق ، ص ٣٣٠ - ٣٨٠ .
- (128) - عن شكوك المسلمين والنصارى واليهود بالأسيرات المتزوجات ، انظر :
Friedman : Captivity, p.83.
- (129) - عن القيود التي يفرضها القانون الكنسي ، انظر : وليم الصوري : الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .
- Friedman : Captivity, pp.82 - 83 .
- (130) - وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ وانظر أيضاً
Friedman : Women, p.83.
- (131) - وليم الصوري ، مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .
- (132) - عن كساد الزواج بالحرار عند وفرة الأسيرات والجواري ، انظر : عبد السلام الترماتيني : الرق ماضيه وحاضره ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٤ ، نوفمبر ١٩٧٩م ، ص ١٢٧ .
- (133) - عن جرائم القتل بين الأتواج الصليبيين ، انظر : محمد مؤنس عوض : الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢ - ١٣ م / ٦ - ٧ هـ ، حين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٩م / ٢٠٠٠م ، ص ١٣٤ ، وانظر أيضاً
- Holmes : op. cit, p. 26.
- (134) - اللغات ومفرداتها كان : وهي كلمة فارسية الأصل ، وتُطلق على نزل مبيت المسافرين والزحاة والتجار ، كما تُطلق أيضاً على الحوايت والمتاجر ، وأقيمت الحوايت عادةً في مغاري الطرق ومدخل المدن ، عنها ، انظر : ابن منظور : مصدر سابق ، جـ ١٠ ، ص ٣١٣ : الرازي : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٨١ .
- (135) - عن شدة عارة ودور البغاء ، انظر : عوض : الحروب الصليبية ، ص ١٣٣ : الترماتيني : مرجع سابق ، ص ١٢٧ : ريتشارد : مرجع سابق ، ص ١٦٩ - ١٨٣ : براور : عالم الصليبيين ، ص ١١٥ - ١١٨ .
- (136) - ابن تيمية : مصدر سابق ، جـ ٣٢ ، ص ٣٣٨ : شادي : مرجع سابق ، ص ٣٨ .
- (137) - عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ت : ٢٩٠ هـ / ٩٠٢ م : مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله ، تحقيق : زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١م ، جـ ١ ، ص ٢٥٥ : علمر : مرجع سابق ، ص ٣٢٠ : علي السيد : الأسرى الأجانب ، ص ١٣٦ .
- (138) - الماوردي : مصدر سابق ، جـ ١٨ ، ص ٣٠٩ : شادي : مرجع سابق ، ص ٣٨ .

- (139) - عن زواج الأسيرات وارتفاع مكثتهن، انظر : الماوردي : مصدر سابق ، جـ ١٨ ، ص ٣٠٩ ؛ فاطمة الشناري : مرجع سابق ، ص ١٤١ - ١٤٤ ؛ شادي : مرجع سابق ، ص ٢٨ .
- (140) - عن علاقة الإخوة من أبناء الأسيرات والحرائر، انظر : الكرمليني : مرجع سابق ، ص ١٣٠ .
- (141) - عن الأسيرات الصغيرات ، انظر : ولیم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ؛ راسومان : الحلات الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ - ١٨٨ .
- (142) - جمعة : مرجع سابق ، ص ١٢٧٦ وانظر أيضاً
Friedman : Women, pp.85 - 87: Hitti: op. cit, p.49.
- (143) - عن ذلك، انظر : ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٢٤٧ ؛ قوشية الشارترى : مصدر سابق ، ص ٢٨١ ؛ وانظر أيضاً
Kedar : Mission, pp. 153 - 154 : Hadia: op. cit, p. 170.
- (144) - عن تعلم فئات الصليبية للغة العربية، انظر: عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي : أثر الشرق الإسلامي في الفكر «لأوربي» الرياضي، ط ١ ، ١٩٩٤م، ص ٥١ ؛ وانظر أيضاً
Kedar : Mission, p 137 Hussein : op. cit, p.206.
- (145) - عن المصطلحات العربية في اللغات الأوروبية ، انظر : عوض : الحروب الصليبية ، ص ٣٦٥ ؛ شحوري : مرجع سابق ، ص ١٢٩ ؛ الربيعي : مرجع سابق ، ص ٥٤ - ٥٦ ؛ وانظر أيضاً
Hitti : op. cit, pp.40- 44.
- (146) - عن أبناء الفرنجيات، انظر : زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن ثوردي ، ت : ٧٤٩هـ/١٣٤٩م ؛ تاريخ ابن ثوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦م ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ ؛ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، ت : ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م ؛ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د. ت. ، جـ ١١ ، ص ٩١٤ .
- (147) - عن شعر الجهاد ، والشعر الذي يصور مصائب النساء الأسيرات، انظر : أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٣٦٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢٠ ؛ ابن تغري بردي : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ١٥١ - ١٥٢ ؛ محمد علي الهرقي : شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، دار المعالم الثقافية ، الأحساء ، ١٩٧٩م، ص ١٢٢ - ١٢٧ ؛ يونس : مرجع سابق ، ص ١٤٣ ؛ وانظر أيضاً
Hillenbrand : op. cit, pp.166- 167.
- (148) - كبلاتي : مرجع سابق ، ص ١٢٧ ؛ وانظر أيضاً
Hitti : op. cit, p.49.
- (149) - ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٤٠ ؛ الربيعي : مرجع سابق ، ص ١٤٣ ؛ وانظر أيضاً

Holmes : op. cit, p 22.

(150) - ابن منقذ: مصدر سابق ، ص ١٤٠ ، والنظر أيضاً

Lamp: Crusade, P.262.

(151) - ابن منقذ: مصدر سابق ، ص ١٤٠ ، وعن تكليف الترجمة مع البيئة الشرقية

واكتسابهم للتقاليد الطهي الشرقي، انظر : مهيوز لعون : مرجع سابق ، ص ١٨٥ ؛

الحوري : مرجع سابق ، ص ٢١٤ - ٢٤٥ ؛ براور : عالم الصليبيين ، ص ١١١

؛ يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين (مملكة بيت المقدس) ، ترجمة:

عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١ م، ص ٦١٦ ، والنظر

أيضاً

Krijnje: op.cit, p 131: Hitti: op. cit, p.45: Smal: op. cit. P.182.

(152) - جوافيل : مصدر سابق ، ص ١٤٩ .

(153) - عن خوف النساء من الأسر، انظر : ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٥ ؛ جوافيل :

مصدر سابق ، ص ١٤٩ .

(154) - عن مخاوف الناس من اغتصاب نساءهم أمام أعينهم ، انظر : أحمد بن محمد

المقري التلمساني ، ت : ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م: نفح الطيب في حصن القدس

للرطب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٣ م ، ج ٤ ، ص

٤٥٠ ؛ الإسكندر : مرجع سابق ، ص ١٦٤ .

(155) - ابن منقذ : مصدر سابق ، ص ١٤٩ ؛ عوض : دراسات التاريخ الاجتماعي

للحروب الصليبية ، ص ١٧٢ ، والنظر أيضاً Friedman : Captivity.p.84.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

القرآن الكريم - الكتاب المقدس

- ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ / ١٢٢٢م) : عز الدين أبي الحسن علي بن المكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ١٠، دار صادر، بيروت، ط ٦، ١٩٩٥م.
- ابن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) : جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتكني: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، ٦، ٧، مطبعة وزارة الثقافة، القاهرة، (د.ت).
- ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م) : أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني: كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ١٨، ٢٨، ٣٢، تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، (د.ب).
- ابن جبير (ت: ٦١٤هـ / ١٢١٧م) : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن محمد أبين جبير: رحلة ابن جبير، ضبطه ووضع لهارسه محمود رستم، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- ابن حنبل (ت: ٢٩٠هـ / ٩٠٢م) : عبد الله بن أحمد بن حنبل، ت: ٢٩٠هـ / ٩٠٢م: مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله، ج ١، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨١م.
- ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م) : أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني: كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ١٨، ٢٨، ٣٢، تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، (د.ب).
- ابن عبد الظاهر (ت: ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) : محي الدين عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر، (د.ن.)، الرياض، ط ١، ١٩٧٦م.
- ابن العديم (ت: ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) : كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي: بغية الطلب من تاريخ حلب، ج ٧، تحقيق: مهمل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.
- ابن العديم: كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي: زبدة الطلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.
- ابن منظور (ت: ٧١١هـ / ١٣١١م) : محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري،: لسان العرب، ج ١٠، ١١، دار صادر، بيروت، ط ١، (د.ت).
- ابن منقذ: مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكتاني الشيزري، ت: ٥٨٨هـ / ١١٨٨م: الاعتبار، حرره: فيليب حتى، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٨١م.

- ابن الوردي : زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي ، ت : ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م : تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦م .
- أبو شامة (ت : ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) : شهاب الدين عبد الرحمن المقدس المعروف بسأبي شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلحية ، ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، تحقيق : إبراهيم الزبيبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧م .
- الحموي (ت : ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) : ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ٢ ، ٤ ، دار الفكر ، بيروت ، (د . ت) .
- الرازي (ت : ٧٢١هـ / ١٣٢١م) : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر السرازي ، : مختار الصحاح ، ج ١ ، تحقيق : محمود خاطر ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٥٠ .
- الرشدي (ت : ٥٩٢هـ / ١١٩٦م) : أبي الحسن علي عبد الجليل الرشدي : الهداية شرح بداية المبتدى ، ج ٢ ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، (د . ت) .
- السخاوي (ت : ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ج ١١ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د . ت .
- السرخسي (ت : ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م) : شمس الدين السرخسي : المبسوط ، ج ١٠ ، دار المعرفة ، بيروت ، د . ت .
- التصفي (ت : ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) : صلاح الدين خليل ابن أبيك الصدي : الوافي بالوفيات ، ج ١٠ ، ١٨ ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وإبراهيم مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠م .
- الفيروز آبادي (ت : ٨١٧هـ / ١٤١٤م) : محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، ج ١ ، د . ت .
- الماوردي (ت : ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) : علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي : الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني ، ج ٩ ، ١٨ ، تحقيق : الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩م .
- المقرئ (ت : ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) : أحمد بن محمد المقرئ التلمساني : فتح الطوبى في حصن الأندلس الرطب ، ج ٤ ، تحقيق : إحصان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٣م .
- المقرئ (ت : ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : تقي الدين أحمد بن علي المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ٧ ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧م .

ثانياً: المصادر الأجنبية المترجمة

- أتنا كومنينا: الكساد ، ترجمة : حسن حبشي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٤م .

- أولفر أوف بادربون : الإستيلاء على دمياط ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣٤ ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥م ، ص ٧ - ١١٩ .
- بطرس توديبود : الرحلة إلى بيت المقدس ، ترجمة : حسين عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠١م .
- جاك دي فيتري ، ت : ٦٢٨هـ / ١٢٤٠م : تاريخ القدس ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣٤ ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨م ، ص ١٢٧ - ٢٤٦ .
- جوفاليل : القديس لويس حياته وحملته على مصر والشام ، ترجمة : حسن حبشي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٨م .
- ريموندجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، نغلة إلى الإنجليزية جون هيسوم هيل و لوريتال هيل ، نقله إلى العربية : حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٩٩م .
- فوشيه الشارترى : تاريخ الحملة إلى بيت المقدس (الإستيطان الصليبي في فلسطين ، ترجمة ودراسة وتعليق : قاسم عبده قاسم ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١م .
- مؤرخ مجهول : ذيل وليم الصوري ، ترجمة : حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤م .
- متى الباريسي ، ت : ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م : التاريخ الكبير ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥م .
- وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشي الهيئة العامة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ج ١ (ط ١٩٩١م) ، ج ٢ (ط ١٩٩٢م) ، ج ٣ (ط ١٩٩٤م) ، ج ٤ (ط ١٩٩٥م) .

ثالثاً: المراجع العربية

- أحمد رمضان أحمد (دكتور) : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، الجهاز المركزي للكتاب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٧م .
- جمعة محمد مصطفى الجندي : الإستيطان الصليبي في فلسطين ٤٩٢ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٩ - ١٢٩١م ، مكتبة الأجنال المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .
- حسن عبد الوهاب حسين (دكتور) :
- ١- « الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام . (١٠٩٥ - ١١٨٧ / ٤٨٨ - ٥٨٣ هـ » ، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة الأوربية في العصور الوسطى ، (المجتمع الصليبي في بلاد الشام) . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م ، ص ٣ - ٦١ .

- ٢- تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ م.
- سعيد البشراوي (دكتور) : الإسطوبان الفرنجي في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها ١٠٩٩ - ١١٨٧ م ، ضمن كتاب بحوث في تاريخ الصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤ م ، ص ٢٨٩ - ٢٢٦ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
- ١- الحركة الصليبية ، صلحه مشرفه في تاريخ الجهاد الإسلامي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦ م .
 - ٢- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٢ م .
 - سهيل زكار (دكتور) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، تأليف وتحقيق وترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٥ م .
 - عبد الحفيظ عامر (دكتور) : أحكام الأسرى السبأ في الحروب الإسلامية ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦ م .
 - عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي (دكتور) : أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي ، الرياض ، ط ١ ، ١٩٩٤ م .
 - علي السيد علي (دكتور) :
 - ١- العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٦ م .
 - ٢- المرأة المصرية والشامية في عصر الحروب الصليبية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٢ م . - عالية عبد السميع الجنزوري (دكتور) : إمارة الرها الصليبية ، سلسلة تاريخ المصريين (٢١١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠١ م .
 - فايز نجيب اسكندر (دكتور) : ليكتاس خونياتس واحترافه بتسامح للمسلمين وبربرية الصليبيين قراءة نقدية لتجاوزات الحملة الرابعة سنة ١٢٠٤ م / ٦٠٠ هـ ، ضمن كتاب صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، المكتبة العلمية ، المنصورة ، د . ت ، ص ٥٥ - ٧٦ .
 - قاسم عبده قاسم (دكتور) : المسلمون وأوروبا التطور التاريخي لصورة الآخر ، عين للدراسات ، القاهرة ، ٢٠٠٩ م .
 - محمد سيد كيلاي : الحروب الصليبية وأثرها على الأدب العربي في مصر والشام ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .
 - محمد علي الهرفي (دكتور) : شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، دار المعالم ، الأحصام ، ١٩٧٩ م .
 - محمد مؤنس عوض (دكتور) :

- ١- الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢-١٣م / ٦-٧ هـ ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٩ م / ٢٠٠٠ م ..
- ٢- « الإضطهادات الصليبية لليهود في حوض الراين بألمانيا عام ١٠٩٦م / ٤٩٠ هـ من خلال حولية الربى البعائر بن ثاان » ، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٥ م ، ص ٧ - ٥٢ .
- ٣- «دراسات التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية الصادرة في الخمس والعشرين سنة الأخيرة » ، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٥ م ، ص ١٢٩ - ١٧٧ .
- محمود محمد الحوري (دكتور) : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثنائي عشر والثالث عشر من المياد (عصر الحروب الصليبية) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م

رابعاً. المراجع المترجمة

- جان ريتشارد : « وضع المرأة في الشرق اللاتيني » ، ترجمة وتحرير : حسن عبد الوهاب حسين ، ضمن مقالات وبحوث في التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ص ١٥٥ - ١٦٨ .
- جوزيف شاخيت و كليفورد بوزورث : تراث الإسلام ، ج١ ، ترجمة : محمد زهير السموهري و حسين مؤنس ، تعليق وتحقيق : شاكر مصطفى ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٣٣ ، يناير ١٩٧٨ م .
- جيمس أ. برونديج : « الزنا (الدعارة) واختلاط الأجناس والتطهير الجنسي في الحرب الصليبية » ، ترجمة وتحرير : - حسن عبد الوهاب حسين ، ضمن مقالات وبحوث في التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ص ١٦٧ - ١٨٨ .
- جيمس رستون : مقاتلون في سبيل الله .. صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة ، تعريب : رضوان السيد ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ ، ٢٠٠٢ م .
- ستيفن راتسيمان : تاريخ الحملات الصليبية ، ٣ أجزاء ، ترجمة : نور الدين خليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٤ م .
- كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : أحمد الشيخ ، سينا للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٥ م .
- مكسيم رولنسون : جاذبية الإسلام ، ترجمة : إلياس مرقص ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٨ م .
- ميخائيل رولنيدج : الأغاني ، ضمن كتاب تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٧ م ، ص ١٣٧ - ١٦٥ .

- ميشيل بالاز : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر ، ترجمة : بشير السباعي ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٣ م.
- هانس أبرهارد ماير : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق : صداد الدين ضائم ، منشورات مجمع الفاتح للجامعات ، طرابلس الغرب ، ١٩٩٠ م .
- هايد : التجارة في الشرق الأدنى ، ج٤ : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩١ م.
- ول ديورانت : قصة الحضارة .. عصر الإيمان ، ترجمة : محمد بدران ، مج ٨ (ج١-١٥) ، (١٦) ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠١ م .
- يوشع براور :
- ١- عالم الصليبيين ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ومحمد خنيفة ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٩ م.
 - ٢- الأستيطان الصليبي في فلسطين ، ترجمة : عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠١ م.

خاصاً : الرسائل العلمية

- سهير محمد علي : المرأة الصليبية في بلاد الشام ١٠٩٨-١٢٦٨ م. رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٢ م.
- شادي إبراهيم عبد القادر : السبي في صدر الإسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة النجاح ، فلسطين ، ٢٠١٥ م.
- فاطمة عبد اللطيف سيد أحمد الشناوي : معاملة المسلمين الأسرى الصليبيين في بلاد الشام ومصر ١١٣٧ - ١٢٩١ م / ٥٣١ - ٦٩٠ هـ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٧ م .
- محمد عبد الله المقدم : الجهود التبشيرية للكنيسة الكاثوليكية في عصر الحروب الصليبية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٠١٠ م.

سادساً : الدوريات

- حسين محمد عطية (الدكتور):
- ١- « المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام » ، حوليات كلية آداب عين شمس ، مج ٢٧ ، العدد ٢ ، ١٩٩٩ م ، ص ٦٦-٩٠.
 - ٢- مجلس نابلس ٢٣ يناير ١١٢٠ م* وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية ، حوالة لتاريخ الإسلام والوسط ، مج ١ ، ج١ - ٢٠٠١ / ٢٠٠١ م ، ص ٣٦ - ٦٩ .
 - راجب حامد البكر (الدكتور): الإستيطان الفرنجي في القدس، ضمن مؤتمر بلاد الشام، ج١-٢، نوفمبر ١٩٩٩ م، ص ٦١٧ - ٦٢٧.

- سهير محمد إبراهيم لعنتي (الدكتور) : للتأثيرات الحضارة المتبادلة بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، ضمن ندوة العرب وأوروبا عبر العصور ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، حصاد (٧) ، ١٩٩٩م ، ص ١٦٩ - ٢٠٧ .
- عبد السلام الترماليني (الدكتور) : الرق ماضيه وحاضره ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٣ ، نوفمبر ١٩٧٩م .
- عبد المجيد بهني : أوضاع المسلمين تحت الإدارة الصليبية من خلال رحلة أبين جيسر ، النصوص التاريخية الواقع التاريخي ، مجلة التاريخ العربي ، العدد ١١ ، صيف ١٩٩٩م ، ص ١٧٧ - ١٩٨ .
- علي السيد علي محمود (الدكتور) : دور الأسرى الأجانب في المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، مجلة التاريخ والمستقبل بكلية آداب المنيا ، العدد ٣ ، مج ٢ ، ١٩٨٨م ، ص ١٢٣ - ١٤٨ .
- علي محمد عودة الغامدي (الدكتور) : الرؤية الأوربية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٩٩م ، ص ٥٩ - ٨٧ .
- قاسم عبده قاسم (الدكتور) : الإضطهادات الصليبية ليهود أوروبا من خلال حولية يهودية الظاهرة ومفزاها ، ضمن ندوة التاريخ الإسلامي والتوسط ، دار المعارف ، القاهرة ، مج ١ ، ١٩٨٢م ، ص ١٣٥ - ١٦٦ .
- محمد صلاح بني يونس و عيسى محمود الغزام : دور سكان الشام في مقاومة الغزو الفرنجي حتى نهاية الحملة الفرنجية الأولى ٤٩٠ - ٥٤٢هـ / ١٠٩٦ - ١١٤٦م من خلال المصادر العربية ، ضمن مؤتمر بلاد الشام ، ج ١ ، نوفمبر ١٩٩٩م ، ص ٤٢٧ - ٤٦١ .
- ناجلا محمد عبد النبي (الدكتور) : المسلمون في مملكة بيت المقدس الصليبية ، مجلة بحوث كلية آداب المنوفية ، العدد ٢٤ ، يناير ١٩٩٦م ، ص ٥٣ - ٩٦ .

سابعاً : المراجع الأجنبية

- Baldwin M.W. : « The Decline and fall of Jerusalem, 1179 - 1189 », in : A History of the Crusades, volume. 1, ed. by: Setton, London, 1969, pp. 590 - 619.
- Brandt W.I. : The Recovery of the Holy Land, New York, 1956.
- Cate J.L.: « The Crusade of 1101, », in : A History of the Crusades, volume I ed. by : Setton, London , 1969, pp.343 - 367. .
- Duggan A. : The story of the Crusades 1097-1291, London, 1963.
- El- Azhari T.K. : The Saiguqs of Syria, Berlin , 1997..

-
- Friedman Y. : « Women in captivity and their ransom during the Crusader period, » in : *Cross Cultural Convergences in the Crusader Period*, ed. by : M.E. Goodich , New York, 1995, pp .75 – 89.
 - Friedman Y. : *Captivity and Ransom in the Latin Kingdom of Jerusalem*, Leiden, 2002.
 - Gabriell F. : *Arab Historians of the Crusades*, selected and translated from the Arabic sources translated from the Italian, by: E.J Costello, New York, 1989
 - Hadia D.S.: «Natives and Franks in Palestine Perceptions and Interaction,» in: *Conversion and Continuity : Indigenous Christian Communities in Islamic Lands eighth to eighteenth Centuries*, ed. by : M. Gervers and R. J. Bikhazi, Toronto, 1990, pp. 161– 184.
 - Hay D.: « Gender Bias and Religious Intolerance in Accounts of the 'Massacres' of the First Crusade, » in : *Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in the Age of the Crusades*, ed. by : M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001, pp. 3– 10.
 - Hillenbrand C. : *The Crusades Islamic perspectives*, Edinburgh, 1999. -
 - Hindley G. : *Saladin*, London, 1976.
 - Hitti P.K.: «The Impact of the Crusades on Moslem Lands,» in : *A History of the Crusades*, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985, pp .33 – 58.
 - Holmes U.T.: « Life Among the Europeans in Palestine and Syria in the Twelfth and Thirteenth Centuries, » in : *A History of the Crusades*, volume. IV, ed. by : Setton, London ,1975, pp .3 – 35.
 - Hussein M.T. : *Knowledge of Arabic in the Crusader States in the twelfth and thirteenth Centuries*, *Journal of Medieval History*, Volume 25, Number 3, September 1999 , pp. 203–213.
 - Jeusset G. : *François d'Assise et les Musulmans*, Abidjan, 1986 -
 - Kedar B.Z. : *Crusade and Mission*, New Gersey, 1984.
 - Kedar B.Z. : « The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries », in : *The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries*, ed. by : B.Z. Kedar, London , 1993, pp. 135 – 174..
 - Krey A.C. : *The First Crusade The Accounts of Eye Withesses and Participants*, Princetan, 1958 .

-
- Krijnie G. and Others: *East and West in the Crusader States*, Ieuven, 1999.
- Lamp H.: *The Crusades The Flame of Islam*, London, 1930.-
- Lamb H.: *The crusades, Iron Men & Saints*, London, 1934.-
- Lev Y. : « Prisoners of War During the Fatimid-Ayyubid Wars with the Crusaders, » In : *Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in the Age of the Crusades*, ed. by: M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001, pp. 11-27.
- Mayer H.E.: « Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem », In: *Problem des lateinischen Königreichs Jerusalem*, ed. by : H.E. Mayer, London , 1983, pp. 175 - 192.
- Munro D.C. : *The Western Attitude toward Islam during the Period of the Crusades*, *Speculum*, Volume 6, Issue 3 Jul., 1931, pp. 329-343..
- Oldenbourg Z.: *The Crusades*, Translated from the French, by: Anne Carter, New York, 1967. .
- Pernoud R. : *The Crusades*, London, 1962 -
- Prawer J.: « Social Classes in the Crusader States: The "Minorities", » In : *A History of the Crusades*, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985, pp .59 - 115.
- Prawer J.: « Social Classes in the Latin Kingdom: The Franks, » In : *A History of the Crusades*, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985, pp .117 - 192.
- Runciman S. : « The First Crusade : Constantinople to Antioch », In : *A History of the Crusades*, volume. I, Ed. by: Setton, London, 1969, pp. 280-307.
- Selim H.A.W.: « Captives Waqf in Syria and Egypt 491-589h/1097-1193ad, » In : *La liberazione del 'cattivo' tra cristianità e Islam : oltre la crociata e il ġihād, tolleranza e servizio umanitario*, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000, pp. 559- 570.
- Small R.C.: *The Crusaders in Syria and the Holy Land*, Printed in Great Britain, 1973 .
- Stevenson W.B. : *The Crusaders in the East*, Beirut, 1968 -
- Strayer J.R. and Others: *The Middle Ages 395-1500*, New York, 1970 -

-
- Thorau P. : *The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the near East in the Thirteenth Century*, Translated by p.m. Holt London ,1992.
 - Vasilescu M. : « Even more special Sons ? : the Importance of the Order of the holy Trinity to Pope Innocent III, » In : *La liberazione del 'cattivi' tra cristianità e islam : oltre la crociata e il ġihād, tolleranza e servizio umanitario*, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000,pp. 721- 736.
 - Zeltler B. : *Sinful Sons, Falsifiers of the Christian Faith': the Depiction of Muslims in a 'Crusader' Manuscript*, *Mediterranean Historical Review*, MHR Vol. 12, no. 2, 1997 pp. 25-50.



الأمير الزبيري "عنصر المعالي كيكائوس" وكتابه قابوسنامه (قراءة تاريخية تحليلية)

د. صلاح الدين علي عاشور (*)

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وبعد...
فقد خلف لنا أسلافنا تراثاً ضخماً، وكثراً ثميناً من العلوم العربية والإسلامية، جنبر بالإجلال والإكبار. ومن هذا التراث الخالد كتاب 'قابوسنامه' لصاحبه الأمير الزبيري 'عنصر المعالي كيكائوس' وهو من الكتب التي شهرت في التاريخ الفارسي باسم 'كتب النصائح'، والتي تزخر بالروائع الفكرية الشامخة التي تقف مرفوعة الهامة أمام روائع الآداب الإسلامية.
ولما كانت قيمة أي عمل علمي مرهونة - إلى حد كبير - بما يضيفه إلى الفرع الذي ينسب إليه من إثراء، كلما كان الإسهام في تنمية مباحثه، وكشف غوامضه، عملاً جديراً بالبحث والتعقيب، لاسيما وأن 'عنصر المعالي' من الفائل الذين تركوا الحياة بعد أن خلفوا لنا أثراً خلد أفكاره، بعدما أحسن في تمثيل عصره، وأظهر ما كانوا يتعاطونه من فنون المعرفة، وما كانوا يذوقون.

ولاشك أن لكل كتاب منهجاً، ولكل مصنف معلماً، ومنهجاً يختص به، وإن شاركه غيره في بابيه، فكتب النصائح كثيرة، ولكن لا تكمل الاستفادة منها إلا بالوقوف على أفكار مصنفها باعتبار دخالها حتى تتضح عن كنه جوهرها. وكتاب هذه شهرته جدير بأن نتعرف منهجه لنقف على شهرة صاحبه، وحقيقة المادة التاريخية القابعة بين دفتيه، وبهذا لجلى تراثاً غرسه الأولون كذا واجتهاداً، وتعهده من بعدهم لحفظه وتثمينه.

وقد حاولت أن أبرز حياة هذا الرجل بمقدار ما أمنتني به المصادر، وما أسعفتني به تراجمه. وهي قصيرة بوجه عام، جعلت من الصعب التوسع في تفاصيل تطوينا صورة والية عن حياته، ولكن من خلال استقراء ما ورد في كتابه، وبعض أقواله وأرائه، وحال العصر الذي عاش فيه، أمكن الوصول إلى ما يشبه الحقيقة من شأنه، ولذلك عنيت بشرح أفكاره ونصائحه وأمانته، وحاولت الوقوف عند بعض النصوص كلما استطعت.

(*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر.

وقد بهرني من الرجل أنه كان مثلاً بليغاً لنبل الخلق، فلم تورثه مكانته السياسية زهواً ولا غروراً، لذلك لا نلمس في كتابه ما يشير إلى شيء من الفخر والكبرياء.

والمصنف لكتاب "قابوسنامه" يتبين أن صاحبه قد هاته الانحراف ابنه عن الدين، وعدم النظر في أخبار الرسول وصحابته، فأخذ ينكر عليه تلك النزعة البشرية اللاهية، فأخذ يعرض عليه نماذج خلقية رفيعة، ليعلمه آداب المعاصرة والسلوك والتقاليد، وكسب الفضائل وتهذيب الفضائل، وكيف يعيش ويحكم، وتجلت تلك التصانيع من خلال القصص التاريخية التي يستشهد بها في حكاياته، ويمكن اعتباره واحداً من الكتب ذات الأطروحات الأخلاقية.

وهكذا نرى الكتاب متنوع المعارف، لا يستغنى عنه من غشى مجالس أهل العلم، ولعل اسم النصيحة يشير في غير خفاء إلى ما يضمنه الكتاب بين لفتيه من كل ما من شأنه أن يثقف العقل، ويهذب النفس، ويكون الرجل المستطير.

وقد استمد "عنصر المعالي" مادة الكتاب من مصادر متعددة أشار إليها في مواطن متعددة من كتابه، والتي يبدو فيها رجلاً واسع الأفق لا يستكتف أن يلتقط الجوهرة من الرجل - كما يقال - فلا يضيره أن يأخذ عن الحديث سناً لحداثته، ولا عن الصغير قدراً لحصانته، ولا عن الأمة الوعكاء لجبهتها. والكتاب بصفة عامة يعد دستوراً وضعه "عنصر المعالي" في تهذيب ابنه "كياشاد" ونصحها، ليكون نبراساً له، **يرده إلى آفاق الإصلاح**، لاسيما بعدما خوى نجم الخير وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله، وصارت التفوى عاراً على صاحبها، والفضل نقصاً، وتكالب الناس على شهوات النفوس.

وإذا كان لنا أن نرد الفضل إلى ثوبه، يجب علينا ألا ننظر اقتداء "عنصر المعالي" بنصائح النبي "لقمان" لابنه، وما ورد في السياق القرآني، وكذلك الأعمال الفارسية الخالدة مثل: "شهنامة" الفردوسي، و"رسالة الصحابة" لابن المقفع، التي كانت بمثابة منتج لكل قاصد من المفكرين والعلماء الذين شادوا عليها مؤلفاتهم، حتى أوصلها هو إلى ذروتها.

وقد زادني إقبالاً على دراسة هذا الرجل أنه لم يأخذ حظاً من ضاية الباحثين، فوجدته جديراً بالدرس الواعي المتد، ورأيت أن أكتب عنه دراسة مستقلة، بلا جنوح إلى الغلو، ولا إلى التفسير، وهي أيضاً دراسة تعني باستقامة المنهج، والبعد عن الميل والانحراف في تناول الحدث التاريخي.

وعلى كل حال؛ فالدراسة تهدف إلى الغوص في شخصية الأمير "عنصر المعالي" وتحليل مبادئه التاريخية التي حوّاها كتابه "قابوسنامه"، مع تقديم فكر صاحبه على نحو أكثر رؤية وتعميقاً، والتعقيب على أفكار الكتاب من خلال استعراض بعض لصوصه، لتستبين خصائصه ومميزاته، فضلاً عن مدى قدرة الدراسة على متحنا الحقيقة التاريخية الصادقة.

ومن الله أرجو التفويق والسداد، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عصر المؤلف ومعتقداته السياسية والثقافية والاجتماعية

تميز عصر الأمير 'عصر المعلى' بخصائص ومعتقدات عديدة، تجلت في كافة جوانب الحياة، ولما كان المفكر ابن عسره، ونتاجاً من نتاجه، يتأثر به سلباً أو إيجاباً، وجب على كاشف وتوضيح لروح العصر الذي عاش فيه، لأن ذلك يعيننا على تفهم العوامل المختلفة التي صبغت عصر المؤلف بألوان خاصة، وضعت من خلال تجلياته الفكرية، وأرائه التربوية والأخلاقية، والتي تبتد في بؤنته السياسية، والجغرافية، والثقافية، والاجتماعية.

أولاً - المعتقدات السياسية:

الدولة الزيارية هي إحدى الأسر التي استقلت جزءاً من أراضي الدولة العباسية في شرق الدولة الإسلامية^(١). وتنسب هذه الأسرة الزيارية إلى رجل يدعى 'مرداويج بن زيار'، الذي بدأ نجمه في الظهور حينما التحق بخدمة الأئمة الطويين في طبرستان^(٢)، لاسيما بعد أن اعتنق هؤلاء الديانة الإسلام، عقب دخول الحسن بن علي العلوي الملقب بـ 'الأطروش'^(٣) بلاد الديلم^(٤) في حدود سنة (٢٨٩هـ/٩٠١م) وقام فيها نحو ثلاث عشرة سنة يدعو الديلم إلى ترك المجوسية واعتناق الإسلام، حتى كسبهم إلى جانيه، ثم دعاهم للخروج معه إلى طبرستان سنة (٣٠١هـ/٩١٣م) لسيطر عليها منتزعا إياها من السامانيين^(٥).

ولما مات الحسن بن علي الأطروش تنازع القيادة، وهم: 'ماكان بن كالي' و'بلي بن النعمان' و'أسفار بن شيرويه' و'مرداويج بن زيار' (وكلهم من الديلم) على إمارة الجيش^(٦)، ولاسيما بعد أن قام 'الحسن بن القاسم' (خليفة الأطروش) بتصفية سبعة من قادة الديلم (لشككه في نواياهم تجاهه) مما حمل الباقيين على الفرار، وتشكيل جيوش خاصة بهم^(٧).

وقد عرف هؤلاء الديلمية بروح المغامرة العسكرية، فأخذوا يتغلغلون إلى احتلال مناصب عسكرية لهم في ظل الإمارة العلوية التي كانت تحتضر آنذاك^(٨).

ولما قتل 'بلي بن النعمان' الديلمي (وهو أشهرهم) وهو يقود جيش الديلمية ضد الإمارة السامانية، تولى مكانه 'ماكان بن كالي' القيادة، ولكن أحد فواده 'ماكان' ويدعى 'أسفار بن شيرويه' خرج عليه، وتعاون مع قائد آخر وهو 'مرداويج' فاحرز نصراً مؤزراً ضد 'ماكان'^(٩). ولكن سرعان ما وشب مرداويج على 'أسفار' وقتله عام (٣١٦هـ/٩٢٨م) وملك البلاد، مؤسساً لأسرته إمارة في 'جرجان'^(١٠) و 'طبرستان' و 'همدان'^(١١) و 'أصفهان'^(١٢) و 'جنوبي بحر قزوين' أو ما يسمى 'بحر الخزر'. وحكمها هذه البلاد باسم الخليفة العباسي^(١٣). وكانت للثغرة الأساسية في حكم 'مرداويج بن زيار' أن الجيش الزياري كان يتكون من عدة عناصر رئيسية، منها: الجبل، والديلم، والأكراد، وكان من تعدد عناصر الجيش واختلاف كل عنصر عن الآخر في اللغة، والوطن، وتفضيل بعض العناصر على الأخرى، أثر واضح في قيام بعض النزاعات الداخلية، حيث فضل 'مرداويج' عنصر الديلم والجبل على غيرهم، مما أدى في النهاية إلى قتله على يد غلمائه الأتراك^(١٤).

وبعد مقتل 'مرداويج' أخذ شأنهم يعظم لاسيما في عهد أخيه، وخليفته 'وشمكير بن زيار' (٣٢٣-٣٥٦هـ/٩٣٤-٩٦٦م) ويقال إنه ركب فرساً وشبَّ وهو غافل عنه، فسقط

ميتا^(١١). فخلقه ابنه 'قابوس بن وشمكير' (٣٥٦-٤٠٣هـ/٩٦٦-١٠١٢م) وكان كاتباً وشاعراً^(١٢). وفي عهده تعرض سلطان الزياريين إلى خطر شديد، عندما علا شأن الأمراء البويهيين الذين تطلعوا إلى أملاك الزياريين، حتى اتحصر ملك بني زيار في 'جرجان' وطبرستان.

وفي أيام 'قابوس بن وشمكير' أغار 'عصدة الدولة' البويهية على أملاك الزياريين سنة (٣٧١هـ/٩٨١م) وانتزعتها من يد قابوس، ولكن قابوس عاد واستردها سنة (٣٨٨هـ/٩٩٨م) بمساعدة السامانيين^(١٣)، ووسع من ملكه حتى إله ضم بلاد 'جيلان' (كيلان). ولم يلبث 'قابوس' أن عتا وتجبر في أواخر إمارته، فأجمعت حاشيته على خلعه، وأجبرت ابنه 'منوچهر' (٤٠٣-٤٢٦هـ/١٠١٢-١٠٣٤م) أن ينزل على إرادتها، وحبس قابوس في إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد^(١٤).

وقد ازدهرت السنوات التي أعقبت وفاة 'قابوس بن وشمكير' بالاضطرابات بين أبناء البيت الزيارى، من أجل الوصول إلى سدة الحكم.

والواقع أن عصر 'قابوس' كان بمثابة حد فاصل بين عصرين: عصر القوة، وعصر الضعف وللتفكك، فهذا 'منوچهر بن قابوس' يسارع إلى توطيد علاقاته بالسلطان 'محمود الغزنوي' ويعد معه معاهدة صلح ذليلة استرضاء للغزنويين^(١٥)، فأتاحت فرصة للتدخل في شؤون الإمارة الزيارية، وفرض هيمنتهم عليها، فضع استقلالها وسط هذا الزخم من التنازلات، والتي أدت بها في النهاية إلى الضعف ثم الانهيار^(١٦). ولم يلبث أن توفي 'منوچهر' فخلقه ابنه 'أوشروان' (٤٢٦-٤٣٤هـ/١٠٣٤-١٠٣٨م) الذي استمر في حكم بلاده موالياً للغزنويين^(١٧). وكانت أمواج السلاجقة^(١٨) قد بدأت في مذهب، ولم يستطع أحد وقفها، فاستولوا على جرجان، وطبرستان سنة (٤٣٣هـ/١٠٤١م) من يد 'أوشروان' الزيارى الذي لم يحرك ساكناً أمام جحافل القوات السلجوقية الفتية^(١٩).

ومنذ ذلك التاريخ؛ ظل الأمراء الزياريين يحكمون بتفويض من السلاجقة، ويقال إن آخر أمراء هذه الأسرة، وهو كيلان شاه بن عنصر المعالى كيكافس (ابن صاحب قابوسنامه) الذي اتحصر حكمه في مدينة 'جيلان' حتى خلعه السلطان 'ملك شاه بن ألب أرسلان'^(٢٠)، ثم لم يلبث أن توفي سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م)، وبوفاته انقضت الأسرة الزيارية كان لم تكن شيئاً مذكوراً.

ثانياً - المعطيات الجغرافية:

إذا كان يقال إن الإنسان ابن بيئته، فمن الجائز أن يقال أيضاً إنها أبوه، ولا تصدق هذه المقولة بشقيها على أحد بقدر ما تصدق على 'عنصر المعالى' الأديب الفيلسوف، فهو ابن للظرواف الاجتماعية، والسياسية، والعرقية، والجغرافية، التي حكمت بيئته وعصره، التي لم يستطع أن يكون بمنأى عنها، فقد كان لها بالغ الأثر في تشكيل نفسه وتكوين شخصيته، وظهر ذلك جلياً من خلال كتابه 'قابوسنامه' ومن خلال القضايا التي تناولها في نصائحه.

وتعتبر منطقة الديلم (أو بلاد جيلان) هي الموطن الأصلي للزياريين^(٢٦)، ويصفها ياقوت الحموي بقوله^(٢٧): "بلاد واسعة يشتملها هذا الاسم" ومن أشهر مدنها 'طبرستان' والتي تعرف أيضا بـ 'مازندران'^(٢٨).

ولقد قضى عنصر المعالي عمره في مدينة طبرستان التي شهت - على مر التاريخ - بمنعتها وقوة شكيمة أهلها وحصانة موقعها الجغرافي الذي جعل منها دائما جحر حشرة أمام القوات الإسلامية في عصري الأمويين والعباسيين، من أجل إقرار نفوذهم هناك^(٢٩)، ونقل الأمر على هذا الحال حتى استولى عليها 'حسن بن زيد الطوسي' المعروف بالداعي الكبير سنة (٢٥٠هـ/٨٦٤م) وطرد منها عمال الخلفاء العباسيين^(٣٠).

وشهت طبرستان بطبيعتها الساحرة، وخصب أراضيها، وفرة مياهها، وكثرة ثمارها وخيراتها، وصناعاتها الزاهرة، ومنها العامرة، وتجارها الواسعة^(٣١).

ويصف ابن أسفنديار^(٣٢) طبيعة طبرستان بقوله: 'منالها معتدل، وشتاؤها خريف، وصيفها ربيع، وكل أرضها رياض وحدائق، لا تقع العين فيها إلا على الخضرة، ومنها وقراها متمنة بعضها ببعض، وهوأها معتدل لطيف...'

كل هذا الرخاء جعل من طبرستان موطناً لأهل العلم والفضل. والشتعالي^(٣٣) الذي كان يحمل إجلالا عبقيا لتلك المدينة جعله **بخصها بفصل في وتيمنه** بعنوان: 'فصل في ذكر شعراء طبرستان' يذكر فيه 'قبوس بن وشمكير' جد مؤلف قبوسنامه.

كما أن صاحب كتاب تاريخ طبرستان^(٣٤) نراه يتحدث عن أهل العلم والفضل من شعراء وكتاب وزهاد وأطباء وحكاماء، مع ذكر أسماء الكثير منهم وتبدأ من سيرهم وأخبارهم.

و'جرجان' مدينة شهيرة وصفها ياقوت^(٣٥) بقوله: 'مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، وهي أكبر مدينة بنواحيها، وهي أقل ندى ومطرًا من طبرستان، وأهلها أحسن وقارا، وأكثر مروءة ويسارا... وخرج منها خلق من الأنباء والعلماء والفقهاء والمحدثين، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي...' حتى وصفها البعض بأنها جنة الدنيا^(٣٦).

ولاشك أن هذه البيئة كان لها أكبر الأثر في ظهور كثير من الألفاظ الذين لا يشق لهم غبار في الفكر، والثقافة، واللغة، بل وفي كل فن من فنون المعرفة. وكان الأمير 'عصر المعالي' رائدا من الرواد الذين ولجوا أبوابها، بعد أن وجد الأرض مهددة، وللزوع مختفرا، والشجرة المورقة بدأت تؤتي ثمارها حلوة المذاق. وبالرغم من تربيته على كرسي الإمارة، إلا أنه ناله من علو المكانة، ورفعة الشأن الكثير؛ لأنه كرس حياته للدرس والتحصيل، والتزود بالعلم.

كل هذه العوامل ساعدت الرجل على ظهوره كشخصية صليبية قوية، استطاعت أن توفق بين العلم والعمل، وتكون فكره وثقافته، وهو ما ظهر جليا في مؤلفه.

ثالثاً - المعطيات الثقافية:

ورث القرن الخامس الهجري جهود أربعة قرون بنهت الطعام في الدرس والتحصيل والإنتاج، وتعددت منابع الثقافة بين عربية خالصة، تتمثل في الكتب التي ترجمت عن اليونانية والفارسية والهندية، وثقافة تجمع بينهما في إنتاج هؤلاء الذين جمعوا بين الثقافتين. كما ورث المذاهب الدينية والعقيدة؛ من أهل سنة يتخذون القرآن الكريم والسنة النبوية إماماً لهم، ومعتزلة يحكمون العقل في مسائل العقيدة، وأشاعرة يحاولون أن يوفقوا بين السنة والعقل، وروافض. وكثيراً ما كان يحتدم للزجاج بين المعتنقين لهذه المذاهب.

وإذا كان تاريخ تلك الفترة مصبوحاً بالنماء، إلا أن كثيراً من العلماء رأى أن الحياة الهائلة إنما تكون في ظلال العظم؛ فأخلص لهم، وعكف عليها؛ ولذلك حفظ لنا التاريخ أسماء كثير من العلماء المخلصين في فروع العلم المختلفة في ذلك الوقت^(٣٧).

وإذا يبدو غريباً أن تزدهر العلوم والآداب في عصر سادته الفتن والفتائل، وظلّت عليه أحداث عصفت بالوحدة السياسية، بيد أن الوضعين السياسي والثقافي يختلفان في كثير من الأحيان، ولا يحدث السجام بينهما، فعلى الرغم مما ساد من فوضى واضطراب سياسي، فإن الأمر كان على العكس تماماً بالنسبة للحياة العلمية، إذ كان من العصور التي ازدهرت فيه العلوم، وانتشرت الثقافة^(٣٨).

وكانت الدولة الزيرية قد شهدت في عهد الأمير تميم المعالي قابوس بن وشمكير (جد المؤلف) نشاطاً ثقافياً وأدبياً واسعاً، وذلك بفضل تشجيعه للعلماء والشعراء، لذا فقد كان بلاطه يزخر بالكثير منهم، هذا في الوقت الذي كان فيه قابوس شاعراً ماهراً، وكتابتها بارعا، له في النثر العربي روائع، ورسائله في البلاغة في مرتبة رسائل العرب.

وعلى الرغم من كونه غير عربي، ولا ينحدر من أرومة عربية، إلا أنه له نظم ونثر بالعربية، ولم يكد ينظم بالفارسية إلا أبياتاً معدودات، فاستحق بذلك أن يعتبر من شعراء العربية وكتابتها^(٣٩).

وقد أعجب مؤرخوه بعلمه وخلقه، إذ لم تملع المعاصرة بينه وبين الثعالبي^(٤٠)، أن يعترف بشدة إعجابه بقابوس، والذي كان يحمل إجلالاً عميقاً له، حتى يصفه بأنه كان أدبب الملوك، ومليك الأدباء^(٤١). ويقول في حقه في يثيمته: "أنا أختم هذا الجزء بذكر خاتم الملوك، وغرة الزمان، وينوب العبد والإحسان، ومن جمع الله سبحانه وتعالى إلى عزه بسطة العلم، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم، فأوصافه لا تترك بالعبرات ولا تسفل تحت العرف والعادات... وآن لي أن أعمل كتاباً في أخباره وسيره، وذكر خصائصه، ومآثره التي تلوذ بها عن ملوك عصره..."^(٤٢).

وكان الشعراء ينظمون فيه مدائح بالفارسية والعربية، إلا أنه كان يكره منهم أن ينشدوا تلك المدائح في حضرته، ويقول إنه لا يحب سماع الأكاذيب، وذلك لظنه بأنه في حقيقته على غير ما يذكرون في مدائحهم، فهو يتحرر من أن يخدع نفسه^(٤٣).

وكانت حاضرة الزيارين مرتاد الشعراء الذين تنفقوا عليها من كل فج ليشهدوا منافع لهم، وليرضوا ما تجوده به قرائحهم من روائع التنظم في قصور الأمراء والكبراء. والذي يدعو للإعجاب، وبين مدى ازدهار العلوم والآداب في ذلك العصر، ما كان بين الأمراء من تنافس في أن يهدي إليهم الكتاب مؤلفاتهم، وحرصهم على أن تعبر ندواتهم بالأدباء والفلاسفة. وقد امتلأ هذا العصر بتقدير الأمراء لرجال الأدب، والسعي إلى إرضائهم وخطبهم، فقد كان كل أمير يريد أن يتلوق على أقرانه وخصومه بكثرة من يحوطه من رجال العلم والأدب.

وكان من عادة الشعراء ورجال العلم والأدب في ذلك الزمان أن يتنقلوا بين قصور الأمراء وينظموا القصائد، أو يؤلفوا الكتب، ويهدونها إلى الأمراء والحكام، فنجد 'الثعالبي' يهدي كتبه إلى الأمير قابوس بن وشمكير في طبرستان مثل : كتاب 'التمهيج' والتمثيل والمحاضرة . وكذلك فعل العلامة الكبير 'أبو الريحان البيروني' ^(٤١) فقد انتقل إلى قصر شمس المعالي، وهناك أهدى إليه كتابه 'الآثار الباقية عن القرون الخالية'.

ويذكر ياقوت ^(٤٢) أن شمس المعالي قابوس أراد أن يستخلصه لنفسه، ويرتبطه في داره على أن يكون له الأسرة (أي الولاية) المطاعة في جميع ما يحويه ملكه، فأبى عليه ولم يطاوعه، ويقال إنه بلغ من منزلته عنده أنه أسكنه معه في داره، وأنزله معه في قصره ^(٤٣).

أما الأديب الكبير 'ديع الزمان الهمذاني' ^(٤٤)، فقد اتصل بالأمير قابوس أثناء إقامته بخراسان وتوصلت بينهما الرسائل، إذ كان يبيع الزمان أحد المغترفين من فضله.

وقد حفظت لنا المصادر جانب من تلك الرسائل المتبادلة منها ما كتبه ديع الزمان إلى شمس المعالي وقد ورد حضرته : " لم تزل الآمال تحدى هذا اليوم، ولا مطمح إلا حضرته الرفيعة، وسدته العريضة، وقد سررت بين إثبات النوائب، وتجشمت هول الموارد، وسحت أطراف المراحل، حتى حضرت الحضرة البهية أو كدت، وبلغت الأمنية أو زدت ^(٤٥). والواقع أن فرض الشعر ونظمه أصبح تقليدا متبعا في ذلك العصر عند حكام ذلك الزمان فمن مشهور ما ينسب إلى قابوس من شعر :

خطرات تذكراك تستثير مودتي فأحس منها في الفؤاد ديبيا

لا عضولي إلا وفيه صهبة فكان أعضائي خلقن قنوبا

ويذكر صاحب كتاب 'جهاز مقالة' ^(٤٦) أن الطبيب الشهير 'ابن سينا' كان يمارس مهنة الطب أثناء وجوده بهرجان على عهد الأمير قابوس بن وشمكير، حتى إن الناس بهرجان كانوا يحضرون إليه للتداوي.

وقد استطاع ابن سينا أثناء إقامته هناك أن يشفي أحد أقارب قابوس، فاستدعاه الأخير ناحيته ليحبر له عن إعجابه بمهارته، ثم استبقاه في بلاطه مكرما، وفي أثناء إقامته بهرجان انتهى ابن سينا من تأليف أجزاء عديدة من كتابه 'الغتون في الطب'.

والواقع أن ابن سينا لم يخدم الأمير قابوس، ولم يره طينة حياته، بل إن قابوس قد حبس وقتل قبل بلوغ ابن سينا جرجان، إذ يقول ابن سينا في ترجمته لحياته (نقلا عن القفطي،

وابن أبي أصيبعة): " ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى خراسان، ومنها إلى جرجان، وكان لقصدي الأمير قابوس، فالتقى في أثناء هذا القبض على قابوس وحبه في بعض اتقلاخ وموته هناك".

وعلى الرغم من أن بعض الأمراء الزياريين كانوا يعتقدون في علة النجوم، إلا أن قابوس بن وشمكير كان لا يقرب المنجمين إليه، وربما كان يطاردهم في بلاده. وتوجد لقابوس رسالة في بطلان أحكام المنجمين يقول فيها: "أعلم أن أشعث هذه العلوم هو الموسم بأحكام النجوم، إذ هو علم معلول الأصل، مختلف الأقاويل، مدخول الغرغ، مزخرف الأباطيل، ولو لم يكن الأصل وأهيا لما سمته الفلاسفة فلكنيا... وأما ما يزعمه أهل هذه الدعوى من أن الشكوك هي التي تأتي بالخير والشر لجميع البشر، لاختلاف حركاتها وسيرها في السماء، فباطل، لأن سبب وصول الخير والشر إلى الناس ظاهر، وذلك أنا نرى الإساءة والإحسان من فعل الإنسان".^(٥٠)

وبرغم من أن قابوس بن وشمكير كان أدبياً وشاعراً، ولا يعتقد في علم النجوم، إلا أنه نبغ في علم الفلك وعلوم الأرائل، حتى يقال إنه كتب في الأسطرلاب كتاباً، أعجب به الصاحب بن عباد، وأطراها أبو إسحاق الصابى^(٥١).

رابعاً - المعطيات الاجتماعية

لاشك أن الحياة الاجتماعية مرتبطة إلى حد كبير بالحيتين السياسية والعلمية، بل إن الحياة الاجتماعية كالمرآة تنعكس عليها دائماً آداب العصر، وتتفاعل معه، فيظهر لنا نتاج مترف أو خلتع أو قور أو قلق، كل ذلك نتيجة للحياة التي يحياها الشعب، والإحساسات التي تحسها الأمة.

والمعروف أن القرن الرابع الهجري هو القرن الذي انقسمت فيه الدولة الإسلامية - كما ذكرنا - إلى دويلات شبه مستقلة لكل منها أميرها ووزرائه^(٥٢) وكان أغلب الأمراء من غير العرب، فكانت لهم مجالس ذات التقاليد الخاصة المترفة^(٥٣). حتى إن الخلفاء أنفسهم في بغداد قد أخذوا ألواناً من الترف والنعيم لم يعهدها المسلمون من قبل^(٥٤).

وقد ارتقى الزياريون السلطة جنوداً مدفعهم الإجراء، لذا كان الدور الذي لعبه قادتهم في التاريخ الإسلامي عسكرياً إلى حد ما، لاسيما بعد أن اعتمدوا على بني جلدتهم من الديلم، واستندوا بعض الشيء على جماعات من الأتراك المرتزقة الذين كان استخدامهم مألوفاً آنذاك. ويبدو أن الحياة في بلاد الديلم كانت بدائية وصعبة، إذ كانت ملايتهم فقيرة ومزرعة، ويمثل هذه الفرس المحدودة، لم يكن هناك ما يثير العجب في أن تكون الحرب ديدناً لهم^(٥٥).

وشكل "الديلمة" و "الجيلايون" الخلفية القومية للدولة الزيارية، وقد أشادت المصادر العربية والفارسية في أكثر من مناسبة بمقدرة الجندي الديلمي العالية على تحمل الصعاب، كما نوهت بشجاعته وقدرته على المقاومة، بالمقارنة مع الجنود الأتراك، حتى إن "أبا الفضل بن العميد"^(٥٦) شهد لهم بالصبر على الجوع، وقبولهم بالقليل من الطعام في حال قلته^(٥٧).

ولقد كان لاختناق الديلم الإسلام تأثير فاعل في إطلاق قوتهم، وتحريرها خارج منطقة الديلم. ولأنك أن اختلاف عناصر المجتمع الزباري وتباين أصوله، ودخول كثير منهم في الإسلام، أدى إلى نمو الحضارة نموا يتطلب دارية واسعة بكثير من شؤون الحياة، من فلسفة وطب وفلك ونظم حكم وسوساسة، ولغة وأدب، الأمر الذي انعكس بالإيجاب على الدولة الزبارية التي انتشرت فيها ثقافات مختلفة لأمم مختلفة^(٥٨).

ولكن هذه الثقافات جميعا أخذت تلتقى رويدا رويدا وتمتزج بالثقافة العربية التي صبغت بالصبغة الإسلامية، وهي ما تعرف بالثقافة الإسلامية.

هذا هو العصر الذي نشأ فيه الأمير 'عنصر المعالي' فلم يكن غريبا أن يبرز اسمه، ويتفوق على أقرانه، فلا يستقر نبوغه في عصره، ولا في بيئته، بل الغريب أن يكون العصر والوطن والبيت على هذه الحالة، لم لا يظهر فيه هذا النابغ والفيلسوف.

التعريف بالمؤلف.

لم يرد في المصادر القديمة التي وصلت إلينا حتى اليوم ذكر بالتفصيل عن حياة الأمير 'عنصر المعالي' بحسب على الكثير من الأسئلة المطروحة أمام دارسيه، والغموض يكتنف الكثير من مراحل حياته، وكل ما لدينا نصوص مبشرة في هذا المصدر أو ذاك، وما هي إلا أسطر قليلة للغاية، لا تعطينا صورة نستطيع أن نستشف منها شيئا واضحا عن حياته الأولى، ومن حسن الحظ أن المؤلف استعرض لنا من أخباره بين ثلثيا كتابه، ومؤلف الكتاب هو الأمير كيكابوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار الملقب بـ 'عنصر المعالي' الذي ينتمي إلى أسرة عريقة في النسب، فنسبه يمتد إلى سلسلة طويلة من الأجداد كل واحد منهم له مكانته وشأنه، وزعامته المهيبة^(٥٩).

ومن خلال النصوص التي وردت إلينا من كتابه؛ نستطيع أن نتلمس بعض الأشياء عن تاريخ حياته تلقى الضوء على بعض مما خفي علينا عن ميوله واتجاهاته، وتكوينه العلمي، منها ما ورد في مقدمة الكتاب حينما كان يخاطب ابنه 'كيلاشاه'، ويفخر بأجداده الزباريين الكبار بقوله: 'وقد كان أجدادك دائما ملوك الدنيا، وكان جدك الأعلى الملك شمس المعالي قابوس بن وشمكير حفيد أرض فرهادان... وكان له ملك كيلان... وجدتك أمي كانت بنت الأمير مرزبان بن رستم بن شروين مصنف 'مرزبان نامه' وجدنا الثالث عشر كايوس بن قباد كان أبا أنوشيروان العادل. وأمه ابنة الملك الغازي محمود بن ناصر الدين، وكان جدي حسن فيروزان ملك الديلم، فمن قطننا، وأعرف قدر أصلك...'^(٦٠).

وهو الملك الزباري السابع الذي حكم في كيلان (جبلان) ما بين عامي ٤٤١-٤٦٢هـ/١٠٤٩-١٠٦٩م) وكان هذا الأمير على صلة كبيرة بالأسرة الغزنوية، حيث تزوج ابنة السلطان محمود الغزنوي. كما توجه إلى الهند في صحبة السلطان مسعود الغزنوي أثناء حملاته لنشر الإسلام هناك، ولذا فقد ذكر المؤلف في كتابه أنه شارك في الجهاد من أجل نشر الإسلام في كل من الهند وجورجيا وأرمينية، ولعل مشاركته في نشر الإسلام في كل من

جورجيا وأرمينية كانت أثناء توليه الحكم في كوهستان، وبعد أن تغلب عن مصاحبة الغزنويين في الهند، فقد قيل بأنه ظل مقيماً في الهند، بعد وفاة السلطان مسعود الغزنوي، مدة ثماني سنوات كان خلالها نديماً للسلطان مودود بن مسعود^(٩١).

وعلى كل حال فالأخبار المتوافرة لدينا والمتعلقة بحياة المؤلف، وفترة حكمه، ضئيلة للغاية في كتب التاريخ، كما أنه لم يشأ أن يذكر الكثير عن أخباره في كتابه قابوسنامه، بل إن أغلب المؤرخين يعرفونه بأنه مؤلف 'قابوسنامه' أكثر من تعريفهم إياه بأنه كان حاكماً وملكاً، ووسط هذا القموض لم تعرف عنه إلا القليل النادر^(٩٢).

ويجمع مؤرخوه أنه توفي سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) وله من العمر ثلاثة وستون عاماً، وأن ابنه 'كيلاشاه' فارق الدنيا سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م)، ومع ذلك فهناك رواية وردت ضمن فصول كتابه وهو الباب (الرابع والأربعون) تقول 'وبدأت هذا الكتاب سنة خمس وسبعين وأربعمائة' ولكن الحقيقة أن البداية كانت سنة (٤٥٧هـ) وليس (٤٧٥هـ)^(٩٣).

ويرى البعض^(٩٤) أن الناسخ قد أخطأ في نقل العبارة فكتب خمس وسبعين، بدل سبع وخمسين، ويعمل ذلك بحدوثه كثيراً في حياتنا اليومية. ويرجح أيضاً أن تأليف الكتاب كان بين سنتي (٤٥٧-٤٦٢هـ) وأنه توفي بعد الفراغ من تأليف كتابه بفترة وجيزة.

وإذا كنا لم نهند إلى السنة التي ولد فيها الأمير 'عنصر المعالي' إذ لم يتحدث مؤرخوه عن سنة وفاته، ولكن ربما كان ميلاده حوالي سنة (٣٩٩هـ/١٠٠٨م) على اعتبار أنه توفي وله من العمر ثلاثة وستون عاماً، وأنه توفي سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م).

بيد أن هذا شأن المؤرخين مع أقدار الرجال لا يهتمون بمولداهم، لأنهم لا يعرفون ما سيكون من أمرهم بين آلاف المولودين. حتى إذا برزوا في ميادين الفكر والفن وذاع صيتهم في الأقاليم، ومضوا إلى جوار ربهم عنوا بحياتهم، وأرخوا سنو وفاتهم، وكذلك كان حالهم مع عنصر المعالي. وعلى كل حال فإن الاهتمام بفكره وأدبياته ألفيد وأئزم من تاريخ جسده، حتى إن مؤرخيه ذكروا اسمه مقروناً باسم كتابه، فاشتهر بأنه مؤلف قابوسنامه^(٩٥).

وهو الكتاب الذي وضعه في أواخر أيامه نابعا من فكره ووجداته ؛ ليكون إماماً ومرشداً ومعلماً لإبنه أصول الحياة وسياسة الملك، ويضع بين يديه ثمار تجارب ثلاثة وستين عاماً من العلم والتعلم. وهدفه الحقيقي التأثير على عقلية ابنه كي يقبل على أفكاره، ويؤمن بها، ويعمل بمقتضاها.

ثقافته

صمت المؤرخين مطبق حول مصادر ثقافة 'عنصر المعالي'، وربما حالت الحياة الرافقة التي كان يحياها دون التعرض في كتابه لحوائث الشخصية، وذلك يدلنا على أن الرجل تنغف ثقافة ذاتية أدبية. وأغلب الظن أن ليس في حياته من غريب ينكر، وأنه طوي أيامه بين الإفادة من العلم وقرأة آثار السابقين من العلماء، وكان حبه للدرس والتحصيل يدفعه دائماً إلى الاجتهاد، وتكبد مشقة التحصيل، وتأليف كتابه القيم 'قابوسنامه' أثبت فيه أنه كان كاتباً مجيداً،

وفيلسوفاً بارعاً. ويبدو أن العلوم التي تلقاها في ريعان حياته ظلت راسخة في ذهنه حتى زمان نضجه، والدليل على ذلك أنه لما بدأ بتأليف كتابه كان قد تجاوز الخمسين من عمره - كما يعترف هو في كتابه - وكان يكتب بلا كتاب يحضره، ولا أصل يرجع إليه، بل كان يستحضر ومن ظهر قلب ما كان قد تلقاه من الثقافة منذ صباه، لاسيما وأن والده كان يجنب إليه المعلمين الذين مهدوا له طريق المعرفة بشتى أنواعها، فضلا عن تجاربه لشخصية التي أشار إليها في مواطن متعددة من كتابه.

وكان الأمير 'عنصر المعالي' مولعا بتحصيل العلم على اختلاف أنواعه، وكان منهوما بالمعارف نهما شديدا، ومن حسن الحظ أن مؤلفه هو الكثير من سماته الشخصية، وذلك من خلال التصالح التي جاءت في كتابه 'قابوسنامه'، حيث تعرفنا على بعض تفاصيل حياة المؤلف المعرفية التي لم يرد نكرها في كتب التاريخ، منها بأنه تعلم الفارسية والسباحة والرسم بالغوس في سن مبكرة بأمر من أبيه، حتى إن أباه أحضر له المعلمين لذلك الغرض^(١٦٦)، كما عرفنا أيضا أنه ذهب لأداء فريضة الحج زمن الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٦هـ/ ١٠٣٠-١٠٧٤م)^(١٦٧) وهو في سن الخمسين، إذ شكلت منعطفاً مهماً في حياته، فرزقه الله التوبة، وأعرض عن التهور والشراب، وغلب عليه الزهد والورع^(١٦٨).

وأما إلى جانب كون 'عنصر المعالي' كاتباً ذا أسلوب متميز - كما سنعرف عند الحديث عن كتابه - كان يفرض الشعر كذلك، ولكن قدرته على النظم كانت أقل بكثير من قدرته على الكتابة النثرية، ولهذا جاء شعره ركيكاً إذا ما قيس بنفساحة نثره^(١٦٩).

وهكذا ورث الأمير عنصر المعالي عن أسرته حب العلم والأدب فأكتب على النرس والتحصيل منذ صباه، وأقام على ذلك إلى آخر أيام حياته، ولما أحس بدنو أجله جمع ما حصل ووصى من تجاربه في الحياة وقدمه إلى ابنه وخليفته 'كيلاشاه' قائلا له: 'فأعرف الآن بابني أنني ذكرت من كل علم وفن ومهنة عرفتها فصلا في كل باب، وكل ما كان من عاداتي خطته جملة في أربعة وأربعين باباً من أجلك، واعلم أن هذه كانت دائماً عانيتي من وقت الشباب إلى زمن الشيخوخة، وقضيت مدة ثلاث وستين سنة من العمر بهذه السيرة وعلى هذه الوتيرة'^(١٧٠).

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال، هل كان الأمير 'عنصر المعالي' يستحق أن يطلق عليه لفظ عالم، الذي يجمع بين علوم شتى؟. والحق أنه يمكن اعتباره من المفكرين الواعين المثقفين، أو الفلاسفة الذين يتوخون البحث عن الحقيقة وربطها بالواقع. فالفرق بين ضم العالم وعلم العاصي من الناس، كما يقول أحد الباحثين^(١٧١)، هو أن العامة تقتصر على معاناة الأشياء، ولكن العلماء يحاولون أن يتعرفوا أسباب هذه الأشياء، وبهذا يمكن اعتباره رجلاً شغوفا بالمعرفة، لا يجد لها باباً إلا ولجه.

ولكن إذا أريد بلفظة 'العالم' غزارة المادة، وسعة المحصول، فهو دون ربيب بعيد عن هذا، ولكن المطلع على أبواب قابوسنامه يدرك مدى تفكير صاحبه، وروعة أسلوبه، وتصدّره بين لقائه، ومدى انعكاس قراءته التاريخية والأدبية على معطاته الثقافية، يعينه على ذلك

ذكاء قوي، وطبع سليم، ولحسن قوامة تجافت عن ابتدال العامة وإسفافها، فجاء هذا العمل كمرآة صادقة للمجتمع الإسلامي، والحضارة الإسلامية، لاسيما فترة حكم الزيلريين.

اسم الكتاب والهدف من تأليفه:

وكتاب قابوسنامه يعرف أحيانا باسم كتاب النصيحة، وقد أخذ الاسم الأول من اسم مؤلفه وهو قابوس معرب كيكافوس، أما الاسم الثاني فهو يتلقى وطبيعة الكتاب والغرض من تأليفه، وقد وردت العبارة التالية في آخر مقدمة الكتاب: "علم بعد ذلك يا بني أن كتاب النصيحة هذا، وهو هذا الكتاب المبارك، قد وضعته على أربعة وأربعين بابا" (٧٢).

ولهذا يرجح أن يكون الاسم القديم لهذا الكتاب هو "نصيحته نامه" (كتاب النصيحة) ولكن هذا الاسم توراي وراء اسم مؤلفه فأصبح يعرف باسم قابوسنامه (٧٣).

وقد ألف الأمير عنصر المعالي كتابه هذا ليكون بمثابة إرشاد ونصح لابنه الأمير كيانشاه، يحثه فيه على التحلي بمكارم الأخلاق، وأن يتهج في حياته تهجا فاضلا، بل ويجعل من نفسه قدوة له، فقد ذكر في المقدمة شكوى الأتباع من عدم امتثال الأبناء للنصح، فأراد بهذا الكتاب أن ينصح ابنه متخذاً طريق الرقي واللين والتشويق، حتى يؤثر في نفس ابنه وقلبه، لعله يمثل لنصاحته ومع ذلك فالكتاب يؤخر بالأخبار المتصلة بالأسرة الزيلرية، إذ يعتبر المصدر الوحيد الذي يقدم لنا أسبابا حقيقية عن الظروف التي عزل بسببها ثم قتل جده قابوس بن وشمكير، وكيف قتل أيضا "وشمكير بن زيار" بطريق القضاء والقتل، حينما سقط من على ظهر حصانه، عندما كان يقوم بالصيد.

ومما يعني من قدر الكتاب، أن جميع ما ورد به كان من واقع تجارب المؤلف وقراءاته وثقافته، وقد عرض علينا المؤلف أفكاره في خلط عجيب من الصنعة والبساطة، والشك والزهادة، والاستغفاف والعفاف، فراه يعالج لموضوعات الأخلاقية دون أن يتعرض لتأحياتها الروحية، فيكتفي ببيان قاعدة الصلاح والصوم حتى يقبل القارئ عليها لما فيها من نفع شخصي له. ويقول في كتابه بوجوب اتباع أحكام الإسلام، لأنه لا توجد حكومة أقوى من حكومة الإسلام، وفي رأيه أن إلزام الأغنياء بتأدية فريضة الحج يعتبر من أفضل الوسائل التي يمكن بواسطتها السياحة والتجوال في أنحاء الأرض، ويغتم حديثه عن المسائل الدينية بأن ينصح ابنه بعدم التعمق في بحث الاختلافات المذهبية، لأن كثرة الأسئلة بشأنها، لا تبلغ صاحبها إلا الشك والريبة (٧٤). ومن أبداع ما كتبه أيضا نصيحته التي نصحتها فيها بأن نقيس حالنا فيها بحال جارنا الفقير، لا بحال جارنا الغني، لأننا متى فعلنا ذلك شكرنا الله على ما وهبنا إياه من نعمة، ولا نصد الغنى على غناه وثرائه، فخرج علينا بفكر سدها النصائح، ولعمته بقاء الفكر والنظر (٧٥).

ولا نعد الحق إذا قلنا: إن الأمير "عنصر المعالي"، في كتابه هذا، كأنما فارق طفولته وشبابه، وأصبح يجنح إلى التفكير والتروي، بعدما أودع فيه صنوفا من العلوم والمعارف، من

فقه، وأدب، وتاريخ وفلسفة، وطب، وهندسة، بسط فيها أفكاره وتأملاته التي أسرف فيها إسرائفا حتى بلغت أبواب كتابه أربعة وأربعين بابا، مقلدا في ذلك الكتاب والمؤرخين العظام.

محتوى الكتاب :

كتاب "قابوسنامه" هو مزيج من معارف وعلوم مختلفة ؛ فهو كتاب أقرب ما يكون إلى السياسة ونظم الحكم؛ منه إلى علمي التاريخ والاجتماع، كأنه مستودع ضخم من العلوم والمعارف السياسية والحياتية.

وحسبنا نبذلا على دقة فكر ونظر الأمير "نصير المعالى" أنه كان أباه عاقلا مجربا حكيمًا، نهج في تربيته ولده نهجا عمليا واقعيا، ولم يفل ما كان جاريا في زمانه من هبوب ونفائص اجتماعية، ولم يسر وراء المثاليات النظرية التي لا تغير في واقع الأمر شيئا، فبصر ابنه بجانبي الخير والشر من حياته، ولم يفرض عليه، قسرا، التزام طريق بعينه، بل كان يعلم أن ابنه مثل أغلب شباب عصره، يحوم حول الممذات والشهوات، فعلمه كيف يتجنبها، مذكرا له من وقت لآخر بمضار تلك الأفعال، وأن الخير كل الخير هو في الابتعاد عنها (١٢٦).

ففي الباب الحادى عشر من كتابه؛ يحذر ابنه من الوقوع في ارتكاب الآثام، ولكنه يخلط وصيته لابنه بملحة لاذعة، فهو يحذره من أن شرب الخمر من الأمور المتهى عنها في الدين الإسلامي، ولكنه يؤكد لابنه أنه لم يستمع لتصحيحه، بقوله: "أما حديث الشراب فلا أقول تعاضى الشراب، ولا استطيع أيضا أن أقول لا تشرب، لأن الشبان لا يرجعون عن فعلهم بقول أحد، فقد قيل لى كثيرا، ولم اسمع حتى منعتنى رحمة الله التوبة بعد الخمسين" (١٢٧).

وعلى الجملة يشتمل الكتاب بعد المقدمة على أربعة وأربعين باباً أو فصلاً، كل باب منها في مطلب مستقل، مطالب ترجع في معظمها إلى تيسير دفة الحكم، والحياة الخاصة بالأشراف ومن هم على صلة بهم من أهل العلم والفضل والفضيلة، فهو مزيج من الحكم والنوادر والأشعار.

ويمكن تقسيم الموضوعات التي تناولها الكتاب إلى ثمانية موضوعات هي:

في الحكم.

في الوعظ والإرشاد.

في العلوم المتصلة بآل الحياة، والحياة الاجتماعية.

في الأخلاق والتربية.

في طلب العلم وتحصيل الفضل.

في الرياضة كالغروسية.

في الأعمال والحرف، كالتجارة والطرب والفلاحة والصناعة.

في السياسة وإدارة المملكة.

في وسط هذه الأبواب أو الفصول كان الكاتب يورد حكايات بلغ عددها إحدى وخمسين حكاية، ليوضح بها آراءه وتصانجه، وذلك بأسلوب سلس شيق، يدل على تفوق المؤلف في سرد الحكايات والقصص، فهي بلا شك لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء.

إذا تحدث المؤلف عن حكاياته ذكر ما ورد من أقوال، وأفعال، وحكم عن الخلفاء والأمراء، والسادة، وأيضا جملة من حكماء اليونان أمثال: "فيثاغورث" و "سقراط" و "أفلاطون" و "أبقراط" و "الإسكندر الأكبر"، ومن بينهم جملة من الساسانيين ووزرائهم، أمثال: "توشيروان" و "زرجمهر" و "شهر بنو" بنت يزدر الثالث التي وقعت أسيرة في أيدي العرب، وتزوجت بالصين؛ وكذلك طائفة من أقوال آل الرسول عليه السلام، كعلي، والحسن والحسين، وذكر المؤلف من الأمويين "معاوية"، ومن العباسيين "هارون الرشيد" و "المامون" و "المتوكل" و "القائم" كما ذكر طائفة من حكام فارس المسلمين ووزرائهم، أمثال: "صرو بن الثلث" و "السلطان محمود" و "السلطان مسعود" الغزنويين، و "أبي الفضل البلخي" و "الصاحب بن عباد" وأبي علي سميحور و "غفرل بك" السلجوقي و "أوشكين" و "الحسن بن الفيروزان الديلمي" و "شمس المعالي قابوس" و "شرف المعنى" وغيرهم ممن لا ينفون مبلغ هؤلاء في الأهمية ووضوح الشخصية^(٧٨).

وبذلك يستطيع القارئ في يسر وسهولة أن يتعرف على هذه الأقوال والأفعال، فضلا عن التعرف على سير الملوك وآثار السلف، ليروض نفسه على الأخذ بما فيها من سنة حسنة، وسيرة قديمة، وأدب كريم، وخلق عظيم، ويصل بها كلامه إذا حاور، وبلاغة إذا كتب. فالكتاب في مجمله مظهر راقٍ لاستراج الثقافات المختلفة، لاسيما في المشرق الإسلامي. وهو يدل على أن مؤلفه رجل متوقد الذهن، ثاقب الفكر، يمثل ثقافة عصره خير تمثيل^(٧٩). والواقع أن لكل حكاية هدفا تهدف إليه، أو مشكلة تحل في آخرها، والمعاني التي تدور حولها الحكايات هي: "المروءة" و "الأمانة" و "حب الخير" و "الشجاعة" و "الشطارة" و "الجاسوسية" و "الاحتيايل" و "العبدية" و "البلاغة" و "التفوق من الجهل" و "ادعاء العلم" وغير ذلك من المعاني الأخلاقية والحكمية الأخرى.

ويضد أشخاص الحكايات في حوارهم على الفقه والمنطق والعلوم الدينية والفلسفية، وتجارب الحياة. ويجري المؤلف خواطره وأفكاره ونظرياته على أسنتهم بهجرات في غاية الجمال والبلاغة^(٨٠). ويضع "عصر المعالي" في كتابه دستوراً في أدب الحديث ينبى عن شيء غير قليل من الحصافة وسداد الرأي فيقول لابنه: "ولا تطلبن لسانك على من يستطيع أن يطلق عليك لسانه إذا أراد، ولا تكن أبدا ذا وجهين، وابتعد عن نوى الوجهين، وخف من النمام، لأن ما يفتقه في ساعة لا يمكن رتقه في سنة، يقول الحكيم: أحصل بعشر خصال لتنجو من بلايا كثيرة، أولا: لا تحارب شخصا أقوى منك، ولو كنت محتشما وعظيما، ولا تلج مع من يكون حاد الطبع، ولا تصحب البخلاء، ولا تناظر الجهلاء، ولا تشرب الخمر، ولا تجالس النساء كثيرا، ولا تفش سرك لأحد حتى لا تذهب بماء كبريتك، وإذا أخذ عليك شخص عيبا، فاجتهد أن تبعد عن نفسك، ولا تحمل نفسك على التكلف، ولا تكن كثيرا على أي شخص، ولا تلمه أيضا، ولا تتلمس

الأخطاء لمن هم دونك، وأصلح من شأن أتباعك لأنهم ضياعك، فإذا عمرت ضياعك صنع شأنك، وإذا أمرت بشقل، فلا تأمر به شخصين، فقد قيل : لا يخلى القدر بشخصين، كما أن البيت لا يكتسب سميتين' ثم استشهد ببيت شعر قاله الشاعر "الفرغى": البيت الذى فيه سيدتان، ترى فيه التراب دائما إلى الركبتين^(٨١).

ويمكن تقسيم حكايات 'قابوسنامه' إلى ثلاثة موضوعات هي :

١- حكايات عن أشخاص مجهولين.

٢- حكايات واقعية عن كيكاس .

٣- حكايات عن أشخاص غير معروفين.

أولا - حكايات عن أشخاص مجهولين وهي :

رنيس بخارى والدرويش في الحج، الرجل وغلامه، الرجل الشيخ ، الخياط والجرة، الطراز وعابر السبيل، الشيخ والشاب، التاجر والبيع، صاحب القطيع والراعى، الملك والوزير المعزول، حكايات عن المتصوفين.

ثانيا - حكايات واقعية عن كيكاس وهي :

كيكاس وأبى الأسود، كيكاس ومجاهد الحاجب، كيكاس وتعلم السباحة، كيكاس وعادات السلطان مودود ومولك الروم.

ثالثا - حكايات عن أشخاص معروفين وهي :

الخليفة الممتوك وغلامه الفتاح، أفلاطون والرجل الجاهل، محمد بن زكريا والمجنون، خسرو برويز ووزيره بزرجمهر، هارون الرشيد والعمير، بزرجمهر والمرأة، الصاحب والفقير الشافعي والشاب العلوي، الخليفة السامون وتربة أتوشيروان، الصاحب بن عباد وضيغ، ابن مقله ونصر بن منصور التميمي، الخليفة المعتصم والرجل المجرم، النبی والمعوز في بيت عائشة، شمس المعالي والغلام الجميل، السلطان مسعود ولوشنكين، عمرو بن الليث وأزهر الحمار، شمس المعالي وعبد الله الجمالي، أحمد بن فريغون والراعى، كشكاشاف في مدينة القسطنطينية، شهربانو ابنة ملك العجم، سقراط وتلاميذه، مهذب العيار وقشرة الشامسة، أرمنة فخر الدولة والسلطان محمود، ذو القرنين ووصيته، معاوية والرجل المجرم، قاضى القضاء أبى العباس الرويانى والشجرة، فضلون بن مامان ومستشاره، فضلون وأبى البشير الحاجب، القاضي عبد الملك العكبري والعمون، الصاحب بن عباد والكتبة، السلطان محمود والخليفة القادر، الأمير أبى علي سميجور وكتابه، ربيع بن المطهر القسرى والصاحب إسماعيل بن عباد وفخر الدولة، أبو الفضل البلعمي وسهل الخجندی، السلطان طغرل بك والغرابي، السلطان محمود وأبى الفرج البستي، السلطان مسعود والمعوز المظلمة، فخر الدولة وقابوس بن وشمكير، الإسكندر ومقاتلة العدو الغافل، أبو الفضل التهمذلي العيار، الشبلى والنسيان في المسجد.

ولما كان الكتاب يحكى على شكاوى صاحبه من تناقص طاعة الأبناء لأبائهم، وحث ابنه فيه على أن يتهج في حياته تهجا فاضلا، مذكرا إياه بأنه ينتمى إلى أرومة ملكية فاضلة، كان حري بنا أن نستعرض أوراق الكتاب، وما احتوته من فصول^(٨٢).

ويتلو المقدمة محتويات الكتاب وهي على النحو التالي:

الباب الأول (في معرفة الله تبارك وتعالى).

الباب الثاني (في خلق الأنبياء ورسالتهم).

الباب الثالث (في شكر المنعم).

الباب الرابع (في إزدياد الطاعة عن طريق القدرة).

الباب الخامس (في معرفة حق الوالدين).

الباب السادس (في إزدياد الجوهر بإزدياد الفضل).

الباب السابع (عن الحسن والقبح في الكلام).

الباب الثامن (في تصالح أئوشيروان لابنه).

الباب التاسع (في الشيوخة والشباب).

الباب العاشر (في فائدة الإقلال من الأكل وتنظيم الطعام).

الباب الحادي عشر (في ترتيب الشراب وشرائطه).

الباب الثاني عشر (في الضيافة والاستضافة).

الباب الثالث عشر (في المزاج والبرد والشرطج).

الباب الرابع عشر (في العشق والحب).

الباب الخامس عشر (في التمتع بالحياة).

الباب السادس عشر (في فائدة الحمام الساخن وآدابه).

الباب السابع عشر (في النوم والاستجمام).

الباب الثامن عشر (في الصيد).

الباب التاسع عشر (في لعبة الكرة والصولجان).

الباب العشرون (في قتال الأعداء).

الباب الحادي والعشرون (في التقى وجمع المال).

الباب الثاني والعشرون (في حفظ الأمانيات والوفاء بالعهود).

الباب الثالث والعشرون (في شراء الرقيق).

الباب الرابع والعشرون (في شراء العقارات والمنازل).

الباب الخامس والعشرون (في شراء الخيول والدواب).

الباب السادس والعشرون (في الزواج وشروطه).

الباب السابع والعشرون (في تربية الأطفال).

الباب الثامن والعشرون (في اختيار الأصحاب).

الباب التاسع والعشرون (في الحذر من العدو).

الباب الثلاثون (في العفر والعقاب).
 الباب الحادي والثلاثون (في طلب العلم والفقه).
 الباب الثاني والثلاثون (في التجارة).
 الباب الثالث والثلاثون (في علم الطب).
 الباب الرابع والثلاثون (في علم النجوم والهندسة).
 الباب الخامس والثلاثون (في فن الشعر).
 الباب السادس والثلاثون (في فن الغناء والموسيقى).
 الباب السابع والثلاثون (في خدمة الملوك).
 الباب الثامن والثلاثون (في منادمة الملوك وآدابها).
 الباب التاسع والثلاثون (في الكتابة والإتشاء وآداب الكتاب).
 الباب الأربعون (في شرائط الوزارة).
 الباب الحادي والأربعون (في صفات القائد وواجباته).
 الباب الثاني والأربعون (في صفات الملك وواجباته).
 الباب الثالث والأربعون (في الزراعة والفلاحة وأصحاب الحرف).
 الباب الرابع والأربعون (في المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصلوة) (٨٢).
 ونظراً لأن كتاب قابوسنامه يضم أربعة وأربعين باباً، وإحدى وخمسين حكاية، فمنورد
 نماذج لهذه الأبواب، ونماذج أخرى للحكايات

الباب التاسع: في الشيوخة والشباب

يا بني! مهما كنت شاباً فلتكن لك راحة عقل الشيخ. لا أقول: تغل عن الشباب، ولكن
 حافظ على شبابك، ولا تكن من الشباب الخامل، فالشباب الحصيف ما أعظمه، فقد قال
 أرسطاطليس: الشباب شعبة من الجنون، وكذلك لا تكن من الشباب الجاهل، فالبلاء لا يتولد من
 الحصافة وإنما يتأتى البلاء من الجهل، وخذ حذرك من أيام الشباب قدر الطاقة، فإن أصبحت
 كهلاً، فلن تستطيع التحكم في نفسك، وهكذا قال ذلك الشيخ: كم من السنين تحملت الحسرات
 والغم، فعندما أصبح شيخاً، فلن تهوئي الحسان، وعندما أصبحت الآن كهلاً، فبئس الآخر لا
 أهواهن، وإن أهواهن فلا يليق ذلك، وطالما كنت شاباً فلا تنس الله عز وجل، ولا تأمن نمر
 الأجل، فالموت لا يفرق بين شاب وكهل، وهكذا قال الصعدي:

بيت

لا يرتبط الموت بالمشيب أو بالشباب ولا أن يموت الشيخ ويعمر الشباب

الباب الثاني والعشرون: في إبداع الأمانة

إن يودع شخص لديك أمانة، فلا تقبل بأي حال مطلقاً، وإن قبلت فكن حذراً، وذلك لأن
 قبول الأمانة قبول للبلاء.... وإن يعطك شخص أمانة، فعليك أن تردّها إليه مرة أخرى، امتثالاً
 لأمر الله عز وجل في محكم تنزيله (أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فطريق الرجولة والأمانة
 والفقه هو ألا تقبل أمانة، ولكن إن قبلت فلتحفظها، وتعيدها سالمة إلى صاحبها.

الباب الخامس والثلاثون: في فن الشعر وشروط الشاعر

إن تكن شاعراً، فاجتهد أن يكون كلامك من السهل الممتنع، وتجنب الكلام الغامض، ولا تقل الشيء الذي تعرفه ولا يعرفه الآخرون، وإما يحتاج إلى شرح وتوضيح، فالشعر ينشد من أجل الجميع، لا من أجل النفس.

ولا تقنع بالأوزان والقوافي الجوفاء، ولا تنظم شعراً بلا صنعة وحسن ترتيب، فالشعر المباشر غير مقبول.

فإذا أن تكون فيه صنعة وحركة كما يجب، وبه حرارة وخيالن كما يجب، سواء في طريقة النظم أو في تحريك الأحاسيس أو في الصوت حتى يكون مستحسناً من الخلق، وأن تكون تلك الصناعة متعلقة بقولتين الشعر مثل: الجنس والطباق والمتضاد والمتشاكل والمتشابه، والمستعار والمكرر، والمرادف والمزدوج، والموازن والمضمون، والمضمر والسنسل والمسجع والمستوي، والمرشح والموصل، والمقطع والمطلع والمسمط، والمستهيل ذي القافيتين، والرجل والمتقارب والمطلوب. وإن كنت ترغب في الارتفاع بكلامك وتضمن له الخلود، فليكن معظم حديثك مقروناً بالاستعارة، ولتقل الاستعارة المقبولة، ولتستخدم الاستعارة في المديح، وعضماً تشدد غزلاً أو أغنية فلنكن سهلة لطيفة. وأن تكون قوافيها شائعة معروفة، ولا تضمنه الكلمات العربية الباردة والغريبة.

ولتقل بما يتقل وحسب الأحوال العاطفية والكلام اللطيف، ولتستعمل الأمثال المستحسنة كذلك التي يستحسنها كل من الخاص والعام. ولا تقل شعراً عريضاً ومستعجلاً.

الباب الثاني والأربعون: في صفات الملك وواجباته

أيها الغلام! إن تكن ذات يوم سلطاناً، فلنكن زاهداً عفاً، ولتبتعد عينك وبذك عن حرمات المسلمين. ولتكن طاهر الذليل، فطهارة الذليل من الدين. ولتجعل رأيك في كل أمر خاضعاً لمنطق العقل، وأي عمل تريد إنجازه، فلتنسشر فيه أولاً من يصفرق، فرائس الوزراء سلطان صغير، وإن تزوجها للتأخير، فلا تسلك طريق العجزة، وأي عمل تريد أن تخوض فيه فلتنظر أولاً طريق الخروج. ولا تنظر إلى البداية إن كنت لا ترى النهاية، ولتسلك طريق المدارة في كل الأمور، وفي كل أمر لا يتم إلا بالمدارة، لا تمض فيه بغير المدارة، ولا تستحسن الظلم، ولتنظر إلى كل الأعمال والأقوال بعين الإحصاف، حتى تستطيع رؤية الحق والباطل في كل الأمور، فإن يعدم السلطان العين المبصرة للإحصاف والتعقل، فإن أمامه طريق الحق والباطل، ولتكن صادقاً فيما تقول دائماً، ولكن لنكن قليل الكلام، قليل الضحك، حتى لا يتجرأ عليك الصغار، فقد قول: أسوأ ما يصيب السلطان تجرؤ الرعية عليه، وعدم الطاعة من العاشية، والعطاء الذي يتصلق به فلا يصل إلى مستحقه!

وفي الباب التاسع يتحدث عن الشيفوخة والشباب فيقول: 'يا بني كن فطناً، ولا تغتر بالشباب، وانكر الله عز وجل في الطاعة والمعصية في أي حال تكون، واخش الموت، ولا تجعل كل صحبتك ومعاشرك مع الشبان، وجانس الشيوخ كذلك، واجعل رفقاءك وندماك خليطاً من الشيوخ والشباب، لأن الشيوخ يعرفون أشياء لا يعرفها الشبان، ومهما كان الشبان يحدون

أنفسهم أعلم الناس فحذار أن تكون على شاكلة مثل هؤلاء الشبان، وقر الشيوخ، ولا تتحدث إليهم جزافاً، وكُن دائماً رحيماً بالشيوخ»^(٨١).

ثم يعنى "مضمر المعالي" بالحديث عن مراحل العمر، فعث ابنه على اعتنام مرحلة صمره الوسطى، لأن أوائل العمر زمن الطلب، فإذا جاوز السبعين يجعل الغالب عليه ذكرى لآخرة والتهيب للرجول فيقول: "ومما قرأت في الكتاب، أن الرجل حتى الرابعة والثلاثين يزداد كل يوم في القوة والتركيب، وبعد ذلك يبقى هكذا حتى الأربعين لا يزيد ولا ينقص، كانشمس وقد بلغت كبد السماء، تكون عطيفة المسير حتى الزوال، ومن الأربعين حتى الخمسين يرى كل عام في نفسه نقصاناً لا يكون قد رآه في السنة الماضية، ومن الخمسين حتى الستين يجد كل شهر في نفسه نقصاناً لا يكون قد وجده في الشهر الماضي، ومن الستين إلى السبعين يرى كل أسبوع في نفسه نقصاناً لا يكون قد رآه في الأسبوع المنصرم، ومن السبعين إلى الثمانين يرى كل يوم في نفسه نقصاناً لم يكن قد رآه بالأحسن، وإذا جاوز الثمانين يرى في نفسه كل ساعة ألماً وعناء لا يكون قد رآه في الساعة الأخرى"^(٨٢).

حكاية من الشيخوخة

كان من بين حجاب والدي حاجب يقال له: الحاجب الكامل، وكان شيخاً قد تجاوز الثمانين فلما أن يشتري حصاناً، فأحضر إليه السالمن حصاناً مكتئباً وحسن المنظر، وإذا قوائم مستقيمة، فرأى الحاجب الحصان وأعجب به، وسأل عن ثمنه، ولكن عندما رأى أسنانه، وجد الحصان مسنناً، فلم يشتريه، واشترى رجل آخر. فقلت له: يا حاجب، هذا الحصان الذي اشتراه فلان، لم لم تشتريه؟ قال: إنه رجل شاب ولا يدري شيئاً عن متاعب الشيخوخة، وهذا الحصان الكبير مجرد منظر، فإن يندع هو بذلك، فله عذره، أما بالنسبة لي وقد خبرت ألفاً الشيخوخة وألمها، وأدركت ضعفها وعجزها، فكيف أكون معنوراً حين اشتري حصاناً عجوزاً؟.

أهمية قابوسنامه:

هناك حقيقة علمية ثابتة تطالعا عند دراسة الحياة العلمية في العصر الإسلامي هي: أن علماء ذلك العصر قد أبدعوا في أكثر من جانب من مجالات العلوم المختلفة، فنرى العالم آنذاك قد تبحر في علوم القرآن والحديث واللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا، بل تعدى ذلك إلى العلوم العقلية.

وهناك ظاهرة ملفتة للنظر في تاريخ الفكر الإسلامي، ولا يحدث أدنى صعوبة للتكليل عليها، فنظرة فاحصة في كتب التراجم والسير والطبقات وكتب الفهارس التي اهتمت بإحصاء المصادر العربية ومؤلفيها، تجد الضربات من المؤلفين المسلمين الذين كتبوا في أكثر من فن، إلا أن الشهرة التي حصل عليها هذا العالم، أو ذاك قد لا تتعدى بضعة جوانب، بينما طويت أو نسيت الجوانب الأخرى بين ثنايا الكتب، وأصبحت في حكم المجهولة.

ويبدو أن التجارب علمت "كيكوس" أن نوال المعالي متوط بسهر الليالي، فنشأ جامعاً لرفه الرخاء الذي نشأ فيه، وخشونه الحروب التي تقبّلت عليه مدة أبيه، وأكسبته تصارييف السياسة، وكانت للظروف القاسية، التي عاها في حياته السياسية، أثر بالغ في طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع الفلسفي الذي غلب على نشره^(١٦).

وتبدو أهمية كتاب قابوسنامه في نقاط عدة أهمها:

صدق الكاتب فيما يكتب، فلم يكن يقدمه لملك أو أمير حتى يتملقه، أو يكتب غير ما يقصد، بل كان الكاتب ملكاً مهيباً، لذا يعد كتابه خاتماً من التملق والرياء والنفاق. وكان أباً يكتب لابنه، فكان صادق الأحاسيس عندما يوجه النصيح والإرشاد لابنه ولذلة كبده، كما كان صاحب تجربة واسعة وعلم وفير، مكنه كل ذلك من أن يحسن العرض والتصحیح، ويقدم الكثير من المعلومات والتصالح، مع إسناد بعض الحكم إلى قائلها، سواء من الفرس، أو العرب، أو اليونان.

كان المؤلف شاعراً إلى جانب كونه كاتباً، لذا أورد كثيراً من أبيات الشعر في ثنايا النص وهو يعد من أوائل الكتاب التي نهجت هذا الأسلوب في التأليف، وتبعه في ذلك معدي في "الكستان"، وقد كانت بعض الأشعار من تأليف الكاتب نفسه وبعضها من نظم غيره، ولكن من الملاحظ أن عنصر المعالي قابوس كان يصرح أحياناً باسمه كشاعر، وأحياناً يورد البيت دون ذكر صاحبه، كما أن الحق يوجب القول بأن أسلوبه النظري يفوق أسلوبه الشعري، وعلى هذا فإن الدارسين يعتبرون شعره ركيكاً إذا ما قيس بفصاحة أسلوبه النظري وسلاسته.

أورد المؤلف كثيراً من الأمثال والحكم التي كانت شائعة الاستعمال في عصره، أو التي اطلع عليها المؤلف في قراءاته، فأثبتها في مواضعها من الكتاب، لتكون عوناً له على هداية ابنه، وحمله على تقبل النصيح والموعظة، ومن هذه الأمثال والحكم نسوق ما يلي:

كل طائر يطير مع شاكلة

المرء في داره كالملك في مملكته

صغور في اليد خير من طلوس مرتقب

من أتمس الأمور أن يحتاج الرقيب إلى من يراقبه

إذا أردت أن تدخل مكاناً، فأنظر أولاً كيف تخرج منه.

مهما بلغ الأمر، فمن يؤتمن الغف على الشحم "الدهن"

الحيوان المجرب خير من الإنسان عديم التجربة.

ضاع الحمار وسرق الرمن.

أن تحظى بالقليل نقداً، خير من توعد بالكثير أجلاً.

ليس في مقدر من تام في القبر أن ينام في الدار.

منهج عنصر المعالي في كتابه:

يعد كتاب 'قابوسنامه' من الناحية التاريخية ثباتا مليئا بالخبرة العملية الواعية، وهو أيضا من الكتب المهمة، في النثر الفارسي، التي أطلعتنا على الكثير من مظاهر التمدن والتحضّر والأوضاع الاجتماعية في عصره، بل ويمكن اعتباره خير مصدر للتعرف على الكثير من مظاهر الحضارة الإسلامية، قبل الغزو الصليبي للعالم الإسلامي.

ويعتبر نثر قابوسنامه من أفضل نماذج النثر في اللغة الفارسية، وأسلوبه يتسم بالإيجاز في اللفظ مع الإشباع في المعنى، وخلوه من المترادفات اللفظية، كما أن الألفاظ العربية المستعملة فيه جاءت علواً ودون قصد، إذ لم يستعمل إلا ما كان سائداً في زمانه من ألفاظ كانت في متناول فهم الجميع، فالكتاب للنصح والإرشاد، وعلى هذا يجب أن يكون واضحاً قريب المثال، حتى لا يضيع فكر القارئ في معرفة المصنّات والصور البلاغية، ثم ينسى النصيحة وهي لب الكتاب وهدفه الأول، وليس معنى هذا أي ضعف أو وهن في الأسلوب، بل إنه أسلوب قوي سلس، يدخل في باب السهل الممتنع من الأساليب^(٨٧).

ويرى البعض أن الأمير 'عنصر المعالي' قد أحيا الطريقة القديمة التي كانت سائدة قبل الإسلام، وهي تكليف كتب النصيحة للملوك والسلاطين والأمراء، وقد تبعه في ذلك عدد من الكتاب الفارسيين^(٨٨)، إما عن طريق التأليف ككتاب 'سياسة نامه' لنظام الملك، ونصيحة الملوك المنسوب إلى حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، أو عن طريق النقل والترجمة والتقديم والتأخير والحذف، من الكتب العربية أو الفارسية الأخرى مثل أخلاق ناصري^(٨٩).

ونتيجة أيضا لشهرته الواسعة وتميزه في مجال النثر الفارسي، وفي طريقة سرد الحكايات والقصص المشوقة، نقلت عنه كثير من الكتب القديمة، ومنها 'حديقة الحقيقة' لسنائي و'جوامع الحكايات' لمحمد عولي، و'كارستان' لنقاضي أحمد غفاري، و'مطلع الأنوار' لخصرو الدهلوي، و'روضة الأنوار' لمحقق سروزار، وغير ذلك من الكتب التي ألفت بعده^(٩٠). والحقيقة أن قابوسنامه لم يكن أول كتاب في بابيه يتميز بهذا اللون من الكتابة التاريخية، لاسيما في الأدب العربي والفارسي، فقد نحا هذا النحو كثير من المؤلفين الإسلاميين السابقين عليه، والتي اعتمدت إلى حد كبير على الأنبياء الفارسية القديمة، لاسيما الخاصة بالنصائح والرسوم والعادات الفارسية القديمة، أمثال: 'رسالة الصحابة' لابن المقفع^(٩١)، و'عون الأخبار' لابن قتيبة الديلمي، و'الآثار الباقية' للبيروني، و'ثمار القلوب في المضاف والمنسوب' للشمسلي و'الفهرست' لابن النديم، و'تاريخ طبرستان' لابن أسفنديار، وغيرهم كثير^(٩٢).

وقد وصف بعض المستشرقين كتاب 'قابوسنامه' وصفا دقيقا في كلمات موجزة، إذ قال المستشرق الإنجليزي 'إدوارد براون'^(٩٣) في حقه: فاز كتاب قابوسنامه بشهرة عريضة وهو بغير شك قمين بها، وأهل لها، لأنه مليء بالحكمة والبراعة، غني بالحكايات والأمثلة، يضاف إلى هذا أنه كتاب ملكي، كتبه صاحبه بأسلوب صريح لا مواربة فيه، مستندا موضوعاته من تجاربه الكثيرة الناضجة وخبرته الطويلة الكاملة^(٩٤).

ويعتبر كتاب قابوسنامه من أعظم المصادر التي تناولت فكرة النصائح التي لا يستطيع باحث أن يغفلها، فقد نهج فيه نهجاً يدل على ثقته بعقله، وجمع فلوغى، فهو كتاب متنوع المعارف لغيس الفوائد، برز فيه الكم الهائل من المعلومات التي أوردها، من حيث إحاطته بهذا الكم الكبير من التفاصيل الدقيقة التي يوردها.

والجدير بالملاحظة أن أغلب الحكايات التي ورد ذكرها في قابوسنامه، توجد في مجموعات الحكايات الفارسية السابقة عليه، دون أن تنسب إلى شخص بعينه، بينما نجدها عند عنصر المعالي تنسب إلى أشخاص معروفين^(٩٥)، كذلك الحكاية التي جاءت في الباب الحادي والثلاثون، والتي تتعلق بحكمة القاضي 'أبي العباس الرويتي' (قاضي طبرستان) وكيف استشهد في إحدى قضايا المعروضة عليه بشهادة الشجرة، والتي استغل فيها مهارته الفكرية في الإيقاع بالجاني، وأن الشجرة التي وقعت عندها الجريمة سوف تأتي إلى مجلسه وتشهد بالحقبة، الأمر الذي دعى الجاني إلى الاعتراف بالحقبة^(٩٦). بينما توجد نفس الحكاية مذكورة في باب الحكايات في كتاب 'النحو الفارسي' دون أن تنسب إلى شخص معين^(٩٧).

ومع ذلك فهناك حكايات تسميها المؤلف لأحد من الناس، بينما ذكرها من قبله منسوبة إلى أشخاص آخرين، مثال ذلك: الحكاية الشهيرة التي جاءت في قابوسنامه عن التهديد الذي أرسله السلطان 'محمود الغزنوي' إلى الخليفة العباسي 'القادر بالله'، عندما أراد السلطان أن يصدر إليه الخليفة منشوراً بمنحه إقليم ما وراء النهر، ولما امتنع الخليفة عن إجابته، هدهدته بأنه سوف يأتي على بغداد ويخربها تحت أقدام الفيلة، فرد عليه الخليفة برسالة صدرها بهد (بسم الله الرحمن الرحيم) بالحروف 'أ. ل. م. ن. وفي آخر الكتاب (الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين). ولم يفهم السلطان في البداية قصده من كتابة هذه الأحرف، حتى استطاع أحد حاشيته وهو 'أبو بكر النهستاني' أن يحل هذا اللغز، وأنه رقى إلى منصب أعلى بفضل مهارته في حل لغز رسالة الخليفة^(٩٨).

بينما نجد أن تلك الحكاية وردت في 'شهنامة' الفردوسي (السابقة على قابوسنامه) ولكن أبطالها أشخاص آخرون، وخلصتها أن 'الفردوسي' للشاعر المشهور، وصاحب الشهنامة، وقعت الجفوة بينه وبين السلطان 'محمود الغزنوي' لعدم تقديره له في إنشاء شهنامته الرائعة، فكتب كتاباً يهجو فيه السلطان، وتركه عند أحد أصدقائه وأوصاه بعدم إذاعته إلا بعد أن يتمكن من الفرار إلى طبرستان والاحتكام بحاكمها^(٩٩).

فلما ذاعت تلك الرسالة اللعنة، قرأها السلطان محمود، استشاط غيظاً من قائلها، وأرسل إلى أمير طبرستان يطلب إليه تسليم الفردوسي، وهدده بأنه سوزجف عليه بأفاليه، ويخرب بلاده ويأمره، ويقتل شعبه ورجاله، إذ هو امتنع عن إجابته إلى مطلبه، فلما وصلت الرسالة إلى الأمير، اكتفى بأن يكتب على ظهرها الحروف الثلاثة 'أ. ل. م. ن' بحث بها ثانية إلى السلطان، فلما لم يفهمها فصرها له أحد وزرائه أنه يقصد من ورثها، أنه سوف يحدث له ما حدث لأبرهة، عندما قصد مكة بأفاليه في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ، والتي نزلت فيها سورة 'الفيل' والتي جاء في مطلعها هذه الأحرف الثلاث^(١٠٠).

وكان مقصد صاحب طبرستان من التلميح بهذه الأحرف واليا بالغرض حتى إنها أُنْتُت
السلطان محمود، وعاد عن تهديده^(١٠١).

ويعلق برون على تلك الرواية بقوله^(١٠٢) 'ولا شك أن إيداء المهارة في اقتباس الآيات
القرآنية، أو التلميح إليها يعتبر من أجمل الصناعات التي يعجب بها المسلمون عامة، والتي
تحتل مكانة كبيرة في قلوبهم'.

وعلى أي حال تبدو القيمة العلمية للكتاب، أوضح ما تكون، في اعتماد المصنف على
السماع في إيراد بعض الأخبار، والمعارف التي يسوقها توضيحا لأثره، وهي في الغالب
مستقاة من تجاربه الشخصية، وبعض حكاياته توجد في مجموعات الحكايات الفارسية، والتي
في الغالب ينسبها إلى أشخاص معينين^(١٠٣).

وهي القصة التالية، التي يسوقها 'عنصر المعالي' نفسه، ما يدل على ذلك، إذ يقول:
سمعت أن الشبلي رحمه الله عليه ذهب ذات يوم إلى مسجد، لكي يصلي ركعتين ويستريح
بعض الوقت. وكان بالمسجد تلاميذ يدرسون، ومصادفة كان الوقت وقت تناول الأطفال طعامهم.
فجلس على مقربة من الشبلي رحمه الله عليه طفلان: أحدهما ابن غني والآخر ابن فقير،
فوضع كل منهما زنبيره بجواره، فكان في زنبيل الولد الغني خبز وحلوى، وفي زنبيل الفقير
خبز فقط، ثم أخذ الولد الغني يأكل الخبز والحلوى، وكان الطفل الفقير يطلب منه قطعة من
الحلوى، فقال الطفل الغني: إن أعطتك قطعة من الحلوى، قتلتك كنهي! فقال: لأكن فقال: لتتبع
حتى أعطيك الحلوى، فأخذ ذلك المسكين ينبح لباح للكلب، والطفل يحطيه الحلوى، وهكذا فعل
عدة مرات، والشيوخ الشبلي ينظر إليهم ويكي. فقال المريدون: أيها الشيخ ما أصابك حتى
تنتحب هكذا؟ قال: انتظروا كيف يفعل الطمع وعدم القناعة بالناس. ماذا كان يحدث لو أن ذلك
الطفل قنع بخبزه الجاف وحده، ولم يطمع في حلوى ذلك الطفل، ولما أحال نفسه كلبا بهذه
الصورة التي لا تليق^(١٠٤).

وأنت يا بني سواء أكلت زاهدا أو فاسقا، فتكن قاتعا غير طامع، حتى تكون أعظم
وأظهر من في الدنيا، واعلم يا بني أنني في هذه الأربعة والأربعين بابا في هذا الكتاب قد
حدثك بكل ما أعرفه، وذلك قدر استطاعتي، وفي كل باب جعلت بعض الكلام بمثابة النصيح
والموعظة لك^(١٠٥).

ورثة ملاحظة مهمة هي أن الأمير 'عنصر المعالي' كتب كتابه 'قابوسنامه' باللغة
الفارسية أسوة بما فعله جده لأنه 'مرزيان بن رستم بن شروين' صاحب 'مرزيان نامه'،
والكتاب تم ترجمته إلى اللغة العربية^(١٠٦).

ولا عجب أن يعرف 'عنصر المعالي' الفارسية، وإنما المستغرب ألا يعرفها، فقد ولد من
أبرين فارسين، فأبوه هو 'إسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار' الديلمي، وأمه هي بنت
السلطان محمود بن ناصر الدين 'القرنوي'، وجده هو 'حسن فيروزان' ملك الديلم^(١٠٧).

وكان للفارس — لاسيما الديلم منهم — حريصين على الاحتفاظ بمقاماتهم من لغة،
وعادات وتقائيد، فلا عجب إذا أن يكون والده قد لقاه لغتهم الأصلية.

والواقع أن الأنبياء العرب كانوا يحفلون على تعلم الفارسية ويتقنونها، وأوضح مثال على ذلك 'المعالي' الشاعر العباسي المعروف (وهو عربي من تغلب)، وقد سأله رجل: 'لم كتبت كتب العجم؟ فقال: وهل المعالي إلا في كتب العجم والبلاغة، اللغة لنا والمعالي لهم' (١٠٨). وفي الكتاب ظاهرة تستثير الإعجاب، وهي أن صاحبه يعتمد على القصص التمثيلية الذي يستشهد بها في ثنايا حكاياته، فالكتاب يمتاز بالإنباس، لما يورده من طريق الأخبار، وملوح الفكاهة، فهو ليس كتاب تاريخ بقدر ما هو كتاب أدب وأخلاق، جمع لدرأ عظيم من الأخبار السياسية والأخلاقية.

الجانب الديني والأخلاقي عند مناصر المعالي:

المطلع على كتاب 'قابوسنامه' يلاحظ أن مؤلفه تأثر إلى حد كبير، بالتعاليم والآداب الإسلامية الأصيلة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاضْلُوا وَتَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَعِزُّهُ اللَّهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٩) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (١١٠) وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١١١)، وما ورد أيضا في الأحاديث النبوية التي تحت على مكارم الأخلاق.

وتجلى الثقافة الدينية في تكوين شخصية 'مناصر المعالي' الفكرية، إذ كان حريصاً على أن يزين كلامه بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، والأشعار الفارسية والعربية التي تخدم الغرض الذي يكتب من أجله (١١٢)، الأمثلة التي يضيئها لنا المؤلف عن آداب السلوك تبدو أحياناً لاذعة ماهرة، وفي بعض الأحيان تبدو نابعة من تجاربه الشخصية، فنراه يطلب من ابنه أن يتعلم الحكمة حتى من الجهلاء، فإن العلم ضالة المؤمن، من حيث أخذه نفعه، وقد قال ابن عباس (رضي الله عنه) 'خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه، فإنه قد يقول الحكمة غير الحكيم، وتكون الرمية من ضرر رام' (١١٣). ولكنه في الوقت نفسه يحذره من الإغراق في التواضع، لأن كثيراً من الرجال قد أخفقوا بسبب ما امتازوا به من أدب جم (١١٤).

والقارئ يطالع فيه طرفاً من أخيار الرسول ﷺ، وأهل بيته، والخلفاء، وأكاسرة الفرس وحكامهم ووزرائهم، وعصائهم ورجال بلاطهم، كما يلتقي أيضاً بالكتاب والشعراء والقضاة والفقهاء والزهاد والمتصوفين، وكأنه يعيش وسط هؤلاء جميعاً (١١٥). ولكل حكاية هدف تسعى إليه، أو بها مشككة تحل في نهايتها، والمعالي التي تدور حولها هذه الحكايات هي المروءة، والأمانة وحسب الخير، والشجاعة، والشظارة، والجاسوسية، والاحتيال، والعدالة، والبلاغة، والتفوق من الجهل، وإدعاء العلم، وغير ذلك من المعالي الأخلاقية. ويعتمد أشخاص الحكايات على الفقه والمنطق، والعلوم الدينية والفلسفية، وتجارب الحياة، وكلها أفكار نابعة من فكره ووجدانه، بأسلوب في غاية الروعة والبلاغة (١١٦).

وعلى الجملة فحكايات 'قابوسنامه' عبارة عن قصص واقعية وتاريخية، وبعضها أخلاقي وأحياناً يمزجها بالمزح، حتى لا يمل القارئ.

ويحرص "عنصر المعالي" على التأكيد لابنه على بيان أن الله تعالى لا يريد الإيمان من عباده إجباراً، وإتماً اختياراً، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطي عباده فرصة الاجتهاد، وإصالح الفكر فيما يجب عليهم، وما لا يجب من الأعمال، هذه هي إرادة الله، فالله سبحانه وتعالى متفرد بالخلق، ولما كان الأفراد غير مجبرين على الإيمان، إذ لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، إلا أنهم ارتضوا الإيمان، فلابد أن يعملوا بأحكام المشرع. ويقول عنصر المعالي^(١١٧) في الباب الأول وعنوانه (في معرفة الله تبارك وتعالى) "اعلم يا بني أنك في معرفة الله الخالق عاجز، إذ ليس للمعرفة إليه سبيل، وكل ما عداه صار معروفاً، وإلما تكون عارفاً لله عندما تكون غير معروف، ومثال المعرفة كالمنقوش، والعرف كالنقش، فما لم يكن في المنقوش قبول للنقش، لا يستطيع نقاش أن ينقش عليه. ألا ترى أن الشمع لما كان أكثر قبولاً للنقش من الحجر، تعمل منه الأختام ولا تعمل من الحجر قطعاً عليه يكون في كل معرفة قبول للعرفان، والخالق غير قابل للمعرفة، فتأمل في نفسك ولا تتأمل في الخالق".

أما حديث تناول الشراب فينصح بهدم تعاطي النبيذ، فيقول: "فلا أقول تعاطي الشراب، ولا أستطيع أيضاً أن أقول لا تشرب؛ لأن الشباب لا يرجعون عن طعمه بقول أحد، فقد قيل لي كثيراً ولم أسمع، حتى منحني رحمة الله التوبة بعد الخمسين، فإذا لم تشرب يكون لك ربح الدارين، وتقال رضا الله تعالى، وتتجر من ملامة الخلق، ومجالسة غير العقلاء، وفعل المحال"^(١١٨).

ويرسم "عنصر المعالي" لابنه قواعد السلوك والمعايشة، وذلك في الباب الثاني والعشرين وهو بعنوان: (في إيداع الأمانة) فيقول: "إذا استودعك شخص أمانة فلا تقبلها، وإذا قبلتها فاحفظها، لأن قبول الأمانة للبلاء، إذ إن عاقبة ذلك لا تخرج عن ثلاثة أشياء، إما أن ترد إليه الأمانة، كما أمر الله عز وجل في محكم تنزيله أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها فإن طريق المروءة والإنسانية والشهامة هي أن لا تقبل الأمانة، وإذا قبلتها تحافظ عليها وتعيدها إلى صاحبها سالم"^(١١٩).

ومؤلف الكتاب ينصح ابنه بكيفية التعامل مع الآخرين، لاسيما عند التحدث ومخالطة الناس، فإن الحديث ومخالطة الناس أمران يحتاجان إلى قدرة بارعة، فقد يحسن المرء الكلام في موضع قد يحسن فيه السكوت، وقدما قالوا "خفف المرء في منطقه". وهو يبين لنا ذلك وهو ينصح ابنه في باب (طلب العلم) فيقول: "إذا كنت عالم فتوى فكن ديناً وكثير الدرس والحفظ، ومتعبداً وصالحاً، ولا تتجاوز عن ذلك، وكن ورعاً طاهر الثوب، حاضراً الجواب، تفت في أية مسألة، ولا تعمل بغير قول الثقات، ولا تعتمد على خبر الآحاد، ولا تتعصب كثيراً، ولا تتكلم عن تعصب، وإذا نازلت فانظر إلى الخصم، فإذا كانت لك قوته وعرفت أنك ترجحه في الكلام، فتدخل في المسائل، وإذا فتوقف عن الكلام، وإذا كانت المناظرة فقهية فقدم الآية على الخبر، والخبر على القياس، وتكلم بالممكنات، وقل الكلام مرتباً، ولا تقله أبتر، وكذلك لا تتكلم طويلاً بغير جدوى"^(١٢٠).

أما الأمثلة التي يضر بها المؤلف عن آداب المجتمع، فهو يقرر أنه من الواجب على المضيف ألا يكثر الاعتذار لضيفه عن تمامة ضيافته، لأن هذا يشعر الضيف بالحرص وضيق الصدر، كما يجب على المضيف ألا يؤنب خدمه على ما يبدو منهم من تقصير في حضور ضيفه. فإذا انتهى من ذلك أوصى ابنه ألا يلعب "الترد" أو "الشطرنج" بالدرهم والفقير، وأن يتجنب القسم وحلف الإيمان، ويحذر من إغارة التفرقة لأحد من أصحابه، ما لم يكن والثقة منه، لأنه يمكن أن يعتبرها هبة، إذا لم يستطع ردها، طمعا في صديقه^(١٢٢).

ويلاحظ أيضا أن روح التصوف ظاهرة في كتابه، فنراه مثلا لا يترك مناسبة تمر دون أن يورد كثيرا من كلام الزهد والورع عند نصيحته لابنه، حتى إنه أفرد له بابا مستقيا مليئا بحكايات أهل التصوف في كتابه، وذلك في الباب الرابع والأربعين وهو بعنوان: (في المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة) إذ يقول: "أعلم يا بني أن من صفات الناس ثلاثة أشياء، لا تجد آدميا قط يقول إن هذه الأشياء الثلاثة ليست في... وأول هذه الأشياء الثلاثة العقل، وثانيهما الصدق، وثالثهما المروءة، ولا يوجد جسد ليست فيه هذه الصفات الثلاثة... وحقيقة التصوف بإجماع كل المشايخ، ثلاثة أشياء: التجريد، والتسليم، والتصدق... فاسمع يا بني واجتهد حتى ترقى بقدر ما في وسعك واستطاعتك...".

ثم يتعرض حكاية مفادها أن صوفيين، ذات مرة، كتبا يسيران معا، وكان أحدهما معهما ومع الآخر خمسة دنائير، فكان المعدم يمشي جسورا غير خائف، وحيثما وصل كان يستشير الأمن، كما كان يستسلم للنوم في أي مكان من الخوف، ولكنه مضطر لمصاحبه، إلى أن جاء وقت ووصلا إلى حافة بئر، وكان المكان مهيبا، وعلى مفرق عدة طرق، فأكل الصوفي المعدم طعامه ونام هائلا، أما صاحب الخمسة دنائير فلم يستطع النوم، وأخذ يقول: ماذا أفعل! معي خمسة دنائير ذهبية وهذا المكان جد مخيف، لقد استسلمت أنت النوم، أما أنا فقد جفاني النوم، أي أنني لا أستطيع النوم، كما لا أستطيع المضي! فقال الصوفي المعدم: أعطني الدنانير الخمسة، فأعطاه إياها، فألقاها في قاع البئر، وقال: لقد تحررت، فقم مطمئنا واجلس وامض، فالمعدم قوي صد في المعارك^(١٢٣).

وبعد، فقد أسفر البحث عن النتائج التالية:

١- كان ظهور الزياريين، في منطقة المشرق الإسلامي، هو الخطوة الأولى في سبيل استرجاع الثغرات القومية لبلاد الفارسية بصورة سافرة وعلنية، بل وحقة من حلقات التطوع الفارسي لاستعادة مجدهم القديم - والتي عرفت عند المؤرخين المسلمين بالشعبوية - بعد أن ظلت تلك الأماني حبيسة الصدور، فلما سنحت لدعاتها الفرصة تجرت وأعلنت عن نفسها وقد ظهر هذا جليا فيما دعا إليه "مرداويج بن زيار" من استعادة الأمجاد الفارسية البائدة، ومحاولة إزالة دولة العرب، وإقامة دولة الفرس.

٢- على الرغم من أن الدولة الزيارية دولة فارسية دينية؛ إلا أن الثقافة العربية ازدهرت فيها ازدهارا ونسعا، برغم أن السلطات العليا كانت في أيدي عناصر من أصول غير عربية.

٣- مؤلف الكتاب شخصية لها قيمتها السياسية، فقد كان أميراً من أمراء الأسرة الزيارية ولذلك فإن الآراء التي قدمها في كتابه آراء مستمدة من واقع عمله وتجاربها، ولم تكن مجرد آراء نظرية غير قابلة للتنفيذ أو التجريب، بعكس ما كتبه غيره من المؤلفين الذين لم تتح لهم فرصة العمل العملي الميامي، كما سنرى الذي أنف رسالة في السياسة، أو الغزالي في كتابه نصيحة الملوك... وغيرهما.

٤- لم يكن الأمير 'عصر المعالي' أول من نحا هذا النحو من التأليف، بل كان مقتداً إلى حد كبير لكتب الحكم، والنصائح الفارسية القديمة، ولثلى كان يتناولها العلماء، ويتألب بها الناس.

٥- يتميز أسلوب 'قابوسنامه' بأنه سلس واضح بعيد عن الغموض، كما جاء خالها من المحسنات البلاغية، وهو أسلوب أجمع الكل على فصاحته وجلالته.

٦- يتجلى في كتاب 'قابوسنامه' أثر الثقافة الدينية في تكوين شخصية 'عصر المعالي' الفكرية، إذ كان حريصاً على أن يزين كلامه بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، والأشعار الفارسية والعربية التي تخدم الغرض الذي يكتب من أجله.

٧- ورد في 'قابوسنامه' بعض القصص، ولكنها اتسمت بالقصر وتعد مرحلة من مراحل الانتقال من الحكاية، أو ما أطلق عليه فيما بعد اسم المقامات بعد ذلك.

٨- الكتاب يمتاز بالإتيان، لما يورده من طريف الأخبار، ومليح الفكاهة، وعلى الرغم من كونه كتاباً ليس تاريخياً إلا أنه جمع قدراً عظيماً من الأخبار السياسية والأخلاقية الحري بنا العمل بها.

٩- يعد كتاب 'قابوسنامه' ثباتاً مليناً بالخبرة العملية الواعية، فهو من الكتب المهمة في النشر الفارسي التي أطلعنا على الكثير من مظاهر التمدن والتحضّر والأوضاع الاجتماعية في عصره، بل ويمكن اعتباره خير مصدر للتعرف على الكثير من مظاهر الحضارة الإسلامية في القرن الخامس الهجري (١١م).

١٠- أورد 'عصر المعالي' كثيراً من الأمثال والحكم التي كانت شائعة الاستعمال في عصره، أو لثلى اطلع عليها في قراءاته، فأثبتها في مواضعها من الكتاب، لتكون عوناً له على هداية ابنه، وحمله على تقبل النصيح والموعظة.

ولعل أجمل ما يسترني ويشرح صدري أن أجد صدري طيباً لهذا العمل، وأن يكون حظ عملي القبول والرضا الوافر لدى الجميع، والله ولي التوفيق.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- * ابن الأثير: حلى بن أبي الكرم (ت - ٦٣٠هـ).
- ١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٢- اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر بيروت، ١٩٨٠م.
- * ابن إسفنديار: يهام الدين محمد بن حنين بن إسفنديار (ت - ٧٥٠هـ)
- ٣- تاريخ طبرستان، ترجمة: أحمد محمد لادي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة ٢٠٠٢م.
- * البيهقي: أبو الفضل محمد بن حسين (ت - ٤٧٠هـ).
- ٤ - تاريخ البيهقي، ترجمه إلى العربية د/ يحيى الخشاب، وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦م.
- * الثعالبي: أبو منصور بن عبد الملك بن محمد التيسابوري (ت - ٤٢٩هـ).
- ٥ - وثيقة الدهر في محاسن أهل مصر، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٣.
- * ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي (ت - ٥٩٧هـ)
- ٦- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العشائية، ط١ حيدر آباد ١٣٥٩هـ.
- * ابن خالوند شاه: محمد بن خالوند شاه بن محمود (ت - ٩٠٣هـ).
- ٧- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.
- * ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت - ٨٠٨هـ).
- ٨- العبر وديوان المبدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.
- * ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت - ٦٨١هـ).
- ٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- * ابن الساجي: حلى بن أنجب (ت - ٦٧٤هـ)
- ١٠ - تاريخ الخلفاء العباسيين، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٣م.
- * السمعاني: أبو سعد بن محمد بن منصور (ت - ٥٦٢هـ).
- ١١- الأنساب، وضع جواشيه : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت ١٩٨٨م.
- * السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت - ٩١١هـ)
- ١٢- تاريخ الخلفاء تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية بيروت ١٩٦٤م.

- * ابن العربي: غريغوريوس أبو الفرج بن خازون (ت ٩٨٥هـ).
- ١٣ - تاريخ مختصر الدول، دار الأفاق العربية ط١، القاهرة، ٢٠٠١م.
- * العروضي السمرقندي: النظارى العروضي السمرقندي، (٥٥٠هـ).
- ١٤ - جهاز مقالة، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ويحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط١، القاهرة ١٩٤٩م.
- * عنصر المعالي كيكابوس: اسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار (٤٦٢هـ).
- ١٥ - كتاب النصيحة المعروف باسم (قابوسنامه)، ترجمة، د/ محمد صائق نشأت، د/ أمين عبد المجيد بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ القاهرة ١٩٥٨م.
- * ابن الفقيه الهمداني (من علماء القرن الثالث الهجري) أبو بكر أحمد بن محمد.
- ١٦ - مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي ط١، بيروت، ١٩٨٨م.
- * القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨١هـ).
- ١٧ - أثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.
- * الفيرواني: أبو إسحاق إبراهيم بن حلي (٤٥٣هـ).
- ١٨ - زهر الآداب وثمر الأكب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٢م.
- * ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ).
- ١٩ - البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.
- * المسعودي: علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ).
- ٢٠ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وتقديم د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٥م.
- * ابن مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ).
- ٢١ - تجارب الأمم، تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.
- * المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٣٨٧هـ).
- ٢٢ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.
- * الترشيحي: أبو بكر محمد بن جعفر الترشيحي (٣٤٨هـ).
- ٢٣ - تاريخ بخاري: ترجمة: د/ أمين عبد الحميد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي
- * ياقوت الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ).
- ٢٤ - معجم الأقباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت، ١٩٩١م.
- ٢٥ - معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- * اليزدادي: عبد الرحمن بن علي (من علماء القرن الخامس الهجري).
- ٢٦ - كمال البلاغة (وهو رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير) المطبعة المملوكية، القاهرة ١٣٤١هـ.

ثانياً - مراجع:

- * إبراهيم سلمان الكروبي (دكتور)
١- اليهوديون والخلافة العباسية، دار العروبة للنشر والتوزيع ط١، بيروت، ١٩٨٢م.
- * أحمد أمين
٢- ضحى الإسلام (نشأة العلوم في العصر الأول) طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م.
- * أحمد السعيد سليمان (دكتور)
٣- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩م.
- * إدوارد براون (مستشرق)
٤- تاريخ الأدب في إيران، ترجمة: أمين الشواربي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥م.
- * يحيى محمد جمعة (دكتور)
٥- من روائع الأدب الفارسي، دار النهضة العربية، ط٢ القاهرة ١٩٨٣م.
- * حسن إبراهيم حسن (دكتور)
٦- تاريخ الإسلام السياسي، دار الجيل، ط٨، بيروت ١٩٩٦م.
- * حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف (دكتور)
٧- العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، ط٣، القاهرة ١٩٧٧م.
- * حسن منبنة (دكتور)
٨- تاريخ الدولة البويهية، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٧م.
- * رضا زاده شلق (دكتور)
٩- تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد موسى هنداوي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧م.
- * شوقي ضيف (دكتور)
١٠- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الجزيرة العربية، العراق، إيران)، دار المعارف ط٢، القاهرة، ١٩٨٣م.
- * عيسى إقبال
١١- تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م
- * عبد الحميد بن عبد الحنوي (دكتور)
١٢- ابن قتيبة (العالم الناقد الأدبي) سلسلة أعلام العرب العدد (٢٢) المؤسسة المصرية لتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.
- * مصطفى الشكعة (دكتور)

١٣- يدع الزمان الهذاني، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٥٩م.

* نعمه علي مرسى (دكتور)

١٤- دولة آل زيار في طبرستان وجرجان وما جاورهما، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥م.

ثالثاً : الرسائل الجامعية:

* الشجاعت إبراهيم

١- التطور السياسي والحضاري لدولة بني زيار في جرجان وطبرستان، رسالة ماجستير (ظهر منشورة) كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة المنصورة ١٩٩٣م.

رابعاً :

* رشيد

١- مجلة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العدد التاسع،

ARCHIVE

الهوامش

- (١) في العصر العباسي الأول نشأت الدولة الطاهرية التي أسسها طاهر ابن الحسين في خراسان والتي استمرت من (٢٠٥-٢٥٩هـ / ٨٢٠-٢٧٢م) وفي العصر العباسي الثاني استطاع الفرس تكوين دويلات مستقلة لهم عن الخلافة العباسية حينما شعروا بضعف خلفائها، وهذه الدويلات هي: الدولة الصفارية التي أسسها يعقوب بن الليث الصفار واستمرت من (٢٥٤-٢٩٦هـ / ٨٦٨-٩٠٨م) والدولة السامانية ومؤسسها قنصر بن أحمد الساماني في ما وراء النهر وقد استمرت من سنة (٢٦١-٢٨٩هـ / ٨٧٤-٩٩٨م) والدولة الساجية وقد أسسها أبو الساج في أذربيجان واستمرت من (٢٦٦-٣١٨هـ / ٨٧٩-٩٣٠م) وكان ظهور هذه الدويلات تعبيراً حقيقياً عن القومية الفارسية التي بدأت تنطفئ على السطح منذ أواخر العصر العباسي الأول. محمد محمد عبد القادر الخطيب: دراسات تحليلية في تاريخ الدويلات الإسلامية ج ١ ص ٣٣٩-٣٤٠، مطبعة الجبلاوي ط١، القاهرة ١٩٨٥م.
- (٢) طبرستان: بلاد جبليّة تمتاز بالحصانة والمنة على ما هو مشهور من أمرها، وهي بلاد معروفة والعجم يقولون "مزلدران" وهي بين الري وقومس وبحر الخزر. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٠٣، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.
- (٣) هو الحسين بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد بالمدينة سنة (٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) من جارية خراسانية. كان يتقنه الزيدية وأهل الدين به الإمام الناصر الكبير، وقد على طبرستان في عهد الداعي الكبير "الحسن بن زيد" والذي سعى إلى إقامة دولة شيعية في المشرق مستعيناً في أول الأمر بهامس نيسابور محمد بن عبد الله الخجستاني الذي استولى على جرجان من النقام الساماني، ولكن ما لبث أن انقلب عليه الخجستاني - بعد أن أوقع بينهما أصحاب الوشائات - وسجنه ونكل به حتى لقد سمعه فلج بـ "الأطروش" ولم يلبث أن فر "الأطروش" إلى بلاد الديلم مستغلاً حالة الفوضى في الدولة السامانية عقب وفاة النقام، وأقام بين قبائل الديلم ثلاثة أعوام يفتنهم مبادئ المذهب الزيدي، ويدعوهم إلى الإسلام، ويبني لهم المساجد، فأسلم منهم عدد كبير، ودانوا له بالطاعة والولاء بعد أن ضاعوا فرحاً من ظلم العباسيين، وحكامهم من الطاهريين، الذين كانوا يحكمون إقليم خراسان، ويسلك السديلم وسجستان، وكانوا شديدي الظلم والبطش. توفي سنة (٣٠٤ هـ / ٩١٧ م). ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٤٩٥، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.
- (٤) الديلم: تقع بلاد الديلم في المنطقة الواقعة بين طبرستان والجبيل وجيلان وبحر الخزر (بحر قزوين)، وهم قبائل فارسية تتكلم اللغة الفارسية بلهجة محلية، وقد اشتهروا

بالضجاعة والكرم، ووصلوا بالعليش، والعجلة، وقلة المبالاة، كما غلب عليهم الجهل والحمافة وكثرة التنازع فيما بينهم، كما اتصفوا - أيضا - بالقسوة وغلظة الطبع والتأني على الانقياد، كما اشتهروا بالجمال حتى قال عنهم المقدسي: "والدليل حسان الله والوجه أيضا ولهم ظل".^{١٠} وحين كتب المقدسي كتابه في القرن الرابع الهجري (١٠م) كانت بلاد الديلم تضي أقاليم طبرستان وجرجان وقومس. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٨٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م. كسي لمستنرج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٠٧، ترجمة وتعليق: بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥م.

(٥) ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان، ص ٢٣٢، ٢٣٣، ترجمة: أحمد محمد نادي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، القاهرة ٢٠٠٢م.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٤٩٥.

(٧) ابن خاوندشاه: روضة الصفاء في سيرة الأتبياء والملوك والخلفاء، ص ٨٨، ٨٩، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط ١ القاهرة، ١٩٨٨م.

(٨) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٥ ص ٩١، ٩٢، تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط ١، بيروت ٢٠٠٣.

(٩) رشيد عبد الله الجميلي: الزياريون في جرجان وطبرستان، ص ١٤٩، ١٥٠ - مجلة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العدد التاسع، بغداد ١٩٨٤م.

(١٠) جرجان: مدينة كبيرة تقع في جنوب شرق بحر الخزر، ويحدها جنوباً إقليم خراسان، وشرقاً إقليم خوارزم، وغرباً بحر الخزر وإقليم طبرستان وهي بسلام كثيرة الأنهار. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٨٠ - ٢٨٥.

(١١) همدان: أكبر مدينة بإقليم الجبال، بين طبرستان وأصفهان. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥ ص ٤١٠.

(١٢) أصفهان: ويقال لها "أسيهان" و"أسيهان"، وهي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وهي من بلاد الجبل. القزويني: آثار البلد وأخبار العباد، ص ٢٦٩.

(١٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤ ص ٤٢٧، تحقيق: مفيد محمد قمحة، دار الكتب العلمية.

(١٤) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٥ ص ١٧٨. ابن الأثير: الكامل، ج ٧ ص ١٠٨، ١٠٩.

(١٥) ابن مسكويه: للتجارب، ج ٥ ص ٣٥٢.

(١٦) ياقوت الحموي: معجم الأنباء ج ٤ ص ٥٦٩ معجم الأنباء أو "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت، ١٩٩١م.

(١٧) السامانيون: تنسب هذه الدولة إلى أحدي الأسر الفارسية، وقد ظهر أمر هذه الأسرة في عهد الخليفة المأمون حيث نالت حظوة كبيرة عنده، فولاهم بلاد ما وراء النهر، ومن أشهر حكام هذه الأسرة إسماعيل بن أحمد الساماني، ونوح بن نصر الساماني. وقد ظهر في عهد هذه الأسرة العديد من العلماء الذين خدموا الثقافة الإسلامية. للترشيحي: تاريخ بخاري، ص ١١٢ ترجمة د/ أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف ط ٢ القاهرة ١٩٦٥ م

(١٨) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٧ ص ٢٦٤ دائرة المعارف العثمانية، ط ١ حيدر آباد ١٣٥٩ هـ...

(١٩) الدولة الغزنوية: هي إحدى الدول الإسلامية التي قامت في شرق الدولة الإسلامية، ويرجع ظهور الغزنويين إلى "البتكين" كبير حجاب الأمير "عبد الملك بن نوح الساماني، وكان البتكين أحد الموالى الأتراك الذين اعتمد عليهم السامانيون في ضبط أمور دولتهم، فعلا شأنه ولزاد طموحه حتى أصبح مقرباً من رجال الدولة، مم أناح له تبوأ مناصب رفيعة في الدولة. لمزيد من التفاصيل أنظر: محمود عرفة محمود: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقتها بالخلافة العباسية، ص ٢٥٣، ٢٥٥، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨ م.

(٢٠) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٢٢٥، ٢٢٦، ترجمة: يحيى الخشاب وصديق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٦ م.

(٢١) رشيد الجميلي: الزياريون، ص ١٦٤، ١٦٥.

(٢٢) السلاجقة: يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين كانوا يقيمون في الصحراء الواسعة التي تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين، وقد كثرت هجرتهم إلى المناطق الإسلامية في إيران وقت انهيار الدولة السامانية حيث المراهي الوفيرة، وقد صرف السلاجقة بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم "سلجوق بن دقاق" الذي جمع شعبهم ووحدهم تحت زعامته وخضعوا لحكم أبناؤه وأحفاده من بعده، ومن أشهر ملوكهم طغرل بك "و"ألب أرسلان" و"ملك شاه" الحسيني: زبدة التواريخ لسي أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص ٢٣، تحقيق د/ محمد نور الدين، دار اقرأ، ط ١، بيروت ١٩٨٥.

(٢٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٨ ص ٢٥٠ - ٢٥٨.

(٢٤) كان السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥-٤٨٥ هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢ م) ملكاً مظلماً مهيباً، استولت جيوشه على كثير من البلاد حتى قيل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين، فكانت مملكته تشتمل على جميع بلاد ما وراء النهر، وإيران والعراق، وآسيا الصغرى، والجزيرة، والشام، وكانت جيوشه غادية راتحة بين أرجاء

- مملكته الواسعة. الرواندي، راحة الصنوبر وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية،
 ص ٢٠١-٢٠٢. الحسيني: زبدة التواريخ، ص ١٤٧-١٥١.
- (٢٥) ابن الفقيه الهمداني: كتاب البلدان، ص ٥٦٤، ٥٦٥. تحقيق، يوسف الهادي، عالم الكتب
 ط ١، بيروت ١٩٩٦ م.
- (٢٦) معجم البلدان، ج ٤ ص ١٣ - ١٦، دار صادر، بيروت ١٩٧٩ م.
- (٢٧) لمستنرج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤١٠، ٤٠٩.
- (٢٨) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ١ ص ٢٧٢، دار الجيل، ط ٨، بيروت ١٩٩٦ م.
- (٢٩) كان إقليم الديلم يخضع في الغالب لسيطرة مجموعة قبائل وأسر أمراء محليين، كانوا
 يترأسونهم وكانوا يتمتعون باستقلال كبير لذلك لعبت الاتجاهات الشعبية دورا كبيرا في
 استقلال بعض الأمراء المتقلبين بولاياتهم عن الخلافة العباسية. فبعد قيام الدولة
 العباسية واعتماد خلفائها على العناصر الفارسية بصورة كبيرة، أصبحت العناصر العربية
 بصورة تدريجية عن الوظائف والاسما العسكرية، وتبعاً لذلك بدأت النزعات القومية
 الفارسية تطفو على مسرح التاريخ لازعة إلى الاستقلال على النفوذ العباسي، بدعوى
 أن كل المسلمين أخوة، ثم ما لبث أن تحولت إلى المناداة بأن العرب أقل شأنا من غيرهم
 فظهرت الشعبية بوجهها الفتيح منادية بعودة دولة العجم، وتكوين كيانات سياسية
 فارسية. إبراهيم سلمان الكروي: البويهيون والخلافة العباسية، ص ٤٦، ٤٧.
- (٣٠) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ص ٩٥.
- (٣١) تاريخ طبرستان، ص ٨٩، ٩٠.
- (٣٢) نتيمة الدهر، ج ٤ ص ٧٣.
- (٣٣) ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان، ص ١٣١ - ١٣٩.
- (٣٤) معجم البلدان، ج ٣ ص ٧٤.
- (٣٥) ياقوت: معجم البلدان، ج ٣ ص ٧٥.
- (٣٦) لمزيد من التفاصيل عن الحضارة الإسلامية في القرنين الرابع والخامس الهجريين،
 انظر، كتاب 'مولد آل زيار في طبرستان وجرجان وما جانورهما' لتعمة علي مرسى.
- (٣٧) الشحات إبراهيم السيد: التطور السياسي والحضاري لدولة بنسي زيار في جرجان
 وطبرستان، ص ١٦٥، رسالة ماجستير (غير منشورة) قسم التاريخ، كلية الآداب،
 جامعة المنصورة ١٩٩٣ م.
- (٣٨) نعمة علي مرسى: مرجع سبق ذكره، ص ١١٥.
- (٣٩) الثعالبى: هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى، كان أديباً فاضلاً
 صنف كتباً كثيرة، منها: 'نتيمة الدهر' و'سحر البلاشة' و'كتاب طرائف القلائد' وإلى

- غير ذلك من الكتب. القيرواتي: زهر الآداب، ج ١ ص ١٦٩. ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٢ ص ٤٤.
- (٤٠) الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤ ص ٦٧.
- (٤١) السابق: ج ٤ ص ٦٨.
- (٤٢) الثمحات لإبراهيم: التطور السياسي، ص ١٦٧.
- (٤٣) أبو الريحان البيروني: هو الأستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، مؤلف شهير وكان البيروني ذا حظوة عند الملوك والأمراء ملما بعدد كبير من الفروع العلمية كالرياضيات والفلك وعلوم النجوم، ولم يكن في نظرائه في زمانه أحق منه بعلم الفلك. ياقوت: معجم الأدباء، ج ٥ ص ١٢٢. ابن الأثير: التلخيص في تهذيب الأنساب، ج ١ ص ١٩٧.
- (٤٤) معجم الأدباء: ج ٥ ص ١٢٤.
- (٤٥) السابق: ج ٥ ص ١٢٥.
- (٤٦) بديع الزمان الهمذاني: هو أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني المعروف ببديع الزمان، صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة، وعلى منواله تسج الحر يرى مقاماته واحتذى حذوه، وهو أحد الفصحاء وله الرسائل البديعة. وللنظم المليح، سكن 'هراة' من بلاد خراسان، وتوفي سنة (٣٩٨هـ/١٠٠٧م). الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ١ ص ١٣٩.
- ياقوت: معجم الأدباء، ج ٤ ص ٢٨٧. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج ٥ ص ٣٤١.
- (٤٧) القيرواتي: زهر الآداب ونهر الأنساب، ج ٢ ص ٤١٧، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٤، بيروت ١٩٧٢ م.
- (٤٨) العروضي السمرقندي: جهار مقالة، ص ١٤٦، ترجمة: عبد الوهاب عزازم، ويحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط ١، القاهرة ١٩٤٩ م.
- (٤٩) الزيداني: كمال البلاغة (وهو رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير) ص ٦٧ وما بعدها، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١ هـ.
- (٥٠) حسن منبينة: تاريخ الدولة البويهية، ص ٨٣، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٧ م.
- (٥١) محمد الخطيب: تاريخ الدويلات الإسلامية ج ١ ص ٣٣٩-٣٤٠.
- (٥٢) مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني، ص ١٤-١٥، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٥٩ م.
- (٥٣) ورثت الحضارة الإسلامية حضارات الفرس والروم والسريان، وورثت معها كل أساليب التلوين في هذه الأمم، إذ تجمعت الأسوال، وما تستدعيه من نوافل الشهوات والمجوس، وأصبح لكل ضرب من ضروب التلوين علم خاص ينقله أربابه وعلماءه، ويقرب أهله إلى الخلفاء والأمراء، حتى للرقص والغناء يذكر 'المسعودي' في مروجته أن الخليفة 'المعتد'

على الله العباسي قال لبعض من حضر من ثمالة: صف لي الرقص، وأنواعه والصفة المحددة من الرقص، وأذكر لي ثمالة، فقال: يا أمير المؤمنين أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم من أهل خراسان وغيرهم إلى آخر الرواية. والواقع أن الغناء انتشر في العصر العباسي انتشاراً عظيماً، حتى أصبح حاجة من حاجات المجتمع الضرورية، وأصبح المقتنون والمقتنيات في المحال العامة، وفي الشوارع وفي قصور الخلفاء، وفي بيوت الأغنياء، والفقراء على السواء، وملئت الكتب بالحكايات الغناء، حتى إن صاحب الأغاني يذكر لنا أن أحد المقتنين يقضى على الجسر فيجتمع السامعون حوله حتى يخاف من سقوط الجسر بهم، وأن بعضهم كان أن ينطح الحائط برأسه من شدة الإعجاب بحسن الغناء. لمزيد من التفاصيل أنظر: المسعودي: مروج الذهب ومعالن الجوهري، ج ٤ ص ٢٤٩، ١٢٥٠ - الأسفلهاني: الأغاني في أكثر من موضع طرأ على قنوت الكتاب.

- (٥٤) فهمي عبد الرزاق سعد: العامة في بغداد، ص ٢٩.
- (٥٥) أبو الفضل بن العميد: هو أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحصون بن محمد الكاتب المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده، لقب بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التفضيم، وكان فيه فضل وألب، وأما ولده هذا فقد كان وزير ركن الدولة بن بويه الديلمي والد عضد الدولة، وكان متوسعا في علوم الفلسفة والتنجيم، وأما الألب والترمذ فلم يقاربه فيه أحد في زمانه حتى سمي بالجليل الثاني. قال عنه الثعالبى: بدئت الكتابة بعد العميد وختمت بابن العميد توفي سنة (٣٦٠هـ/٩٧٠م). الثعالبى: بتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج ٣ ص ١٨٣، تحقيق د. مفيد محمد قمبيج، دار الكتب العلمية ط ١ بيروت ١٩٨٣ - ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٥ ص ١٠٣ تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
- (٥٦) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٥ ص ٢٢٢.
- (٥٧) نعمة علي مرسي: دولة آل زيار في طهرستان وجرجان وما جاورهما، ص ١١٧، دارا لهداية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٥ م.
- (٥٨) نعمة علي مرسي: مرجع سبق ذكره، ص ١١٨.
- (٥٩) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة الفاطمية، ص ٥٦، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م.
- (٦٠) عنصر المعالي كيكاموس: كتاب النصيحة المعروف باسم (قابوسنامه)، ص ٤٧، ترجمة، د/ محمد صادق نشأت، ود/ أمين عبد المجيد بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١ القاهرة ١٩٥٨ م.

- (٦١) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٤، دار النهضة العربية، ط٢ القاهرة ١٩٨٣م.
- (٦٢) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، ج ٢ ص ٣٤٦، ترجمة: أمين الشواوي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥م.
- (٦٣) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٥.
- (٦٤) بديع محمد جمعة: المرجع السابق، ص ٧٥، ٧٦.
- (٦٥) رضا زاده شفق: تاريخ الكتب الفارسي، ص ٧٤، ترجمة محمد وموسى هندوي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧م.
- (٦٦) القائل بأمر الله: أبو جعفر عبد الله بن القادر العباسي ولد عام (٣٩١هـ / ١٠٠٠م) وأمه أم ولد اسمها بدر النجدي وقيل قتل النذري ولي الخلافة بعد موت أبيه القادر عمام (٤٢٢هـ / ١٠٣٠م) وكان ولي عهده في حياته. ابن نحية: النيراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص ١٣٦. تحقيق عباس الغزالي، بغداد. ١٩٤٦م. السبيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٩ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٤م.
- (٦٧) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٩٢.
- (٦٨) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٥.
- (٦٩) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٧.
- (٧٠) عبد الحميد سند الجندي: ابن قتيبة (العالم الناقد الأديب) ص ١٨٨، ١٨٩ سلسلة أعلام العرب العدد (٢٢) المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.
- (٧١) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٧.
- (٧٢) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٦.
- (٧٣) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٧٥.
- (٧٤) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٩٢.
- (٧٥) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٥، ٧٦.
- (٧٦) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٥٨، ٥٩.
- (٧٧) لمزيد من التفاصيل انظر كتاب 'قابوسنامه' صفحات متعددة طوال فصول الكتاب.
- (٧٨) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، ج ٢ ص ٣٥٣.
- (٧٩) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٣٨.
- (٨٠) السابق: ص ١٥٦، ١٥٧.
- (٨١) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، ج ٢ ص ٣٤٧، ٣٤٨.
- (٨٢) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٨، ٤٩.
- (٨٣) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٨٥.

- (٨٤) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٨٧.
- (٨٥) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٦.
- (٨٦) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، ج ٢ ص ٣٤٦.
- (٨٧) لم يكن الأمير 'عنصر المعالي' أول من لحا هذا النحو من التأليف، بل كان مقلداً إلى حد كبير لكتب الحكم والنصائح الفارسية القديمة، والتي كان يتداولها العلماء ويتأدب بها الناس مثل: كتاب 'كليلة ودمنة' الذي ترجمه 'ابن المقفع' من اللغة الفارسية القديمة، والذي كان قد نقل بدوره من اللغة الهندية، وهذا حذوه كثير من المؤلفين، وعرفت العربية في ضوءه القصص على أسنة الحيوان والطير، ووضع الأمثال والحكم والعظات على ألوانها، وبخاصة في عصور الاستبداد وتكميم الأفواه وتحريم النقد، وكان الملوك يجعلون تلك الكتب دستوراً لهم في حكم الرعية ونشر العدل، كما يوجد في نصائح 'الحسن البصري' الفارسي، و'ابن قتيبة' في عيون الأخبار، و'الطبرطوشي' في مسراج الملوك، حتى إن 'ابن عبد ربه' عقد فصلاً في كتابه 'العقد الفريد' تحت فيه عن أمثال 'أكثم بن صيفي' و'بزرجمهر' مثال: 'إذا اشتبه عليك أمران، فم تدر في أيهما الصواب، فانظر أقربهما إلى هوك فاجتنبه' وقوله: 'احذروا صولة التكريم إذا جعاع، والتكليم إذا شبع' وغير ذلك من الأمثال التي نرى منها كثيراً في كتب الحكم والأخلاق. أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٨٩، ٩٠.
- (٨٨) حظي كتاب 'قابوسنامه' بشهرة عريضة بين قراء العربية، سواء من الأقباء أو من العامة، ونتيجة لما حظي به من اهتمام فقد ترجم إلى عدة لغات أجنبية، منها: الفرنسية، الإنجليزية والروسية، وترجم ثلاث مرات إلى اللغة التركية، ثم ترجم إلى اللغة العربية في عام ١٩٥٢، وذلك بفضل الدكتور أمين عبد المجيد بدوي.
- (٨٩) إدوارد براون: تاريخ الأدب العربي في إيران: ج ٢ ص ٣٤٨.
- (٩٠) كان 'ابن المقفع' على مقربة من الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية، لاسيما في العصر الخليفة 'أبي جعفر المنصور' الذي كان شديد البطش، فألف كتاباً في النصائح، أسماه 'رسالة الصحابة' وهو لا يقصد به صحابة رسول الله، وإنما صحابة السيادة والخلفاء، والذي وجه فيه نغده للخليفة ويطائنه بشيء من النصيح والإرشاد. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢ ص ٢٣٧.
- (٩١) جاء في الأدبيات الفارسية القديمة أن الملك 'دبشليم' لما تجبر وطغي، وكان يفرق من حوله من الملوك والأمراء، وصار مؤيذاً مظهرًا متصوراً، هابته الرعية، ولما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة، صبت بالرعية، واستصغر أمرهم، وأساء السيرة فيهم، وكان في زمانه رجل فيلسوف يدعى 'بيدها' فلما رأى الملك وما هو عليه من ظلم للرعية، فكر في وجه الحيلة حتى يصرفه عن فعله، ورده إلى العدل والإنصاف، فكتب كتاباً وجهه للملك مزج نغده له بكثير من المدح، بينما نسب أغلب الشدة التي يراها إلى غيره، ومن

- هنا ظهر ما يعرف في التاريخ بكتب النصائح، التي كان 'ابن المقفع' رائداً من روادها.
أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢ ص ٢٣٦، ٢٣٧.
- (٩٢) تاريخ الأئمة العربي في إيران: ج ٢ ص ٣٤٦.
- (٩٣) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ص ٥٦، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م.
- (٩٤) إدوارد براون: تاريخ الأئمة العربي في إيران، ج ٢ ص ٣٤٩.
- (٩٥) لمزيد من التفاصيل حول تلك القصة، انظر قابوسنامه، ص ١٦٦، ١٦٧.
- (٩٦) إدوارد براون: تاريخ الأئمة العربي في إيران، ج ٢ ص ٣٤٩.
- (٩٧) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٢٠٢، ٢٠٣.
- (٩٨) الفردوسي هو أحد شعراء الفرس المشهورين، والتي كانت له ثروة عظيمة أنفقها على نظم الشهنامة بدءاً على طلب من السلطان 'محمود الغزنوي'، واستغرق تأليفها ما يقرب من ثلاثين عاماً، ولكنه أصبح موضع نقمة السلطان، بسبب إسراف الفردوسي في مدح ملوك إيران القدماء. ولما كان السلطان سنيا متحسناً، لذلك أعطاه درهماً على كل بيت، بدلاً من دينار كما كان وعده، فتألم الشاعر، ونظم أبياتاً يهجو بها السلطان، فأساءت العلاقات بينهما. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٨، ترجمة: حمزة طاهر، دار المعارف، ط ٥، القاهرة ١٩٨٣ م.
- (٩٩) إدوارد براون: المرجع السابق، ج ٢ ص ٩٣.
- (١٠٠) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٢٠٢.
- (١٠١) الأئمة في إيران: ص ٩٤.
- (١٠٢) إدوارد براون: المرجع السابق، ج ٢ ص ٣٤٨.
- (١٠٣) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٨٦.
- (١٠٤) السابق: ص ٤٨.
- (١٠٥) بديع محمد جمعة: من روائع الأئمة الفارسي، ص ٧٦.
- (١٠٦) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٧.
- (١٠٧) تاريخ طبرستان: تاريخ بغداد، ص ١٥٧، عبد الحميد سند الجندی: ابن قتيبة، ص ٢٦.
- (١٠٨) سورة الأنعام: آية (١٥٢)
- (١٠٩) سورة المائدة: آية (١)
- (١١٠) سورة التحل: آية (٩٠)
- (١١١) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٣٩.
- (١١٢) عبد الحميد سند الجندی: ابن قتيبة، ص ١٠٣.
- (١١٣) براون: أئمة في إيران، ص ٣٥٥.

- (١١٤) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٣٤، ٣٥.
 (١١٥) السابق: ص ٣٨.
 (١١٦) قابوسنامه: ص ٥٠.
 (١١٧) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٩٢.
 (١١٨) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ١٢٣.
 (١١٩) السابق: ص ١٦٣، ١٦٤.
 (١٢٠) السابق: ص ٩٦، ٩٥.
 (١٢١) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٢٣٠ - ٢٣٥.



المغنيات ودورهن في دولة سلاطين المماليك

عصر أبناء الناصر محمد بن قلاوون

(٧٤١-٧٦٢هـ/١٣٤١-١٣٦١م)

د. حسن أحمد عبد الجليل البطاوي (*)

هذا البحث يلقي الضوء على قضايا مهمة في تاريخ دولة سلاطين المماليك، وتختص هذه القضايا بالجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والفنية. فهي تقدم سبباً من أسباب الاضطرابات السياسية والعسكرية التي جرت في دولة سلاطين المماليك أثناء حكم أبناء الناصر محمد بن قلاوون.

ثم نتعرف البذور الأولى للتدهور الاقتصادي الذي أصاب البلاد وكان سبباً وراء سقوط تلك الدولة فيما بعد، والذي جاء جراء الانهيار السياسي والإداري للفترة موضوع الدراسة.

ثم إن الموضوع يقدم صفحة من حالة اجتماعية عاشتها البلاد ممثلة في الحياة الخاصة للسلاطين، وأثر هذه الحياة على عوام الشعب. هذا فضلاً عن إلقاء الضوء على النشاط الفني في تلك الدولة خلال فترة الدراسة.

وفي البداية تجدر الإشارة إلى أن المغنيات من الجوّاري اللواتي يقمن بالغناء، وعرفت المغنيات في المصادر المعاصرة باسم المغاني. وسماع المغاني أي سماع المغنيات، والكلمة محمولة على الغناء المعروف بين أهل اللهو واللعب، أو أرباب الملاهي. والغناء من الصوت هو ما طُرب به، ويقال غنى فلان أغنية، وتغنى بأغنية حسنة، وجمعها الأغاني. ولما كان الغناء مرتبطاً بالموسيقى فإن كثيراً من المغنيات كن يجدن استخدام آلاتها^(١).

وأسواق الرقيق كانت المصدر الأساسي للجوّاري اللواتي يصبحن مغنيات فيما بعد، وكانت سلّعتن راجعة، فالعاملات في تقيين^(٢) الجوّاري يذهبن إلى أسواق الرقيق وينتقين الجوّاري اللواتي تراهن مناسبة للغناء، فتختبر صوتها، وتستفحص جمال وجهها وظرفها، ثم ترى مهاراتها في استخدام آلات الطرب، وإذا كانت الجارية تحسن الغناء فإن ثمنها يتضاعف^(٣).

(*) أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة أمبوط.

وتدخل الجارية في مراحل متعددة من التدريب المستمر حتى تصبح مغنية، فتعظم القراءة والكتابة والأدب والشعر، فضلاً عن فنون أخرى تضيف إليها حسناً وطقاً. وأما من تنطوق منهن على غيرها من الجواري في تحصيل ما تعلمته، علاوة على امتلاكها صورة وصوتاً حسناً، فإتقانها تلحق بجواري الحاكم أو أحد الأمراء فيلعب نجمها، وإذا كانت ذات حظ أوفر إقبالها تملك ثروة وتنفذاً جراء التحاقها بدائرة السلطة^(١).

وأقبل سلاطين المماليك على سماع المغاني إقبالاً زائداً عن الحد، ولم يكن هؤلاء المماليك مستحدثين لهذا الأمر، وإنما ورثوه عن سابقيهم من بني العباس والفاطميين والأيوبيين. وشجعهم على ذلك توافر الجواري المغنيات داخل سلطنتهم، وقدمهم في ذلك أمراؤهم وكبار رجال الدولة والموسرون من الشعب^(٢). ولأنه أن اهتمام ذوي السلطة والتنفوذ والمال في دولة سلاطين المماليك بالغناء والمغنيات رفع من قدر هؤلاء النساء، وحظين بالاهتمام والرعاية، وجمعن ثروات طائلة وتنفذاً عريضاً.

وأصبح سوق الجواري راجحاً، وزاد الإقبال على اقتنائهن، فتوافر عدد كبير من هؤلاء المغاني اللواتي اتسع نشاطهن في مختلف أرجاء دولة سلاطين المماليك. وترتب على ذلك اتجاه الدولة إلى تقنين عمل هؤلاء المغنيات، وإدراج نشاطهن ضمن الأنشطة الراحبة والتي ينبغي أن تدفع من ترغّب في ممارستها ضريبة. ولما كانت هذه الضريبة غير شرعية فقد دخلت تحت نظام الضمان^(٣). وعرفت الضريبة بضمان المغاني أو مقرر الملاهي والأفراح^(٤).

هذا وقد در ضمان المغاني أموالاً طائلة لهذه الجهة^(٥)، فذكر المقريزي أن ضامنة المغاني تحصل عن فرح واحد خمسمائة درهم لما فوقها، بحسب حال أهل العريس، هذا فضلاً عن المناسبات الأخرى التي يشارك بالغناء فيها^(٦). وأكد ابن حجر على هذا المعنى، فقال إن أحدًا لا يستطيع أن يقيم عرساً بدون دفع عشرين إلى ثلاثين منقال ذهب^(٧).

وحرصاً من الدولة في عهود عدد كبير من السلاطين على تحصيل الأموال من هؤلاء المغاني فإتبعهم أولوا ضمان المغاني غاية فائقة، وحرصوا على تركيب العمل به، وإخضاعه للمراقبة الصارمة. وبلغ الأمر حداً أنه ما من مناسبة يقام فيها فرح إلا ودفع صاحبه مالا باسم مقرر الملاهي والأفراح. وجرى الأمر على أن واحدة من النساء تتولى مهمة ضمان المغاني، وذلك كونها سيدة ومحترفات الغناء هن من الجواري، وغالباً ما كانت ضامنة المغاني واحدة من المغنيات اللواتي تقدم بها العرس فلم تعد مرغوبة للغناء. وكانت ضامنة المغاني تسجل أسماء المغنيات لديها، وعلى كل مقبولة ضريبة مقررّة تدفعها للضامنة^(٨).

وفرضت رقابة صارمة على المغنيات حتى لا يتقنن بدون دفع الضريبة المقررة، وتولت الضامنة وفريق عمل لديها مهمة المراقبة، فكان يذهب إلى بيوت المغاني لسيلاً للتأكد من وجودهن، وإن لم تكن واحدة منهن في منزلها اعتبرت في مهمة عمل، وتقرر عليها دفع الضريبة عن هذا العمل^(٩).

والواقع إن ضريبة المغاتي كانت محل نقد من وجهة نظر كثير من الخاصة والعامة، كما لم يقبل بعض السلاطين بوجود هذا النشاط. وكان الناصر محمد بن قلاوون واحداً من هؤلاء السلاطين فقد أغرى هذه الضريبة سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م عندما لمس الظلم الذي تسببه لبعض الناس، فضلاً عن الرذائل التي ترتكب مصحوبة بها، ولكن عاد الصل بها مرة أخرى بعد هذا التاريخ^(١٣).

وتجدر الإشارة هنا إلى أمر مهم، وهو ارتباط الغناء باللهو، إذ إن طبعة العصر كانت تلقي بظلالها على الغناء، وكذا على الاحتفالات عموماً والخروج إلى المتنزهات. وكانت آراء الفقهاء ولغاواهم تنطلق صارمة تجاه الغناء وأربابه والمشاركين في مجالسه. والحقيقة إن الغناء في الأفراس والملاهي والاحتفالات ومواضع التنزه والمجالس الخاصة كان مصحوباً في أغلب حالاته بوقوع تجاوزات ومفاسد أخلاقية؛ مثل شرب الخمر والحشيش وارتكاب الفواحش وغير ذلك. ولما كانت المغنيات يقمن بالغناء في هذه المناسبات فإنهن حملن وزر هذه الجرائم، وارتبط الغناء بالبهاء، وأصبحت المغنيات عنواناً للهو والهجور^(١٤).

والحقيقة إن عامة الشعب أخذوا حظهم من سماع المغنيات، ولكن نشاط المغنيات وأثره البارز هو ذلك النشاط الذي لعبه في حجور أصحاب السلطة، واعتنى برصده مؤرخو تلك الفترة، وهو الذي ركزت الدراسة عليه هنا. فنجد الناصر محمد بن قلاوون، اعتنى بالجواري عموماً والمغنيات منهن على وجه الخصوص، فاشترى أعداداً كثيرة منهن، واختص بواحدة تدعى دينا، كانت حاذقة في الغناء، وبلغ اهتمامه بها درجة جعلت البعض يقول إنه تزوجها^(١٥). وكذا أعجب بواحدة أخرى تدعى طغاي، وبلغ إعجابه بها حد الشغف، ثم تزوجها فكانت أقرب زوجاته إلى قلبه، وأنجب منها ولده أنوك، وهذا الولد فاق حبه في قلب والده حب إخواته الآخرين. ثم إن أبناء الناصر الآخرين أنجبهم من جواريه أيضاً، وعلى سبيل المثال، فإن أم ابنه أحمد مغنية تدعى بهاض، وهي ليست إلا جارية كانت تجيد الغناء، فاشتراها واختص بها وأنجب منها ولده هذا، ولايستثنى من أولاده سوى الصالح صالح فإن أمه هي ابنة الأمير تنكز^(١٦).

وكذلك امتلك أمراء المماليك جواري مغنيات كثيرات، وانفقوا على شرائهن مبالغ طائلة. ومن ذلك أن الأمير بكتر السالقي^(١٧) أعجبه جارية تدعى خوبي، كانت بارعة في الغناء وضرب العود فاشتراها بعشرة آلاف دينار مصرية. وأما الأمير بشتك^(١٨) فإنه انتظر حتى وافته الفرصة بوفاء بكتر السالقي، فاشترى جاريته خوبي بستة آلاف دينار، مضافة إلى ما كان عنده من الجواري اللواتي زاد عددهن عن ثمانين جارية^(١٩).

عصر أبناء الناصر محمد:

بدأ عصر أبناء الناصر محمد بن قلاوون بتولي ابنه أبي بكر السلطة بعد وفاة والده في ذي الحجة سنة ٧٤١هـ/مايو ١٣٤١م. وانتهى عصرهم بمقتل الناصر حسن في جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/مارس ١٣٦١م، وهو آخر أبناء الناصر الذين تولوا السلطة، ثم خلفه عدد من أحفاد الناصر.

وبالرغم من اهتمام المماليك بالمغنيات، اقتناءً وتربيةً وإثراءً، فإن فترة حكم أبناء الناصر محمد هي الفترة الأبرز في تاريخ دولة سلاطين المماليك من حيث الاهتمام بالمغنيات، واللهو في حضرتهم، وهي الفترة التي لعبت فيها المغنيات دوراً بارزاً في تاريخ هذه الدولة، فامتلكن قلوب السلاطين المراهقين والشباب من أبناء الناصر، وتحكمت بعضهن في مور مهمة من مقدرات البلاد. وانعكست تدخلاتهن على جوانب عدة من أوضاع البلاد بصورة سلبية، وهو الأمر الذي سيتضح من خلال العرض التاريخي الآتي.

تولى أبوبكر السلطة بعد وفاة والده مباشرة، وكان شاباً بلغ عمره حوالي العشرين سنة. تشغل أبو بكر بالقضاء والمغنيات، وتحولت مجلسه إلى مجالس سكر وعريضة. فاختص بنظر من القمآن^(٢٠) أسند إليهم مهمة إحصاء المغنيات لئلا له ولندمائيه. والخرط في لهوه بدون وعي، وعدم إدراك لموقعه أو لمسؤولياته، وتناقلت ألسن الناس إنحرافات السلطان. وتحركت غائرة النفوس في صدور كبار الأمراء، ونصحه بعضهم بالتخلي عن مصاحبة المغنيات، والبعد عن اللهو والسفاهة. ولكن السلطان أخذته العزة بالإثم، ولم يكن ذا أذن صاغية لتلك النصائح الرشيدة، واستمر على لهوه، بل زك على ذلك فتجاهر بفسوقه. واتخذ سوء سلوك السلطان حجة عند بعض الأمراء وعلى رأسهم الأمير قوصون^(٢١) لخلع السلطان، فخرجوا عليه وخلعوه في صفر سنة ٧٤٢هـ/ يوليو ١٣٤١م. وبذلك خسر المنصور أبوبكر عرشه بسبب انهماك في اللهو مع المغنيات، واتسفاله بهن عن إدارة أمور البلاد^(٢٢).

واختار الأمراء أخوه كجك ونصبوه سلطاناً، ولقبوه بالملك بالإنشراف، وكان عمره حوالي خمس أو ست سنوات فقط. وهو ما يعني أنه كان طفلاً صغيراً أثناء سلطنته، وليس معيلاً بأمر المغنيات، وما يجري في محيطهن من تجاوزات. هذا فضلاً عن أنه لم يستمر في السلطنة سوى خمسة أشهر وأياماً، وخلعه الأمراء، واختاروا أخاه أحمد بدلاً منه في أول شعبان سنة ٧٤٢هـ/ يناير ١٣٤٢م، ولقبوه بالناصر^(٢٣).

وكان الناصر أحمد هذا شاباً يافعاً عند توليه السلطنة، تزوج في حياة والده، ولم يكن والده راضياً عنه، فأرسله ليقيم في الكرك^(٢٤)، وظل مقيماً بها، إلا من زيارات قليلة قام بها إلى القاهرة، وبقي على حاله حتى بعد وفاة والده. وفي خلال إقامته في الكرك عرف عنه شغفه بشباب أهلها، وانهماك في معاقرة الخمور. وعندما تولى السلطنة كانت إقامته في الكرك أكثر من إقامته في القاهرة، وهناك استمر في لهوه ولعبه، واعتزل الناس من أجل ملذاته. وأما أمراء المماليك فإنهم وجدوا حجتهم في سوء سيرة الناصر أحمد للخروج عليه وخلعه، فخلعوه في المحرم سنة ٧٤٣هـ/ يونيو ١٣٤٢م، وأقاموا أخاه إسماعيل سلطاناً، ولقبوه بالنصالح. وبذلك لم يدم الناصر أحمد في السلطنة سوى خمسة أشهر وأياماً^(٢٥).

المغنية اتفاق وثلاثة سلاطين:

ومع بداية حكم الصالح إسماعيل بدأت فترة هي الأكثر ظهوراً ونفوساً وأثراً للمغنيات في دولة سلاطين المماليك. وتميزت هذه الفترة بظهور مغنيات بعينها أصبحن نجمات مجتمع، ومشهورات عند الخاصة والعامة في كافة أرجاء الدولة. وعلى رأس هؤلاء المغنيات واحدة تدعى "اتفاق"، تلك المغنية حظيت بمكانة مرموقة عند ثلاثة من السلاطين أبناء الناصر هم: إسماعيل وشعبان وحاجي، وتزوجت منهم جميعاً على التوالي كما منوضح بعد.

وأشير في البداية إلى أن الصالح إسماعيل كان عمره قد تخطى السبع عشرة سنة حين تولى السلطنة، وأقبل على حب الجواري المغنيات، وأرباب الملاهي والمطربين عموماً، وانخرط في مجالس اللهو مع هؤلاء، وحرص على اصطحاب هؤلاء الجواري معه في رحلاته إلى أماكن التنزه والسرعات^(٢٧). بل إنه جعل لوالدته موكباً مهيّباً من تلك النساء عند خروجها معه إلى إحدى السرحات. وبلغ عدد النساء المشاركات في موكب أم السلطان مائتي امرأة في كامل زينتهن، يرتدين الثياب الأطلس الملون، ويضعن على رؤوسهن الطراوير الجلد المرصع بالجواهر والألغز. ويسير الخدام في صحبتهم منذ خروجهن من القلعة وحتى وصول الموكب إلى السرحة^(٢٨).

وأما السلطان نفسه، فإنه كان يبالغ في تدليل حظاياه، واللعب واللهو معهن، فيجلب لهن الخيول العربية الأصيلة، ويدعوهن لركوبها والمرح عليها، ويفسح لهن المجال ليتسابقن بها، وتارة أخرى يركبهن بالكاملات الحرير ويلعن الكرة^(٢٩) بسل إن السلطان بالغ في اللهو والعبث مع جواريه إلى حد فاق الوصف، وكثر سقهه معهن في المواسم والأعياد وأوقات التنزه ومناسبات الأفراح^(٣٠).

وعلاوة على ما سبق فإن الصالح إسماعيل ملك درب البذخ والإسراف في الاتفاق على الجواري المغنيات، وجعل لهن الرواتب، وأنعم عليهن بعدة أرزاق^(٣١). وكان لا يفيض له جفن حتى يأكد من حصولهن على إعاناته وهداياه، فصارت لهن مهابة في نفوس كبار موظفي الدولة، وصارت كلمتهن نافذة، فيقضين ما يرغبن في قضاءه من أمور الدولة، ويمتنع ما لا يرغبن في قضاءه، حتى وإن صدرت به مراسيم كبار الموظفين. واتجه أولوا الحاجات من أبناء الشعب إلى جواري السلطان ليقضين لهم حاجاتهم. وبلغ الأمر بالأمير الحاج آل ملك نائب السلطنة^(٣٢) أنه كان يتحسر على ما وصلت إليه البلاد من أوضاع مزريّة، وما وصلت إليه نيابة السلطنة من انحطاط قدرها، في مقابل ما بلغته مقاني السلطان من نفوذ في إدارة أمور الدولة. وكان إذا جاءه أحد يطلب منه قضاء حاجة، كإقطاع أو مرتب أو غير ذلك، رد عليه في حسرة ساخرة قائلاً: يا ولدي! رح إلى باب الستارة ابصر طواشي، أو توصل لبعض المغاني تقضي حاجتك^(٣٣).

ثم إن الصالح إسماعيل كان يميل إلى الجواري السود، فإذا كان قد أقبل على المغنيات عموماً، وأكثر منهن في بلاطه، وشغف بهن، فإنه فضل السوداء على من

دونها من رقيقاتها، وأفرط في حبهن^(٣٦). وبالرغم من إن الصالح إسماعيل أكثر من شراء الجوارى حتى بلغت عدتهن خمسمائة جارية فإنه اختص بالمغنية اتفاق، فحازت هذه المغنية إعجابه بدرجة فائقة، واتفاق هذه جارية سوداء حائكة السوداء، كانت ماهرة في ضرب العود، فبلغت فيه درجة عالية، لا يفوقها فيه أحد، وامتلكت صوتاً جميلاً مع مهارة النقاء. فأقبل عليها السلطان، وشغف بها شغفاً زائداً، وأفرط في حبه وتدليلها، حتى نجحت في امتلاك قلبه وملكه، ولما كان على هذه الحال من الشغف بها، فإنه لم يتردد في الزواج منها^(٣٧).

ولما كانت اتفاق على هذه الدرجة من المحبة والقرب من قلب السلطان الصالح إسماعيل، فإنه من الطبيعي أن يفتح أبواب خزان الدولة ليأخذ منها كل نفس من الجواهر والهدايا الثمينة وينعم عليها بتلك الهدايا. ومن العجب أن السلطان توقع التوسم والمعارضة من بعض العقلاء من كبار رجال دولته، فرتب لهذا الأمر الاحتياطات اللازمة التي تستر عليه إسرائيل وسفحه مع مقتوته، فاختار شخصاً تتوافر فيه الشروط المناسبة للقيام بمهام خاصة هي: حفظ سره مع اتفاق والتستر على مسفحه، ثم يكون هذا الشخص مسؤولاً عن إحدى الإدارات المالية الكبرى. ووجد السلطان ضالته في شخص جمال الكفاة ناظر الخاص^(٣٨)، وجعل منه كاتب سر هواه مع المغنية اتفاق، وممولاً سخياً للأموال التي يحتاجها السلطان للإعفاء علىها. والزيادات أواخر الثقة بين السلطان وجمال الكفاة، ورأى السلطان أن يرفع قدره في الدولة، ويزيد في راتبه، فجعله مشير الدولة. ثم تهادى السلطان في منحه لجمال الكفاة، فأمر كاتب سره علاء الدين على بن فضل الله العمري أن يكتب لجمال الكفاة في توقيعه 'الجناب العالي'. ولم يكن من المعتاد أن يكتب في مكاتبات الدولة وأوراقها لواحد من كتاب الديوان هذا اللقب، وإنما يكتب للأمراء أصحاب الوظائف الكبرى^(٣٩). ولذلك أثار هذا الأمر حفيظة كاتب السر، واعتبره خرقاً لتقاليد الدولة، ورفض أن يخط هذا اللقب بيده. وأما الصالح إسماعيل فإنه أصر على تنفيذ ما أمر به، فبلغ بذلك جمال الكفاة مرتبة لم يبلغها أحد غيره من كتاب الدواوين في تلك الفترة من عمر دولة سلاطين المماليك^(٤٠).

ونجح جمال الكفاة في استغلال علاقة الصالح إسماعيل بالمغنية اتفاق على أحسن ما يكون الاستغلال، فطلب من الصالح أن ينقله من رتبة الكاتب إلى الإتيقاف بجماعة الأمراء، وأن يكون أمير مائة مقدم ألف^(٤١). وهذا الأمر لم يحلم به كاتب قبله، ولم يكن هذا الطموح مشروعاً لكاتب في ظل نظام دولة سلاطين المماليك العسكرية الطابع. وما بلغه جمال الكفاة من طموح، وخروقات السلطان لتقاليد السلطنة، وانتهاك حرمتها، وتهديد أموالها من أجل مقبته اتفاق، كل ذلك أثار حفيظة نفر غير قليل من أمراء المماليك على هذا الكاتب والسلطان معاً. واشتغلوا في التآمر على جمال الكفاة، وتصيد الأخطاء له، كل ذلك والسلطان يحوطه برعايته، ولا يصدق فيه قالة السوء، أو ربما لا يريد أن يصدقها. ولم ينجح المتآمرون في التوقيع بين السلطان وجمال الكفاة إلا

عندما أثبتوا للسلطان أن هذا الرجل يقضي أسرارهم مع المغنية اتفاقاً، عندئذ خسر جمال الكفاة أمواله وحياته في صفر ٧٤٥هـ/يونيو ١٣٤٤م^(٣٩).

والواقع إن اتفاق أخذت لب الصالح إسماعيل، فأنفوس في لهوه وملذاته معها، تاركاً أوضاع البلاد في جوانب عدة في حالة اضطراب متزايد. فعلى الصعيد السياسي والأمني؛ تمردت قبائل عدة من عرب الصعيد والفيوم، وكذا نحت نحوهم قبائل أخرى في بلاد الشام. واضطربت الأوضاع الاقتصادية للبلاد، ما أدى إلى انهيار حالة العملة، وزيادة فرص غشها وزناً ونقاوة. وزادت الضرائب المفروضة على الشعب، وتضررت الحركة التجارية داخلياً وخارجياً، ولم يقبل البنادقة زيادة الضرائب المفروضة على تجارتهم، وللتظروا لعل الأوضاع تؤول إلى التحسن. ولما زادت الحال عما كانت عليه تقدموا بشكوى يتهون فيها إلى السلطان ما تكبدوه من خسائر جراء ما يدفعونه من ضرائب باهظة، ويرجونه شمولهم بقطعة، وتخفيف هذه الأعباء عن كواهلهم^(٤٠).

ولم تلقج الجهود الإصلاحية التي تبناها الأمير الحاج آل ملك نائب السلطنة، فقد اضطدمت جهوده برغبة مغاني السلطان، الطامحات الجامحات، وكذا تعارضت جهوده مع رغبات بعض الأمراء الذين حرصوا على استمرار أوضاع البلاد على ما هي عليه من انشغال السلطان بمغانيه، ما يعود عليهم بالنفع، وتحقيق ما يصبون إليه من أطماع^(٤١).

ولم ينه هذا الاحتقان إلا سقوط السلطان الصالح إسماعيل فريسة للمرض، وتزايد عليه المرض حتى عجز عن الحركة. وفي ربيع الآخر ٧٤٦هـ/أغسطس ١٣٤٥م لفظ السلطان أنفاسه الأخيرة، وعمره آنذاك كان قد بلغ العشرين. واتفق الأمراء على تنصيب أخيه شعبان سلطاناً، ولقبوه بالكامل. ومن المؤسف أن هذا الفتى مسار على نفس الدرب الذي سار فيه أخوه إسماعيل. واستهل سلطنته بالاستيلاء على جوارى أخيه، وخص نفسه بالمغنية اتفاق، وصرح بإعجابه بها منذ أن كانت تحت أخيه، فبانت عنده في أول ليلة له وهو على عرش السلطنة^(٤٢).

وجرت علاقة الكامل شعبان بالمغنية اتفاق مثملاً كانت عليه علاقتها بأخيه إسماعيل، فقدم لها الهدايا الثمينة، وعدد من العقارات والممتلكات وما شابه ذلك، فحققت ثروة طائلة، وكذا أصبحت سيده ذات نفوذ واسع في بلاط السلطنة، بله في أرجاء البلاد كلها كما سنرى بعد.

وأما عن ثراء اتفاق، فإن ما قدمه السلطان الكامل شعبان لها من هدايا نفيسه وثروات كانت مضرب الأمثال، ومثار عجب الخاصة والعامة، حتى قيل إنه لم يكن لامرأة في زمانها من الخطوة والسعادة مثملاً كان للمغنية اتفاق. ومما قدمه لها السلطان من هدايا أنه أقام لها دايير بيت^(٤٣) طوله اثنين وأربعين ذراعاً، وعرضه ستة أذراع، وأتفق على تكلفته خمسة وتسعين ألف دينار مصرية، هذا فضلاً عما أضيف إليه من البشخانة والمخاد والمساند^(٤٤)، ومن جملة ما تملكه اتفاق من الأغراض باهظة الثمن أربعون بدلة ثياب مرصعة بالجواهر، وست عشرة بدلة بدايير زركش، وثمانون بدلة أخرى

مقتعة، بلغت قيمة بعضها عشرين ألف درهم، وألقوا قيمة بلغ ثمنه خمسة آلاف درهم، هذا بالإضافة إلى أشياء أخرى ذات قيمة عالية^(٩٠).

وإذا كان إصراف الكامل شعبان على المغنية اتفاقاً أمراً مثيراً للعجب، فإن ما يفوقه عجباً أنه خصها بجزء من الأموال التي صادرها من بعض الذين غضب عليهم من رجال دولته. ومن ذلك أنه في جمادى الأولى سنة ٧٤٦هـ/سبتمبر ١٣٤٥م ألقى القبض على أحد الرجال الأثرياء، وصدر الأمر بمصادرة ممتلكاته، واختار السلطان واحدة من دوره العظيمة، وأدمها هدية لمغنيته المحبوبة اتفاقاً^(٩١).

ومن المؤسف أن الكامل شعبان اتبع سياسة مصادرة الأموال لتوفير ما يلزمه ليقدمه بين يدي مغنيته المحبوبة، ويبقى مغنياً في لهوه مع اتفاق ورفيقاتها. ومن المعروف أن الكامل شعبان كان ينفق أموالاً طائلة لإرضاء شهواته مع جواريه، وعلى رحلات التنزه التي باتت في الاتفاق عليها، وطالت مدة إقامته في أماكن التنزه، ما جعله في حاجة مستمرة للأموال. ومن ذلك على سبيل المثال، أنه خرج في مستهل في جمادى الآخرة سنة ٧٤٦هـ/٢٩ سبتمبر ١٣٤٥م إلى سرحة مسرياقوس، واصطحب معه حريمه، وأمر بت نصب الخيام لهن في البساتين، وأخذ لهن المناظر المخصصة للأمراء، فنزل أكثرهن بها. وفي هذه الرحلة تشغل المنطان بتحصيل لذاته، وألقى الممالك أثر سلطانهم، فأسرفوا في شرب الخمر، والمجاهرة بارتكاب الفواحش، وساعت مديرتهم في الناس^(٩٢).

وتابع الكامل شعبان السعي وراء شهواته فقرر الزواج بواحدة من بنات الممالك المعروفة بالجمال. وفي شعبان ٧٤٦هـ/ديسمبر ١٣٤٥م جرت الاحتفالات بمناسبة زواج السلطان، وكانت الفرصة مواتية لكي تضح القلعة سبعة أيام بليلتها من الاحتفالات البهيجة التي أقامها السلطان. واجتمع في هذا العرس عدد ضخم من المغنيات، وعلى رأسهن اتفاق. وأطلق السلطان يده للاتفاق بسخاء على المغنيات، فحصلن على هدايا نفيسة من الذهب والفضة والحريز، هذا فضلاً عن هدايا أخرى بجبل وصفها. وبلغ نصيب ضامنة المغاني بمفردها من هدايا السلطان ثمانين ألف درهماً، بالإضافة إلى ما أخذته المغنيات الأخريات^(٩٣).

ولما كان السلطان يذوب عشقاً في مغنيته اتفاق، فإنه لم يدع فرصة أو مناسبة تفوته بدون أن يقدم لها هدية تجر عن مكثه. فبعد خروجها من عرسها السابق ذكره بهدايا ثمينه، إذا بالكامل يقدم لها هدية في رمضان من نفس العام عبارة عن دوايين كانا ملكاً لأحد رجال الدولة، وعوض صاحبهما بثمانية وعشرين ألف درهم^(٩٤).

وما أن انتهى شهر رمضان سنة ٧٤٦هـ/يناير ١٣٤٦م حتى عاد الكامل شعبان إلى سابق عهده في إقامة الاحتفالات. ومن ذلك أنه أقام حفلاً ضخماً في ذي القعدة احتفالاً بزواج طواشي من جارية من ممالكه. وحضر السلطان العرس، وكعادته اصطحب اتفاق ورفيقاتها، وأنفق عليهن في هذا العرس أموالاً طائلة، ونثر فيه الذهب على العروسين^(٩٥).

ولازالت المغنية اتفاق صاحبة المكانة لدى السلطان، فعندما صودرت أموال الأمير قماري نائب طرابلس^(٥١)، ووصلت خزائنه إلى القلعة في المحرم سنة ٧٤٧هـ/مايو ١٣٤٦م أخذ الكامل منها قماش نساء هذا الأمير وقدمه هدية لاتفاق وبعض المغنيات الأخريات. ثم خص اتفاق بثروة نائب طرابلس، والتي بلغت ما يصل وزنه إلى سبعين مثالا من اللجوهر^(٥٢).

وبالغ السلطان في احتفائه بالمغنية اتفاق حداً فاق الوصف، واتشغل باللهو معها هي وصواحبها عن إدارة شئون البلاد. ومن ذلك أن اتفاق أنجبت للسلطان ولداً في ربيع الآخر سنة ٧٤٧هـ/أغسطس ١٣٤٦م، ففرح بمولوده فرحاً عظيماً، ويبعد أنه كان في طريقة إلى إقامة احتفالات أسطورية تعجز عنها خزائن الدولة، وتثير حفيظة نفر من المماليك، لذلك نصحه الأمير أرغون العلائي^(٥٣) لزوج أمه ومدير دولته بالتوقف عما يسعى إليه، ولختصر السلطان احتفالاته فجاءت في سبعة أيام. ولما اتفق أم الولد^(٥٤) فقد أقام السلطان لها بشخانة ودابير بيت، وغشاء مهد الولد، وقماطة، تكلفت ستة وثمانين ألف دينار. هذا فضلاً عما أنفق على أرباب الملاهي الذين شاركوه احتفاله بمولوده الكثير^(٥٥).

وبذلك قضى الكامل شعبان سلطنته شغوفاً باللهو واللعب وسماح الأغاني، والميل إلى المغنيات، والوقوع تحت تأثيرهن، وسعى ما وسعه السعي نحو تحقيق رغباتهن. فخرج بهن إلى أماكن التثزّه والصيد ولعب الكرة، وهن على أصن ما يكون من الزينة، هذا مع عدم التزامهن بالأداب العامة التي انتقدتها المعاصرون^(٥٦). كما أطلق أيديهن في أخذ أموال الناس، كالسياتين والرزق والدوايب وتحوها. ومن ذلك على سبيل المثال أن المغنية اتفاق أخذت عدة ممتلكات كانت ملكاً لأحد الأثرياء، وسارت أم السلطان على نهجها، فأخذت من هذا الرجل أيضاً بعض الممتلكات الأخرى^(٥٧).

وأصبح من المتوقع أن تأتي نهاية السلطان الكامل شعبان جراء اتباعه شهواته، وانصرافه إلى اللهو واللعب، والإسراف بسفه على المغنيات. كما سعى بكل جهده لإرضاء رغباتهن، وتنفيذ ما يطمحن إلى تحقيقه. ومن ذلك أنه اتخذ قراراً في نهاية سنة ٧٤٦هـ/مارس ١٣٤٦م بالخروج إلى الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحج مدفوعاً برغبة نسله. وسعى الكامل شعبان إلى إعداد تجهيزات أسطورية لهذه الرحلة، ولما كانت خزانة الدولة لا تفي بتغطية نفقاتها، فإن السلطان لجأ إلى مصادرة الأموال. ومع مطلع سنة ٧٤٧هـ/أبريل ١٣٤٦م اشتد في مطالبة أهل النواحي بتجهيز متطلبات سفره إلى الحجاز، والإسراع في توفير الأموال من مصر وبلاد الشام جميعاً^(٥٨).

والواقع إن السلطان وجد من بين أمراله مخلصين نصحوه بتأجيل حجه، وهؤلاء الأمراء مدفوعون بعمهم أن أوضاع البلاد الاقتصادية لا تحتمل مثل هذه النفقات التي يعزّم السلطان إنفاقها، وأبلغوه أن الزراعة في البلاد قد تضررت وتراجعت إنتاجها، وأن بعض العربان خرجوا عن طاعة الدولة. ولكل هذه الأسباب لا يجب عليه أن يخرج إلى الحجاز، واقتنع السلطان بمشورة ناصحيه، وتراجع عن قرار سفره^(٥٩).

وجاءت الظامة على حياة السلطان وملكه من قبل نساينه، فقد رفضن فكرة تراجعهم عن السفر، وأخذن في تقوية عزمه على متابعة الاستعدادات اللازمة. ومن المؤسف أن السلطان مال إلى رغبة نساينه، ولم يقدر أوضاع البلاد بما تستحق من الاهتمام. وخرجت كتبه إلى أرجاء الدولة، بإعلان النواب قرار سفر السلطان إلى الأراضي الحجازية، ويأمرهم بتجهيز ما يحتاج إليه. هذا القرار أزعج أمراء الدولة وكبار موظفيها، وعكر صفو الناس جراء ارتفاع الأسعار لهذا القرار، وتوقفت أحوال البلاد. وللمرة الثانية حاول عدد من عقلاء الأمراء إقناع السلطان بالتخلي عن السفر هذا العام، ولكنه لم يبق على مخالفة رغبة نساينه. وقرر عدد من الأمراء الخروج عن طاعة السلطان، وتبهم عدد آخر، وتزايد عدد الأمراء المتمردين، واشتعلت الفتنة بين السلطان وهؤلاء الأمراء، واشتبك المصكران في قتال عنيف. وفي نهاية المطاف نجح الأمراء في الانتصار على السلطان، وألقوا القبض عليه، وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ/سبتمبر ١٣٤٦م. ثم نصبوا أخاه حاجي سلطاناً، ولقبوه بالمظفر، وعمره آنذاك حوالي خمس عشرة سنة^(١٠).

ولما كان شطط المغية اتفاق وهواها من الأسباب القوية التي أودت بالسلطان إلى التهلكة، وأثرت سلباً على أوضاع الدولة، فإنه مع جلوس المظفر حاجي على عرش السلطنة صدر الأمر بطردها من القلعة، ثم مصادرة ما بحوزتها من أموال، فأخذوا منها أربعين بدلة مكللة بالجواهر والآلئ، وثمانين بدلة مقلعة، بلغ ثمن أكلها مائتي دينار، ووصل أجودها إلى ما يزيد عن ألف دينار، واستردوا منها أيضاً ما أخذته من الناس^(١١).

وبعد أشهر قلائل من تولي المظفر حاجي السلطنة صار في الطريق الذي سلكه إخوته الذين جلسوا قبله على العرش. ففي أوائل شوال سنة ٧٤٧هـ/يناير ١٣٤٧م تزوج ابنة الأمير تنكز، وهي أرملة أخيه شعبان، ثم في أواخر الشهر نفسه انخلع عن ثوب الحياء، وطلب المغية اتفاق معشوقة أخويه إسماعيل وشعبان، وصعدت اتفاق إلى القلعة وجواربها يصحبها مع الخدام، وتزوجها السلطان في الخفاء، واحتفل بها السلطان احتفالاً بهيجاً، فكشف عن وجهها، وفرش تحت قدميها ستون شقة أظلس، ونثر عليها الذهب. وتقدمت اتفاق المشهد فضربت بعودها، وشدت بصوتها، فأعجب السلطان بأنغامها، فأنعم عليها بأربعة فصوص وست لؤلؤات، قدر ثمنها بأربعمائة ألف درهم^(١٢).

ثم أمر المظفر بإعادة المرتبات التي قطعت عن اتفاق وجواربها وخدامها إسيهن. وأعاد مجالس الغناء إلى القلعة، واتهمك في النهي والإلتحاق على أرباب المغاني. وشغف باتفاق شغفا شقياً عما دونها من النساء، وملك قلبه بفرط حبه لها. ولما رأى الأمراء ما دهم السلطان من هيامه بتلك المغية صرحوا بانتقادم لمسلكه هذا، وغضب السلطان غضباً شديداً لما بلغه انتقادم إياه، ولولا تدخل بعض العقلاء منهم لاشتعلت الفتنة بين السلطان وأمرائه^(١٣).

وعلى كل حال، فإن نهاية سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦-١٣٤٧م شهدت تدهورا ملحوظا لاقتصاد دولة سلاطين المماليك، ولم يعد في استطاعة خزانة الدولة تحصيل النفقات الباهظة التي يتفقاها السلطان على مقبضته وجواربها ومجالس لهوه معهن. واتخذت الدولة إجراءات تفشيفية لعلها تفيد في إعادة الاقتصاد البلاد إلى نصابه الصحيح^(١١).

ولم يعد أمام كبار الأمراء إلا التدخل بالنصح لدى السلطان ليعدل عن سلوكه تجاه مقبضته، وينتهي عن الهو والإسراف في الإنفاق عليهم. وأوصى السلطان إلى بعض من ذكره باحتمال وقوع فتنة لا تحمد عقباها على ملكه وحياته شخصيا، وأن هناك بعض الأمراء لا يأمّن لهم مكرًا. وقبل السلطان نصيحتهم على مضض، وظهر وكأنه وعى دروس الماضي مما جرى على بعض إخوته السابقين. ورسم السلطان بإخراج المقبضة اتفاق، واثنين آخرين من حفاظه؛ واحدة تدعى سلمى، والأخرى معروفة بالكركية. أخرجهم وهو مجبر على ذلك غير مخير، وضائق بهذا الأمر صدره. وأما هؤلاء المقبضات فقد خرجن بدون أن يحمن شيئا مما حصلن عليه من هدايا جوهر وزركش. بل أجبرت اتفاق على لزج عصابتها عن رأسها، وهي عصابة مشهورة عند الخاصة والعامة بقيمتها الغالية، فقد صنعتها من الهدايا التي أخذتها من الصالح إسماعيل والكامل شعبان ثم المظفر حاجي. وكنوا جميعا أسخياء في هداياهم لها، فبلغت قيمة هذه العصابة ما يزيد على مائة ألف دينار مصرية^(١٢).

وبرغم طرد اتفاق من القلعة، ولتعاذها عن حجور السلاطين، فإنها لم تكن امرأة عادية ككل النساء. بل إنها ظلت تحتفظ بشيء جذب الرجال المرموقين إليها، فتزوجها الوزير موفق الدين هبة الله بن سعد الدولة إبراهيم^(١٣)، واستقل هذا الرجل موقعه في الدولة أمواً استغلال، فحصل سبع مائة ألف درهم من خزانة الدولة راتباً منوباً لزوجته اتفاق وخدامها ومن يلوذ بها. وظل هذا الراتب يصرف لها حتى بعد وفاة موفق الدين هذا في ربيع الآخر سنة ٧٥٥هـ/مايو ١٣٥٤م^(١٤).

وظلت اتفاق مرغوبا فيها من الرجال حتى بعد تقدمها في السن، ففي شوال سنة ٧٦٦هـ/يوليو ١٣٦٥م وصل إلى مصر رجل يدعى علي عبد الحكيم فارا من المغرب، ونعتة المقرزي بـ"السلطان"، فأكرمه السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، وأجرى له الرواتب السنوية، وبعد استقراره في مصر زوجه السلطان من اتفاق، ثم لم يعد يعلم لها خبر بعد ذلك^(١٥).

وعودة إلى المظفر حاجي ننظر أحواله بعد إجباره على التخلص من مقبضته، فإنه لم يعد إلى جادة الصواب، بل اتجه إلى نوع آخر من التسلية، قضى فيه وقته في لعب ولهو، فقد أنشأ حظيرة حمام، وجلب إليها أنواعا مختلفة منه، فبلغت تكلفة ذلك سبعين ألف درهم. وانشغل المظفر عن إدارة أمور السلطنة بما استجده من اللعب بالحمام. ثم قرب إليه نفر من عوام الناس، وجعلهم صحبته في حله وترحاله، وشاركهم في ألعابهم الساخرة. ووجد مسلك السلطان هذا انتقاد بعض الأمراء، واعتبره إتحافا عن تقاليد السلطنة. وأما السلطان فإنه غضب من هؤلاء الأمراء، وثارت ثائرتهم ضدهم، وقام إلى

الحمام فذبحه بيده، ولم يتمالك تلابيب أمره فصرح بتهديده للأمراء المعارضين قائلًا أنه سيذبحهم كما ذبح الحمام. وفي ربيع الآخر ٧٤٨هـ/يونيو ١٣٤٧م منحت الفرصة للسلطان بتنفيذ تهديده، ونجح في التخلص من بعض الأمراء، وبدى أن الأجواء قد صفت للمظفر، وأن بقية الأمراء جنحوا للسلم^(٧١).

ولما اعتقد المظفر حاجي أنه قد ملك زمام الأمور في البلاد عاد إلى سابق عهده من الانهماك في اللهو واللعب، وجمع أرباب الملاهي والفِرط في تحصيل مذاذاته أكثر من ذي قبل. ومن ذلك أنه في مستهل شعبان سنة ٧٤٨هـ/نوفمبر ١٣٤٧م رأى أن يخرج جماعة كبيرة من الأمراء في مهمة بعيداً عن القاهرة، فيخلو له الجو ويلهو على هواه. فتوجه جماعة من الأمراء إلى الصيد، وأخرج أرقطاي النائب^(٧٢) إلى الوجه القبلي. وإمعاناً من المظفر في طلب المتعة، والاختلاء مع مغانيه وأرباب الملاعب، فقد حدد موعد عودة الأمراء من مهامهم في العشر الأخير من شهر رمضان. واتطلق السملطان إلى اللعب واللهو، وشارك بنفسه العبيد وأرباب الملاعب والأوباش وأرائل الطوائف ألعابهم، وقادهم فيما يفعلون. فكان يقضي نهاره في اللعب مع هؤلاء، ويصعد إلى القلعة ليلاً وبصحبة المغنيات وأرباب الملاهي^(٧٣).

وفي هذه الفترة شغف المظفر حاجي بمغنية تدعى كيدا، ونزلت لديه منزلة التفاى. وفتح خزائنه لإرضاء مغنيته، فاشترى لها أملاكاً بالقاهرة بلغت قيمتها مائة ألف درهم، وصاحبته في ليله ونهاره، وحله وترحاله. وتناقلت الأمن سفة السلطان مع مغنيته ورفقتها، ولما بلغت هذه الأخبار الأمراء الذين أخرجهم السلطان بعيداً عن القاهرة، فإتهم أسرعوا في إنهاء مهامهم، وقرروا العودة قبل الموعد الذي حدده السلطان لهم من قبل، فوصلوا القاهرة في أواخر شعبان^(٧٤).

وعلى الرغم من عودة الأمراء إلى القاهرة فإن السلطان لم يرتدع عن السفس الذي التخرط فيه، وواصل ملوكة الطائش. ومن ذلك فإنه في أوائل شهر رمضان وصلت إلى القلعة أموال يلبغا اليحيوي^(٧٥) نائب دمشق بعد إلقاء القبض عليه ومصادرة ممتلكاته، فأخذ السلطان منها عشرين ألف دينار وأهداها إلى كيدا، ثم أعطاها جملة أخرى من الجواهر واللآلئ. ونثر الذهب على الجوارى والخدم، ثم أنقى ذهباً ولؤلؤاً على لاعبي الحمام والغراشين والعبيد، وأنفق مال يلبغا جميعه عليهم، وكان يقدر بنلاثين ألف دينار وثلاثمائة ألف درهم، فضلاً عن الجواهر والحلي واللؤلؤ والزررکش والمصاغ، وقدر ذلك بما يزيد على ثمانين ألف دينار، ولم يترك من مال يلبغا سوى القماش^(٧٦).

وما فعله السلطان من سفس وسوء تدبير أثار حفيظة عدد كبير من أمراء المالئك، ولم يعد هناك مفر من وقوع الصدام بين الفريقين. ثم إن نجاح السلطان من قبل في التخلص من الأمراء المعارضين جعله يستهين بشأن هؤلاء الأمراء، واعتقد أن غضبهم سيهدأ بمجرد تهديده إياهم، أو ربما يضطر إلى التخلص من بعضهم لبيث الرعب والحذر في نفوس الآخرين. ولكن الأمراء كانوا قد عقدوا العزم على التخلص

من المظفر قبل أن تطول يده أحدهم. وخرج كل فريق منهما بأية الحرب، واشتعلت القلعة وشوارع القاهرة بالفنّة، ولم تنته إلا وقد ألقى الأمراء القبض على السلطان، ثم عاجلوه بالنذير في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ/ديسمبر ١٣٤٧م، واختاروا أخاه حسن سلطانا، ولقبوه بالناصر، وعمره آنذاك إحدى عشرة سنة^(٧٥).

وأما السلطان الناصر حسن هذا فإنه تولى السلطنة مرتين؛ الأولى انتهت بخلعه وتولية أخيه الصالح صالح في جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ/يوليو ١٣٥١م، ثم تولاها في المرة الثانية بعد خلع الصالح في شوال سنة ٧٥٥هـ/أكتوبر ١٣٥٤م، واستمر سلطاناً حتى مقتله في جمادى الأولى ٧٦٢هـ/مارس ١٣٦١م. ولما كان الناصر حسان في سلطنته الأولى صبيا صغيراً فقد تولى إدارة شئون البلاد عدد من كبار الأمراء، وعلى رأسهم أرقطاي النائب، ومنجك اليوسفي، ثم شيخو المصري^(٧٦).

اتخذت إجراءات صارمة تجاه حواشي السلطان المظفر حاجي لتصحيح ما تم إتلافه على أيديهم، واسترداد ما أخذوه من أموال الدولة بغير وجه حق. وفتح شاد الدواوين^(٧٧) باب التحقيقات مع عدد من هؤلاء الحواشي، واعترف الخدام على المغنية كيدا أنها حصلت وحدها في مدة شهرين على نحو خمسة وثلاثين ألف دينار، ومائتين وعشرين ألف درهم. كما حصل باقي أرباب الملاهي على أموال طائلة، فضلا عما حصل عليه العبيد والغراشين ومطيري الحمام^(٧٨).

وفي منتصف شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ/ديسمبر ١٣٤٧م كان قد تم حصر الأموال التي أنفقها المظفر سفيها بغير حق على المغاني وأرباب الملاهي، ثم بدأ موظفو الأموال بالدولة في تتبع هؤلاء المنتفعين واسترداد ما أخذوه من أموال. فلي البداية كتبت أوراق بمرتبات أرباب الملاهي والخدام والعبيد والجواري، وصدر المرسوم بقطعها جميعا. وأما الثروات التي أخذتها المغاني من باب الهدايا وما شابه ذلك، فإنها كانت على قائمة الأموال المطلوب استردادها. وجرى التحقيق مع المقتنيات اللواتي خارج القلعة، وجاءت على رأسهن مغنية عرب الجيزة، وتدعى دبيعة. وكانت دبيعة هذه تصعد إلى القلعة، فتغني وترقص هناك. كما تم استدعاء ضامنة المغاني، وخضعن للتحقيق، ثم أُلزمت تلك السيدتان بدفع مبالغ معينة من الأموال مقابل ما حصلن عليه من بيت المال^(٧٩).

وأما الجواري اللواتي بالقلعة فإنهن عُرضن للتفرقة بين من اعتقت منهن، ومن هي على حالها. ورُسم بتزويج الحرائر منهن، ووُزعت الباقيات على الأمراء. ثم في شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ/ديسمبر ١٣٤٧م أحيط بأموال المغنية كيدا، كذا جرى مع بقية حظايا المظفر، ثم أُلزمن من القلعة^(٨٠).

وكانت الأوضاع المالية في الدولة ككل في حاجة إلى إعادة نظر، وليس الأمر قاصراً على حركة التصحيح والتطهير التي جرت لاسترداد الأموال المنهوبة من أرباب الملاهي وأرباب الملاهي وغيرهم من حواشي السلطان السابق. بل إن الأمر كان في حاجة إلى تقليل نفقات الدولة. وجلس الأمراء لبحث الإجراءات الضرورية، واتفقوا على

تخفيف الكلف السلطانية، وتكليل المصروف بسلار الجهات. وبدأ موظفو الأموال في جرد وإحصاء حسابات الدولة، وكتابة أوراق بما على الدولة من نفقات^(٨١).

واستمر التوجه الإصلاحى اقتصادياً واجتماعياً، فعلى الصعيد الاقتصادى كان أرباب الأموال قد انتهوا في ذي الحجة سنة ٧٥٠هـ/فبراير ١٣٥٠م من ضبط أوراق الدولة، وحصر ما استجد عليها من التزامات منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون وحتى المحرم سنة ٧٥٠هـ/مارس ١٣٤٩م. فوجدوا أن جملة ما أتم به وما خرج إقطاعاً من بلاد الصعيد وبلاد الوجه البحرى وبلاد الفيوم وأراضى السلطان وأراضى الرزق لصالح الخدم والجواري وغيرهن بلغ سبعمائة ألف ألف أردب، وألف ألف وستمائة ألف درهم كل هذه الأموال قد جرى تخصيصها لصالح أناس من الأمراء والخدم والنساء. وكشف فحص تلك الأوراق ما وقع فيه نكر من كبار الأمراء من تجاوزات، ولذلك عندما قرأت الأوراق بحضرتهم، وانكشفت تجاوزاتهم لم ينطق أحد منهم بكلمة^(٨٢).

وأما على الصعيد الاجتماعى، فإنه أيضاً في ذي الحجة سنة ٧٥٠هـ/فبراير ١٣٥٠م خرج الوزير منجك اليوسفى بتوجه إصلاحى اجتماعى، وذلك أنه رأى إجحافاً فيما أحدثته عوام النساء في ملابسهن، فقد ذهبت كثيرات منهن إلى تقليد ثناء السلطان وجواريهن اللواتي بالغن في الإثقال **على أربائهن**، وأحدثن قمصاناً غاليات الثمن، وبمد طولها على المرأة حتى ينسدل ذيلها على الأرض. وألقى بعض القضاة بتحريم هذه الأزياء، وهذه الفتوى شجعت الوزير على الخروج إلى الشوارع وحبوت أرباب الملاهي لإرهاب النساء ومنعهن من ارتداء هذه الأزياء^(٨٣).

وامتدت سلطنة الناصر حسن الأولى ثلاث سنوات وتسعة أشهر وأياماً، وتولى السلطنة وعمره إحدى عشرة سنة، وهو ما يعنى أن الفترة الأولى لحكمه كان ما يزال صبياً، ولم يكن قد بلغ من السن ما يجعله يسعى وراء شهواته، هذا فضلاً عن أنه أحيط بعدد من الأمراء الألقوياء الذين يتربصون به الدوائر، فوقع تحت حجرهم، وحتى عندما رشّد نفسه فإنه لم يستطع الأفراد بالسلطة من دونهم. وهذه الأمور منعت الناصر حسن من القيام بدور البطولة في مسلسل سقوط السلاطين أبناء الناصر محمد في مستنقع أرباب الملاهي. ولم تشهد سلطنة حسن الأولى تجاوزات من السلطان تجاه المغنيات وأرباب الملاهي، وحتى عندما أقام عدة احتفالات بمناسبة زواج إحدى أخواته وبعض ممالكه فإن هذه الاحتفالات لم تشهد ابتزازاً أو سفهاً أخلاقياً، مثلاً كان يجري من إخوته السابقين. وخسر الناصر حسن سلطنته ولم يخسر حياته، فقد وقع ضحية الدخول في صراعات أمراء المماليك مع بعضهم البعض^(٨٤).

وأما الصالح صالح فإنه تولى السلطنة وعمره حوالي خمس عشرة سنة، وانقضت سلطنته وهو تحت حجر الأمراء، وبخاصة شيخو وصرغتمش^(٨٥). وعندما معى للتحرك من قبضة الأمراء، فإن عاقبة ذلك لم تحمد له. ففي رمضان سنة ٧٥٥هـ/سبتمبر ١٣٥٤م اتجه الصالح إلى مرياقوس وأقام بها، واستدعى أرباب الصنائع واشغل بالهنو معهم، وافق عليهم أموالاً كثيرة، فقام الأمير شيخو للسلطان

وأنكر عليه هذه الأمور، واعتقد الصالح خطأ أن بإمكانه التخلص من هذا الأمير، فكان تدميره في تدميره، وخرج عليه الأمير شيخو، وألقى القبض عليه وسجنه، وأعاد أخاه حسن إلى السلطنة^(٨٦).

وتولى الناصر حسن السلطنة للمرة الثانية في أوائل شوال سنة ٧٥٥هـ/أكتوبر ١٣٥٤م، وكان قد تجاوز الثماني عشرة سنة. وأبى الناصر حسن إلا أن يكون مثل إخوته السابقين الذين هاموا بسماع المقتيات طربا، وانخرطوا في اللهو مع أرباب الملاهي. فأشارت عدة مصادر إلى أن السلطان الناصر حسن أقبل على النساء الجميلات، واقتنى منهن عددا كبيرا فاق الحد، وشغف بهن شغفا زائدا، واشتهر مسلفه بين الناس بغيره القاصي والداني. واشتغل باللهو والطرب، فُضِمَ إلى مجلسه النساء المقتيات وأرباب الملاهي، بل إنه اعتنى عناية خاصة بأرباب الفن من المغاني قاطبة، وكان إذا خرج في سفر اصطحب النساء معه^(٨٧).

وعلى الرغم من إن الناصر حسن لم يرد عنه أنه اختص بوحدة من المقتيات، كبعض إخوته الذين ارتبطوا بمقتيات بعينهن، فإنه ملك نفس الدرب الذي سلكه إخوته السابقون في المجون مع أرباب المغاني، والسفه في الاتفاق عليهن. ومن عجيب الاتفاق أن هلك الناصر حسن جاء مقرونا بعلاقته بوحدة من النساء المقتيات. ففي جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/مارس ١٣٦١م علم الناصر أن الأمير يلبغا الخاصكي ينكر عليه منحه إقطاعات كبيرة للنساء، وأن يلبغا يستعد للوثوب عليه، فأسرع السلطان بالقبض عليه وأهانته، ثم ثبت له أن يلبغا بريء، وأقبل إن يهدي حفائفا السلطان هي التي شغعت في يلبغا، فأفرج عنه واعتذر له. وبعد أيام قلائل خرج يلبغا بالفعل عن طاعة السلطان، وأعلن تمرده عليه. وليس السلطان رداء الحرب ليحتمي ملكه وروحه، ولكنه كان أعجز عن أن يفعل ذلك، فقد انتصر يلبغا على السلطان وضربه، وألقى القبض عليه وقتله^(٨٨).

وكتب أحد شعراء العصر أبياتاً من الشعر، عرّض فيها بأخلاقيات الناصر حسن، والسفه والمجون الذي ارتكبه، وذم تقريبه القينات وأرباب الملاهي. وكتب هذا الشاعر أبياته مستخدماً أسماء مور القرآن الكريم للتعريض على ما سلكه الناصر خلال سلطنته الثانية من أخطاء، وما جرى عليه من سوء خاتمة، فقال:

لما أتى للعاديات وزلزلت	حفظ النساء وما قرأ الواقعة
فلأجل هذا الملك أضحي لم يكن	وأتى القتال وفصلت بالقارعة
لو عامل الرحمن فال بكهفه	وبنصره في عصره للمسابعة
من كانت القينات من أحزابه	صطط به الدخان نار لامة
تبت يدا من لا يخاف من الدعا	في الليل إذا يفشى يقع في النار ^(٨٩)

وهكذا انتهت فترة حكم أبناء الناصر محمد بن قلاوون، وبلغ عدد أبناء الناصر الذين تولوا السلطنة ثمانية، وتولى الناصر حسن السلطنة مرتين. ثم انتقلت السلطنة من بعدهم إلى عدد من أحفاده.

وارتبط هؤلاء السلاطين بالغناء والمغنيات، ومجالس اللهو، ويمتثلن اثنان منهم
هما: كجك وحسن في سلطنته الأولى، وذلك لصغر سنهما عند توليهما السلطنة.

وفي هذه الفترة اشتهرت مغنيات بعونها، وذاع صيتهن في أرجاء البلاد. وارتبطن
بعلاقات قوية بالسلاطين الذين عاصروهن من أبناء الناصر. وبلغ حد الحميمة في
العلاقة أن ثلاثة من أبناء الناصر هم: إسماعيل وشعبان وحاجي تزوجوا بالتعاقب
بواحدة من هؤلاء المغنيات هي اتفاق.

ترك ارتباط السلاطين من أبناء الناصر بالمغنيات آثاراً سلبية على البلاد، فتأثرت
الأوضاع المالية للدولة جراء إنفاق السلاطين ببذخ على المغنيات ومجالسهن حتى بلغ
حد السفه، وعانت الدولة معاناة شديدة جعلت الأمراء القائمين على أمرها يتخذون
تدابير تقشفية لمواجهة تلك الأزمة المالية.

وعلى الصعيد الاجتماعي سرت عدوى تقليد نساء الشعب للمغنيات ونساء
السلاطين في أزيائهن، فخرجن عن المألوف من وجهة نظر المعاصرين. ووجهت
انتقادات لاذعة إلى أزياء النساء، وصدرت فتاوى الطعاء التي تملع ما ابتدعنه، وسعى
بعض رجال الدولة لمواجهة مثالب النساء.

ثم إن أخطر ما تركه وجود المغنيات في بلاط السلاطين من أبناء الناصر هو أن
كثيراً منهم دفع حياته ثمناً لمجونته، والإنصراف نحو اللهو مع هؤلاء المغنيات. فقد
قدموا الحجة للأمراء الطامعين في النفوذ للقيام بالتمرد عليهم، ففقدوا عرشهم، بل منهم
من فقد حياته أيضاً. وجرّت أمور السلطنة في أيدي الأمراء الأقوياء فينصبون من يرونه
منهم مطيعاً، أو خادماً لمصلحتهم.

الهوامش

- (١) ابن منظور، لسان العرب، حققه عبد الله على الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د. ت، مج ٥، ص ٣٢٠٩ - ٣٢١٠؛ عبد السلام الترماني، أثرى، ماضيه حاضره، عالم المعرفة، عدد ٢٣، الكويت، نوفمبر، ١٩٧٩، ص ٩٧ - ٩٨؛ محمد قنديل البقلي، الطرب في العصر المملوكي (الفناء - الرقص - الموسيقى) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ص ١٠ على السيد محمد، الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٨٧، ١٨٨؛ جبور عبد النور، الجوارى، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٥٦؛ لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ١١٤.
- (٢) التقوين في الأصل هو تزيين المرأة للزفاف، ثم أطلق على تزيين الجارية وإصلاحها وتعليمها الفناء. عبد السلام الترماني، المرجع السابق، ص ١٠٣، ح ١، وقال ابن منظور في لسان العرب: التقوين التزين بلوان الزينة، وهي الزينة للرجل والمرأة، وتقين أي تزين لزفافها، والقينة الأمة المغنية، لأنها تتزين، وقيل القينة الأمة مغنية أو غير مغنية، وقيل للمغنية قينة إذا كان الفناء صناعة لها. وذلك من عمل الإماء دون العرائر. ابن منظور، المصدر السابق، مج ٥، ص ٣٧٩٩.
- (٣) السبكي، معبد النعم وميدان النعم، حققه محمد علي الجيسر وآخرون، ط ٣، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١١٤٤؛ ابن الإخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة، صححه روبن لوي، كمبودج، ١٩٣٧، ص ١٥٣؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٣٣.
- (٤) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦ - ١٩٥٨، ج ٣، ٤ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٠ - ١٩٧٣، ج ٢، ص ٥٩٢ - ٥٩٤، ١٧١٥؛ عبد السلام الترماني، المرجع السابق، ص ٩٧ - ١٩٨ على السيد محمد، المرجع السابق، ص ١٨٨؛ جبور عبد النور، المرجع السابق، ص ٥٦.
- (٥) سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠٣ - ١٠٤؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ١٣٦؛ أحمد عبدالرائق، المرأة في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٤٢؛ عبد السلام الترماني، المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٨؛ لطفي أحمد نصار، المرجع السابق، ص ١١٤؛ محمد قنديل البقلي، الطرب، ص ٩.
- (٦) الضمان لغة هو الكفالة، أو الالتزام بالشيء، والضامن والضمين هو الكفيل أو الملتزم، وجمعه ضمان أو ضماناء، وتجمع أيضاً ضمن، بضم الضاد وتشديد الميم، وضمن الشيء أي كفل به، وضمنه أي كفله، ويقال فلان ضامن وضمين أي كافل وكفيل، وضمنت

الشيء، أضمنه ضمناً، فلنا ضامن، والشيء مضمون، ابن منظور، المصدر السابق، مج ٤، ص ٢٦١٠ - ٢٦١٣.

والضامن اصطلاحاً هو التزام شخص بتحصيل ضريبة من الضرائب، أو مكس من المكس التي يرضها السلطان أو الأمير، ويتكفل هذا الشخص في مقابل توليه هذا العمل بدفع مبلغ مقرر من المال إلى الديوان المختص، في أوقات معلومة من السنة. وإذا زاد متحصل الضريبة عن المقدار المقرر دفعه للديوان أخذ الضامن الزيادة لنفسه، وإذا نقصت فعليه أن يكمل المقدار الذي نقص، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩١٣ - ١٩١٧، ج ٣، ص ٤٧٠.

- Rable, H., the Financial System of Egypt A.H. 564-741-A.D.

1169-1341, London, 1972, pp. 136-138.

محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٢٢٥.
(٧) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ج ٣٢ تحقيق فهد محمد شلكتوت) القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٢٢٩ النويري السكندري، الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور القضائية في وقعة الإسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر آباد، ١٩٧٠، ج ٤، ص ١٥١ المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار، المعروف بالخطط المقرئزية، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن ٢٠٠٢ - ٢٠٠٤، مج ١، ص ١٢٤٠ المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٨٦: ١٨٢.

(٨) الجهة تعني الضريبة، فيقال أبطل فلان جهات منكرة. وزادت أموال الجهة الفلاحية أو لغصت، وفلان وكيل جهة محرمة. ومن ذلك أن القلقشندي (صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٣) ذكر ديواناً باسم نظير الجهات. ابن الحاج، المدخل، القاهرة، د.ت، ج ٢، ص ٣١١ ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق، محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٢، ج ٢، ص ١٨٠ محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٩٣ محمد مصطفى زيادة في تعليقاته على كتاب المقرئزي، السلوك لمعرفة دولة الملوك (ج ١، ٢ القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٥٨) ج ١، ص ٣٧٣، ج ٢. وأضاف د. زيادة على غير الصواب أن الجهة المفردة هي الضريبة المقررة لديوان المفرد، وذلك عند تعليقه على حوادث السبت العشرين من شوال ٦٤٨هـ/ الخامس عشر من يناير ١٢٥١م. والمعروف أن السلطان برفوق الذي تولى سلطنته الأولى سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، هو الذي أحدث الديوان المفرد (القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٢٧). واعتقد أن الصواب هو أن الجهة المفردة هي الجهة المستقلة عن المعاملات الدوائية، وببائرها ضامن مفرد، وأحياناً يرتب عليها مقطعون وأخزون حقوقهم منها. راجع المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٥١ الخطط المقرئزية، مج ١، ص ١٢٤٠ ابن نخري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، ١٩٩٢، ج ٩، ص ٣٨.

(٩) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٥٢ ج ٢، ص ٢٦٦.

- (١٠) ابن حجر، أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٩٤ - ١٩٩٨، ج ١، ص ١٢٧.
- (١١) النويري السكندري، الإعلام، ج ٤، ص ١١٥١ المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ٢٦٦ الخطط، مع ١، ص ٢٨٦، ابن حجر، أنباء الغمر، ج ١، ص ١١٢٧ ابن إياس، بذائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٢ - ١٩٨٤، ج ١، ق ٢، ص ١٦٦.
- (١٢) النويري السكندري، الإعلام، ج ٤، ص ١١٥١ المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ٢٦٦ ابن إياس، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٤٨٦.
- (١٣) ابن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٩ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هاشم روبرت رومر، القاهرة، ١٩٦٠، ج ٩، ص ٢٨٦ - ٢٨٧، ٢٩٠، النسوري، نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٢٢٩ - ٢٣٠، النويري السكندري، الإعلام، ج ٤، ص ١٤٦ - ١٥٤ ابن حبيب، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٩ ابن دقماق، الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، بيروت، ١٩٨٥، ج ٢، ص ٧٤، ٧٥، المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ١٥١، ١٥٢ الخطط، مع ١، ص ٨٩، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، مع ٢، ص ١٤٩٨ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٣٨، ٣٩، ٤٠ ابن إياس، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٤٨٦.
- (١٤) ابن الحاج، المعخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، د. ت، ج ١، ص ٢٤٦، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٦ - ٢٨٧، ٣٢٠.
- (١٥) مؤرخ مجهول، تزيخ سلاطين العماليك، نشره Zettersteen، لندن، ١٩١٩، ص ٢١٧.
- (١٦) الضجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالح وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، فيسبادن، ١٩٧٨، ص ١١٠، ١١١، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، الصفدي، أعيان العصر وأعيان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، بيروت، ١٩٩٨، ج ١، ص ٦٣٠ - ٦٣٤، ج ٢، ص ٥٩٩ - ٦٠١، الصفدي، السوافي بالوفيات، ج ١٦، تحقيق وداد القاضى، فيسبادن، ١٩٨٢، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٢٣١، ٢٤٠، ٢٤١، ٥٧١، ٥٩٣ - ٥٩٤، ٦٨٠، ٧٤٥، المقرئ، المعقلى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، ١٩٩١، ج ٢، ص ٣١٠ - ٣١٢ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٤٨، ج ٢، ص ٢٢١ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٦٠، ج ١٠، ص ٦٧، ١٤٨. وتتكرر هو الأمير المشهور بالنسب المشام، تسولي ثيابهته سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، له إنجازات عديدة في مدة ثيابهته، فحصل على منزلة ومكانة عظيمة في الدولة لم يحصل عليها غيره، وقل نالها للشام مقيماً في دمشق حتى ألقى الناصر القبض عليه وقتله في ذي الحجة ٧٤٠هـ/مايو ١٣٤١م. انظر ترجمة مطولة في الصفدي، الوافي، ج ١٠، ص ٢٦٠ وما بعدها. ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمبتدأ في بعد الوافي، ج ٤، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٥٦ - ١٦٧.

(١٧) يكثر الساسي من ممالك السلطان بيبرس الجاشنكير، ثم انتقل إلى ممالك الناصر محمد بن قلاوون، وقربه الناصر وعظم عدده، وزوج ابنته بابن بكتر، ولم يكن يشارك السلطان، وحج مع السلطان وتوفي ومما في طريق عودتهم سنة ٧٤٣هـ/١٢٣٣م. الصلبي، الوافي، ج ١٠، ص ١٢٢ وما بعدها.

(١٨) يشترك أحد ممالك الناصر محمد، وقربه الناصر بعد وفاة بكتر الساسي، فتنال حظوة ومكانة، فتكثر وتجر، وفل على سيرته حتى وفاة الناصر، فالتقى القبض عليه في أول سلطنة المنصور أبي بكر، ثم قتل في الحبس بالإسكندرية أول سلطنة الأشرف كجك في شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٢هـ/سبتمبر ١٣٤١م. الصلبي، الوافي، ج ١٠، ص ٨٨ وما بعدها؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجزء ١٩٩٧م، ج ١٨، ص ٤٢٧.

(١٩) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٥٦١؛ ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٩٥؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٦.

(٢٠) الظمان مفردا غلام، وهو الذي يتصدى لخدمة الخيل، وهو في أصل اللغة مخصوص بالصبي الصغير والملك، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الغدام، وكانهم سموه بذلك لصغره في النفوس، وربما أطلق على غيره من رجال الطسست خائساء ونحوهم. القفطلي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٧١.

(٢١) قوصون واحد من أقرب الأمراء إلى الناصر محمد، ولم يكن أصله مملوكياً، وزوجه السلطان واحدة من بناته. وبعد وفاة الناصر ساند أبه بكر حتى جعله سلطاناً، ثم سعى إلى خلع، وأجلس أخاه كجك على عرش السلطنة. ولما أمر بقتل أبي بكر في قوص كان ذلك سبباً لخروج عدد كبير أمراء الممالك الناصرية على استبداد قوصون بالدولة، وكذلك انتفض ضده العوام. وألقى القبض على قوصون، ثم قتل في شوال سنة ٧٤٢هـ/مارس ١٣٤٢م. الصلبي، الوافي، ج ٢٤، ص ٢٠٧ وما بعدها.

(٢٢) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص ١٢٢٤ الصلبي، الوافي، ج ١٠، ص ١٥٧ - ١٥٨؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٨، ص ١٤٢٩ المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٥٦٦ - ٥٦٧، ٥٧٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٠ - ١١٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه محمود الأرنؤوط، وأشرف على تحقيقه عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٦، ج ٨، ص ٢٣٦.

(٢٣) الصلبي، الوافي، ج ٢٤، ص ٢٤٩؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٨، ص ٤٢٩؛ المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٥٩٣، ٥٩١؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٥٨.

(٢٤) الترك قلعة حصينة جداً في طرف الشام من لواحي البلقاء، بين أيلة وبحر القلزم (خليج العقبة) وبيت المقدس. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د. ت، مج ٤، ص ٤٥٣.

(٢٥) الصقلي، السوافي، ج ٨، ص ٥٧ - ٦٠، ج ٩، ص ١٣١؛ المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٥٧٣، ٦١٨، ٦١٩.

(٢٦) السرحات، الدلالة اللغوية للكلمة هي أنها أماكن الرعي التي تنطلق فيها الدواب لتأخذ حظها من نباتات الرعي. والمقصود بالسرحات إنما هو خروج السلطان وأعرانه إلى الأماكن التي يتوافر فيها من المراعي الطبيعية أو الحضارية ما يكفي للخيول التي تمثل عماد الأنشطة الاجتماعية للسلطان وحاشيته وهي؛ الترويح والصيد والفروسية. وبلغ عدد السرحات السلطانية في مصر المملوكية حوالي عشرين سرحة؛ ومن أشهرهم سرحة سرياقوس وسرحة أوسيم. صدهال عبدالمنعم محمد الشامي، السرحات السلطانية، أماكن الترويح والصيد والفروسية في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ٥٧٧هـ - ٩٢٣هـ، الكويت، ١٩٩٤، ص ٢١ وما بعدها.

(٢٧) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٧٨ - ٦٧٩؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ٨٠. - الثياب الأطلس هي ثياب حريرية منسوجة، ولفظ أطلس ليس عربياً، فالأطلس في الفارسية يعني الحرير. ونوعاً من الحرير يمثل بلمعان أحمر وجهيه، ويعرف في الإنجليزية Stain. وفي الفرنسية Atlas، رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٣٦.

- الطرايط، مفردا طرطور، وهو غطاء الرأس، أو ضاقية مرتفعة ترتديها النساء على رؤوسهن. فائزة محمود عبد الخالق الركبي، الشوار، جهاز العروس في مصر في عصر سلاطين المماليك، دار نهضة الشرق، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٢٩١.

- الخدام أو الخدم الخصيان هم الذين يعرفون بالطواشية آنذاك، ولهم ألقاب كالأمين والمقرب والمؤتمن. ومنهم من له الإشراف على باب ستارة السلطان أو الأمير، ويسمى بالزمام دار أو الزنار دار. سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المملوكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٤٤؛ محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١١٦.

(٢٨) الكامليات الحرير ويقدر الكوامل أيضاً، ومفردا كامنية، نوع من الملابس الخارجية كالعباءة. سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المملوكي، ص ٤٤٩.

- لعب الكرة كانت رياضة موجودة في مصر قبل دخول الإسلام، وظلت موجودة حتى عصر سلاطين المماليك. وكانت عبارة عن كرة كبيرة من مادة كالفلين ولحore، تلقى على الأرض ويسابق الفرسان راكبين في التقاطها بالصولجان أو الجوكان فمن سبق منهم إلى إصابتها وأرسلها في الهواء كانت له الغلبة. ويبدو أن تلك اللعبة استمرت على نفس الهيئة في عصر سلاطين المماليك. لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٢٩) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٧٨ - ٦٧٩؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ٨٠.

(٣٠) أرقاق ومفردا رلق، هي المرتبات، سواء كانت يومية أو شهرية. سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المملوكي، ص ٤٢٥.

(٣١) الأمير الحاج آل ملك، هو آل ملك بن عبد الله، من كبار أمراء المماليك، وتولى وظائف كبرى، ومنها نيابة السلطنة، وتوفي سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص ٨٥-٨٨.

- نيابة السلطنة هي أعلى وظائف أرباب السيوف، وصاحبها سلطان مختصر، بل هو السلطان الثاني، فيحكم فيما يحكم فيه السلطان، وجميع نواب المملكة يكاتبونه فيما يكاتبون فيه السلطان. ويستخدم الجند من غير مشاورة السلطان، ويعين أرباب الوظائف الجبلية كالوزارة وكتابة المر، وله عادات مهيبه في مراسيم الدولة. الخلقسندى، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦ وما بعدها.

(٣٢) الصفي، الوافي، ج٩، ص ١٢١٤ المقرئ، السلوك، ج٢، ص ٦٢٧، ٦٥٣، ١٧٦٧ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ٧٤، ٧٥، ٨٠.

(٣٣) الصفي، الوافي، ج٩، ص ١١٣١ المقرئ، السلوك، ج٢، ص ٦٧٨، ١٧١٥ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ١١١٩ ابن تغري بردي، مورد النافذة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، ١٩٩٧، ج٢، ص ١٧٧ ابن إيس، المصدر السابق، ج١، ق ١، ص ١٥٠٥ ابن العاص الحنبلي، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٥٥.

(٣٤) المقرئ، السلوك، ج٢، ص ١٧١٥ ابن حجر، الدرر، ج١، ص ٨٠ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ١٧٩.

(٣٥) جمال الكفاة لاسمه إبراهيم، ولده الناصر محمد بن قلاوون وظيفتي نظر الخاص ونظر الجيش، ولم يتلق لأحد غيره الجمع بين الوظائف. واستمر على حاله في سلطنة كل من أبي بكر وكجك وأحمد وإسماعيل أبناء الناصر، ثم أضيفت إليه وظيفة نظر الدولة في سلطنة إسماعيل، حتى قيل إن هذا الرجل أصبح عبارة عن الدولة. ثم نكب وقتل فسي صفر ٧٤٥هـ/يونيو ١٣٤٤م. الصفي، الوافي، ج٦، ص ١١٥ وما بعدها ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٩، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص ١٩٣ وما بعدها.

(٣٦) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، حققه محمد حسين شمس الدين، بيروت، ١٩٨٨، ص ٩٧-١٠٣، ١٠٦ ابن ناظر الجيش، تلخيص التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق رودلف فسلي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٨٧، ص ٩١، ١٨٧.

- مشير الدولة هو أحد الرجال المعدودين، ووظيفته القيام مقام السلطان إذا أراد استشارة أولي الرأي في دولته كالخليفة وقضاة القضاة والوزير والأمراء مقبسي الألواف وأتابكهم، فإن السلطان يخبر المشير بما يريد. ويقوم المشير بتداول الأمر مع هؤلاء الجماعة واحدا بعد الآخر، إلى أن يتفقوا على رأي بدون تدخل السلطان. فيكون معنى المشير هنا أنه يحفظ هيبة السلطان، فإن السلطان إذا تكلم وردوا كلامه ويكون انتقاصاً لقدره، وإن سكتوا حفظاً لكرامة السلطان ربما يحدث خلل في الأمر، فهذه فائدة

المشير في الرأي والتدبير. ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك، صححه بولس راويس، باريس، ١٨٩٤، ص ١٠٦.

- علاء الدين علي بن يحيى بن فضل الله العمري تولى كتابة السر للناصر محمد بن قلاوون وهو صبي صغير توبة عن والده الذي كبر سنه. ولما تولى والده استقل بكتابة السر في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. ونقل على حاله في أيام أبناء الناصر: أبو بكر وكجك وأحمد وإسماعيل، وحاجي، وحسن، وصالح، ومحمد بن حاجي، وشعبان بن حسين، وتوفي في رمضان سنة ٧٦٩هـ/مايو ١٣٦٨م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٨، ص ٢٤٠ وما بعدها.

(٣٧) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٦٦٢ - ٦٦٣.

(٣٨) أمير مائة مقدم ألف، هي أعلى مراتب أرباب السيوف، وتكون عدته مائة فارس، وربما زاد الطفرة والعشرين، وفي الحروب يكون مقدماً على ألف فارس، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤.

(٣٩) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٦٦٢ - ٦٦٤.

(٤٠) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٦٦٥، ٦٧١، ٦٧٩ - ٦٨٠.

(٤١) الصلبي، الوافي، ج ٩، ص ٢١٤ المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٦٦٧ - ٦٧٠.

(٤٢) الصلبي، الوافي، ج ١٦، ص ٩٠: المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ١٧١ ابن حجر، الدرر، ج ١، ص ١٨٠ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١، ص ٩٢.

(٤٣) يرجح أن يكون معنى دابر البيت هو دابر السرير، ويكون عبارة عن تسريح من الحرير المطرز، ويحيط بأعلى أعمدة السرير. وما زال دابر السرير يستخدم بنفس الاسم في الأسرة ذات الأعمدة الموجودة في الريف المصري. أو ربما كانت لفظة دابر البيت مأخوذة من لفظة دبيت الفارسية، وهو نوع من الأقمشة التولية والتي عرفت بعد ذلك في العامية العربية باسم درابية وهي المفروش الأعلى للسرير، وهذا يكون من الحرير، وينجد بثمين الحشو. ويكون الحشو بسيطاً، ويتركش وجهها بالتطريز والخرز واللؤلؤ. فائزة الوكيل، المرجع السابق، ص ٤٨.

(٤٤) البهقانة، كلمة فارسية معربة، مركبة من بشه ومعناها البعوض، ومن خاته ومعناها البيت، والمعنى الكلي بيت البعوض، وهي الناموسية التي تحمي صاحبها من الناموس والبعوض وسائر الهوام. رجب عبد الجواد إبراهيم، المرجع السابق، ص ٦٦.

- مخاد مفرداً مخدة، وهي ما يستخدمه الناس للراحة عند النوم أو الجلوس، ويسمى أنها كانت مثل تلك المعروفة في زماننا؛ حيث تحشى قطعة قماش وتوضع في كيس، وكان القماش المستعمل يختلف بحسب الحالة الاجتماعية، فقد يكون قماشاً من الحرير أو المشتهر أو القماش العادي، وحشى بالقطن أو تحشى بوبرق الموز والتبذ الأبيض. وألوانها تكون زرقاء أو بيضاء، أو بيضاء بكيس أحمر أو زيتي حرير، وأحياناً تطرز بالحرير الأحمر أو الأبيض، أو تكون من الديباج الأحمر المزركش بالذهب محشوة بريش

التعام، وكان للمعدات أكياس من القماش لحفظها، وهذه الأكياس كانت مجسلاً لحسبها لكتابة الأشعار بالتعريض. فائزة الوكيل، المرجع السابق، ص ٧٤-٧٥.

- المساند مفرداً مسند، وهو وسادة تعمل للظهر، والتهابات العليا لهذه الممسند مذهبة بشدة. وهذا المسند للظهر له وظيفة في الأثاث محددة واحدة، ولا يمكن أن يستخدم للنوم مثلاً، وذلك بخلاف بعض المعدات التي يمكن أن تستخدم كمساند للظهر. فائزة الوكيل، المرجع السابق، ص ٨١-٨٢.

(٤٥) المقريري، السلوك، ج ٢، ص ١٧١٥؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١١٩-١٢٠.

(٤٦) المقريري، السلوك، ج ٢، ص ٦٨٥-٦٨٦.

(٤٧) المقريري، السلوك، ج ٢، ص ٦٨٨-٦٨٩.

(٤٨) المقريري، السلوك، ج ٢، ص ٦٩٠-٦٩١.

(٤٩) المقريري، السلوك، ج ٢، ص ٦٩٢.

- والدولاب وجمعها دوليب، وهي الآلات المعجلة المستعملة في الزراعة والصناعة عموماً، سواء صناعة السكر أو النسيج أو غيرها. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٢٣.

(٥٠) المقريري، السلوك، ج ٢، ص ١٦٩٦؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٠٠-١٠١.

(٥١) الأمير سيف الدين قماري. أخو يكتمر السابق، ترقى في الوظائف حتى صار أستاذ الدار للصالح إسماعيل. وعندما تولى الكامل شعبان السلطنة ولاء نيابة طرابلس، وفي ذي الحجة سنة ٧٤٦هـ/مرس ١٢٤٦م ألقى القبض عليه محبوباً مقيداً، وكان آخر العهد به، فباته نقل إلى سجن الإسكندرية، وقتل في سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م. الصفي، الوافي، ج ٢٤، ص ١٢٦؛ ابن حجر، الدرر، ج ٣، ص ٢٥٦.

(٥٢) المقريري، السلوك، ج ٢، ص ٧٠٩.

(٥٣) أرغون العلي، هو أحد معاليك الناصر محمد بن قلاوون، تولى وظيفة رأس نوبسة النجدارية منذ أيام الناصر محمد. تزوج أرملة الناصر وهي والدة الصالح إسماعيل والكامل شعبان ابني الناصر محمد، وكان مذهب الدولة في عهديهما، ثم ألقى القبض عليه بعد خلع الكامل شعبان، وسجن بالإسكندرية إلى أن قتل في سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م. الصفي، الوافي، ج ٨، ص ٢٣٠.

(٥٤) أم الولد هي الجارية أو الأمة التي تلد من سيدها، فتسمى أم ولد، وترتفع مكانتها عن الجارية التي لم تلد منه، ولا يجوز للرجل أن يبيع أم ولده، وإذا ماتت صارت حرة، وأما الأولاد الذين جاءوا منها فأحرار. عطية القوصي، الحضارة الإسلامية، للقاهرة، ١٩٨٥، ص ٩٣.

(٥٥) المقريري، السلوك، ج ٢، ص ٧٠٣-٧٠٤، ٧٠٧؛ ابن حجر، الدرر، ج ٩، ص ١٨٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٠٤، ١٠٧.

(٥٦) وعنى الرغم من أن الصفي (الوافي، ج ١٦، ص ٩٠) امتدح الكامل شعبان على خلاف باقي المؤرخين، إلا أنه اتفق معهم في أن السلطان كانت له ميول نحو الشعب والنهوض

دائماً. المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧١٣، ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ١٩١، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١١٢-١١٣، مورد الطائفة، ج ٢، ص ٨٠، ٨٤، ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، حققه عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤، مج ٢، ج ١، ص ٤٨٩-٤٩٠، ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٦٠.

(٥٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٥٣، ١٧١٣، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١١٣.

(٥٨) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧٠٧، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٠١-١٠٢، ١٠٦، ١٠٧.

(٥٩) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧٠٧، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٠٧.

(٦٠) الصفي، الوافي، ج ١١، ص ١٨٢-١٨٣، المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٠٨-٧١٤، ٧٤٤، ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٣-٤، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٠٧-١١٣. وفي تحقيقه لكتاب السلوك (ج ٢، ص ٧١٤) وقع د/مصطفى زيادة في اضطراب خاص بتحديد عمر المظفر حاجي، فقد وجد بباضاً في مخطوطاته مكان عمر المظفر، فأكمل البواض محدداً عمره بخمس عشرة سنة، معتمداً على ابن حجر في الدرر الكامنة، وابن أبياس في بدائع الزهور. ولم يتركه د/زيادة إلى ما جاء في السلوك (ج ٢، ص ٧٤٤) عن عمر المظفر بعد مقتله، فقد حددته المقرئزي هنا بنحو عشرين سنة، ثم إنه من المؤكد أن المظفر حاجي ولد أثناء وجود والده في رحلة حجه سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، ولذا تسمى بهاجي نسبة إلى هذه المرحلة المقدسة. وعلى ذلك فإن عمره يوم توليه السلطنة يكون حوالي خمس عشرة سنة، ومن المعلوم أن مدة حكمه استمرت سنة وثلاثة أشهر وأياماً، فإن عمره يوم مقتله نحو ست عشرة سنة وأشهر. الصفي، الوافي، ج ١١، ص ١٨٢-١٨٣، ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٦٢.

(٦١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧١٥، ابن حجر، الدرر، ج ١، ص ٨٠.

(٦٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٢٠-٧٢١، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٢٣.

(٦٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧٢١، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٢٤.

(٦٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧٢٢، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٢٥.

(٦٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٢٥-٧٢٦، ابن حجر، الدرر، ج ١، ص ٨٠، ج ٢، ص ١٤، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٢٥-١٢٦، ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٦٣.

(٦٦) هبة الله بن سعد الدولة إبراهيم، كان نصرانياً وأسلم، فسمى نفسه عبدالله، تسولى نظراً الخاص في سلطنة الصالح إسماعيل سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م، وتسولى نظراً للميش والوزارة الواحدة بعد الأخرى، ثم اجتمعت له الوظائف الثلاث جميعاً في سلطنة الصالح صالح. انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر، ج ٤، ص ٤٠١-٤٠٢.

(٦٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٩٢٠، ابن حجر، الدرر، ج ١، ص ٨٠.

(٦٨) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٩٢٠، ج ٣، ص ١١٠، ابن حجر، الدرر، ج ١، ص ٨٠.

(٦٩) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٢٦-٧٣١، ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٤؛ ابن تقي بريدي، النجوم، ج ١٠، ص ١٢٥-١٣٢.

(٧٠) أرقطاي النائب كان من معاليك الأشرف خليل بن قلاوون، وأصبح جنداراً في أيام الناصر محمد، تولى نيابة حمص، ثم نيابة صفد، واستدعاه الناصر إلى القاهرة سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م، وعمل نائب غيبة إذا غاب الناصر في الصيد، ثم انتقل أواخر أيام الناصر إلى طرابلس نائباً. واعتقل في سلطنة الأشرف كجك، ثم أفرج عنه في سلطنة الصالح إسماعيل، وتولى نيابة حلب في سلطنة الكامل شعبان، ثم عزل بعد أشهر قليلة. ولما تسلطن المظفر حاجي رسم له نيابة مصر، وبعد خلع المظفر وسلطنة الناصر حسن طلب نيابة حلب بدلاً من نيابة مصر، فرسم له بذلك. وتوفي في جمادى الأولى سنة ٧٥٥هـ/يوليو ١٣٤٩م. الصفدي، الوافي، ج ٨، ص ٢٣٣ وما بعدها.

(٧١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٣٩-٧٤٠، ابن تقي بريدي، النجوم، ج ١٠، ص ١٣٢، ١٣٥.

(٧٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٤٠، ٧٤١.

(٧٣) يلبغا البحري نائب دمشق، كان واحداً من أقرب الأمراء إلى الناصر محمد بن قلاوون. وقتل أميراً جليل القدر في عصر أبناء الناصر فتولى نيابة حماة ثم دمشق، إلى أن خضب عليه المظفر حاجي، فأنقذ القبض عليه، ثم قتل في جمادى الأولى ٧٤٨هـ/أغسطس ١٣٤٧م. الصفدي، الوافي، ج ٢٩، ص ٢٦-٢٧.

(٧٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧٤١، ابن تقي بريدي، النجوم، ج ١٠، ص ١٣٦، ابن إياس، المصدر السابق، ج ١، ص ٥١٥-٥١٦.

(٧٥) الصفدي، الوافي، ج ١١، ص ١١٨٤، ج ١٢، ص ١١٦٦، المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٤١-٧٤٥، ابن تقي بريدي، النجوم، ج ١٠، ص ١٣٦-١٣٨، ابن خلدون، ديوان التمتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١، ص ٥، ص ٥١٠، ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٦٣.

(٧٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٨٤٢، ٨٤٣، ج ٣، ص ٦٠-٦١. - منجك اليوسفي هو أحد المعاليك الكبار في دولة الناصر محمد بن قلاوون وأبنائه، تولى وظائف عدة منها الوزارة والإستادارية في شوال سنة ٧٤٨هـ/يناير ١٣٤٨م. وكان قريباً في وفاته معتمداً على أخيه بيبقاروس نائب السلطنة. وبعد تكة أخيه سنة ٧٥٢هـ/١٣٥٢م ألقى القبض عليه وسجن، ثم أفرج عنه سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، واستقر في نيابة طرابلس، ثم ولي حلب في ربيع الآخر سنة ٧٥٩هـ/مارس ١٣٥٨م، ومات في سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م. الصفدي، الوافي، ج ٢٦، ص ١٨ وما بعدها، ابن حجر، الدرر، ج ٤، ص ٣٦٠-٣٦١.

- شيخو العمري هو أحد المعاليك الناصرية محمد بن قلاوون، وأصبح واحداً من أمراء المشورة في سلطنة الناصر حسن، وصار متحكماً في أمور الدولة، ثم ألقى القبض عليه

وسجن في سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م. ولما تسلطن الصالح صالح أخرج عنه في رجب سنة ٧٥٢هـ/أغسطس ١٣٥١م. وعاد الناصر حسن إلى السلطنة، وقلن شيخو قريباً في تولته، فصار أتابك العسكر، ولقب بالأمير الكبير، وهو أول من سمي بهذا اللقب. طعنه أحد المماليك، ومات على إثر هذه الطعنة في ذي القعدة سنة ٧٥٨هـ/أكتوبر ١٣٥٧م. الصفدي، الوافي، ج ١٦، ص ١٢٤ وما بعدها؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٦، ص ٢٥٧ وما بعدها.

(٧٧) شاذ الدواوين أو المشد، مفتش، ليقال شاذ الدواوين أي الذي يفتش على الدواوين ويراجع حساباتها، ومثله شاذ الجوالي وشاذ الزكاة، ويسمى التفتيش شذ ليقال شذ الدواوين أي التفتيش عليها. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٢٣.
- Rable, op. cit., pp 150-153.

- (٧٨) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ١٧٤٥ ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٣٨.
(٧٩) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٧٤٦-٧٤٥ ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٣٨ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١، ص ١٤٩.
(٨٠) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ١٧٤٦ ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٣٨ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١، ص ١٤٩.
(٨١) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٧٤٨-٧٤٩ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١، ص ١٥٠.
(٨٢) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٨٠٩-٨١٠.
(٨٣) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٨١-٨١١.
(٨٤) الصفدي، الوافي، ج ١٢، ص ١٦٦-١٦٧ المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٨٢٢، ٨٤٠، ٨٤١.

- (٨٥) صرغتمش هو أحد المماليك الناصرية، وهو مدير دولة الناصر حسن بعد وفاة الأمير شيخو. تلقى القبض عليه وسجن بالإسكندرية إلى أن مات في ذي الحجة سنة ٧٥٩هـ/نوفمبر ١٣٥٨م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٦، ص ٣٤٢.
(٨٦) الصفدي، الوافي، ج ١٦، ص ١١٥٦ المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٨٤٢، ٩٢٩-٩٣٠، ج ٣، ص ١.
(٨٧) المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ١٦٢ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١، ص ٢٤٧ ابن إياس، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٧٩.
(٨٨) ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٨، ص ١٦٢٤ المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ٦٠-٦١ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١، ص ٢٤٣-٢٤٥.
(٨٩) ابن تغري بردي، النجوم، ج ١، ص ٢٤٧ ابن إياس، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٧٩. وعطفت هذا اسم أحد تدماء المملطان، وكذا الدخان اسم مشبه من تدمائه.

ثورات العربان وأثرها في الاقتصاد المصري
زمن سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)
 د. سيد محمود محمد عبد العال (*)

يتناول هذا البحث ثورات العربان في مصر زمن سلاطين المماليك، مفهوما وأسباب قيامها، والأثر الذي تركته على الاقتصاد المصري في ذلك العصر، وذلك في مجال الإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية والإنتاج الصناعي، وعلى النشاط التجاري الداخلي والخارجي، وحركة الأسواق والأسعار.

لقد شكل العربان شريحة اجتماعية متميزة في مصر عصر سلاطين المماليك، حيث انتشرت القبائل العربية في بلاد الوجهين القبلي والبحري^(١) وبخاصة في أقاليم الشرقية والبحيرة والمنوفية في الوجه البحري، وأقاليم قوص وأسبوط والأشمونين في الوجه القبلي^(٢).

وقد حمل العربان راية المعارضة وعبء المقاومة ضد سلطنة المماليك، دون شرائح المجتمع المصري جميعها، وعلى الرغم من الأساليب الوحشية التي استخدمها ضدهم المماليك؛ فلم تخمد ثورات العربان طوال العصر المملوكي، ولم تخل سنة من السنين من ثورة في الصعيد أو في الوجه البحري، وكانت هذه الثورات تستهدف ضرب المماليك ومهاجمة الاقطاعات التي يحوزونها، والاستيلاء على المحاصيل الزراعية، وحرمان المماليك من خيرات البلاد^(٣).

ومن ثم اتسم عصر سلاطين المماليك بكثرة ثورات العربان، وانتفاضاتهم ضد الدولة المملوكية التي وصفتها المصادر التاريخية المعاصرة بأنها نوع من "الفساد"^(٤) أو "الجهل"^(٥) و"الفننة"^(٦) و"الحصيان"^(٧) و"النفاق"^(٨) و"الخروج على الطاعة"^(٩) و"الأذى والضرر"^(١٠).

الأمر الذي يبين لنا أن المصادر التاريخية المعاصرة قد تبنت وجهة نظر الدولة في ثورات العربان وقتئذ، مما يفقدها في أغلب الأحيان الموضوعية، لأنها لم تتبن وجهة نظر الطرفين، لم تبحث عن وجهة نظر الطرف الآخر، وفي المقابل لا تجد أي مصدر تاريخي يعرض لوجهة نظر العربان بشكل صريح.

(*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بكلية الآداب جامعة الفيوم.

وهناك بعض المصادر التاريخية المعاصرة يمكن أن نعر فيها على إشارات جهة نظر العريان، مثل المؤرخ عبد الباسط بن خليل الذي استعمل الفعل ثار ومصدره ثورة قاللاً: كان عرب الصعيد في الثورة^(١١) كما ذكر أيضاً "ولقت بالاطفاحية لفتة وأمور ثار بها العريان"^(١٢) وكذلك لفظ ثارت العريان^(١٣) واستعمل المقرئ وبيرس الدودار الفعل نفسه ليعصف لتفاضة عرب الأحامدة^(١٤) ثارت الأحامدة من عرب الصعيد^(١٥) وثاروا في البلاد وأكثروا من الفساد^(١٦) كما وردت بلفظ ثوران، من ذلك ما ذكره عبد الباسط بن خليل بسبب ما ذكرناه من ثوران الأحمدى^(١٧) والإخماد ثوالهم^(١٨).

وقد أطلقت المصادر التاريخية المعاصرة على القبائل العربية - التي كانت تعيش في أجزاء مختلفة في الوجهين القبلي والبحري - اسم العريان، وهو اسم مرادف لكلمة "البدو". ويرى بعض الباحثين أن السبب في إطلاق اسم العريان أنهم كانوا يعيشون في طور الانتقال من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار^(١٩) وأن اسم العريان جاء عنواناً للإخلال بالأمن والاعتداء على الأمنيين من أهالي القرى والمدن، ومن ثم عرفوا بذلك^(٢٠). ويبين لنا ذلك وجود نظرة التقصص من شأن القبائل العربية وقتئذ، بحيث يصبح الحديث عنها أمراً غير ذي أهمية، وهذا يفسر لنا استخدام هذه المصادر كلمة "عريان" بدلاً من "العرب" دليلاً على ذلك.

أسباب ثورات العريان:

تعددت أسباب ثورات العريان، في العصر المملوكي، بين أسباب سياسية وأخرى اقتصادية أو اجتماعية. فقد جاءت ثورات العريان والتفاضاتهم نتيجة عوامل اجتماعية ودينية متبادلة بينهم وبين المماليك. فمن جانبهم نظر العريان إلى المماليك على أنهم غرباء عن البلاد، وأنهم أحق بحكم مصر منهم. فقد ذكر المقرئ "أن عريان مصر أنفت من تملك أبيك لأنه مملوك قد مسه الرق"^(٢١) لذا فما أن تولي عل الدين أبيك السلطنة عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م حتى ثار العريان ضده بقيادة حصن الدين بن ثعلب في عام ٦٥١هـ / ١٢٥٣م وقال: تحن أصحاب البلاد، ومنع الأجناد من تناول الخراج، وصرح هو وأصحابه: بأننا أحق بالملك من المماليك، وقد كفي أنا خدمنا بني أبوب، وهم خوارج خرجوا على البلاد. وأنفوا من خدمة الترك، وقالوا: إنما هم عبيد للخوارج^(٢٢). كما ذكر القلقشندي أن العريان كانت نفوسهم قد سمت إلى الملك خصوصاً الشريف حصن الدين بن ثعلب، وكان قد أنفت من إمارة المعز أبيك التركماني^(٢٣).

ولم يكن هذا موقف العريان وحدهم من المماليك بل كان موقف معظم المصريين الذين كرهوا حكم المماليك الذين مسهم الرق. فقد ذكر ابن تغري بردي عن موقف المصريين من سلطنة عل الدين أبيك: "وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك إلى أن مات، وهم يسمعون ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون: لا نريد إلا

سلطاناً رئيساً مولوداً علي الفطرة^(٢٦) وهو ما يؤكد البيهقي: "وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك، ولم يزالوا يسمعون ما يكره إذا ركب ويقولون: لا نريد إلا سلطاناً رئيساً ولد علي الفطرة"^(٢٧) أي إنساناً حراً لم يمسسه الرق مثل المماليك.

ونظر المماليك بدورهم إلي العربان نظرة استعلاء واحتقار واستخفاف، وقد عبر عن هذه النظرة ابن فضل الله العمري بقوله^(٢٨): "أما العرب بمصر في الوجهين القبلي والبحري فجماعات كثيرة وشعوب وقبائل، لكنهم على سعة أموالهم واتساع نطق جماعاتهم لم يسوا عند السلطان في الذروة ولا السنام، إذ كانوا أهل حاضرة وزرع ليس منهم من يتجد ولايتهم، ولا يعرق، ولا يشام. لا يخرجون عن جدر الجدران علي كل حال". ويدل هذا علي استهانة المماليك بالعربان، وإن ارتفعت مكانتهم وكثرت أعدادهم.

وقد عبر البوصيري^(٢٩) أيضاً عن نظرة المماليك إلي العربان بقوله^(٣٠):

أناس لا خلقي لهم	الشؤم شيمتهم واللؤم والدبر
تلتثموا ثم قالوا: إنا عرب	فقلت لا عرب أنتم ولا حضر
ولا عهد لكم ترعي ولا ذم	ولا بيوتكم شعر ولا وبر
يشكو جميع بني الدنيا أذيتهم	فهم بطرقهم الأحجار والحفر

وتوضح الأبيات النظرة العنصرية من جانب البوصيري تجاه العربان، حتى اتهمه أحد الباحثين بالشعوبية، لأنه لم يكف بدم العربان، ومدح المماليك الترك^(٣١) كذلك جاءت ثورات العربان، ضد السلطات المملوكية، نتيجة للوضع الاقتصادي المتدهور بفعل قسوة الطبيعة، وما ترتب عليها من أوبئة ومجاعات وفرض الضرائب علي الرعية وإلزامهم بالسداد، مما أدى إلي تدميرهم وشق عصا الطاعة، وانتشرت الاضطرابات والقتال والثورات التي كان يصعب علي السلطات المملوكية حسمها إلا بالقهر والاستبداد^(٣٢).

يضاف إلي ذلك: حرمان العربان من الاقطاعات التي كانت تعد مورداً مالياً مهماً؛ فقد استولي الأيوبيون، والمماليك من بعدهم، علي جميع أراضي مصر عن طريق نظام الإقطاع الحربي وإذا أعطي العربان إقطاعات فإنها تكون في أطراف البلاد وغيرها، وهذا النوع من الإقطاع الذي عرف بـ"الاعتداد" كان ضعيف الإنتاج^(٣٣).

وقد قام صلاح الدين، في عام ٥٧٧هـ/١٢٨١م، بتزج ثلثي إقطاعات العربان في مصر^(٣٤)، مما جعلهم ينقلبون عليه ويثورون ضده ويرفعون لواء العصيان في مصر، وعلي الأخص في الصعيد، فجرد حملات عسكرية ضدهم فقتلت الآلاف منهم. وقد سارت علي هذا النهج سياسة المماليك تجاه العربان حتى سقوط دولتهم.

وكان رد فعل العربان إزاء هذه السياسة قطع الطرق، وقد ذم السبكي هذا التصرف بقوله: "ومن قبائحهم أنه إذا قطع السلطان إقطاع واحد منهم تسلط علي قطع

الطرقات وأذية من لم يؤذه، وأخذ مال من لم يظلمه، ولا يتوقفون في سفك الدماء لأجل هذا الغرض^(٣٢).

كما كان من سياسة المماليك فرض الرسوم العالية المجحفة، من أجل تجهيز الجيش المملوكي تجاه أعدائه، وكانت هذه السياسة عاملاً مباشراً في ثورات العربان، مثلما حدث في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م حين تجهز المماليك لحرب المغول، ففرضوا أموالاً على المصريين، وندبوا الوزير سنقر الأعسر^(٣٣) "لوجبي الأموال من الناس، فجبي منهم الأموال في أربعين يوماً، أو دون ذلك، فتحصل من هذه الحركة نحو مائتي ألف دينار وكسور"^(٣٤) وسمي ذلك "مقرر الخيالة"^(٣٥).

كذلك كان تصف أمراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها والتلاعب في أسعارها أحياناً، من الأسباب التي دفعت العربان إلى القيام بالثورة ضد المماليك^(٣٦). وأدى احتكار بعض أمراء المماليك للغلل، وبخاصة بالوجه القبلي إلى الإضرار بالناس بكل أرجاء البلاد، فترايد الغلاء بسببها، مثلما حدث في عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م بسبب احتكار الأمير يشبك من مهدي لغلل الصعيد، ومنع المراكب من حملة إلى القاهرة^(٣٧).

من الأسباب التي أدت إلى ثورات العربان: سوء سلوك أمراء المماليك ضدهم، ومحاولات إذلالهم من خلال سبي نسائهم، وهي إهانة كبيرة دفعت هؤلاء العربان إلى قطع الطرق، والإغارة على القرى والمدن المصرية. وأوضح دليل على ذلك ما حدث في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، بعدما وصل يشبك من مهدي^(٣٨) من بلاد الصعيد بعد ما نهبه، وخرب عدة قرى، وبدد شمل العربان، وسبي أربعين من نسائهم، وحبسهم في وكلة الأتابك قائم، وتركهم دون طعام. فثار عربان الصعيد وقاموا بقطع الطريق، وأخذوا بعض المراكب المحملة بالغلل القادمة من الصعيد، وأخذوا ما فيها ثم قاموا بإحراق تلك المراكب، مما تسبب في ارتفاع أسعار القمح وبقيّة الغلال في القاهرة^(٣٩).

كما كان لاعتقال أحد زعماء العرب أثر مباشر في قيام هؤلاء العربان بقطع الطرق والاستيلاء على الأموال. ففي عام ٧١٧هـ/١٣١٧م قام والي قوص باعتقال فياض أمير عرب بركة عيذاب^(٤٠)، فقام هؤلاء العرب بقطع الطريق على رسول صاحب اليمن، والاستيلاء على الهدايا التي يحملها، وعلى أموال التجار، فجهزت الدولة حملة عسكرية لعربان بركة عيذاب وصلت إلى سواكن^(٤١).

وكانت بعض الوقائع المشابهة، مثل قتل أحد شيوخ العربان، أو قتل أحد أبنائهم سبباً لثورة العربان، وقيامهم بأعمال التخريب. وقد حدث ذلك في جمادى الآخرة عام ٩١٩هـ/١٥١٣م، عندما حضر قاتصوه العادلي كاشف الشرقية وصحبه شخص من أولاد شيخ العرب ابن قرطام يسمى صالح، وهو من بني حرام، فسلب جثده وحشاه تكباً، وأركبوه على فرسه، وألبسه زمطه على رأسه وكبرة حرير. وكان شاباً جميل الهيئة، فتأسف عليه الناس، فلما أعرضه على السلطان شق ذلك عليه، ولم يكن يرسم

بسلخه قبل ذلك، فلما جرى ذلك ثارت العربان في البلاد وقطعوا جسر الحلفاية فسمح على الأرض في غير مستحقه وكان ذلك ليالي الوفاء^(١٣).

وقد استغل العربان الأخطار الخارجية التي تعرضت لها دولة المماليك، وحاولوا الإفادة من انشغال المماليك بتلك الأخطار في الخروج على الدولة، والسيطرة على الأقاليم المصرية. مثلما حدث عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، عندما هزم غازان المماليك في بلاد الشام فيذكر النويري^(١٤) واشتد طمعهم إثر وقعة غازان^(١٥). وفي عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، كثر في هذه الأيام فساد العربان على غالب البلاد القبلية والبحرية حتى أخربوها وكذلك غالب البحيرة، وذلك لاشتغال السلطان (قائمتاي) بتجهيز العساكر وتكلفتهم بالتفقة لأجل شاه سوار^(١٦).

ونلاحظ أن دولة المماليك الأولى (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م) قد شهدت ثلاث ثورات عربية كبرى، وكان مركزها الصعيد: الأولى ثورة الشريف حصن الدين بن شطب عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م^(١٧)، والثانية ثورة عام ٧٠١هـ/١٣٠١م. ولم تذكر المصادر المعاصرة أسماء من قاموا بها ولكنها ذكرت أن بعض أمراء العرب تسموا بأسماء أمراء المماليك^(١٨). والثالثة كانت عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م بزعامة محمد بن واصل المعروف بالأحذب، من قبيلة عرك بالصعيد، وذلك في عهد الملك الصالح صالح^(١٩).

وفي عصر دولة المماليك الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م) شملت ثورات العربان جميع أقاليم مصر، وبخاصة البحيرة والشرقية مع استمرارها في الصعيد، فلا يمر عام إلا ويخرج العربان على الدولة في أحد أقاليم. وكان أكثر هذه الثورات فردية، وليست جماعية، مما سهل القضاء عليها من قبل المماليك الذين تميزوا بالبراعة القتالية^(٢٠).

الوسائل التي استخدمها المماليك تجاه ثورات العربان:

وقد قاومت دولة المماليك تلك الثورات بتجريد العديد من الحملات العسكرية التي دمرت البلاد التي مرت بها. واستمرت الصراعات بين العربان والسلطات المملوكية حتى سقوط دولة المماليك. وقد ارتبطت هذه الحملات باستخدام القسوة والثدة المفرطة، وتعددت أساليب القتل من التوسيط^(٢١) والتسمير^(٢٢) والعصر^(٢٣) ونشر الأجسام وسلخ الجلود، ودفن الأحياء، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب تسالهم، وبناء مآذن من رؤوس القتلى، وسبي النساء ومصادرة الأموال^(٢٤).

ولتبريد ذلك: لجأت السلطات المملوكية إلى استصدار الفتوى الشرعية التي تجيز قتل هؤلاء العربان، على اعتبار أنهم "مفسدون" و"خارجون على الطاعة" يجب محاربتهم، ففي عام ٧٠١هـ/١٣٠١م أحضر السلطان القضاء والفقهاء، واستفتاهم في

قتال العربان، فالتفوا بجوار ذلك^(٤٤). وكان المماليك يستخدمون هذه الفتوى سنداً شرعياً يبررون به أعمالهم الانتقامية ضد هؤلاء العربان والتي وصلت للإبادة الجماعية. فضلاً عن ذلك حرص المماليك في حملاتهم ضد العربان على أن يسبوا النساء الحرائر انتقاماً منهم، بالرغم من تعارض هذا العمل مع الشرع الإسلامي الذي لا يبيح استرقاق المسلمين^(٤٥)، فبعد أن قضى المماليك على ثورة الشريف حصن الدين بن ثعلب عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، قاموا بسبي نساء العرب "لحوا من الأسلاب والتسوان والأولاد والخيول والجمال والمواشي ما عجزوا عن ضبطه، وعندما هزم المماليك عرب الغربية والمنوفية، من قبيلتي سنابس ولواتة"^(٤٦) أوقعوا بهم وسبوا حريمهم، وقتلوا الرجال^(٤٧)، وبعد هزيمة ابن الأحذب في الصعيد عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م على يد الأمير شيخو والمماليك "سبوا حريمهم وأولادهم، فاسترقوا كثيراً منهم، وصار إلي الأجناد والظلمان منهم شيء كبير، باعوا منه عدداً كثيراً بالقاهرة بعد عودهم"^(٤٨).

كما قام المماليك، في عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م، بعد هزيمة بدر بن سلام بإقليم البحيرة، بـ"أن أسروا من أولادهم وتسائلهم ما لا يحصى وقبضوا على أولاد بدر بن سلام، وتسائله وبنته، وغير ذلك من بنات ونساء"^(٤٩).

ولم يقتصر الأمر على عربان الوجه البحري، بل شمل عربان الوجه القبلي، ففي عام ٨١٦هـ/١٤١٣م قدم الأمير فخر الدين الاستادار من الصعيد، وأحضر من العبيد والإماء والحرائر الثلاثي استرقهن، ثم وهب منهن وباع باقيهن وسلب النساء حليهن وكسوتهن، بحيث لا يسير عنها إلى غيرها حتى يتركها أوحش من بطن حمار^(٥٠).

وكرر هذا الأمير الفعل نفسه، في عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م، عندما قدم من الصعيد ومعه "عدة بنات من أهل الصعيد استرقهن بعد الحرية، ففرق من خيارهن طائفة على الأعيان وطلوهم - على زعمهم - بملك اليمين، واختار لنفسه طائفة، وباع باقيهن مع ما جلبه من العبيد"^(٥١).

وكذلك فعل الأمير أقبري الدوادار^(٥٢) في عام ٨٩٢هـ/١٤٨٧م، عندما رجع من الصعيد منتصراً على العرب الحامدة فقتل منهم ما لا يحصى، وأسر نساءهم وأولادهم، وبعث بهم إلى مصر، فباعوهم كما يباع الرقيق من الزنج^(٥٣).

ولجأ المماليك إلى سياسة تقديم أصاغر أمراء العربان على أكابرهم، وكانت تهدف هذه السياسة إلى بث الخلافات داخل القبائل العربية وإشغالها بصراعات عربية - عربية بدلاً من أن ينظفوا إلى السيادة على المماليك^(٥٤). وهي سياسة فارق تسد بين العربان، أو ما يعرف بـ"عرب الطاعة" و"عرب المعصية"، واستخدام ما يعرف بـ"عرب الطاعة" في قتال عرب المعصية في مقابل جعلهم أمراء للعرب في هذه الأقاليم، ومنحهم بعض الاقطاعات.

وبدت ثورات البدو، شبة الدائمة أحياناً، خطيرة، ولكن المماليك استطاعوا دائماً التغلب عليها، ويرجع السبب في إخفاق هذه الثورات إلى الطبيعة المتناثرة، ومسالحتها

المتنافضة إلى حد ما، فبعضهم ما زال في طور التنقل، بينما كان البعض الآخر نصف مستوطن، ومجموعة ثالثة مؤلفة من الفلاحين الذين أبقوا على تنظيمات أسلافهم العشائرية^(٢٠).

كما اضطرت السلطات المملوكية، إزاء ثورات العربان، إلى استحداث بعض الوظائف العسكرية، مثل نيابة الوجه القبلي ونيابة الوجه البحري. فقد كثرت الاضطرابات التي أحدثها العربان في الصعيد، ووصل الأمر إلى قتل كاشف الوجه القبلي، وقطع الطريق على التجار والمساافرين، كما كان لدى الدولة رغبة في إحكام السيطرة على أعمال الوجه القبلي، ووضعه في قبضة قوية. خاصة وأن هذه الفترة اتسمت بضبط شخصية سلاطين الممالك من أبناء الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده، ولقلة مهابة شخصية الكشاف والولاة^(٢١) فقد استحدثت السلطات المملوكية وظيفة جديدة وهي نيابة الوجه القبلي، ويعرف صاحبها بـ نائب الوجه القبلي^(٢٢) الذي كان له الإشراف على شئون الوجه القبلي من الجزيرة شمالاً حتى أسوان جنوباً، وقد اتخذ من مدينة أسيوط مقراً له^(٢٣) وكان له نائب يتخذ من مدينة أحميم مقراً له^(٢٤).

وقد أوضحت الوثائق المملوكية الواجبات الملقاة على عاتق نائب الوجه القبلي، فكان عليه " ألا يمكن أحداً من العرب، ولا الفلاحين أن يركب فرساً، ولا يمكنهم من حمل السلاح ولا ابتياعه، ولا استعارته ولا استداعه، لأنه بعدد لخروج عن الدولة، وعلى ذلك فقد وجب على نائب الوجه القبلي تحذير هؤلاء العرب من مخالفة هذه الأوامر وإلا تعرضوا للقتل من جانب الدولة"^(٢٥).

وكذلك أدت ثورات العربان بالوجه البحري، وبخاصة في إقليم البحيرة، إلى استحداث وظيفة نائب للوجه البحري. وله من المهام ما لنائب الوجه القبلي^(٢٦) كما لجأت السلطات المملوكية، لكبح جماح العربان والقضاء على عصيانهم إلى تعيين حكام إداريين للأقاليم يتصفون بالقسوة والشدة، حتى إن الناصر محمد بن قلاوون (٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) عندما عين كاشفاً لإقليم الشرقية قال له: " أريد منك أن تعمل عملاً أرضي به عنك في أهل الشرقية، وأكبرك بهدا، فقال له: 'على أن أرضيك واسخط الله تعالى، فخلق عليه وركب إلى بلبيس، وشرع في كبس أهلها وبلادها، وابتدأ مهمته بقتل ستين شخصاً، وادعى أنهم من المفسدين، وأمعن في قتل الناس، حتى قيل: إن الرطب الذي يأتي من بلبيس لا يأكله أحد لا في الشرقية ولا في غيرها من كثرة الطير الذي يقف على جثث المومسين ثم يطير على النخل"^(٢٧).

أثر ثورات العربان على الاقتصاد المصري:

ترك الصراع بين العربان والمماليك أثره على جميع أوجه النشاط الاقتصادي في مصر وقتئذ، سواء على النشاط الزراعي أو الصناعي أو التجاري.

أثر ثورات العربان علي الإنتاج الزراعي:

تعد الزراعة الحرفة الرئيسية للسواد الأعظم من الشعب المصري، فضلاً أنها المصدر الرئيس للثروة في مصر، عبر تاريخها، بصفة عامة، وعصر سلاطين المماليك بصفة خاصة لأنها المورد الأساسي للنظام الإقطاع الحربي الذي تقوم عليه دولة المماليك^(٧٣). وقد تركت ثورات العربان أثرها السلبي علي الإنتاج الزراعي، حيث دمرت الزراعات، وآلات الري كالسواقي^(٧٤) والدواليب، وقتلت الأبقار التي تقوم بإدارتها^(٧٥). مثلما حدث في عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، عندما قام عربان الصعيد بـ "هدم الدواليب"^(٧٦) كما لجأ العربان إلي منع مياه الري من الوصول إلي الأرض الزراعية الأمر الذي يمنع زراعتها. من ذلك ما حدث عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م عندما قام عربان الفيوم لقطعوا المياه، حتي شرق أكثر بلاد الفيوم^(٧٧).

كذلك قام العربان بقطع الجسور^(٧٨) التي تحمي الأرض الزراعية من الغرق، مما تسبب في غرق الأرض المزروعة، وبالتالي عدم زراعة الأرض، أو غرق الزرع، أو غرق الجرون. وذلك كما حدث، في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٢م، من قيام "عرب منفلوط والمراغة وغيرهم وقطعوا بعض الجسور بالأشمونين"^(٧٩). ومثلما حدث في عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م من قيام عربان الشرقية بقطع جسر سنبت^(٨٠) والحلفاية علي الجرون حتي غرقت، وكان النيل قد أشرف علي التوفاة، وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل وتوقف النيل عن الزيادة، لأجل المقاطع التي قطعت عليه^(٨١). وتكرر ذلك في عام ٩١٩هـ/١٥١٢م حيث "ثارت العربان في البلاد وقطعوا جسر الحلفاية بإقليم الشرقية لمساج علي الأرض في غير مستحقه وكان ذلك لبالي الوفاة"^(٨٢).

فضلاً عن ذلك فقد اعتاد العربان أن ينتهزوا فرصة الفيضان - عندما تكسو مياه النيل أراضي الحياض - فيصحبون في مأمن من وصول قوات من العاصمة لردعهم، وعندئذ يغرون علي القرى، فيذهبون الفلاحين ذبح المواشي، ويستولون علي كل ما تصل إليهم أيديهم من غلال وحيوانات^(٨٣).

ولجأ العربان أيضاً إلي إحراق جرون النقة، كي يحرموا المماليك من الحصول علي الغلال. وقد ذكر ابن إياس في حوادث عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م: "ولما وقعت الفتن بمصر بين الأتراك، وقعت الفتن أيضاً بين العربان، وأحرقوا القمح والشعير وهو في الجرون، ونهب عدة بلاد، فوقع الغلاء بالديار المصرية وانتهى سعر القمح إلي ألف درهم كل إردب، واستمر علي ذلك مدة طويلة"^(٨٤).

وقام العربان بالاستيلاء علي الغلال الموجودة في الجرون^(٨٥) ونهبها. مثلما حدث في عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، حيث كثر عيث العربان بأرض مصر، وكثر سفكهم للدماء ونهب الغلال من الأجران، مع شيف النقة^(٨٦). وفي عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م قتل العربان كاشف الوجه القبلي وشنوا الغارات علي البلاد، وأمعنوا في نهب الغلال وقطع الطرقات^(٨٧).

وكذلك قام عربان الوجه القبلي في عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م بنهب الغلال، ومعاصر
السكر وكبس البلاد وكثرت حروبهم وشروهم وآذاهم^(٨٨).

وقام الأحديب شيخ قبيلة عرك في الصعيد، في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٥م، بالثورة
ضد المماليك فكان يأتي في زمن الغلال ليغير بمن معه على أطراف البلاد، فيأخذ ما
يحتاج إليه من الغلال والميرة وغيرها، قهراً من أيدي الفلاحين وغيرهم، وعجز الولاة
عن مقاومته^(٨٩) ونهب الغلال من الجرون^(٩٠).

كذلك أشارت المصادر المعاصرة، في حوادث عام ٧٨٠هـ/١٣٨٢م، إلى خروج
عربان البحيرة عن الطاعة وأنهم تهبوا الجرون^(٩١) وهو ما تكرر في عام ٧٨٢هـ/
١٣٨٤م حيث قدمت الأخبار من البحيرة، بأن سائر قبائل العربان تحالفوا على العصيان،
وخرجوا عن الطاعة، ونهبوا المثل من البلاد^(٩٢).

كما ذكر ابن تغري بردي، في حوادث عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، حادثة وقعت في
قرية قتيب أبيار^(٩٣)، حيث نزل بدوي إلى أحد الجرون ليأخذ ما فيه من الغلال، وعندما
حاول الفلاح منعه، استل سكيناً وحاول ذبحه، ففر الفلاح 'فتبعه البدوي وبوده السلاح
ليتم قتله حتى دخل داره فألقى الفلاح نفسه من داره إلى دار أخري، ومار إلى
الحرارية، فلما علم البدو أنهفاته، عاد إلى جهة جرن الفلاح ونادي بأعلى صوته: متى
راح من هذا الجرن القمح الواحد نبيت جميع أجزائكم وتوجه ليأتي بما يحصل القمح،
عليه ثم عاد بعد ساعة وأخذ جميع ما بالجرن بتمامه وكما له واختفى في مقداره فقول
ثلاثون إردياً وقيل ستة عشر، وقيل أزيد من عشرون، واستولى عليه ولم ينتطح في ذلك
شأتان فهذا نوع من أفعال العربان بالغربية والمنوفية وقس على هذا، مع قلة محصول
الزرع بسائر الوجه البحري لاسيما القمح فإنه في غاية الخس^(٩٤).

وقد أدى الصراع بين العربان والمماليك إلى فقد الأيدي العاملة في الزراعة؛
التمثلة في الفلاحين الذين كانوا وقد هذا الصراع، حيث قتل من الفلاحين عدد كبير،
وبالتالي خراب البلاد المصرية. ففي عام ٧٠١هـ/١٣٠١م صدرت الأوامر لأمرأ
المماليك بوضع "السيف في الكبير والصغير والجلول والحفير ولا يبقوا شيخاً ولا صبياً
ويحتاطوا على سائر الأموال"^(٩٥) فأحاطوا ببلاد الصعيد وطرقه على حين غفلة من
أهله، ووضعوا السيف من الجزيرة بالبر الغربي والاطفيحية من الشرقي، فلم يتركوا
أحداً إلا قتلوه ووسطوا نحو عشرة آلاف رجل، وما منهم إلا من أخذوا ماله وسبوا
حريمه، وإذا أسكوا رجلاً يريدون قتله "فيقول الرجل حضري، فيقولون له: قل (دقيق)
فإذا قالها (دقيق) يقتلونه، وإذا قال (دقيق) يتركونه" فضلاً عن أسروه في تلك الحملة
من العربان المستقلين الذين يقدرون بنحو ألف وستمائة أسير لهم فلاحات وزروع.
وقد نزلت كارثة كبرى ببلاد الصعيد من جراء هذه الثورة، حتى "خلت بلاد الصعيد من
أهلها بحيث صار الرجل يمشي فلا يجد في طريقه أحداً، وينزل القرية فلا يرى إلا
النساء والصبيان"^(٩٦).

ومن ذلك ما أثار إليه ابن عباس في حوادث عام ٩٢١هـ/١٥١٥م من أن الأمير قاتى باي قرا توجه إلى جهات الشرقية بسبب فساد العربان، فكان إذا ظفر بأحد من الفلاحين الضعفاء يوسطه أو يسلكه من رأسه على أقدامه، وربما صنع ذلك بجماعة من الأشراف وزعم أنهم من العربان العصاة^(٩٧).

كذلك أدى هذا الصراع إلى هجرة كثير من أهل البلاد من الفلاحين إلى القاهرة كمتسولين في شوارعها للحصول على لقمة العيش، أو لصوص ومنسر يقومون بأعمال السرقة. وكانت تصدر الأوامر من السلطات المملوكية برجوع أهل الريف من الفلاحين والعربان إلى بلادهم، مثلما حدث في عام ٨٢٧هـ/١٤٢٤م، حيث نودي في القاهرة بخروج أهل الريف من القاهرة ومصر إلى بلادهم فلم يعمل بذلك^(٩٨).

وقد أشارت المصادر المعاصرة، في عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م، إلى أن "أن كثيرا من أهل الأرياف والقرى ومن الأعراب تراحموا بالديار المصرية"^(٩٩) وقاست الناس في هذه الأيام من البلاء والشدائد والفناء والجهد ما لا مزيد عليه، واتضع جانب أهل الديار المصرية رئيسها ووضعها، بل أشرقت القاهرة على الخراب، ونزع عنها خلاقي من أهلها لا تدخل تحت الحصر إلى البلاد الشامية، وورد عليها من أهل للقرى ومن الأعراب أمثال من خرج منها، وكثرت الفقراء منهم بالقاهرة حتى صاروا فوجا فوجا في الطرقات، ومات منهم خلاقي كثيرة من شدة القحط^(١٠٠) وهؤلاء عرفوا بـ"الحراشيش" و"الزعر" و"زعر العامة"^(١٠١) فكانت تأمر السلطات بإعادتهم إلى بلادهم، كما كانت ترجع الفلاحين الأسرى إلى بلادهم ليس بروح العطف والتي نزع من قلوب المماليك بقدر خوفهم من بوار الأرض الزراعية فيقل المحصول وبالتالي يقل دخل المماليك^(١٠٢). وقد علق الأسدي على وضع فلاحي مصر بين العربان والمماليك بقوله:

"وصارت الفلاحين قفا بين اثنين لا يستطيعون أن يرضوا الجهتين فأهل الدولة أمامهم يطلبون منهم ما لهم وما ليس لهم، والعرب المحاربون من خلفهم وعن أيمنهم وعن شمالهم، لا يسعهم لكل أحد إلا الطاعة والإكرام، واستمر عليهم هذا الحال وطال ودام وخاض شهرا وعام، وتسحب أيضا من تسحب وخالف الأقوام، وبقي بعد ذلك من اضطر إلى الإقامة على الدوام، وآل الحال إلى أن غلب القوي الضعيف وضاع الملهوف، وضعف حال البلاد وتزايد الخراب"^(١٠٣). وأصبح حال الفلاح "كأنه عند بعضهم أسير ذليل حزين لا يال له عندهم ولا روح"^(١٠٤).

أثر صراعات العربان على الثروة الحيوانية:

أثر الصراع بين المماليك والعربان على الثروة الحيوانية الموجودة في مصر، والتي أصبحت مصدرا رئيسا للمماليك للحصول على الحيوانات وخاصة الخيل، إذ عمد المماليك إلى تقليص أعداد هذه القبائل بالاستيلاء على كل ما تملك من الثروة الحيوانية. مثلما حدث في عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م حيث سار نائب السلطنة الأمير طرنتاي^(١٠٥) إلى

بلاد الصعيد فقتل جماعة من العربان، وحرق كثيراً منهم بالنار، وأخذ خيولاً كثيرة وسلاحاً ورهائن من أكابرهم. وعاد بمائة ألف رأس من الغنم، وألف ومائتي فرس، وألف جمل وسلاح لا يقع عليه حصر^(١٠٦).

كما خرج الأمير سنقر الأعصر إلى الصعيد، في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وأخذ سائر الخيول التي ببلاد الصعيد، فلم يدع بها فرساً نفعاً ولا بدوي ولا قاض ولا فقيه ولا كاتب، وتتبع السلاح الذي مع الفلاحين والعربان فأخذه عن آخره، وأخذ الجمال. وعاد من قوص إلى القاهرة، ومعه ألف وستون فرساً، وثمانمائة وسبعون جملًا، وألف وستمئة رمح، وألف ومائتا سيف، وسبعائة درلة، وستة آلاف رأس من الغنم، فسكن ما كان بالبلاد من الشر، وذلت الفلاحون، وأعطوا الخراج^(١٠٧).

كذلك استولى المماليك من العربان، في عام ٧٠١هـ/١٣٠١م، حسب رواية النويري، على "خمسة آلاف فرس وعشرين ألف جمل ومائة ألف رأس من الغنم وعدة كثيرة من الأبقار والجواميس والحمر ومن السيوف والرماح عدة كثيرة"^(١٠٨) ويلاحظ أن المماليك عند تنفيذهم للمصادرة حرصوا على إيقاع الحولة على الخيول، لأنها كانت ذات أهمية كبرى في هذا الزمان، سواء في وسائل المواصلات أو الحرب أو التدريبات العسكرية أو الرياضة^(١٠٩).

فقد استغل المماليك الصراعات التي كانت تنشب بين العربان، وتتدخل للقضاء عليهم والاستيلاء على أملاكهم، ففي عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وقع عداوة بين عرب بني صورة بالمنوفية فاستغل المماليك ذلك فاستولوا على خيلهم وسلاحهم^(١١٠)، وعندما نشب قتال بين قبيلتي جابر ومرديش بإقليم البحيرة، في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، ووصل الخبر إلى السلطات المملوكية قامت بتجهيز حملة عسكرية ضدهم، وذلك لإخماد فتنتهم، وإطفاء جمرتهم وردع المعتدين منهم "فيذكر ببيرس الدوادار" فأخذنا مواشيهم من الجمال والأغنام^(١١١) "وغنموا منهم جمالاً وخيلاً وأغناماً، وأسروا نساءهم"^(١١٢).

وفي عام ٧٥٤هـ/١٣٥٥م كبست بلاد الجيزة، بعد ما كتب لمتوليها ومشايخها وأرباب أدراكها أنهم لا يخفون أحداً من العرب، ولا من أولادهم ونسائلهم، فأخذ الصالح والطالح. وقبض الأكرام على الخيول والسيوف، حتى لم يبق ببلاد الجيزة فرس ولا سيف، وأحضروا أصحابها إلى الوطاح. واستدعى الوالي ومشايخ العربان وعرضت الخيول، فمن عرف فرسه من الفلاحين رسم له ببيعها في سوق الخيل تحت القلعة، وحمل ثمنها إلى الديوان مما عليه من الخراج. ورسم يمثل ذلك فيما يحضر من خيول فلاحية بقية النواحي، أي أن الفلاح يبيعها ويورد ثمنها فيما عليه من الخراج، إما للكثير أو للجندي. فامتثل ذلك وعمل به، وسيفت خيول المفسدين، ومن لم يعرف له صاحب حمل إلى إسطبل السلطان^(١١٣). وأخذ منها المفسدين، فوسط وسمر جماعات منهم، وسير إلى القاهرة مائة وخمسين رجلاً في الحديد، ومائة وعشرين فرساً، وسلاحاً كثيراً. وأرسل متولي البحيرة من خيل عربها ستمائة وأربعين فرساً، فلم يتأخر في

الوجه البحري فرس واحد من خيول العريان. ورسم لقضاة البر وعدوله بركوب البغال والأكاديش^(١١٧). وحازوا من الخيل والسلاح شيئا كثيرا^(١١٨)، وصار بمال كثير ما بين مواشي وقماش، وحلى ونقود، وعروض وأقوات، وأزواد وروايا ماء. وسبوا حريمهم؛ فاسترقوا كثيرا منه، وصار إلى الأجناد والغلمان منهم شيء كبير، باعوا منه عددا كثيرا بالقاهرة، بعد عودهم^(١١٩). وعرضت الدواب، فكانت ألفا وثلاثمائة فرس، وألفا وخمسمائة جمل، وسبعمئة حمار، وأغناما كثيرة، سوى ما نهبه العبيد وأكلوه. وعرض السلاح، فكان مائة حمل رماح، وثمانين حمل سيوف، وثلاثين حمل درق^(١٢٠).

وفي عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م "سار الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصقري إلى الصعيد، ليحضر الخيل والجمال والرقيق وغير ذلك من العريان وأهل البلاد^(١٢١). ناهيك عن منع العريان من دخول القاهرة راكبين الخيل، ومن ذلك ما حدث عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م من النداء "بأن أحداً من العريان لا يدخل القاهرة راكباً، ومن وجد راكباً بعد اليوم أخذ فرسه"^(١٢٢) وكان للحملات المملوكية ضد العريان أثرها السلبي في خراب الريف المصري.

أثر ثورات العريان علي الإنتاج الصناعي:

وكان لهذا الصراع أثر ظاهر علي الإنتاج الصناعي، وخاصة صناعة السكر، فقد نهبت معاصر السكر، وأخذت الأبقار التي تديرها، ونهبت حواصل المعاصر والنقود والسكر. ففي عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م قام أحد زعماء العريان، يسمى ابن الأحذب، بالاستيلاء علي المعاصر والسواقي، ونهب حواصل المعاصر والنقود والسكر والاعمال ونهب الأبقار التي تدير هذه المعاصر^(١٢٣).

كما هجم عدة من العريان، في عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م "علي الصناع الذين يعملون في صناعة الجبس بجبل المقطم، فحصل منهم تقاتل، وعلت العرب وقتلوا بعضاً من الجباسة، وسلبوا الباقين بعد أن تعطوا بجراح ونحوها"^(١٢٤).

أثر ثورات العريان علي التجارة الداخلية:

وأثرت ثورات العريان علي التجارة الداخلية في مصر، حيث قطعت الطرق البرية بطول البلاد المصرية، وتم الاستيلاء علي المراكب التجارية من نهر النيل، ومنع وصول الغلال إلى القاهرة، وبالتالي ارتفعت أسعار السلع في القاهرة، وخاصة السلع الغذائية، مثل اللحوم والغلال والبقول^(١٢٥). فقد ذكرت المصادر التاريخية في حوادث عام ٦٩٢هـ/١٢٩٣م أن "العريان بالوجه القبلي تعرضوا إلي الفساد وقطع الطرقات وقتلوا بعض الوكلاء وخرجوا عن الواجب"^(١٢٦).

وذكر العيني في حوادث عام ٧٠١هـ/١٣٠١م أن عريان الصعيد "قطعوا الطريق، وأوغلوا إلي أن كانوا يدخلون مدينة أسيوط ومنفلوط وينقسمون تجارها، ويأخذون من كل واحد مبلغا علي زي الجالية^(١٢٧). وهو ما يؤكد ابن تقي بردي بقوله: "وتعدى شرهم في قطع الطريق إلي أن فرضوا علي التجار وأرباب المعاش

بأسبوط ومنفلوط فرائض جبوها شبه الجالية^(١٢٥) وكانت أسبوط تمثل مركزاً مهماً من مراكز التجارة على نهر النيل، حيث كانت بداية طريق درب الأربعين^(١٢٦) المار بالواحات إلى دارفور ومنها إلى الممالك الإسلامية في وسط وغرب إفريقيا^(١٢٧). وذكر المقرئ في حوادث عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م أن عربان الصعيد "اقتتلوا وقطعوا الطريق"^(١٢٨)، وفي عام ٧٤٨هـ/١٣٤٩م "قدم الخبر بكثرة حشود العريان بالصعيد وبلاد الفيوم، وشدة فسادهم، وتعذر السفر من قطعهم الطرقات على المسافرين"^(١٢٩).

ولم يقتصر قطع العريان للطرق على الصعيد، فقد قام عربان الوجه البحري بالدور نفسه، ففي عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م هاجم بدر بن سلام مدينة دمنهور قاعدة أعمال البحيرة، ففتك فتكاً ذريعاً في دمنهور، ونهب أسواقها، وأخرب بيوتها، وقتل جماعة من أهلها^(١٣٠).

كما ذكر ابن الفرات، في حوادث عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م، قيام عرب الزهور بالوجه البحري بقطع الطريق على المسافرين وأخذ أموالهم^(١٣١)، فقد كانوا يقطعوا الطريق بالشرقية وحصل للناس منهم ضرر عظيم^(١٣٢).

كذلك اعتدي بنو حرام على أهل الخانكة، في عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م، "وآفروا على نور الخانكة وحوادثها قذراً مطوماً من المال، وجبوا منه نحواً من ثلاثمائة دينار وستين ديناراً، وهددوا الناس إن رفعوا حالهم إلى السلطان بالنهب والقتل"^(١٣٣) وهو ما أكده ابن الصيرفي من أن أهل الخانكة شكوا "ما نزل بهم من عرب بني حرام، فإنهم أخذوا من كل دار شيئاً مطوماً، ومن كل حالوت كذلك، ومن كل مصرة كذلك، ومن كل طاحون، وجاء ما أخذوه من أهل الخانكة نحواً من ثلاثمائة دينار وستين ديناراً، وشاع هذا وتواتر، وصاروا في وجل، فإنهم هددوهم أنهم إن شكوه للسلطان ينهبونهم ويقتلونهم"^(١٣٤).

وفي المقابل جردت السلطات المملوكية حملة عسكرية ضدهم، وكان من خطتهم أن يمنع سائر المسافرين في البر والبحر، ومن خرج من مصر كان عقابه الشنيعة وذلك منعاً لوصل أية أخبار عن هذه التجريدة إلى العريان^(١٣٥)، وبالتالي كان للمماليك أيضاً دور في التأثير السلبي على طرق التجارة البرية والنهرية في الوجه القبلي.

أثر ثورات العريان على الملاحة في نهر النيل:

يعد نهر النيل شريان الحياة في مصر عبر تاريخها، وكان له دوره في حركة التجارة بين شطري مصر، الوجه القبلي والوجه البحري، وربطهما بعاصمة البلاد^(١٣٦)، وقد كان لثورات العريان وبخاصة في الصعيد، دورها في شل حركة التجارة في نهر النيل، سواء كانت تجارة داخلية من مدن وقرى مصر إلى العاصمة، أو تجارة خارجية استخدمت النيل طريقاً للوصول إلى خارج مصر كتجارة الكارم

فلم يعد نهر النيل طريقاً مأمونة للتجارة والسفن التي تحمل البضائع في كل الأحوال، إذ كثيراً ما هاجم العربان المراكب والسفن النيلية التي تحمل الغلال وغيرها من البضائع واستولوا على ما بها، ومن الطبيعي في تلك الأحوال أن يتخوف التجار من جلب تجارتهم إلى القاهرة^(١٣٧). وحدث في عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م أن ثار العربان بالصعيد " وقطعوا الطريق برا وبحرا، فامتنع التجار وغيرهم من السفر"^(١٣٨)، كما قام عربان الصعيد في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م "بقطع الطريق، وأخذوا بعض مراكب المقل (الغلال) القادمة من الصعيد، ونهبوا ما فيها، ثم يحرقون المراكب، مما جعل أسعار القمح وبقية الغلال ترتفع في القاهرة"^(١٣٩).

وقد أشار ابن إياس في حوادث عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م إلى وقوع "قننة كبيرة بين بني حرام وبني وائل، وكثر الفساد من العربان بالشرقية، حتى امتنع مرور الناس من الأسفار إلى الشرقية، من كثرة القتل وقطع الطريق وسلب أثواب المسافرين"^(١٤٠) بل وتزايد الأمر أن هجم العربان من بني حرام وبني وائل على القاهرة حتى وصلوا إلى رأس خط الصينينة، ونهبوا الدكاكين وسلبوا أثواب الناس^(١٤١). كما ذكر في حوادث عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، امتناع الناس من الأسفار إلى الشرقية والغربية لتزايد فساد العربان في الطرقات^(١٤٢).

وذكر ابن إياس أيضاً في حوادث عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م "أن العربان بالشرقية قد قطعوا الطريق على القفل الذي جاء من المحلة ونهبوا كل ما فيه، وكان فيه حمل مال لتسلطان فأخذ مع جملة ما أخذ"^(١٤٣).

أثر نوبات العربان على التجارة الخارجية:

لم يقل دور العربان في التأثير على طرق التجارة الداخلية، بل تجاوزها إلى طرق التجارة التي تربط مصر بالعالم الخارجي، مثل الطريق من عيذاب إلى قوص^(١٤٤)، فقد كان تجار الكارم يعبرون الصحراء من عيذاب إلى قوص، أو من عيذاب إلى أسوان^(١٤٥) على ظهور الإبل، ثم يركبون النيل إلى ساحل مصر والفسطاط. كان هؤلاء التجار يتجاوزون إلى أدلاء القوافل الذين لا يضلون، ويعرفون الطريق بعلماتهم لا يدركها غيرهم، ويعرفون موارد الماء وأنواعها، وقد قاسى تجار الكارم كثيراً على يد هؤلاء الأدلاء الذين كانوا يرغمون التجار على دفع مبلغ يسمونه الجمالة (العادة) بالإضافة إلى الأجر الكبير الذي يتقاضونه^(١٤٦).

كما هاجم العربان القوافل التجارية بين عيذاب وقوص ونهبوها، ومن ثم فقدت عيذاب مكانتها التجارية^(١٤٧) مما أدى إلى ازدياد نفوذ البدو في الصحراء الشرقية إلى أن قضى نهائياً على الطريق البري التجاري^(١٤٨)، وذلك لعجز المماليك عن تأمين قوافل الكارم، وتحول النشاط التجاري إلى مباءة الطور على خليج السويس، وتحولت سياستهم إلى تأمين الطريق البحري الجديد^(١٤٩). أما السبب الرئيس الذي أدى إلى ضعف هذا

الطريق؛ فهو تقلص نفوذ مصر في المناطق الجنوبية، وزيادة عصبية البدو في تلك الطريق، وكثرة فسادهم، فقد عبروا الصحراء وهاجموا القوافل التجارية المتجهة من عيذاب إلى قوص، ونهبوها وقتلوا أصحابها^(١٠٠) مما أثر على تجارة الكارم^(١٠١) التي كانت تمر عبر أراضيها^(١٠٢)، لذا كان من الواجبات الملقة على عاتق نائب الوجه القبلي كما جاءت في مراسيم تعينه الاهتمام بتجار الكارم وإكرامهم؛ لأنهم " سمار كل نادي، رفاق كل ملاح وحادي، ولا بد أن يتحدث السمار، وتتداول بينهم الأسمار، فأجعل شكرنا دأب المستنهم، ومتاحلية أعتاقهم، ومنحنا سببا لاستجلاب رفاقهم، فهم من مواد الإرفاق، وجواد ما يحمل من طرق الألفاق"^(١٠٣).

واعتدي عربان صحراء عيذاب، في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، على رسل ملك اليمن، وأخذوا منهم الهدية واستولوا على أموال التجار، مما جعل الملك الناصر يبعث حملة عسكرية لتأديبهم بقيادة الأمير علاء الدين مغطاي^(١٠٤). وكرر عربان صحراء عيذاب نفس الفعل في عام ٧١٦هـ/١٣١٦م، فاعتدوا على رسل ملك اليمن والتجار، وأخذوا جميع ما معهم، فخرجت السلطات المملوكية حملة عسكرية لتأديبهم وصلت إلى سواكن وقد رجعت تلك الحملة في تاسع جمادى الآخرة عام ٧١٧هـ/١٣١٧م^(١٠٥) كما قام العربان في عام ٧١٩هـ/١٣١٩م بالفساد في ثغر عيذاب وقتلوا الشاد المقيم به^(١٠٦).

ومن الطرق التجارية التي تأثرت بثورات العربان، طريق مصر والثوبة، وتعد أسوان أهم مراكزها، وقد تعرضت لعمليات نهب وسلب من القبائل العربية، وبخاصة من بني الكنز^(١٠٧).

وتأثر الطريق بين مصر والشام بثورات العربان أيضا، وقد اعتنى سلاطين المماليك بتوفير الأمن فيه، ليكون السمر آمنا، فاهتم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) بتأمين هذه الطريق حتى " أن المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو مائتية لا تحمل زاد ولا ماء"^(١٠٨). وكان عربان الشرقية يقومون بدرك هذا الطريق في خمس عشرة منزلة، من جهة مصر منزلة السعيدية وآخرها من جهة الشام منزلة رفح، وكانت عدتهم ألف وسبعائة فارس لهم أخباز، ويعد الروك الناصري عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، تضرر العربان من اتساع الدرك، فحملت عنهم السلطنة منزلتين، وهما رفح والزرقعة، وصار آخر أدراكهم منزلة تعرف بالخروبة^(١٠٩).

وكان لثورات العربان أثرها السيئ على حركة التجارة والمسافرين على هذه الطريق. وضعت الحركة التجارية بين مصر والشام منذ عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م، فقد كانت القوافل تحتاج إلى قوة عسكرية كي تحميها عند اجتيازها الصحراء من القاهرة إلى غزة خوفا من هجمات العربان^(١١٠).

ففي عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م كثرت الفساد من العربان بالشرقية، حتى امتنع مرور الناس من الأسفار إلى الشرقية، من كثرة القتل وقطع الطريق وسلب أثواب المسافرين^(١١١)، وفي عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م "كانت الطريق من قنطرة^(١١٢) إلى القاهرة مخوفة بواسطة العربان المفسدين"^(١١٣) بحيث "لا يقدر واحد يمشي أقل من مائتي جمل أو أكثر، خوفاً من العربان وفسادهم"^(١١٤).

وأدت زيادة غارات العربان في عهد السلطان المملوكي المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م)، مع عوامل أخرى، إلى حدوث أزمة اقتصادية وارتفاع الأسعار في القاهرة^(١١٥) فقد ذكر المقرئ في حوادث عام ٨١٨هـ/١٤١٥م أنه "في هذا الشهر تزايد ضرر قطاع الطريق في عامة أرض مصر، قبلها وبحريها، لخروج العربان عن الطاعة، وتعديهم على المسافرين في البر والبحر، وقتل كثير من الناس فامتنع خروج الأجناد إلى النواحي، وعجزوا عن قبض مفلحتهم من قلة مهابة العربان للسلطنة، وقوة تجرلهم"^(١١٦)، وفي عام ٨٢٥هـ/١٤٢٢م كثرت فساد لتهانه وهواره ببلاد الصعيد، وقطعهم الطرقات على المسافرين وشنهم الغارات على البلاد، وإحراقهم عدة نواحي بما فيها^(١١٧)، وفي عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م كان العربان بإقليم الشرقية "يقطعون الطريق ويفسدون في الأرض"^(١١٨).

وأثرت ثورات العربان في الأسعار، فقد أدى انعدام الأمن في الطرقات إلى أن يمنع التجار من نقل بعض الأصناف، فشلت في الأسواق مع الاحتياج إليها، مما أدى إلى ارتفاع أسعارها. فقد ذكر عبد الجاسط بن خليل، في حوادث عام ٧٤٨هـ/١٣٤٩م، أن "ارتفع سعر الغلال بمصر لشدة احتراق النيل وكثرة ماله حتى تأخر حمل الغلال في المراكب، وكثرة عت عربان الوجه القبلي، وغيره، وسفكتهم لدماء بعضهم البعض ولدماء الناس، ونهب الغلال من الأجران، مع هيف الغلة"^(١١٩).

كذلك كان العربان يستولوا على المال الموجود في "بيوت المال" الموجودة في الأقاليم (الأعمال)^(١٢٠). كما حدث في عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م، إذ قام عرب الصعيد بالاستيلاء على الأموال من بيوت المال، وجبوا الجزية من أهل الدمة في تلك الأعمال^(١٢١).

أثر ثورات العربان على نظام الإقطاع الحربي:

ولعل أهم آثار ثورات العربان على الاقتصاد المصري، كان على نظام الإقطاع الحربي الذي ساد مصر منذ قيام الدولة الأيوبية، وبلغ ذروته في العصر المملوكي^(١٢٢) ويعد المورد الرئيس لدخل سلاطين المماليك وأمراءهم وجنودهم، وكان الخراج عموماً المصدر الرئيس لدخل الدولة في عصر المماليك^(١٢٣) ولأن الامتناع عن دفع الخراج يعني ضرب نظام الإقطاع في مقتل، وحرمان المقطاعين من موارد دخلهم وهم من الأمراء

والجنود، ومن ثم إضعاف الجيش المملوكي. وهذا ما حرص العربان عليه حتى يقضوا على دولة المماليك^(١٧٤).

فبعدما ثار الشريف حصن الدين بن ثعلب، عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، قال: نحن أصحاب البلاد، ومنع الأجناد من تناول الخراج^(١٧٥)، وفي عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م طمع العرب في مغل الأمراء والجند، ومنعوا الحقوق، فأصلح تلك البلاد حتى أخذ الناس مغتهم كاملاً^(١٧٦). وأشار ابن أبيك الدوادار، في حوادث عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، إلى أن العربان "تسلطوا تسلطاً عظيماً حتى منعوا الجند والأمراء إقطاعاتهم وخراجاتهم بجميع الصعيد"^(١٧٧)، وأكد بيبرس الدوادار أنهم "منعوا الحقوق واعتمدوا العقوق. وقطع أرائلهم الطريق وهاشوا على الأجناد، وثاروا في البلاد وأكثروا من الفساد"^(١٧٨).

كما قام عربان الصعيد، في عام ٧٠١هـ/١٣٠١م، "ومنعوا حقوق الجند والأمراء من المغل"^(١٧٩) وهاشوا على الأجناد^(١٨٠)، ومنعوا الخراج^(١٨١). وذكر المقرئ في عام ٧٤٥هـ/١٣٤٦م أن عربان الفيوم "منعوا الخراج"^(١٨٢) وعندما ثار عربان الصعيد بقيادة الأديب، في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، "كسروا مغل الأمراء والأجناد"^(١٨٣).

وهكذا صار الصراع بين العربان والمماليك نحو محاولة كل طرف حرمان الطرف الآخر من مصدر قوته، في بلد يعتمد اقتصاده على الزراعة، فإذا كان الأيوبيون، ومن وراءهم المماليك، قد حرّموا العربان من الإقطاعات سوى الإقطاعات ضعيفة قليلة التدخل، وصاروا يسيطرون على كل الأراضي المصرية عدا أرض الوقف وبعض الأملاك القليلة، فإن العربان حاولوا في كل ثوراتهم حرمان المماليك أيضاً من هذه الإقطاعات، من خلال منع إيراداتها من الوصول للمماليك. ومن ناحية أخرى حرص المماليك على الانتقام من هؤلاء العربان أمد الانتقام وسلبهم كل ما يحوزون من أموال وغلال وحيوانات. وتمثلت المصادر التاريخية المعاصرة بكثير من حوادث استيلاء أمراء المماليك على ثروات العربان الصامتة والناطقة.

وحرص المماليك، عند إخراج التجريدات ضد العربان، على ألا تكون وقت حصاد المغل (الغلال) حرصاً عليه. وقد أشار المقرئ في ذلك في حوادث عام ٧٤٦هـ/١٣٤٧م وفيه تافتت العربان بالوجه القبلي والفيوم، وكثرت حروبهم وقطعهم للطرق فلم يمكن خروج العسكر إليهم، فإنه كان أوان المغل خوفاً عليه^(١٨٤).

أثر ثورات العربان على نظام الوقف:

وتأثر نظام الوقف^(١٨٥) بشدة، ومن المعلوم أن عصر سلاطين المماليك يعد العصر الذهبي للوقف، فقد خضعت له كثير من الأراضي الزراعية^(١٨٦) التي تعرض لها العربان وقد حدث في عام ٨٦٤هـ/١٤٥٩م أن بني حرام^(١٨٧) من قبائل العرب بإقليم الشرقية قاموا بنهب قرية "بلقش"^(١٨٨) مما جعل نقيب الأشراف يأخذ جماعة من الأشراف، وشكوا إلى السلطان أبنال العلائي فقال: من فعل ذلك؟ فقالوا: قرية كذا، وقرية

كذا، وسموا له المفسدين، فلما طال سكوته، قال الأمير يرد بك الدويدار^(١٨٩). ذهبا، حتى يكشف السلطان عن هذا الأمر فاتفصلوا علي ذلك^(١٩٠).

الخلاصة :

ويتضح لنا - مما سبق - أن العربان شكلوا شريحة اجتماعية متميزة في مصر، في عصر سلاطين المماليك، حيث انتشرت القبائل العربية في بلاد الوجهين القبلي والبحري، وبخاصة الشرقية والبحيرة والمنوفية وقوص وأسيوط والأشمونين. وأن العربان حملوا راية المعارضة وعباء المقاومة ضد سلطنة المماليك دون شرائح المجتمع المصري جميعها، بحيث تميز عصر سلاطين المماليك بكثرة ثورات وانتفاضات العربان ضد الدولة المملوكية، والتي تعد سمة بارزة من سمات العصر المملوكي. وكشفت الدراسة تحيل المصادر التاريخية المعاصرة لوجهة نظر الدولة، واعتبرت ثورة العربان نوع من "الفساد" والبعث "والفتنة" و"الحصان" و"النفاق". و"الخروج علي الطاعة" و"الآلئ" و"الضرر".

وأوضحت الدراسة موقف السلطات المملوكية من ثورات العربان، حيث قابلت تلك الثورات بتجريد العديد من الحملات العسكرية التي تسببت في تدمير البلاد التي مرت بها. وقد ارتبطت هذه الحملات باستخدام القسوة والشدة المفرطة، وتعدد أساليب القتل من التوسيط والتسمير والعصر ونشر الأجسام وسلخ الجلود، ودفن الأحياء، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نساءهم، وبناء مآذن من رؤوس القتلى، وسبي النساء ومصادرة الأموال.

وكشفت الدراسة عن لجوء السلطات المملوكية إلى استصدار الفتوى الشرعية التي تجيز قتل هؤلاء العربان علي اعتبار أنهم "مفسدون" و"خارجون علي الطاعة" تجب محاربتهم، فألقتهم بجواز ذلك. وكان الحصول علي هذه الفتوى سندا شرعيا يبرر الأعمال الانتقامية التي يقوم بها المماليك ضد هؤلاء العربان، والتي وصلت حد الإبادة الجماعية.

كما كشفت الدراسة عن أثار ثورات العربان السلبية علي الاقتصاد المصري وبخاصة الإنتاج الزراعي حيث تم تدمير الجسور وإغراق الأرض الزراعية بمياه الفيضان وتكسير آلات الري وحرق الغلال في الجرون.

كذلك كشفت الدراسة حجم الثروة الحيوانية الكبير وبخاصة من الخيول والإبل والأبقار والأغنام؛ التي تم الاستيلاء عليها من العربان، بحيث لم تستطع المصادر المعاصرة أن تعدنا بأرقامها لأنها تخرج عن الحصر.

فضلا عن ذلك فقد أثر هذا الصراع علي الإنتاج الصناعي، وخاصة صناعة السكر حيث نهبت معاصر السكر، وأخذت الأبقار التي تديرها ونهبت حواصل المعاصر والفتود والمكر.

بالإضافة إلى ذلك فقد أثرت ثورات العربان على التجارة الداخلية في مصر، حيث قطعت الطرق البرية بطول البلاد المصرية، وتم الاستيلاء على المراكب التجارية من نهر النيل، ومنع وصول الغلال إلى القاهرة وبالتالي ارتفاع أسعار السلع في القاهرة، وخاصة السلع الغذائية مثل الحبوب والغلل والبقول.

كما أوضحت الدراسة أن تأثير ثورات العربان لم يقتصر على التجارة الداخلية وطريقها، بل امتد تأثيرها إلى التجارة الخارجية وطريقها، سواء طريق عذاب إلى قوص والخاص بتجارة الكارم، أو على الطريق بين مصر والنوبة، أو على الطريق بين مصر والشام مما ساهم في إضعاف التجارة الخارجية بالاشتراك مع المياسة الاحتكارية للمماليك، والحصار الاقتصادي من جانب الغرب الأوروبي، وحركة القرصنة على الشواطئ المصرية، ومحاولة إيجاد طرق بديلة بعيداً عن سيطرة المماليك.

كذلك كان لثورات العربان تأثيرها على نظام الإقطاع الحربي الذي ساد مصر منذ قيام الدولة الأيوبية، والذي بلغ ذروته في العصر المملوكي، وكان يعد المورد الرئيس لدخل سلاطين المماليك وأمرائهم وجنودهم. كما كان الخراج يعد المصدر الأساسي لدخل الدولة في عصر المماليك، والامتناع عن دفع الخراج معناه ضرب نظام الإقطاع في مقتل وحرمان المقطعين من موارد دخلهم وهم من الأمراء والجنود وبالتالي إضعاف الجيش المملوكي.

بالإضافة إلى ما سبق من تأثير ثورات العربان على الاقتصاد المصري، فقد تأثر نظام الوقف الذي خضعت له كثير من الأراضي الزراعية، بسبب اعتداءات العربان من قتل الفلاحين، وغرق الأرض، ونهب الغلال، وبالتالي الأثر المبيد على الجهات الموقوفة عليها هذه الأراضي. كما أدى الصراع بين العربان والمماليك إلى تدمير البنية البشرية لسكان مصر في عصر كانت المجاعات والأوبئة بمثابة معول هدم لهذه البنية البشرية من ناحية أخرى.

هوامش البحث

- (١) إبراهيم أحمد زرقانه: 'القبائل العربية في مصر عند المقرئزي'، ضمن كتاب دراسات عن المقرئزي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١، ص ٨٥؛ أحمد مصطفى الصغير: 'المجتمع المصري في العهد المملوكي وأثر الحياة السياسية فيه'، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨، ص ٦٢. انظر الخرائط الملحقة بالدراسة لأرقام ١ و ٢ و ٣ و ٤.
- (٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: 'العصر المملوكي في مصر والشام'، مكتبة الأجلو المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٣٢٣.
- (٣) حبشي سيد نصر: 'المجتمع المصري في الشعر المملوكي'، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٨٠، ص ٩٩.
- (٤) أوربت المصادر المعاصرة مصطلح الفساد بمشتقاته مثل 'فساد العربان'، و'كثير فسادهم' و'أكثرنا من الفساد' و'غاية الفساد' و'كثير فساد لثانة وهارة' و'المفسدين' و'مفسدي العرب' و'العرب المفسدين' و'الأعراب المفسدين'. ابن تيمية: 'السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية'، كتاب الهلال، هـ ٣٦٧، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٦٧ بيرس الدواد: 'زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة'، تحقيق زبدة محمد عطا، الطبعة الثانية، ص ١١٩ للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ج ٩، ص ١٣٩١ للتوحي: 'نهاية الأرب في فنون الأدب'، ج ٣٢، تحقيق فهم محمد شنتوت، دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢، ص ١١٦ ابن الفرات: 'تاريخ ابن الفرات'، مج ٩، ج ٢، تحقيق مسطون رزيق وجمال عز الدين، بيروت، ١٩٣٩، ص ١٢٦٣ ابن دقماق: 'الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلطانين'، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، جامعة أم القرى، مكة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ١٣٩٥ ابن خلدون: 'تاريخ ابن خلدون'، بيروت، ١٩٧٩، ج ٥، ص ٤٥٠؛ المقرئزي: 'السلوك لمعرفة دول الملوك'، ج ٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة، ٣٥٢، ٦٠٣، ابن حجر: 'إنباء الغرر بأبناء العمر'، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩، ج ٣، ص ٩١؛ العيني: 'عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان'، ج ٤، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ج ٤، ص ١٧٣ ابن الصيرفي: 'إنباء العصر بأبناء العصر'، تحقيق حسن حبشي، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٨٦؛ عبد الباسط بن خليل: 'نبيل الأمل في ذيل الدول'، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ٢٠٠٢م، ج ١، ص ١٢٢٨؛ ١٢٩٩؛ ابن إياس: 'بدائع الزهور في وقائع الدهور'، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، القاهرة، د. ت. ، ج ١، ق ١، ص ٤٤٣؛ ق ٢، ص ٣٨٨، ج ٣، ص ٣٤٦؛ ج ٤، ص ٢٥٨، ٤٥١؛ ج ٥، ص ٤٧.

- (٥) مثل 'عصبة العربان' و'عصبة عربان الوجه القبلي' و'قد كثر عصبتهم وعظم فسادهم' و'فانهم بالغوا في العتو والفساد'. المقرئزي: الملوك، ج٣، ص٦٣٨، ج٤، ص٦٧٨؛ ابن الصيرفي: نزعة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٠، ج١، ص٢٣٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص١٤٤.
- (٦) مثل 'خيمت فتنة العرب' و'الفتنة الواقعة' و'وقوع الفتنة' و'مال عربان الصعيد إلى الفتنة' و'كانت الفتنة ونفاق العربان'. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص١٥١؛ التويري: نهاية الأرب، ج٢٢، ص١٢٤١؛ ابن حجر: إنباء الفهر، ج٢، ص١٤٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص١١٤١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٥١.
- (٧) مثل 'عصيان الشريف حصن الدين بن ثعلب' و'تظاهر بالعصيان' و'أظهروا العصيان' و'كانوا يتجاهرون بالعصيان' و'كان قبل عصيانه' و'العربان العصاة' و'عصاة العربان' و'عصوا على الولاة' و'أردادوا عصياتا فوق عصياتهم' و'ما ظهر منهم من العصيان والتفاني والعدوان'. زكريسين: تاريخ سلاطين المماليك، لندن، ١٩١٩، ص١٠٧؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٩١؛ التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية الثنائية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٨٧م، ص٣٧؛ التويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٤٣٩؛ ج٣٢، ص١١٦؛ ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مذي الأيام والشهور، ج١، تحقيق فهد محمد شلتوت، المجلس الأعلى للشتون الإسلامية، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص١٢١؛ النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٥٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢٦٣؛ ابن إياس: بدائع، ج١، ق١، ص١٥٥٠؛ ج٤، ص٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٥٩.
- (٨) وذلك مثل 'تظاهروا بالنفاق والعصيان' و'عليه وصل الخبر بنفاق العربان بالوجه القبلي' و'نفاق عربان الصعيد' و'تألفت العربان بالوجه القبلي والفقوم' و'تألفه العربان بالصعيد' و'أن العرب تافقوا'. زكريسين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠٧؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٩٩؛ التحفة الملوكية، ص٣٣؛ المقرئزي: السلوك، ج٢، ص٦٥٦، ٦٩٥؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢١٨.
- (٩) فذكرت 'خرجوا عن الطاعة' و'عليه خرج عربان الوجه القبلي عن الطاعة' و'العرب الخارجة عن الطاعة'. المقرئزي: السلوك، ج٢، ص١٩٠٧؛ ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص١٨٥؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص١٩٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٥٠؛ ق٢، ص٢٣٥.
- (١٠) 'عليه كثر أذى حرب الألفوية وضربهم'. عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢١٤.
- (١١) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢١٠.
- (١٢) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢٠٠.

- (13) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ١٧٥.
- (14) الأحامدة: بطن من جرم (بفتح الجيم وسكون الراء المهملة وميم في الآخر) طوي من القحطانية. القنقشندي: نهاية الأرب، ص ١١٦٤ قلاد الجمان، ص ٨٢-٨٤.
- (15) المقرئ: الملوك، ج ٤، ص ٣١٦.
- (16) بيهرس الدوادار: زبدة الفكر، ج ٩، ص ٣٩٢؛ العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٣؛ ابن إياس: بدائع، ج ٣، ص ١٤٣.
- (17) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ٢٢٧.
- (18) بيهرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص ١٦٠.
- (19) محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٦١.
- (20) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٦١؛ محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٦١.
- (21) المقرئ: البيان والإعراب، ص ٩.
- (22) المقرئ: الملوك، ج ١، ص ٣٨٦؛ الثيلان والإعراب، ص ٣٨. جمال الدين الشبلان: تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الثاني العصور الأيوبية والمملوكية، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١١٧-١١٨؛ أحمد مصطفى الصغير: المجتمع المصري، ص ١٦٤؛ عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٤٣-١٤٤؛ طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر دراسة للأسماء التي أنهت حكم دولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٦٧-٦٨.
- Poliak (A. N.), "Les révoltes populaires en Egypte à l' époque des mamelouke ", *Revue des Et. Islam*, 1934, pp. 251-273; Garcin (Jean-Claud), "Note sur les rapports entre bédouins et fellahs à l'époque mamluke" , *Annales Islamologiques*, (IFAO), XIV, PP. 147-163.
- (23) القنقشندي: نهاية الأرب في معرفة ألساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٣٩.
- (24) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٣.
- (25) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م، ج ٢، ص ٥٨.
- (26) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شعص الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨، ص ١٠٧-١٠٨.

(27) شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صهاج بن مائل الصنهاجي، أصله من قلعة حماد بالمغرب، ولد بدلاص إحدى قرى إقليم البهنسا وقرية تابعة لمركز ناصر - محافظة بني سويف الآن، حيث كانت أمه من دلاص، وأبوه من أبو صير الملقى - قرية تابعة لمركز الواسطى - محافظة بني سويف - لذا أطلق على نفسه الدلاصيري، واشتهر بالبوصيري، وانتقل إلى القاهرة، وتعتنى صناعة الكتابة، وباشر ببليس بإقليم الشرقية، ثم انتقل إلى الإسكندرية، وانضم إلى الطريقة الشاذلية وتعلم على يد أبو العباس المرسى خليفة أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية، وقل بالاسكندرية حيث وافته المنية بها في عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م ومسجده مجاور لمسجد أبو العباس المرسى بميدان المساجد الآن ويعرف بالأباصيري، لمزيد من التفاصيل انظر:-

ابن أبيك الصغدي، الوافي، ج-٣، ص ١٠٥-١١٣، رقم ١٠٤٥ المقريزي، المقفى الكبير، ج-٥، ص ٦٦١-٦٦٩ رقم ٢٢٦٢ ابن شاذكر الكتبي، فوات الوفيات، ج-٣، ص ٣٩٢-٣٩٩، رقم ١٤٥٦ ابن تغري بردي، الدليل الشافى، ج-٢، ص ٦٢٢ رقم ٢٢٣٩ ابن العماد الحنطلي، شذرات الذهب، ج-٥، ص ١٤٣٢ السيوطى، حسن المحاضرة، ج-١ ص ١٥٧ عبد اللطيف حمزة، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية، ص ١٠٤-١٠٥ الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول. الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٧٤.

(28) البوصيري: ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٣٨.

(29) مدح البوصيري المماليك بقوله:

ترك تزييت الدنيا بذكرهم فهم لها الحلى إن غلبوا وإن حضروا

حكى ظواهرهم حسنا بواقعتهم فهم سواء أسروا القول أو جهروا

بيض الوجوه بجن الليل إن ركبوا إلى الوغى ويضوء الصبح إن سفروا

ديوان البوصيري، ص ١٣٦ حبشي سيد نصر: المجتمع المصري في الشعر المملوكي، ص ٣٤.

(30) محمود السيد: تاريخ القبائل العربية، ص ٢٤٨.

(31) ابن الطويرتزه المقتن في أخبار الدولتين، بناء وتحقيق أيمن فؤاد سيد، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٨٦ القلشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٧-٤٥٨ السيد الباز

العربي: الإنقاذ العربي، ص ١٩.

(32) المقريزي: المملوك، ج ١، ص ١٧٢ حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن

الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٩ محمد فتحي الشاعر: الشرقية في عصري سلاطين

الأيوبيين والمماليك، ص ٥٩.

(33) السبكي: معبد النعم ومببد النعم، تحقيق محمد علي التجار وأخران، القاهرة، ١٩٤٨،

ص ٥٤-٥٥.

(34) سنقر بن عبد الله الأصغر المنصوري فلكون ثلثي الوزارة مرتين وتوفي عام ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م. انظر: الصقاعي: ثلثي وفيات الأعيان، ص ٨٨، رقم ١٢٩٩ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٦، ص ٩٦-٩٨، رقم ١١٢٤٤
Abd Ar-Raziq (Ahmad), ' Le vizirat et les vizirs d' Egypte au temps des Mamluks ', An. Isl. XVI, le Caire, 1980. No. 20,22.

(35) ابن إياس: بدائع، ج ١، ق ١، ص ٤٠٩.

(36) بويرس اللوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٧٧.

(37) أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٢٩؛ في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص ١١٧.

(38) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٢٧٢ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٤٢ عبد الفتاح يوسف عرابي: قوص في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب بسوهاج، ١٩٩٠، ص ١٤٨ ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر في عصر المماليك الجراكسة، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٥٢.

(39) شبك من مهدي الظاهري جقمق، تولى نيابة الوجه القبلي عام ٨٧١هـ / ١٤٦٦م وكانت له حروب مع عرب هواره، وساعد الأشرف قديتاي في تولي السلطنة وأصبح الرجل الثاني في الدولة وله العديد من المنشآت المعمارية في القاهرة والإسكندرية، وقاد حملة عسكرية ضد القبائل التركمانية في شمال الفرات وقتل بمدينة الرها عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م. السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٧٢-٢٧٤، رقم ١٠٧٧.

(40) ابن تغري بردي: منتخب من حوادث الدهور، ج ٣، ص ٢٩٥؛ ابن الصيرفي: إنباء النهر، ص ٤٤-٤٥؛ عبد الباسط بن خليل الحنفي: نيل الأمل، ٦ لنص ٣٥٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٥؛ البيومي إسماعيل الشربيني: مصاندة الأملاك، ج ١، ص ١٥٣ ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر، ص ٥٢.

(41) عيذاب: بالفتح ثم السكون، وذال، وآخره ياء موحدة، بلدة على بحر القلزم في مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد، عن أهمية ميناء عيذاب في خدمة التجارة. انظر: - ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٧؛ أحمد دراج "عيذاب"، مجلة نهضة أفريقية، السنة الأولى، العدد ٩، ١٠ (يونيو - أغسطس)، ١٩٥٨ عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر، منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٢٨ - ١٣٠؛ حسنين محمد ربيع "البحر الأحمر في العصر الأيوبي"، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠٥ - ١٢٣؛ بشير إبراهيم بشير، "عيذاب حياتها الدينية والأدبية"، مجلة الدراسات السودانية، جامعة الخرطوم، ص ٥٣، ج ٢، يوليو، ١٩٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ٣٩ - ٨٠؛ رجب محمد عبد الحليم، "ميناء

عذاب وودي العلاقي وأثرهما في علاقة مصر بالسودان حتى نهاية القرن ٩ هـ / ١٥ م^٢، ندوة الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٢٧ - ٣٠٥.

(42) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٢٤٠.

(43) ابن إياس: بذائع، ج ٤، ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

(44) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٦.

(45) ابن الصيرفي: إنباء الهصر بلنعام، ص ٩.

(46) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٩، تحقيق محمد ضياء الدين الرئيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٢٧ - ٤٢٨؛ بيهرس المنصوري: للتحفة

الملوكية، ص ٣٧؛ ابن فضل الله العنبري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٤٣ - ٢٤٤؛ مسالك الألبار في معالك الأنصار قبائل العرب في القرنين السابع والثامن، تحقيق

دورو تياكرا فولسكي، الطبعة الأولى، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥، ص ١٦١؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٢٨٧ - ٣٨٨؛ العيني: عقد

الجمان، ج ٩، ص ١٠٨؛ أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، ص ٤٧٧ - ٤٧٨؛ محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطى، دار عين، القاهرة،

١٩٩٦، ص ٢٦١ - ٢٦٢؛ حياة ناصر الحجى: أحوال العامة في حكم المماليك، ط ٢، الكويت، ١٩٩٤، ص ١٦؛ أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر

والشام، ص ١٣ - ١٣٢، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١١٨ - ١١٩؛ محمود محمد السيد: القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب

الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص ١٣١ - ١٣٢؛ أحمد لطفي السيد: قبائل العرب في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٧١.

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, fourth edition, London, 1925, pp.259-260.

(47) بيهرس الدوادار: زبدة الأفكار، ج ٩، ص ٣٤٧؛ مختار الأخبار، ص ١١٩؛ ابن تغري

بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٤٨.

Garcin (Jean-Claud), "Note sur les rapports entre bédouins et fellahs", P. 148.

(48) ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٣٩٤ - ٣٩٥؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥،

ص ١٥٠؛ المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٩١٠؛ ابن إياس: بذائع الزهور، ج ١،

ق ١، ص ٥٥٠ - ٥٥١.

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.

320, Pollak (A. N.), "Les révoltes populaires en Egypte à l'

époque des mameloukes", P. 260.

(49) أحمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١١٧.

(50) التوسيط: وهو أن يعري الشخص من سباب ويضرب بالسيف بقوة تحت السرة ليقسم إلى نصين وتنتشر أفعاء المحكوم عليه إلى الأرض. عاقبوا: العصر المماليكي، ص ٤٢٤.

(51) التسمير: عقوبة تقضي بتعريه المحكوم عليه من الثياب، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب، وتلقى أعضائه في الخشب بواسطة مسامير خلاط تربطه بالخشب. عسوز: العصر المماليكي، ص ٤٢٣.

(52) العصر: وهو عقاب المذنب بألة العصر المسماة المعصرة، وهي صارة عن خشبتين مربوطتين ببعضهما ويوضع بينهما الجزء المراد عصره في المذنب ثم تشد الخشبان بشدة فيؤدي ذلك إلى أضرار بالغة بالجلد والعظام المعصورة بينهما. دهان: معجم الألفاظ التاريخية، ص ١١٣، ماخذ: نظم المماليك، ج ١، ص ١٣٤.

(53) تعدد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١١٧ علاء طه زكي: السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٥٨.

وقد اتنى البوصيري علي ما فعله للمماليك بالعربان متفاخرا بقوله:

لمعشر قطعت أوصالهم قطعا	لما بلغها حيط ولا أبر
ومعشر بالظبا طارات رؤسهم	عن الجسم فلقنا أنها أكر
ومعشر وسطوا مثل الدلاء ولم	تربط جبال بها يوما ولا بكر
ومعشر سروا فوق الجياد وقد	شدت جوسهم الألواح والنسر
وأخرون لدوا بالمال أنفسهم	وقالت الناس خير من عمي حر
موتات سوء نلقوها بما صنعوا	ومن وراء تلقبهم لها سقر

ديوان البوصيري، ص ١٣٥.

(54) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٥٠.

(55) البيهقي الشربيني: مصادرة الأملاك، ج ١، ص ١٩٥.

(56) سنيس: يضم السنين المهمة وسكون النون وضم الهاء الموحدة وسين مهمة في الآخر. وهي البطن الخامس من طيء. ومن سنيس طائفة بالجيزة حول سفارة ومنشأة دهبور وما والامسا. والإمرة الآن بالديار المصرية في الخزاعة في بني يوسف، ومقرهم بمدينة سخا بالأصملى الغربية. نظر: القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الرمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٨٧؛ المقرئ: البيان والإعراب، ص ٧-٨.

كانت الإمرة في عمل المنوفية العمل الثاني المنوفية لأولاد نصير الدين من لواته ولكن إمرتهم في معنى مشيخة العرب، وكانت الإمرة في عمل الغربية في أولاد يوسف من الخزاعة من سنيس من طيء من كهلان من القحطانية ومقرتهم مدينة سخا من الغربية. القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٤، ص ٧١.

(57) المقرئ: الملوك، ج ١، ص ٣٨٧.

- (58) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٩١٢.
- (59) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٦٨.
- (60) المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ٢٧٤-٢٧٥.
- (61) المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ٣٩٦.
- (62) القبردي الأشرفي قايتباي وابن عمه وتزوج أخت زوجته، واستقر في الدوايرة الكبرى وأضيف إليه الوزارة. المخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣١٥، رقم ١٠٠٢.
- (63) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٠. وقد حاول أحد الباحثين تهرير ملوك المماليك ذلك بزواج الشغار المالديين بعض القبائل آنذاك، مما جعل نظرة المماليك إلى تلك النسوة الأسيرات لم تعد كونهن جوارى. أنظر: علي السيد علي: الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٣.
- (64) ابن الصوري: نزهة النفوس، ج ١، ص ٢١٣.
- (65) أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي حلية، دار فتيبة، دمشق، ١٩٨٥، ص ٣٧٢.
- (66) المقرئ: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ١٣٤٠ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ١٧٦.
- (67) كان نائب الوجه القبلي يختار من أمراء الثمنين مقدسي الأتوف، وهم أعطى رتبة عسكرية في الدولة المملوكية، وهو في رتبة مقدم الحسكر بغرة في الممالك الشامية، وفي رتبة نائب الوجه البحري، بل أعظم خطراً منه، ومقر نيابته مدينة أسيوط. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤-٢٥، الخالدي: المقصد الرفيع، ورقة ١٤٢-١٤٣؛ عاشور: العصر المماليكي، ص ٣٤٠؛ الأيوبيون والمماليك، ص ١٣٣٠ محمد عبد الغني الأنشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، رقم ١٥٨، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٨٠.
- (68) ابن دقماق: الانتصار، ق ٥، ص ١٢٢ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٦.
- (69) ابن دقماق: الانتصار، ق ٥، ص ٢٥.
- (70) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٢.
- (71) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٥، ٦٥، ج ١١، ص ١٤٢٨ ضوء الصبح المسفر، ص ٢٦٥-٢٦٦.
- (72) الواسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٥٤-٢٥٥.
- (73) محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧، ص ١٢٨٣ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ١٢٨٣ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٣١١ مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ١٩٧-١٩٨.

(74) السوالي: مفردها الساقية: وهي آلة قديمة عرفها الفلاح المصري منذ أقدم العصور. وهي تتكون من دولاب أو عجلة أي قرص خشبي مستدير ومثبت يصنع من خشب السنط يحيط به حبل، وتربط به ألوان من الفخار أو الخشب المثقل بالصفيح تعرف بالقوايس ويتحرك الدولاب بعجلة مسننة أخرى تدور حول محور يحرك هذه العجلة الأخيرة الدراب من البقر والجاموس أو الخيول. الناهلي: لمع القواين المضبوطة، نشر كلود كاهن، دمشق، ١٩٦١، ص ٤٨؛ الألفوي: الطلح السعيد، ص ١٢١٢؛ المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ١٥٦؛ ولهم نظير: الزراعة في مصر الإسلامية، ص ٤٣؛ Lane-Poole, Social life in Egypt, 1883, pp. 50-51.

(75) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٠٨؛ أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعية والاقتصادي، ص ٤٢٣.

(76) المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ١١٣٢.

(77) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٦٦٨.

(78) الجسور: عبارة عن سد ترابي على حافة النهر أو التربة. حيث ترجع أهمية الجسور في أنها تعمل على حماية الأراضي الزراعية والبلاد من مياه الفيضان، وتحقق أقصى فائدة ممكنة منها. وتنقسم الجسور في مصر إلى نوعين: النوع الأول: الجسور السلطانية: وهي التي يعم نفعها كل الأراضي. وكانت الدولة تعين أحد الأمراء للاهتمام بهذه الجسور أطلق عليه 'كاشف الجسور' أو 'كاشف التراب' والنوع الثاني: الجسور البلدية: وهي تخص ناحية دون أخرى وعلى أهل هذه الناحية الاهتمام بها. انظر: ابن معاني: قوانين للداوين، ص ١٢٣٢؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤٨-٤٤٩؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ١٦٢-١٦٣؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٢٩؛ قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٢٣.

(79) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٨٩٦.

(80) عنبث: إحدى نواحي إقليم الشرقية. انظر: ابن معاني: قوانين الدين، ص ١٤٥. وتعرف منذ العصر العثماني باسم 'سنيث' هي تتبع مركز بنها بالقليوبية. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ٢، ص ١٩.

(81) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٩٦.

(82) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٣٢٤-٣٢٥.

(83) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري، ص ٥٢-٥٣.

(84) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٧.

(85) وهي أماكن درس الفلا من القمح والقول والشعير.

(86) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٧٢٨.

(87) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٧٧٠.

(88) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ١٨٥٠ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٦٢ عبد الباسط بن خلیل: لیل الأمل، ج ١، ص ٢١٨-٢١٩ ابن یاس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٤٠.

(89) المسخاوي: الذیل للتمام علی تاریخ الإسلام، ج ١، ص ١٣٣.

(90) ابن یاس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٥٠.

(91) ابن یاس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٣٥.

(92) ابن یاس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٩.

(93) لحدی قری إقليم المنوفية ومقر عمل أليار وجزيرة بني نصر، وهي مدينة كبيرة، عامرة جليلة أهلة ولها أسواق وقياصر ومشهور بصناعة النسيج، حيث يعمل بها القماش الغالي المعروف بـ "القماش الابياري" مما يضاهي عتابي بغداد، ويلحق القماش السكندري. الواطواط: مباحث الفكر، ص ١١٧ الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤١٠ ابن دقماق: الانتصار، ق ٥، ص ٩٩ ابن الجيعان: الثقافة المنوية، ص ١١١ علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج ٨، ص ٢٨-٣٠ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٢، ص ١١٩.

(94) ابن تغري بردي: منتخبات من حوادث الدهور، نشر ولیم بویر، ج ٣، ص ٦٥٢-٦٥٤ نظير حسان سعداوي: صور ومقاتل من عصر المماليك، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٤٤-٤٥ مجدي عبد الرشيد بحر: القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٧، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٣٢٩-٣٣١.

(95) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٥٠.

(96) المقرئ: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٢٠-٩٢٣ العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٣-١٧٧

١١٧ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٢٩-١٣٤

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, pp.

300-301.

(97) ابن یاس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٥١-٤٥٢.

(98) المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ٦٧٢.

(99) المسخاوي: التبر المسبوك، ص ٣٤٦-٣٤٧.

(100) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج ١، ص ٢٦٨.

(101) احمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١١٧.

الدعارة أو الزعار والزرة والزعر: أيضا جمع زاعر، وهو اللص والمعتال والعيال والحرشوش والمتشرد. محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٧٠ علام طه زكي: عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٤٦، ٥٠.

(102) حنفي محمود خطاب: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى، ص ٣٣.

(103) الأسدي: التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٩٤.

(104) ابن الحاج: المدخل، ج ٣، ص ٣٩.

(105) الأمير حسام الدين طرلطي بن عبد الله المنصوري تولى نيابة السلطنة للمنصور قلاوون والإشراف خليل الذي قتله عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. الصقاعي: تآلي وفيات الأعيان، ص ٩٤، رقم ١٣٩: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٦، ص ٣٨٦-٣٨٨، رقم ١٢٤١: محمد عبد القوي الأشقر: نائب السلطنة المملوكية، ص ٣٧٠-٣٧١.

(106) ابن الفرط: تاريخ ابن الفرط، ج ٨، ص ٩٠: المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٧٥١.

(107) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٧٩: مختار الأخبار، ص ١١٦: المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٣، ص ١٩٤: المعنى: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٣٩-١٤٠.

(108) التويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٦: مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١١٠٧: بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ١٣٩٤: المعنى: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٣-١٧٤.

(109) البيومي الشربيني: مصادرة الأملاك، ج ١، ص ١٩٥.

كان السلطان المملوكي يوزع الخيل على أمرائه مرتين في العام. الأولى عند خروجه إلى مرابط خيوله على القرط في الربيع، والثانية: عند لبعه الكرة بالميدان، فينعم على الأشخاص من أمرائه بما يفتارده من الخيول على قدر مراتبهم، بحيث يحصل بعضهم على مائة فرس في السنة. وكل من مات له فرس من ممالئكه دفع إليه عوضه، وربما أتمم بالخيول على أكابر الأمراء الممنون عند الخروج إلى الصيد، انظر: - الفلقشندي:

صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥٤: السيد البار العربي: الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٥: سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المملوكي، ص ٤٢٨: أمال العمري: وثائق بيع وشراء خيول من العصر المملوكي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١٠، ج ٢، نوفمبر ١٩٦٤، ص ٢٢٦-٢٢٧.

البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١١، القاهرة، ١٩٩٧، ج ١، ص ٢٧-٢٨.

Ayalon, "The System of Paymen In Mamluk Military Society", JRAS, 1946, pp. 268-270.

(110) المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٧٠-٧٠١.

(111) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٧٦: المعنى: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٢٢.

(112) بيبرس الدوادار: التحفة المملوكية، ص ١٦٠: ابن إياس: بدائع، ج ١، ص ٤٠٧.

(113) السلوك، ج ٢، ص ٩٠٩-٩١٠.

(114) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٩١٠.

(115) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٩١٠.

- (116) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٩١٢.
- (117) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٩١٢.
- (118) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٧٢٢.
- (119) عبد الباسط بن خليل: ليل الأمل، ج ٨، ص ١٩٠.
- (120) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٩٠٧؛ ابن حجر: إنباء الفهر، ج ٢، ص ٤٥.
- (121) عبد الباسط بن خليل: ليل الأمل، ج ٨، ص ١٢٨.
- (122) حياة ناصر الحجري: أحوال العامة في حكم المماليك، ص ٢٠٢.
- (123) مفضل بن أبي الفضائل: التهج السديد، ج ٢، ص ١٥٦٢ بيرس النوادر: مختار الأخبار، ص ٩٢.
- (124) العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٤.
- (125) ابن ثوري يردى: التجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٤٩.
- (126) درب الأربعين: سمي هذا الطريق بهذا الاسم لأن القوافل تقطعه في أربعين يوما من أسبوط إلى دار فور. أنظر: - محمد بن عمر التونسي: تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٤١-٥٢.
- (127) شوقي عبد القوي عثمان: التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٧٠؛ محمد رجب عبد الحليم: العروبة والإسلام في دار فور في العصور الوسطى، ص ٨٢-١٨٤ ماهر أحمد مصطفى: صعود مصر في عصر المماليك الجراكسة، ص ١٢٨.
- (128) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٩٥٦.
- (129) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٧٣١.
- (130) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٦٦.
- (131) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ١٧٢٥؛ ابن حجر: إنباء الفهر، ج ١، ص ٤٢١.
- (132) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج ٩، ج ٢، ص ٢٥١.
- (133) عبد الباسط بن خليل: ليل الأمل، ج ٧، ص ٣٣.
- (134) ابن الصيرفي: إنباء النهر، ص ٤٢٧-٤٢٨.
- (135) العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٥.
- (136) عن أهمية نهر النيل في التجارة. انظر: - سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨، ص ١١٣-١١٣٣ أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت، ١٩٧٢ إبراهيم حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٤٧-٦٤.
- (137) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٨٤.

- (138) المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٣٨٦.
- (139) ابن تقي بردي: منتقبات من حوادث الدهور، ج ٣، ص ٦٦٥؛ ابن الصيرفي: إنباء العصر، ص ٤٤-٤٥؛ عبد الباسط بن خليل الحنفي: نول الأمل، ٦، ص ٣٥٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٢٥؛ البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك، ج ١، ص ٥٣؛ ماهر أحمد مصطفى: سعيد مصر، ص ٥٩.
- (140) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٧٠-٧١.
- (141) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٧٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: 'التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك في ضوء كتابات ابن إياس'، ضمن كتاب ابن إياس (دراسات وبحوث)، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٧٥.
- (142) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٤٦.
- (143) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٠٤.
- (144) قوص: بالضم ثم السكون، وصاد مهشة، مدينة كبيرة عظيمة واسعة فصبية الصعيد، تعد أعظم مدن الصعيد الأعلى. ومن أهم المراكز التجارية في الصعيد، لذا فإن أهلها أرباب ثروة واسعة.
- انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٣؛ ابن إياس: نزلة الأمم في العجايب والحكم، نشر محمد زيتج، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٢٥.
- (145) محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطى، ص ١١١-١١٤.
- (146) محمد عبد الغني الأشقر: تجار التوابل، ص ٢٩٥.
- (147) محمد محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى، ص ١٣١؛ عثمان عطا: الأزمات الاقتصادية، ص ١٣٠؛ رجب محمد عبد الحليم: ميناء عذاب ووادي العلفي، ص ٢٧٦.
- (148) هاندي: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ج ٣، ص ٣١٨؛ نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٩٤٣.
- (149) محمد عبد النبي الأشقر: تجار التوابل، ص ٨٢.
- (150) محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطى، ص ٩٣٤.
- (151) عرفت مصر ومنطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى مجموعة من التجار الذين يتاجرون فيما عرف بالكارم أي التوابل. عطية القوصي: "أضواء جديدة على تجارة الكارم من واقع وثائق الجنيزة"، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثاني والعشرون، ١٩٧٥، ص ١١٧؛ محمد بركات البيلي: "بداية الكارم ومطامها في العصر الفاطمي"، مجلة المؤرخ المصري، العدد ١٣، يوليو ١٩٩٤، ص ٩٤.
- Golten, "New lights on the beginning of the Karim Merchants", J. R. A. S., Vol. 1, 1958, P. 173;

؛ شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، عالم المعرفة، العدد ١٥١ يوليو ١٩٩٠، الكويت، ص ٢٧٠-٢٧١، محمد عبد القوي الأنشور: تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٩-٣١

(152) Peter Thorau, The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century, London, 1987, p. 171

(153) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٣٧.

(154) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٤٥-١٤٦ كرم الصاوي باز: ممالك النوبة في العصر المملوكي اضمحلها وسقوطها وآثره في انتشار الإسلام في السودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٢٤.

(155) السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١١٦٢ كرم الصاوي باز: ممالك النوبة في العصر المملوكي، ص ١٢٤-١٢٥.

(156) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٩٤.

(157) محمود محمد الحوري: أسوان في العصور الوسطى، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٣٥ عطية القوصي: تاريخ دولة الكنول الإسلامية، الطبعة الثانية، دار المعارف القاهرة، ١٩٨١، ص ٢٠٢-٢٠٤-٢٠٥.

(158) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٦٧ محمد فتحي الشاذلي: الشريعة في عصري سلاطين الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٨٩.

(159) ابن أبيك التوادار: الدر الناجد، ص ١١٤.

(160) إبراهيم لادوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، ١٩٨٧، ص ٧٩ عثمان علي محمد عطا: الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وآثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢١٤، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٣٠.

(161) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٧١.

(162) قطيا أو قطية: بالفتح ثم السكون وباء مفتوحة، قرية في طريق مصر والشام في شبه جزيرة سيناء من ناحية الشمال الغربي بالقرب من ساحل البحر. أبو الغدا: تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠، ص ١١٠٨ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٠١ عادل عبد الحافظ: قطية جمرک مصر الشرقي في العصور الوسطى، مجلة التاريخ والمستقبل، تصدرها قسم التاريخ كلية الآداب - جامعة المنيا، يوليو ٢٠٠٩، ص ١٨٥-٢٠٧.

(163) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ٧، ص ٢٠.

(164) ابن الصيرفي: إنباء العصر، ص ٤١٩.

- (165) حياة ناصر الحجي: "الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة المماليك (٨١٥-٨٢٣هـ / ١٤١٢-١٤٢٠م)"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية-جامعة الكويت، العدد ٣٦، عام ١٩٨٩، ص ٢٨.
- (166) المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ٣١.
- (167) المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ٦٠٣.
- (168) ابن الصوري: لذة النفوس، ج ٤، ص ٣١٩-٣٤٠.
- (169) عبد الباسط بن خنيل: نيل الأمل، ج ١، ص ١٤٤.
- (170) وجد في كل إقليم (عمل) من الأقاليم المصرية "بيت مال" يجمع فيه ناظر المال بالعمل موارد الدولة من الخراج الزائد عن المقرر للمقطعين، وغير ذلك من الموارد المالية. إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٤٩ اسجدي عبد الرشيد بحر: القرية المصرية، ص ٥٤.
- (171) العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ١٠٨.
- (172) إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية، ١٩٦٨، ص ١٢.
- (173) صمد بدر الدين أبو غازي: دراسة دبلوماسية في وثائق البيع من أملاك بيت المال في عصر المماليك الجراكسة، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٧٢.
- (174) إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية، ص ٣٣٧.
- (175) المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٣٨٦.
- (176) العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٢٨-١٢٩.
- (177) ابن أبيك الدوادري: كنز الدرر وجمع الغرر: ج ٩ الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت روبر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ص ٦٣.
- (178) بيبس النوادر: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٩٢؛ العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٣.
- (179) العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٤.
- (180) العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٣.
- (181) مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٠٧.
- (182) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٦٦٨.
- (183) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٩٠٧.
- (184) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٦٩٥.
- (185) الوقت: هو الحس، وهو صدقة محرمة، لا تباع ولا تشتري ولا تورث. انظر: الطرابلسي: الإسماع في أحكام الأوقاف، القاهرة، ١٩٢٩، ص ٣؛ الخصاص: أحكام الأوقاف، القاهرة، ١٩٠٤، ص ٢؛ عيسى الصفدي: عطية الرحمن في أرصاد الجوامع والأطيان، القاهرة، ١٣١٤، ص ٤-٦؛ ابن نجم: الرسائل الفزنية، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٣١.

- (186) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠.
- (187) بنو حرام: بطن من جذام من القحطانية بالشرقية بنو حرام. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٣ نهلية الأرب في ألسان العرب، ص ٢٣١ المقرئ: البيان والإعراب، ص ٦٢.
- (188) بنفس: قرية قديمة كانت تقع ضمن إقليم الشرقية، ثم إقليم ضواحي القاهرة في العصر المملوكي، وهي إحدى قرى محافظة القليوبية الآن. أنظر: ابن مماتي: فوائد، نشر عزيز سوريال عطيه، القاهرة، ١٩٤٠، ص ١١٠ ابن نقماني: الانتصار، ج ٥، ص ٤٥ ابن الجيعان: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشر مورتيل، القاهرة، ١٨٩٢، ص ٩ محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، ق ٢، ح ١، ص ٥٥.
- (189) الأمير بربك الأشرقي إنال: ملكه في عام ٨٢٩هـ فرباه واحتقه وصله خازنداره وزوجه ابنته الكبرى ثم نواداره، فلما تسلطن صله نوادارا ثالثا، ثم نقله إلى الدوادرية في سنة ٨٥٩هـ، وتوفي عام ٨٦٨هـ بالمخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٤-٥، رقم ٢٠.
- (190) البقاعي: إظهار العصر لإسرار أهل العصر. تحقيق محمد سالم بن شديد العوفي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٢، ج ٣، ص ١٤٢-١٤٣ سيد محمود محمد عبد العال: نقابة الأشراف في مصر عصر سلاطين المماليك، مجلة المؤرخ العربي، العدد ١٨، مارس ٢٠١٠، ص ٣٢٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية :-

- الإبريسي: أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإبريسي من علماء القرن السادس الهجري.
- نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت.
- الأندلسي: كمال الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب الأندلسي، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م.
- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعبد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٩٦.
- الأسدي: التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨.
- ابن إياس: أبي البركات محمد بن أحمد الحنفي، ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- نزهة الأمل في العجائب والحكم، تحقيق محمد زيلهم محمد عزب، مديوني، القاهرة، ١٩٩٥.
- ابن أبيك الدواداري: أبو بكر بن عبد الله، ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م.
- كنز الدرر وجامع الغرر.
- ج٨: "الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية" تحقيق أولوخ هانمان، القاهرة، ١٩٧١.
- ج٩: "الدر الفلخر في سيرة الملك الناصر"، تحقيق هانس روبرت رومر، القاهرة ١٩٦٠.
- ابن أبيك الصلدي: صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أبيك، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م.
- الوافي بالوفيات، صدر منه ٢٢ جزء والباقي مخطوط، نشر جمعية المستشرقين الألمانية، لسيادون.
- البقاعي: إبراهيم بن عمر، ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م.
- إظهار العصر لأسرار أهل العصر، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفي، القاهرة، ١٩٩٢.
- البوصيري: شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م.
- ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة، ١٩٥٥.
- بيبرس الدوادار: ركن الدين بن عبد الله المنصوري، ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م.
- التحفة المنوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- مختار الأخبار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٣٣.
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، دار عبيد للدراسات والبحوث، القاهرة، ٢٠٠١.
- ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف بن تغري بردي، ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م.

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد أمين جـ ١، ٢، ٤، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، أنبيل محمد عبد العزيز جـ ٣، ٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥-١٩٩٤.
- الدليل الشافي على المنهل الصافي، جزاءن، تحقيق فهد محمد شلتوت، منشورات مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، القاهرة، ١٩٨٤.
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق فهد محمد شلتوت، المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية، الجزء الأول، ١٩٩٠.
- مورد الطائفة فيمن ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب المصرية ١٩٩٧.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٧٢.
- التونسي: شعيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل محمود صاكر ومصطفى محمد مسعد، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧.
- ابن تيمية: السيادة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، كتاب الهلال، عدد ٣٦٧، القاهرة، ١٩٨١.
- ابن الجيعان : شرف الدين أبو البقاء يحيى علم الدين شاعر، ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م .
- التلحة السنية بأسماء المصرية، نشر موريتز بولاق، ١٩٩٨م .
- ابن حبيب : الحصن بن صرّا ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م .
- تذكرة الزبيبة في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦-١٩٨٦.
- ابن حجر العسقلاني : أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م .
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦.
- إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٩٢.
- الحميري : محمد بن عبد المنعم، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م .
- الروض المطبق في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت، ١٩٨٤.
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م .
- تاريخ ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩.
- الخالدي : عبد الله بن لطف الله محمد بن بهاء الدين، ت ٩٣٧هـ/١٥٣٠م
- كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الإتياء، مخطوط مصور بجامعة القاهرة، تحت رقم ٢٤٠٤٥.
- ابن خلكان : أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.

- ابن دلقاق : إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلقي، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م .
- الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، الرياض ١٩٨٦ .
- الانتصار بواسطة عقد الأمصار، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت .
- الدمشقي : شيخ الربوة شمس الدين محمد بن أبي طالب، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م .
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشر Merhen، ليبزج، ١٩٢٣ .
- السبكي : تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م .
- معبد النعم ومبهد النعم، تحقيق محمد علي النجار وآخرين، القاهرة، ١٩٤٨ .
- السفاري : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد، ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م .
- التبر المسبوك في ذيل الملوك، القاهرة، ١٨٩٦ .
- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ٤ أجزاء، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥ .
- السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م .
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧ .
- ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م .
- فوات الوفیات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٢ .
- ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين، ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م .
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك، نشر بولس راوين، باريس، ١٨٩٤ .
- الشجاعى : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق برباره شيفر المعهد الألماني للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٧٨ .
- ابن الصيرفي : علي بن داود الجوهري، ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م .
- إنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢ .
- نزهة المفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠ .
- ١٩٩٤ .
- ابن الطوير : عبد السلام بن حسن القيسراني، ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م .
- نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، بناء ونشر أيمن فؤاد سيد، بيروت، ١٩٩٢ .
- عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري، ت ٩٢٠هـ/١٩١٤م .
- نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧ .
- ذيل الأمل في الذيل على الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، سيدنا- بيروت، ٢٠٠٢ .
- ابن عبد الظاهر : محيي الدين بن عبد الظاهر، ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م .
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦ .

- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦ .
- العيني : بدر الدين محمود بن أحمد، ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م.
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان مواد عام ٦٤٨-٧٠٧هـ، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧-١٩٩٢ .
- أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر الأيوبي، ت ٧٢٢هـ/١٣٢٢م.
- المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٢٥هـ.
- تقويم البلدان ، دار صادر، بيروت، د. ت.
- ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م.
- تاريخ ابن الفرات . أجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ ، تحقيق قسطنطين زريق، لجلاء عز الدين، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٦-١٩٤٢م.
- ابن فضل الله العمري : أبو العباس أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م.
- التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجري، تحقيق دوروثيكا فولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٥م.
- القرطبي : زكريا بن محمد بن محمود، ت. ٦٨٢هـ/١٢٨٣م.
- آثار الهالك وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د. ت.
- القفقشندي : أبو العباس أحمد بن علي، ت. ٨٢١هـ/١٤١٨م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، ١٩١٩-١٩٢٢.
- ضوء الصباح المبهر وجنى الدوح المثمر، ج ١، نشر محمود سلامة، القاهرة، ١٩٠٦ .
- نهاية الأرب في معرفة أسابغ العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩ .
- قلائد الجمان في التعريف عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٢ .
- ابن كثير للدمشقي : عماد الدين إسماعيل بن عمر، ت. ٧٧٤هـ/١٣٧٢م.
- البداية والنهاية، ١٤ جزء، دار الكتب العلمية، ط ٣، بيروت، ١٩٨٧ .
- مجهول : تاريخ ملطون الممالك، نشر زرتستين، لندن، ١٩١٩ .
- مفضل بن أبي الفضائل، ت. ٨هـ/١٤م.
- النهج السديد والدر الثريد في تاريخ ما بعد ابن العميد، نشر بلوشيه، ١٩١٩ .
- المقريزي : أحمد بن علي، ت. ٨٤٥هـ/١٤٤٢م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ أجزاء تحقيق مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٣٦ - ١٩٧٣ .
- المواظ والاعتبار لذكر الخطط والآثار، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت.
- إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٠ .

- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الإعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩.
- ابن ممتي : الأسعد بن ممتي، ت. ٥٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م.
- قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣.
- النابلسي : عثمان بن إبراهيم النابلسي الصقلي، ت. بعد عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م.
- لمع القوانين المضنية، نشر كلود كاهن، دمشق، ١٩٦١.
- ابن ناظر الجيش : عبد الرحمن بن محب الدين محمد التميمي، ت. ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م.
- تنقيف التعريف للمصطلح الشريف، تحقيق روثلف فسلر، المعهد العلمي الفرنسي للدراس الشرقية، القاهرة، ١٩٨٧.
- النويري : أحمد بن عبد الوهاب، ت. ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٣٣ جزء، القاهرة، ١٩٦٣ - ٢٠٠٠.
- النويري السكندري : محمد بن قاسم بن محمد، ت. بعد عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م.
- الإلهام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمر المقضية في وقعة الإسكندرية، ٧ أجزاء، تحقيق أنثون كومب وعزيز سوريال عطية، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٦٨ - ١٩٧٦.
- ياقوت : أبو عبد الله الرومي، ت. ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م.
- معجم البلدان دار صادر، [بيروت]، ١٩٨٤.
- المشترك وضعاً والمفترق صقلاً، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦.
- اليونيني : قطب الدين أبي الفتح موسى بن سليمان، ت. ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م.
- ثيل مرآة الزمان، ٤ أجزاء، حيدر آباد، ١٩٥٥.
- ثانياً: المراجع العربية والمعربة :-
- إبراهيم أحمد رزقائيه: القبائل العربية في مصر عند المقرئزي، ضمن كتاب دراسات عن المقرئزي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١.
- إبراهيم حسن سعيد ، البحرية في عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- إبراهيم علي شرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- _____ مصر في عصر دولة المماليك الجراكمة ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- أحمد لطفي السيد: قبائل العرب في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.
- أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- _____ في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٥ .

- أحمد مصطفى الصغير: المجتمع المصري في العهد المملوكي وأثر الحياة السياسية فيه، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨.
- آشور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار فتيبة، دمشق، ١٩٨٥.
- البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- السيد عبد العزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣.
- آمال المصري: وثائق بيع وشراء خيول من العصر المملوكي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١، ج ٧، نوفمبر ١٩٦٤.
- جارسان: ازدهار والهبوط حضارة مصرية "قوص"، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، ١٩٩٦.
- جمال الدين الشبلي: تاريخ مصر الإسلامية، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠.
- حبشي سيد نصر: المجتمع المصري في الشعر المملوكي، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، ١٩٨١.
- حياة ناصر الحجى: الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المماليك في سلطنة المماليك (٨١٥-٨٢٣هـ/١٤١٢-١٤٢٠م)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية- جامعة الكويت، العدد ٣٦، عام ١٩٨٩.
- أحوال العامة في حكم المماليك، ط ٢، الكويت، ١٩٩٤.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩.
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢.
- الظاهر بيبرس، القاهرة، ١٩٦٣.
- العصر المماليكي في مصر والشام، ط ٣، القاهرة، ١٩٩٤.
- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، ١٩٩٠.
- السيد البار العريني: الإقطاع العربي بمصر زمن سلاطين المماليك، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦.
- شوقي عبد القوي عثمان: للتجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.
- عبد الرحمن عبد التواب: قايماي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨.
- عبد الفتاح يوسف عرابي: قوص في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب سوهاج جامعة أسيوط، ١٩٩٠.
- عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨.

- _____ طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨.
- عثمان علي عطا: الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، القاهرة، ٢٠٠٢.
- عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
- علام طه زكي: السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- _____ عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣.
- علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٨.
- علي السيد علي: الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨.
- صادم بدر الدين أبو غازي: دراسة دبلوماسية في وثائق البيع من أملاك بيت المال في عصر المماليك الجراكسة، رسالة دكتوراه غير منشورة، أداب القاهرة، ١٩٩٥.
- قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩.
- _____ النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨.
- كرم الصاوي: بازيمالك النوبة في العصر المملوكي لضمحلها وسقوطها وأثره في انتشار الإسلام في السودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦.
- لايدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، ١٩٨٧.
- ماهر أحمد مصطفى: صعود مصر في عصر المماليك الجراكسة، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤.
- مجدي عبد الرشيد بحر: القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩.
- محاسن محمد الوفاة: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، القاهرة، ١٩٩٩.
- محمد بركات الببلي: "بداية الكائن ومضاهها في العصر الفاطمي"، مجلة المؤرخ المصري، العدد ١٣، يوليو ١٩٩٤.
- محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلجون في مصر، القاهرة، ١٩٤٧.
- _____ دولة الظاهر بيبرس في مصر، القاهرة، ١٩٩٣.
- محمد عبد الغني الأثشر: تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٩.
- _____ نائب السلطنة المملوكية في مصر، القاهرة، ١٩٩٩.
- محمد فتحي الشاعر: الشراعية في عصري سلاطين الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧.

- محمد قندول البقلي ، التعريف ومصطلحات صبح الأعشى ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطى، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ .

- _____ مصر في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦ .

- محمود محمد السيد: القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص ١٣١-١٣٣ .
 - هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا، القاهرة، ١٩٩٤ .
 - نظير حسان سعداوي: صور ومظالم من عصر المماليك، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦ .
- ثالثاً: المراجع الأوروبية :-

Abd Ar-Raziq (Ahmad)

، " Le vizirat et les vizirs d' Egypte au temps des Mamluks " ,
An. Isl. XVI, le Caire , 1980.

Ashtor (Eliyahou) ,

- Histoire des prix et des salaires dans l'orient Medieval , Paris ,
1969 . .

- A social and Economic History of the near east in the middle
ages , London , 1976 .

Ayalon , " The plague and its effects upon the Mamluk army " , B. S. O.
A. S. , XV, 1953 .

- Studies on the transfer of the Abbasid caliphate form Bagdad to
Cairo , in Arabica, vol. XII , 1960 .

- " The System of Paymen in Mamluk Military
Society " , JRAS, 1946,

Garcin (Jean-Claud) , "Note sur les rapports entre bédouins et fellahs à
l'époque mamluke" , Annales Islamologiques, (IFAQ), XIV, PP. 147-163.

·
Fischel (W.) ,

- " The spice trade in Mamluk Egypt " JESHO , vol. 1 , 1958 .
Lane-Poole, Social life in Egypt, 1883 .

_____ , A History of Egypt in the Middle Ages, fourth
edition, London , 1925

Peter Thorau, *The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century*, London, 1987.

Poliak (A. N.), " Les révoltes populaires en Egypte à l' époque des mamelouke ", *Revue des Et. Islam*, 1934, pp. 251-273

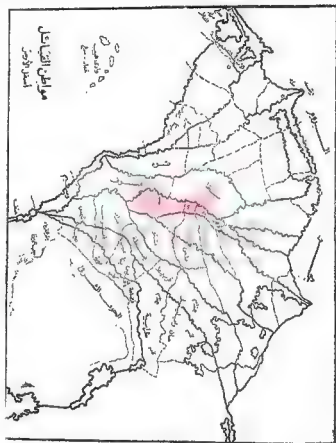




خريطة رقم (١) نقلا عن البري: القبائل العربية في مصر، ص ٣١٩.



خريطة رقم (٣) نقلا عن البري القباطي العربية في مصر، ص ٣٢٣.



خريطة رقم (٤) نقلا عن البري: القبائل العربية في مصر، ص ٣١٧.

السلام بين الحقوق والواجبات في الإسلام

د. محمد أحمد محمد الشحري (*)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبدالله، صلوات ربي وسلامه عليه .. وبعد

ففي الوقت الذي كادت فيه الحضارة المادية، بكل ما فيها من سطوة وقوة مدمرة، تحيمن على مجريات الحياة في شق صورها، وبدا للكثيرين أنَّ القيم العليا والمثل بدأت تتداعى، لا يجد المرء أمامه إلا إعادة قراءة الصفحات الخالدة في تاريخ الإسلام، والقيم التي أرساها في سبيل إقامة المجتمع الفاضل، ومن تلك القيم العظيمة: قيمة السلام والسبل الموصلة إليه، كالعادلة، والإحياء، والمساواة، والود والترحم

ومن نافذة القول يبقى أن نعرف أنَّ السلام في الإسلام لم يكن دعوة نظرية مجردة، بل هو قيمة جوهرية في حياة المسلمين، أحدها من ديبهم، ومن سريرة بيوهم ﷺ، في معاملته، ومعاهداته، وأقواله، وأفعاله ﷺ. ومن القيم الإسلامية العليا التي بنى عليها ﷺ في نموس أصحابه عند قيام المجتمع الفاضل، أو دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة.

وعاش المسلمون في العصر النبوي وما تلاه، وفي فترات مختلفة من تاريخهم، هذه القيمة العليا كواقع معاش، فاجتنب النظري لا بد من تطبيقه على أرض الواقع، لكي يبين قوة هذا المبدأ ويقاله.

ولعلَّ انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها في مدى رمي لم يتجاوز مائة عام، لدليل ساطع على ما تنبع به الإسلام من قيم استطاعت أن تغلغل في الفوس، وتوائم بين الحقوق والواجبات، وتصل في يسر إلى أفهام أهل البلاد المفتوحة، فمن غير المعقول أن انتشار الإسلام بهذه الصورة قد جاء بمجد السيف، كما يدعي ذلك المستشرقون ومن شاعهم من المستعربين، فالقوة قد تسيطر على إقليم أو بلد، لكن العقيدة لا يمكن أن تصل إلى أهالي الإقليم أو البلد إلا من خلال التوافق النفسي، وسهولة تلك العقيدة، وتطبيق مفاهيم الإسلام وقيمه على أرض الواقع،

(*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة.

وهل رأيت الدنيا ديناً يدخل قلوب ألقوام كادوا له وهاجوه، ودمروا جزءاً كبيراً من حضارته، وإنما أعني غرورات المغول التي اكتسحت أمامها الأخضر واليابس، ودمرت حاضرة الخلافة الإسلامية في بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، فأكبر قبائل المغول أسلمت بعد ذلك، بل أصبحت أحد أجيال الخلافة الإسلامية في المشرق، وما كان ذلك إلا نتيجة لما وجدته هؤلاء المغول من قيم إسلامية عليا، ومثل سامية، كتبها في إطار عقيدة سلسلة استطاعت أن تحترق القلوب.

على كل حال فإن هذا البحث يتناول قيمة السلام بين الحقوق والواجبات في الإسلام، وبطبيعة الحال لم يستوعب البحث كافة الحقوق والواجبات لاتساعها وكثرتها في تاريخنا الإسلامي، فكان الإلمام بمضمون الموضوع وجوهه هو الأساس في هذا الموضوع وفق الشاور العالية، والتي راعت فيها إدراج نماذج تطبيقية من حياة المسلمين في العهد النبوي، والخلافة الراشدة.

الأول: السلام في الإسلام.

الثاني: الإنسانية في ظل الحضارة الإسلامية.

الثالث: الحقوق والواجبات في الإسلام.

الرابع: من أسس المجتمع الفاضل في الإسلام.

المؤرخة

ب- / صحيفة المودة.

ج- المعاهدة مع نصارى نجران.

الخامس: السلم والحرب في الإسلام.

خاتمة أسأل الله سبحانه التوفيق والسداد ، وأن يعم السلام العادل وطننا العربي والإسلامي وتكون قدوة للعالمين في هذا الشأن.

والله من وراء القصد.

السلام في الإسلام:

أجمعت كل الشرائع على ضرورة تركية النفس بمعاهد الأخلاق، واعتبار ذلك مُتممًا لعقيدة التوحيد، ولزم كل الأنبياء عليهم السلام هذا المنهج الإلهي الرشيد، حتى جاء عاتم النبيين محمد بن عبدالله، صلوات الله وسلامه عليه، بشرعته الخالدة، التي ضمت محاسن الأخلاق، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١) وأكملها الله بما ليس بعده كمال، فكانت جامعة لغيرها جامعة من تبديلها أو تحريفها، وكانت القيم الإسلامية في قمة ما شرع الله، وما أقره العقل واستقرت عليه عمارة هذه الحياة، قيمٌ مَلَمَّتْ من الشوالب، ومُنَعَتْ من المنقص، وتصدت كل مآشرع الله لسابقين من الصالحين، حتى تليق بالقول بعد نضجها، والأفهام بعد اكتمالها، والفرعها الأمة الإسلامية قيمًا وتعليمًا، فهي خير الأمم، وآخر الأجيال، لتناسب مع رسالتها القيادية لإسعاد البشرية وهداية العالمين^(٢)

وهذه القيم شكلت جوهر الحضارة الإسلامية المعطاءة، ومن هذه القيم تبرز قيمة السلام، الذي يُشكّل مرتكزًا رئيسًا في حضارة الإسلام، وقد وصح ذلك بصورة جلية في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فجاء لفظ: السلم^(٣) ومشتقاته تسرد في القصص الكرم ١٣٨ مرة^(٤)، من ذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنْ جَحَدُوا بِالسَّلامِ فَاجْتَبِهْهُمْ وَقُلْ عَلَى اللَّهِ إِيْمَةُ هُوَ السَّامِعُ الْعَلِيمُ﴾^(٥) وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلامِ كَافَّةً﴾^(٦) بل إن الجنة أطلق الله عليها اسم: «دار السلام» في قوله سبحانه ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ فِيهَا يَبْتَغُونَ﴾^(٧) كما أن السلام اسم من أسماء الله الحسنى قال تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّامِعُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُ﴾^(٨) وغير ذلك من آيات التي ورد فيها ذكر السلم والسلام.

كما أن الإنسان المسلم يحتم صلاته كل يوم بقوله: «السلام عليكم ورحمة الله»، ويسبغ السنة النبوية أهمية السلام، ففي الحديث «إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها، فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته»^(٩) فهذا على المستوى الشخصي، كي يكون السلام والأمن النفسي سحابة من سحابة المؤمن، وديناميًا في حياته.

وإذا نظرنا في تاريخنا الإسلامي وحضارة الإسلام، نجد صور رائعة لطبت دعائم السلام في العوس، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر، جعل الإسلام للجوار حقوقًا حتى لو كان مشركًا أو يهوديًا، فرسول الله ﷺ يقول: «الجوار ثلاثة: جوار له حق واحد، وجوار له حقان، وجوار له ثلاثة حقوق، فالجوار الذي له ثلاثة حقوق: الجوار المسلم ذو الرحم، له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم، وأما الذي له حقان: فالجوار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجوار المشرك»^(١٠).

وقد ذكر الغزالي أن مُجاهد بن جبر قال: كنت عند عبدالله بن عمر، وغلّام له يبلغ شاة، فقال: يا غلام إذا سلخت فأبدا بجارنا اليهودي، حتى قال ذلك مراراً، فقال له: كم تقول هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه^(١٦).

فمن حق الجار أن يهداه بالسلام، ويعوده في المرض، ويعزيه في الحسبة، ويهتبه في الفرح، ويصطحبه عن زلاته، فهذا من شأنه بث الطمأنينة والأمن النفسي. إضافة إلى ذلك دعا الإسلام إلى الصدق والأمانة والتعاون في الخير الخاص والعام، والاتحاد بين أبناء المجتمع، وحث المسلمين على التمسك بهذه الصفات قولاً وعملاً، ومن شواهد ذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١٧)، وقال سبحانه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...﴾^(١٨) وقوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾^(١٩) والشواهد القرآنية في هذا الشأن كثيرة، وجميعها تدعو لكرام الأخلاق، والعمل على بناء الفرد والمجتمع، للوصول إلى الطريق القويم.

كما فتح الإسلام باب التألف والتودد، وغلبه على التباغض والتباعد، وحث على العفو والتصفح والتسامح، ولذا كان لابد من الاستجابة لدعوة التعارف الإنساني العام القائم على التسامح، لتتلاقى القلوب على غير عداوة وإحس، فالإسلام يدعو للتسامح غير الدليل، فهو يسى الإنسانية، سواء كانت بين الأجناس، أم كانت بين الجماعات والدول.

هذه القيم، التي عرّضها بعضاً منها، عاشها المسلمون واقعاً ملموساً، فرائت الدنيا لأول مرة دينا يُشهى حضارة^(٢٠)، من غير أن يعصب على غيره من الأديان، يحمل السلام قاعدة أساسية من قواعده، ويصوب المثل الأعلى في تعاملاته مع غير المسلمين^(٢١). وهذه النظرة الحضارية السامية لم تعرفها حضارة سابقة، أو تالية للحضارة الإسلامية، لكونها وازنت بين المادة والروح توازناً دقيقاً، فالتناس قبل الإسلام كانوا على قسمين:

الأول: تقضي عليه تقاليده بالمادية المخصصة، فلا همّ له إلا الحظوظ الجسدية، كاليهود والمشرّكين.

الثاني: تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة، وترك الدنيا وما فيها، كالتنصاري والصابئة، وطوائف من وثني الهند^(٢٢).

أما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقيقين: المادي، والروحي، في وسطية عادلة تعدّ من أهم صفات المؤمنين، والمسلم مطالب بالتوفيق بين مطالب الروح والجسد: قال تعالى ﴿وَأَتِمِّمْ فِيمَا أَنَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾^(٢٣).

وهذا التوازن الإنمائي الدقيق وضعه حدّاً للإنسان وحقوقه، وظهرت مبادئ الإسلام جليلة في هذا الشأن، من حيث قبولها لاحترام العقائد الأخرى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٢٤) والالتزام التام

بالعقود والمعاهدات، والوفاء بهما، وهذا الالتزام لم يفعله المسلمون بمعاملة لظروف عارضة، بل نابعة من صلب عقيدة الإسلام وتعاليمه التي تلزم المسلمين بذلك، فالعلاقة التي يقررها الإسلام بين الجميع داخل إطار المجتمع الإسلامي هي علاقة ود، ورحمة، وتعاون، وأمن وسلام. والقاعدة التي تقوم عليها حياة الأفراد والجماعات داخل المجتمع الإسلامي هي: قاعدة التناسق بين الحقوق والواجبات، فيقرر الإسلام أنَّ الغاية المقدرة للجميع هي: اعتداد وإغناء الحياة، والتوجه بكل نشاط فيها وبكل نية وكل عمل إلى الله سبحانه خالق الكون، ومن ثم ينتهي كل نشاط فردي وجماعي، كما ينتهي كل نظام إلى النتيجة الطبيعية والحنمية المتمثلة في: السلام الكلي الذي ينسق بين مختلف النوازع والاتجاهات^(٢١).

فهذا هو الصعيد المثالي الذي يقوم على الأمن والسلام للمجتمع الحضاري، كما حدده الإسلام في الجانب الاجتماعي والحقوقي، وفي هذا الإطار يقول أحد المستشرقين^(٢٢):

«كانت أخلاق العرب المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرلَى كثيراً من أخلاق الأرض قاطبة، ولا سيما الأمم الصربية، وكان عدوهم واعتداؤهم ورافقتهم وتسامحهم نحو الأمم المغلوبة، ووفائهم بمعهدهم، ونبل طابعهم لما يستوقف النظر. ويناقض سلوك الأمم الأخرى، لا سيما الأمم الأوروبية أيام الحروب الصليبية»^(٢٣).

كما يقول لوروب ستودارد الأمريكي: «ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء، وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا على العكس من ذلك أمة موهوبة بطيلة الأخلاق والسجاء»^(٢٤).

كما أوضح بعض هذه الجوانب سير توماس آرنولد. فذكر الكثير من تسامح المسلمين وعدوهم وعصاهم الحسنه^(٢٥).

وكلام بعض المستشرقين الذي ذكرنا طرفاً منه، لا نتخذه حجة أو برهاناً، لأنَّ الحقائق الإسلامية، وشواهد التاريخ الإسلامي، براهين قوتها مستمدة من ذاتها، لا من أمر خارج عنها.

وقبل أن نغم هذه النقطة، ينبغي أن نوضح أنَّ هذه الصورة الزاهية من الحضارة الإسلامية قد بلغت الدرجة المثالية العالية في الاتجاه القيمي والأخلاقي والعملية، وذلك على عكس المدنية الحديثة التي نشرت طائفة من الأمراض الجسمية سُميت بأمراض المدنية، فزادت نسبة الإصابة بالسرطانات، وضغط الدم وتصلب الشرايين والجلطة والذبحة في العصر الحديث، إضافة إلى طائفة أخرى من الأمراض السياسية والاجتماعية، ألقبها الفشاراً. المذهب المكيافلي^(٢٦) في السياسة، فهي لا تزال ترى أمراً مشروعاً أن تنهب ثروات جماعات أخرى، وترى أن تسترق جماعة جماعة أخرى، حتى بعد إلغاء الرق الفردي، فتذهب هنادهم بحقوق الإنسان سدى، لكونها تطبق وفق الحقى فحسب^(٢٧).

فإذا قسا حضارة الإسلام في أحد جوانبها الأخلاقية، عندما كانت تسود المساواة والحرية والعدل مع جميع أفراد المجتمع بما فيهم غير المسلمين، وهذه المدنية الزائفة المرتبكة التي تعيش فيها على الوهم، والاضطراب النفسي، لم تتردد في الحكم بأن حضارة الإسلام قدمت للعالم أجمع مبادئ خلقية، ومثلاً عالياً، وقيماً سامية، أعلاها السلام العام والخاص، والأمن بكل أشكاله وصوره.

الإنسانية في ظل الحضارة الإسلامية:

كانت نظرة الأمم القديمة إلى الإنسان الذي لا ينتمي إلى جنسها، نظرة دولية، فهي تستبعد شعوب الأرض، ولا حق لهم في شيء من الكرامة والعزة والأخلاق والعقل أو الإرادة، فالإغريق "قدماء اليونان" نظروا إلى أنفسهم أهم أمم البشر، وأهم خصوصاً بكل الصفات الإنسانية من عقل وإرادة، وأن غيرهم من سائر البشر لم يشاركهم في كرم صفاتهم الإنسانية، وأهم في الحقيقة لا يبعدون كثيراً عن طبقات الحيوانات، وتجردوا من الصفات الممتازة التي خلق عليها الإغريق، فكانوا يطلقون على من عداهم من سائر الشعوب الأخرى اسم: البرابرة، يندأ بهم إلى أن مرتبة كل الشعوب الأخرى لا تستطيع أن تسمو إلى مرتبتهم، وكانت نظرة الاحتقار هي نظرهم للأمم الأخرى، بل كان أرسطو يؤكد أن هؤلاء البرابرة لم يُخلَقوا إلا ليعبروا بالعصى، ويستعملهم ويستبدلهم شعب اليونان^(٢٧).

ولهذه أرسطو إلى أبعد من ذلك، فيعتقد أن الحياة لا يمكن أن تسير سيرها الطبيعي إلا إذا استرق اليونانيون ما عداهم من البرابرة، فيقومون بتخمية سادتهم. فبدأ عند اليونانيين القدامى أنه لا مساواة بين البشر على الإطلاق، فالأحرار - اليونانيون فقط - لهم كل شيء، والشعوب الأخرى في خدمتهم، ولا شيء لهم.^(٢٨)

كذلك الحال عند الرومان الذين أقاموا أنفسهم أوصياء على الإنسانية كلها، وبسطوا سلطانهم بمد السيف والقهر على الكثير من شعوب الأرض، واستعملوا في سبيل ذلك كل الوسائل، واعتبروا غير الروماني في طبقة أدنى من طبقة الرومان، وليس لهم الحقوق التي يتمتع بها هؤلاء، وإنما خُلِق هؤلاء ليكونوا رقيقاً يخدم فقط، وليس لهم الحق في التنطع لما وراء ذلك. وبمطلقاً من هذا المعتقد وضعوا نوعين من القوانين الأول: القانون المدني وهو خاص بالشعب الروماني فحسب، والثاني: قانون الشعوب، وهو خاص بسكان البلاد الواقعة تحت احتلال الرومان.^(٢٩)

ونفس الوضع سار عليه اليهود الذين قالوا: إنهم شعب الله المختار، فيحق لهم من الحقوق ما لا يحق لغيرهم، فاستباحوا لأنفسهم أن يغشوا غير اليهودي، في الوقت الذي حرّموا أن يغش اليهودي يهودياً مثله، وذلك لكون غير اليهودي لم يُخلَق إلا ليكون خادماً لليهودي، كما تنص تعاليمهم على أن اليهودي يجب أن يُحَصَف اليهودي إذا تخاصم إليه مع غير اليهودي، سواء أكان

إنصافه لليهودي بحق أم بغير حق. ^(٣٠) فهذه هي النظرة التي رسختها الأمم السابقة على الإسلام للإنسان.

فكان من أهم ما حرصت عليه رسالة الإسلام: احترام الإنسان، وحقوقه والحفاظ عليه، من خلال الرسالة الخالدة التي بشر بها رسول الله ﷺ، وجعلها العرب المسلمون إلى العالم، والتي تتمثل فيها بوضوح وجلاء الروعة الإنسانية، التي تؤصل احترام الإنسان أي كان، دون النظر إلى دينه، أو لونه، أو ثروته، أو جنسه، وشواهد الكتاب والسنة، ثم معاملة الكثير من أولي الأمر من المسلمين فيها الدليل على ذلك.

فالروعة الإنسانية في الإسلام لم تكن وليدة فلسفات قديمة، اقتبسها العرب المسلمون من الشرق أو الغرب، وإنما كانت متأصلة فيهم، بما أوحاه إليهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فبشروا بها في كل مكان، فالتفت بهم الأمم، وثلثت من مواردهم.

فالقرآن الكريم أكثر من ذكر كلمة: الإنسان، وبني آدم، والناس، والعالمين، والإنس، والعباد، التي لا تخص المسلمين وحدهم، فكلمة الإنسان ذكرت في القرآن في ٧٣ آية ^(٣١) من ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ^(٣٢) وغيرها من الآيات ذات الدلالة الواضحة على تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَا لَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ رِزْقًا هُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ^(٣٣).

والإسلام في رسالته جمع الإنسانية حول القرآن الكريم، ودعا الناس جميعاً دعوة عامة للخضوع خالق الناس، وعبادته وحده، ولذلك جاء الخطاب للناس جميعاً في آيات قرآنية عديدة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ^(٣٤)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ ^(٣٥).

والخطاب في هذه الآيات للإنسانية بأحكام الإسلام، لا فرق بين أبيض وأسود، بل الجميع مخاطبون بتلك الأحكام الإسلامية، وقد ذكر المفسرون أن كل نص قرآني ابتداء النداء فيه يا أيها الناس، يكون الخطاب فيه للناس جميعاً، غير مختص بقبيل دون قبيل، لأن العنوان فيه للإنسانية كلها، وكل من يتصف بها داخل في الخطاب ^(٣٦).

وإذا كانت رسالة الإسلام لها ذلك العموم فإنها جاءت لإصلاح الجميع، فعاملت الأجناس كلها، وعممت بينهم أحكامها، فلا توجد أحكام خاصة لفرد دون فرد، أو لجماعة دون أخرى قال ﷺ: «...ألا لأفضل لعربي على عجمي، وللعجمي على عربي، ولا أحر على أسود، ولا أسود على أحر إلا بالتقوى» ^(٣٧).

فسمت أحكام الإسلام بذلك بين الناس في المعاملة، فالمحزومية الشريفة عندما تسرق، وتشر قريش بأنها سحبد، تلجأ إلى الوساطة، فتكلم أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، ليشفع لها،

ليغضب رسول الله ﷺ ويقول: «أشفع في حد من حدود الله؟» ثم قام فنادى: يا أيها الناس إنما حل من قبلكم أنتم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف فيههم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت لحنق محمد بندها» (٣٨) فالناس أمام القانون سواء، والمراكز الاجتماعية لا تعطل قوة القانون وسيادته، فالطريق في المعاملة القانونية أدى ويسؤدي إلى ضياع الأثام وهلاكها، كما أن تطبيق القانون من شأنه بث الأمن بين جميع الناس.

وقد حرص رسول الله ﷺ على ذلك، فجده يحاسب من يستعمله على عمل من الأعمال، كي لا يشعر ذلك العامل أنه فوق القانون، أو أن له حقاً فوق حقوق الناس.

فقد صرح أن النبي ﷺ بعث رجلاً من بني أسد يقال له: ابن اللثية، ليجمع زكاة بني سليم، فلما عاد إلى المدينة قال للنبي ﷺ: هذا لكم، وهذه - يعني أموالاً أخرى - أهديت إلي. فقال رسول الله ﷺ: «فهل جلست في بيت أبيك وأملك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً؟» ثم خطب ﷺ الناس فقال: «أما بعد ... فإني أستعمل رجلاً منكم على أمور مما ولاي الله، فيأتي أحدكم فيقول: هذا لكم، وهذه هدية أهديت لي، فهل جلس في بيت أبيه وأمه، حتى تأتبه هديته إن كان صادقاً، فو الله لا يأخذ أحدكم منها شيئاً بغير حقه، إلا جاء الله بحمله يوم القيامة، فأعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر - ثم رفع يديه حتى روي بياض إبطيه - فقال: اللهم هل بلغت» (٣٩).

فالأجل لإرساء الهدأ والقيمة والمثل، لا بد من المساواة العامة أمام القانون، فهذه التطبيقات العملية ينتشر الأمن والعدل، فعيش المسلمون هذه القيم من حلال تطبيق عملي مُعاش، وعلى هذا النهج الكريم سار الصحابة والخلفاء الراشدون ﷺ جميعاً، فقد ثبت أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يُحصي ثروة عماله قبل أن يوليهم أعمالهم، ليتمكن في أي وقت من محاسبتهم، ومعرفة ما قد يكون اكتسبه أحدكم عن طريق استغلال نفوذه، أو حصل على ماله بطريق غير مشروع، أو اشغط على الناس. فلم يفرق في ذلك بين قوي وضعيف، ولم يستثن أحداً من ذلك، فيذكر «البلاذري» أن «عمر ابن الخطاب» كان يكتب أموال عماله إذا ولاهم، ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك، وربما أخذ منهم، فقد كتب إلى عمرو بن العاص: إنه قد فشت لك فاشية من متاع وريق وآية وحيوان، لم تكن حين وليت مصر. فكتب عمرو إليه: إن أرضنا أرض مزدور ومتجبر، فنحن نصب فضلاً عما نحتاج إليه، لنقتنا. فكتب إليه: إن قد خربت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إليّ ككتاب من ألقته الأحاد بالحق، وقد سؤت بك ظناً، ووجهت إليك «محمد بن مسلمة» ليقتاسك مالك، فأطلعه طلعة، وأخرج إليه ما يطالبك، واعفه من الغلظة عليك، فإنه برح الخلفاء، فقامه ماله» (٤٠).

ولبت أن عمر بن الخطاب ﷺ مرّ ببناء بُني بجذارة وجص فقال: لِمَ هذا؟ فذكروا عاملاً له على البحرين فقال: أبت البراهم إلا أن تخرج أعناقها، وشاطره ماله» (٤١).

فبتطبيق هذه القواعد والقوانين، تستقيم أمور الناس، ويأمن الجميع.

ومما يتجلى بالروعة الإنسانية في الإسلام، نجد أن أصل التكوين الإنساني واحد، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ﴾ (١٦)

فلا يمكن ولا يصح أن يُحقر إنسان للونه، ولا لإقليمه، ولا لأنه غير متحضر، بل إنه لا يُحقر الإنسان أخاه الإنسان أبداً، والتفاوت بين الناس إنما هو بالفضيلة والتقوى، والعمل الصالح والإخلاص فيه، وعدم الاعتداء على الآخرين.

فالقرآن الكريم جعل اختلاف الناس شعباً وقبائل للتعارف والتعاون، لا للتباغض والتنازع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١٧).

واختلاف الشعوب غاية كما أرادها الله سبحانه: التعارف، وهذا التعارف له طواهر منها: اللقاء على مودة وتراحم في أمن وسلام، ثم التعاون على أن ينفع الإنسان بكل خيراته الأرض، وبالتالي لا يوجد تعارف على أساس السلب والنهب والاحتقار، فأساس العلاقات الإنسانية بكل صورها: الاحترام والتعاون. أما إذا كان الأساس قائماً على الإزهاق النفسي، وعدم الاحترام، فإن ذلك يكون استعباداً واسترقاقاً (١٨).

وقد ضرب الإسلام لمثل الأنعمى في تعاملاته مع غير المسلمين، فلم يأن يعتقوا ما شاءوا من معتقدات من غير إكراه ولا إزهاق، فالإسلام يقرر «لا إكراه في الدين» (١٩) بل يذهب به فرط احترامه للحرية إلى حماية العقيدة الدينية لمخاشيه، دون أن يعتدى على أحد، فقاعدته في ذلك «وأمرنا أن نتركهم وما يديون» (٢٠) وقد روي عن النبي ﷺ الكثير من الأقوال التي تحث على رعاية أهل الذمة من ذلك قوله ﷺ «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حبيبه» (٢١) وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عهده عند وفاته: «أوصي الخليفة من بعدي بدمية رسول الله ﷺ، وأن يولي لهم بمعدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلّفون فوق طاقتهم» (٢٢).

فهذه نظرة الإسلام للإنسان بصفة عامة، هدفت إلى تحقيق الأمن والحفاظ على حياة الإنسان، وعلى دينه، وعلى ماله (٢٣)، فتحقق العدل والسلام بين الناس جميعاً.

الحقوق والواجبات في الإسلام:

ورد استعمال كلمة الحق في لغة العرب بمعان متعددة، منها: أنه اسم من أسماء الله تعالى، ومنها الثبوت والوجوب، وال لزوم، والأمر المقتضي، والحرم، والعدل، والإسلام، وفي شرح العقائد الحق عرفاً: الحكم المطابق للواقع، يُطلق على الأقوال، والعقائد والأديان، والمذاهب، باعتبار اشتغالها على ذلك، والحق نقض الباطل (٢٤).

وقد ذكر الفقهاء - القدامى - معنى كل من حق الله وحق العبد - فالقراي يقول: إن حق الله هو أمره، ونهيه، وإن حق العبد هو: مصلحته^(٥١)، أي أن كل الأوامر التي أمرنا بها الله عز وجل، والنواهي التي نهانا عنها هي حقوق له سبحانه، وأن حقوق الناس هي الأمور التي تتحقق بها مصالحهم^(٥٢).

وقد ذكر الشاطبي (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) أن كل حكم شرعي ليس بخال عن حق الله تعالى، وهو: جهة التعبد فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وعبادته: امتثال أوامره، واجتناب نواهيه بإطلاق، فإن جاء مظاهره أنه حق للعبد مجرداً - كالتقصص فالعلو عنه حق للعبد - فليس كذلك بإطلاق، بل جاء على تلبية حق العبد في الأحكام الدنيوية.

كما أن كل حكم شرعي فيه حق للعباد، إما عاجلاً، وإما آجلاً، بناءً على أن الشريعة إنما وضعت لمصالح العباد، وعادقم في تفسير حق الله: أنه ما فهم من الشرع أنه ولا حيرة فيه للمكلف، كان له معنى معقول، أو غير معقول. وحق العبد: ما كان راجعاً إلى مصلحته في الدنيا، فإن كان من المصالح الأخروية، فهو من جملة ما يُطلق عليه أنه حق لله، ومعنى التعبد عندهم أنه مالا يعقل معناه، على الخصوص. وأصل العبادات راجعة إلى حق الله، وأصل العادات راجعة إلى حقوق العباد^(٥٣).

وقد تناول الفقهاء الخدنون المعنى الاصطلاحي للحق فقالوا: إن المقصود به مصلحة^(٥٤) مستحقة شرعاً، أو هو اختصاص يقر به لشرع وسلطة وتكليفاً، أو هو مصلحة ثابتة للشخص على سبيل الاختصاص والاستثناء، يقررها المشرع الحكيم^(٥٥).

أما المقصود بالواجب في اللغة فيعي اللزام، يقال: وجب الشيء وجوباً إذا ثبت ولزم، والوجوب: الثبوت، والواجب والفرص عند الشافعي «ت ٢٠٤هـ» سواء، وهو: كل ما يعاقب على تركه، وقرئ بينهما أبو حنيفة «ت ١٥٠هـ» فالفرص عنده أكد من الواجب^(٥٦).

وقد ذكر الفقهاء أن الواجب ما يناب عنى فعله، ويعاقب على تركه، فالصلاة والركعة والحج، وعمل الحاكم، وحكمه بأحكام الشريعة الإسلامية، والمساواة أمام القانون، كلسها أمور واجبة، يُناب من وجبت عليه إذا فعلها، ويعاقب إذا تركها^(٥٧).

أصل الحقوق والواجبات في الإسلام:

الحقوق والواجبات في الإسلام ليس لها منبع أو أصل سوى الشريعة الإسلامية، وأحكامها المستقاة من الكتاب، والسنة، والإجماع بمعنى اتفاق المجتهدين من علماء أمة محمد ﷺ على حكم شرعي في عصر غير عصر الرسول، ثم القياس وهو: إلهات مثل حكم معلوم في معلوم آخر، لاشتراكهما في علة الحكم عند المشت^(٥٨).

فلا واجب إلا ما أوجبه الله عز وجل في شريعة الإسلام، ولا حق إلا ما جعلته الشريعة حقاً.

فالشريعة الإسلامية قد اشترطت في استعمال الإنسان لحقوقه؛ ألا يضر بمصالح الغير، وأن يكون ذلك متفقاً مع مصلحة الجماعة، فإذا كانت حرية الانتفاع بالملك تؤدي إلى الإضرار بالغير، فإنها تمنع، حتى تكون في حدود منع الضرر، وفق قاعدة «لا ضرر ولا ضرار»^(٩١)، وقد طبق رسول الله ﷺ ذلك، وقضى برفع الضرر^(٩٢).

كذلك الحال بالنسبة لاحترام الشخصية الإنسانية في ظلال الإسلام، فلا شخصية إنسانية إلا مع الحرية، حرية الإقامة، والانتقال، والتدين، وحرية الفكر والرأي، وحرية العبادة، لذلك كان الإسلام والتحكم بقضين لا بجماعات، فليس لإنسان أن يتحكم في غيره، ولا للدولة أن تتحكم في الناس، ولكن تحكم عليهم إن اشتطوا أو تجاوزوا حدودهم. وحتى العقوبات في الإسلام لا تنجم إلى عقيد الحرية، لأن التقيد دائماً مع للحركة، والحركة هي الحياة، والإسلام دين الحياة، ولكن مسا معنى الحرية؟ إن الحرية التي تنصر بالانطلاق من القيود الإنسانية والأدبية ليست حرية، ولكنها لون من ألوان الانفلات الأخلاقي، لأن الحرية مسئولية، والإنسان الحر هو الذي تتجلى فيه المعاني الإنسانية العالية، ويضبط نفسه، فلا تنطلق إلى الدين من الأمر، ولا ينطلق وراء أهوائه وشهواته، ولا يكون عبداً لها، فالحر يتبدى بالسيادة على نفسه، وإطلاق إرادته وعقله من قيود شهوته، والأمة أو الدولة يجب أن يكون فيها المعاني التي تكون في الحر، لأن الدولة شخصية معوية تصصف في المعاملة بما يتصف به الشخص الحقيقي، فلا يمكن أن تكون دولة حرة، أو أمة حرة تلك التي تفرض أن غيرها عبداً، أو أن لها من الحقوق على غيرها أكثر مما لها^(٩٣).

وهكذا في كل الحقوق، لا فرق بين الحقوق العامة التي تثبت لكل الأفراد، والحقوق الخاصة التي يستأثر بها أصحابها دون بقية الناس^(٩٤)، وقد وضع الأصوليون أنواع الحقوق في الشريعة الإسلامية وفصلوا القول في ذلك^(٩٥).

ومن نافذة القول في هذا الشأن - أعني الحقوق والواجبات في الإسلام - أن الإنسان الذي يعرف أن له حقاً معيماً، يعني أن يدرك أن عليه واجباً، وذلك ما حققته الشريعة الإسلامية، بتأصيل مبدأ العدالة^(٩٦) التي تشكل ميران الاحتماع في الإسلام، والتي يقوم بها بناء الجماعة، فكل نسق اجتماعي لا يقوم على العدالة منهيار، مهما تكن قوة التنظيم فيه، لتكون العدالة الدعامة، والتنظيم والتبسيق السليم لكل بناء، لذلك كاتبت آية المعاني القرآن الكريم^(٩٧) قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَأَمَّرَ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيَّاهُ ذِي الْقُرْبَى وَيَتَنَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ بِطَمَاحٍ إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٩٨) فالعدل في الإسلام مقصد أممي، وجهه في اتجاهات مختلفة مع النفس، ومع الآخرين، وفي الأحكام والأقضية والشهادات، وأمام القانون، وفي العدالة الاجتماعية.

كما أن العدالة هي طريق الزلل إلى الله قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُكُمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَلَا يُغْنِيَكُمْ عَنْهُ قُرْبُكُمْ لِلَّهِ إِنَّهُ يَبْغِضُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢٤).

والعدالة ذات شعبتين، الأولى: العدالة النفسية، بأن يقدر كل إنسان لنفسه من الحقوق بمقدار ما يقدره لغيره، على ألا يزيد على الناس في حق، وقد يرضى على نفسه الزيادة في الواجب لا في الحقوق، وهذه العدالة النفسية هي التي توجد الاتصال المستمر، والتي تقوي بناء الجماعة، وتولد ديناً من غير فخر، ولا حكم مسيطر، بل يكون الحكم من ذات الضمير، فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار» (٢٥).

الثانية: العدالة التي تنظمها الدولة، ولن نستطيع تلخيصها إلا إذا كانت قائمة على أساس من العدالة النفسية عند الحاكم والمحكوم على سواء (٢٦). وعلى هذه القيم كان تأسيس المجتمع القاضل في الإسلام.

من أسس المجتمع القاضل في الإسلام:

اجتمع في الإسلام مجتمع معوي، أي أن العلاقات الاجتماعية فيه بُنى على السروابط الأدبية في تواد وترحم، لا على أساس من العلاقات المادية فقط، وهذا هو الفارق الجوهرى بين الحضارة الإسلامية في جوهرها، والحضارات المادية الأخرى، ذلك لتكون العلاقات المعنوية التي تقوم على المودة والرحمة والأمن النفسي، هي التي يقوم عليها ببناء الجماعة الإنسانية. وهي الروابط التي تربط أفراد الناس ببعضهم.

فالاجتمع المادي الذي بُنى على الاجتماع أو على الاقتصاد، فهو مثل الأحجار المترصة التي يجاور بعضها بعضاً من غير ارتباط وثيق بين أجزائها، ومهما يكن فيه من تسبق هندسي، لا يمكن أن يكون متلاحماً متصلاً وأنه ينهار لأقل عاصفة تلور.

أما المجتمع المعوي القائم على أساس من العلاقات الروحية الرابطة بين أجزائه، ذلك المجتمع المتوازن بين المادة والروح، فهو مجتمع متماسك قوي غير قابل لأن تصدع لبائته، لأنه مترابط الأجزاء بما لا يقبل الانقطاع، مادام يُغذى بالروح والدين، وقد يكون غير منسق اقتصادياً أو هندسياً، لكنه قوي متين واسع الأساس، والاعوجاج الذي قد يبدو فيه لا يكون دليل الضعف دائماً، بل قد يكون الاعوجاج الذي يبدو ظاهراً من أسباب قوة الجسم، وقد يكون التسبق المصطنع، الذي يعنى بالمظهر دون المخير، دليل الضعف وليس دليل القوة.

ولذلك كان الأساس في كل نظام وضعه الإسلام بالقرآن الكريم والسنة النبوية، أن يقوم على الدين وتوجهاته، وذلك لما يغذي نفوس الأفراد للاجتماع، ونفوس الجماعات لتأليف (٢٧).

والتشريع الإسلامي - المدني - للعلاقات بين الأفراد في الأمة؛ يقوم على أساس أن الروابط التي تجمع الناس هي روابط إنسانية في المقام الأول، أي يحكمها المسعى الإنساني بخصائصه المميزة، وأساس الروابط الإنسانية في القرآن الكريم هو: الإيمان بالله وحده، لكون الإيمان وحده يعطى على الإيمان بالقيم العليا، والمثل الرفيعة، والتي يسعى الإنسان العابد إلى الانقياد إليها بعبادته^(٧١)، حتى تصبح هذه القيم ديدناً له في سائر حياته.

وانتجع الفاضل في ظلال الإسلام، ووفق القيم التابعة من الإيمان بالله، وضع قواعد الرسول ﷺ، فأمن الناس، وعرفوا ما لهم من حق، وما عليهم من واجب، فعم الأمن ذلك المجتمع.

وفي سبيل إقامة هذا المجتمع؛ كانت هناك خطوات تطبيقية من جانب النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة المنورة، وبدأ في إرساء قواعد المجتمع الفاضل. ومن هذه الخطوات العملية في هذا النسخ:

- المؤاخاة

بعد استقرار النبي ﷺ في المدينة، أعلن المؤاخاة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، فذكر «ابن إسحاق» أن النبي ﷺ قال «آخُوا فِي اللَّهِ أَعْوِينَ أَعْوِينَ»، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: هذا أخي، ثم آخى بين باقي الصحابة، فكان حصة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة أعوين، وجعفر بن أبي طالب، ومعد بن جبل أعوين، وهكذا آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار^(٧٢). وهم التواة الأولى والركيزة الرئيسة للمجتمع الإسلامي الأول.

وتكمن أهمية هذه الخطوة الجوهرية في أنها تنشر الأمن والسلام بين المهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم، والأنصار الذين أحسنوا استقبالهم. وإذا كان العرب قد عرفوا الحلف القائم على التضامن، فإن الإخاء الذي تم كان أعمق من أي حلف، فالإخاء كان له سمة اجتماعية عميقة، تتبعها التزامات مادية^(٧٣)، ووفق كل ذلك إخوانه في الله قائم على أساس رسالة الإسلام السماوية، وما تصح عليه من حقوق وواجبات، ووفق أي عصبة قبلية، أو انضمام لعرق أو جنس، فالكسل داخل الإسلام سواء، وقد ذكر «ابن سعد» أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت على الحس والمؤاخاة، وكانت بين المهاجرين على التوارث^(٧٤) حتى نزل فسرول الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(٧٥).

والمؤاخاة تقوم على الاتصال الفردي، فطرف المجموعة إلى أفراد، يرتبط كل منهم بغيره آخر، بصرف النظر عن قبلته أو عشيرته، ويجعل مسؤولية حماية المهاجرين على أفراد من الأنصار، فهي رابطة الأخوة الدينية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٧٦) كما أن مبدأ المؤاخاة من شأنه أن يطفى أي عصبة قبلية من شأنها أن توجع الخلافات بين أبناء المجتمع الواحد، فطرفة الأفراد ترك لهم حرية التصرف، لكنها لا تستهينهم، لأن العلاقة عميقة الجذور بالرسول ﷺ وبالإسلام، وكان تأثير مبدأ

المواخاة على الانتصار قوياً، لأنه يلقى عليهم مسؤولية إضافية في الحماية، وتوثيق الصلة بالإسلام، وتبني الرسول ﷺ توسيع نطاق وقوة روابطه بالأنصار، وبذلك تكونت الأسرة الإسلامية الموحدة المتعاونة، ونسي كل فرد أرومته ومحتده، وتطلع إلى رباط الإسلام الذي ألف بين معتقيه، فكان الغرض من المواخاة: اجتماعي ونفسي^(٧٧)، وآتى ذلك ثماره إذ أمن الجميع، وفبت المثل الأخلاقية التي دعى إليها الإسلام، لتكون واقعا معاشاً على الأرض .

❏ صحيفة المواخاة:

ثم كانت الخطوة التالية لإقامة المجتمع الفاضل، والتي تمثلت في الصحيفة التي كتبها النبي ﷺ بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، مع اليهود، وفيها وادع النبي ﷺ يهود المدينة، وعاهدتهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم.

وهذه الصحيفة الخالدة تعدُّ نبراساً لجميع الأمم في مختلف الأزمنة، لأنها حددت إطاراً عاماً لكل من يقطن في المدينة التي كانت تضم طوائف من اليهود والمشرّكين، ولكي يتحقق الأمن الخاص والعام، والسلام الاجتماعي، فلا بد من وضع نظام يحفظ لكل الطوائف التي تعيش داخل المدينة حقوقها، حتى ولو كانت غير مسلمة، فلكل يعيش في وطن واحد هو المدينة المنورة، وعندما يأتي أي خطر لن يفرق بين فرد وآخر، لذا لابد أن يتعاون الجميع لتصد هذا الخطر.

فكانت الصحيفة الجامعة والميثاق القوي، والدستور المنظم للعلاقة بين أفراد المجتمع جميعاً.

فرسول الله ﷺ في سبيل متابعة الجهود لتوضيح معالم الدين، ونشر الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة، وإقامة المجتمع الفاضل، كان لابد أن يحدد السبل لتحقيق ذلك، فالتفتى الأمر معالجة مختلف القضايا بما يكفل سلامة الجميع، وأمن الأفراد والجماعات، وتأمين الوطن، فانتشار الإسلام بين الناس لا يتوقف على مجرد سمو مبادئه وسلامة أفكاره، وإنما لابد أن يظهر نجاح هذه المبادئ بهذا السمو في التطبيق العملي لها، على أرض الواقع، وتأسيس قاعدة متينة تُظِل الجميع.

فكانت الصحيفة إحدى الخطوات الجوهرية لتحقيق ذلك الأمر، ف يعرف كل فرد ماله وما عليه، فهي الدستور الذي يبين الخطوط الرئيسة لتنظيم الدولة والمجتمع من الداخل، ولتنسيق العلاقة بين الجميع في إطار من الولد والتعاون، وبذلك يشعر الجميع بالأمن والسلام.

فسيقت تلك الوثيقة دساتير العالم - حتى الحديث عنها والمعاصر - في كوكبا حددت الإطار العام لحقوق وواجبات جميع أفراد المجتمع، فلا تنتهك حرمة إنسان، ولا حريته، ولا ماله ، ولا دمه... الخ ما نصت عليه الوثيقة والتي كان من قصورها:

١- أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس، وأنَّ المهاجرين من قريش على ربعتهم، يتعاقلون^(٧٨) بينهم، وهم يقدون عاليهم^(٧٩) بالمعروف والنقيض بين المؤمنين.

- ٢- بنو عوف على رعيهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكذلك الحال لبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم، وكافة طوائف المدينة.
- ٣- أن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم^(٨٠)، أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل^(٨١)، وألا يخالف مؤمن مؤلف مؤمن مؤلف. يخالف مؤمن مؤلف مؤمن مؤلف.
- ٤- أن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من يهمل منهم أو ابتلى دسيسة^(٨٢) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، وألا يقتل مؤمن مؤلفاً في كافر، ولا ينصر كافرأً على مؤمن.
- ٥- أن دعة الله واحدة، يحبر عليهم أديانهم، وأن المؤمنين بعضهم مؤلف بعض دون الناس.
- ٦- إنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم.
- ٧- أن سلم المؤمنين واحدة، لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.
- ٨- أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.
- ٩- أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مسواهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه، وأهل بيته وكذلك كافة طوائف اليهود النقاطين في المدينة، هم مثل بني عوف.
- ١٠- أن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.
- ١١- أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
- ١٢- أنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وبني محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.
- ١٣- لا يجوز هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جبار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ^(٨٣).

ومن خلال بعض النصوص التي أوردناها من الصحيفة، يتبين الأساس القوي للعلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، المسلمين مع بعضهم، ثم تحديد العلاقة مع الطوائف الأخرى، والتي تكلمت هم الصحيفة بالأمن والأمان، والحرية، وأن الجميع وحدة واحدة ضد من هاجم المدينة، وأن التعاون بين الجميع في الإنفاق حال تعرض المدينة لأي هجوم واجب على الجميع، وأن عهد الله واحد للجميع، وأنه لا حماية لظالم أو آثم، وأن الوطن حرم آمن لرعية هذه الدولة.

- وهذا الدستور - الصحيفة - الذي صيغ لينظم القواعد الأساسية للدولة المدينة ورعيها، بعد أن نزل الوحي بقسم كبير من القرآن الكريم، يُعد دليلاً على أن القرآن الكريم بالنسبة لدستور الدولة، هو الإطار العام لها، فيه المبادئ، وبه الروح، والنقائص والصواب، والغايات،

وذلك لا يمنع من وضع دستور يصبط القواعد وينظم الحقوق، ويحكم العلاقات بين الأفراد، والجماعات، ويصور ذلك صياغة محكمة الدلالة بينة الحدود، بما لا يتعارض مع الإطار العام.

- كما أن نص هذه الصحيفة بما تضمنته، أمر يدعو إلى العزة، فحضارة الإسلام وفق هذه الصحيفة وما حددته بدقة، يدل على أن الفكر السياسي الإسلامي في ذلك الوقت، قد وصل إلى درجة كبيرة من السمو، فاستوعب الإسلام كافة الطوائف الموجودة في المجتمع، وذلك بتحديد دقيق فيه أمان للفرد والجماعة، والوطن، فضلاً عن روح التكافل والتضامن بين الجميع، وإذا نظرنا إلى الإطار الزمني والمكاني للصحيفة، نجد أن هذه الوثيقة سبقت كافة الأمم في رعاية الذين ينضون تحت لوائها، وضمت لهم حقهم في العيش الآمن، حتى لو كانوا غير مسلمين.

- كما أن الصحيفة تظهر اهتمام الرسول ﷺ بأمر العدالة وتنظيم القضاء، فقد خصصها الصحيفة بعدد من الأحكام، بحيث يمكن القول إنها كانت من أبرز الدلائل التي استهدفت الصحيفة تأميتها، وذلك واضح إلى إدراك الرسول ﷺ لأهمية العدالة والقضاء لكل مجتمع سليم، وأن فقدانها من أبرز العيوب، وأولى أسباب الفشل والاضطراب، ونص القرآن الكريم على جعل القضاء في الأمور المتعلقة بالأمن العام إجبارياً، وحصره في يد الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ لَا أُؤْتَوْنَ حَتَّىٰ يَكُونُ فِيهِمْ حَاجَةٌ مِّنْ أَشْيَاءٍ مِّنْهُم مَّا لَا يَجِدُوهَا فِي الْقُسُومِ حَرْبًا مَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٨١).

- وبذلك أقام النبي ﷺ دعائم المجتمع الإسلامي، الفاصل في المدينة المورة، فأنشئ وترسيخ كيان الأمة من الداخل، والعمل على توحيدها، هو الأساس الأول في قيامها ومن ثم تطورها وازدهارها. فكانت إدارة الرسول ﷺ في المدينة تهدف إلى تكوين أمة مترابطة فيما بينها، للأفراد فيها حرية العمل والتنظيم، وللسلطة المركزية حق الاهتمام بالعدالة، والأمن العام والقضاء، وأمور الحرب والسلام، على أن تكون القوى والأعلاق الإسلامية الفاضلة أساس أعمالهم وتصرفاتهم.

المعاهدة مع نصارى نجران:

ولتحقيق السلام العام في المدينة وما حولها، نجد أن رسول الله ﷺ يعمل على نشر الأمن بصورة أفضل، لتصم طوائف من غير المسلمين، فكانت الوثيقة الدستورية لنصارى نجران - باليمن - لتكون عهداً ووعداً لكل من يتحل ويتدين بالصرانية عبر الزمان والمكان، فيبعد أن أتم الله على المسلمين فتح مكة سنة ٦٢٩هـ/٦٢٩م، والذي تجلت فيه سماحة الإسلام مع من ناصبوه

العداء^(٨٥)، وأمن الجميع، واستتب الأمر للإسلام في معظم أرجاء الجزيرة العربية، وجاءت الوفود تترى على النبي ﷺ في العام التاسع للهجرة، والذي أطلق عليه عام الوفود^(٨٦) يعقد النبي ﷺ في العام العاشر للهجرة، معاهدة مع نصارى نجران، هذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب محمد النبي ﷺ لأهل نجران - إذ كان عليهم حكمه - في كل شرة، وفي كل صفراء وببضاء وورق، وإنزل ذلك كله لهم على ألفي حلة من حنل الأواقي في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، مع كل حنة أوقية من الفضة، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالخساب، وما نقصوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالخساب.

وعلى نجران مئة رُسلٍ ومنعتهم مائة عشرين يوماً فما دون ذلك، ولا تحبس رسلنا فوق شهر، وعينهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً إذا كان كيد يبايعن ومعمرة، وما هلك مما أعاروا رسلنا من دروع أو خيل أو ركاب، أو عروض، فهو ضمن على رسلنا حتى يؤدوه إليهم. ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي ﷺ رسول الله عيسى أمواتهم وأنفسهم وأرضهم، وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشروهم وبمعهم، وكل مانحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يهر أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليه دية، ولا دم جاهلية، ولا يمسرون ولا يمسرون، ولا يظأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبنيهم النصف غير طنين ولا مطويعين، ومن أكل ربا من دمي قُتل، فمنعتي منه برينة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى مالي هذا الكتب جوار الله وذمة محمد النبي ﷺ رسول الله أبداً، حتى يسألني الله بأمره، ما نصحو وأصلحو ما عينهم خير مصلحين يظلم^(٨٧).

وهذه الوثيقة التاريخية العظيمة التي حددت بدقة حقوق وواجبات المسلمين تجاه نصارى نجران وحقوق وواجبات نصارى نجران تجاه المسلمين، تشكل دستوراً لطبيعة العلاقة التي ربطت بين الطرفين، واشترطت من ضمن شروطها: الحرية الدينية لنصارى نجران، وأمنهم، وتأمين دور عبادهم، وأمواتهم وأنفسهم، وما تحت أيديهم، وفق ما أقرته الوثيقة، وتتوالى العهود والمواثيق بين النبي ﷺ وكثير من القبائل، وبخاصة في العام التاسع الذي عُرف بعام الوفود، وكلها لتنظيم السلم وحسن الجوار. ثم بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، جاء وفد نجران إلى أبي بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ فأجارهم بالمهد الذي كتبه النبي ﷺ^(٨٨)، وهكذا عاش الجميع وفق هذه المعاهدات والمبادئ التي اشتملت عليها.

السلم والحرب في الإسلام:

ويمثل هذه القواعد مع غير المسلمين، التي وضع أساسها رسول الله ﷺ، استقرار الأمن في الجزيرة العربية، وعمّ السلام بين المسلمين، وغير المسلمين، لأن القاعدة الموسوعة صارت أساساً انتهجه خلفاء رسول الله ﷺ من بعده، فالخليفة أبو بكر الصديق ﷺ ١١-١٣هـ/٦٣٢-٦٣٤م "يوصي جند الإسلام في بداية الفتوحات الإسلامية، بأهل النعمة، ولا يعتدوا عليهم"^(٨٩) ثم

يأتي زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م ليضرب أروع الأمثلة في هذا الصدد، عند عقد معاهدة مع الصاري في إيلياء - القدس - تضمن لهم الحرية الدينية الصريحة دون إجبار أو ظلم^(٩٠).

وهذه النقطة أعني هذه المعاهدة، وما كان عليه خلفاء الرسول في هذا الشأن، تسين أن الأصل في الإسلام هو السلم العام، وأن الحرب لا تمثل القاعدة في الإسلام، بل إن المسلمين لا يلجأون إلى الحرب إلا باختيار غيرهم، فهم لا يبعون إلا العمل على نشر الإسلام وتعاليمه بالطريقة السلمية، فكان المسلمون يحذرون أهل البلاد بين الإسلام، أو أن يتعاهدوا معهم على العيش معاً في سلام، حتى يجد الدين الفرصة، ليطلع الناس على أوامره ونهيه، دون إكراه، ولا يلجأ المسلمون إلى الحرب إلا إذا كانوا مضطرين لذلك، وجمهور الفقهاء على أن الباعث على القتال هو رد الاعتداء على المسلمين، ذلك لأن الدعوة إلى السلم في القرآن مطلقة غير مقيدة، بينما إباحة القتال لمحبتها في كل نصوص القرآن مقيدة بأنها مقابلة الاعتداء بحته، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾^(٩١) - ويقول سبحانه: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحُوا لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٩٢) ويقول عز من قائل: ﴿فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ بِالْحَقِّ قُلُوبُكُمْ فَقَالَ قَوْمٌ لَا يَأْمُرُكُمْ بِالْحَقِّ وَالْجَهَنَّمُ أَجْزَلُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾^(٩٣).

فهذه النصوص كلها تدعو إلى السلام دعوة مطلقة غير مقيدة، وهي تدل على أن كل من يتنزم السلم لا يقتال، والأصل في العلاقات في الإسلام بين الجماعات يقوم على: التواد، والتراحم، والتعاون، وما فرض القتال على المؤمنين إلا لكونه ضرورة عذمة تقدر بقدر الضرورة، فلا يبرأ القتال لذاته، فما جاء الإذن بالقتال إلا لرد الاعتداء على الحرية الدينية، ومع الفتنة^(٩٤).

وإذا فرضت الحرب على المسلمين، فإن لها آداباً يجب أن تحترم، فلا يجوز التعجيل بالقتل، ولا يقتل إلا من قاتل، وعدم حرق الشجر، وعدم التعرض للمساكين، ولا للنساء والأطفال ولا الشيوخ، فهذه آداب حرص عليها المسلمون في حروبهم^(٩٥)، ووفاء قادة الإسلام بمهودهم في أوقات الحرب غير شاهد في هذا السياق^(٩٦)، فعندما اشتدت وطأة الروم على جيش أبي عبيدة عامر بن الجراح في الشام، لوقعة اليرموك، رد المسلمون على أهل حصص ما كانوا أخذوا منهم من الفراج وقالوا: شُعلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حصص: لولا بكم وعدكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم^(٩٧). وكان أبو عبيدة قد كتب معهم كتاباً لحمايتهم، وحماية كنائسهم ودور عبادتهم وما تحت أيديهم، فلما أحس بخطورة الموقف من الروم، رد عليهم ما أخذ منهم قاتلاً لهم: ونحن لكم على العهد، لكنهم رفضوا، وساعدوا المسلمين حتى كتب الله لهم النصر^(٩٨).

والمناذح في التاريخ الإسلامي التي تؤكد على الوفاء بالعهد، واحترام حقوق وواجبات رعايا المسلمين، وحقوق وواجبات المسلمين أنفسهم كثيرة، وفيها الدلالة على صدق المسلمين ووفائهم بعهدهم في كل ما التزموا به.

فالأساس الذي وضعه لهم النبي ﷺ في هذا الشأن ماثل أمامهم ، إضافة إلى ذلك؛ سمح المسلمون رسول الله ﷺ وهو يتصف من نفسه، فهو القدوة والمثل الأعلى ، فقد ورد عنه ﷺ في هذا الصدد أنه قال: «إله قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، وإنا أنا بشر، فأبما رجل قد أصبت من عرضه شيئاً فهذا عرضي فليقتصر، وإبما رجل كنت أصبت من بشره شيئاً فهذا بشري فليقتصر، وإبما رجل كنت أصبت من ماله شيئاً، فهذا مالي فليأخذ، واعلموا أن أولاكم في رجل كان له من ذلك شيء فأخذه أو حنلني، ففقت ربي وأنا محلل لي، ولا يقول رجل إني أخاف العداوة والشحناء من رسول الله، فإنما لبسنا من طبعي، ولا من خلقي»^(١٠٠).

يمثل هذا المذهب تحقيق السلام، ومثل هذه العدالة ساد الإسلام الدنيا، وعلى هذا السبب سار أصحاب رسول الله ﷺ، فدانت لهم الدنيا، وتحقق السلام للإنسانية في أوضح صورة، فكما سبق أن ذكرنا إن الإسلام دين قيم وروابط سلوكية عادية ومعوية، تكون هذه القيم والضوابط مرتبطة بروحي السماء، وهذه القيم يتصل بعضها بحياة الأفراد، ويتصل بعضها الآخر بحياة الجماعات، فإذا قلنا إن الحصار لابد أن تقترب بسط معين من الحياة، فإن الإسلام عساو، بقميه وضوابطه، على أن يعطى حياة أهله وحضرته بعض ثمرات ذلك النمط المشترك، بل إن الإسلام امتاز بأن أعطى نظاماً متكاملًا للحياة، سواء من وجهة نظر الفرد، أم وجهة نظر الجماعة، وهذا النظام شمل علاقات الأفراد، وكثيراً من بروحي الحكم ذاته، وقد يكون من أبرز القيم التي استند إليها نظام الحياة الإسلامية فكرة القيمة الذاتية للإنسان الفرد، واستنادها إلى فكرة المسئولية الفردية في نطاق الحرية، ثم فكرة الإحاء العام التي تجعل المسلم في أي قطر بشره بأنه ينتمي إلى جماعة المسلمين على أساس من المساواة، والتي كانت من وراء «حسن المشاركة» الذي تستشعره جماعة المسلمين على اختلاف اللغة أو الجنس، أو حتى الولاء الوطني أو السياسي، وقد يوجد مثل هذا الحس المشترك بين جماعات من أهل الأديان الأخرى، ولكنه لا يبلغ قوة «حسن المشاركة» بين المسلمين. ثم فكرة العدل الذي ينبع من قاعدة المساواة بين الأفراد - وقد ذكرنا نماذج لذلك في ثانيا البحث - ويجزى التعاوت بينهم على أساس العمل، وفضائل الأعمال المتمثلة في التقوى، وهذه قاعدة تشعر المسلم بروح الإنصاف، وهي أساس تماسك البنية الاجتماعية التي أرمى دعائمها الإسلام، وقد رأينا سماحة الإسلام مع غير المسلمين، ومعاهداتهم والوفاء بها، مع عدم التمييز على أساس من العصر أو الدين أو المال، وذلك جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا - على مر العصور وحتى الآن - على أساس من التكافل والاندماج، ومهد لأن يكون نظام الحياة والحصانة في الإسلام نظاماً جامعاً رحباً، واسعاً في معايير، التي لا يغيرها الزمن ولا تشككها الظروف^(١٠١).

ونخلص من خلال ماسبق إلى النتائج التالية:

- ١- قدرة الإسلام على تحقيق السلام العادل، بمعناه الحقيقي بين مختلف الأمم والشعوب.
- ٢- أن العدل القائم على الحق أساس تحقيق السلام، وهو ما حققه الإسلام في تاريخه الخيد-نظرياً وعملياً-
- ٣- المساواة أمام القانون للجميع إحدى الركائز الرئيسة، لتحقيق السلام الخاص والعام، فالكل أمام القانون سواء.
- ٤- إن حرية وحقوق الإنسان عايشها المسلمون، ومن دخل في عهدهم من أهل الأديان الأخرى فترات طويلة من تاريخ الإسلام، مع حرص ولاية الأمر على تحقيق هذه المبادئ والتقييم.
- ٥- أن الإسلام سبق كافة الأمم، وحتى الأمم المعاصرة، في ميدان احترام الإنسان وحقوقه، في صراحة ووضوح، فلم تكن شعارات مرفوعة، لظروف معينة، بل كانت واقعاً معاشاً ودستوراً عاماً.



الهوامش

(١) ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) - المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ١١٠/١٤. وقد ذكره بلفظ: صالح الأخلاق ج ٨٩٥٢، الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه (ت ٤٠٥هـ) المستدرک علی الصحیحین فی الحديث، دار الشريعة، بيروت، ط: ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ٦١٣/٢. نسخة مصورة عن ط: القاهرة، البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ). - المسند الكوري، دار المعرفة، بيروت، ط: ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ١٩١/١٠، ١٩٢، الغيثي: أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ) كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ٣/٢٢٠ ج ٢٧٤٠.

(٢) محمد عبد الواحد أحمد . القيم الإسلامية، بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية، التوجيه الاجتماعي في الإسلام، مطابع الدجوي، القاهرة، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ص ٣.

(٣) السُّمُّ والسُّمُّ الصلح والامان، والإسلام والسُّمُّ، خلوص من الشوائب

النظر: المعجم الموسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط: ٣، ص ١/٤٦٣.

(٤) ناجي معروف. أصالة الحضارة العربية. دار الثقافة، بيروت. ط: ٣. ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ١٩٦.

(٥) سورة الأناج: آية ٦١

(٦) سورة البقرة: آية ٢٠٨

(٧) سورة الأنعام. آية ١٢٧

(٨) سورة الحشر: آية ٢٣

(٩) قال العراقي أخرجه أخر تصحى في "مكارم الأخلاق"، وفيه ضعف، وهو من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي

ﷺ انظر: أبا الفضل عبد الرحيم بن الحسين (ت ٨٠٦هـ) تلغى من حل الأسفار، تحقيق: أشرف عبد

المقصود، مكتبة طوية، الرياض، ط: الأولى، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ٢/٢٠٠.

(١٠) الغيثي كشف الأستار، ٢/٢٢٩. ج ١٨٩٦ من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ

(١١) انظر: العراقي أبا حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) إحياء علوم الدين، تقديم بلوي طرابلس، دار إحياء

الكتب العربية، القاهرة، (ت ٢) ٢١٤/٢

(١٢) سورة التوبة: آية ١١٩.

(١٣) سورة النساء: آية ٥٨

(١٤) سورة المائدة: آية ٢.

(١٥) الإسلام هو الدين الوحيد الذي نشأ لولاً من الحضارة عُرف باسمه وهو الحضارة الإسلامية على حين أن غيره من الديانات السماوية لم يبع هذه الفرجة، ولا هذا السعى من الأثر الإنساني والتاريخي، فالهوية بدلاً من تنشأ عنها حضارة يهودية بالفهم الحديث للكلمة، وكذلك المسيحية لم تنشأ عنها أو تصاحبها

حضارة مسيحية ذات طابع غير أو موحد، وكذلك المذهب غير السماوية لم تقم لأي منها حضارة خاصة بميزة، وإن كان بعضها قد خلق حضارات أقدم منه أو معاصرة له

انظر: سليمان حزين: مقومات الحضارة الإسلامية، بحث منشور في مؤرخ مجسم البحوث الإسلامية، الترجمة الاجتماعية في الإسلام، مطابع الدجوي، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ١٧.

(١٦) انظر لخصوص بعض المعاهدات الواردة في هذا الشأن من خلال هذا البحث ص ١٣، ١٤، ١٦.

(١٧) جابر قميحة: المدخل إلى القيم الإسلامية، بحث منشور في المؤتمر الذي عُقد في القاهرة بمناسبة حلول القرن الخامس عشر للهجرة بعنوان دراسات في الحضارة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٦٨.

(١٨) سورة القصص: آية ٧٧.

(١٩) سورة الكهف: آية ٦.

(٢٠) سيد قطب: السلام العالمي والإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط ١٠، ٢٠١٠م، ص ١٠٥.

(٢١) جوستاف لوبون. حضارة العرب، ترجمة: محمد عادل زعير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د ط) رد (ت) ص ٤٣٠.

(٢٢) المقصود بالحروب الصليبية، الحروب التي دارت رحاها في بلاد الشرق الإسلامي، عقب صرخة البابا أوربان الثاني في مؤتمر كابر مونت سنة ١٠٩٥م، ولقد ثبتت الحروب من أكثر وأطول المواجهات العسكرية بين الغرب الأوروبي والمسلمين، فقد سميت هذه الحروب مايقرب من قرنين في الفترة من ٤٨٨ - ٦٩٠هـ/١٠٩٥ - ١٢٩١م. ومع أن المدى الزمني لهذه الحروب غير محدد على وجه الدقة، إلا أن الفترة الزمنية المحددة، لا تعني سوى الدور الحاسم والنشط لهذه الحروب.

انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، صفة مشرفة في تاريخ جهاد الإسلام، في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٦، ٢٠٠٢م، ج ١/ص ٢٥٠، حسن حسني: الحروب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، (د ط) ١٩٨٥م، ص ٥.

(٢٣) لوثر ستودارد. حاصر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج ميهي، وتعليقات الأمير شكيب أرسلان، القاهرة، (د ط) ١٣٥٢هـ، ص ٣٤.

(٢٤) انظر سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٦، ٢٠٠٤م، ص ٧٠، ٧٥-٨٢ وغيره.

(٢٥) المذهب المكيافيلي، مذهب سياسي ظهر في أوروبا الغربية، صاحبه الإيطالي مكيافيلي، ت ١٥٢٧م الذي يرى أن الحاكم لا بد أن يكون طاعية ومستبدًا، ولا يمكن أن يكون غير ذلك إذا أراد أن يحقق أهدافه، فلا يقيم وزنًا للعهد، قطعه على نفسه، أو وعدًا لزم به. إذا كان الوفاء بالعهد يعرضه للخطر، فالتسلسل أكثر من تأكيد لا يعترعون العهد، وهو - أي الحاكم - في حل من أن يتسلط بعهد أو وعد، والفاية تبرز الوسيلة للقدرة أو مجموعة الوسائل للقدرة التي يلجأ إليها الحاكم للمحافظة على مكان الدولة، فالقول بالخنائفة وصحت لتقوم على ضوئها العلاقات بين الأفراد، فحب، أما السياسة فلا مكان فيها للأخلاق، ويجوز أن يربد إنشاء دولة قوية وتدعيمها أن يلجأ إلى الرذيلة واختراع والسياس، وجميع الجرائم، ويسرى

مكيافيللي أنَّ إصاخم لاصرح عليه في أن يأثم في حق الدين والفضيلة الإنسانية، فضلاً عن ذلك استخدم عبارات تطوي على احتقار البشر، وسوء الظن بالإنسان، وضمن مكيافيللي هذه الآراء في كتابه "الأمو".
الظر: عبد العزيز محمد الششتاوي. أوروبا في مطلع العصور الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ط الأولى، ١٣٩٣هـ/ ١٩٦٩م، ص ٥٤: ٥٨.

(٢٦) النظر: مختار القاصي. أثر المدينة الإسلامية في الحضارة العربية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، (ط ٢) ص ٥، ٦.

(٢٧) النظر محمد عبد الله دوان. مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام، مطبعة الأزهر، ط ١٩٥٢م، ص ٢.

(٢٨) انظر: محمد وأنت عثمان، الحقوق والواجبات والعلامات الدولية في الإسلام، دار الصفاء، القاهرة، (ط ٢) ص ٣٦، ٣٧.

(٢٩) انظر محمد عبد الله دوان: مبادئ القانون الدولي... ص ٢.

(٣٠) محمد وأنت عثمان: الحقوق والواجبات... ص ٣٩.

(٣١) ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ص ١٩٧.

(٣٢) سورة التين: آية ٤.

(٣٣) سورة الإسراء: آية ٧٠.

(٣٤) سورة البقرة: آية ٢١.

(٣٥) سورة النساء: آية ١٧٤.

(٣٦) محمد أبو زهرة: التجميع الإسلامي في ظل الإسلام، بحث منشور في مؤتمر مجمع بحوث الإسلامية، تونس، ١٩٧١هـ/ ١٣٩١هـ، ص ٢٢.

(٣٧) هذا الحديث جرد من خطبة لبي الله في حجة الوداع، وأخرجه الإمام أحمد في "المسند" ج ٣٨/ ص ١٢٠ ح ٢٣٤٨٩ من طريق أبي نضرة، وقال المصنف: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. انظر التقيمي: أبا الحسن علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط ٢) ص ٣٧٤، نسخة مصورة عن ط القاهرة، ج ٣/ ص ٢٦٦.

(٣٨) البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ). الجامع الصحيح "صحيح البخاري" دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (ط ٢) ص ١٢٠، باب الجنود، ج ٣/ ص ١٢٠، ح ٣٤٧٥، ٤٣٠٤ وفيه "أبوكلمة في حد". ٦٧٨٨، مسم من الجحاج القشيري (ت ٢٦١هـ). الجامع الصحيح "صحيح مسلم"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج ٣/ ص ٢٠٠ ح ١٦٨٨، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣٩) أبو يوسف القاضي، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري (ت ١٨٢هـ). أخرجه، دار المعرفة، بيروت، (ط ٢) ص ٨٢، وأخرجه البخاري في. الجامع الصحيح، ج ٣/ ص ٣٠٠، ح ٢٥٩٧، ٦٩٧٩، ٧١٧٤، ٧١٩٧، ومسلم في: الجامع الصحيح، ج ٣/ ص ٢٣٣ ح ١٨٣٢ من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٤٠) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ). فوح البلدان، تحقيق صلاح الدين النجد، القاهرة، المصرية، القاهرة، (ط ٢) ص ٢٥٧.

- (٤١) ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلمة (ت ٢٧٦هـ): عيون الأحبار، «هيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د ط) ١٩٧٣م، ج ١/ص ٥٣». والجدير بالذكر في هذه المسألة أن الإسلام لم يبحر على الملكية الفردية وخاصة، ليلي في النفس مالها الفطري العميق إلى التملك، ولكن الإسلام وضع الحدود المنظمة لهذا الحق، بحيث لا يؤدي أحداً في معاش، وأن يكون سبيل ذلك طهارة العمل، وعدم إجماع مال حقوق الآخرين. انظر: محمد أبو زهرة، «الجميع الإنساني في ظل الإسلام»، ص ٢٩.
- (٤٢) سورة النساء: آية ١.
- (٤٣) سورة الخجرات: آية ١٣.
- (٤٤) محمد أبو زهرة: «الجميع الإنساني...»، ص ٢٤.
- (٤٥) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
- (٤٦) انظر: محمد أبو زهرة، «الجميع الإنساني...»، ص ٤٥.
- (٤٧) أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٥، والحديث أخرجه أبو داود، سليمان بن، «الجميع الإنساني» (ت ٢٧٥هـ): السنن، تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ط) ج ٣/ص ٩٥، «ج ٣٠٥٢»، و«البهقي»: السنن الكبرى، ج ٩/ص ٢٠٥.
- (٤٨) أبو يوسف: الخراج، ص ١٢٥.
- (٤٩) وذلك من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، الذي يتجلى في تحقيق مصالح العامة ورفع الأذى والفساد عنهم والمصالح التي يقررها الإسلام أساساً للتشريع، وتشتمل عليها الشريعة في تعميمها وكلياً ترجيح إلى مخالفة حتى حصة أمور هي مخالفة على النفس، والدين، والناس، والمال، والمثل.
- انظر أبو زهرة، «الجميع الإنساني»، ص ٣٤، محمد علقه، الإسلام مقاصده وخصائصه، مكتبة الرسالة، عمان، ط الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ١٠٦، وما بعدها.
- (٥٠) ص معاني، «حق في عدم ائمة» انظر ابن منظور، «اللسان» محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) لسان العرب، «مادة حق»، تحقيق محمد الحسيق المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م، ج ١١/ص ٣٣٢، الفيروز آبادي، محمد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ٨١٧هـ). القاموس المحرر، «هيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د ط) ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ٣/٢١٤» نسخة مصورة عن ط القاهرة، الزبيدي، أبي الفتح محمد بن محمد المرتضى (ت ١٢٠٥هـ) تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد العليم الطحطاوي، مصطفى حجازي، وزارة الإرشاد، الكويت، ط الأولى، ١٩٦٨م، ١٩٨٧، ج ٤/ص ١١٣، ج ٢٥/ص ١٦٦، ١٦٧.
- (٥١) القرافي أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن (ت ٦٨٤هـ): الفروق، تونس، (د ط) ١٣٠٢هـ، ج ١/ص ١٧٩.
- (٥٢) محمد رأيت عثمان الحقوق والواجبات، ص ١٢، وقد ذكر تعديلات العلامة قاسم الأنصاري على تعريف القرافي للحق، ورد عليه في ذلك.
- (٥٣) الشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد الفهرماطي (ت ٧٩٠هـ): الموافقات في أصول الأحكام، تعليق عبد الله دراز، وابه، محمد عبد الله دراز، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (د ط) ج ٢، ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٥٤) ذكر محمد وأخت عثمان قتلًا من عسوي أحد في التدخل لملقه الإسلامي أن من يعير عن الحق بالمصلحة يريد ما الأعم من المصلحة المادية، فالمصلحة عنده شاملة للمصلحة المادية كحسب التملك، وللمصلحة المعنوية كحق حرية الرأي، وللمصلحة الاعتبارية الشريعة وهي التي ليس لها وجود إلا بإكساب المشاعر الحكيم كحق الطلاق وحسب المصلحة، انظر: الحقوق والتواجبات... ص ٩٠

(٥٥) النظر: محمد وأخت عثمان: المرجع السابق، ص ٩٤.

(٥٦) النظر: محمد وأخت عثمان: المرجع السابق، ص ٩٥.

(٥٧) عن معنى الواجب وما قبل فيه النظر: ابن منظور. لسان العرب، «صادقة وجيب»، ج ٢/ص ٢٩٢، المعرور: رابدي: القاموس المحيط، ج ١/ص ١٣٥، الزبدي: تاج العروس، ج ٤/ص ٣٣٣.

(٥٨) النظر: محمد وأخت عثمان: الحقوق والتواجبات، ص ٩٦.

(٥٩) الأصل في هذه القاعدة قول النبي ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» ومعناه: لا يجوز للمعز أن يضر أخاه بقاءً، ولا جزءً، والضرار معناه: مقابلة الضرر بضرر، النظر: محمد عقبة: الإسلام مقاصده وحاصلاته، ص ٢٤، وطلعت أخرجه «ابن ماجة» أبو عبد الله محمد بن يزيد (٢٧٥هـ) السنن، تحقيق محمد فؤاد عبيد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، (رد ط) (د ت) نسخة مصورة عن ط الباي الحبي، القاهرة، ج ٣/ص ١٥٩، «ج ٢٣٤» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، وأخرجه «الحاكم» في: المستدرک، ج ٢/ص ٦٦، «البيهقي» في: المسالك، ج ٩/ص ٦٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عن النبي

(٦٠) ورد في مصنف أبي ذر عن سمرة بن جندب أنه كان له ثعلب في حائط وحل من الأنصار، ومع الرجل أهله، فكان سمرة بن جندب يدخل بي المحل فيأخذ به الرجل، ويشق عليه، فطلب إليه أن يهجمه منه فأبى، فطلب أن يذله فأبى، حتى أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فطلب إليه النبي ﷺ أن يهجمه فأبى، فطلب إليه أن يذله فأبى، قال فلهما ي ذلك كذا، وكذا مزرعة فأبى، فقال رسول الله ﷺ: أنت حمار، ثم قال لألصاري: اذهب فاقطع عنقه.

الطبراني: أبو عبد الله محمد بن فرج، المالكي (ت ٤٩٧هـ) أخصيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار الوعي، حلب، ط ٢٠١٤هـ/١٩٨٢م، ص ١١٥، ١١٦.

(٦١) النظر: محمد أبو زهرة: المجتمع الإنساني، ص ١٢٠، ١٢١.

(٦٢) النظر: محمد وأخت عثمان: الحقوق والتواجبات، ص ١٨.

(٦٣) النظر: الشاطبي: الموافقات، ج ٢/ص ٢٧٧ وما بعدها.

(٦٤) ذكرنا مبدأ العدالة على سبيل التمثيل، لا الحصر.

(٦٥) محمد أبو زهرة: المجتمع الإنساني، ص ٧٦.

(٦٦) سورة النحل: آية ٩٠.

(٦٧) سورة المائدة: آية ٨.

(٦٨) الحديث أخرجه كذلك البخاري، في صحيحه كتاب الإيمان باب السلام بين الإسلام، ورواه بعضهم عن حماد ابن يasar رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، وقيل إن هذا من كلام حماد بن يasar وأخرجه الترمذي في مسنده، كما في كشف الاستار، ج ٣٠، مع اختلاف في ترتيب الأمور الثلاثة المذكورة، وقال البزار: رواه غير

واحد موقوفة على عمار بن ياسر رضي الله عنهما، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بس أبي بكر (ت ٩١١هـ). الجامع الصغير في حديث البشير البدير، مطبعة الحلبي، القاهرة، (د ط) ١٩٥٤م، ج ١/ص ١٣٦، الشاذلي، عبد الرؤوف بن علي (ت ١٠٣١هـ) فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.

(٦٩) النظر: محمد أبو زهرة: المجتمع الإنساني، ص ٧٧.

(٧٠) النظر: محمد أبو زهرة: المجتمع الإنساني، ص ٥٦.

(٧١) محمد البهي: منهج القرآن في تطوير المجتمع، دار الفكر، القاهرة، ط الأولى، ١٣٩٣هـ، ص ٧٧.

(٧٢) عن المؤرخة النظر: ابن هشام، أبا محمد عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، بتحقيق مصطفى السقا، وآخرين، مطبعة الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، ج ١/ص ٥٠٤، ٥٠٥، ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري، المعروف بكاتب الواقدي، (ت ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، (د ط) ج ٢/ص ٤٥، البلاذري أحمد بن يحيى بس جابر (ت ٢٧٩هـ) أنساب الأشراف، بتحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، (د ط) ١٩٥٩م، ج ١/ص ٢٧٠.

(٧٣) إبراهيم شعوط، محمود محمد زيادة: الحقبة الثالثة في الإسلام، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٥هـ/١٤٠٥م، ص ٥٩، صالح أحمد العلي: دولة الرسول في لسانه دراسة في تكوينها وتطورها، "سلسلة تاريخ العرب والإسلام"، شركة المطبوعات لتوزيع والنشر، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٤م، ص ٩٠.

(٧٤) الطبقات الكبرى، ج ١/ص ٢٧٠.

(٧٥) سورة الأنفال: آية ٧٥.

(٧٦) سورة الطه: آية ٩.

(٧٧) إبراهيم شعوط، محمود زيادة: الحقبة الثالثة، ٥٩، صالح العلي: دولة الرسول، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٧٨) يتعاقبون، يدعون، السيرة، العفلة، الدية، وعاقبة الرجل، عصيته وهم الأقارب من جهة الأب الذين يشتركون في دفع دية. النظر: المعجم الوسيط، مرجع سابق، ج ٢/ص ٦٣٩.

(٧٩) عليهم، العاني الأسير أي أسروهم. النظر: المعجم الوسيط - ٦٥٧/٢.

(٨٠) مُفَرَّدٌ مُفْرَعٌ من ألقه الدين، ولا يجد قضاءه. النظر: المعجم الوسيط ج ٢/ص ٧٠٤.

(٨١) عقل: دية. النظر: المعجم الوسيط، ج ٢/ص ٦٣٩.

(٨٢) دسيسة: الدسيسة العطية الجزيلة. النظر: المعجم الوسيط، ج ١/ص ٢٩٣.

(٨٣) النظر لنص الصحيحة عند ابن هشام - السيرة النبوية، ج ١/ص ٥٠١، ٥٠٢، أي عبدة الذنوب بس سلام الطبري (ت ٢٢٤هـ) الأموال، بتحقيق محمد حامد الغني، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (د ط) ١٣٥٣هـ، ص ٢٠٢-٢٠٥، وقد جمع محمد حميد الله هذه الملاحظات في كتابه: الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة، (د ط) ١٩٥٦م، ص ١٥.

(٨٤) سورة النساء: آية ٦٥.

(٨٥) عن فتح مكة وما قام به النبي ﷺ من المعو والتسامح. النظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢/ص ٤٠٩، الطبري أبا جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك، تاريخ الطبري، اعتداء أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، (د ط) الأولى، (د ت) نسخة تامة في مجلد واحد، ص ٤٣٢، ابن عبد البر:

يوسف بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ) - الدور في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي حنيف، المجلس الأعلى للثقافة الإسلامية، القاهرة، (د ط) ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص ٢٢٤، ابن الأثير: أبا الحسن علي بن محمد الجوزي الشهائي (ت ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، اعتناء أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ط الأولى (د ت) نسخة تامة في مجلد واحد، ص ٢٥٤.

(٨٦) عن عام الوفود النظر: ابن هشام - السيرة النبوية، ج ٢/ص ٥٦٠، العقري أحمد بن إسحاق بن جعفر ابن رصيح (ت ٢٨٤هـ) - تاريخ العقري، دار صادر، بيروت، (د ط) (د ت)، ج ٢/ص ٧٩.

(٨٧) النظر نص الوثيقة عند أبي يوسف: الخراج، ص ٧٢، ٧٣، ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢/ص ٩٦.

(٨٨) النظر: أبا يوسف: الخراج، ص ٧٣.

(٨٩) راجع وصايا أبي بكر الصديق في هذا الشأن عند: الطبري - تاريخ، ٤٩٤.

(٩٠) وما جاء فيها: «هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصنابهم، وسليمتها وبريئتها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تقدم، ولا يتنصص منها ولا من حيروها، ولا من صليبتهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون عيسى دينهم، ولا يضار أحد منهم» - والدلالة واضحة من خلال النص الذي أثبت الأمان والحماية على الصاري وأموالهم وكنائسهم، وأولادهم - النظر نص عهد الأمان عند: الطبري - تاريخ، ٦٢٩.

(٩١) سورة البقرة: آية ٢٠٨

(٩٢) سورة الأنفال: آية ٦٤

(٩٣) سورة النساء: آية ٩٠

(٩٤) محمد أبو حمزة: المصنف الإنساني...، ص ٩١، ١١٤

(٩٥) عن آداب الحرب عند المسلمين راجع وصايا الخلفاء لنقادة عند: الطبري - تاريخ، ص ٤٩٤، ٦٢٩،

محمد وألف عثمان: الفتن والواجبات، ص ١٩٠ وما بعدها

(٩٦) عن معاهدات قادة الفتح الإسلامي مع أهل البلاد المفتوحة - النظر: الطبري، ج ٤/ص ١٠٩، ١٥٢، ١٥٥، ١٦٢-١٦٣.

(٩٧) فتح البلدان، ج ١/ص ١٦٢.

(٩٨) أبو يوسف: الخراج، ص ١٣٨، ١٣٩، البلاذري - فتوح البلدان، ج ١/ص ١٦٣.

(٩٩) الحديث أخرجه «الطبراني» سليمان بن أحمد بن أيوب النخعي (ت ٣٦٠هـ) - المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد، وزارة الأوقاف، بغداد، ط ٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج ٨/ص ٢٨٠، والمعجم الأوسط، تحقيق: محمود الطحطاوي، مكتبة المعارف، الرياض، ط الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج ١٣/ص ١٠٤، من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ والمقبلي أسير جعفر بن محمد بن عمرو (ت ٣٢٢هـ) - السمعاني الكبير، تحقيق: عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج ٣/ص ٤٨٢، وقال الغني في مجمع الزوائد، ج ٩/ص ٢٦: روى الطبراني وأبو يعلى بسنده وفي إسناده أبي يعلى - عطاء بن مسلم، وولد وثقه ابن حبان، وصحفه غيره، وثقة رجال أبي يعلى ثقات، وفي إسناده الطبراني من لا أعرفهم.

سليمان حزين: مقومات الحضارة الإسلامية، ص ٢٤، ٢٥

مصادر البحث ومراجعته

أولاً المصادر

- ١- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد أبي الكرم الجزري الشيباني (ت ٦٣٠هـ).
- ٢- الكامل في التاريخ، اعتق ٤، أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ط الأولى، (د.ت) نسخة دامة في مجلد واحد.
- ٣- البحاري: الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ).
- ٤- الجامع الصحيح، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (د.ت).
- ٥- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ).
- ٦- أسباب الشرف، ج ١، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، ١٩٥٩م.
- ٧- فروع البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، النهضة المصرية، القاهرة (د.ت).
- ٨- البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ).
- ٩- السنن الكبرى، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- ١٠- الحاكم النيسابوري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حنبل (ت ٤٠٥هـ).
- ١١- المستدرک علی الصحیحین فی حديث، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م مصورة عن طبعة الهند.
- ١٢- ابن حنبل: الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ).
- ١٣- "المند"، تحقيق شعب الأثر، ط ١، ج ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- ١٤- أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ).
- ١٥- "السنن"، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
- ١٦- الزبيدي: أبو الفتح محمد بن محمد المرتضى (ت ١٢٠٥هـ).
- ١٧- تاج العروس من جواهر القاموس - ج ٤ تحقيق: عبد الصميم الطحاوي، ج ٢٥ تحقيق: مصطفى حسناوي، مطبعة حكومة الكويت، وزارة الإرشاد والأباء، الكويت، ط ١٩٦٨م، ١٩٨٧م.
- ١٨- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري "المعروف بكتاب الوائدي" (ت ٢٣٠هـ).
- ١٩- الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت (د.ت).
- ٢٠- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ).
- ٢١- الجامع الصغير في حديث البشر الصغير، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤م.
- ٢٢- الشافعي: إبراهيم بن موسى بن محمد الشافعي القوافي (ت ٢٩٠هـ).
- ٢٣- الوائقات في أصول الأحكام، تعليق: عبدالله درزا، وابه محمد عبدالله درزا، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (د.ت).
- ٢٤- لطيفي: سليمان بن أحمد بن أيوب اللبكي (ت ٣٦٠هـ).
- ٢٥- المعجم الأوسط، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ط الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- ٢٦- المعجم الكبير - تحقيق حمدي عبد المجيد السليبي، وزارة الأوقاف، بغداد، ط ٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- ٢٧- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣٢٠هـ).

- ١٥- تاريخ الرسل والملو٢، اعتناء: أبي صهيب الكرمي، بيت الألكار الدولية، الأردن، الطبعة الأولى، (د ت) «نسخة تامة في مجلد واحد».
- ابن عبد البر: يوسف بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣هـ).
- ١٦- الموز في اختصار المغاري والسور، تحقيق: شوقي ضيف، المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
- أبو عبيد: القاسم بن سلام الطوسي (ت ٢٢٤هـ).
- ١٧- الأموال، تحقيق: محمد حامد الفقي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٥٣هـ.
- البرهاني: الخلفاء أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين (ت ٨٠٦هـ).
- ١٨- «تليق عن جبل الأنصار»، تحقيق: أنور عبد المقصود، مكتبة طويزة، الرياض، ط الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- الطيلي: أبو جعفر محمد بن عمرو (ت ٣٢٢هـ).
- ١٩- «الضماء الكبير» تحقيق: عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ).
- ٢٠- إحياء علوم الدين، للنسفي، طبعه: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (د ت).
- المعروزي: إمامي محمد الدين محمد بن يعقوب القشيري (ت ٨١٧هـ).
- ٢١- القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م «نسخة مصورة عن ط بولاق، القاهرة ١٣٠١هـ».
- ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ).
- ٢٢- عيون الأخبار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
- القرافي: أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن (ت ٦٨٤هـ).
- ٢٣- الفروق، تونس، ١٣٠٢هـ.
- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن فرج المالكي (ت ٤٩٧هـ).
- ٢٤- أفضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار الوحي، حلب، ط ٢، ١٤٠٢هـ.
- ابن حبان: أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ).
- ٢٥- «النس» تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، (د ط) (د ت) «نسخة مصورة عن ط البستاني الحلبي - القاهرة».
- مسلم: الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ).
- ٢٦- إبدع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- الناي: عبد الرؤوف بن علي (ت ١٠٣١هـ).
- ٢٧- فيص القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م «نسخة مصورة عن ط المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦م».
- ابن منظور: أبو الفضل محمد بن الكرم (ت ٧١١هـ).
- ٢٨- لسان العرب تحقيق: محمد الحسيني، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٠٨هـ/ ١٩٩٠م.

- ابن هشام. أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ).
- ٢٩- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الإيادي، وعبد الحفيظ شلبي - مطبعة الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.
- الحلي: أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ).
- ٣٠- كشف المستار عن زوائد السراة على الكتب الستة، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- ٣١- مجمع الزوائد ومسح التوائد، دار الكتب العلمية، بيروت (د ط) (د ت) نسخة مصورة عن ط مكتبة القدسي، القاهرة.
- العلوي: أحمد بن إسحاق بن جعفر «ابن واضح» (ت ٢٨٤هـ).
- ٣٢- تاريخ العقري، دار صادر، بيروت، ١٩٩٠م.
- أبو يوسف القاضي: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري (ت ١٨٢هـ).
- ٣٣- الخراج، دار المعرفة، بيروت (د ط) (د ت).

ثانياً: المراجع العربية والمصرية

- إبراهيم شعوط، محمود محمد زيادة
- ١- سلسلة المثالية في الإسلام، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٥هـ
- سور قوامس آرلوند.
- ٢- الدعوة إلى الإسلام
- ترجمة حسن إبراهيم حسن. وعبد المجيد هادي، و«سماح الجراوي»، النهضة المصرية، القاهرة
- ط ٤، ٢٠٠٦م.
- جابر قمحية
- ٣- المدخل إلى القيم الإسلامية.
- بحث منشور في المؤتمر الذي عقد بالقاهرة بمناسبة القرن الخامس الهجري، بعنوان: دراسات في الحضارة الإسلامية، اللجنة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- جوستاف لوبون.
- ٤- حضارة العرب
- ترجمة: محمد عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (د ت).
- حسن حبشي.
- ٥- الحروب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور.
- ٦- الحركة الصليبية «صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢م.
- سليمان حزين.

٧- مقومات الحضارة الإسلامية ، بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية «التوجيه الاجتماعي في الإسلام» ، مطابع الدجوي ، القاهرة ، ١٣٩١هـ.

سيد قطب.

٨- الإسلام العالمي والإسلام ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٥٠ ، ٢٠١٠م
صالح أحمد العلي.

٩- دولة الرسول في المدينة «دراسة في تكوينها وتنظيمها».

سلسلة تاريخ العرب والإسلام ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠٤م.

عبد العزيز محمد الشناوي.

١٠- أوروبا في مطلع العصور الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م

نولروب ستوراد.

١١- حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة: عجاج بن هيص، وتعليقات الأمير: شكيب أرسلان ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ.

محمد النبي.

١٢- منهج القرآن في تطوير المجتمع ، دار الفكر ، القاهرة : ط١ ، ١٣٩٣هـ.

محمد عبد الله

١٣- الوثائق السياسية للمعهد النبوي والخلافة الراشدة ، القاهرة ، ١٩٥٦م

محمد وأخت عثمان.

١٤- الحقوق والواجبات وعلامات المدنية في الإسلام، دار الصب ، القاهرة (د ت)

محمد أبو زهرة

١٥- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام

بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية «التوجيه الاجتماعي في الإسلام» - مطابع

الدجوي ، القاهرة ، ج٣ ، ١٣٩١هـ.

محمد عبد الله دراز

١٦- مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام، مطبعة الأزهر، القاهرة، ١٩٥٢م

محمد عبدالواحد أحمد.

١٧- القيم الإسلامية.

بحث منشور في المؤتمر الذي عقد بالقاهرة ، بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ، اللجنة المصرية

العامية للكتاب ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

محمد عفتة

١٨- الإسلام مقاصده وعصائمه ، مكتبة الرسالة ، عمان ، ط: الأولى ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

مختار القاضي

١٩- أثر المدينة الإسلامية في الحضارة العربية ، المجلس الأعلى للشتون الإسلامية ، القاهرة (د.ت).

٢٠- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط٣ ، (د ت).

لأبي معروف.

٢١ - أصالة الحاضرة العربية ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٣ ، ١٣٩٥هـ .



ملك حفنى ناصف "باحثة البادية"
ودورها في الحياة الاجتماعية المصرية (١٨٨٦-١٩١٨)
 د. محمد عزيز محمد (*)

إن تاريخ الشخصيات المهمة قديما وحديثا ليس من حق البشرية تجاهلته ؛ لأنه جزء من تاريخ البشرية في المجتمع والعصر الذي عاشت فيه لأن تلك العقريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي ثمرة من ثمار هذا المجتمع (إذ ذلك، فلا يجب أن تغفل الظروف المحيطة بالشخصية ؛ إذ أنها تؤثر في تحديد الشخصية وتشكيلها. ولعل أحد أسباب دراسة شخصية ملك حفنى ناصف "باحثة البادية" هو محاولة توضيح الفكرة التي انطبعت في أذهان الناس عن غموض موقفها تجاه قضية المرأة وحريتها إلى درجة اتهام البعض بأنها كانت ضد تحرير المرأة. وأنها كان لها موقف متشدد تجاه المدنية الغربية وبمهاجمة كل ما هو غربي.

والواقع أنه كلما نجد إنسانا ضاعت حسناته مع سيئاته ولم تأخذ أعماله حقها في الكتابات متلما حدث لملك حفنى ناصف، وبالرغم مما أحيط بها فإننا لا ننكر أنها كانت إحدى رائدات الحركة النسائية في مصر والعالم العربي. فلقد أهتمت ملك بقضية المرأة اهتماما كبيرا وبذلت كل الجهود للدفاع عن حقوقها على عكس اتهامات البعض لها في هذا الشأن. فبعد دراسة واعية واستفراء مستفيض لتاريخ المرأة الطويل، ولمكانة المرأة في الكتاب والسنة، ونقد وتحليل لكل الآراء التي تناولت هذه القضية، وقلت ملك تدافع عن بنات جنسها ووضعت نصب عينيها القرآن والسنة. ولم تكن ملك امرأة عادية تطالب بحقوقها في المجتمع بل أنها رائدة وصاحبة فكر متميز، حيث كان لها القدرة على النقد وقوة الحجة ورؤية سديدة لكل ما تصدت له من قضايا فكرية واجتماعية.

لقد كانت ملك حفنى ناصف مسلمة مؤمنة شديدة التقوى بدينها ومن خلال الدين تكتب وتبحث وهي تستوحى في أدبها السياسي والاجتماعي والخلقى وأنها إذ تدعو المرأة إلى التهوض وفك القيود فهي تريدها أن تفعل ذلك من خلال فهمها لجوهر الدين. وقد دخلت ملك في تفاصيل أدق إذ بحثت في مجال الزينة والأزياء فحددت مايجوز وما لايجوز ارتدائه كذلك لاتبعد الدين عن السلوك اليومي وعلاقة المرأة بزوجها، لذلك اختلطت لديها العاطفة الدينية بالمعاني القومية والاجتماعية.

(*) مدرّس التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب - جامعة سوهاج.

لقد كانت ملك حفنى ناصف ناقدة، فكانت تنتقد كل ماتجده منافيا لمفهومها وذوقها وأن احتكاكها بجميع شرائح المجتمع وخصوصا النسائية منها، جعلها تتحسس في العمق المشاكل التي تبقى في الظل. ولما تطرح للبحث أو تتناولها أقلام الرجال، وهي لاكتفى بدور الناقدة الوافقة بعيدا عن موضوع نقدها بل تتابع الرسالة وتقرح مآثرا مناسبة للإصلاح وتبديل الأوضاع من خلال قلمها. لقد تركز النقد الاجتماعي لملك على أحوال المرأة فنراها تضع قواعد لسلوك الزوجين كما أنها تعدد أسباب التماس الزوجية ووسائل علاجها.

إن ملك حفنى ناصف لم تكن ناقدة فحسب بل إنها كانت مصلحة فهي لم توجه النقد في سبيل ذاته بل إنها تتوخى من وراءه تغيير الأحوال وإصلاح الأمور. إذا فغابتها صريحة وتحاول أن تكون عادلة فهي لا تحيز للمرأة ضد الرجل أو العكس بل إنها تغلب مع الحقيقة ومع الحالة الفضلى التي تسوق إليها من يخاطبهم وقد وجدت في الخطابة والكتابة الوسيلة الفضلى لشرح غايتها ورسم الطريق الجديد. في الواقع أن ملك حاولت أن ترسم معالم الطريق بل أنها سنت شرائع تتألف من عشرة بنود تضم في مجملها إصلاحات تربوية إذ أنها كانت مؤمنة بأن الأساس الصحيح يكمن في نواة التربية الصحيحة وتطلق منه القاعدة التربوية فيما بعد. لتحدد أكثر احتياجاتها للإصلاح.

لا عجب بالتالى عندما اتجهت ملك حفنى ناصف بأفكارها هذه، داعية إلى الإصلاح وتحسين أوضاع المرأة والعائلة. وعلى الرغم مما قيل عنها في هذا الشأن فقد كانت الأجواء معدة بفضل مصلح رائد مهد للنهضة بكتابه الجري " تحرير المرأة " ثم أمسك بيدها ووقف في صفها فينصرها وهو يتطلع إلى نقد ويتأمل صورة المجتمع الجديد الذى يدين له بالكثير إنه " قاسم أمين " ذلك الرجل الذى كان سباقا في كل ما قال وكل ما كتب. وتلتقى معه باهة البداية في الكثير من أفكارها وآرائها خصوصا بوجوب إصلاح المرأة وفتح أبواب التعظيم أمامها وجعل التربية متوفرة لها كما يتفق المصلحان الرائدان في أرائهما حول تحسين شئون العائلة والأحوال الزوجية.

في هذا الجو وتلك الظروف نشأت ملك حفنى ناصف متأثرة بظروف العصر الذى عاشت فيه وأحواله لتؤثر في ذلك المجتمع بأفكارها ومبادئها التى اتسمت بالعقل والبراعة بما يتفق مع ظروف ذلك المجتمع وطبيعته.

المولد والنشأة :

ولدت ملك حفنى ناصف (١) بحي الجمالية بالقاهرة في ٢٥ ديسمبر عام ١٨٨٦م. (٢) وملك هي ابنة الأديب والعالم اللغوى حفنى بك ناصف، يقال إن ولادة ملك صادفت يوم زواج الأمير حسين كامل (٣). وكانت عروسه تدعى الأميرة ملك، لذلك سميت ملك بهذا الاسم الذى شاع في ذلك الحين (٤).

كان حفنى ناصف (١٨٥٥ - ١٩١٩م) أديبا وشاعرا تلتزم على يد جمال الدين الأفغانى وصاحب الشيخ محمد عبده (٥) وقاسم أمين. وكان حفنى ناصف من محرري صحيفة الوقائع المصرية، كما كان يكتب في الأهرام والطنائف والجوانب

المصرية وغيرها من صحف هذا الزمان. وقد اشتغل حفنى ناصف بالقضايا الوطنية والاجتماعية، بجانب تخصصه الأساسى فى علوم اللغة وكان حفنى ناصف أستاذاً لجبل من المفكرين البارزين. وقد تخرج من مدرسة الأزهر، وعمل مدرساً فى مدرسة العبيان والخرس، ثم انتدب للتدريس فى مدرسة الحقوق، ثم عين قاضياً، ثم مفتشاً للتعليم، وشارك فى تأسيس الكثير من الهيئات العلمية، وكان حفنى ناصف من مؤسسى الجامعة المصرية. وهو جزء من النخبة الفكرية التى حركت الحياة الاجتماعية فى أواخر القرن التاسع عشر، ودعت إلى الإصلاح، كان حفنى ناصف من المهتمين البارزين بقضايا المرأة كمدخل رئيسى للإصلاح، الأمر الذى نلمسه فى حياته الشخصية وعلاقاته بأبنائه وبنتاته، كما نلمسه فى حياته العامة. وفى خطبة له فى مدرسة للبنات قال "إن الله تعالى لما أوجد العالم جعل من كل شيء زوجين اثنين، وأوجد من كل نوع شكلين ليتم بذلك كمال الإبداع، ويحصل ما أراده الله سبحانه وتعالى من بقاء تلك الأنواع. والشريعة المقدسة إذ حثت على الاعتناء بشأن النساء، إلا أننا نرى أكثر الشرقيين متساهلين فى أمرهن صفحاً عن تربيتهن وتهذيبهن ويقول "الإحسان يتربى فى ثلاث من المدارس مقاليات مدرسة الأمهات، مدارس الفنون والمهن ثم مدرسة الزمان، وأمسس هذه المدارس مدرسة الأمهات.. فنبغى تهذيبهن ليترشح الأبناء إلى إصلاح المعاش والمعاد وينهجوا من أول أمرهم مناهج الرشاد، وهذا هو سبب تأخر أبنائنا الشرقيين وتقدم أمثالهم من الغربيين". أما أم ملك فهى مبنية عيد الكريم جلال (١٨٦٩-١٩٤٢م) وكانت حسب رواية ابنتها كوكب متعلمة، ليس تعظيماً رسمياً لكنها تلقت فى بيتها ككثير من فتيات هذا العهد الثلاثى كن يتعلمن القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم على أبوى معلمات فى المنازل. وكانت ملك هى الأخت الكبرى لسبع من البنات والبنين، البنات هن - بعد ملك - حنيفة (١٨٩٨-١٩٧٣م) وكوكب (١٩٠٥-١٩٦٥) والأولاد هم جلال الدين (١٨٨٩-١٩٦٠م) ومجد الدين (١٨٩١-١٩٧٨م) وعصام الدين (١٩٠٠-١٩٧٠م) وصلاح الدين (١٩٠٤-١٩٧٧م). وقد عمل جلال الدين محامياً ثم قاضياً، وكان مجد الدين أستاذاً بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول، وعمل فى المجلس الأعلى للآداب والفنون، وعملت حنيفة بالتدريس وتدرجت فى الوظائف إلى أن أصبحت مفتشة فى وزارة التعليم، ودرس عصام الدين الزراعة فى ألمانيا وعمل مدرساً وله مؤلفات عن تاريخ الأديان، وعمل صلاح الدين وكيلاً لوزارة الصحة. وسافرت كوكب عام ١٩٢٢م فى أول بعثة للبنات لدراسة الطب فى إنجلترا وعادت بعد عشر سنوات وأصبحت مديرة لإحدى المستشفيات^(١).

وهكذا نجد أن ملك حفنى ناصف قد نشأت فى منزل لها فيه - غير أبيها وأُمها - ستة من الإخوة بينهم أختان كلهم يصغرونها، وكانت أمهم مريضة معزلة، أغلب الوقت وأبوهم دائب العمل، فأحصت ملك نحوهم جميعاً بمسئولية كبيرة ومبكرة. فلم تكن ملك فحسب أختاً كبرى لأشقائنا الستة، بل كانت واقعية وفى ظل مرض الأم واعتزالها

والتفغال الأب الدائم كما يقول شقيقها مجد الدين تمارس دور الأم لأشقائها الذين كانت ملك تكبرهم بما يتراوح بين ثلاث سنوات لأكبرهم وتسعة عشر عاماً لأصغرهم (١٠).

من ناحية أخرى فقد أثر وجود ملك في هذا المنزل المؤمن بقضية العلم بشكل أصيل على طبيعة فكرها وعلى موقفها من الحياة، حيث كانت الفتيات في بيت حفنى ناصف على قدم المساواة مع أشقائهم من الذكور في سلوك شتى مسائل المعرفة، وهو موقف لم يتخذه الأب نتيجة للتأثر بأفكار مستوردة، بقدر ما اتخذته لكونه في ذاته رجل علم، مؤمناً بالإصلاح القائم على احترام الذات والأصول. من هنا سنلمس فيما بعد، كيف كان الموقف الفكرى لملك حفنى ناصف في التعامل مع الغرب موقف يتميز بقدر كبير من الثقة بالذات والافتتاح والحوار البعيد عن الذوبان في الآخر. ومن هنا أثر ذلك على تعليمها. فبدأت ملك تعليمها في المرحلة الابتدائية في المدرسة السنوية (١١). وكان التعليم فيها في كل المواد باللغة الفرنسية. وكانت ملك حفنى ناصف من خريجات الدفعة الأولى، وحصلت على الشهادة الابتدائية من تلك المدرسة عام ١٩٠٠ م (١٢). ثم التحقت ملك بعد ذلك بقسم المعطيات السنوية، الذي تحول التعليم فيه جميعاً إلى اللغة الإنجليزية. وتفوقت ملك في هذه المرحلة الدراسية لتحصل في نهايتها على شهادة الدبلوم من المعطيات السنوية عام ١٩٠٢ م (١٣). وقد تسلمت ملك هذه الشهادة عام ١٩٠٥، حيث إن نظام وزارة المعارف العثمانية آنذاك "التربية والتعليم حديثاً" كان ينص على أن لا تسلم شهادة الدبلوم هذه إلا من أمضى في التمرين على التدريس مئتين كاملتين، لتصل ملك في ذات المدرسة في نفس العام، وهي لم تتعد الخامسة عشر من عمرها. (١٤)

كان من المدرسين الذين تلقت ملك تعليمها على أيديهم، وذاع صيتهم بعد ذلك، "حسن صبرى" الذى أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد، والشيخ "أحمد إبراهيم" الذى أصبح فيما بعد أستاذاً للشرعية بكلية الحقوق، ومن الأجانب كانت مس كارتير، عميد مفتشات اللغة الإنجليزية فيما بعد. ولقد درست ملك وتعلمت اللغات الثلاث (العربية - الإنجليزية - الفرنسية). وكانت تستعين في دراساتها العربية بوالدها حفنى ناصف، وفي دراساتها الإنجليزية بأدبية إنجليزية من سيدات التربية تدعى مس جونسون، أما دراساتها الفرنسية فقد استعانت ملك بسيدة فرنسية تزوجت بمحام إنجليزى في المحاكم المختلطة بالقاهرة، عرفت بمسز ديغونشير. وكانت ملك في مراحل تعليمها لتلك اللغات الثلاث تفتنى أمهات الكتب وأكثرها ثراء لتقوم بقراءتها وتفحصها حتى تتقن تلك اللغات. (١٥)

بدأت ملك جهادها المبكر في بيت أبيها الصغير، وكانت تكرر أجازتها الصيفية لإعادة تنظيم البيت والقيام بكل ما يلزمه من حياكة وترتيب حتى تسافر على أبيها، وكذلك إكمال ما ينقص من أدوات وإعداد ملابس العام لوالديها وإخواتها ومن يعملون بالمنزل. كانت ملك تعلم إخواتها دون أن تشعرهم فتلقى عليهم في شكل حكايات ما كان يدور حولها في المدرسة وما تصيبه من ألوان المعرفة، وتناولهم الكتب ليراجعوا عليها

ما حفظته منها، ثم تحاول أن تثير بينهم المنافسة فيمن يحفظ الشعر منهم أو تنظيره فوسعت مداركهم. وكانت إذا غابت دأمة الاتصال بهم عن طريق المراسلة والتليفون فيما بعد، فكانت ملك تبيت أبيها وأخواتها خير صديق وخير معين، وكانوا يحبونها كصديقة، فكان أصحابهم يرونهم يكون طويلا، عقب قراقها ويتهللون لحضورها. وكان من أحسن صفات ملك الحنان، فإنها كانت تحب والدها لدرجة التضحية، فكان إذا مرض مرضت له وإذا سافر قامت مقامه. (١٢) هذا الدور الرعوى، كانت ملك تمارسه في دوائر أوسع من أسرتها ومن أجل إصرار ملك في القضاء على العادات والتقاليد الجامدة التي حرمت شهادات من التعليم، كانت ملك تزور بيوت أصحابها ومعارفها، وما تزال بهن حتى ترسلن بناتهن إلى المدرسة الستية، على أن ترعى ملك أولئك الصغيرات رعاية خاصة. وبذلك دخل هذه المدرسة في عهد ملك كثرات ممن كانوا أهلهم يفرقون في البيت، أو يؤثرون إرسالهن إلى المدارس الأجنبية، التي كانت إذ ذاك لا تلقن التلميذات شيئا من لغة البلاد أو تاريخها أو قوميتها أو دينها فينشأ نشأة أجنبية بحتة.

كان تعلم البنات في عهدها موضع التعبير الجائر من السواد الأعظم من الناس، إلا أن ملك كانت تقرأ عن مشاهير النساء في الإسلام، وكذلك في المراجع التي كانت تطلبها من أبيها، للاستزادة من دروس هذه البطولات مع البطولات النسائية المماثلة في الأدب الغربي، فشعرت ملك أن عليها أن تعد نفسها لرسالة جليلة، وهي محاربة العادات والتقاليد الظالمة التي تحط من شأن المرأة، وأن تقوم بالعلم والإصلاح منارة للمرأة المصرية والعربية المسلمة لتنفذ عنها غبار الجهل والتخلف (١٣).

وعندما نجحت ملك في الشهادات الدراسية، عملت في القسم العالي الذي تخرجت فيه، ونظمت في صغرها شعرا نشرته الجرائد، لتستجيع الآباء. فلقد كان لشخصيتها العظيمة التي ميزتها كأم ومعونة بين أخواتها وبين تلميذاتها، أثره في أن تكتسب ملك يوما بعد يوم مزيدا من الحب والثقة، حتى أن ارتباط بعض التلميذات بالمدرسة كان كأنه ارتباط بها نفسها للدرجة التي دفعت بعضا من الطالبات بلغ عددهن نحو ٧٥ خمس وسبعين "طالبة"، إلى ترك المدرسة عندما تركتها ملك عقب زواجها عام ١٩٠٧م من عبدالمنار الهاسل الذي رفض استمرارها في العمل وأن ترحل معه إلى الفيوم (١٤).

وعندما تزوجت ملك حفنى ناصف (١٥)، وانتقلت إلى قصر الهاسل بالفيوم، تجولت بين الأعراب وجدتهم في حالة بدائية لا يعرفون العلم ولا النظافة ولا الصحة، ولا الإنسانية، إلا بالسماع، ولمست فيهم البؤس والفساد والرجعية، كما لمست عظم تأخر المرأة وظلم الرجل وأنانيته، ولم يكن أمامها إلا أن تختار أحد أمرين إما اليأس والقعود والاستسلام، وإما الأمل والنهوض والكفاح، فأختارت الأمر الثاني، وارتضت التضحية الكاملة كشأن الأحرار من أصحاب المبادئ والأفكار. واضطرت ملك بعد ذلك إلى إرسال بنوهم وبناتهم إلى بعض مدارس الفيوم والقاهرة وإلى إعطاء المتخلفين منهم الفرصة

فى مكتب بالقريّة وفى عفايتها بصحبتهن وملبسهن وتغذيتهن، ورفع مستواهن بما كانت تقوم به شخصياً دون عون^(١٧).

وقد أسست ملك حفنى ناصف، اتحاد النساء التهنيدى، وكان يضم كثيراً من السيدات من مصر والبلاد العربية الأخرى، وكذلك بعض الأجنبية، وكان هذا الاتحاد مصدر توجيه للسيدات والفتيات ومركز إشعاع لهن. كما أسست ملك حفنى ناصف جمعية للتمريض على غرار الصليب الأحمر (تأسس الهلال الأحمر بعد ذلك بقليل) لإرسال الأدوية والأغذية والملابس والأغذية إلى الجهات المنكوبة بمصر، وإلى البلاد العربية كلما دعت الحاجة إلى ذلك. وعلى أثر الاحتلال الإيطالى لليبيا عام ١٩١١م، زاد نشاط هذه الجمعية، نتيجة للمجازر التى ارتكبتها الاحتلال الإيطالى، ضد أهالى طرابلس الغرب، واشتد بهؤلاء الأهالى الحاجة إلى المؤن والذخ، حيث جمعت ملك حفنى كثيراً من التبرعات لمنكوبى طرابلس^(١٨). ويذكر فى هذا الصدد أن ملك حفنى ناصف قد خاطت ببديها مائة بدلة للجرحى هناك فى ليبيا، فلما سللت عن ذلك، ولماذا لا تؤجر من يخط تلك الملابس، أجابت "بحسن أن نخص ببعض التعب ليزداد شعورنا بالواجب تجاه أهائنا فى طرابلس الغرب"^(١٩). أيضاً أسست ملك حفنى ناصف، مدرسة حديثة لتعليم السيدات مهنة التمريض، ولقد أنشأت ملك هذه المدرسة فى منزلها، الكائن حينئذ فى شارع أفراح الأتجال بالمنيرة، وعلى حسابها الخاص، بما فى ذلك الأدوات الضرورية، ومكافآت المدرسات والعاملات. وكانت ملك فى هذه الجمعيات تيسر رئاستها إلى غيرها كحرم على باشا شرأوى لتبذل نفسها عن المقابلة وتقفرغ للعمل التطوعى فى المجالات الأخرى^(٢٠). كما وضعت ملك حفنى ناصف برنامجاً لمشغل للفتيات، وملجأ للمعوزات بالفقير، وكانت ملك حفنى ناصف تملك خمسة وثلاثين فدانا بالفقير، اشترتها بحرمالها الذى أضرته، مما أخذته من والدها، ومن بيع الجواهر التى أهدتها إليها بعض الأميرات والمصريات الكبيرات. وقررت ملك أن تهب هذه المساحة من الأرض للمشغل والملجأ معاً. وقد آثر نصف هذه الأرض مع كل ما تبقى لديها من مصوغات إلى زوجها عبد الستار الباسل الذى كان يملك وحده ألفين من الأقدنة. وإذا كانت ملك حفنى ناصف قد حققت كثيراً من أهدافها وطموحاتها فإنها لم تستكمل تحقيق هدفها وطموحها فى استكمال إنشاء ذلك المشغل والملجأ، لأن الموت دهمها وهى فى ربيع شبابها فى الثانية والثلاثين من عمرها^(٢١).

تعد ملك حفنى ناصف، بحق واضعة الحجر الأساسى للتهضة النسائية فى مصر، وقد استفادت من الجهود التى بذلها رواد تحرير المرأة من الرجال المدافعين عن المرأة وفى مقدمتهم قاسم أمين، كما كانت ملك حفنى ناصف من أشهر خطيبات ذلك الزمن، حيث نجحت ملك فى تجميع النساء حولها، وخطبت لسيهن لتسويتهن، وحشهن على المطالبة بحقوقهن، وكانت ملك تنادى بالتعليم الإلزامى فى المرحلة الأولى، وفتح آفاق العلم أمام الفتاة ومساواتها بالفتى، كما كانت ملك تناشد الرجال أن يعرفوا عن الأساليب

الرجعية والتزمت في معاملة نسائهم، حتى يستطعن تنشئة الأجيال الجديدة على الحرية والمساواة فيما بينهم^(٢٢).

ولقد كان ارتباط زوجها بحزب الأمة - حيث كان أحد مؤسسيه - قد أتاح لها ذلك فرصة استخدام نادى الحزب، حيث بدأت أولى محاضراتها عام ١٩٠٩م فيما يعتبر أحد أكبر التجمعات الجماهيرية للنساء في ذلك الوقت، إذ كانت مئات السيدات يتواجدن فى النادى لسماع خطبتها^(٢٣). وفى عام ١٩١١م، عندما دعى محمد سعيد باشا - رئيس النظار حينئذ - إلى عقد المؤتمر المصرى الأول^(٢٤)، بحضور جميع طوائف القطر المصرى، لبحث مختلف الإصلاحات والتوجيهات، التى يجدر بالأمة والحكومة انتهاجها، وكان هذا فى واقع الأمر، أول برلمان مصرى، يمثل الأمة تمثيلاً حقيقياً، ويبحث حاجاتها بحثاً مدروساً مفصلاً شاملاً لكافة الأمور والإحصاءات. اختيرت حينئذ روكسى بمصر الجديدة مقراً لعقد هذا المؤتمر، ولم يكن هناك تمثيل للمرأة، لذا بادرت ملك حفنى ناصف، بتقديم خطبة للمؤتمر بخوان " التقدم للمرأة المصرية، متضمنة برنامجاً لإصلاح حال الأمة حيث قالت " لو كان لى حق التشريع لأصدرت اللاحة الآتية"^(٢٥).

المادة الأولى : حق البنات فى تعليم الدين والقرآن والسنة النبوية الشريفة.
المادة الثانية: جعل التعليم الابتدائى إلزامياً للبنات والسماح لهن بالتعليم الثانوى.

المادة الثالثة : تعليم البنات التدبير المنزلى علماً وعملاً وقانون الصحة وتربية الأطفال والامعافات الوقتية

المادة الرابعة: تخصيص عدد من البنات لتعليم الطب بأكمله، وكذلك فن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء وحاجاتهن.

المادة الخامسة :إطلاق الحرية فى تعليم العلوم العالية لمن تريد منهن.
المادة السادسة: تعويد البنات من صغرهن الصديق فى القول، والجهد فى العمل، وغير ذلك من الفضائل.

المادة السابعة : اتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة، فلا يتزوج إثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم.

المادة الثامنة : اتباع عادة نساء الأتراك بالآستانة فى الحجاب والخروج.

المادة التاسعة : ضرورة حماية مصالح الوطن.

المادة العاشرة : على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا.

وتجدر الإشارة إلى أن مطالب ملك هذه، كانت فى الحقيقة تعبيراً عن الأفكار التى حوتها الصحافة النسائية، على مدى عقدين من الزمان. وقد تمت مناقشة هذه المطالب فى اليوم الأخير من انعقاد هذا المؤتمر.^(٢٦)

وقد أثار خطاب ملك هذا، ردود فعل في المجتمع المصري، فقد تناولته الكتاب بالشرح والنقد والتحليل، وقررت بعض فقراته في مادة النصوص الأدبية بالمدارس الثانوية^(٢٧).

على أية حال فإننا نلاحظ في خطاب ملك حفنى ناصف، أنها قد نهجت نهجاً ذا صبغة اجتماعية أساساً في الإصلاح، ولمست قضايا تتعلق بمسائل الهوية فيما يتعلق بالتفاعل بين المجتمع والثقافة الوطنية والوافدة والمواطنة (فيما يتعلق بحقوق المرأة في التعليم والعمل)، وإعادة ترتيب علاقات السلطة داخل العائلات. وقد بدأ ذلك واضحاً في مقالاتها التي نشرت في الجريدة تحت اسم " النسائيات " أو في البرنامج الذى وضعته لإصلاح حال المرأة وأعلنته أمام مؤتمر عام متضمناً فيما تضمن تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى، وجعل التعليم الابتدائى إجبارياً فى كل الطبقات، وتخصيص عدد من البنات لتعليم الطب، والحث على أن تذهب النساء سواء فى المدن أو فى القرى لحضور الصلاة وسماع الوعاظ، وأن يضمن للمرأة حرية التصرف بالمال، وحرية الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان، وأن يكفل لها حرية الرأى وحرية التعبير. كذلك كانت ملك على وعى بطبيعة السلطة وعلاقتها داخل المنزل وخارجه، فدعت الآباء والأزواج لنبذ الاستبداد، حتى تنشأ الأجيال الجديدة محبة للاستقلال والدستور على حد تعبيرها. بل إنها فى دعوتها لقضايا اجتماعية، مثل العزوف عن التقاليد الغربية فى البيوت، وتوجيه المصريين إلى الاقتران بالمصريات لا بالأجنبيات، أشارت إلى أن هذا فى حد ذاته نوع من كبح طغيان المد الاستعماري من أن ينتشر داخل البيوت ومن ثم داخل الأمة ككل ورغم أن ملك عاشت وعاشت فترة المد الوطنى فى بداية القرن العشرين وعاصرت مصطفى كامل مثل هدى شعراوى، إلا أننا نلاحظ فى كتاباتها عزوفاً عن الخوض فى تفاصيل الحالة السياسية بمفرداتها التقليدية (الأحزاب - الانتخابات)، فقط كانت دعوتها العامة نحو المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغرب بقدر الإمكان.

وقد أكد هذا شقيقها مجد الدين حفنى ناصف حيث قال " وهى أصلاً لا تكتب فى السياسة ولا فى الحماسة، ولكن قلمها كلما دعى إليهما يلبى فى قوة وإقدام "^(٢٨). فعندما حاولت سلطات الاحتلال الإنجليزى، ضرب الوحدة الوطنية المصرية، بإشعال الخلاف بين المسلمين والأقباط، باختيار بطرس غالى باشا رئيساً للحكومة المصرية^(٢٩)، قابلت الصحف المصرية ذلك بمعارضة شديدة، مما دفع سلطات الاحتلال إلى إعادة العمل "بقانون المطبوعات"^(٣٠) لفرض الرقابة على الصحف "وردد الجرائد التى تجاوزت الحدود" كما يدعون، فقامت ثورة احتجاج على إعادة العمل بهذا القانون، شاركت فيها المرأة المصرية بكتاباتها فى الصحف والمجلات، وكان فى مقدمة هؤلاء ملك حفنى ناصف، حيث عارضت ملك هذا القانون. وقد أوضحت ملك أنه إذا كان هدف الحكومة معاقبة الصحفيين "المتهورين"، فإن فى قانون العقوبات ما يكفى من مواد تعطى للحكومة الحق فى معاقبة الصحف "المتهورة" ورأت ملك أن عدم استعمال الحكومة "حينئذ" لهذا

القانون أدى إلى فوضى الصحافة وأنه مع مرور الوقت اعتقدت -أى الصحافة - أنها فوق القانون. ونتيجة لتنفيذ قانون المطبوعات أعلنت ملك أستياءها من هذا القانون، حيث رأت فيه ملك قتل لحرية التعبير عن الرأى. ثم طالبت ملك بإلغاء ذلك القانون. وقد نشرت ملك قصيدة تهاجم فيها هذا القانون جاء فى بعض أبياتها : (٢١)

ستسلبون غداً أغلى نفائسكم حرية ضاع فى تحصيلها العمر
حرية طالما منوا بها كذباً على بنى النيل فى الآفاق واقتخروا
أتصبرون وهذه بدء بطشهم وأول الغيث قطر ثم ينهمر

عدا ذلك لا نجد تفسيراً دقيقاً لهذا الموقف، الذى انتهجته ملك حفنى ناصف، فى عزوفها عن الخوض فى قضايا من قبيل حقوق المرأة السياسية بشكل مفصل. وربما تجدر الإشارة هنا إلى ما أورده مجد الدين حفنى ناصف فى طبعة عام ١٩٦٢م من كتاب " آثار باحثة البادية " من أن الشيخ أحمد السكندرى فى كتابه " الوسيط فى الأدب العربى " حيث قال " إنها بدأت تضع كتاباً فى حقوق المرأة، أنجزت منه ثلاثة مقالات، الأولى فى المقارنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة الغربية والثانية فى حقوق المرأة المالية ، والثالثة فى حقوق المرأة السياسية خاصة فيما يتعلق بحقوقها الانتخابية. والحق أن مجد الدين حفنى ناصف لم يذكر أنه عثر على مخطوطة هذا الكتاب، ولم يعلق على ما نقله عن الشيخ " أحمد السكندرى " فى هذا الشأن. لكن إذا صح هذا الأمر، فإن ملك كانت على وشك الخوض فى قضايا أكثر تفصيلاً، فيما يتعلق بحقوق المرأة الاقتصادية والسياسية مثل حق الانتخاب وتولى الوظائف العامة، ولكن القدر لم يمهلها. (٢٢)

ملك حفنى ناصف فى الحائز الدولية :

كانت ملك حفنى ناصف تمتاز بثقافتها العربية العريضة، وإجادتها فى الوقت ذاته اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وسعة اطلاعها على كثير مما كتب فى الموضوعات الاجتماعية (٢٣)، لذلك لم تقتصر جهودها فى الدفاع عن قضايا المرأة على الصعيد المحلى، بل إنها بذلت جهوداً مضنية فى سبيل إعلاء شأن المرأة العربية والمسلمة لترفع من قدرها بين مختلف دول العالم فقد راسلت ملك حفنى ناصف أميرة " بهوبال " المسلمة بالهند وهى سيدة كانت لها رؤيتها الإصلاحية الواضحة المرتكزة إلى أسس إسلامية والتى لمسها أحد المسئولين الإنجليز. وهو السير ريتشارد وود وضمنها فى تقرير رسمى نشرته الحكومة الإنجليزية. وقد قدمت ملك لها المشاريع لرفع مستوى المرأة هناك، مبتدئة بتعليم الفتيات المسلمات. وكانت ملك تنوى السفر إلى الهند للإشراف على تنفيذ ذلك المشروع ولكن المنية عاجلتها. كذلك راسلت ملك حفنى ناصف السيدة " خالدة أديب " التركية التى أصبحت فيما بعد أول وزيرة فى البلاد الإسلامية الحديثة، إذ اختارها كمال أتاتورك وزيرة للمعارف العمومية " التربية والتعليم الآن " فى أول وزارة شكلها أتاتورك. وعلى أثر إعلان الدستور العثمانى وعزل السلطان عبد الحميد، قامت ملك بزيارة تركيا لتلتقى بخالدة أديب فى أسطنبول، وتباحثت وإياها فى سبل رفع شأن المرأة المسلمة وعن طريقها نشرت ملك حفنى ناصف سلسلة من

المقالات في هذا الشأن في جريدة "جون تورك" تركيا الفتاة". أيضا أضافت ملك حفنى ناصف الكاتبة الإنجليزية مسز "شارلوت كمرون" وتباحثا معا في سبيل رفع شأن المرأة. وبعد هذه المباحثات قامت تلك الكاتبة بتأليف كتابها "شتاء امرأة في إفريقيا" *Awoman's Winter in Africa* وخصصت تلك الكاتبة فصلا بعنوان "قناة السويس" دافعت فيه عن المرأة المسلمة، كما أوضحت لها ملك حفنى ناصف في مباحثاتها معها. وقد أعجبت تلك السيدة الإنجليزية ببلاغة ملك حفنى وفصاحتها وسعة اطلاعها وثقافتها المتنوعة، فقالت عنها في كتابها المشار إليه "إنها لتناقشك في فلسفة دارون وسبنسر بشكل يدعو إلى الإعجاب" وظلت علاقة ملك حفنى ناصف بمسز شارلوت كمرون فيما بعد بالمراسلة. (٣٤) كما استضافت ملك حفنى ناصف الكاتبة الأمريكية "اليزابيث كوبر"، بعد زيارتها لمصر وفي مقابلة ملك لها تباحثا في شئون المرأة وسبل رفع شأنها وقدرها، وقد شجعتها ملك على تأليف كتاب أسمته "المرأة المصرية" *The Egyptian Woman* أهدته إلى ملك ونشرته في أمريكا وإنجلترا، وسائر البلاد التي تتحدث بالإنجليزية. وظلت ملك حفنى تبذل جهودها في هذا السبيل لصالح المرأة المصرية والعربية المسلمة حتى أصبحت ملك معروفة في الصحافة الأمريكية. (٣٥) كما التقت ملك حفنى ناصف بالسيدة "ديفو نشير" الفرنسية التي كانت متزوجة من محامى مصرى يعمل لدى المحاكم المختلطة بالقاهرة. وبعد وفاته انتقلت هذه السيدة الفرنسية إلى العمل في إحدى شركات السياحة الكبرى، وفي مقابلتها لملك حفنى تباحثا في شئون المرأة والوسائل التي يجب اتباعها للاهتمام بالمرأة وإعلاء قدرها. وكانت ملك شغوفة بأدبها الفرنسى وثقافتها العالية، وعن طريقها تعرفت ملك على السائحات الأجنيات النابهات، حيث كانت ملك حفنى ناصف تدعوهن وتمحو ما في ذهنهن من تشويش في عقولهن ضد المرأة الشرقية بصفة عامة. وكانت كثيرات من أولئك يكتبن عن ملك في بلادهن الكثير من المقالات، وألقين هناك المحاضرات عن ملك كنموذج للمرأة المصرية المثقفة الواعية المجاهدة في سبيل رفعة شأن المرأة العربية والمسلمة.

ويذكر في هذا الصدد، أن ملك حفنى ناصف وهى فى قمة توهجها الأدبى ونشاطها فى المحافل الدولية، يحاول حمد الباسل (٣٦) شقيق زوجها منعها من الكتابة، ونشرها مقالاتها، وأشعارها فى الصحف، بحجة أنه يخشى عليها من الغزل، ولكنها تنفيذا لما قالته "عاهدت نفسى على الأخذ بيد المرأة المصرية، ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد، وإن كان تنفيذه شاقا". لذلك أخذت ملك تكتب تحت اسمها المستعار وهو "باحثة البادية".

ملك حفنى ناصف وتحرير المرأة :

لقد اتسمت خطوات ملك من أجل إصلاح أحوال المرأة وإعطائها مزيداً من الحرية، بالهدوء الفكرى، والاستناد إلى المنطق والعقل فى آرائها مع شىء من التحفظ فى منح الحرية للمرأة، إلى درجة أن بعض المفكرين قد اتهمها بأنها ضد حرية المرأة

(٢٧). وذلك لأن العاطفة الدينية كانت مختلطة عندها بالمعاني القومية والاجتماعية، فدائماً ما كانت تربط آرائها الإصلاحية، بالنواحي الدينية، مما دفع البعض إلى القول " أنه لا ينقصها سوى العمة لتصبح شيخاً، وأنها حيث تكتب لا تفارقها آثار الدين ونزعات الوطنية، والشرقية، والعروبة " (٢٨).

لقد كانت ملك تنادى باتباع الوسطية في التعامل مع حقوق المرأة وحريتها. وكانت من المنادين أيضاً بمنح الحرية للمرأة تدريجياً حتى لا ينهار السلم الاجتماعي، ويواجه ذلك الإصلاح بالمقاومة الشديدة في مجتمع شرقي محافظ، فيحدث ما لا تحمد عقباه. وهذا كان واضحاً في مواقف ملك في قضايا تحرير المرأة مثل موقفها من الحجاب والسفور، وموقفها من الحضارة الغربية. ولكن ملك كانت أكثر وضوحاً ودفاعاً عن حق المرأة في قضايا العمل والتصدي لاستبداد الرجل وعنفه ضد المرأة.

موقف ملك حفني ناصف من انحطاط شأن المرأة في المجتمع وأسباب ذلك :

لم تكتف ملك حفني ناصف بالدفاع عن قضية تعليم المرأة بل أنها كانت رائدة ضمن رواد وقادة حركة الإصلاح الاجتماعي وصاحبة برنامج خاص حيث حملت كل كتاباتها موجة عارمة من الانتقادات لما كانت تراه من مفساد في مجتمعها وخاصة أنها كانت ترى أن المرأة جاهلة خاملة وحياتها منصرفة إلى الأمور السطحية والاسراف في المظهر دون الاشتراك الفعال في النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في المجتمع. كما أنها رأت أن رجال من جانبهم لا يحترمون المرأة ويعاملونها بأنانية وتسلط وتحمل ملك الرجال تبعات أعمالهم وأفعالهم.

وقد أرجعت ملك أسباب انحطاط شأن المرأة في المجتمع إلى : -

١- تسلط الرجل وازدواجيته :-

أرجعت ملك حفني ناصف أسباب انحطاط شأن المرأة المصرية والعربية، إلى مدى تسلط الرجل بالمرأة فتقول " إننا معشر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا، واستبداده يأمر وينهى... إذا أمرنا الرجل أن نحتجب أحتجبنا، وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا، وإذا أراد تعليمنا تعظنا، فويل هو حسن النية في كل ما يطلب منا ولأجلنا، أم هو يريد بنا شراً... على الرجل أن يدعنا نمحص آراءه، ونختار أرشدها، ولا يستبد في تحريرنا " كما استبد في " استعبادنا " إننا سئمنا استبداده، إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس، وإنما نخاف عينيه ولسانه " (٢٩).

دأبت ملك على توجيه سهام نقدها للرجال والنفاق الاجتماعي الذي يمارسونه ضد المرأة بتمييزهم بين المرأة الوطنية والمرأة الأجنبية، وإدعاءات التمدن التي يروجونها ولا ينفذونها (٣٠). وتهاجم ملك حفني ناصف ازدواجية الرجل الشرقي في تعامله مع المرأة الشرقية من ناحية والمرأة الغربية من ناحية أخرى، فتري أن أغلب رجالنا الذين زاروا البلاد المتقدمة، رأوا كيف يحترم الرجل الأوروبي زوجته.. فعادوا ينادون بوجوب تعليم المرأة، ويصرحون بأنهم من أنصارها. ولكن لا يلبث أن يذهب

كلامهم في الهواء لأنهم إذا اجتمعوا بساحة أفريقية أو امرأة غريبة، تطلقوا لها كثيراً، فساعدوها في النزول من عربتها، وأمسكوا لها حقيبتها، ورفعوا لها الطرابيش إجلالاً لها. في حين أن أحدهم يستنكف أن يركب مع امرأته في عربة واحدة إذا سافرت أو انتقلت إلى مكان آخر تركها ونفسها، كأنه لم يكن هو صاحب الأفكار الحديثة القاليل بمساعدة المرأة، النقد نفسه توجهه ملك للمتعلمين والمتدينين الذين تبقى نساؤهم في حال من الجهل وسوء الخلق، دون أن يهتموا بتغيير هذا الحال الفاسد داخل بيوتهم، وهم يدعون الإصلاح خارجه. (١١)

وترجع ملك حفني ناصف المساوي التي تظهر في المرأة إلى استبداد الرجل، لأن المرأة تقوم بتقليد الرجل، ولهذا فهي تطالب الرجال بضرورة إصلاح أحوالهم، حتى تنصلح أحوال السيدات، فتقول للرجال "إذا كانت فيكم بقية غيرة وحمية، وتحبون وطنكم كما تدعون، فأصلحوا أحوالكم تنصلح نساؤكم ومنوا سنة صالحة لأبنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم أجراً يوم الدين.... واجعلوا من أنفسكم صراطاً تتبعه زوجاتكم. فإن كنت أبها الرجل عاقلاً فلتكن زوجتك مثلك وإن كنت خليعاً فأمراتك خليعة وإن أسرفت أسرفت وإن فترت ففترت وهذا بحكم المعاشرة في الخلق والعادة بالطبع وإلرضاء الزوج من جهة أخرى" (١٢).

وفي اعتقاد ملك حفني ناصف أن الرجل لو خلف قليلاً من كبريائه وعلم أن امرأته مساوية له في جميع الحقوق المشتركة، وعاملها معاملة الذل للذل، أو على الأقل معاملة الوصي لليتيم، لا معاملة السيد للعبد، لما رأى منها هذا العناد الذي يشكوه، ولأطاعته حباً فيه لا خوفاً منه، ولا بجهل أو الاستبداد يأتي بعكس المراد.

وفي هذا الصدد يذكر أن ملك حفني ناصف قد واجهت صعاب عديدة مع زوجها عبد الستار الباسل، وهذا يتضح من كلام أخيها مجد الدين عن حياتها فيقول "بانقضاء شهر العسل، انقضت فرحة ملك مع عبد الستار الباسل، لأنها علمت سبقه الزواج بأخرى وهي ابنة عمه ولها منه بنت وحيدة، ولم ينجب عبد الستار الباسل من ملك مما دعاه إلى إجراء عملية جراحية لملك بدعوى ضرورة إنجاب الولد لورثه، ولكنها أضرت ملك طوال حياتها. (١٣) اجتمعت لملك حينذاك، معاناة وضع الزوجة الثانية مع معاناة الحرمان من الأطفال مع المرض الذي بدأت نوباته تهاجمها، ومن ذلك آلام عرق النسا التي قُبل في تخفيفها العلاج الحديث، فلجأت أسرتها إلى علاج بدوي كان يتضمن الكسي بمسامير ضخمة فوق موضع الألم دون تخدير. هذه الآلام مع الكتمان ربما كانت هي الأسباب التي اجتمعت لتضع حداً لحياة ملك حفني ناصف القصيرة التي توفيت عام ١٩١٨م عن ٢٧ عاماً. (١٤)

على أية حال، فلقد وقف بعض أقطاب الحركة النسائية (١٥) في هذه الفترة، مواقف متباينة من رأي ملك حفني ناصف في مسألة استبداد الرجل للمرأة ودوره في الحفاظ المرأة وتدينها، فتؤكد نوبية موسى ما ذكرته ملك، عن دور استبداد الرجل في تدني وضعية المرأة، فتري أن "الرجال سعوا إلى إضعاف المرأة طمعاً في امتلاكها،

وكان في هذا السعي تأخرهم من حيث لا يشعرون " وتؤكد نبوية موسى على مبدأ ملك حقني ناصف بأن إصلاح المرأة مرتبط وصلاحي الرجل فتقول " أن الرجل والمرأة لا يصلح أحدهما إلا بصلاح الآخر...." في حين نجد أن مي زيادة، نتيجة لاحتكاكها بالصفوة من الرجال وتقدير هؤلاء لها فقد دافعت عن الرجل، فتري أن ظهور الحركة النسائية يعود الفضل فيه للرجل. فتقول " إذا ذكرت الحركة النسائية ذكر أن الرجل كان موجدتها، ومؤيدها إلا أنه مازال ساعياً إلى تنشيطها.. " كما أنها لا ترى فضلاً في تربية المرأة ووجوب تعليمها وارتقائها إلا ويكون من قلم الرجل إذ ليس بين النساء من تكتب. وترد مي زيادة على كلام ملك حقني ناصف في القول بأن الرجل هو المسئول عن تدهور وضعية المرأة، فتدافع عن الرجل وتشتط على الرجل ضرورة قبول مساواة المرأة به فتقول عن الرجل " إنه ملك عزيز، هو الأب، والأخ والصديق، والخطيب، والزوج، فإذا سقط سقطنا معه، وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيمات، لذلك نريد له خيراً ونجتهد في تأييد دولته بشرط أن ينصب عرشنا قرب عرشه، وأن نقف إلى جواره وقف المثل إلى جوار المثل، نريد أن نكون متساويين في الحقوق الأدبية والمدنية، ما دمنا متساويين في الواجبات والمسئولية، بل إن واجباتنا ومسئوليتنا تفوق ما عليه من مسئولية وواجب " (٦٦).

من الواضح أن موقف مي زيادة من استبداد الرجل، لم يكن حاداً، فقد كانت ترى أن الرجل هو سبب تهضة المرأة، أكثر من كونه سبب تخلفها، وتدنى وضعيتها. ولعل السبب في ذلك، أنها كانت تحتك بصفوة رجال المجتمع من الكتاب والمفكرين أمثال العقاد - طه حسين - لطفي السيد - سلامة موسى - مصطفى صادق الرافعي، الذين كانوا يداومون على حضور صالونها الثقافي، فلم تكن مي زيادة ترى في الرجال سوى الوجه المضىء، ولم تتعرض له بالاضطهاد مثل ملك حقني ناصف.

٢- الجمود الديني عند المرأة :

انتقدت ملك حقني ناصف الفهم الخاطئ للقرآن، وتؤكد على أهمية الفهم المستنير له، وترى أنه ليس في القرآن ما يحرم على المرأة تحصيل العلم، والتأمل في الحياة أو ممارسة العمل. وطالبت ملك حقني ناصف بتعليم الدين الإسلامي في مدارس البنات تعليمًا صحيحاً، وقد طالبت ملك كذلك، بضرورة ذهاب النساء سواء في المدن أو القرى لحضور الصلاة وسماع الوعظ في المساجد، حيث أكدت ملك على أهمية الواعظ الديني لدى الجنسين، وقارنت ملك بذهاب نساء النصارى واليهود جماعات وفرادي للصلاة في الكنائس والمعابد وسماع الوعظ الديني، وأنهم يستفيدون من ذلك كثيراً. فكيف نرضى بأن نسبق في هذا السبيل، والإسلام رحب الصدر شديد الحرص على حرية المرأة وقد وضعت ملك حقني ناصف ضوابط لآداب المرأة لاستماع الوعظ والصلاة في المسجد، بأن يخصص في كل مسجد باب للنساء ومقصورة أو حاجز يصلين فيه، بحيث يسمعن كلام الخطيب ويفقهنه، ولا يختلطن بالرجال. وليكن موعد دخولهن

المسجد وانصرفهن منه سابقاً بنصف ساعة أو متأخراً مثلها عن موعد دخول الرجال وانصرفهم. (٤٧).

لقد تعجبت ملك حفنى ناصف من كراهية المجتمع المصرى لكل ما هو جديد حتى لو كان نافعا، وبمهاجمة كل مقترح، بإحداث البدع قبل أن يثبت صحة دعواه أو خطئها. إلا أن ملك لم تهاجم القديم أو التقليد بشرط أن يكون منه فلاحاً للمجتمع. لقد طالبت ملك بحرية التفكير والتأمل فى الحياة، ودعوة العقل إلى التفكير والابتكار وتطوير الأفكار لمصلحة المجتمع. كما نوهت ملك حفنى ناصف إلى الضرر العقلى والفكرى الذى يقع فيه المفكر أو المبدع عندما لا يعن أفكاره الجديدة خيفة من أن يرميه مخالفوه فيها ويتهمونهم بالثرثرة والادعاء ويصيبه ذلك بالجبن جراء ذلك.

٣- العادات والتقاليد الخاطئة :

تنتقد ملك حفنى ناصف، بعض العادات والتقاليد الاجتماعية، فتؤكد على ضرورة منع النساء من المشى فى الجنازات، ومن الاجتماع للطم، والندب والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة، التى لا وجود لها إلا فى مصر.. وغير خاف علينا أن النساء شديداً الانفعال والتأثر، فإن أطلق لهن العنان فى ملازمة هذه العادات خمدت نفوسهن، وفسدت عزائمهن، ومرضت أجسامهن، وعقولهن، فمن حسن النظر الابتعاد بهن عن مسلك الضرر" (٤٨). كذلك عابت ملك حفنى ناصف على بعض السيدات من إفراطهن فى التيسم وانخفاض الصوت إلى درجة تخرجهن عن اللائق، حيث أكدت ملك على أن " المرأة الضاحكة - بلا سبب، والخفيفة إلى حد الطيش، والواطئة الصوت إلى حد الهمس، كلهن مفرطات فيما يجب أن يكن عليه.... إنما أعنى أن تصحب البشاشة الوقار، والخفة الحزم، وهذوء الصوت البيان " (٤٩).

اهتمت ملك بمسألة تربية المرأة اهتماماً كبيراً، ورأت أن الغرض من تربيتها هو تقريبها من السعادة بقدر الإمكان، وإعدادها لأن تكون عضواً حياً نافعاً فى جسم الأمة، وتهيئتها للقيام بأعباء الزوجية والأمومة. وترى ملك من أن نقص تربية الأبناء، هو نتيجة جهل الأم فتقول "إننا نعلم أن نقص تربيتنا الأولى، وتربية إخواننا الشبان، لاشك نتيجة جهل أمهاتنا، فهل نعرف الداء ولا ندأويه؟! إن المدارس مهما اجتهدت فى تثقيف عقول النشء، وتهذيبه فإن المنزل له تأثير خاص فى الأطفال، وإذا شعر تلميذ أن أمه عالمة أو لها نصيب من علم ما، فإنه يسعى ليربيها، أنه أهل لحبها وتقديرها إياه، فيجتهد لتحصيل العلم وإدراك المعارف المختلفة، لتكون الصلة شديدة بينه وبينها.... وبالتالي فإن التربية الحسنة هى التى تعود الإنسان من صغره احترام غيره، إذا أستحق الاحترام، حتى لو كان عدواً، فالتعليم لم يفسد أخلاقيات الفتيات، وإنما هى التربية الناقصة، تلك التربية فى الحقيقة، يجب أن تكون فى أعمال البيت لا المدرسة" (٥٠).

ومن هنا تلقى ملك بالمسئولية على نمط التربية الذى يتلقاه النشء فى إحداث الإصلاح المنشود على الصعيد الاجتماعى والأخلاقى، فهى تعتبر أن التربية الخاطئة هى

المسئولة عن سائر عاداتنا السيئة، وفيها عدم احترام النساء " شبابنا لم يتعودوا احترام النساء، وذلك نقص في التربية الاجتماعية يجب أن يتداركوه " (٥١) وترى ملك حفنى ناصف، بضرورة تكاتف البيت والمدرسة، فى عملية التربية حتى لا يكون عمل البيت معوقاً لعمل المدرسة، فينبغى أن يخفف المنتقدون من حداثهم، عند انتقاد مدارس البنات، لأن بيوتهم ونظامها أدعى إلى الانتقاد منها، والأمهات الجاهلات أكبر حجر عثرة فى سبيل نجاح المدارس، وذلك لأن معلمات المدارس تبذل جهد الطاقة فى تثقيف عقول التلميذات، وتعويدهن الفضائل، ولكن تلك الدروس، إن لم تدعمها الممارسة والمشاهدة، لا تثبت أن تزول لأن ما تقدمه المدرسة لنفع التلميذات، ينقص فى البيت، ولا سيما فى مسألة الأخلاق (٥٢). وعلى الرغم من ذلك فإن ملك حفنى ناصف قد أشارت إلى مشكلة كبيرة توجد فى مدارس البنات، وهى أمر إسناد تعليم البنات وتربيتهن إلى مدرسات أجنبيات. واعتبرت ملك أن ذلك بمثابة عقبة كؤود أمام تربية البنات فى مدارسهن، نتيجة لاختلاف الدين والعادات والتقاليد بينهن وبين الناظرات والمعلمات الأجنبيات. لذلك اقترحت ملك بضرورة إسناد الأمر إلى الوطنيات، فإن لم نستطع فعلينا أن نختار الأجنبيات، ممن تتوافر فيهن شروط الحكمة والأدب، ومن يصح فيهن أن يكن قدوة حسنة للتلميذات (٥٣).

موقف ملك حفنى ناصف من مسألة زواج المرأة :

تنتقد ملك حفنى ناصف، مسألة الزواج فى مصر، لأنه يسير على طريقة عقيدة نتيجتها فى الغالب، عدم الوفاء بين الزوجين، لأن الرجل لا يرى زوجته، فإذا سعد طالعهما اتفقا قلباً وقالياً، ورضى كل منهما بالآخر، أما البائس الذى قدر له أن يعاشر حمقاء، أو جاهلة أو مسرفة فيا ويحه، كذلك الفتاة إذا فوجئت ببعل مدمن، أو سييء السمعة، فيا طول ما تقاس من العناء، فمسألة الزواج عندنا هى ككل أمورنا نحن الشرقيين، فكلها للقضاء والحفظ، وما شئت من المترادفات، فى حين يرى عقلاء الأمة أنه لا بد للخطيبين من الاجتماع والتكلم قبل الزواج. وهو رأى سديد لم يكن النبى (ص) وأصحابه يفعلون غيره. وهومتبع عند جميع الأمم بأسرها. وقد أدى عدم رؤية الخاطب لخطيبته قبل الزواج، إلى زواج العديد من الرجال بالأجنبيات، وإذا لم نعمل على تدارك هذا الخل فى مجتمعنا، فلن يلبث أن يحتلنا نساء الغرب، فنقع فى احتلالين، احتلال الرجال واحتلال النساء، وثانيهما أشد من أولهما (٥٤).

كما اهتمت ملك حفنى ناصف بمناقشة مسألة تحديد الحد الأدنى لسن الزواج لدى الفتيات وذلك من منظور وظيفى، يعنى بقدرة الفتاة على تحمل مسئولية الأسرة " وإنى لا أوافق بعض الأطباء، على أن سن البلوغ يجب أن يكون بعينه هو سن الزواج. إذ بالله ماذا تفهم فتاة فى الثانية عشرة من معنى الزواج، وماذا تعلم من أمور البيت، وماذا تعمل لو رزقت بأولاد... " (٥٥).

لذلك ترى ملك حفنى ناصف ضرورة تحديد سن الزواج، فعلى ملائمة سن الزوجين يتوقف كثير من الوفاق، والمحبة، والواجب ألا تتزوج الفتاة إلا متى سارت أهلاً للزواج الكفاء لتحمل مصاعبه، ولا يجوز ذلك قبل السادسة عشرة، وتزويج الصغار فيه شقاء الأمة من عدة وجوه، عناء فى الزوجية نتيجه دائماً الشقاء أو الانفصال، وكثرة وفيات الأطفال لضعف النسل، وإصابة النساء بالأمراض العصبية، والأمراض النسائية الأخرى، وزواج مختلف السن، إضعاف النسل، وشقاء للزوجين، وقلب لنظام الطبيعة الدقيق، كذلك يأتى عدم الوفاق، نتيجة لجهل أحد الزوجين بالآخر، وزواج مختلف الطباع، كعالم وجاهلة، وبالعكس، أو غنى وفقير، ومختلف الدين والبلد، والطمع فى الغنى بغير نظر إلى الأخلاق، والزواج القسرى، فكل ذلك من أسباب عدم الوفاق، وفشل الحياة الزوجية^(٥٦).

كما نالت قضية تعدد الزوجات اهتماماً كبيراً من جانب ملك، ربما لأنها تجربة تعرضت لها شخصياً، أو لأنها تجربة رأتها متكررة فى المجتمع البدوى الذى عاشت فيه ولمست أثارها النفسية والاجتماعية على المرأة والأسرة ككل. وقد اجتهدت ملك حفنى ناصف فى عرض مشكلة تعدد الزوجات من سائر جوانبها مركزة على تأثيراتها المعنوية والاقتصادية والأخلاقية على الأسرة، وتميز طرحها بحس أنثوى تجسد فى مراعاة الأبعاد النفسية والعاطفية فى علاقة الزواج كعلاقة قائمة على الأبعاد المعنوية والدواخل فى الأساس، فتقول ملك حفنى ناصف رائية التى يتزوج زوجها بأخرى " يا الله أليس لها قلب يتأثر وشعور يمس وعواطف تتور... " (٥٧).

لذلك اتخذت ملك حفنى ناصف موقفاً حاداً من قضية تعدد الزوجات، حيث هاجمت ملك بضراوة تعدد الزوجات، وترى فيه مفسدة فى كل شىء فففيه مفسدة للمال ومفسدة للأخلاق ومفسدة للأولاد ومفسدة لقلوب النساء. أما من حيث مفسدة للمال، لأن الرجل فضلاً عن تحمله أعباء أسرتين وقيامه بلوازمهما، يرى كل زوجة من اثنتين تجتهد فى التبذير لتعجزه عن الأنفاق على الأخرى، أو لتمنعه من الزواج بأخرى. كذلك تعدد الزوجات مفسدة للأخلاق، لأن زوج الضرائر دائماً يحتال لتطمع كل واحدة فى حبه. أيضاً تعدد الزوجات مفسدة للأولاد، لأن كل ضرة تغرس كراهيتها لضررتها فى نفوس أولادها، فيشرب الطفل وقد أشرب كره إخوته لأبيه وأمه بلا مبرر سوى ما زرعه أمه فى عقله من مبادئ هدامة، فمهما فعلت امرأة الأب لترضى ابن زوجها، ومهما أحسنت معاملته، فإنه لا يفتأ يتهمها بكراهيتها له، وبأن ما تفعله معه من خير ومعروف، إنما هو لخوفها من أبيه أو مداراة لما فى قلبها منه. ومفسدة لقلوب النساء، لأن الأولى تكرهه بلا شك لإغضابه إياها وجرحه لعواطفها، والثانية لا تصافيه مطلقاً مادام متعلقاً بغيرها (٥٨).

وتؤكد ملك حفنى ناصف على مدى كراهية النساء للضررة، فتقول أنها سألت بعضهن، وقد تزوج زوجها بأخرى " هل تحبين زوجك الآن كما كنت تحبينه قبل زواجه من غيرك؟ فكان جواب كل من سألتهن ملك بالسلب والنفى. كما سمعت الباحثة من

أخريات أنهن في الحقيقة كن يفضلن أن يرين نعوش أزواجهن محمولاً على الأعناق على أن يرينهم متزوجين بأخريات فيا الله إلى هذا الحد يبلغ بغض المرأة للضرة ؟^(٥١)

لهذا ترى باحثة البادية، أن ابتلاء المرأة بضرة قد يحولها إلى إنسانة شريرة، لأن الضرة تطفئ سراج بهجتها وتلهب مكانها نار حقدتها، وتزرع محله بذور شرورها، فإن لم تكن تقية يوسوس لها الشيطان، ويعظمها أساليب الانتقام والكيد. وكثيراً ما دست امرأة السم لزوجها أو لضررتها أو لابن ضررتها، فكان القضاء عليهم جميعاً، وكثيراً ما عمدت للوشاية بها عند زوجها^(٥٢). " وفي مقارنة ملك حفنى ناصف بين وضع المطلقة ووضع الضرة رأت ملك حفنى ناصف، أن الطلاق أخف ألماً ووطأة من الضرة، حيث رأت أن الأول (الطلاق) فيه شقاء وحرية والثانى (الضرة) فيه شقاء وتقييد.

وبعد أن تكشف ملك حفنى ناصف، مساوئ تعدد الزوجات، فإنها ترى أن السدين لم يسمح بتعدد الزوجات، بهذه الصورة المفتوحة، كما يفعل الرجال، وإنما جعل له شروطاً وقيوداً، لو اتبعت لما عانى منها النساء البائسات. ومن ناحية أخرى ترى ملك أن المستوى العلمى والأخلاقى والاقتصادى، يسهم فى تقليل تعدد الزوجات. لهذا كله اقترحت ملك ضرورة السعى إلى **تقليل تعدد الزوجات** غير داع بقدر الاستطاعة لأن شقاء النساء، وأختلاف الإخوة الناشئين من جراء هذه العادة، وما يتبع ذلك من الشقاق، كل ذلك يكون من أسباب التفكك الأسرى مما يؤثر بالسلب على المجتمع ككل .^(٥٣)

وفى نهاية هذا المبحث يمكن لنا أن نستنتج أن ملك حفنى ناصف ترفض مسألة تعدد الزوجات، لأن به إخلال بكرامة المرأة، كما أنه يسهم فى العديد من المشكلات الاجتماعية. وبالتالي يمكن القول إن الحركة النسائية ممثلة فى ملك حفنى ناصف استطاعت أن تعبر عن نفسها فى قضية تعدد الزوجات، وأن ترفض فكرة زواج الرجل بأكثر من امرأة ووضع القيود والإجراءات التى تحد من زواج الرجل بامرأتين أو أكثر ما لم يكن هناك داع لذلك. بهذا يمكن القول إن ملك حفنى ناصف قد وضعت الأساس للفهم المنصف لوضع المرأة فى الحياة، ونادت ملك بالمساواة بين الجنسين، على أساس من الحب والاحترام المتبادل حتى تستقيم الحياة الزوجية وينصلح حال الأمة .

موقف ملك حفنى ناصف من قضية الحجاب :

اتخذت ملك حفنى ناصف موقفاً وسطاً من الحجاب فهى لا تريد التشدد فى الاحتجاب، ولا تدعو إلى سفور الغرب فتقول " لا أريد أن نرجع لحجاب جدتنا، ذلك الذى يصح أن يسمى وأدا لا حجاباً، فقد كانت السيدة تقضى عمرها بين حوائط منزلها لا تسير فى الطريق، إلا محمولة على الأعناق، ولا أريد سفور الأوربيات، واختلاطهن بالرجال فهو مضر بنا "^(٥٤). لذلك ترى ملك حفنى ناصف أن حبس المرأة المصرية تقريظ، وحرية الغربيين إفراط، ولا نقتبس منه إلا حالة المرأة التركية الحاضرة " حينئذ " فهى وسط بين الطرفين، ولم تخرج عما يجيزه الإسلام، وهى مع ذلك مثال الجود والاحتشام. وترفض ملك تشديد الاحتجاب على المرأة المسلمة، وترى أن الحجاب لا

ينبغي أن يمنع المرأة عن شراء حاجاتها، وأستنشاق الهواء النقي، ولا عن تلقي العلم، ولا يكون مساعداً على فساد صحة المرأة فتقول " هناك قوم يشددون في تقدير الحجاب، فيحسبونه للمرأة مؤدياً، ويمنعون زيارة جارتها، يضيقون عليها، بحيث لا تستنشق إلا هواء بيتها الضيق الدائرة، فتفسد صحتها، وتكسل عن الحركة، ومنهم من يفتخر بأن امرأته لم تهرح بيتها طوال عمرها، وهؤلاء أيضاً متطرفون، لأن المرأة لها رجلان يجب أن تتحركا، وعينان يجب أن تبصرا، فإذا صاحبها أبوها أو أخوها أو زوجها مثلاً في نزهة وأراها محاسن الطبيعة، ودقائق الموجودات، وجدد قواها، بالحركة، وأستنشاق الهواء الجيد، وهي بمظهرها محتشمة، فلا يخرج في ذلك عن معنى الحجاب " (١٣).

وترى ملك أن الحجاب لا يمنع المرأة من التعليم فتقول " أن النساء المسلمات واسعات الاطلاع لم يحل الحجاب بينهن وبين التعليم...". إلا أن ملك تنتقد الاختلاط الشديد بناءً على تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات، طبقة الأغنياء ينتشر فيها الاختلاط والسفور، وهذا فيه مفسدة، وطبقة العامة "الفقراء" وينتشر فيها الاختلاط في العمل، من أجل العيش وتشرع الآداب من أجل هذه الطبقة. وترفض ملك الاختلاط السائد بين العامة، وترى أن أفضل طبقة هي طبقة الوسط فهي أحسن الطبقات أدباً، وأكثرها حشمة ووقاراً. وإذا كانت ملك ترفض الاختلاط الشديد، فهي أيضاً ترفض الاحتجاب الشديد، لأنه يقلل من تجارب البنت، وقوة إرادتها، وترفض ملك تقليد الغربيين في مسألة السفور، حتى لا نفقد قوميتنا، وهويتنا فتقول : "إننا لو سلمنا بما يقترحه الكتاب من ضرورة تقليد الغربيين في أمور معاشنا وليأسنا، مما لا يوافق روح الشرق، فإننا نندمج فيهم، ونفقد قوميتنا بمرور الزمن وهذا هو ناموس الكون، إذ يفنى الضعيف في القوى " (١٤).

وإذا كانت ملك حفنى ناصف تنتقد سفور الغرب، فإنها لا ترفض السفور بمعنى الخروج من المنزل وكشف المرأة لوجهها وكفيها، ولكنها ترفض الانتقال الفجائي كما رفضه قاسم أمين، لأن نساء مصر متعودات الحجاب، فلو أمرتهن بخلعه لرأينا ما يجلبه على أنفسهن من الخزي، والتغير الفجائي من أسباب البلاء، وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين، فينبغي أن نهى المرأة للسفور، فلو أننا متريبات على السفور، ولو أن رجالنا مستعدون له لأقررت بالسفور لمن تهواه، ولكن جموع الأمة غير مستعدة له الآن "حينئذ"، وذلك لأن خروجنا بغير حجاب لا يضر في نفسه إذا كانت أخلاقنا، وأخلاق رجالنا على غاية الكمال، وأظن أن هذا مستحيل أو بعيد الحصول، فإذا حصلت هذه النماذج على هذا الشرط فلا أعترض عليه. ولكن الوقت لم يحن لرفع الحجاب فعلموا المرأة تعليماً حقاً، وربوها تربية صحيحة، وهذبوا النشأ وأصلحوا أخلاقهم، بحيث يصير مجموع الأمة مهذباً، ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة (١٥).

وبناءً على ذلك تذكر مي زيادة بأن ملك حفنى ناصف كانت من أنصار السفور مبدئياً، ومن رأيها أن كل ما تحتاج إليه المرأة، ولا تجده بين النساء كالطبيب البارع، أو الأستاذ الماهر .. الخ. يجوز أن نستعين بالرجل، وجاهرت بأنها لو كانت واثقة من كمال

المرأة، وتهذيب الرجل لما ترددت في إباحة السفور، ولا ينبغي أن نفهم دعوة ملك حفنى ناصف للسفور، أكثر من كون هذا السفور، هو ظهور الوجه والكفين، والخروج من المنزل سواء للتعليم أو العمل، وهو نفس ما دعا إليه قاسم أمين من قبل.

إن موقف ملك حفنى ناصف من الحجاب والسفور لم يخرج عن الإطار العام لموقف الإسلام من قضية الحجاب، وعندما كانت ملك حفنى ناصف تتكلم عن السفور، لم تكن به أكثر من سفور الوجه، ورفض النقاب، والإسلام لم يحرم ظهور الوجه والكفين.

وعلى الرغم من موقف أقطاب الحركة النسائية في تلك الفترة أمثال ملك حفنى ناصف وهدى شعراوي ونبوية موسى وغيرهن، المسير للإسلام، من قضية الحجاب، إلا أن سفور وجههن في تلك الفترة، كان يمثل البدايات في التمرد على النقاب، والاحتجاب المنزلى، وغالباً ما تكون البدايات صعبة، حتى يتأقلم الناس والمجتمع على الوضع الجديد - السفور - ولهذا كان موقف قاسم أمين نظرياً، ومواقف أقطاب الحركة النسائية نظرياً وعملياً يشكل ثورة على السائد في تلك الفترة. ولكن إذا نظرنا إليها الآن تبدو مجرد مطالب متواضعة في إطار ما حصلت عليه المرأة، ولكن يظل التاريخ دائماً يذكر أهمية البدايات التي تمثل في الغالب ثورة على السائد والمعهود.

موقف ملك حفنى ناصف من عمل المرأة:

شهد أوائل القرن العشرين بداية المطالبة بحق المرأة في العمل، فبعد أن حققت المرأة نجاحاً ملموساً في مجال التعليم، كان من الطبيعي أن ينتقل اهتمامها إلى اقتطاف ثمرة هذا التعليم وهو العمل، وكانت رموز التنوير التي حاربت من أجل تعليم المرأة، هي نفسها التي خاضت المعركة من أجل المرأة إلى حق العمل وعلى رأسها قاسم أمين في كتابه " تحرير المرأة " والشيخ محمد عبده، والشيخ مصطفى عبد الرازق. وقد انضم إلى هذه الباقية عدد من الرائدات المصريات، ضمن المعركة من أجل الأجيال القادمة، ومن أجل تقدم هذا الوطن وكان في مقدمتهم ملك حفنى ناصف (١٦).

أهتمت ملك حفنى ناصف بالدفاع عن حق المرأة في العمل، فتجدها ترفض مسألة تصنيف العمل، وإعلاء شأن الرجل على المرأة وتؤكد ملك حفنى ناصف في الدفاع عن وجهة نظرها في أصالة حق المرأة في العلم والعمل انطلاقاً كعادتها من الأرضية الاجتماعية، التي تشكل القاعدة الأعم في مصر، وبأسلوبها السهل تقول " ولما كانت أشغال منزلنا قليلة، لا تشغل أكثر من نصف النهار، فقد تحتم أن نشغل النصف الآخر بما تميل إليه نفوسنا، من طلب العلم، وهو ما يريد أن يمنعنا منه الرجال، بحجة أننا نشاركهم في أعمالهم. لا أريد بقولى هذا أن أحث السيدات على ترك الاشتغال بتدبير المنازل وتربية الأولاد إلى الانصراف لتعلم المحاماة والقضاء، وإدارة القاطرات كلاً، ولكن إذا وجدت منا من تريد الاشتغال بإحدى هذه المهن، فإن الحرية الشخصية تقضى بأن لا يعارضها المعارضون." (١٧).

وتتهم ملك حفنى ناصف الرجل في أنه السبب وراء ضعف المرأة، بعد أن استعبدتها قروناً طويلة، حتى خيم على عقلها الصدا، وعلى جسمها الضعف ثم يتهمها

بعد ذلك بأنها خلقت أضعف منه جسماً وعقلاً. ولا تذكر ملك حفنى ناصف أن الرجل متفوق في بعض الأعمال، ولكن لو تركت للمرأة حرية القيام بهذه الأعمال، لتفوقت مثله^(٨). ومن أجل اهتمام ملك حفنى ناصف بضرورة عمل المرأة، فقد اقترحت تعليم المرأة المصرية كل ما يلزم لحسنها من الصناعات الضرورية كالتفصيل والتطريز، وطالبت بضرورة فتح مدرسة لتخريج هؤلاء الصانعات لأننا في شدة الحاجة إليها. وكان مما قالت " كيف ترضى أمة عددها أننا عشر مليوناً نسمة (تعداد سكان مصر حينئذ) بأن لا يكون فيها إلا النزر، فيمن يعرف تفصيل ثوب لائق بعروس أو مترفة أليس من العار أن نحتاج في كل شيء إلى الأجانب حتى في خدمة أنفسنا "^(٩).

وتعترف ملك، بأن الأم مهما تعلمت وبأى حرفة اشتغلت فلا ينبغي أن ينسبها ذلك أطفالها في البيت، لأن تربية الأولاد أخص بها لضرورة معاشرتها لهم في الرضاعة، وما بعد الولادة، تعرف أطوارهم، وتقف على أحوالهم، وكذلك فهي أشفق بهم من الرجال^(١٠).

موقف ملك حفنى ناصف من الحضارة الغربية :

رفضت ملك حفنى ناصف، تقليد الحضارة الغربية، وخاصة في المسألة النسائية، حيث ترى ملك، بأنه لا يليق بنا نحن النساء المسلمات خاصة، التشبه بنساء الغرب، فضلاً عما حدده لنا الدين الإسلامى، وأن الفطرة الغريزية فينا لا تبيح لنا أن نسعى وراء التقليد الغربى. وقد وضعت ملك حفنى ناصف قيوداً على تقليد الحضارة الأوروبية والتعامل مع المستعمر، وكان هذا موقف انتقائى منها فتقول " إننى أدعو الكتاب والباحثين للتفكير فى إيجاد مدنية خاصة بالشرق تتلاءم وطبائع بلاده، ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدن الحديث وذلك لأننا إذا اتبعنا كل شيء غريبى، قضينا على مدنيتنا، والأمة التى لا مدنية لها ضعيفة هالكة لا محالة " وترى ملك حفنى ناصف أن علينا أن ننقل عن الغرب ما يتوافق مع الشريعة الإسلامية والآداب الشرقية، وترى أن من دلائل تأخرنا أن أكثرنا يقلد المرأة الغربية، بغير نظر إلى موافقة عاداتها للشرع الإسلامى والآداب الشرقية. وهنا نلاحظ أن ملك حفنى ناصف، تتخذ موقف التيار الإسلامى سبيلاً لها فى موقفها من الحضارة الغربية. كانت ملك تتابع مظاهر التحديث الشكلى الذى يأخذ به المجتمع، لاسيما الطبقات العليا، وتستنكره داعية إلى نمط من التحديث، يتوافق مع روح الشرق على حد تعبيرها مقترحة فى ذلك الأخذ بالعلم الغربى والاستفادة منه وتطويعه فى إطار هذه المدنية الشرقية، التى دعت إليها، محذرة فى الوقت نفسه، من أن الاندماج اللواعى فى المدنية الغربية، هو أمر منذر بالفناء^(١١).

وتذهب ملك حفنى ناصف إلى أننا إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا أن لا نقبس من المدنية الأوروبية إلا الضرورى النافع بعد تمصيره، حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا، نقبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل، نقبس منها أساليب التربية والتعليم، وما يرقينا حتى نبذل من ضعفنا قوة، وإنما لا يجوز فى عرف الشرع والاستقلال أن نندمج فى الغرب، فنقضى على ما بقى لنا من القوة

الضعيفة أمام قوته المكنسحة الهالكة. وتطالب ملك حفنى ناصف المرأة العربية بضرورة اتباع نهج المرأة الغربية فى تحصيل العلم والمعرفة، والعمل، مستعينة فى ذلك بثبات العزم وقوة الإرادة. وملك فى ذلك لا تدعو إلى الانغلاق، أو الانفصال عن التجارب العالمية الأخرى، فقط تدعو إلى الوعى بالمصالح الوطنية، وإعطائها الأولوية وقد انتقدت ملك، منهج التحديث القائم على التغريب والمحاكاة وما يؤدى إليه من تشويه فى بنية الأجيال الجديدة، بما يجعلها غير قادرة على الفعل الحضارى الأصيل أو القيام بأعباء نهضة المجتمع. وميزت ملك فى هذا السياق، بين قبول المنتج الثقافى والمنتج المادى للغرب، مؤكدة أن الحفاظ على الهوية هو الحد لما يمكن اقتباسه من الغرب، لأنها قضية وجود أو فناء. وفى ذات الوقت، فإن النهضة رهينة ببناء حضارة تجمع بين الذاتية والعصرية (٧٢).

إن ملك لا ترفض سائر معطيات المدنية الأوربية، بل ترفض تحديداً التقليد الأعمى، الذى تمثل آنذاك فى مظاهر البهرجة، والترف، وانتشار المسكرات وغيرها من العادات الخبيثة (٧٣).

لقد أدركت ملك حفنى ناصف خطورة محاربة الإصلاح باسم الدين، فأعربت عن تعصبها للدين والإصلاح معا " إن الأديان لم تخلق لجلب البؤس، وإنما خلقت لإسعاد البشر ". وأخذت ملك تبين بالحجج الباهرة كيف أن الإسلام دين كل إصلاح، وكيف يرتكب التخلف والانحطاط باسمه، وكانت ملك فى تعصبها للإسلام رائعة حقاً، نرى ذلك فى أبسط المظاهر أحياناً، مثلما تنعى على الناس استعمال ألفاظ " صاحب العزة " و"صاحب الجلالة"، لأن صاحب العزة وصاحب الجلالة هو الله وحده سبحانه وتعالى. لقد استطاعت ملك أن تمزج مزجاً طيباً بين تعصبها للدين، وتعصبها للقومية، فهى تهاجم التعليم فى مدارس الراهبات، على أساس من التعصب للقومية وللدين معا، وهى تهاجم الزواج بالأجنبيات على نفس الأساس، وكانت ملك يدافع تعصبها للقومية تعرض على رجال مصر وتزوجهم بالشركسيات والتركيات والكرديات أيضاً. وكانت ملك لا ترى فى هذا الزواج سوى ضياع للقومية والانتماء له، ورأت أن الزواج الأمثل، لا يكون إلا بزواج المصرى من مصرية، ذلك الزواج الذى يعمق الوطنية، ويغرس الانتماء الحقيقى للوطن والوطنية.

أفاضت ملك فى تبين فضائل القومية، وفضائل الإسلام فى شتى المناسبات، فكانت ملك بذلك أول كاتبة عربية فى العصر الحديث، استطاعت أن تربط بين مفهوم شامل ومتعمق للتراث كتراث ومفهوم واسع للجديد والمدنية الحديثة كمدنية.

ملك حفنى ناصف وقضية تعليم المرأة :

طالبت ملك حفنى ناصف بضرورة تعليم المرأة لتشعر باحترامها لنفسها ولغيرها فالمرأة تخرج للتعليم للتزود بالعلوم والمعارف وليس بهدف مزاحمة الرجال. وتوجه ملك حفنى ناصف حديثها للرجال وتطمئنهم من عدم مزاحمة النساء لهم وتطلب ملك من الرجال أن يكفوا عن دعواهم بالشفقة على المرأة من الخروج لدور العلم

وتحمل المشاق وتبين لهم أن المرأة لا تريد أن تكون محلاً لإشفاقهم إنما تريد أن تكون أهلاً لاحترامهم. أظهرت ملك حفنى ناصف اهتماماً خاصاً بالعلم، فترى أن العلم نور للعقل على أى حال سواء عمل به أم لم يعمل، فلو لم يكن للعلم لذة فى ذاته لما اشتغل بتحصيله الملوك، وهم واثقون أنهم لن يكونوا مهندسين ولا بحارة ولا سائقى قطارات. ولهذا فإن ملك حفنى ناصف ترى أن العلم ضرورى للبنات أيضاً^(٧٤).

وبسبب الظروف الاقتصادية السيئة التى كان يعانى منها الشعب المصرى حينئذ طالبت ملك حفنى ناصف بالإكثار من مجانية التعليم، وجعل التعليم الأولى " الإلزامى"^(٧٥) إجبارياً على قدر الإمكان فى مدارس البنات الموجودة حينئذ أو إنشاء غيرها لهذا الغرض، وكانت مما قالتها ملك حفنى ناصف فى هذا الصدد " أن كثيراً من الفقيرات يحب أهلن أن يعلموهن فلا يجدون لهن فى المجانية مكاناً، تكون النتيجة تركهن بلا تعليم، ولا تهذيب، فتنشئن جاهلات، وتكن أعضاء مشلولة فى جسم الأمة المصرية. وإذا لم تقم نظارة المعارف، بتعليم الفقيرات من الشعب، فواجب ديوان الأوقاف أن يخصص لهن من الأموال الخيرية ما يفى بالحاجة، ولا ننسى أن نذكر الجمعيات الخيرية، وأغنياء الأمة بتعليم الفقراء من أبنائها وبناتها ليساعدوا على ترقى الأمة فى معارج الفلاح"^(٧٦).

وترفض ملك حفنى ناصف، خوف بعض الرجال من مزاحمة المرأة لهن فى مجال التعليم "لأن المرأة ما زالت فى مراحلها الأولى، وأننا لا نزال فى الدور الأول من التعليم، ولا تزال عاداتنا الشرقية، تثبتنا من الاستمرار على التدريب الكثير، فليهنأ بوظائفهم ماداموا يرون مقاعد الحقوق والهندسة، والطب والجامعة، خالية منا، فليقروا عيوناً ولينعموا"^(٧٧).

وفى تناولها لقضية التعليم، اهتمت ملك " بنوعية التعليم ". وهو أمر أمثلته خبرتها كمعلمة ، تعلمت فى مدارس أجنبية ووطنية، ثم اشتغلت بالتدريس. فى هذا الإطار كانت ملك دائمة الدفاع عن المدارس الوطنية.. رغم مشكلاتها - من منطلق أنها هى المنوطة بحفظ محددات الهوية من تاريخ وأخلاقيات، بينما المدارس الأخرى تقدم الثقافة الغربية. ولقد طالبت ملك حفنى ناصف بالفصل بين البنين والبنات فى جميع مراحل التعليم، لأنه مغاير للطريقة الحديثة بأوروبا من الجمع بين الجنسين فى مدرسة واحدة. إلا أن ملك نادى بتوحيد مناهج التعليم^(٧٨) وأن تتفق هذه المناهج فيما يصح الاشتراك فيه كمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ولكى يستعد كل فيما يخصص له.

وهكذا تناولت ملك حفنى ناصف قضايا المرأة بالنقد والتحليل ووضع بعض الحلول لمشاكلها، وما يواجهها من الصعاب فى المجتمع على أسس علمية، ومن منطلق تعاليم الدين السمحة، وهى بذلك لم تخرج عن الخط الذى سار عليه الرواد الأوائل، بل أنها نظرت إلى القضية بنظرة مستقبلية لما ينبغى أن تكون عليه المرأة المسلمة.

ملك حفنى ناصف ومناهج التعليم :

- مشكلات تعليم اللغة العربية :

تنتقد ملك حفنى ناصف طرق تعليم اللغة العربية، التى كانت سائدة فى عصرها، كما عابت على مدرسى اللغة العربية فى المدارس، طريقة تدريسهم لهذه اللغة، وأنه لا هم لهؤلاء المدرسين سوى أن يشحنوا أذهان التلاميذ بمختلف القواعد، متعلقة فى ذلك بقولها " إن تلميذ الشهادة الابتدائية، يعجز عن كتابة خطاب صحيح أو التكلّم بلغة فصلى، مع أنه يقضى أربع سنوات فى حفظ كتب النحو والتمرن عليها " ورأت ملك حفنى ناصف، أن تلميذ هذه المرحلة، يحتاج إلى سنة أو سنتين على الأكثر لتعلم مبادئ النحو فى هذه المرحلة المنيّة المبكرة. ولقد وضعت الباحثة علاجاً، للتغلب على مشكلة تعلم النحو وقواعده، حيث إنها رأت أن يتم تعويد التلاميذ على سماع العبارات الصحيحة، وأن يكثر اطلاعهم على كتب اللغة المضبوطة الشكل، متينة الأسلوب، وأن ذلك يؤثر فى أذهانهم، ويربى فيهم ملكة اللغة، ويستعيضوا بالذوق الخاص فيها عن كثرة القواعد الثقيلة الجافة. ولم يفت ملك أن تؤكد على أن رأيها هذا، لا يعنى أن نستغنى عن قواعد النحو كلية، فقد يلجأ إليها عند الضرورة، وإنما هدفت من وراء علاجها هذا هو الإكثار من قراءة الكتب الصحيحة المفيدة للغة، والإقلال من حفظ قواعد النحو وضرورة التمرين والتطبيق على المحفوظ منه. كما انتقدت ملك حفنى ناصف مناهج التعليم فى المدارس ووصفتها بأنها غير وافية لأداء الغرض، فضلاً عن أنها مليئة بالحشو، وقد سئم التلاميذ منها لكثرة أوامرها ونواهيها، وأن التلميذ المعيد أكثر الناس شؤماً واشمئزاًزاً منها. لذلك طالبت ملك حفنى ناصف بضرورة تغيير المناهج الدراسية بين سنة وأخرى، ووضع كتب جديدة تشوق التلميذ، وتسترعى انتباههم وتزيد من نشاطهم، لأن هذه المناهج، كما رأت ملك، ما هى إلا مناهج للحفظ والتلقين ولا تساعد على الفهم أو الاستنتاج (٧١).

- الموسيقى :

رأت ملك حفنى ناصف أن العالم المتمدن يتقن العزف على الآلات الموسيقية وأن المصريين مع رفقتهم الطبيعية، إلا أنهم يهتمون تعلم الموسيقى، لذلك طالبت ملك، بضرورة تقرير المناهج الموسيقية فى المدارس لتدريسها، والأخذ بكل ما هو حسن فيها ولا يجب أن يقتصر الأمر على تعلم البيانو وحده. ولقد عدت ملك فوائد تعليم السيدات المصريين لفن الموسيقى، منها أنها تسهم فى تحسين حال المجتمعات النسائية فى مصر، وأنها تشغل أوقات فراغهن بشيء مفيد يرفه الحس وينمى المشاعر (٧٢).

- التربية الدينية :

انتقدت ملك حفنى ناصف طريقة تعليم الدين فى المدارس، لأن هدفها ينصب على تحفيظ بعض سور القرآن الكريم دون تفسير لمعناها أو توضيح أسباب نزولها، لذلك طالبت ملك بوجوب تعليم القرآن فى جميع مراحل التعليم من الابتدائى حتى المدارس العالية مع تفسير معنى كل سورة وأسباب نزولها، وتبيان ما فى هذه السور

من الإعجاز وما تشتمل عليه من روائع الحكم والفوائد. كما طالبت ملك حفنى ناصف بضرورة جعل بعض دروس القرآن الكريم، أن تكون تحريرية، يكتب فيها التلاميذ معانى السور مثل كتاباتهم لموضوعات الإنشاء كما انتقدت ملك حفنى ناصف أيضاً أسلوب المعلم فى تعليم القرآن الكريم لتلاميذه حيث قالت "لا وظيفة للمعلم إلا الجلوس ساكناً أو الإشارة لتلميذ آخر بالقراءة .." ورأت ملك أن هذه الطريقة فى حفظ القرآن الكريم أشبه بالطريقة البيغالية بغير فهم لمعنى، مما يفسد عقول التلاميذ ويميت قوة التبصر والتعقل لدى التلاميذ. أما عن الحديث الشريف والسنة النبوية، فرأت ملك حفنى ناصف أنها غير موجودة بمناهج المدارس بالمرّة، واعتبرت ملك أن ذلك يعد عيباً جسيماً، لذلك طالبت بضرورة تقرير موضوعات من الحديث الشريف والسنة النبوية لتدريسها بمختلف مراحل التعليم، حتى لو على سبيل الفهم واستيعاب معناها ومضمونها وليس الحفظ والتلقين (").

ملك حفنى ناصف وقضية المعلم :

رأت ملك حفنى ناصف أن وظيفة المعلم، هى وظيفة الأنبياء والرسل، ومن أهم المهن والوظائف قاطبة، ولابد من أن ينال المعلم حقه من العناية والاهتمام، ليكون أول اهتمامات الحكومات لما له من أثر عظيم فى حياة الشعوب والأمم، إذ أنه هو الباعث فيها الحياة، وهو الذى يكشف عن المواهب والملكات الخفية بين التلاميذ، ومساعد لل قوى الفعلية على التطور والنضوج. كما أن المعلم هو قدوة التلاميذ وإمامهم المتبوع، لأنه كما يشربهم علومه ومعارفه، فإنه يشربهم كذلك أخلاقه وتسرّى فيهم طباعه وسلوكياته. ونتيجة للأهمية التى ينالها المعلم والرسالة السامية التى يقوم بأدائها، رأت ملك حفنى ناصف ضرورة اختيار المعلم على أسس سليمة، حتى يصبح أهلاً لتلك المهنة السامية فتقول " ليس كل من يجمع صبياناً، ويلقى عليهم الدروس يسمى معلماً، وليس كل من ينجح فى تأدية مواد الامتحان يصح أن ينصب معلماً، بل للتعليم استعداد خاص وقدرة مدفونة فى صدور بعض الأفراد لا فى سائر المتعلمين، على ذلك يجب انتقاء المعلمين ممن خلقوا للتعليم بالفطرة، ومن المميزين على غيرهم فى النبوغ والأخلاق ..". وفى سبيل رفعة شأن المعلم وتوفير الحياة المادية الكريمة له، انتقدت ملك حفنى ناصف الأجر الضئيل، الذى يتقاضاه المعلم، وما يترتب على ذلك من انتقاص القيمة السامية لهذه المهنة، التى تتطلب مهاماً خاصة ومقومات متفردة. رأت ملك حفنى ناصف أن هذه الأجور الضئيلة للمعلمين إنما تؤثر تأثيراً سلبياً على تربية النشء، فقد يؤدى ذلك إلى انصراف كثير من المعلمين النابغين بعيداً عن هذه المهنة سعياً وراء المال والشهرة. فتقول "لن يرغب النابغون كثيرون الآمال والأحلام فى المستقبل، فى وظيفة المعلم الشاقة البعيدة عن مظاهر الجاه والأبهة، ما لم يجذبهم إليها جاذب النفع والمال ..". أثنت ملك حفنى ناصف على جهود الحكومة فى إنشاء المدارس، لتخريج المعلمين والمعلمات على الطرق الحديثة فى التعليم. كما أثنت على قرار الحكومة حينئذ بالمساواة فى معاملة الجنسين فى الامتحانات الموضوعية، وكذلك فى توظيفهم فى مهنة

المعلم، مما يترتب على ذلك من العدالة والمساواة بينهما، لأنها بتوحيد المعاملة تقرر (أى الحكومة) أن المرأة قرينة للرجل وكفاء له فى معادلتها فى الحقوق مثلما تعادله فى الواجبات. لاحظت ملك أن الفتيات الحضرىات المترفات قليلات الجدد، وليست لديهن الملكة والاستعداد للقيام بمهنة التدريس. لذلك طالبت بضرورة ترغيبهن وتشويقهن لتلك المهنة السامية، مع ضرورة منحهن المكافآت عند ظهور نتائجهن الحسنة وإثبات قدراتهن فى أداء تلك المهنة، وصرف ما يخص من مرتباتهن لهن عند تركهن المدرسة، منتقدة ملك فى ذلك قانون المعاشات الذى كانت تتبعه الحكومة حينئذ، والذى لم يكن يتجاوز فى نهايته الكبرى سوى العشرين جنيهاً، والذى كان كما رأت ملك أحد أسباب عزوف الفتاة عن الاستمرار فى مهنة التدريس حتى سن الستين، مستندة فى ذلك إلى إحساس الفتاة بضياها لمستقبلها مقابل أجر زهيد^(٨).

موقف ملك حفنى ناصف من البعثات العلمية للخارج :

انتقدت ملك حفنى ناصف النظام الذى تتبعه وزارة المعارف العمومية (القريبة والتعليم الآن) فى موضوع البعثات العلمية ونظامه خاصة تلك البعثات المرسلة إلى إنجلترا. رأت ملك حفنى ناصف أن الفتيات اللاتى يتعلمن فى مصر هم أفضل علماً وقدرة على ممارسة مهنة التدريس، من أولئك الذين يرسلن إلى إنجلترا بدعوى أن الفتيات المتعلمات فى مصر يدرين على سائر فروع التعليم ومواد العلوم المختلفة، ويمكنهن التدريس باللغة العربية أو بالإنجليزية إذا طلب منهن ذلك، وهن لطول ممارستهن التلميذات ولتخرجهن بينهن، أدرى بأخلاقهن وبمنازع تربيتهن، أفضل ممن يأتين من إنجلترا لا يعلمن من عادات البلد وتقاليده شيئاً، أو ممن يبعثن فى الإرسالية لتعلم فرع واحد من التعليم لا يمكنهن تدريس غيره. وقد استندت ملك فى رأيها هذا على أن هؤلاء الفتيات يرسلن لإنجلترا عقب نيلهن الشهادة الابتدائية مباشرة، أى فى السن الذى تنضج فيه مداركهن، مما يجعل هؤلاء الفتيات أكثر تقبلاً للثقافة الأجنبية وعادات البلاد وتقاليدها المرسلة إليها، أكثر من تقبلهم لثقافتهم العربية وبيئتهم التى نشأوا فيها، مما يؤثر بالسلب على عقول التلاميذ ونشأتهم الثقافية، بل والتربوية أيضاً نبهت ملك إلى تفريق الوزارة فى معاملة المعلمات المصرىات اللاتى تعلمن فى مصر، والمعلمات المصرىات اللاتى تلقين تعليمهن فى الخارج. حيث كانت أجور المعلمات المصرىات اللاتى تعلمن فى مصر رغم كفاءتهن، أقل بكثير من المعلمات المصرىات اللاتى تعلمن بالخارج، وكذلك أغلب المعلمات الأجنبية كانت أجورهن مرتفعة للغاية. وقد رأت ملك أن هذا التفريق فى المعاملة قد يؤدى إلى عوامل عكسية تؤثر بالسلب على تلك المهنة السامية بدون مبرر. وقد يحملن كثيرات منهن على ترك التعليم كلية.

وضعت ملك حفنى ناصف حلاً جذرياً للمساواة فى المعاملة وهو أن يكون ميزان الترقى هو الكفاءة وليس التخرج فى البلاد الأجنبية، وتثبت تلك الكفاءة بعد التمرين عملياً على التعليم سنة أو سنتين فى مدارس مصر، وهذا يحدث لخريجات مصر فقط، ولا يحدث لمثلهن فى الخارج " خريجات مصر هن وحدهن النابغات فيه فإتھن لا يسنن

شهاداتهم (الدبلومات) إلا بعد أن يمضين سنتين تمريناً عملياً بعد نجاحهن في الامتحانات. أما الأجنيبات وخريجات مصر في الخارج فلا يؤدين أي تمرينات. وفي هذا التباين في المعاملة والتفريق في المساواة من الغبن الفاحش على الوطنيات على ما فيه من الظلم والتعسف بدون مبرر. إلا أن ذلك لا يعنى أن ملك حفنى ناصف تعرض على إرسال الفتيات المصريات إلى الخارج لتلقى العلوم والاستزادة منها، ولكنها نبهت الحكومة والوزارة إلى ضرورة اتباع الحيلة والحذر في مراقبة هؤلاء الفتيات المرسلات للخارج في بعثات علمية، وذلك لظروف المرحلة السنوية التي يسافرن فيها أولئك الفتيات، والتي تكون في الغالب من سن اثني عشر إلى ستة عشر سنة. ويكون هؤلاء الفتيات بلا رقابة في بلاد يجهلن فيها هؤلاء الفتيات عادات وتقاليد أهلها. وقد ينبهر هؤلاء الفتيات من حرية المرأة هناك وتحررها من القيود، واختلاف طبائعهم وعاداتهم عن مجتمعاتنا، وهذا يدعو أسر هؤلاء الفتيات إلى التخوف من إرسال بناتهن ضمن تلك البعثات، مما يوجب على الوزارة وضع أسس ومعايير علمية مدروسة للحفاظ على بناتنا من الانسياق وراء المدنية الغربية انسياقاً أعمى، مما يؤثر على عقول بناتنا عند عودتهم للتعليم في المدارس المصرية.

وفساء ملك حفنى ناصف :

أصيب ملك حفنى ناصف بالحمى الإسبانية التي أنهكت قواها، فأفقدتها الحياة لتفارق الدنيا في يوم السابع عشر من أكتوبر عام ١٩١٨م، وهي في سن الثانية والثلاثين من عمرها. وشيعت جنازتها من شبرا، وصلى عليها في جامع أولاد عنان بميدان باب الحديد (رمسيس)، وسارت الجنازة من ذلك المكان سيراً على الأقدام حتى مدافن الأسرة بالإمام الشافعى. وفي هذه الجنازة انقلبت مدينة القاهرة رأساً على عقب، لأن النساء شاركن الرجال في تشييع هذه الجنازة الكبيرة، فكانت جمهرة الكبراء ورجال الفكر وطلبة المدارس الثانوية والعليا، تسير في جنازتها يتقدمها مندوب من قصر السلطان لتقديم العزاء الشخصي (لأن المندوب لم يكن ليسير بصفة رسمية في جنازات النساء) وكذلك رئيس الوزراء والوزراء وكبار الموظفين، وبعض النزلاء الأجانب، ومراسلى الصحف الوطنية والأجنبية، وكانت السيدات يملأن الشرفات على طول الطريق وهن يبكين بكاءً مرأً على الفقيدة، وقد ظلن حزينات على هذا المصاب الأليم المفاجئ. (٨٣)

وكان حفل تأبينها أشبه بمظاهرة لمطالب المرأة، كما تنوعت كلمات الرثاء، فعنها يقول أحمد لطفى السيد " أنها أفضل سيدة قرأنا كتاباتها فى عصرنا الحاضر "حيثئذ"، بل تعطينا صورة الكاتبات العربيات اللاتي تفوقن على كثير من الكتاب "وقد نعتها جريدة السفور بقولها " لسنا نعظم أن تاريخنا الحديث شهد حسرة الناس لموت سيدة، كما شهد حسرتهم لموت باحثة البادية" (٨٤).

وقد رثاها أيضاً الشاعر خليل مطران في حفل تأبينها بالجامعة المصرية فقال: (٨٥)

تجديد ذكراك على الدهر
أدركه أعلى من النصر
جدت فحىي طلعة الفجر

يا آية العصر حقيق بنا
جاهدت لكن النجاح الذى
بدت تباشير الحياة التى

كما رثاها الشيخ مصطفى عبد الرازق فى حفلة تأبينها. وعدد عبد الرازق فى خطبته هذه، جهود باحثة البادية فى المجال الاجتماعى، وما بذلته من تضحيات فى سبيل إعلاء شأن المرأة المسلمة والعربية، موضحاً نبوغها وموهبتها الفطرية، وسعة إدراكها، وكان مما قاله عبد الرازق فى هذا الشأن " كان صوت باحثة البادية قوة لأنصار الإصلاح، فلما خفت أحسست بمكان البلاد خالياً، كان صوت باحثة البادية فى إصلاح حال المرأة عندنا، أقرب الأصوات إلى قلوب النساء، وأقواها تأثيراً. كانت تريد للمرأة المصرية، أن يملأ العظم عقلها، ويملأ الإيمان قلبها، لتغلب بقوى العظم والإيمان، كل ما يقف فى سبيل حريتها ورقبها... "كذلك رثتها صديقتها" مى زيادة " فى حفل تأبينها. وقد نشر هذا الرثاء فى مجلة الهلال، وكانت مما ذكرته فى شأن الباحثة " أن لباحثة البادية مركزاً فريداً فى الحركة الفكرية عندنا بعد أن قام قاسم أمين، يقول بتحرير المرأة وبإعطائها ما لها من حقوق أدبية واجتماعية، قامت باحثة البادية تؤيد كلامه مظهرة أهلية المرأة وكرامتها، ودرجة الارتقاء العالية التى يمكنها الوصول إليها. قامت هذه المرأة العبقريّة ابنة الرجل (العبقرى) تدرس أحوال البيئة المصرية، فكان لها من ذكائها الفطرى مرشداً أميناً، ومن إحساسها العميق منبه مخلص، ومن قلمها العربى الصميم أبلغ ترجمان وخير رسول. رأت الباحثة حاجة قومها الى الإصلاح، وظلت تكتب وتخطب ناشدة الإصلاح^(٨٦). أيضاً رثتها السيدة هدى شعراوى فى خطبة الافتتاح فى حفل تأبينها بالجامعة المصرية وكان مما ذكرته " كانت الباحثة أول مصرية دفعها النبوغ وساقها النبل والفضل والإخلاص الى هذه الدار لنلقى عليك نتائج اختياراتها، وخلاصة أفكارها ومعلوماتها للنهوض بكن فى معترك الحياة الى مدارك النجاح والفلاح، شارحة لكل تلك العلل التى تهدد حياتنا القومية، وآدابنا الشرقية ولم تقتصر على وصف الداء وتشخيصه، بل وقفت بكن على الدواء الناجح لكل داء"^(٨٧).

كما خصصت المجلات والصحف لفترة طويلة بعد وفاتها صفحات كاملة للتأبين، ولم يبخل شاعر أو كاتب أو خطيب لم يوف ملك حقها من الوفاء والتكريم والثناء على مجدها وتاريخها الحافل. كما كرم ملك حفنى ناصف بعد وفاتها، العديد من الجهات الرسمية، حيث كانت الجامعات والمدارس والصحف والإذاعة، تحتفل بذكرها كل عام. كما احتفلت بها مدارس البنات قاطبة فى عام ١٩٥٨م بذكرها الأربعين لوفاتها بصفة رسمية، وذلك بتوجيه من وزارة التربية والتعليم، بناءً على توصية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الذى أوصى أيضاً فى تلك المناسبة مصلحة البريد بإصدار طابعين تذكاريين لملك ولأبيها، غير أن الطابعين لم يصدرا لضيق الوقت. أيضاً هناك العديد من المدارس والشوارع التى تحمل اسمها تخليداً لذكرها وتقديراً لدورها فى الحياة الاجتماعية المصرية.^(٨٨)

خاتمة :

بعد هذا العرض عن شخصية ملك حفنى ناصف، ودورها فى الحياة الاجتماعية المصرية، يمكننا أن نتساءل هل غيرت ملك من أحوال المرأة فى عصرها ؟ وهل أثمرت دعوتها تلك ؟ من الملاحظ أن ملك لم تكن تقف وحدها، كان قاسم أمين الذى خاض غمار المعركة الكبرى معاصرا لها، دعا الى السفور وفسر دعوته إزاء الجمود والرجعية، بأنه يمكن أن يكون سفورا تدريجيا، ولكنه دعا إلى تأليف جماعة من مائة تنزع نساؤهم وبناتهم الحجاب دفعة واحدة لتنفيذ الدعوة. أما ملك فكانت ترى أنه من طبيعة الأشياء أن نتدرج كثيرا ونتأنى فى موضوع الحجاب والسفور إلى أن تحصن المرأة بالعلم.

إن دعوة ملك هذه من أجل الدفاع عن المرأة وحقوقها، كانت دعوة وسطية اتسمت بالعقل والهدوء الفكرى الملائم لظروف المجتمع المصرى وتقاليدته فى تلك الفترة، فلم تكن دعوتها حربا بين جنسين، بل إن أكثر مكاسب المرأة كانت نتيجة لجهود متضافرة من النساء والرجال على السواء، فنضجت حركة تحرير المرأة وأصبحنا نرى المجتمع كله وحدة متماسكة، أية مشكلة فيه هى مشكلة تصيب المجتمع كله وأى خلل فيه يصيب الكيان كله بالمرض والفوضى، وهكذا بفضل ملك حفنى ناصف وأمثالها ممن تزعمن الحركة النسائية فى الشرق العربى، لم تأخذ الدعوة صورة من صور الانحراف أو المبالغة ولا صورة من صور **الخلط أو العنف**، وإنما سارت الحركة ببركة الدين الإسلامى الحنيف فى مدار واضح وإلى غايات لا يختلف حول جوهرها رجال ولا نساء.

لقد دعا رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ومحمد عبده وقاسم أمين، كما دعت عائشة التيمورية وملك حفنى وهدى شعراوى وغيرهن من السيدات العربيات إلى تعليم المرأة. ولو أن العمر امتد بملك لأدت للمرأة أضعاف ما قدمت، ولكن يكفى أنها كانت رائدة فى الميدان، فلم تحمل امرأة قبلها على عاتقها دعوة الإصلاح فى أحوال المرأة بمثل هذا الوضوح والتخصص والحماس. وهل نريد من رائدة نسائية فى زمانها عدا عليها الموت قبل أوانه أن تقدم أكثر مما قدمت. ويمكن القول إن المكاسب التى حصلت عليها المرأة من جراء مشاركتها فى ثورة سنة ١٩١٩م إنما تحققت نتيجة لجهود دعاة الإصلاح رجالا ونساء وكان من بينهم ملك حفنى ناصف فى دفاعها عن حقوق المرأة ومحاولات إصلاح أحوالها وأوضاعها فى المجتمع. ومما لا شك فيه أن هذه المكاسب لم تكن من جهاد ملك وحدها ولكن بعضه يعود إليها إن الإصلاح لا يمكن أن يتم نتيجة مجهود فرد إنما يتم نتيجة تضافر آلاف الجهود ويثمر بعد أن يرويه عرق الملايين.

على أية حال فإننا لا ندري ولا نعلم ماذا كان يمكن أن تفعله رسالة امرأة فى مكان باحثة البادية لو بلغت بأفكارها مدى أبعد فالقدر لم يمهلها حيث إنها توفيت وهى فى ريعان شبابها عن عمر يناهز اثنين وثلاثين عاما لكن البذرة التى غرستها لاتزال

مستمرة في أجيال من النساء، كما أن أسمها سوف يبقى خالدا مادامت كلماتها وآرائها
الإصلاحية باقية.



الهوامش

^١ (عاشت ملك حفنى ناصف فى أطراف الصحراء فى بادية الفيوم، وذلك بعد زواجها من عبد الستار الباسل شيخ قبيلة الرماح بالفيوم فى مارس ١٩٠٧م، حيث ذهبت ملك للحياة معه فى الصحراء. وهناك نادت ملك بتعميرها وأطلقوا عليها باحثة البادية : فاطمة محمد علوان إبراهيم : قضايا المرأة فى مجلس النواب المصرى من سنة ١٩٢٤ - ١٩٥٢م رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية البنات، جامعة الأزهر سنة ٢٠٠٥م ص ١٤٩، ١٥٠.

^٢ (مجد الدين حفنى ناصف " آثار باحثة البادية " ملك حفنى ناصف " (١٨٨٦ - ١٩١٨) تجميع وتبويب، تقديم دكتورة سهير القلماوى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢م. ص ١١.

^٣ (هو الشقيق الأكبر للملك فؤاد بن الخديوى إسماعيل وسلطان مصر من سنة ١٩١٤م إلى سنة ١٩١٧م.

^٤ (جورجيت عطية إبراهيم : هدى شعراوى : الزمن والريادة، الجزء الأول، دمشق - دار عطية للنشر سنة ١٩٩٨م ص ٦٦.

^٥ (كان والد ملك " حفنى ناصف " قد تأثر بأفكار الشيخ محمد عبده بعد حضوره لدروسه فى الأزهر الشريف وأصبح صديقاً له. كما أن أن ملك حفنى ناصف قد تأثرت تأثراً شديداً بصديق وألدها الشيخ محمد عبده، حيث عاصرته ملك وهو يشغل بالقضاء والتعليم وبالا ستزادة من العلم فى مصر وخارجها وبممارسة الإصلاح ومقاومة الفساد والظلم، فتشبعت ملك بروحه، واتخذته مثلاً أعلى. وكانت قراءتها له تشغله منها هذه الهمة، لأن هذه القراءات كانت عربية إسلامية فى إطار من التمدن الغربى. : مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٤٣، محمد خلف الله أحمد : محاضرات عن حفنى ناصف كاتباً وباحثاً، جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦١م ص ٩ وما بعدها.

^٦ (هند مصطفى على محمد الشلقانى : الإصلاح السياسى فى خطاب المرأة المصرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢م) دراسة فى خطابه ملك حفنى ناصف وهدى شعراوى، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة - نوفمبر ٢٠٠٤م ص ١٩٧.

^٧ (مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٤٣، ملك حفنى ناصف :. النسائيات، الجزء الأول، القاهرة، دار التقدم للنشر والتوزيع د.ت ص ١١.

^٨ (كانت المدرسة السنية فى الأصل، تسمى بالمدرسة السيوفية، التى أنشأتها زوجة الخديوى إسماعيل " حشمت آفت هانم أفندى " فى أول يناير ١٨٧٣م، ثم أهملت هذه المدرسة، بعد عزل الخديوى إسماعيل من الحكم، حتى تسلمتها نظارة المعارف عام ١٨٨٩م، وأطلق عليها اسم المدرسة السنية ويحمل خريجاتها الشهادة الابتدائية أسوة بالبنين.

⁹ ذكر في كتاب " آثار باحثة البادية " وكذلك الكثير من المصادر والمراجع، أن ملك كانت أول فتاة مصرية حصلت على الشهادة الابتدائية من المدرسة السنية عام ١٩٠٠م. إلا أن أميرة خواسك، أوضحت في كتابها " معركة المرأة المصرية للخروج من عصر الحريم " أن خريجات الدفعة الأولى من المدرسة السنية عام ١٩٠٠م، كان إلى جانب ملك حفنى ناصف كل من فيكتوريا عوض وأولجا بلتش : أميرة خواسك : معركة المرأة المصرية للخروج من عصر الحريم، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠م ص ١٦ .

¹⁰ (وزارة التربية والتعليم : متحف التعليم، لوحة رقم (٨٥٩) بيان بأسماء الرعيل الأول من الحاصلات على دبلوم معلمات السنية. وفي هذه اللوحة إشارة إلى حصول ملك حفنى ناصف وفكتوريا عوض على شهادة الدبلوم من المعلمات السنية عام ١٩٠٣م. بيان بأسماء الرعيل الأول من الحاصلات على دبلوم معلمات السنية :

السنة	الاسم
١٩٠٣	فيكتوريا عوض - ملك حفنى ناصف
١٩٠٤	آسيا عبد الفتاح
١٩٠٥	نور الهدى عبد الله
١٩٠٦	نبوية موسى - بهية حسونة - أنيل دياب
١٩٠٧	تفيدة على - حبيبة نصار - كاترين وهينتى
١٩٠٨	أمينة إبراهيم - نبهة على - روقية رمضان
١٩٠٩	فردوس على - حميدة محمد - فكرية منسى - جليلة صادق - فينيس فورتوناتا نيازي
١٩١٠	تقريزى ديابى - فاطمة منصور - ليبة مصطفى

متحف التعليم : لوحة رقم (٨٥٩).

- ¹¹ (ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول المرجع السابق ص ١٠ .
- ¹² (مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٢٩٧، ٤٣، ٤٢ .
- ¹³ (ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص ١١ .
- ¹⁴ (مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٤٣، ٤٤ .
- ¹⁵ (أشرف غريب أحمد محمد : الحركة النسائية فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية التربية - جامعة عين شمس - قسم التاريخ ٢٠٠٩ م ص ١٠٦ .

¹⁶ (كان زواج الباحثة من النقلاات الهامة فى حياتها، فرغم أنها رفضت الكثير من الخاطبين تمسكاً بإتمام التعليم والعمل فى التدريس، فقد جاء زواجها نتيجة وساطة قوية من قبل صديق والدها الشيخ عبد الكريم سلمان وكان هذا رئيس المحكمة الشرعية العليا كما زامل حفنى

ناصر كآحد محررى الوقائع المصرية، وقد أختار ملك لمن عرفه لوالدها بأنه أحسن الرجال خلقاً وعربى أصيل وأديب مطلع، وهو عبد الستار الباسل وجيه قبيلة الرماح بالفيوم، وقد وافق حفى وابنته على الزواج لما علماه عن أخلاق الزوج ومكانته، ثم انتقلت ملك إلى أملاك زوجها فى الفيوم وأطلق عليها "باحثة البادية" : هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق، ص ٢٠٠.

١٧ (مجد الدين حفى ناصر : المرجع السابق ص ٤٨ - ٥١ .

١٨ (عمر رضا كحالة : أعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام، الجزء الخامس، بيروت، مطبعة الرسالة، الطبعة العاشرة، سنة ١٩٩١م ص ٧٦، أشرف غريب أحمد محمد: المرجع سابق ص ١١٠.

١٩ (مجد الدين حفى ناصر : المرجع السابق ص ٥٢، ٥١.

٢٠ (ملك حفى ناصر : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ١٥.

٢١ (محمد رجب البيومى : النهضة الإسلامية، الجزء الخامس، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ٢٠٠٠م ص ١٤٨، أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١١٠.

٢٢ (سامية حسن الساعاتى : المرأة والمجتمع المعاصر، الناشر الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - سنة ٢٠٠٦ ص ٥٩، ٦٠.

٢٣ (Beth baron: thewomens Awakening in Egypt (New haven : yale uni .

http://archivabem versty press 1994)p.174-175

٢٤ (هو المؤتمر الذى دعى إليه محمد سعيد باشا، رداً على المؤتمر القبطى الذى عقد فى أسبوط فى الفترة من ٥ - ٨ مارس سنة ١٩١٠م للإعلان عن بعض المطالب الخاصة بهم. وقد عقد المؤتمر المصرى الأول فى الفترة من ٢٩ إبريل إلى ٤ مايو ١٩١١م، وطبعت أعمال ذلك المؤتمر فى مجموعة طبعتها المطبعة الأميرية بالعربية فى ٢٠٤ صفحة من القطع الكبير، كما طبعت لها ترجمة فرنسية كاملة: مجد الدين حفى ناصر: المرجع السابق. ص ٥٢ - ٥٣، محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، الجزء الأول، القاهرة، مكتبة الآداب، د.ت ص ١١٨.

٢٥ (آمال كامل السبكى : الحركة النسائية فى مصر ما بين الثورتين " ١٩١٩-١٩٥٢م القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م ص ٩٧، ٩٦ .

٢٦ (رفضت هذه المطالب برمتها، حيث لم يكن لهذا المؤتمر أى سلطة تشريعية أو تنفيذية، وكانت أهميته تكمن فى كونه سجلاً للبرامج المختلفة، وليس أداة تنفيذية : وزارة الشئون الاجتماعية، الإدارة العامة لشئون المرأة : ندوة قضايا المرأة المصرية بين الواقع والمستقبل بحث للدكتورة فرخندة حسن بعنوان " رؤية متكاملة لتحقيق مشاركة المرأة فى الحياة السياسية " (التحديات وإجراءات المواجهة) ١٨ - ١٩ فبراير ١٩٩٧م ص ٥ كذلك :

Beth baron : op.cit: p.175

- 27 (أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١٠٨ .
- 28 (هند مصطفى على محمد الشلقاني : المرجع السابق ص ٢١٦ .
- 29 (جاء تعيين بطرس باشا غالي رئيساً للوزراء خلفاً لحكومة مصطفى باشا فهمي الذي استقال في ١١ نوفمبر ١٩٠٨م لأحتواء غضب الشعب المشتعل من حادثة دنشواي .
- 30 (كان أول ظهور لهذا القانون في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١م، إبان الثورة العربية، للحد مما وصلت إليه الصحافة في دعوتها إلى الحرية، وكان يخول لوزارة الداخلية حق إنذار الصحف، وتعطيلها مؤقتاً أو نهائياً بدون محاكمة، أو بدون قرار من مجلس النظار، أو بدون إنذار سابق، وقد اشتمل هذا التشريع على ٢٣ مادة. : أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١٠٦، ١٠٧ .
- 31 (ملك حفني ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص ١٣ .
- 32 (مجد الدين حفني ناصف : المرجع السابق ص ٣٨، درية شفيق : المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم القاهرة، سنة ١٩٥٥م ص ٩٠ .
- 33 (كان ذلك بفضل شقيقها مجد الدين حفني ناصف، الذي ربما كان أول مصري متخصص في الدراسات الاجتماعية في مدرسة العلوم الاجتماعية في باريس بعد تخرجه من السوربون في العقد الثاني من القرن العشرين : سامية حسن الساعاتي : المرجع السابق ص ٥٩ .
- 34 (كانت مسز " شارلوت كمرون " عضو الجمعية الجغرافية الملكية بلندن والتي زارت مصر ومرت بالفيوم حيث استقرت ملك هناك بعد زواجها من عبد الستار الياسل : ملك حفني ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ١٤ .
- 35 (ملك حفني ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص ١٤ .
- 36 (حمد الياسل من زعماء الحركة الوطنية بمصر عام ١٩١٩م، مغربي الأصل، ولد بمصر عام ١٨٨١م. منشأه نشأة بدوية، كان عمدة لقبيلة الرماح بالفيوم، خلفاً لوالده محمود بن حمد. كان حمد أحد أعضاء الجمعية التشريعية، اشترك مع سعد زغلول في الحركة الوطنية، ونفى معه إلى مالطة عام ١٩١٩م، أختير وكيلاً للوفد المصري، وألف كتاباً أسماه " نهج البداوة " . توفي عام ١٩٤٠م. : أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١١٠ .
- 37 (مجلة العربي، عدد يونيو سنة ٢٠٠٠م مقال لإقبال بركة بعنوان : باحثة البادية " ملك حفني " هل كانت ضد تحرير المرأة ؟ ص ٢٧ .
- 38 (أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١١٠، ١١١ .
- 39 (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤٤، ٤٥ .
- 40 (هند مصطفى على محمد الشلقاني : المرجع السابق ص ٢١١ .
- 41 (ملك حفني ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص ٧٣، ٧٤ .
- 42 (نفسه : ص ٢٢، ٢٣ .
- 43 (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤٧ .
- 44 (هند مصطفى على محمد الشلقاني : المرجع السابق ص ٢٠٠ .

٤٥ (من المعروف أنه في مرحلة تاريخية ما، كانت ملك حفنى ناصف مع رموز أخرى على رأسها هدى شعراوى ونبوية موسى ومى زيادة، جزء من النخبة المثقفة ذاتها، وأعضاء فى جمعيات نسائية بعينها، أنشئت بمبادرات فردية، كان لملك الدور الأكبر فيها من ذلك " الاتحاد النسائى التهنيدى " حيث كانت المصريات والأوروبيات يجتمعن معاً لتبادل الأحاديث والمعلومات بشكل غير رسمى. فضلاً عن جمعية الرقى الأدبية للسيدات المصريات، التى أستهذفت إعداد وتقديم المحاضرات المخصصة للنساء :هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ١٨٧.

- ٤٦ (أحمد محمد سالم : المرجع السابق : ص ٤٧ ، ٤٩ .
- ٤٧ (مجد الدين حفنى : المرجع السابق ص ١٦١ ، ١٦٠ .
- ٤٨ (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٨٩ .
- ٤٩ (مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٦٤ ، ٢ .
- ٥٠ (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٢٦١ .
- ٥١ (هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
- ٥٢ (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٢٦٢ .
- ٥٣ (مجد الدين : حفنى ناصف : المرجع السابق ص ١٤١ ، ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ٣٠ .
- ٥٤ (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
- ٥٥ (ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ٤٥ ، هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
- ٥٦ (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤١٣ .
- ٥٧ (هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
- ٥٨ (ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ٤٤ .
- ٥٩ (مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤٢٩ .
- ٦٠ (ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص ٤٢ .
- ٦١ (مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ١٢٧ .
- ٦٢ (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ١٧١ ، ١٧٢ .
- ٦٣ (ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول ، المرجع السابق ص ٢٨ .
- ٦٤ (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ١٧٣ ، ١٧٢ .
- ٦٥ (ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول، المرجع السابق ص ٢٩ ، ٢٨ .
- ٦٦ (أميرة خواسك : المرجع السابق ص ٨١ .
- ٦٧ (ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول ، المرجع السابق ص ١٠٩ .
- ٦٨ (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٣٧٨ .

- 69 (مجد الدين حنفى ناصف : المرجع السابق ص ١٢٨ .
- 70 (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٣٧٨ .
- 71 (نفسه : ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
- 72 (هند مصطفى على محمد الشلقاني : المرجع السابق ص ٢١٥ ، ٢١٦ .
- 73 (نفسه : ص ٢١٠ .
- 74 (ملك حنفى ناصف : النسائيات ، الجزء الأول ، المرجع السابق ص ٧٩ .
- 75 ("التعليم الإلزامى" هو الخد الأدنى من التعليم الذى يجب أن يناله أبناء الأمة جميعا فيمحو أمية المواطنين ويكسبهم قدرة التميز العقلى والتوافق الاجتماعى . وقد أبدت مصر قدرا من الاهتمام بهذا التعليم منذ عام ١٨٦٧م عندما أصدر على مبارك لائحة رجب الشهيرة لنشر التعليم الإلزامى وتعميقه لكن هذه التجربة لم تكلل بالنجاح ، حتى جاء الانجليز ودعا اللورد كرومر إلى نشر التعليم الأولى فى الكتاتيب وفصول محو الأمية : Lord loyld : Egypt since Cromer vol 1 London 1937 p.160
- 76 (مجد الدين حنفى ناصف : المرجع السابق ص ١٢٥ ، أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٢٩٤ .
- 77 (أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
- 78 (Abu -Alfutouh Redwan:old and new forces in Egypt Education . new york 1951 p.111
- 79 (مجد الدين حنفى ناصف : المرجع السابق ص ١٤٩ ، ١٥١ .
- 80 (ملك حنفى ناصف : النسائيات ، الجزء الأول ، المرجع السابق ص ١٢٩ ، ١٣٠ .
- 81 (جريدة الوطن : عدد ١٦ فبراير سنة ١٩١٨م .
- 82 (الأهرام : عدد ٥ يناير سنة ١٩١٨م .
- 83 (مجد الدين حنفى ناصف : المرجع السابق ص ٦٦ ، ٦٥ .
- 84 (جريدة السفور : عدد ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٨م ، أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١١١ ، إملى نصرالله : نساء والدات من الشرق ، الجزء الثانى الدار المصرية اللبنانية ، طبعة أولى سنة ٢٠٠١م ص ٧٢ ، يوسف نوفل : شاعر الشعب وشاعر النيل (حافظ إبراهيم) القاهرة الدار المصرية اللبنانية سنة ١٩٩٧م . ص ٥ .
- 85 (جريدة الوطن : عدد ٢ مايو سنة ١٩١٩م .
- 86 (جريدة الهلال : فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٨ .
- 87 (ملك حنفى ناصف : النسائيات ، الجزء الثانى ، دار الهدى للطبع والنشر والتوزيع د . ت ص ٣٨ .
- 88 (مجد الدين حنفى ناصف : المرجع السابق ص ٦٦ ، ٦٧ .

المصادر والمراجع

أولا : وثائق غير منشورة :

وزارة التربية والتعليم : متحف التعليم، لوحة رقم (٨٥٩) بيان بأسماء الرعيل الأول من الحاصلات على دبلوم معلمات السنية.

ثانيا : مذكرات وذكريات شخصية :

١- مجد الدين حنفى ناصف : آثار باحثة البادية " ملك حنفى ناصف " ١٨٨٦-١٩١٨ م جمع وتبويب مجد الدين حنفى ناصف تقديم دكتورة سهير القلماوى. وزارة الثقافة والارشاد القومى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢م.

٢- ملك حنفى ناصف: النسائيات الجزء الأول والثانى، دار الهدى للطبع والنشر والتوزيع د. ت.

ثالثا : المراجع العربية :

١- أمال كامل السبكى : الحركة النسائية فى مصر مابين الثورتين " ١٩١٩-١٩٥٢م " القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م.

٢- إمنى نصرالله : نساء رائدات من الشرق، الجزء الثانى دار المصرية اللبنانية، طبعة أولى سنة ٢٠٠١م.

٣- أميرة خواسك : معركة المرأة المصرية للخروج من عصر الحريم الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.

٤- جورجيت عطية إبراهيم : هدى شعراوى الزمن والريادة، الجزء الأول، دمشق دار عطية للنشر سنة ١٩٩٨م.

٥- درية شفيق : المرأة المصرية من الفراغنة إلى اليوم القاهرة سنة ١٩٥٥م.

٦- سامية حسن الساعاتى : المرأة والمجتمع المعاصر الناشر دار المصرية السعودية للطباعة

والنشر والتوزيع القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

٧- عمر رضا كحالة : أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام، الجزء الخامس، بيروت، مطبعة الرسالة الطبعة العاشرة سنة ١٩٩١م.

٨- فرخندة حسن : روة متكاملة لتحقيق مشاركة المرأة فى الحياة السياسية " التحديات وأجراءات المواجهة " وزارة الشؤون الاجتماعية الادارة العامة لشئون المرأة ندوة قضايا المرأة المصرية بين الواقع والمستقبل ١٨- ١٩ فبراير سنة ١٩٩٧م .

٩- لطيفة محمد سالم : المرأة المصرية والتغير الاجتماعى القاهرة سنة ١٩٨٤م .

١٠- محمد خلف الله أحمد : محاضرات عن حنفى ناصف كاتبا وباحثا، جامعة النول العربية، معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦١م.

١١- محمد رجب البيومى : النهضة الإسلامية الجزء الخامس القاهرة سلسلة البحوث الإسلامية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ٢٠٠٠.

١٢- محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الجزء الأول القاهرة مكتبة الآداب د.ت.

١٣- يوسف نوفل : شاعر الشعب وشاعر النيل (حافظ إبراهيم) القاهرة الدار المصرية اللبنانية سنة ١٩٩٧م.

رابعاً: الرسائل الجامعية :

- ١- أشرف غريب محمد أحمد : الحركة النسائية في مصر في النصف الأول من القرن العشرين رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية التربية جامعة عين شمس سنة ٢٠٠٩م.
- ٢- فاطمة محمد علوان إبراهيم : قضايا المرأة في مجلس النواب المصري من سنة ١٩٢٤ - ١٩٥٢م رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية البنات جامعة عين شمس سنة ٢٠٠٥م.
- ٤- هند مصطفى على محمد الشلقاني : الإصلاح السياسي في خطاب المرأة المصرية سنة ١٨٩٢-١٩٥٢م دراسة في خطابي ملك حقني ناصف وهدى شعراوي رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة نوفمبر سنة ٢٠٠٤م.

خامساً: الدوريات :

- ١- الأهرام : عدد ٥ يناير سنة ١٩١٨م.
 - ٢- السفور : عدد ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٨م.
 - ٣- الهلال : عدد ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٨م.
 - ٤- الوطن : عدد ١٦ فبراير سنة ١٩١٨م، ٢ مايو سنة ١٩١٩م .
 - ٥- مجلة العربي عدد يونية سنة ٢٠٠٠م مقال لإقبال بركة : باحثة الهادية * ملك حقني ناصف
- " هل كانت ضد المرأة ؟ " <http://Archives.Sakrill.com>

سادساً : المراجع الأجنبية:

- 1-Lord Ioyid : Egypt since Cromer vol 1 London 1937
- 2-Beth baron: the womens Awakening in EgyT (New haven : yale university press 1994).
- 3-Abu -Alfutouh Redwan: old and new forces in Egypt Education new york 1951.

الهندوس في شرق إفريقيا البريطانية

(١٨٨٤ - ١٩٦٣)

د. أحمد عبد الدايم محمد حسين (*)

تعد تجربة الهند، في النمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي، تجربة رائدة بين دول العالم الثالث الآن. بيد أن الكثيرين لا يعرفون شبكة العلاقات الهندية المعقدة ببقية أطراف العالم. ولا يدركون تلك الأطراف الفاعلة في الهند نفسها، ومدى تشابك واتساع علاقاتها الإقليمية والدولية. وبحكم أن الهندوس يمثلون ٧٥% من سكان الهند، وبحكم أن الدراسات التي أنجزت عن شرق إفريقيا لم تميزهم عن بقية الهنود هناك، وجاءت في معظمها لتهتم بالفترة السابقة للاستعمار، وبحكم ارتباطهم الشديد ببريطانيا، وبحكم ذكائهم وجرأتهم وانتشارهم حول العالم، وأنها تشرح جانباً من تلك القوة التي تتمتع بها الهند الآن وتفسرها، كان لا بد لنا أن نفرّد هذه الدراسة عن: " الهندوس في شرق إفريقيا البريطانية ١٨٨٤ - ١٩٦٣"، لننتعرف عليهم وعلى الدور الكبير الذي لعبوه في تاريخ تلك المنطقة، منذ بداية الاستعمار البريطاني لها وحتى حصولها على الاستقلال. ولنناقش تلك المشكلات التي نشأت عن علاقاتهم بالقوى الاستعمارية وبسكان المنطقة الأصليين، وكيف استفادوا وأثروا وتأثروا بتلك العلاقات خلال تلك الفترة وما بعدها.

ولعل ما يميز دراستنا للهندوس في شرق إفريقيا البريطانية، خلال الفترة من ١٨٨٤ - ١٩٦٣، أنها تكشف لنا الكثير والكثير عما يستغلّق فهمه في تاريخ تلك المنطقة، وغيرها من المناطق التي هاجر إليها الهندوس فيما بعد. وأن تاريخهم فيها ما هو إلا انعكاس لما يحدث في الهند من صراعات داخلية بين الهندوس والمسلمين، ولما يحدث من توافقات وتنسيقات بينهم وبين بريطانيا. فاختيارنا لتلك الفترة، هو اختبار للفترة التي استعمرت فيها بريطانيا كل من زنجبار وكينيا وأوغندا، وحازت فيها ألمانيا على تنجانيقا ورواندا وبورندي. لكن حينما أقصيت ألمانيا عن مستعمراتها الإفريقية، بعد الحرب العالمية الأولى، أضيفت تنجانيقا لبريطانيا، وأضيفت رواندا وبورندي إلى الكونغو البلجيكي. وبهذا أصبحت شرق إفريقيا البريطانية تضم كلا من تنجانيقا وأوغندا وكينيا، بعد ضم زنجبار إليها. ومن ثم فإن دراستنا للهندوس في شرق إفريقيا البريطانية ستشمل

(*) أستاذ مساعد تاريخ حديث ومعاصر بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة.

المناطق الثلاث، بما فيها فترة تبعيتهم للمستعمرة الألمانية، باعتبار أن زنجبار كانت تابعة لكينيا حتى الاستقلال، ولم تنضم لتنجانيقا وتكون دولة تنزانيا الحالية، إلا سنة ١٩٦٤.

وتنطلق الدراسة من الامتيازات التي حصل عليها الهندوس في شرق إفريقيا البريطانية، لتشرح لنا الغموض الموجود في العلاقة بينهم وبين الانجليز من ناحية، ولتميز الهنود السيخ والمسلمين عن الهندوس من ناحية ثانية، لتقول بأن الانفصال الذي حدث بين الهند وباكستان فيما بعد (سنة ١٩٤٧) كانت ملامحه موجودة في شرق إفريقيا من قبل. ناهيك عن أن الدراسة تفتح لنا آفاقاً جديدة في خصوصية العلاقة بين الهندوس وشرق إفريقيا. ومن ثم راحت تطرح على نفسها عدداً من الأسئلة ستحاول الإجابة منها: هل هناك صلة بين قدوم الهندوس لشرق إفريقيا والاحتلال البريطاني لها؟ وهل قوة العلاقة بين الهندوس في الهند البريطانية هو الذي جعل وضعهم مميزاً في شرق إفريقيا؟ وكيف كانت حياة الهندوس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية هناك؟ هل انفصلوا عن الهند تماماً؟ أم أنهم ظلوا مرتبطين بها ويتقاليدها الثقافية؟ وكيف كانت طموحاتهم السياسية هناك؟ وهل أثرت تلك الطموحات على اقتصادهم وبقائهم في شرق إفريقيا بعد الاستقلال؟ لذا تنقسم الدراسة إلى ستة محاور رئيسية، تتمثل في الآتي:

المحور الأول - الجذور التاريخية للوجود الهندوسي في شرق إفريقيا.

المحور الثاني - علاقة الهندوس بالانجليز في شرق إفريقيا البريطانية.

المحور الثالث - المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا.

المحور الرابع - أحوال الهندوس الاقتصادية.

المحور الخامس - أحوالهم السياسية.

المحور السادس - هويتهم الثقافية.

المحور الأول - الخلفية التاريخية للوجود الهندوسي في شرق إفريقيا :-

إذا كان الهندوس يمثلون غالبية سكان الهند نفسها، وينقسمون حسب المكانة والوضع الاجتماعي إلى أربع طبقات رئيسية : البراهمة والكشترى والويشا والشودرا، فإن غالبية الهنود في شرق إفريقيا هم من الهندوس أيضاً. وإذا كانت توجد إمكانية لتمييزهم باللحى، بحكم أن ديانتهم تحرم عليهم حلاقتها، فإن الأرشيف الاستعماري يعج بالصور التي تميزهم عن بقية الهنود هناك. بل يثبت بأنهم ينتمون إلى الطبقات الثلاث الأولى، بحكم أن الفقراء لم يتمكنوا من المجئ للمنطقة^(١)، وأنهم ليسوا الهنود الوحيدين هناك. بل يوجد السيخ والإسماعليون، بما يمثل مجموعهم سويّاً ٢% من سكان المنطقة^(٢).

وتعود علاقة الهندوس بشرق إفريقيا لعصور موغلة في القدم، بحكم علاقات الهند البحرية مع إفريقيا الشرقية^(٣). حينما اكتشفوا، منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة،

أهمية الرياح الموسمية في الإبحار إليها. وهذا ما أتاح لهم ولغيرهم من الهنود الآخرين، فرصة المتاجرة مع المنطقة في الأرز وجوز الهند وقصب السكر والموز والخبز والتوابل والمحاصيل والقطن واليابس^(٤). ويرجح البعض بأن استقرارهم بصفة دائمة هناك، قد جاء في ركاب العرب منذ القرن الثامن الميلادي. فقد اعتمدوا عليهم في النواحي المالية وأعمال الصيرفة وإقراض النقود^(٥). بل إن أقرب دليل سجل الروابط القديمة بين الهندوس وشرق أفريقيا ومناطق النيل، وجد في الكتب الهندوسية القديمة المقدسة، بوراناس^(٦). وحينما زار فاسكو داجاما ساحل شرق إفريقيا، سنة ١٤٩٨ ذكر بأنه وجد العديد من تجارهم مستقرين بموانئ إفريقيا الشرقية^(٧). محدداً أوصافهم بأنهم من أصحاب اللحى الطويلة، ولا يأكلون لحوم البقر^(٨). وهو الذي اقترح الاستعانة بالمستكشف الهندوسي، كانجي مالام، عند وصوله إلى مومباسا^(٩). ويقطع أحد التقارير البريطانية لسنة ١٨١١ بأنهم كانوا تجاراً أثرياء في زنجبار. وهناك مصادر تقول بأن متاعبهم لم تنته إلا بعد استقرار السلطان سعيد (١٨٠٦-١٨٥٦) فيها^(١٠)، وأنهم قدموا بكثرة من ولاية جوجارات Gujarat وتاميل نادو Tamilnadu وكوتشي سنة ١٨٣٠^(١١)، وأن تدفقهم على المنطقة قد استمر طوال الفترة من ١٨٣٠ - ١٨٩٠.

ويعد كوبلاند أول من قدم إحصاءً لعدد هـم هناك، وأنهم في حدود ٥٠٠ هندوسي، وأن الهنود المسلمين في حدود ٦٠٠ إلى ٧٠٠ فرد^(١٢). وأن السلطان سعيد قد جاء بـ ١٢٠٠ هندوسي من عمان لشرق إفريقيا سنة ١٨٤٠. إضافة للـ ٥٠٠ الموجودين هناك^(١٣). لدرجة أن القنصل البريطاني في زنجبار قدر عددهم سنة ١٨٥٩ بحوالي ألفي هندوسي من بين ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ هندي. في حين قدره جون كيرك سنة ١٨٧٠ بحوالي ٢٠٠ هندوسي من جملة ٣٦٥٧ هندي^(١٤). في الوقت الذي قدر في بقية أملك سلطان زنجبار بحوالي ٢٧٤ هندوسياً. بما يعنى أنهم كانوا أكبر عدداً في المناطق الساحلية والداخلية، عكس بقية الهنود الذين تركزوا في زنجبار، وكانوا قلة في بقية أملك السلطان. ويشير البعض بأن عددهم قد ارتفع في زنجبار، سنة ١٨٧٤، إلى حوالي ٣١٤ من جملة ٤١٩٨ هندياً^(١٥). وفي الجملة فإن نقص عدد الهندوس عما كان عليه في عهد السلطان سعيد أو في عهد خلفه، يمكن تفسيره بثلاثة أسباب: أولها: ربما يكون مرتبطاً بتقدير كيرك نفسه. حيث جاء مقصوراً على أملك السلطان فقط، ولم يـم بإحصاء بقية أعدادهم في شرق إفريقيا ككل. ثانيها: لم يتم تقدير أعداد الهندوس الموجودين في مناطق العرب المزارعة الساحلية. تلك المناطق الخاضعة للحماية البريطانية، وكانت جاذبة لهم. ثالثها: لم يتم إضافة أعداد الهندوس الموجودين بمناطق الداخل الإفريقي بشكل متعمد، على اعتبار أنها غير تابعة لزنجبار، دفعاً وتحريضاً على استعمارها.

ويبدو أن العرب والسواحليين ميزوا الهندوس باسم باتيانى Panyani بمعنى تاجر، عن بقية الهنود. وأنهم في نظر الرحالة الأوروبيين كانوا قوماً يحبون المال وجمع

الثروة. واصفين إياهم بأنهم يهود شرق إفريقيا. وأن المال يتدفق إلى جيوبهم، كما يتدفق الماء منحدرًا من شلال شاهق. في حين ميزهم الانجليز، فيما بعد، بأنهم قوم هادئون، حسنى السمعة، يميلون للعزلة عن بقية طوائف المجتمع الأخرى^(١٦).

ويعد السلطان سعيد من أشهر الحكام العرب الذين هيئوا للهندوس بيئة مستقرة في شرق إفريقيا. وهو أول من تعاقد مع مؤسسه مملوكة لهندوسي يدعى وات بهيما Watt Bahima سنة ١٨١٧. وذلك لجباية الجمارك بمبلغ ٧٠ ألف ريال ماريا تريزا. وأنه هو الذي حول ذات الامتياز لهندوسي آخر يدعى سوجي توبان، بمبلغ ٨٤ ألف ريال نمساوي، حينما فسخ عقد بهيما. وارتفع إلى ١٠٠ ألف ريال في عهد ابنه جيرام. بل بقي الامتياز في تلك الأسرة الهندوسية منذ سنة ١٨١٩ ولمدة ٤٠ سنة فيما بعد^(١٧). بل كان وضعهم الاقتصادي المميز قد جعل كريستي طبيب برغش (١٨٧٠-١٨٨٠) يشير إلى أنهم كانوا الحكام الحقيقيين لزنجبار^(١٨). فضلاً عن امتهان بعضهم لحرف النجارة والبناء والحدادة وغيرها. وكان أحدهم، جيرام سوجي، زعيماً للجالية الهندية ككل، وكان نفوذه أكثر من السلطان سعيد نفسه^(١٩). بل استمر نفوذه في عهد السلطان برغش^(٢٠).

وأغلب الهندوس في شرق إفريقيا هم من فئة المرابين والسماسرة والتجار، القادمين من كوتش Kutch ومناطق البنجاب والجنوب والبنغال. تاجروا في كل شيء^(٢١)، وواجهوا صعوبات كبيرة، كذلك الابتزازات التي تعرضوا لها في عشرينيات وثلاثينيات القرن ١٩ على يد المزارعة في ممبسة. وكذلك التي فرضها السلطان سعيد في شكل جمارك قدرها ٢٠ % مقابل ٥٠ % قبل سنة ١٨٣٣^(٢٢). وتميزوا عن الهنود الآخرين بأنهم كانوا يحرقون موتاهم في كرنجاني Kringani. وكانت إقامتهم في البداية إقامة مؤقتة. في حين كان وضعهم الاجتماعي في زنجبار مميزاً. فقد عاشوا في القسم العربي من المدينة، ولم يسكنوا القسم الخاص بالسواحيليين^(٢٣). وتقيدوا بدياناتهم تقيداً صارماً. وتحدثوا اللغة السواحيلية، بل أصبحت اللغة الأولى لبعضهم، لكونها لغة الاقتصاد والمجتمع في شرق إفريقيا^(٢٤). بما يدل على ذكائهم في مداخلة العرب والسكان الأصليين على السواء. وهذا الذكاء سيجعلهم يتحولون للغة الانجليزية فيما بعد، حينما يمسك البريطانيون بزمام الأمور في شرق إفريقيا. ولما كانوا في الأساس رعايا بريطانيين، حيث تحولت الهند سنة ١٨٥٧ من مستعمرة تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية لتصبح مستعمرة تاج، فإنهم رفضوا طلب السيد سعيد وخلفائه بالتوقيع على عريضة يعلنون فيها أنهم رعايا السلطان، خوفاً على أسرهم وتجارتهم في الهند^(٢٥). لكن مع إقامة حكام ممبسة المزارعة لمعاهدات تجارية مع أمريكا وبريطانيا في ثلاثينيات القرن ١٩، وما أعقبها من معاهدات تجارية أخرى، شعروا بأن شرق إفريقيا تفتح أمامهم فرص الثراء السريع، فضلاً عن تحولها لمكان آمن لاستقرار أسرهم^(٢٦).

المحور الثاني - علاقة الهندوس بالانجليز في شرق إفريقيا البريطانية:

استمرت عملية التوسع البريطاني في شرق إفريقيا، منذ بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر، حتى حسمها مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥. وتم تقسيم المنطقة بالفعل حسب الاتفاق الألماني البريطاني سنة ١٨٨٦، فأصبحت تنجانيقا تابعة لألمانيا، وأصبحت زنجبار وكينيا وأوغندا تابعة لبريطانيا (انظر الخريطة التالية). لكن لم تستقر الأمور لبريطانيا في المنطقة إلا مع نهاية القرن ١٩^(٢٧). وبعد الحرب العالمية الأولى انتقلت أمور تنجانيقا إليها، لتشكل مع المناطق السابقة ما سمي بـ شرق إفريقيا البريطانية. واستمر وجودها هناك حتى استقلال آخر دولة من دول المنطقة سنة ١٩٦٣.

خريطة شرق إفريقيا سنة ١٩٠٥



نقلا عن : Bernhard Gölbl: - GERMAN COLONIALISM AND THE BEGINNINGS OF INTERNATIONAL

WILDLIFE PRESERVATION IN AFRICA, GHI BULLETIN SUPPLEMENT 3 (2006), P.125.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل هناك علاقة بين الهندوس والبريطانيين في تلك المنطقة؟ وما شكل هذه العلاقة؟ وكيف نمت وتطورت؟ وما نتائجها؟ الإجابة تقول بأن العلاقة بين الطرفين بدأت قوية، وتخللتها بعض مشاكل، لكنها انتهت عند الاستقلال أقوى مما كانت عليه. وحتى نفهم تلك العلاقة جيداً يمكن تفصيلها في أربعة أشكال رئيسية:

الشكل الأول: الدور الذي لعبه الهندوس في خدمة المشروع الاستعماري البريطاني في شرق إفريقيا. فبالنظر لأعداد الهندوس في شرق إفريقيا، البالغ سنة ١٨٤٤ حوالي ٥٠٠ شخص، وأخذاً في الاعتبار ما أشار إليه برتون سنة ١٨٥٩ بوجود ٥٠ هندوسياً في مومبا، و ٢٠ في تانجا ومثلهم في بانجاني، و ٥٠ في كيلوا، فإن هذا يعنى كثرة عددهم بالداخل الأفريقي. ونظراً لكونهم رعايا بريطانيين بالأساس، كان من الطبيعي أن

يكونوا جسراً لبريطانيا لاستكشاف المنطقة قبل قدوم الرحالة البريطانيين إليها. ولعل حديث الرحالة سبيك وبيرتون وجرانت عن ترحيب الهندوس واحتفائهم بالمكتشفين الذين زاروا شرق ووسط إفريقيا، خلال خمسينيات وستينيات القرن ١٩^(٢٨)، يعد خير دليل على هذا الدور الذي لعبوه في خدمة هذا المشروع الاستعماري في شرق إفريقيا قبل أن يبدأ.

ويظهر هذا الدور الخطير حينما ألقى السيد خليفة بن سعيد (١٨٨٨-١٨٩٠) زمام القيادة لاثنتين من أخصائه الهندوس. حيث تشير التقارير بأنهما كانا يقدمان له النصائح الضارة فيأخذ بها. وعلى حد وصف الوثائق الانجليزية كان أحدهما، كاشومار، متآمراً عجوزاً لكل نفوذ أوروبي. وأما الآخر، بيراديفجي، فقد كان خادماً هندوكياً وضيقاً. وكان الاثنان يشكلان مصدر قلق للقنصل البريطاني في زنجبار، السيد إيوان سميث. حيث كان السلطان يقضي للرجلين بكافة المسائل السرية التي يبحثها معه. وهما يحثانه على نقض عهوده التي قطعها للقنصل. وكان اعتماد السلطان على نديمين وضيعين من رجال قصره يؤدي إلى إثارة كراهية المشايخ العرب العميقة له. لكون هذين الرجلين قد أثارا الشكوك فيهما، وجعلوا السلطان يهمل القضايا التي يرفعها هؤلاء المشايخ. حيث حرمهم من مظاهر التشریف والامتيازات. لهذا رفعوا لإيوان سميث سنة ١٨٨٩ شكوى موقعة من ١٢ شيخاً، **يعنون تخوفهم** من خراب البلد بسبب تسلط مستشاريه الشريرين، وأعلنوا وقوفهم مع خلع السلطان. لذا نصح إيوان سميث في ١١ مارس ١٨٨٩، عبر خطابه للورد سالسبوري، بأنه لا سبيل إلى إزالة التوتر الذي ازداد حدة بين السلطان وبين رعاياه، إلا بالتخلص من مستشاريه السيئين. وقد استطاع إخراج بيراديفجي الهندوسي إلى بومباي، بمقتضى أمر سلطاني في ٢ مارس ١٨٨٩، حول للقنصل البريطاني حق ترحيل أي بريطاني يكون مسلكه خطراً على سلام زنجبار. ومع ذلك غضب السلطان غضباً شديداً على ترحيله، لدرجة جعلته يرفض توديع إيوان سميث عند عودته إلى بريطانيا، ظل فيها من أبريل حتى ديسمبر ١٨٨٩، بل ويرسل لسالسبوري خطاباً يطلب فيه عدم إعادته ثانية لزنجبار^(٢٩). والقصة بهذا الشكل تحتل أمرين : أولهما، أن هذين الهندوسيين قد لعبا دوراً رئيسياً في إمساك الانجليز بزمام الأمور في زنجبار. فلكونهما رعيّتين بريطانيتين في الأساس، يرجح بأن هناك مكرًا وحيلة في المسألة. فمن المحتمل أن الانجليز كانوا يتفقون مع السلطان على شيء، ويطلبان من عملائهما الهندوسيين مخالفة ما اتفق عليه، ليستخدم كذريعة للتدخل في شئون الرجل ولعزله عن أنصاره. ثانيهما، أن الرجلين بنفوذهما الكبير داخل زنجبار، قد أجبا الصراعات الداخلية ضد السلطان. فكان استفزازهما للمشايخ العرب قد اضطرهم لطلب عزل السلطان من بريطانيا. وربما يكون هذا التآجيج والتدبير بهذا الشكل مقصوداً للوصول إلى تلك النتيجة. بل بعد أن تحقق بريطانيا رغبتها في الوقعة بين السلطان وأعدائه تعمل على إنقاذ صنيعتهما، بترحيلهما إلى الهند بشكل رسمي.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، حيث تشير الوثائق إلى أن الهندوس ساعدوا في احتلال أوغندا، وأنهم أسهموا في تطور الإدارة البريطانية في شرق أفريقيا، خلال الخمسة والثلاثين عاماً الأولى من حكم البريطانيين لتلك المنطقة. وأنهم أسهموا في بناء كثير من المناطق الأخرى هناك، بما جعلهم يطلبون من الإدارة البريطانية المساواة في المعاملة مع البيض^(٣٠). بل إن دورهم في هذا الأمر جعلهم يطلبون، باعتبارهم رعايا بريطانيين، محاكم مستقلة خاصة بهم. فكان لهم ما طلبوه بمقتضى مرسوم ديسمبر ١٨٩٢، الذي خول للمحكمة القنصلية حق الفصل في القضايا بينهم وبين رعايا سلطان زنجبار الذي قبل بالحماية البريطانية، فحصلوا على أحكام جائرة ضد العرب والإفريقيين على السواء^(٣١).

الشكل الثاني: المشاركة في تنفيذ المشروعات البريطانية. فمع أن الهندوس قد جاءوا في بداية الفترة الاستعمارية بحثاً عن فرص عمل وسبل حياة أفضل، إلا أنهم جاءوا كعمال في الأساس، ليس فقط لبناء سكك حديد كينيا- أوغندا منذ عام ١٨٩٦، ولكن أيضاً للعمل في المزارع والمناجم، وجنوداً في القوة العسكرية المنشأة هناك، وموظفين في الإدارة الاستعمارية. لذا كانت علاقاتهم بتلك الإدارة في أحسن صورة^(٣٢). وفي هذا الإطار لم يخدموا الاستعمار الإنجليزي فقط، بل ساعدوا الألمان في عمليات صيد الأفيال وفي توطيد أقدامهم في المنطقة^(٣٣). خاصة أنه حينما سيطر الأوروبيون على اقتصاد شرق إفريقيا^(٣٤)، شرعوا بمعونة الهنود بصفة عامة، والهندوس بصفة خاصة، في فهم المنطقة وكيفية الاستفادة منها. ومن ثم عاد هذا على الهندوس بمزايا اقتصادية^(٣٥). فتعاملوا في المستعمرة الألمانية بالمارك الألماني منذ سنة ١٨٩١^(٣٦). وحينما زادت قوتهم الاقتصادية التجارية في عشرينيات القرن العشرين لم يكن القانون الاستعماري يسمح للهندوسي بأن يكون وسيطاً وتاجراً في نفس الوقت. بل كان عليه الترخيص بأي منهما^(٣٧).

الشكل الثالث: ارتفاع عددهم في مناطق الساحل والداخل على السواء. فمع قدوم المستعمرين الأوروبيين ارتفع عددهم في كينيا إلى حوالي ٥٠٠ هندوسي. وعاش بعضهم قرب دار السلام. بل تساوى عددهم مع الهنود الآخرين في بعض مناطق الساحل، مثل تولياني Tuliani وبنياس Banias وكوالى وكيتمانجو Kitmangao وباتيا وسمانجا Samanga وكيلوا وليندي وبجامايو. ولكن بصفة عامة كان الهندوس الأكثر عدداً في زنجبار. بل جلبوا عائلاتهم واستقروا في معظم أنحاء شرق إفريقيا^(٣٨). وبرغم عدم القدرة على تمييز عدد الهندوس من بين الـ ٣٢٠٠٠ عامل الذين جاءوا لبناء خط حديد كينيا- أوغندا، ولا القدرة على التعرف على من بقى منهم بعد انتهاء الخط سنة ١٩٠٢ للعمل بالإدارة الاستعمارية والتجارة^(٣٩)، ولا عدد من توفى منهم ضمن الهنود المتوفين (٢٤٩٣ متوفى)^(٤٠)، ولا عدد من عاد منهم للهند ثانية في ديسمبر ١٩٠١، من

(حوالي ٦٧٠٠)^(٤١)، إلا أن صوره ولحاهم المميزة في أرشيف الصور الاستعماري، يشير إلى هذه الزيادة الكبيرة في أعدادهم. ولعل اللقطة التالية تلخص هذا الأمر.

لقطة لعمال هنود يبنون سكة حديد شرق إفريقيا ١٨٩٦-١٩٠١



Report of The High Level Committee on The Indian Diaspora, PP.91

نقلا عن :

وبرغم الإخطار التي تعرض لها الهندوس في عملية إنشاء السكك الحديدية، من افتراس الحيوانات الاستوائية لبعضهم، ومن إصابتهم بأمراض المناطق الحارة المختلفة، كالمalaria والدوسنتاريا^(٤٢)، وتأثرهم بطواعين سنوات ١٩٠٥ و ١٩٠٦ و ١٩١١ و ١٩١٢ و ١٩١٣، إلا أن أعدادهم تضاعفت ضمن أعداد الهنود التي تضاعفت في الفترة من ١٨٨٤ - ١٩٢٠، من ٦٠٠٠ إلى ٤٥٠٠٠ هندي^(٤٣). بل تضاعفت ثانية خلال الفترة من ١٩٢١ - ١٩٣١^(٤٤). فسكنوا الإحياء الهندية، واستفادة من العلاقة مع بريطانيا. ومثلوا دور الوسطاء ومقرضى المال ووكلاء الأعمال، لدرجة أدهشت البريطانيين أنفسهم^(٤٥). بل اشتهرت عائلات هندوسية كثيرة هناك، كالباتلز Patels ولوهانا Lohana وشاهز Shahs^(٤٦). بل ذهبوا إلى أوغندا منذ سنة ١٩٠٣، وتضاعف عددهم بها حتى بلغ سنة ١٩٣١ حوالي ٨٣٥٨ هندوسياً مقابل ٥٠١٦ هندياً مسلماً. وهو الأمر الذي جعل البعض يطلق على شرق إفريقيا أنها أمريكا الهنود، وأن رحيلهم عنها كفيل بانهيارها الاقتصادي تماماً^(٤٧).

وإذا كان الواقع القاسي للهند هو الذي شجع هجرة الهندوس لشرق إفريقيا، إلا أن العقود ذات الخمس سنوات التي قدمها الانجليز لهم، كانت هي البوابة التي فتحت المنطقة أمامهم. فقبل أن يأتوا لبناء سكة حديد شرق إفريقيا، فقد جاعوا منذ سنة ١٨٩٠ ليعملوا في زراعة البن والسكر وفي مزارع المطاط. ومع استقرار الحكم البريطاني، فتحت المنطقة ذراعيها لهم^(٤٨). بل لم يقتصر الأمر على هجرة هندوس الهند

إليها فقط، بل جاءها هندوس من جنوب إفريقيا خلال حرب البوير ١٨٩٩-١٩٠٢^(٥١). ووصلها أفواج من الحرفيين والكتبة وصغار التجار^(٥٢). لكن حينما ارتفعت أعدادهم بصورة كبيرة، بدأت الإدارة البريطانية تفرض قيودا على هجرتهم، وعلى تملكهم للأراضي. وراحت تعزلهم مع بقية الهنود في أحياء خاصة بهم^(٥٣). وهو الأمر الذي جعلهم يقومون بتهريب رأس مالهم في الفترة من ١٩٢١-١٩٢٢^(٥٤). ولعل مغادرتهم بأعداد كبيرة، ضمن الهنود الذين تركوا كينيا في الفترة من أبريل ١٩٢١ حتى مارس ١٩٢٢ - حيث غادرها ٥٤٣٥ هندي بالمقابل دخلها ٣٦١٢ فقط^(٥٥) - يشرح تأثير تلك القيود التي فرضها البريطانيون على نشاطهم خشية ازدياد تأثيرهم ونفوذهم أكثر فأكثر. وربما تكون مرتبطة بتزايد وتيرة الحركة الوطنية في الهند وضرباتها لبريطانيا هناك، واستخدام بريطانيا لهؤلاء العائدين ومصالحهم كورقة للضغط على بني جلدتهم لتهدئة ثورتهم.

الشكل الرابع: غلبة جو الصداقة والتعاون مع الإدارة الاستعمارية البريطانية. فبرغم أن البعض يقولون بأن جو الصداقة هذا، قد ساد الفترة الاستعمارية الأولى حتي سنة ١٩٠٣، غير أن القيود التي فرضها البريطانيون عليهم لم تنه تلك الصداقة أبدا. فإذا كانت تلك الإدارة قد فرضت قيودا على هجرتهم، بعد وصول دفعات من المستوطنين البريطانيين في الفترة من ١٩٠٢-١٩٠٥، فإن هذا لم يمنعهم من أن يجتمعوا في ممبسة ليطالبوا بالسماح لهم بتخصيص أراض في المرتفعات، بل ويكرروا ذات الطلب سنة ١٩٠٨^(٥٦). ومع أن الإدارة الاستعمارية رفضت كلا الطلبين، إلا أن العلاقة استمرت جيدة بين الطرفين لدرجة جعلتهم يطلبون مزيدا من الخدمات الاجتماعية^(٥٧).

ورغم أن سن قانون أراضي التاج لسنة ١٩١٥، قد أثر على الهندوس وغيرهم من الهنود^(٥٨)، ورغم حظر دخولهم^(٥٩)، بحجة أعمال التخريب التي يمارسونها، والخوف من ردود فعل الإفريقيين في كينيا وتنجانيقا وأوغندا تجاهها^(٦٠)، إلا أن استمرار تدفق أعدادهم^(٦١)، رغم إجماع الأوروبيين في هذا الشأن^(٦٢)، يشير إلى أن جو الود والصداقة قد استمر قائما بين الطرفين. ربما خشية أن تؤدي مشاكلهم في شرق إفريقيا إلى مشاكل بين الهند وبريطانيا نفسها^(٦٣). فحين فرضت صعوبات كثيرة تعارض منحهم امتيازات على شاكلة تلك الممنوحة للأوروبيين سنة ١٩٢١^(٦٤)، وعرضت مشاكلهم على المؤتمر الإمبراطوري المعقود في ذات السنة^(٦٥)، وضح بأن هناك صعوبة في إزالة الحظر المفروض على هجرتهم سنة ١٩٢٢^(٦٦). بل إن برقية حاكم كينيا، بضغط من قبل المستوطنين البيض، لوزير الدولة لشؤون المستعمرات في الأول من فبراير ١٩٢٣، تشير إلى طلبه باستمرار تلك القيود المفروضة على هجرتهم^(٦٧). ومن ثم فإن جو الصداقة والمودة بين الطرفين لم يمنع فرض القيود على عليهم. لكن

استمرار جو الصداقة هذا، كان يسمح بالتلاقي بين الطرفين، فلم تتحول العلاقة بينهما طيلة الفترة الاستعمارية لحالة العداء والكراهية الشديدة أبداً.

فقد رتبت السلطات الاستعمارية المجتمعات في شرق إفريقيا على النحو التالي؛ الأوروبيون في المقدمة، يليهم الهنود، ثم العرب، ثم الإفريقيين^(٦٦). وكان الدور الأساسي الذي لعبه الهندوس في بناء مركز تجاري وسيط بين الأوروبيين وغيرهم، واستخدامهم من قبل الإدارة الاستعمارية ككبش فداء في أوقات الأزمات^(٦٧)، قد جعل وجودهم هناك أمراً مهماً طوال الفترة الاستعمارية. أضف إلى هذا، أن الوجود البريطاني في الهند قد أتمن للهندوس استمرار تلك المكانة المميزة في شرق إفريقيا، بحكم أن غالبية سكان الهند البريطانية من الهندوس. لكن بعد استقلال الهند سنة ١٩٤٧، واختيار الهندوس الجنسية الهندية، وتفضيل الهنود المسلمون للجنسية الباكستانية، تبين بأن وضع الهندوس في شرق إفريقيا ليس له علاقة بالترتيبات البريطانية في الهند نفسها، بقدر ما هو متعلق بدورهم ونشاطهم الاقتصادي هناك. فقد أتضح بأن الدور الذي يقومون به في الترويج للسلع البريطانية بين هندوس موزمبيق وجنوب إفريقيا^(٦٨)، وتهديد الكثيرين منهم بالرحيل عن شرق إفريقيا، غير متعلق برحيل بريطانيا عن الهند، بل متعلق بالقيود التي فرضها الانجليز عليهم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تخفيفاً للكراهية التي أبدوها الإفريقيون تجاههم^(٦٩). وهكذا استمر استخدام البريطاني لهم ككبش فداء، ليحول الغضب الإفريقي من البريطانيين ليصب باتجاههم. هروباً من سلسلة الوعود بالحكم الذاتي سنة ١٩٢٣^(٧٠)، ومن وعود بالاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية.

وربما كان نجاح الهندوس في دور الدوبلير الذي يتلقى الضربات بدلاً من البطل الرئيسي للراوية، كان سبباً رئيسياً في جعل البريطانيين يستبقونهم في شرق إفريقيا حتى موعد تسليمهم باستقلال المنطقة. ولعل وجودهم في كل المدن الرئيسية لتنجانيقا وزنجبار وكينيا وأوغندا، حسب تقديرات سنوات ١٩٥٧ و ١٩٥٩، يلخص هذا الاستمرار في الحضور الكبير^(٧١). وهذا ما جعل العلاقة تتوثق بين الطرفين، لدرجة جعلت الجيل الثاني من الهندوس في شرق إفريقيا يركز على أن تكون مشاريعه الجديدة في المملكة المتحدة. بعد أن غيرت الحكومة الهندية سياستها تجاههم بعد استقلال الهند في ١٩٤٧. فقبل الاستقلال لعب القوميون، مثل غاندي، دوراً ضد التمييز في المجتمعات الاستعمارية. أما بعد الاستقلال فقد حلت سياسة اللامبالاة على يد نهرو^(٧٢). لهذا فإنهم قرروا ترك المنطقة والرحيل إلى بريطانيا، حينما استقلت دول شرق إفريقيا خلال الفترة من ١٩٦١-١٩٦٣، ووضعت حكوماتها المستقلة قيوداً عليهم خلال ستينيات القرن العشرين^(٧٣). فكان وصف الإفريقيين للهندوس بنعوت مثل 'الصوص'، و'المكتنزون' و'المستغلين'، بالإضافة لسياسة الأفارقة، قد جعلهم يقررون الرحيل عن شرق إفريقيا. ولما كانت علاقتهم جيدة ببريطانيا فقد هاجروا إليها مفضلين

إياها علي الهند وطنهم الأم. بل وصل معدل الهجرة إليها في الأسبوع الواحد ما بين ٤٠٠ - ٥٠٠ هندوسي. وتقلصت أعدادهم بصورة كبيرة في كل المنطقة^(٧٤). بل صدر لهم قانون مهاجري الكومنولث سنة ١٩٦٨، ذلك القانون الذي ساعدهم في الرحيل لبريطانيا^(٧٥). فلو كانت العلاقة بينهم وبين البريطانيين سيئة خلال الفترة الاستعمارية، لكان هناك عدم تفضيل من جانبهم للاستقرار بها، مفضلين إياها علي بلدهم الأم، أو لكانت بريطانيا نفسها ترفض هجرتهم إليها. وربما كان هذا الاستمرار للوجود الهندوسي في بريطانيا هو الذي يفصح تلك العلاقة الخفية بين بريطانيا والهند. بل أيضا ويكشف الدور الذي تلعبه الهند في خدمة المشروعات الغربية في منطقة جنوب شرق ووسط آسيا، ليس فقط عبر العلاقات الرسمية، بل عبر الجماعات الهندوسية التي تعيش في بريطانيا والدول الغربية.

المحور الثالث- المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا البريطانية :

تكون المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا عبر هجرة طوعية باختيارهم، وهجرة إجبارية تولاهما وكلاء الاستعمار البريطاني^(٧٦). بل تشير الروايات إلي أن منطقة شرق إفريقيا أصبحت في العصر الفيكتوري هي المنفذ الرئيسي للهجرة الهندوسية. وأن المجتمع الهندوسي هناك أسهم في تطوير الزراعة، والإشراف علي أعمال المنفعة العامة، ومثلوا قطاع العمالة الماهرة، وكانوا حاضرين في كتابات الرحالة والدبلوماسيين والمبشرين، وأن دورهم في تأسيس الحكم البريطاني في شرق إفريقيا كان كبيراً^(٧٧). وأنهم كانوا كذلك في مستعمرة شرق إفريقيا الألمانية^(٧٨). وحتى نتعرف علي ملامح المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا أكثر لابد من الحديث في خمسة أمور:

الأمر الأول: خصوصية المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا، فمع أن الهندوس شكلوا فصلاً رئيسياً داخل المجتمع الهندي في تلك المنطقة^(٧٩)، إلا أنهم نظموا مجتمعاً مستقلاً خاصاً بهم هناك. فقد كان العمال الهندوس، علي سبيل المثال، لهم خصوصية داخل العمالة الهندية التي جاءت لبناء خط حديد أوغندا خلال الفترة من ١٨٩٦ - ١٩٠٢^(٨٠). وكان معظمهم قد جاء ابتداء من عام ١٨٩٦ من ولاية البنجاب، وعاد أكثر من ٩٠% منهم إلى الهند في نهاية عقودهم سنة ١٩٠١. وهذا لا يعني أن الهندوس لم يعد لهم وجود في شرق إفريقيا بعد هذا التاريخ. فقد جاءها تجار كثيرون يبيعون لهؤلاء العمال، وحينما اجتذبتهم مناطق الداخل توغلوا فيها بطلب من الإدارة الاستعمارية^(٨١). بل زادت أعدادهم في خمسينيات القرن العشرين بما يتجاوز نصف عدد الهنود المقدر بـ ١٩٨ ألف، كانوا يعيشون في أوغندا وتنجانيقا وزنجبار وكينيا^(٨٢). ومع اقتراب استقلال شرق إفريقيا في بداية الستينيات، تجاوز عددهم أيضاً نصف الـ ٣٦٠ ألف هندي القاطنين هناك. ونتيجة الضغوط الكبيرة التي مورست عليهم من قبل الحكومات الإفريقية بعد الاستقلال تركها الكثيرون منهم وارتحلوا لأوروبا وأمريكا وغيرها^(٨٣).

واحتفظ المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا بخصوصياته، حيث جاءت طبقة البراهمة في قمة الترتيب الاجتماعي، في حين جاء الاتوتوشابول Untouchables في المؤخرة ^(٨٤). وسكنوا المدن بأمر الحكومة البريطانية، واستأجروا مجالهم فيها بنظام ٤٩ سنة أو ٩٩ سنة. وعاشوا مثل اليهود في حارات خاصة بهم (جيتو). وأقاموا مدارس خاصة بهم للمحافظة على ثقافتهم ^(٨٥).

وإذا كان البراهمة قد أتوا في المقدمة، بحكم ترتيبهم الهيراركي داخل المجتمع الهندوسي، إلا أن أعدادهم قليلة مقارنة بعدد العمال الفنيين والتجار الذين صحبوهم لإمدادهم بالسلع والخدمات الأخرى. ومن ثم لم تستطع المجئ لشرق إفريقيا لا الطبقات الهندوسية الفقيرة، ولا الأغنياء والمتعلمون تعليماً جيداً ^(٨٦). ووفر الانجليز الفرصة لانتقال أسر هندوسية بكاملها للمنطقة. وخير مثال لذلك، الدراسة التي اعتمدت على تاريخ عشرين أسرة هندوسية، عاشت هناك لمدة ثلاثة أجيال، ما بين ثمانينيات القرن التاسع عشر وستينيات القرن العشرين، كأسرة وهانا، وعائلة وهانا سندريجي Sunderji ونانجي ديومرداس Damordas وكيشافجي Keshavji. بل ذهب كثيرون من رجال الأعمال الهندوس ليستقروا مع زوجاتهم وعائلاتهم هناك، خلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٦٠. فقد كانت النجاحات التي حققها أقرباؤهم منذ ثمانينيات القرن ١٩، هي المحرض الرئيسي لانتقالهم، فضلاً عن الاستقرار والحماية التي وفرها الانجليز لهم. ناهيك عن الفرص التجارية التي وفرتها المنطقة لتجارة المنسوجات القطنية والعاج والتوابل المربحة. فقد كانت الهند نفسها غير مشجعة للاستمرار فيها. ناهيك عن أن الكثيرين ممن جاءوا في بداية العصر الاستعماري مع آبائهم كأطفال، عادوا في عشرينيات القرن العشرين ليصطحبوا بقية أسرهم. ولعل تمييز الزيادة في عدد الهندوس من بين الهنود خلال الفترة من ١٨٨٤ - ١٩٦٣ ^(٨٧)، يشير إلى قدرة المنطقة على جذب الهنود بصفة عامة، والهندوس بصفة خاصة. وإذا أخذنا تعداد سنة ١٩٤٨ في كينيا كمؤشر على الوضع الاجتماعي للهندوس، لوجدناه يشير إلى وجود محامين ومدرسين وأطباء بينهم، غير أن غالبيتهم يعملون بالتجارة. وأن أربعة أخماسهم يعملون بالتجارة أو الصناعة، والباقي في الوظائف والحرف الأخرى. وبالنسبة للعمال والحرفيين وموظفي الإدارة الاستعمارية، فقد كانوا يعملون سبعة أيام في الأسبوع، من الفجر حتى آخر النهار. ولا يشكون من أقسى المهام وأشقها، ويقنعون بأجور ضئيلة ^(٨٨).

وحافظ المجتمع الهندوسي على خصوصيته في شرق إفريقيا. فقد التفت الهندوس حول عقيدتهم الدينية، وتقيدوا بتقاليد مجتمعاتهم وطقوس دينهم الصارمة. ومع أن بعضهم أتقن السواحيلية إلا أنهم تمسكوا بخصوصيتهم اللغوية ^(٨٩). لهذا فإنهم لم يستطيعوا تطوير تنظيماتهم الاجتماعية هناك. فقد أجبرتهم معتقداتهم على بقاء ارتباطهم بالهند. وربما كان الهندوس أغنياء ومؤثرين، ولكنهم في النهاية كانوا مجتمعاً

منعزلاً هناك. فضلاً عن أنهم مثلما كانوا في الهند، عاشوا في شرق إفريقيا. فقد نقلوا تنظيماتهم الاجتماعية الهندية بصورة كربونية لتلك المنطقة. فقد كان لهم رئيس ونائب لكل قرية، وهناك رئيس للعشيرة. وكانوا مرتبطين بعادات زواجهم من أقاربهم. وكانت جمعيات الباتيدار Patidar Associations هي التي تدير شئونهم. وانتظموا في عدد من الجمعيات التي حافظت على هويتهم. وشكل عدد أعضاء جمعية كمبالا الهندوسية في أوغندا العدد الأكثر من بين تلك الجمعيات. ناهيك عن أنهم، ولكونهم أثرياء، بنوا قاعة احتفالات كبرى يجتمع فيها كل هندوس أوغندية، وبنوا ملجأ للأطفال، وتحملوا تكلفة تعليم كل الفقراء من أطفالهم^(٩٠). وحافظ الهندوس على اتصالاتهم المستمرة بالهند وزنجبار وعمان ومدن عالمية أخرى كثيرة^(٩١). وبرغم وجود جمعيات خاصة بهم، إلا أن الجمعية الهندية المركزية بنيروبي ظلت تمثل كل المجتمع الهندي في شرق إفريقيا^(٩٢). ونخلص من هذا الأمر بأن شرق إفريقيا كانت هي البوابة الرئيسية لاتساع شبكة العلاقات الدولية والإقليمية للهندوس. وأن خصوصيتهم هي التي جعلت الأطراف الأخرى هناك تتعامل معهم بحرص وحذر واحترام لها.

الأمر الثاني: علاقة المجتمع الهندوسي ببقية الهنود، فبرغم أن خصوصية المجتمع الهندوسي قد أحدثت الاتساق والتعاون داخل طائفتهم في كل شرق إفريقيا، خصوصاً بعد تحول تنجانيقا للحكم البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، إلا أن علاقات هذا المجتمع ببقية الهنود كانت علاقة قوية ووطيدة، خصوصاً بينهم وبين السيخ البنجاب^(٩٣). فقد ظلت الصداقة موجودة وقائمة بين الطرفين في أوغندا، وغيرها من بلدان شرق إفريقيا طوال الفترة الاستعمارية^(٩٤). بل تشير الكتابات إلى أنه خلال تقسيم البنجاب ١٩٤٧ وفقد الكثير من عائلات السيخ أراضيهم، رحب الهندوس بالمرتحلين منهم لشرق إفريقيا واستقبلوهم استقبلاً جيداً، وصارت العلاقات وطيبة بينهم منذ تلك الفترة وحتى الاستقلال، لدرجة أنهم بعد انقلاب الإفريقيين على الطرفين، ساعدوهم في تفضيل الهجرة إلى المملكة المتحدة وكندا والولايات المتحدة الأمريكية^(٩٥)، وأستراليا ونيوزيلندا وبعض بلدان أوروبا، عن الهند عام ١٩٦٥^(٩٦).

في حين تراوحت العلاقات بينهم وبين بقية الهنود من المسلمين بين الشد والجذب. ففي أحيان كثيرة كان يسودها التوتر والانقسامات، وأحياناً أخرى كان يغلب عليها المودة والتعاون. بعضها مرتبط بظروف التنافس بين الطرفين على خيرات شرق إفريقيا، وبعضها جاء انعكاساً لحالة الصراع بينهما في الهند نفسها. ولعل تدخل مدير عام إنشاء الخط الحديدي والنزول بنفسه إلى مخيم العمال الهنود - خلال الفترة الاستعمارية المبكرة، لقمع الاضطرابات بين الهندوس والمسلمين، وفصلهم عن بعض خلال الاشتباكات المستمرة التي تجرى بينهم بالعصي والحجارة، لدرجة أن اثنين من الهندوس حاولا قتله - يعد خير مثال لهذه التشاحنات بين الطرفين. بل صدرت أحكام كثيرة بالسجن، لمدد مختلفة، للهندوس وغيرهم من العمال المتمردين^(٩٧). وبرغم أن

حالة الهدوء والانسجام القائمة في الهند، حتى عشرينيات القرن العشرين قد عكست نفسها في الهدوء والاستقرار بين الطرفين في شرق إفريقيا، ورغم أن سكانهم في أحياء واحدة، وإرسال أبنائهم لمدارس شبه واحدة، قد ألف بينهم في فترات كثيرة، ورغم أن التقاءهم مع المسلمين في الأندية الرياضية كرمز للوحدة المجتمعية، إلا أن حالة الصراع في الهند منذ الثلاثينيات عكست نفسها في النفور والفرقة بينهما. بل ازدادت الفجوة بينهما بعد فصل باكستان عن الهند سنة ١٩٤٧^(١٨).

الأمر الثالث: الاهتمام بالرعاية الصحية. فقد تكفل المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا في البداية بالحفاظ على صحة أبنائه ومعالجتهم من أمراض المنطقة. ففي نهاية سنة ١٨٩٤ أنشأ الهندوس مرفقاً صحياً في زنجبار، تألف من موظفين من أهل جوا ومفتشين هنديين، و٤٠ كناساً و٣٢ زبالاً^(١٩). ولعل قرارهم بالاستقرار في شرق إفريقيا نتيجة للأمراض التي تعرضوا لها، ووفاة الكثيرين منهم خلال رحلة الذهاب والعودة، من وإلى الهند، يعد قراراً وقائياً جيداً في أواخر القرن التاسع عشر^(٢٠). لكن على الساحل وفي مناطق شرق إفريقيا الداخلية اهتمت الإدارة البريطانية بإجراء تحسينات لمرافقهم التعليمية، وقامت بتوفير الرعاية الطبية لهم^(٢١). خصوصاً بعد سكانهم في حارات ضيقة، وتأثير ذلك على تدهور حالتهم الصحية، وانتشار مرض الطاعون بينهم سنة ١٩٠٥^(٢٢). فكان من الطبيعي أن يسعى الإنجليز إلى مساعدتهم قبل أن تنتقل الأمراض لمناطق سكنى الأوربيين.

الأمر الرابع: تعليم الهندوس في شرق إفريقيا. ففي مارس ١٨٩١ افتتحت مدرسة إيوان سميث الهندية الكبرى، ليدخلها أبناء الهندوس والمسلمين الهنود سويًا. بل كانت إدارتها تحت قيادة لجنة منتخبة من قبل هندوس ومسلمين^(٢٣). هذا بالإضافة إلى دخول أطفالهم المدارس التي فتحتها الإدارة البريطانية في كينيا. ناهيك عن قيام البريطانيين بإعانة مدرسة الهندوس الحرة للبنات بمساعدة قدرها ٨٧٤ روبية سنة ١٩٢٤. بل ظلت الإدارة الاستعمارية تعين مدارسهم حتى سنة ١٩٦٣. فضلاً عن جهودها في إنشاء مدرسة مفتوحة لكل طوائفهم منذ سنة ١٩١٣، وافتتاحها لمعاهد للتعليم الفني في نيروبي وممبسة ومعهد المهاتما غاندي^(٢٤).

وبخصوص تعليمهم في أوغندا، فقد قاموا بإدخال أبنائهم في مدرسة البعثة التبشيرية في كمبالا سنة ١٩٠٢، ومدرسة جنجا سنة ١٩٢٥. ناهيك عن قيامهم بإنشاء مدارس هندية صغيرة خاصة بهم. عملت الحكومة الاستعمارية على إعانتها منذ سنة ١٩٣٣ وحتى سنة ١٩٤٩. وفي تنجانيقا اهتموا بإقامة مدارسهم بأنفسهم في ظل الإدارة الألمانية. لكن حينما تولت بريطانيا إدارة المنطقة ساعدتهم سنة ١٩٢٥ بـ ٥٠% من تكاليف إنشاء مدرسة مركزية كبيرة في دار السلام^(٢٥).

وبالنسبة للتعليم العالي للهندوس، فكان هذا يتم في الهند وإنجلترا وجامعة ماكريري في أوغندا، تلك التي كان يذهب إليها كل رعايا بريطانيا في شرق إفريقيا.

فضلاً عن تشكيل المجلس الاستشاري للتعليم الهندي سنة ١٩٥١. الذي قام بإنشاء لجنة مهمتها اختيار الطلاب المبعوثين سنوياً لانتجتراً. فضلاً عما قدمته الهند لهم من رعاية بعد استقلالها سنة ١٩٤٧. فقد خصصت عام ١٩٤٩ منحاً دراسية لأبنائها الهندوس، ناهيك عن منحها الثقافية^(١٠٦). وهذا ما يدل على استمرار العلاقة مع الهند على طول الخط. وهو معاكس لما حدث في العلاقات الاقتصادية بينهم وبين الهند.

الأمر الخامس: مكانة المرأة الهندوسية. فبرغم ما قيل عن علاقة الهندوس بالانجليز، وأنهم وفروا المناخ الذي ساعدهم في اصطحاب أخواتهم وزوجاتهم وبناتهم للإقامة في شرق إفريقيا إقامة دائمة^(١٠٧). غير أنه لا أحد ينكر بأن السلطان برغش، سلطان زنجبار، كان هو السبب في هذا الاصطحاب الهندوسي للزوجات والأسر. فحينما كان سفر الهندوسيات لتلك المنطقة من المحرمات، لكونها غير آمنة على النساء، ما اضطرهم لترك زوجاتهم لرعاية أسرهم الموسعة في الهند، راح السلطان برغش يشجعهم على جلب زوجاتهم لمملكته، في بداية ثمانينيات القرن ١٩. بل قيل بأنه أرسل مبعوثاً خاصاً إلى السفينة التي حملت أول امرأة هندوسية إلى زنجبار سنة ١٨٧٩. وأنه أعطاهما ٢٥٠ شلناً عربوناً للمحبة، وتعبيراً عن نواياه الطيبة. بل جعل زنجبار القديمة مكاناً لإقامة زوجات التجار الهندوس، وزودها بأنابيب المياه والصنابير، وضمن للهندوسيات الحركة فيها بحرية^(١٠٨). لكن هذا التشجيع جذب حالات فردية وأعداد قليلة جداً.

من هنا، فإن القفزة الكبيرة لانتقال الهندوسيات لشرق إفريقيا جاءت مع الاحتلال البريطاني لها. فقد شجعت الإدارة الاستعمارية هذا الأمر وحفرت عليه، أملاً في ضمان بقاء الهندوس في خدمة المشروعات البريطانية هناك. واحتفظ المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا بتقاليده، بتفضيل الأسر الهندوسية لزواج أبنائها من هندوسيات. لكن حينما تقدم عمر تلك الأسر في تلك المنطقة، ترك أمر الزواج بهندوسيات شرق إفريقيا لصالح الزواج بهندوسيات من الهند نفسها. بما يعنى قطع الطريق على تلك الفتيات عن الزواج من خارج طبقتهم داخل الترتيب الهيراركي الهندوسي. وهو الأمر الذي اجتاحت له الأسر الهندوسية فيما بعد، فعادت لتفضيل هنديات شرق إفريقيا. وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى تدهور العلاقات الاجتماعية والعائلية مع الهند. فلم تعد لها أهمية كبيرة في استجلاب الزوجات منها. ومن ثم لعب شرق إفريقيا دوراً كبيراً في تقريب الفوارق بين الفئات الهندوسية. واستطاعت بالفعل تغيير كثير من التقاليد التي حافظت عليها الأسر الهندوسية التي هاجرت قبل بداية القرن العشرين^(١٠٩). بل كان هندوسيوها يتزوجون من هندوس موزمبيق وجنوب إفريقيا^(١١٠).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد. فقد ظهر تأثير الهندوس القوي بالغرب. ولعل ما فعله رجل الأعمال الهندوسي بهارات، يعد خير مثال للتغير الذي حدث لهم في شرق إفريقيا. فقد عاش بهارات في دار السلام، ودرس في المملكة المتحدة. وهناك وقع في

حب فتاه هندية من شرق إفريقيا ومن غير طائفته، لكنها تتحدث الجوجاراتية مثله. ولما كانت مهمة إقناع والده بالزواج من خارج طبقته - خصوصاً مع رفض إخوته لهذا الزواج، وتحذيرهم من تأثيره على دينه وأطفاله - مهمة غير سهلة، لذا استغرق عدة سنوات في عملية إقناع والده وأسرته بهذا الزواج، كونه أول هندوسي يكسر التقاليد^(١١١). وخلاصة الأمر عن مكانة المرأة نجلها فيما انتهى إليه حالها هناك. فبعد أن كان عدد النساء قليلاً في بداية الفترة الاستعمارية، وصلن في نهايتها، لأن يكون الفارق بينهن وبين الرجال الهندوس لصالحهن، فعددهن أكثر^(١١٢). وهذا يدل على أن المنطقة أصبحت جاذبة للمرأة الهندوسية ومشجعة على زيادة تناسلها وبقائها فيها.

وثمة نتائج أربع نخلص بها من هذا المحور: أولها، احتفاظ المجتمع الهندوسي بتقاليده وعاداته وخصوصياته بشكل كبير ومدهش. ثانيها، هناك قدر كبير من التماسك بينهم وبين بقية الهنود الآخرين. ثالثها، لم يقف هذا المجتمع حجر عثرة في طريق الحداثة وتطور نفسه تعليمياً وثقافياً وعلاجياً. رابعها، أن المرأة فيه تمثل جزءاً أصيلاً في احتفاظه بتقاليده، وملحاً مهماً من ملامح هويته الوطنية.

المحور الرابع- أحوال الهندوس الاقتصادية :

رغم أن الآلاف من الهندوس قد جاءوا لشرق إفريقيا، في بداية العصر الاستعماري كعمال لبناء خط حديد أوغندا، إلا أن معظم هؤلاء العمال عادوا للهند سنة ١٩٠١^(١١٣). ومن ثم فإن الهندوس الذين بقوا هناك، والذين هاجروا إليها طوعاً، قد شكلوا قوة اقتصادية كبيرة في المنطقة. ونظراً للمكانة الاقتصادية الهامة التي حققها الهندوس في شرق إفريقيا سنتعرف على هذه البراعة والقوة في خمسة ملامح رئيسية:

الملح الأول: البراعة الاقتصادية لأفرادهم وقدرتهم على افتتاح الشركات. فقد برع الأفراد الهندوس في كيفية الحصول على الثروة والأرباح، وفي مضاعفتها واستثمارها هناك. ولم تكن تلك الصفة قد اكتسبوها من البريطانيين في منطقة شرق إفريقيا، بل تميزوا بها قبل الاحتلال البريطاني لها. فعلى سبيل المثال لم يخرج امتياز الجمارك من بيت جيرام سوجي الهندوسي إلا مرة واحدة سنة ١٨٧٦، ولمدة خمس سنوات: لشاريا توبان الهندي الاسماعيلي. لكنه عاد للهندوس مرة ثانية سنة ١٨٨٠، وظل فيهم حتى سنة ١٨٩٠. حيث انتهى بإعلان الحماية البريطانية على كينيا، وقيام جهة الإدارة بوضع تنظيم الجمارك تحت إشرافها الكامل^(١١٤). بل إنهم في ظل نفوذ شركة الهند الشرقية في مختلف أنحاء شرق إفريقيا، هيمنوا على التجارة والمالية في زنجبار ومختلف مناطق الداخل^(١١٥).

بل إن تاريا توبام Taria Topam نفسه، كان تلميذاً لدى سويجي جيرام Jairam Sewji الهندوسي، مما ينم على العلاقة الاقتصادية الجيدة التي جمعت بين الهنود بصفة عامة في تلك المنطقة. فقد أشركه مع هندوسي آخر يدعى سيوا حاجي بارو Sewa Haji Paroo، ليس فقط لفتح متاجر له في الداخل، ولكن لتنظيم القوافل

إليها أيضاً. وهكذا أنشئت Allidina Visram في بداية عام ١٨٩٠. وكل منهم قد استقل وفتح شركات خاصة به. وقام بفتح فروع لها فيما بعد. حتى جاءت سنة ١٩٠٩ وأصبحت لكل منهم إمبراطوريته التجارية المستقلة. بل إن أحدهم فتح أكثر من ٤٠ فرعاً في جميع أنحاء شرق إفريقيا وتمكن من إقامة العديد من المصانع^(١١٦).

وكانت معظم الشركات الهندوسية تتخذ من زنجبار مقراً لها، مع وجود وكالات فرعية لها في الداخل. وبعد تقسيم شرق إفريقيا بين ألمانيا وبريطانيا، وجدت تلك الشركات في القسمين. بل إنه حينما ألغى الألمان الضرائب المفروضة على جميع البضائع المستوردة، عدا المشروبات الروحية والسلاح، في أول فبراير ١٨٩٢، اجتذب هذا الإجراء العديد من الهندوس لنقل تجارتهم إلى دار السلام وغيرها من مدن المستعمرة الألمانية، وأقاموا أسواق خاصة بهم^(١١٧). ناهيك عن مشاركة الهندوس في صناعة الملابس والمنسوجات القطنية في معظم أنحاء شرق إفريقيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى^(١١٨). بما يعد تحولاً اقتصادياً عاماً في تاريخ الهندوس. حيث ظل نشاطهم يقتصر، طيلة القرون السابقة، على جلب المنسوجات من الهند^(١١٩). وحينما تحولوا للاهتمام بالصناعة لم يملكوا ورشاً صغيرة لإنتاج الملابس في شرق إفريقيا فحسب، بل امتد الأمر لمعظم أنحاء الجنوب الأفريقي^(١٢٠).

الملح الثاني: إنشاء البنوك، فنظراً للاستقرار الذي وفره الانجليز لهم، أقدموا على خطوة اقتصادية هامة ألا وهي افتتاحهم لعدد من البنوك هناك. ففي سنة ١٨٩٦ أنشأوا أول بنك هندوسي في شرق إفريقيا، هو البنك الأهلي الهندي The National Bank of India. وهذا البنك كان مقصوراً، منذ سنة ١٨٩٢، على زنجبار فقط. هذا بالإضافة إلى قيامهم بفتح فرع جديد له في ممبسة^(١٢١). وافتتحوا فرعاً آخر له في نيروبي سنة ١٩٠٤. وأصبح هذا البنك أحد ثلاثة بنوك تدير أعمال المال والإعمال في شرق إفريقيا سنة ١٩١١. وزادت فروعها في كل من ممبسة ونيروبي وناكورو وكيسومو^(١٢٢). وهذا ما جعلهم يتحكمون في النشاط التجاري في معظم مدن شرق إفريقيا. وخير مثال لذلك، تحكمهم في تجارة مومبسة^(١٢٣). هذا في الوقت الذي شاركت فيه بعض العائلات الهندوسية الميسورة نسبياً في إقامة شكل من أشكال الخدمات المصرفية منذ سنة ١٩١٦، بفائدة ما بين ٦-٩% سنوياً. وهذا ما دعا لأن يكون لبعض شركاتهم ممثلين في مدن مختلفة في أنحاء العالم^(١٢٤).

الملح الثالث: نشاطهم التجاري الكبير. فقد برع الهندوس في مجال تجارة الجملة والتجزئة والتصدير للخارج. ففي مجال تجارة التجزئة ظل اسم الدوكاوالا dukawalla يعنى الهندي صاحب المتجر^(١٢٥). ولتستدل على دورهم في هذا المجال، نستعين بتقرير رفعه السير هسكث عن زيارته لمدينة مبال سنة ١٩٠٩. فقد تحدث فيه عن حائوت يملكه أحدهم يدعى هيرالال، بأنه مملوء بالأطعمة المحفوظة والصابون والأقفال وألواح الساج والنحاس والنسك والدراجات والديابيس وأثواب من القماش البفتة، كلها

مستوردة من بريطانيا. وأنه رأى من البضائع الألمانية والنمساوية؛ الأحذية بأشكالها المختلفة، والشاي والسكر والدقيق والبويات ومصابيح العواصف والشماسي. وشاهد من البضائع الفرنسية المرايا والسجائر. ومن السويد والولايات المتحدة رأى الكبريت وغاز الكيروسين والساعات السويسرية. وهذا يعنى اعتماد تجارة الهندوس على البلدين الاستعماريين، بريطانيا وألمانيا، بشكل كبير. هذا في الوقت الذي راح فيه نشاطهم في خمسينيات القرن العشرين لا يقتصر على الحي التجاري الخاص بالهنود فقط، بل كانت لهم محال تجارية كبرى في الشوارع الرئيسية، حيث توجد المؤسسات الأوربية. وكان أثرياء التجار ومتقفون يملكون عددا كبيرا من دور السينما والفنادق والجراجات ونواصي ومنتزهات وبيوتاً ريفية أنيقة. أما خارج المدن فتغلغلوا في الأرياف، فملكوا دكاكين صغيرة تسمى دوكا Duka يبيعون فيها للإفريقيين بسعر جذاب^(١٢٦). لهذا كان أكثر من ٥٠% من ذكورهم في أوغندا سنة ١٩٤٨، على سبيل المثال، يعملون في تجارة التجزئة والجملة.^(١٢٧)

وفيما يختص بتجارة الصادرات والواردات، فقد استوردوا الكاجو والسمسم والفول السوداني والقطن ولب جوز الهند المجفف من هندوس موزمبيق^(١٢٨). وكانوا وشركاتهم في سنة ١٩١٦، يتاجرون في السلع الرئيسية، في المنسوجات والملابس والعاج والذهب والمواد الغذائية كالذرة والفاصوليا والحبوب والذهب^(١٢٩). وكانوا في أوغندا يتاجرون في القطن والبن. وبلغوا درجة من الثراء هناك، مما فرض على حكامها البريطانيين العموميين الاجتماع بهم كل عام^(١٣٠). بل وصل الأمر في عموم شرق إفريقيا سنة ١٩١٠، بأن أصبحت التجارة والحرف كلها في أيديهم، وفي أيدي بنى جلدتهم من بقية الهنود^(١٣١).

الملح الرابع: نشاطهم الزراعي المتميز. وقد ظهر هذا النشاط المتميز حينما أرسلت شركة شرق إفريقيا البريطانية السيد فينجرالد لبحث الإمكانيات الزراعية في شرق إفريقيا سنة ١٨٩١. فأوصى باستقدام المزارعين الهنود إليها للعمل في المشروعات الزراعية الاستعمارية. فجاء الفلاحون والمزارعون الهندوس في البداية، كمهاجرين يهتمون بزراعة المحاصيل النقدية المربحة. لكنهم بمجرد وصول المستوطنين الأوربيين إليها تعرضوا لمضايقات شديدة^(١٣٢). لهذا شاركوا في اجتماع ممبسة سنة ١٩٠٥. وطالبوا فيه بالسماح لهم بتخصيص أراض في المرتفعات، وعادوا فكرروا طلبهم سنة ١٩٠٨. غير أن كلا الطرفين قد رفض^(١٣٣).

وكانت تجربة الهندوس في زراعة القطن قد جعلتهم يملكون كثيراً من المحالج سنة ١٩١٤. وهو الأمر الذي جعلهم يصدرونه للغرب واليابان خلال الفترة من ١٩٢٢ - ١٩٣٠. فضلاً عن أنهم كانوا رواد صناعة السكر في شرق إفريقيا. حيث أقام أحدهم، نانجي كاليداس، أول مصنع للسكر في لوجازي سنة ١٩٢٣. ثم ما لبث أن افتتح مصنعاً

آخر في كاكيرا. وفي سنة ١٩٥٢ بلغ إنتاج هذه المصانع ٦٠ ألف طن. وكان نصف إنتاج تلك المصانع يستهلك محلياً، والباقي يصدر للخارج (١٣٤).

وشارك الهندوس في إقراض مزارعي القرنفل العرب، لكن حينما تفاقمت ديونهم في بداية القرن العشرين، انتقلت ملكية تلك الزراعات إليهم. غير أن تقرير سنة ١٩٢٣ قد أشار إلى عدم اهتمامهم بزراعة القرنفل. مما أدى إلى قيام الإدارة الاستعمارية بمنع انتقال تلك الملكية لهم سنة ١٩٣٤. وهو الأمر الذي فرض عليهم العودة للمشاركة في الإنتاج سنة ١٩٣٧ (١٣٥). وبلغ من قوتهم الاقتصادية الزراعية أن اشترتوا ممتلكات الرعايا الألمان المعروضة في الفترة ١٩٢٠ - ١٩٢٤، بعد أن عرضها البريطانيون للبيع بالمزاد العلني. فانتقلت نسبة كبيرة من مزارع البن والسيسال إلى أيديهم. وهذا ما يفسر زيادة أملكهم بصورة كبيرة بعد سنة ١٩٣٦. بل أصبحوا، مع بقية الهنود الآخرين، يمتلكون ٩٠% من الأملاك الخاصة في دار السلام (١٣٦).

الملح الخامس: تنوع علاقاتهم الاقتصادية الدولية وفتورها مع الهند. فقد ارتبط الهندوس في بداية العصر الاستعماري بدولتي الاستعمار الرئيسيتين في شرق إفريقيا، إضافة لبلدهم الأم الهند. لكن يبدو أن تأثرهم بفترة الكساد العظيم، وغزو الجراد لشرق إفريقيا في مستهل ثلاثينيات القرن العشرين، واستمرار عدم تحسن الأحوال الاقتصادية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٣٧)، قد جعلهم يركزون خلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٦٠ على شرق إفريقيا والمملكة المتحدة واليابان. حينما تأكد لهم بأن الهند قد خسرت المنافسة العالمية في صناعة النسيج لصالح اليابان ثم أوروبا. ومن ثم كانوا سبباً في أن تفقد الهند مكانتها في سوق شرق إفريقيا خلال عملية تحولها إلى دولة صناعية كبرى. بالمقابل كانت شرق إفريقيا تحت قيادتهم تخطو خطواتها الأولى في التصنيع الأولي، خصوصاً في إنتاج المنسوجات (١٣٨).

ومن ثم لم يكن تدهور العلاقات بين الهندوس في شرق إفريقيا والهند بعد الحرب العالمية الثانية في أمور الزواج فقط، بل في العلاقات التجارية واستيرادهم للمنسوجات. وهذا التدهور بدأ منذ ثلاثينيات القرن العشرين، حين اعتمدوا على المنسوجات اليابانية التي كانت تباع في أسواق شرق إفريقيا بسعر رخيص للغاية. بل إن بعضهم، منذ سنة ١٩٣٥، فتح فروعاً لشركاتهم في اليابان. بل انقطعت الشبكات المصرفية بين الطرفين. وهذا ما يفسر لماذا بدأ الجيل الثاني من هندوس شرق إفريقيا في التركيز على المشاريع الجديدة في المملكة المتحدة، خصوصاً بعد قيام الحكومة الهندية بتغيير سياستها تجاههم بعد استقلال الهند في ١٩٤٧. وبعد أن حلت سياسة اللامبالاة على يد نهرو. واكتفت بنصيحتها لهم بتحديد الأماكن التي يقيمون فيها. ناهيك عن التشكيك في تحايل التجار الهنود عليهم، وإرسال نوعيات رديئة وأقل مما طلبوه. إلي جانب قيود في التصدير للهند أكثر من تلك التي تعرض طريقهم خلال تصديرهم لجنوب إفريقيا وإنجلترا وكندا وأمريكا. لذا تجنب الكثيرون منه هذا الصراع مع الهند،

وأوقفوا تجارتهم معها. وهذا ما جعلهم يشعرون بأنهم أصدقاء من هندوس الهند. ومن ثم تعززت في شرق أفريقيا فكرة الجماعة الجوجاراتية كما هي في الهند. بل اعتقدوا بأنهم تميزوا بالصدق عنهم في ثمانية أعشار كلامهم^(١٣١). وهذا ما جعل الذين واجهوا مشاكل في شرق إفريقيا بعد الاستقلال؛ يفضلون البلاد الغربية على الهند. وإذا أخذنا طردهم من أوغندا مثالا لقوتهم الاقتصادية، لوجدنا أن تحكمهم الاقتصادي هو الذي جعل الإفريقيين يقومون بهذا الأمر. حيث قيل بأن طردهم جاء اعتراضاً على شركاتهم التي تصدر الأخشاب وتستنزف الغابات الاستوائية، مما اعتبره الأهالي امبريالية هندية في شرق أفريقيا. بل استمر هذا الطرد لهم خلال فترتي عيدي أمين (١٩٧١-١٩٧٩) وميلتون أوبوتي (١٩٨٠-١٩٨٥)^(١٣٠).

المحور الخامس - أحوالهم السياسية :

برغم أن اهتمام الهندوس الأول قد انصب على الاقتصاد وتكوين الثروات، ورغم أنهم جاءوا رعايا لبريطانيا، إلا أنهم اهتموا أيضاً بالسياسة. فقد برز نشاطهم السياسي منذ سنة ١٩٠٠. حينما كونوا مع بقية الهنود جمعية هنود ممبسة. وانتشرت الجمعيات المشابهة لها في نيروبي، وفي كل المراكز الحضرية في كينيا وأوغندا وتنجانيقا. ويبدو أن ممبسة كانت هي المركز الرئيسي للنشاط السياسي الهندوسي. فمثلاً تأسست فيها أولى الجمعيات السياسية، تأسس فيها أيضاً المؤتمر الوطني الهندي لشرق إفريقيا East Africa Indian National Congress سنة ١٩١٤، ومنها تفرعت فروعها الأخرى في أوغندا وتنجانيقا^(١٣١). ومثلما كان الهندوس مؤسسين ومتحكمين في نظيره في الهند، كانوا هم أيضاً المتحكمون والمؤسسون له في شرق إفريقيا. وحتى يمكننا معرفة نشاطهم السياسي أكثر نبلوره في سبع لقطات رئيسية :

اللقطة الأولى: كفاحهم من أجل التمثيل النيابي. وهذه اللقطة تثبت دورهم المميز في الكفاح من أجل الحصول على مقاعد لتمثيل الهنود في المجالس التشريعية التي أنشأتها الإدارة الاستعمارية في شرق إفريقيا. ومع أنهم لم يحظوا بالمقد الذي حصل عليه الهنود في أول مجلس تشريعي يشتركون فيه سنة ١٩٠٩، حيث حصل عليه أحد الهنود المسلمين يدعى جيفانجي، إلا أنهم ساندوا تلك الخطوة مطالبين بالمزيد من المقاعد. وبعد تغير اسم محمية شرق إفريقيا إلى محمية كينيا حصلوا على مقعدين سنة ١٩٢٠. وفي هذا الإطار كونوا مع بقية الهنود الآخرين الرابطة الهندية، التي طالبت بالتمثيل المتساوي بينهم وبين البيض. بل بعثت في أوائل ١٩٢٠ بوفدين لكل من نائب الملك بالهند ولورد ملنر وزير المستعمرات، فسمح بانتخاب شخصين بدلاً من تعيينهما، وألغى كافة القيود على هجرتهم. لكن إصرار اللورد ملنر على عزلهم في المدن لتجنب مشاعر الكراهية بين الأجناس، أدى إلى رفض انتخاب العضوين الهنديين بالجمعية التشريعية^(١٣٢).

ومع أن طلبهم قوبل بالرفض من قبل حزب المحافظين، إلا أنهم حصلوا على حقوق واضحة المعالم منذ سنة ١٩٢١. بحيث صيغت هذه الحقوق ضمن وثيقة رسمية في ٢٠ يوليو ١٩٢٣. فقد وافقت الإدارة البريطانية في كينيا، حسب قرار المؤتمر الامبراطوري سنة ١٩٢١، على انتخاب خمسة أعضاء بدلاً من أربعة. ويبدو أن رعاية حكومة الهند لهم إلى جانب ضغوطهم، هي التي لعبت الدور الأهم في الحصول على تلك الامتيازات. فقد كانت الإدارة البريطانية تخشى من أن إعطاء المزيد من الحقوق لهم، سيتسبب في إحداث توترات وقلق بين الإفريقيين عبر كافة مناطق شرق إفريقيا^(١٤٣) وتشير إحدى الوثائق البريطانية صراحة إلى الدور الذي لعبه نائب الملك في الهند، والضغوط التي مارسها ممثلوا الجمعية الوطنية الهندية في يوليو ١٩٢٣، وغيرهم من المسؤولين البريطانيين، في حصول الهندوس، وغيرهم من بقية الهنود على مزايا سياسية وامتيازات في شرق إفريقيا^(١٤٤).

وما يعنينا هنا، هل استفاد الهندوس من تلك الامتيازات أم لا؟ الإجابة تقول بأنهم حصلوا على ثلاثة من خمسة مقاعد برلمانية حصل عليها الهنود في كينيا^(١٤٥). ورغم أنه اشترط على الهندي الذي يدخل الجمعية التشريعية أن يكون حاصلاً على مؤهل تعليمي عال، ورأس مال يبلغ ألف جنيه، أو دخل يبلغ ١٥٠ جنيهًا إسترلينيًا، وأن يجيد اللغة الانجليزية كتابة وقراءة^(١٤٦)، ورغم رفع رسوم التأمين على المهاجرين الرجال منهم لتصل ١٠٠ جنيه و ٥٠ جنيه^(١٤٧)، ورغم أن بقية الشروط التي طبقت عليهم جعت ١٠ % منهم فقط تنطبق عليه تلك الشروط^(١٤٨)، ورغم مناقشة موضوع تمثيلهم كثيراً^(١٤٩)، إلا أن حصولهم على المقاعد الثلاث يعد نجاحاً كبيراً، مقارنة بالممثلين عن الأجناس الأخرى. ورغم أن هذا سبب صعوبة بالغة للمرشحين الهنود في الدوائر الكبيرة والمتسعة عليهم، حتى وإن انحصر الأمر بين أفراد طائفتهم المنتشرين في مختلف المناطق^(١٥٠). ورغم التمكين الذي حصلوا عليه في المجلس التشريعي^(١٥١)، إلا أن الكراهية التي قوبلوا بها من قبل المستوطنين البيض، إعتراضاً على تلك الامتيازات، جعل الممثلين الهندوس الثلاثة، والهنديان الآخرين، يقطعون المجلس التشريعي حتى سنة ١٩٣١^(١٥٢).

أما بالنسبة للنواب الهندوس في تنجانيقا وأوغندا وزنجبار؛ فإنه بحلول عام ١٩٤٦ كان يتم ترشيح ما بين ٢-٣ هندي للمجلس التشريعي الأوغندي^(١٥٣). واثنين من ستة أعضاء يمثلون مختلف الطوائف في زنجبار^(١٥٤). لكن مع كل الصعوبات التي واجهت الهندوس في حصولهم على حق التمثيل البرلماني، إلا أنهم ظلوا يحتفظون بمقاعد ثلاثة من بين خمسة مقاعد مخصصة للهنود في كينيا، وممثل واحد في المجالس الأخرى. ولعل انتخابات عام ١٩٤٨، والسنوات التي تلتها^(١٥٥)، تعد خير دليل على هذا البروز السياسي للهندوس، وعلى البروز العددي والنوعي أيضاً. فلا يمكن أن يحصلوا على هذا العدد من المقاعد، إلا إذا كانوا أكثرية، وإلا إذا كانوا أثرياء ولديهم تعليم جيد.

اللقطة الثانية: مطالبتهم بالحكم الذاتي. وصل الأمر بالهندوس، بدعم من ممثلي مجلس الوزراء البريطاني، أن تزعموا بقية الهنود للمطالبة بأن تكون شرق إفريقيا الألمانية وطناً ومستعمرة لهم بعد نهاية الحرب الأولى سنة ١٩١٨^(١٥٦). بل يشير أحد التقارير إلى أن الليبراليين البريطانيين أشاعوا كثيراً خلال الفترة الاستعمارية عن محاولة الهنود إقامة إقليم هندي مستقل في شرق إفريقيا. بل تحدثت الحكومة البريطانية في ورقتها البيضاء سنة ١٩٢٣ بصراحة حول هذه المسألة^(١٥٧). فمُنذ تلك السنة بدأ القادة السياسيون الهنود يطالبون بالمساواة الكاملة بين الهنود والأوروبيين^(١٥٨). بل عقد المؤتمر الوطني الهندي اجتماعاً حضره مندوبون عن هنود كينيا وأوغندا وتنجانيقا وزنجبار في ١١ ديسمبر ١٩٢٠، معتبرين كينيا، تاريخياً واقتصادياً، مستعمرة هندية لا بد أن تتبع حكومة الهند، ولا تكون مستعمرة تابعة للتاج أو تابعة لوزارة المستعمرات. غير أن هجوم مؤتمر الجمعيات الأوربية، الذي عقد في نيروبي في الأول من يناير ١٩٢١، غير اتجاه الحديث بالسعي للصلح بين الجاليتين، الهندية والانجليزية، أملاً في تهدئة ثورة الهند ضد الحكم البريطاني^(١٥٩). ولعل الضغوط التي مارسها الهندوس في تلك الفترة قد جاءت تيمناً بالثورة التي قامت ضد الحكم البريطاني في الهند في بداية العشرينيات. ولعل استجابات بريطانيا في كلا المنطقتين كان هدفه تهدئتهما وقطع الصلة بين الهندوس والمسلمين في كليهما.

اللقطة الثالثة: دورهم في نشر الوعي السياسي. فقد لعب الهندوس نفس الدور الذي لعبوه في جنوب إفريقيا. فحينما أسسوا المؤتمر الوطني الهندي في شرق إفريقيا سنة ١٩١٤، قلدهم الإفريقيون في هذا النشاط السياسي، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى^(١٦٠). وهذا الذي جعل بريطانيا تحرض ضدهم وتضع القيود على هجرتهم. بل استخدمت استجابتها لمطالبهم البرلمانية ذريعة لتأجيج الأحقاد الإفريقية ضدهم. ومن ثم صارت العلاقة بينهم وبين الفريقين غير جيدة، في أوائل عشرينيات القرن العشرين. وهو الأمر الذي استغله اللورد ملنر في المطالبة بعزلهم في المدن لتجنب مشاعر كراهية الإفريقيين لهم. ناهيك عن القيود التي وضعوها عليهم، بخصوص التعليم والملكية، خوفاً من سيطرتهم على المستعمرة^(١٦١).

ولما كان الهندوس قد لعبوا الدور الأهم في المؤتمر الهندي في شرق إفريقيا منذ سنة ١٩٢٧، فإنهم أصحاب التأثير الحقيقي في نشر الوعي السياسي بين الإفريقيين^(١٦٢). ناهيك عن دورهم في تكوين الرابطة الأفرو آسيوية سنة ١٩٢٧^(١٦٣). بل إنهم ونتيجة للدور الذي قاموا به في إقراض الإفريقيين في كينيا خلال الفترة من ١٩١٩-١٩٤٧، بما فيهم الصوماليين^(١٦٤)، والإثيوبيين المقيمين هناك، جعل الناس ينظرون إليهم على أنهم أحد أهم وسائل وأدوات التوعية السياسية في شرق إفريقيا. وإن انحصر دورهم في إطار نقل تجربتهم في المقاومة السلمية للإفريقيين^(١٦٥). وربما

كان للضغط على بريطانيا في أكثر من مكان، بالاتفاق والتنسيق مع الحركة الوطنية الهندية الأم.

اللقطة الرابعة: تأسيس ورعاية الحركة العمالية والنقابية. كان نيهال سينغ مانجو **Nihal Singh Mankoo** ، (توفي سنة ١٩٢٥)، أحد أفراد الدفعة الأولى من الهندوس البنجاب، الذين ذهبوا إلى كينيا سنة ١٨٩٥، واستقر قرب محطة فوي قرب نيروبي. وفي سنة ١٩٢٢ ظهر دوره في العمل النقابي، وتحديدًا في إنشاء الاتحاد الحرفي للسكك الحديدية^(١٦٦). لذا يعد مؤسس الحركة العمالية في كينيا. فهو الذي شكل مع فريد كوبي اتحاد شرق أفريقيا التجاري كأول نقابة مركزية هناك. وهو الاتحاد الذي طالب بالحقوق المتساوية لجميع الناس. وظهر أثر كفاحه في اهتمام توصيات ديفونشاير سنة ١٩٢٢ بالحركة العمالية ومطالبها، غير أنها لم تنفذ^(١٦٧). وحينما توفي نيهال سينغ برز نجله سينغ ماخان سينغ **Makhan Singh** (١٩١٣-١٩٧٣) كمهندس للحركة النقابية الكينية. فهو الذي أسس اتحاد كينيا للأعمال التجارية في أبريل ١٩٣٥^(١٦٨). ومن تأثير الهندوس الفعال في الحركة النقابية راح الإفريقيون يقلدونهم في تأسيس الاتحادات العمالية الإفريقية عبر مناطق شرق إفريقيا^(١٦٩). بل ظل سينغ ماخان سينغ الهندوسي هو المؤجج والمعرض على الإضرابات العمالية والنضال النقابي طوال الفترة الاستعمارية. ففي سنة ١٩٣٧ أعاد تسمية اتحاد السابق ليكون اتحاد شرق إفريقيا للتجارة والعمل. بل أوصله طموحه السياسي، سنة ١٩٥٠، إلى السجن بتهمة عدم تسجيل الاتحاد التجاري. ولم يطلق سراحه إلا عام ١٩٦١. ومع ذلك فإن هذا التاريخ النقابي لم يشفع له. فقد ظل منبوذاً من حكومة كينيا المستقلة، وتوفي سنة ١٩٧٣ بأزمة قلبية عن عمر يناهز ٦٠ سنة. ويعد من أهم الشخصيات التي خدمت الهندوس على نطاق واسع في الحياة العامة الكينية. فقد كان أحد أعضاء المجلس التشريعي والبلديات، وكان مميزاً في مجال الرياضة، خصوصاً الهوكي والكريكيت وسباقات السيارات والجولف^(١٧٠).

اللقطة الخامسة: دورهم في مقاومة اتحاد شرق إفريقيا. فقد عمل الهندوس، مثل بقية الهنود، على إفشال أي إمكانية لإقامة اتحاد بين مستعمرات ومحميات شرق إفريقيا ووسطها، حين عرضت تلك الفكرة في العشرينيات، لشعورهم أن إنجاز هذا المشروع سيؤدي إلى القضاء على ما يتمتعون به من حقوق مدنية^(١٧١). بل أعلنت الجالية الهندية في أوغندا وتنجانيقا خلال الفترة من ١٩٢٤-١٩٣٠، أنهم سيقاطعون عملية الدخول في أي اتحاد مع كينيا. لكونهم لا يريدون التورط في المشاكل العنصرية التي تجتاح كينيا. وخوفاً من أن تصبح مصالحهم تحت رحمة المستوطنين الأوروبيين المقيمين في كينيا، ونظراً لتلك الضغوط أعلنت الإدارة الاستعمارية بأن الوقت غير ملائم لقيام اتحاد بين أقسام شرق إفريقيا الثلاثة^(١٧٢). وفي عام ١٩٥٠ تزعم سينغ ماخان الهندوسي الدعوة لإضراب عام، غالبية من الأفارقة، ضد اتحاد شرق إفريقيا. واستمر هذا

الإضراب لمدة عشرة أيام. واقتصر في البداية على إيريوبي، ثم امتد لمناطق أخرى. وانتهى الأمر باعتقال سينغ ماخان وترحيله في وقت لاحق إلى الهند، لكنه نجح في إجبار بريطانيا على التخلي عن عدم عرض المشروع بتلك الطريقة مرة أخرى^(١٧٣).

اللقطة السادسة: دورهم في مقاومة السلطات البريطانية. فرغم أن علاقات الانجليز بالهندوس ظلت طيبة حتى الاستقلال، إلا أنها لم تخل من منغصات. فقد شاركوا على سبيل المثال سنة ١٩٢٥ في الإضراب الذي نسقوه مع بقية الهندوس ضد إدارة تنجانيقا البريطانية. لقيامها برفع ضريبة الأرباح عما كانت عليه في عهد الألمان، ولعدم توليهم أية وظائف كبيرة في الإدارة أو القضاء أو غيرها من المناصب الحكومية. بالإضافة لقيامها بفرض اللغة الانجليزية بدلاً من الجوجاراتية في دفاترهم. لهذا فإنهم أعلنوا الإضراب العام في دار السلام، وغلقوا محالهم التجارية ومنشأتهم الأخرى. بما أحدث ضجة في المدينة، لكونهم يمتلكون كل المحلات والمخازن التجارية هناك. فأجبروا الحاكم العام لتنجانيقا، السير رونالد كامرون، على تشكيل لجنة قررت استبدال ضريبة الأرباح بضرائب على المهن والأعمال^(١٧٤). ولعل دورهم السياسي المناهض للاستعمار البريطاني قد عبر عنه السياسيون المرتبطون بالحركة السياسية الهندية. فقد جاء هؤلاء إلى شرق إفريقيا دون عائلاتهم. ومع أنهم قد عكسوا تجربة غاندي في توحيد المسلمين والهندوس عبر الحركة الوطنية، وأحدثوا تقارباً هندياً بصورة كبيرة، إلا أن استقلال باكستان عن الهند سنة ١٩٤٧ قد أعاد الفرقة والخصام بين الفريقين في شرق إفريقيا. فقد أصبح ولاء الهندوس للهند، وولاء المسلمين لباكستان^(١٧٥). ومن ثم تعد الفترة ما قبل ١٩٤٧ هي الفترة المثالية للتعايش السلمي بين الهندوس والمسلمين إلى حد ما. حيث بدأت مشاعر التنافر والخلاف بين الفريقين تزداد بشدة منذ ثلاثينيات القرن العشرين وصاعداً، بحكم الفرقة والتباعد الذي حدث بين المسلمين والهندوس في الهند نفسها^(١٧٦). فضلاً عن أن استقلال الهند قد جعلها داعمة لطموحات مواطنيها الهندوس والإفريقيين في الاستقلال عن بريطانيا. خصوصاً في عهد رئيس وزراء الهند الأول جواهر لال نهرو ١٩٤٧-١٩٦٤. تلك الفترة التي لقي فيها الهندوس رعاية واهتماماً إفريقياً جيداً^(١٧٧). ومن ثم فإن الهند هي التي تسببت في رعاية مواطنيها الهندوس هناك. فقد قامت الحكومة الهندية سنة ١٩٤٨ بتعيين وكلاء لها في شرق أفريقيا للاهتمام بمشاكل مواطنيها الهندوس هناك^(١٧٨). وهذا ما يخالف ما قال به أثرياء الهندوس من المهتمين بمصالحهم الخاص، فقد اعتبروا أن فترة نهرو غير نافعة لهم اقتصادياً. في حين كانت عكس ذلك على المستوى السياسي. حيث لعبت دوراً مهماً في تقوية مطالبهم السياسية.

اللقطة السابعة: موقف الأفارقة منهم. فقد تباينت العلاقات بين الهندوس والإفريقيين خلال الفترة الاستعمارية. فتارة اتخذهم الأفارقة بمثابة رموز للتوعية السياسية لهم بعد الحرب الأولى وحتى الثلاثينيات. وتارة أخرى نفروا منهم باعتبارهم

مستغلين لهم. غير أن البريطانيين كان لا يرضيهم هذا التقارب بين الطرفين. فسعوا لبث الفرقة والشحناء بينهما. فنجحوا في الوقيعة بينهما خلال العشرينات ثم نهاية الأربعينيات. ولعل أعمال الشغب التي قام بها الأفارقة سنة ١٩٤٩ ضدهم، تعد خير مثال لهذا الأمر. بل إن البعض فسر كراهية الإفريقيين للهنود عموماً بثلاثة أسباب: أولها، الرغبة في إزالة احتكارهم لحج الأقطان، حتى نجحوا في ذلك سنة ١٩٥٢. ومع ذلك ظل أكثر من ١٢ محلاً يملكها هندوس وهنود آخرون. ثانيها، احتفاظ الهنود بقيمتهم الثقافية منفصلة عن الإفريقيين. ثالثها، رعاية البريطانيين لهم اقتصادياً وسياسياً^(١٧١).

وبرغم أن استقلال الهند لم يخدم الهندوس كثيراً في شرق إفريقيا، إلا أن تبنى أول رئيس وزراء، جواهر لال نهرو، لقضية مواجهة الاستعمار ومكافحة العنصرية وتعزيز حركة عدم الانحياز، قرب الإفريقيين من الهنود، وصب مباشرة في مصلحتهم باعتبارهم رعاياها^(١٨١). بل ظلت شعبية غاندي، حيث بنى له تمثال على مخرج نهر النيل، كشخص دافع من أجل حقوق السود في أفريقيا، بمثابة رمز من رموز الكفاح ضد الامبريالية^(١٨١). غير أن حصول الإفريقيين على قدر من التعليم، خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية، قد جعلهم يعارضون هجرة الهندوس إليها، لاعتقادهم بأنهم احتكروا الوظائف والأعمال وتجارة التجزئة والجملة دونهم. ولعل ما أشار إليه تقرير اللجنة الملكية لشرق إفريقيا سنة ١٩٥٦، برغبة الإفريقيين في التخلص من الأجناس التي يفضلها الاستعمار عليهم، يفسر تلك القيود التي فرضت عليهم خلال تلك الفترة. بما أدى في النهاية إلى ازدهام الأحياء الهندية^(١٨٢). وجاءت سياسة الأفارقة Africanisation هي الحل الأمثل للإدارة الاستعمارية لإزالة الاحتقان بين الطرفين^(١٨٣). وهذا ما جعل الهندوس يهاجرون من شرق إفريقيا في أعقاب استقلال كينيا وأوغندا وتنزانيا بعد تبنى تلك السياسة بشكل كبير^(١٨٤).

من هنا، فإن بروز الحركة الوطنية الإفريقية، في بداية خمسينيات القرن ٢٠، قد جعل القلاقل بشأن المستقبل السياسي تتسرب للهنود. ومع أن بعضهم تعاطف مع الإفريقيين، إلا أن الكثيرين منهم كانوا ضدها. بل دخل بعضهم في خدمة البوليس الاستعماري للقضاء على الثورة الإفريقية، المتمثلة في ثورة الماو ماو في كينيا. وخير مثال لذلك الثقة التي أعطاها البريطانيون لآبا بانت Apa Pant، أول مأمور هندوسي لمنطقة نيروبي، وغيره من الهندوس. لدرجة جعلت أكبر التنظيمات السياسية الإفريقية، بقيادة جومو كينياتا، تتعهد لهم بعدم الهجوم عليهم في كينيا، كنوع من التكتيك الوقتي الذي استخدمه الأفارقة مع الهنود حتى نالوا الاستقلال^(١٨٥).

لكن حينما حصلت أقطار شرق إفريقيا الثلاثة على استقلالها في بداية ستينيات القرن العشرين، تم التحول ضد الهنود، عدا تنزانيا بقيادة جوليوس نيريري الذي تعهد ببناء مجتمع متعدد الأجناس، بل بدأ يقرب منذ سنة ١٩٦٤ بعض القادة الهندوس مثل Karimjee، مانحا إياهم بعض الوظائف الرسمية^(١٨٦). أما في كينيا فالأمر مختلف.

فحين قامت ثورة الماو ماو في أكتوبر ١٩٥٢ أعلن هنودها بأنهم ضد العنف الذي يستخدمه الثوار. وحينما استقلت كينيا سنة ١٩٦٣ كانت ذاكرة الإفريقيين لا تزال حية بموقفهم ضد الثورة. من ثم راح الهندوس يفضلون الهجرة لبريطانيا على البقاء في شرق إفريقيا. ومن ثم كانوا غالبية الـ ٨٢ ألف هندي الذين حصلوا على جوازات السفر البريطانية. ومن بقى منهم ضمن الـ ٥٠ ألف هندي، بقوا كمواطنين كينيين فقط. وفسر البعض موقف الإفريقيين منهم، بأنه لم يكن ناتجا عن موقفهم من الحركة الوطنية الإفريقية فقط، بل لسيطرتهم على معظم النشاط الاقتصادي. ففي نيروبي بمفردها، سيطروا على كافة المحال والبازارات. ناهيك عن أن فرض الحكومة الكينية لبرنامج الأفرقة بعد الاستقلال، وعدم تجديد الرخص التجارية لغير الإفريقيين، إلا بشرط الحصول على الجنسية الكينية، وتطبيق هذه السياسة في الوظائف الحكومية والتعاقدات وفي الأعمال التجارية - هو الذي جعل كثيرا من الهندوس يفضلون الهجرة إلى المملكة المتحدة وأمريكا الشمالية^(١٨٧). ومع ذلك لم يسلم من بقى منهم من الأذى. فالنخبة السياسية، بدءا من الرئيس كينياتا ونائب الرئيس والنخب السياسية الأخرى، شجعت الهجوم الخطابي ضد هؤلاء الذين أصبحوا مواطنين كينيين. بل كانت تطرد وترحل الكثيرين منهم عمدا^(١٨٨).

المحور السادس - هويتهم الثقافية :

برغم أن فترة الحكم البريطاني في شرق إفريقيا تجاوزت الثمانين عاماً، وبرغم أن الهندوس تعرضوا فيها لعدد من المتغيرات، إلا أنهم احتفظوا فيها بثوابتهم الراسخة على طول الخط. ومن ثم فإننا نقسم هذا المحور إلى قسمين:

القسم الأول: يتعلق بالشوايت. حيث ظهرت هذه الثوابت في عدة ملامح رئيسية: الملمح الأول، في الزواج من هندوسيات. فقد كان التجار الهندوس في البداية يرفضون أخذ زوجاتهم معهم^(١٨٩). ولما كانت السلطات العربية الحاكمة، قبل الاحتلال البريطاني للمنطقة، تدرك بأن بقاء الأمر كما هو عليه سينفر المزيد من الهندوس من القدوم إليها، راحت تشجعهم على جلب زوجاتهم معهم. لهذا بدأت هجرة المرأة الهندوسية لشرق إفريقيا سنة ١٨٧٩^٣. ومع هذا يمكن القول بأن الوجود الفعلي والكبير للمرأة الهندوسية هناك، قد ارتبط بالاستعمار البريطاني للمنطقة. ولما كان من عاداتهم الزواج من بنات طائفتهم، لذا عادوا إلى الهند ليتزوجوا من هندوسيات. بل ظل هذا التقليد مستمرا، حافظت على الأسر والعائلات الهندوسية في شرق إفريقيا. ناهيك عن الاحتفاظ بالأسر الموسعة والممتدة قدر الإمكان^(١٩٠). وربما كانت تقاليد المرأة الهندوسية من ارتداء الفساتين الطويلة وللزي الهندي التقليدي، عبارة عن فساتين وسراويل وقمصان^(١٩١)، وتفضيلها للبقاء في المنزل، وعدم الاختلاط، هو الذي جعل الرجال يفضلونها على غيرها، باعتبارها رمزا للهوية الهندوسية في شرق إفريقيا^(١٩٢).

ومن ثم كانت الممارسة العامة بين الهندوس في شرق إفريقيا لتحديد واختيار العرائس من الهند، هي تفضيل الزواج من عائلة معروفة في قراهم الهندية، فيما سمي بنظام الزواج المرتب، بناء على افتراض شائع بأن هندوسيات الهند أكثر قدرة على التكيف هناك، ومع الالتزام بالقواعد والمعايير التي وضعها الشيوخ^(١٩٣). لهذا عانى الهندوس طويلاً من القيود التي فرضتها حكومات شرق إفريقيا بعد الاستقلال، فكان إصرارهم على التمسك بأن يكون الزواج مقصوراً على طائفتهم فقط، قد جعل الحكومة الأوغندية، على سبيل المثال، تحاول تغيير تلك العادة كخطوة نحو الاندماج العرقي. ومن ثم كان رفضهم للزواج من الإفريقيين بعد الاستقلال سبباً رئيسياً من أسباب طردهم من أوغندا^(١٩٤).

الملح الثاني: في الطعام. فبرغم أن استبقاء بعض الهندوس لزوجاتهم في الهند قد أجبرهم على تغيير نمط طعامهم، حينما راحوا يأكلون خارج منازلهم أو يحصلون على طعامهم عن طريق آخرين^(١٩٥)، إلا أن غذاءهم لم يتغير هناك طوال الفترة الاستعمارية. فظل غذاءهم نباتياً. بل كان محدداً رئيسياً ومميزاً للطائفة عن بقية الهنود الآخرين، من التاميل والإسماعيليين والسيخ. بل امتدت طقوسهم في المأكل مع امتدادهم في الكونغو الفرنسية والكونغو البلجيكية^(١٩٦). ولما كانوا لا يأكلون اللحوم، فقد انعكس هذا في المطاعم الهندية هناك بصفة عامة، والمطاعم الهندوسية بصفة خاصة^(١٩٧). فكان مطبخهم يعتمد على الخادومات من نفس الطائفة. حيث كانت معظم العائلات الهندوسية نباتية لا تستهلك الخمر ولا اللحوم^(١٩٨).

وتشير بعض الكتابات إلى أن طعام الهندوس قد أثر أحياناً في وضعهم الاقتصادي في شرق إفريقيا. فبعض ممن فتحوا شركات في ممبسة وجينجا Jinja سنة ١٩٠٥، حينما جاءوا بدون أسرهم، اضطروا إلى إغلاق شركاتهم. لأنهم لم يتقبلوا الأطعمة المصنوعة لهم من قبل السكان المحليين، كونهم كانوا نباتيين صارمين strict vegetarians. في حين لم تظهر مشاكل الطعام في نيروبي أو ممبسة أو زنجبار بسبب الوجود الهندوسي العائلي. وجاء هذا الأمر نتيجة أن العائلات الأولى المهاجرة لشرق إفريقيا كانت نباتية ولا تشرب الكحول ولا تأكل خارج المنزل^(١٩٩).

الملح الثالث: في المعابد والاحتفالات الدينية. لما كانت الديانة الهندوسية تنقسم إلى آلاف الفرق، بل أوصلها البعض إلى مئات الآلاف، وأنها عبارة عن ديانات وضعية بشرية تقام طقوسها في المعابد^(٢٠٠)، فهذا هو السبب الذي جعل هناك معبداً هندوسياً في كل بلدة في شرق إفريقيا^(٢٠١). حيث أنشئ معظمها خلال النصف الأول من القرن العشرين^(٢٠٢). ولو أخذنا أوغندا مثلاً لتلك المعابد، لوجدنا أنها تنتشر في جينجا وكمبالا. بل يوجد في جينجا وحدها ثلاثة معابد^(٢٠٣).

وتشبه الهندوس بديانتهم طوال إقامتهم في شرق إفريقيا. فكانوا يقدسون البقر ويحرقون موتاهم ويقيمون أعيادهم، كعيد ديوالي. ففي هذا المهرجان، على سبيل

المثال، كانوا يضيئون منازلهم والشوارع الرئيسية في المساء. وكانوا يقيمون الحفلات التي يتزاورون فيها بأبهى الثياب، لايسين العمائم القرمزية والذهبية. ويأكلون الحلويات ويشربون المرطبات، ويخدمون سويا، ويرقصون ويغنون. وكانوا يرون بعضهم بعضا في نفس الفئة الدينية والاجتماعية والعرقية والاقتصادية. ونظراً لدور الأجداد والسلف في حياتهم؛ فقد كانوا يحيون ذكرى أجدادهم الأوائل الذين هاجروا إلى شرق إفريقيا^(٢٠٤). بل كانوا يحتفظون بقيمتهم الثقافية منفصلة عن المجتمعات الأخرى. وكان هذا سبباً في كراهية الإفريقيين لهم، وفي أعمال الشغب التي قاموا بها ضدهم^(٢٠٥). ورغم أن هذه التقاليد الثقافية قد سببت الألفة بين الهندوس في شرق إفريقيا، إلا أنها تسببت أيضاً في مزيد من الانقسام بينهم وبين الإفريقيين^(٢٠٦).

الملح الرابع، في الاحتفاظ بالعادات والتقاليد الثقافية الأخرى، حافظ الهندوس على تقاليدهم في التحية والاحترام، بأن يقوم الزائر بلمس أقدام كبار السن، تحية واحتراماً لهم^(٢٠٧). وتشير إحدى الكتابات إلى أن بعض الأسر كانت تبقى أفرادها في الهند حتى سنة ١٩١٦. في حين حافظت غالبية الأسر، التي جاءت إلى شرق إفريقيا، على تقاليد دفن الموتى وحضور الجنازات وتعليم أطفالهم القانون الهندوسي Mithakshara المطبق في ولاية جوجارات، ومساواة جميع الذكور في العائلة. بل أصبحت مهمة المنازل الهندوسية في شرق إفريقيا هي إعادة إنتاج الثقافة الهندية هناك^(٢٠٨).

واحتفظوا بثقافتهم في شكل وطرز الأثاث والأرائك الهزازة التقليدية، وبتعليق صور للآباء والأجداد مزينة بالزهور الياضعة في مكان بارز في المنزل. بل اختار بعضهم ختام حياته في ولاية جوجارات، رغم أن كثيرين منهم لم يزر الهند طيلة حياته، لكنها ظلت وطنه المنشود. وبعضهم ساهم مساهمات سخية في دعم القرى الهندية التي أتوا منها، كبناء مستشفى أو مدرسة أو دار للأيتام^(٢٠٩). بل إن إقامتهم لدور السينما ومحلات الفيديو الهندية^(٢١٠)، يعد خير دليل على محافظتهم على تلك التقاليد ونشرها في الأجيال الجديدة. بل يعد افتتاح الهندوس لمطاعم خاصة بهم، وترويجهم لأفلام بوليوود تأثيراً مباشراً مقصوداً في ثقافة المنطقة. فقد أصبح لأفلامهم وصلات الديسكو الخاصة بهم شعبية كبيرة هناك، خصوصاً في نيروبي وكمبالا^(٢١١).

القسم الثاني: يتعلق بالمتغيرات. فنظراً لطول الفترة التي استقروا فيها في شرق إفريقيا البريطانية، كان لا يمكن أن يقاوموا التأثير الغربي مهما تمسكوا بتقاليدهم وثقافتهم. لذا حدثت تغيرات في هويتهم الثقافية وفي بعض التقاليد المهمة في حياتهم. ويفسر البعض تلك التغيرات بثلاثة مؤثرات رئيسية: أولها، تأثيرهم بالتعليم الغربي واحتكاكهم بالصفوة الأوربية الحاكمة. ثانيها، تأثيرهم بالاحتكاك السواحيلي. ثالثها، الابتعاد عن موطنهم الأصلي ومصالحهم الاقتصادية^(٢١٢). ويمكن استقراء هذه التغيرات في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: في شكل الطعام والزواج لدى الجيل الثاني والثالث. فإذا كان الجيل الهندوسي الأول قد احتفظ بعادات الطعام والشراب والزواج خلال الفترة من ١٨٨٤ - ١٩٢٠، ونقلها للجيل الذي ولد خلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٦٠، وصولاً إلى الجيل الثالث الذي تغير ثقافياً في الفترة من ١٩٦٠ وصاعداً^(٢١٣)، إلا أن التغيير الذي حدث كان في طريقة وشكل هذا الطعام وفي نوعيته. فإذا كان الجيل الأول قد احتفظ بثوابته في هذا الأمر، إلا أن الجيل الثاني أصبح يأكل اللحوم ويشرب الكحول. ناهيك عن تفضيلهم للأكل خارج المنزل مبتعدين عن آبائهم النباتيين. وحدث هذا بحكم الاحتكاك بالأوروبيين والعرب والإفريقيين. بل أصبح طعام الهندوس قليل التوابل وكثير الزيوت. وفيما يختص بالزواج، فقد فصلت الأجيال التالية الزواج من هنديات ولدن في شرق إفريقيا. في حين كان أبائهم يعودون للهند ليتزوجوا هندوسيات. أما الجيل الثالث ففضل العيش مع الصديقات مثل الأوروبيين، ولم يقبل على الزواج الرسمي^(٢١٤). وكان تفضيل الهنديات المولودات في شرق إفريقيا قد شجع على كسر حدود الطبقات داخل قيود الطائفة الهندوسية. ومع ذلك ظل الطلب على المرأة الهندوسية من الهند كبيراً في بعض الفئات^(٢١٥).

الأمر الثاني: التأثير الأوروبي. يمكن القول بأن الثقافة واللغة الهندوسية لم تبقى إلا في النظرة والدين. وفيما عدا ذلك فقد حدث تغير كبير. لطول الفترة الاستعمارية، وللتأثير الأوروبي الواضح. فخلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٦٠، على سبيل المثال، نمت المدارس الهندية في شرق إفريقيا، ولم تحتفظ بالجوجاراتية إلا للصف الرابع الابتدائي. حيث قدمت الانجليزية كلغة ثانية. وهذا ما جعل الهندوس يجيدون اللغتين معاً. وهذا كان خطوة جيدة نحو مواصلة التعليم الجامعي في المملكة المتحدة. ومن هنا جاء تأثير الثقافة الأوروبية^(٢١٦).

بل يمكن القول بأن تأثير الأوروبيين في هندوس شرق إفريقيا، في التعليم وفي اللباس كان كبيراً. ويرجعه البعض إلى أن طلبهم حماية الانجليز لهم، هو الذي جعلهم يظهرون رغبتهم في إظهار هذا التأثير فيهم، فأبرزوه في كتابة الاتفاقات التجارية باللغتين، الانجليزية والجوجاراتية. وفي قراءتهم للصحف والمجلات الانجليزية. بل بلغ الأمر أحياناً، إلى أن يتحدث رب الأسرة بالجوجاراتية، في حين يتحدث أطفاله بالإنجليزية. ورغم هذا التأثير البارز، ورغم أن الهند أصبحت دولة خارجية بالنسبة لهم، إلا أن أدب الشتات أبرز أهمية الوطن الأم في وعيهم. لكن فكرة الوطن في حد ذاتها فقدت أهميتها لديهم^(٢١٧).

الأمر الثالث: إنشاء الصحف. فقد تأثر الهندوس بالصحافة الاستعمارية. ومن ثم راحوا يؤسسون صحافتهم الخاصة. فقاموا بتأسيس أول صحيفة هناك في مومبسة في عام ١٨٩٩، عن طريق هندوسي حقق ثروة خلال فترة بناء سكة حديد شرق إفريقيا، يدعى جيفانجي Jeevanjee. وظلت هذه الصحيفة أسبوعية منذ سنة ١٩٠٢ حتى

صارت يومية سنة ١٩١٠، إلى أن توقفت عن النشر سنة ١٩٢٣. وعاد نشاطهم الصحفي سنة ١٩٥٣ حينما ساعدوا في تأسيس الديلي أوغندا أرجوس *daily Uganda Argus* ^(٢١٨). وظهرت صحف هندوسية أخرى في مختلف أنحاء شرق إفريقيا. كتب بعضها باللغة الجوجراتية، بهدف المحافظة على هويتهم هناك. في حين راح قليل منها يصدر باللغة الانجليزية باعتبارها لغة المال والإعمال ^(٢١٩). ونخلص من ذلك إلى نتيجتين هامتين : أولهما، أن ثوابت الهندوس ظلت راسخة طول فترة بقائهم الممتدة حتى بعد الاستقلال، بل لا زالت الجماعات الباقية منهم هناك إلى اليوم، تحتفظ بمثل تلك الثوابت وتعظمها حتى الآن. ثانيهما، أن طول الفترة الاستعمارية أدخلت بعض المتغيرات التي ميزتهم عن أقرانهم من هندوس الهند. وربما كان هذا التغيير الذي حدث لهم، جعلهم أكثر قدرة على التعايش وسط المجتمعات الغربية فيما بعد. وهو الذي جعل الهند تستخدمهم كورقة تستفيد منها في علاقاتها مع الغرب حتى الآن.

خاتمة :

- انتهت الدراسة إلى عدد من النتائج الهامة نجلها في الآتي :
 خلصت الدراسة إلى أن الوجود الهندوسي في شرق إفريقيا كان وجوداً مميزاً. فقد كانوا على درجة من الذكاء والفطنة في مسايرتهم لكل النظم السياسية التي حكمت المنطقة. فمثلاً توافقوا مع العرب قبل سنة ١٨٨٤، توافقوا مع البريطانيين أيضاً طيلة الفترة من ١٨٨٤-١٩٦٣، والألمان ١٨٨٤-١٩١٨، فضلاً عن توافقهم مع كل الإدارات الاستعمارية التي حكمت المنطقة.
- حللت الدراسة قوة العلاقة بين الهندوس والانجليز طوال الفترة الاستعمارية. وقالت بأنهم كانوا الجسر الذي اعتمد عليه الانجليز في مشروعهم الاستعماري في تلك المنطقة. وأنهم كانوا عماد الإدارة الاستعمارية في العمالة والتجارة والزراعة. لكنها أشارت إلى أن المكانة الاقتصادية التي حققوها جعلتهم هدفاً لضربات المستوطنين الأوروبيين والإفريقيين على السواء. وهي التي خلقت الأحقاد لدى الانجليز وجعلتهم يدمسون لهم بين الإفريقيين، ليفقدوهم تلك المكانة الاقتصادية المتميزة. لكنهم لعلمهم بحاجتهم للحماية والرعاية، لم يعطوا على تلك الدسائس البريطانية. بل إنهم قرروا الرحيل عن المنطقة بمجرد رحيل البريطانيين عنها، لإحسائهم بأنهم فقدوا عنصر الحماية الرئيسي لهم هناك.
- أبرزت الدراسة الدور الذي قام به الهندوس في نشر الوعي السياسي في شرق إفريقيا. فقد تبنى الإفريقيون طريقتهم في تشكيل التنظيمات السياسية، وفي تشكيل النقابات العمالية، وفي نشر الوعي القومي بين بني جلدتهم. وقالت بأن كفاحهم

الطويل من أجل التمثيل النيابي، وفي المطالبة بالحكم الذاتي في المنطقة، هو الذي سبب غضب الانجليز منهم. وأنه كان انعكاساً للضربات التي وجهتها الحركة الوطنية الهندية لبريطانيا في الهند. وهذا ما جعلها تحتاط للأمر بنشر الفرقة بين طائفتي الهندوس والمسلمين في الهند وشرق إفريقيا معاً. فضمنت بذلك بعض الاستقرار النسبي لفترة.

• ناقشت الدراسة المجالات الاقتصادية التي برع فيها الهندوس. وأوضحت أنهم برعوا في كل نواحي النشاط الاقتصادي تقريباً. فقالت بأنهم حققوا ثروات، وأقاموا شركات، وأسسوا بنوكاً ومصارف، وأن حضورهم كان مميزاً في هذا المجال، لدرجة سببت أحياناً الإفریقیین والانجليز على السواء، وأنهم تفوقوا على الانجليز أنفسهم. بل كان هذا التفوق سبباً في ابتعادهم عن فكرة الوطن والشعور بالألفة معه.

• ركزت الدراسة على خصوصية المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا. وحددت في أمور الطعام والشراب والملبس والزواج والدفن والعقائد، وفي التمسك بقيمهم الدينية وبتقاليدهم الاجتماعية. غير أن الدراسة ألمحت إلى أن تلك الخصوصية المعبرة عن هويتهم، قد تعرضت لتغيرات كبيرة خلال الفترة الاستعمارية، خصوصاً في الجيل الثاني والثالث هناك. وأن شرق إفريقيا كانت انعكاساً لما يحدث في الهند، ثقافياً وسياسياً.

• غير الارتباط بين الهندوس ووطنهم الأم. فقد كانوا طيلة القرن التاسع عشر مرتبطين به أشد الارتباط. لكن الدراسة قالت بأن هذا الأمر قد تغير مع طول الفترة الاستعمارية، ومع النجاحات التي حققوها في شرق إفريقيا. فبرغم أن بعضهم قد ارتبط سياسياً بالهند، إلا أنهم انقطعوا عنها اقتصادياً، حتى وصل الأمر في نهاية العصر الاستعماري إلى تفضيلهم التجارة مع دول ومناطق أخرى، وتفضيلهم الهجرة لبريطانيا وجنسياتها والإقامة بها؛ عن الرجوع لموطنهم الأصلي. ومن ثم فإن وجودهم الحالي في شتى مناطق العالم، خصوصاً الغربية، قد وسع من شبكة العلاقات الدولية للهند. وأتاح لها التعرف، عبر هؤلاء، على عوالم جديدة ونماذج حديثة ما كان للهند أن تطلع عليها لو رجع هؤلاء إلى الهند بعد حصول شرق إفريقيا على الاستقلال.

هوامش الدراسة

- (١) إبراهيم الفارس: الهندوسية
<http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=FullContent&audiold=195741>
- (٢) Gijbert Oonk:- The Chinging Culture of The Hindu Lohana Community In East Africa, Contemmporey South Asia, 13(1), March 2004,P.9.
- (٣) Aga Khan :- India in Transition A Study in Political Evolution ,Bennett, Coleman and Co, Ltd. Bombay and Calcutta, NEW YORK, 1918, PP.11,12 .
- (٤) N. M. Nayar , Book Reviews :- Harnessing the Trade Winds: The Story of Centuries Old Indian Trade with East Africa Using the Monsoon Winds. D'Souza, Blanche. Zand Graphics,Nairobi, Kenya. Available from African ,Book Collective, Oxford, UK/Michlgan,State University Press, East Lansing, MI,USA. 2008, CURRENT SCIENCE, VOL. 98, NO. 2, 25 JANUARY 2010, PP.264,265.
- (٥) ل. و. هولينجزورث :- الأسويون في شرق أفريقيا، ترجمة عبدالرحمن صالح، ، سلسلة الفكر العالمي، جمعية الوعي القومي، سبتمبر ١٩٦١، ص ص ١٩ - ٢١.
- (٦) India-East Africa Ties: Mapping New Frontiers, Africa Quarterly ,Indian Journal of African Affairs, Volume 49 No. 1, February-April 2009, P.49.
- (٧) بنيان سعود تركي :- الجالية الهندية في شرق أفريقيا بين هامرتون والسيد سعيد (١٨٣٢-١٨٥٦) ، مجلة المؤرخ المصري ... دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الثالث عشر، يوليو ١٩٩٤، ص ص ١٢، ١٥-١٧.
- (٨) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٩ - ٢١.
- (٩) India-East Africa Ties:Op.CiT. , P.17.
- (١٠) ل. و. هولينجزورث :- :- المرجع السابق، ص ص ٢٣ - ٢٧.
- (١١) Chandani Patel:- Indians in East Africa: Literature, homelessness, and the imaginary, postamble 3 (2) 2007, PP.59,60.
- (١٢) بنيان سعود تركي :- :- المرجع السابق، ص ٤٥.
- (١٣) ل. و. هولينجزورث :- :- المرجع السابق، ص ص ١١٢-١١٤ .

Chhaya Goswami Bhatt :- India and Africa Unique Historical Bonds and Present Prospects, with Special Reference to Kutchis in Zanzibar, Centre for African Studies, University of Mumbai ,Working Paper: No. 5, PP.13-16.

ibid, PP.16,17. (١٤)

ل. و. هولينجزورث :- - المرجع السابق، ص ص ١١٢-١١٤ . (١٥)

بنيان سعود تركي :- - المرجع السابق، ص ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ . (١٦)

ل. و. هولينجزورث :- - المرجع السابق، ص ص ٢٣ - ٢٧ . (١٧)

بنيان سعود تركي :- - المرجع السابق، ص ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ - ٢٤ . (١٨)

India-East Africa Ties: Op.CiT, P.17. (١٩)

بنيان سعود تركي :- - المرجع السابق، ص ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ . (٢٠)

Chhaya Goswami Bhatt :- Op.CiT., 5, PP.13-16. (٢١)

ibid, PP.8-10. (٢٢)

ibid, P.19. (٢٣)

بنيان سعود تركي :- - المرجع السابق، ص ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ . (٢٤)

Chhaya Goswami Bhatt :- Op.CiT, PP.13-16. (٢٥)

أحمد عبدالدايم محمد حسين :- الوجود العربي في منطقة البحيرات الأفريقية الكبرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مجلة كلية الآداب، جامعة حلوان، العدد ٢١ ، يناير ٢٠٠٧ . ص ص ٥٣٤-٥٣٧ . (٢٦)

ل. و. هولينجزورث :- - المرجع السابق، ص ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ . (٢٧)

نفسه، ص ص ٢٥ - ٢٨ . (٢٨)

CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, (٢٩)

Memrandum By The Secretary of State for The Colonies , Printed for the Cabinet. February 1923, PP.3,4

ل. و. هولينجزورث :- - المرجع السابق، ص ص ٧٩-٨١ . (٣٠)

Nandini PATEL:- A Quest for Identity: The Asian Minority in (٣١)

Africa, Publications of the Institute of Federalism Fribourg Switzerland, 2006 ,P.3

Bernhard G. G. ibl:– German Colonialism and The Beginnings of International Wildlife Preservation in Africa , Ghi Bulletin Supplement 3 (2006), PP.122,123. (٢٢)

C J D Duder :- *Beadoc- the British East Africa Disabled Officers' Colony and the White Frontier in Kenya, Ag Hist. Rev., 40, II, P.149* (٢٤)

Robert G. Gregory :- Co-optation and Collaboration in Colonial East Africa : The Asians Political Role, 1890-1964, <http://afraf.oxfordjournals.org/content/80/319/259.extrac> , P.259 (٢٥)

(٢٦) الروبية كانت تساوى حينها ١،٣٣ مارك. والمارك عبارة عن عملة فضية ضربت في برلين على وجهها صورة لفيلهم الثاني بزيه العسكري، والوجه الآخر شجرة التخليل مع الأسد والتاريخ اسفل. بدأت انتاجها سنة ١٨٩١ واستمر حتى عام ١٩٠٤، للمزيد أنظر، John E. Sandroock:- *A monetary History of German East Africa*, PP.10-36

G. Oonk:- After Shaking his hand, start counting your fingers. (٢٧)

Trust and Images in Indian business networks, East Africa 1900-2000, *Itinerario* 18 (3) 2004, P.79.

Chhaya Goswami Bhatt :- Op.CiT, PP.17,18. (٢٨)

India-East Africa Ties: Op.CiT, P.49. (٢٩)

Report of The High Level Committee on The Indian Diaspora (٤٠)

www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf , P.9¹

India-East Africa Ties: Op.CiT, P.17. (٤١)

ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٤٩ - ٥١. (٤٢)

Gijsbert Oonk:- *The Changing Culture ...Op.CiT*, P.9. (٤٣)

ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٥٢ - ٥٦، ٦٣، ٦٤. (٤٤)

Nandini PATEL:- Op.CiT ,P.4 (٤٥)

Gijsbert Oonk:- *The Changing Culture ...Op.CiT*, P.9. (٤٦)

ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٥٤ - ٥٦، ٦٨. (٤٧)

Indians Overseas ,A guide to source materials in the India Office (٤٨)

Records for the study of Indian emigration ,1830-1950, PP.6-11.

Ibid, P.26. (٤٩)

CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the* (٥٠)

Cabinet.20 July 1923, P.2.

ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٤ - ٧٦. (٥١)

- CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians In Kenya, *Printed for the* ^(٥٢)
Cabinet. 20 July 1923, PP.4,5.
- CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, ^(٥٣)
 Memorandum ...Op.Cit, PP.5,6.
- CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the* ^(٥٤)
Cabinet.20 July 1923, P.2.
- ل. ر. هولنجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٦٨-٧٤. ^(٥٥)
- CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the* ^(٥٦)
Cabinet. 20 July 1923, PP.7-9.
- Ibid* ,PP.9-12. ^(٥٧)
- CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, ^(٥٨)
 Memorandum... Op.Cit, P.1
- Ibid*, P.2. ^(٥٩)
- Ibid*, PP.2,3. ^(٦٠)
- Ibid*, PP.4,5. ^(٦١)
- Dispatch of Lord Milner, about East Africa Protectorate,. Downing ^(٦٢)
 Street, May 21, 1920. Appendix I of CAB/24/158/ CP . 99 (23)
- CABINET:- Indians in Kenya, Memorandum... Op.Cit, PP.8-10
- Resolution OF Imperial Conference,1921, Appendix II of ^(٦٣)
- CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya,
 Memorandum... Op.Cit, PP.10,11
- Mr. Churchill's Speech at The Kenya and Uganda Dinner, ^(٦٤)
 January28, 1922 .Appendix IV of CAB/24/158/ CP . 99 (23)
- CABINET:- Indians in Kenya, Memorandum... Op.Cit, P.13.
- Paraphrase Telegram from the Governor of Kenya to the ^(٦٥)
 Secretary of State for the Colonies.—(Dated February 1, 1923.),
- Appendix VII of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in
 Kenya, Memorandum... Op.Cit, PP.16,17.
- Hassan J. Ndlovu:- Muslim Relation in The Politics of ^(٦٦)
 Nationalism and Secession in Kenya, University of Illinois, Urbana-
 Champaign,Program of African Studies Northwestern University. Moi
 University, Kenya PAS Working Papers, Number 18, P.6.

Susana Pereira Bastos:- Indian Transnationalisms in colonial and postcolonial Mozambique, Stichproben. Wiener Zeitschrift für kritische Afrikastudien, Nr. 8/2005, 5. Jg ,P.277 .
ibid,P.294. (٧٧)

Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. 7, 2006 . (٧٨)

Mr. Churchill's Speech:- Op.CiT, P.13. (٧٩)

Josef Gugler:- Urbanization in East Africa (Revised November 1968), PP.6,7 (٨٠)

G.Oonk:- After Shaking ...Op.CiT,PP.83-85.. (٨١)

Susana Pereira Bastos:- Op.CiT ,P.297. (٨٢)

Nandini PATEL:- Op.CiT ,P.7. (٨٣)

Randall Hansen:- The Kenyan Asians, British Politics and The Commonwealth Immigrants Act, 1968, *The Historical Journal*, 42, 3 (1999),PP.809,810 . (٨٤)

Dr. Thomas Abraham :- Indian Diaspora – Emerging Organizational and Political Structure, Role and Responsibility, International Symposium on Diaspora Politics, Center for Basque Studies, University of Nevada, Reno ,April 27-29, 2006,P.1. (٨٥)

Aga Khan :- Op.CiT, PP.116,117 . (٨٦)

ibid,PP.147-155. (٨٧)

Maj Jodi Vittori and Kristin Bremer:- Islam in Tanzania and Kenya : Ally or Threat in The War on Terror? ,U.S. Air War College, PP. 7-9 (٨٨)

Ryan T.C.I:-The Monetizaion of Kenya : 1824 to 1924, Money in Africa Conference , 9-11 March 2007, P.5. (٨٩)

Chandani Patel:- Op.CiT, P.61. (٩٠)

Stephen Morris:- Indians in East Africa : A Study In a Plural Society , The British Journal Of Sociology , Volume 7 , Issue 3, (Sep.1956),P.194. (٩١)

(٩٢) بسبب سياسات ما بعد الاستقلال لم تتجاوز اعداد الهنود عموما في شرق افريقيا في السبعينيات ٢٠٠ الف هندي. منهم ١٠٠ الف في كينيا ومن ٨٠ - ٨٥ الف في تنزانيا وحوالي

Report of The High Level Committee on The Indian من ١٢ - ١٤ ألف في أوغندا.. للمزيد انظر،
Diaspora, <http://www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf> , P.99.

Stephen Morris:- Op.Cit.,P.197. (٨٤)

(٨٥) تتكون مجتمعات شرق أفريقيا من أفارقة وعرب وأربيون وهنود بمجموع ١٨٣٠٠٠٠٠ فرد. مجموع الافارقة يقدر بـ ١٨ مليون والعرب ٧٩ ألف، والاوربيون ٥٠ ألف والهنود

١٩٨ ألف، أنظر، Stephen Morris Op.Cit., PP.196,197.

Ibid,P.195. (٨٦)

G.Oonk:- After Shaking ...Op.Cit.,PP.74-77. (٨٧)

ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٢-١٤. (٨٨)

Chhaya Goswami Bhatt :- Op.Cit., P.19. (٨٩)

Stephen Morris:- Op.Cit.PP.202-206. (٩٠)

G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78. (٩١)

Stephen Morris:- Op.Cit.,PP.196,197. (٩٢)

Report of The High Level Committee on The Indian Diaspora, (٩٣)

<http://www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf> , PP.94,95

Vidya Bhushan Rawat:- Mabira's resistance to Monopoly of (٩٤)

.Mehtas in Museveni's Uganda, www.manukhsi.blogspot.com

John Parr:y:- Dialogue with Sikhism in the Diaspora, JMP Feb. (٩٥)

2009, PP.1,2..

Dr. Thomas Abraham :- Op.Cit., 2006,PP.2,3.(٩٦)

Patterson, J. H. (John Henry):-The Man-Eaters of Tsavo and (٩٧)

Other East African Adventures ,1867-1947, The Project Gutenberg

Literary Archive Foundation, Release Date: March, 2003 ,PP. 50-60.

Nandini PATEL:- Op.Cit. ,P.5 (٩٨)

ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ١٣٢. (٩٩)

G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.74,75. (١٠٠)

Dispatch of Lord Milner, about East Africa Protectorate,. Downing (١٠١)

Street, May 21, 1920. Appendix I of CAB/24/158/ CP . 99 (23)

CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, PP.8-10.

ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٢، ١٣٢، ٢١٦، ٢١٧. (١٠٢)

نفسه، ص ٦٣. (١٠٣)

نفسه، ص ص ١٢٣-١٢٩. (١٠٤)

- (١٠٥) نفسه، ص ص ١٢٩ - ١٣٣.
- (١٠٦) India-East Africa Ties: Op.Cit., P.50.
- (١٠٧) G.Oonk:- After ShakingOp.Cit.,PP.76,77.
- (١٠٨) Ibid,PP.76,77.
- (١٠٩) Ibid,PP.82,83.
- (١١٠) Susana Pereira Bastos:- Op.Cit.,P.287.
- (١١١) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,P.81.
- (١١٢) Ibid,P.80.
- (١١٣) Patterson, J. H. (John Henry):- Op.Cit.,PP. 18-28.
- (١١٤) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ٢٧.
- (١١٥) Susana Pereira Bastos:- Op.Cit.,P.278 .
- (١١٦) Ibid,P.280 .
- (١١٧) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٢ ، ١٣٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧.
- (١١٨) William Gervase Clarence-Smith:- The cotton textile industry of Sub-Saharan Eastern Africa in the longue durée, SOAS, University of London,PP.1,2.
- (١١٩) Ibid,PP.4,5.
- (١٢٠) Ibid,PP.11,12.
- (١٢١) Ryan T.C.I:- Op.Cit, P.5.
- (١٢٢) Ibid, PP.7,8.
- (١٢٣) Chandani Patel:- Op.Cit., P.62.
- (١٢٤) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78.
- (١٢٥) Nandini PATEL:- Op.Cit. ,P.3
- (١٢٦) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٢ - ١٤ ، ٦٨ ، ٦٩ .
- (١٢٧) Stephen Morris:- Op.Cit.,PP.196,197.
- (١٢٨) Susana Pereira Bastos:- Op.Cit ,P.287.
- (١٢٩) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78.
- (١٣٠) Stephen Morris:- Op.Cit.,P.209.
- (١٣١) Ibid,P.195.
- (١٣٢) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٥٧ - ٥٩.
- (١٣٣) نفسه، ص ص ٧٤ - ٧٦.
- (١٣٤) نفسه، ص ص ٦٨ - ٧٤.

(۱۳۵) نفسه، ص ص ۱۰۰ - ۱۰۷ .

(۱۳۶) نفسه، ص ص ۶۵ - ۶۶ .

Henry F. Morris:- Government Publications relating to Kenya (۱۳۷)
(including the East Africa High Commission and the East African
,Common Services Organization)1897-1963, Government
Publications relating to African Countries prior to Independence,
Publication no. Micrform Academic Publisher96995, School of
Oriental & African Studies, University of London,1976, P.6.

G.Oonk:- After Shaking ...Op.Cit.,P.80. (۱۳۸)

Ibid,PP.83-85... (۱۳۹)

Vidya Bhushan Rawat:- Op.Cit. (۱۴۰)

Report of The High Level Commettee... Op.Cit., P.96 (۱۴۱)

ل. و. هولینجزورث :- المرجع السابق، ص ص ۷۶ - ۷۹. (۱۴۲)

CAB/24/161 CP. 337 (23):- INDIANS IN KENYA, *Printed for the* (۱۴۳)
Cabinet. July 1923,

CAB/24/161, CP. 334 (23):- INDIANS IN KENYA, *Printed for the* (۱۴۴)
Cabinet.20 July 1923, P.1.

Ibid, P.2. (۱۴۵)

Parallel Statement In Connection with the 1921 Outline of (۱۴۶)
Policy., Appendix 111 of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:-

Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, P.12

Indians Overseas ,A guide to source materials in the India Office (۱۴۷)

Records for the study of Indian emigration ,1830-1950,P.29.

Paraphrase Telegram from the Secretary of State for the Colonies (۱۴۸)
to the Governor of Kenya.(Sent 5 P.M., September 5, 1922

.),Appendix V of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in
Kenya, Memrandum... Op.Cit, PP.13,14.

Confidential Dispatch from the Duke of Devonshire to the (۱۴۹)
Governor of Kenya, dated December 14, 1922. Appendix VI of

CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians In Kenya,
Memrandum... Op.Cit, PP.15,16

(١٥٠) وفقا لتعداد عام ١٩٢١ بلغ مجموع الهنود في كينيا حوالي ٢٢٨٢٢ ،
CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the*
abinet. 20 July 1923, PP.5-7.

CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the* (١٥١)
Cabinet. 20 July 1923, PP.4,5.

(١٥٢) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٩٥-٩٨ .

(١٥٣) Indians Overseas , Op.Cit.,P.30.

(١٥٤) Ibid,P.30.

(١٥٥) Ibid,P.26.

CO 822/3064:- Problems of establishing a cancer research (١٥٦)
centre at Aga Khan Hospital, 1963.

Report of The High Level Committee on The Indian Diaspora, (١٥٧)

<http://www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf> , P.97

CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the* (١٥٨)
Cabinet. 20 July 1923, PP.4,5.

(١٥٩) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٨٠-٨٢ .

* تالف على شاكلة المؤتمر الوطنى الهندى الذى عقد اجتماعه الاول فى الهند فى بومباى
١٨٨٥ . وفكرته تعود للبريطانيين وليس للهندوس بما يثير الشك والريبة فى الهدف من
تأسيسه تبنى المقاومة السلمية ضد الحكم البريطانى، الذى استعمر الهند رسميا سنة ١٨٥٧ ،
بعد انتقال السلطة من شركة الهند الشرقية البريطانية الى التاج البريطانى. ومن تاسس
المؤتمر وعاش هناك فى حجر الانجليز . للمزيد انظر، عبد المنعم النمر: كفاح المسلمين فى
تحرير الهند، مكتبة الاسرة، القاهرة، ٢٠٠٥. ص ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٧٣ .

(١٦٠) Report of The High ...Op.Cit., P.96

(١٦١) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٦ - ٧٩ .

(١٦٢) Indians Overseas , Op.Cit.,PP.11-23.

(١٦٣) Hassan J. Ndlovu:- Op.Cit., PP.7-10.

E. R. Turton:- The Isaq Somali Diaspora andA Poll- (١٦٤)

Taxagitation in Kenya, 1936-41, African Affairs, Vol. 73, No. 292
(Jul.,1974),PP.339,345.

Abduaziz Y. Lodhi:- Settlements in India, Nordic Journal of (١٦٥)
African Studies 1(1): (1992, P.83.

- Punjabis in Eastern Africa, II AS News letter, 43, Spring, 2007. (١٦٦)
- India-East Africa Ties: Op.Cit., P.19. (١٦٧)
- Punjabis in Eastern Africa, II AS News letter, 43, Spring, 2007. (١٦٨)
- Report of The High Level... Op.Cit. , P.96 (١٦٩)
- Punjabis in Eastern Africa, II AS News letter, 43, Spring, 2007. (١٧٠)
- ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٦٣ ، ٦٤ (١٧١)
- نفسه، ص ص ٩٨ - ١٠٠. (١٧٢)
- Indians Overseas , Op.Cit., PP.11-23. (١٧٣)
- ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٦٧ ، ٦٨. (١٧٤)
- نفسه، ص ص ١١٤ ، ١١٥. (١٧٥)
- Zeinoul Abedien Cajee:- Islamic History & Civilisation in South Africa: The Impact of Colonialism, Apartheid, and Democracy (1652-2004), the Symposium on "Islamic Civilisation in Eastern Africa", Islamic University of Uganda, Kampala, Uganda, 15-17 December 2003, PP.7,8. (١٧٦)
- J. Peter Pham:- India's Expanding Relations with Africa and Their Implications for U.S. Interests, American Foreign Policy Interests, 29, 2007, PP.341-343. (١٧٧)
- Indians Overseas , Op.Cit., PP.11-23. (١٧٨)
- India-East Africa Ties: Op.Cit., PP.17-19. (١٧٩)
- Ibid, P.19. (١٨٠)
- Vidya Bhushan Rawat:- Op.Cit. (١٨١)
- ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٠٧ - ١١١. (١٨٢)
- Anthony Lester:- East Arican Asians Versus The United Kingdom: The Inside Story, 23rd October 2003 , PP.1-3. (١٨٣)
- Ibid , PP.1-3. (١٨٤)
- Report of The High Level Commettee... Op.Cit. P.97. (١٨٥)
- * استقلت تنجانيقا رسميا في ديسمبر ١٩٦١. في حين حصلت كينيا على استقلالها سنة ١٩٦٣. (١٨٦)
- Report of The High Level Commettee... Op.Cit. , P.98. (١٨٦)
- Ibid. (١٨٧)
- Nandini PATEL:- Op.Cit. , PP.8-10. (١٨٨)

- Gijsbert Oonk:– The Chinging Culture... Op.Cit.,P.9. (١٨٩)
 ♥ حيث حضرت أول امرأة هندوسية تدعى بهاتيا Bhatia ، إلى زنجبار تبعثها امرأة أخرى تدعى Vania سنة ١٨٨٢.
- Gijsbert Oonk:– The Chinging Culture... Op.Cit.,P.10. (١٩٠)
 India–East Africa Ties: Op.Cit., P.49. (١٩١)
 Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. (١٩٢)
 7, 2006 .
- Nandini PATEL:– Op.Cit. ,P.6 (١٩٣)
 Ibid ,P.5 (١٩٤)
 Gijsbert Oonk:– The Chinging Culture ...Op.Cit.,P.9. (١٩٥)
 East African Indian Cuisine, Saturday April 10, 2010 (١٩٦)
<http://www.slowfoodhk.com/files/East%20African%20Indian%20Cuisine>
 Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. (١٩٧)
 7, 2006 .
- G.Oonk:– After Shaking ...Op.Cit.,P.79. (١٩٨)
 Gijsbert Oonk:– The Chinging Culture .Op.Cit.,PP.11,12,20,21. (١٩٩)
 إبراهيم الفارس: الهندوسية،
<http://audio.islamweb.net/audio/Index.php?page=FullContent&audioid=195741>
- India–East Africa Ties: Op.Cit., P.49. (٢٠١)
 Punjabis in Eastern Africa,II A S News Letter , 43 , Spring 2007 . (٢٠٢)
 Vidya Bhushan Rawat:– Op.Cit. (٢٠٣)
 Chandani Patel:– Op.Cit., PP.8–10,62,64. (٢٠٤)
 India–East Africa Ties: Op.Cit., PP.17–19. (٢٠٥)
 Chandani Patel:– Op.Cit., PP.63,64. (٢٠٦)
 Gijsbert Oonk:– The Chinging Culture... Op.Cit.,P.10. (٢٠٧)
 G.Oonk:– After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78. (٢٠٨)
 Ibid,P.79. (٢٠٩)
 Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. (٢١٠)
 7, 2006 .
 India–East Africa Ties: Op.Cit., P.7 (٢١١)

-
- Gijsbert Oonk:– The Chinging Culture Op.Cit.,PP.7,8. (112)**
Ibid,PP.7,8. (113)
Ibid,PP.11,12,20,21. (114)
G.Oonk:– After Shaking ...Op.Cit.,P.80. (115)
Ibid, P.80.. (116)
Ibid,PP.85–86.. (117)
Isaac Esipisu and Nixon Kariithi:– New Media Development in (118)
Africa,PP.4–8.
Report of The High Level Committee... Op.Cit., P.96 (119)



المستوطنات الإسرائيلية في القدس وإدعاء الحقوق التاريخية

د. كريمان محمود إبراهيم (*)

تقدم هذه الدراسة نموذجاً لماهية المجتمع الإسرائيلي الذي تركز أيديولوجيته على فكر المستوطنات، فإسرائيل كدولة ما هي إلا مستوطنة كبيرة، تضم تحت جناحيها هذا الكم الهائل من المستوطنات الأصغر، وما ألحق بها من مهام وأهداف أمنية وعسكرية وأيديولوجية وسياسية. تلك السياسة التي تسارعت وتيرتها بغرض فرض واقع جديد، وخاصة في مدينة القدس، تحت ادعاءات وحجج عديدة. لم تكن هذه الأيديولوجية القائمة على فكرة الإحلال هي أيديولوجية أو سياسة حزب ما أو شخصية ما، وإنما هي السياسة الرسمية للدولة لها مؤسساتها المنوط بها تنفيذها فلكي تنشأ مستوطنات جديدة لا بد من تهجير واقتلاع المزيد من الفلسطينيين من أرضهم ودورهم، والإحلال محلهم. وكان من ثمار هذه السياسة : قلب النظام الجغرافي والديموغرافي، لا سيما في مدينة القدس، وأهمية الاستيطان لا تكمن فقط في رصد محاولة الآخر للاستيلاء على ما بحوزة الغير، ولكن باعتباره عقبة من أصعب العقبات التي تعترض مسعى السلام، وليس من المبالغة أبداً نعتها بأنها وجدت أصلاً لإعاقة ومنع أي تسوية.

لماذا القدس:

أ لأنها عاصمة الأديان الثلاث مهد المسيح عليه وعلى أمه السلام، ومنها عرج محمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء، وهي أمانة عمر وبيعة صلاح الدين، فيها تدق أجراس كنيسة القيامة ومن مآذن مسجدها الأقصى يسمع صوت الأذان الله أكبر.. فبقيت شامخة جميلة، إنها عبق التاريخ أو قل عروس التاريخ، قل ما شئت، إنها عظيمة تستمد عظمتها من تاريخها، ويستمد التاريخ منها سطور وحقايقه، وتتجلى عظمتها تلك في قدرتها الفريدة على تجسيد هذا الماضي، ليبدو وكأنه كاننا بيننا نتحسسه نفرح لفرحه ونتألم لألمه، فتخرج الآهات ممزوجة بدماء الأبرياء، فشهداء اليوم والأمس، الأمس القريب والأمس البعيد مرتبطون ارتباطاً وثيقاً، فقبل أن تتحرر القدس من الغزو الصليبي الغاشم عام ١١٨٧م كانت هناك حالة حمل وهي أطول فترة حمل شهدتها التاريخ، إذ امتدت لما يزيد على السبعة قرون وحينما جاء المخاض أسفر عن الولادة المشنومة للحركة الصهيونية فخرجت من رحم الصليبية.

(*) أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة حلوان.

وفي هذا الصدد يقول س. آر كوندرا C.R. Kondr * في كتابه عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس: إن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته^(١)، ولعل تغليف الصهيونية لأطماعها، بنفس الدعاوى الصليبية، ليقدّم دليلاً واضحاً على أنها اعتمدت منذ نشأتها على النهج الصليبي، فحينما خرج الصليبيون لسفك دماء المسلمين والاستيلاء على ثرواتهم، كانت دعواهم أنها "إرادة الله" واعتبروا أنفسهم أنهم "جنود المسيح"، وما هي الصهيونية تتخفى خلف دعاوى دينية، تارة "كشعب الله المختار"، وتاريخية تارة أخرى "كأرض الميعاد"؟!

ولعل صعوبة فهم تاريخ القدس عاصمة الأديان الثلاثة يبدو في تلك التعددية الدينية التي تحمل في طياتها وبين جنباتها هذا الكم من التحديات الكامنة، فالقدس عاصمة دينية وتاريخية وسياسية واقتصادية، تعرضت لمؤامرات عديدة لتزوير هويتها وطمس معالمها، تمهيداً لتهويدها ومن ثم الادعاء بالحق التاريخي، وكان لدى إسرائيل مخطط واضح في هذا الشأن، يعود إلى ما قبل تأسيس الدولة منذ ١٨٩٧م عندما أقر مؤتمر يازل إنشاء إسرائيل بعد خمسين عاماً، وإسرائيل الكبرى بعد مائة عام^(٢)، ويرتكز هذا المخطط على قاعدتين أساسيتين.

١- تهويد الأرض. ٢- تهويد السكان.

ففيما يتعلق بتهويد الأرض: صدرت مجموعة من القوانين التي تعود للحقبة البريطانية لمصادرة الأرض، أهمها قانون الطوارئ، وقانون أملاك الغائبين (أي إذا غاب الشخص سبع سنوات تسلب منه أرضه)، وطرد الفلسطينيين العربي من أرضه. ذلك أن سياسة الإبعاد مورست كثيراً تحت حجج واهية كزريعة الغائبين المشار إليها، أو الحجج الأمنية مثل: تملك فلسطيني جنسية أخرى فتسقط مواطنته بالقدس^(٣).

أما سياسة تهويد السكان فمورست بواسطة التفريغ السكاني للمنطقة بإحلال يهود محل العرب، وذلك بطرد السكان العرب وزيادة الاستيطان اليهودي^(٤) فيقتب بذلك العنصر اليهودي في المدينة على العنصر العربي، وبالتالي يسهل صياغة المدينة على أسس ديمغرافية وسكانية جديدة، ومن هنا بدأ النزوح اليهودي من شتى البقاع إلى أرض فلسطين مصحوباً بسمفونية موسيقية تعزف على أوتار الحقوق التاريخية والدينية، وهنا حدث التزاوج التاريخي بين اليهود النازحين والأجانب المقيمين، حينما تلاقت على أرض فلسطين مطامع انصهيونية بالاستعمار الأوروبي الممثل في بريطانيا، فاتفقا على إقامة دولة يهودية في فلسطين، ولا يخفى علينا أن جزء من هذا الإنجاز يعود أيضاً لما سبق وأن روج له الكتاب اليهود ويكثر من المبالغة حول مسألة الاضطهاد حتى يبرروا دعوتهم العنصرية.

ويأتي على رأس هؤلاء: زفي هيرش كاليشر (١٧٩٥-١٨٧٤) الذي دعا في كتابه "البحث عن صهيون" إلى أن حل المشكلة اليهودية يأتي عن طريق تهجير اليهود إلى فلسطين^(٥)، و"موسى هيس" ١٨١٢-١٨٧٥ في كتابه "روما والقدس" الذي رأى فيه أن

اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية لا يشكل حلاً عملياً للمسألة اليهودية، ونادى بأن "الجنس اليهودي من أقدم وأعرق الأجناس البشرية، وإليه ترجع وحدة اليهود لأن "الجنس اليهودي حفظ صفاءه عبر القرون"^(٦) وأخيراً نجح هرتزل بعد نشر كتيبه "دولة اليهود" في إقامة أول حركة يهودية عالمية تمثلت في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بازل في عام ١٨٩٧، وكان ضمن مقترحات البرنامج تشجيع الهجرة المنظمة، وعلى نطاق واسع، إلى فلسطين والحصول على اعتراف دولي بشرعية التوطن في فلسطين^(٧). وفي المؤتمر الصهيوني السابع في ١٩٠٥ وبعد وفاة هرتزل - في نفس العام - أخذ المؤتمر قراراً بأن الحركة تهدف لإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين.

ومن عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩١٤، عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان التوطن اليهودي يزداد في فلسطين في صمت وإلحاح، حتى وصل عدد المستوطنين الجدد إلى ١٢ ألفاً يعيشون في تسع وخمسين مستعمرة. ولقد كانت الحرب العالمية الأولى نقطة تحول تاريخية وفرصة ذهبية للحركة الصهيونية^(٨)، تمكنت من استغلالها وتسخيرها لخدمة أهدافها، فبمساعدة بريطانيا - التي انتدبت على فلسطين بقرار من عصبة الأمم عام ١٩٢٢ - فتحت أبواب الهجرة اليهودية غير المقننة إلى فلسطين^(٩) وغدت الوكالة اليهودية وكأنها دولة داخل الدولة ففتحت باب الهجرة على مصراعيه.

وكما استغلت الحركة الصهيونية الحرب العالمية الأولى، حدث نفس الأمر بالنسبة للحرب العالمية الثانية، ولكن بشكل أكثر دقة وتنظيماً، فعمدت في هذه المرة لربط مصالحها بمصالح الحلفاء. وعندما انعقد مؤتمر "بيلتمور" عام ١٩٤٢ كشفت الصهيونية النقيب عن أطماعها، وأن هدفها هو إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وليس وطناً قومياً^(١٠).

وعلى الرغم من أن الأمم المتحدة أقرت، في المادة الأولى من ميثاقها، بحق الشعوب في تقرير مصيرها^(١١)، إلا أن قرار جمعيتها العامة - الذي جاء بعد ذلك في نوفمبر عام ١٩٤٧ والخاص بتقسيم فلسطين - كان منافياً لهذا الحق، وفي هذا الشأن قدم العديد من فقهاء القانون الدولي أدلتهم القانونية التي تثبت ذلك^(١٢) لكن تم تجاهلها عن عمد، والخطر في هذا القرار الذي قسم فلسطين إلى دولتين عربية وأخرى يهودية، وعمل على تدوين القدس، أنه أعطى للصهيونية مساحة واسعة لتنفيذ مخططاتها الاستعمارية في الاستيلاء على القدس ومن ثم تهويدها، وكما أشرنا أن مخطط تهويد القدس يرجع لمؤتمر بازل ١٨٩٧، لكن التطبيق العملي لهذا المخطط بدأ فعلياً منذ يونيو ١٩٦٧^(١٣) وتحديداً في السابع من يونيو ١٩٦٧، حينما حاصرت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي المدينة ودخلتها من بوابة الأسد، وعلت هتافات اليهود - والتي اتسمت بالتحدي - عند الحائط الغربي مردين "لن نخرج من هنا" أو "لن يحدث ذلك أبداً مرة أخرى"، في سياق تذكرهم للهولوكوست. أما الجنرال موشيه ديان فقد وقف أمام الحائط وأعلن: "لقد عدنا إلى أكثر أماكننا قداسة .. لقد عدنا ولن نتركها قط مرة أخرى"، ثم أصدر

أوامره بفتح جميع البوابات وإزالة الأسلاك الشائكة والألغام من المنطقة المنزوعة السلاح إذ رأى أنه لن يحدث تراجع مرة أخرى^(١٤).

وقد تطور ادعاء إسرائيل بملكية المدينة، تطوراً خطيراً، باحتلالها الضفة الغربية وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان، إلى جانب القدس، وذلك في نهاية حرب الأيام الستة، ويعد هذا مخالفاً لكل من قوانين لاهاي التنظيمية الصادرة عام ١٩٠٧، ولاتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩. وطبقاً للقانون الدولي لم يكن مسموحاً بضم الأراضي التي يتم الاستيلاء عليها عسكرياً، وكان بعض الإسرائيليين ومن بينهم ليفي أشكول على استعداد لإعادة الأراضي المحتلة إلى مصر وسوريا والأردن، نظير معاهدة سلام مع العرب، بيد أنه لم يكن من الوارد قط إعادة مدينة القدس القديمة إلى العرب، إذ أدخل على الخطاب الصهيوني الذي كان علمانياً لدرجة التحدي في الماضي - عنصر تسام روحاني، فقد قال المتطرفون في إلحادهم إنهم خبروا قدسية مدينتهم المقدسة. وعبر أبا إيبان مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة عن ذلك بقوله: إن أورشليم تقع خارج نطاق، وفوق وقبل وبعد جميع الاعتبارات السياسية، وأيضاً قيل أنه من المحال على الإسرائيليين النظر إلى الأمر بموضوعية، لأنهم قد التقوا بالروح اليهودية عند الحائط^(١٥). وكان ليفي أشكول قد أعلن، عشية الغزو، أن القدس "عاصمة إسرائيل الأبدية"^(١٦).

ولم يقتصر الأمر عند حد الإعلان، بل تبعه مجموعة من الإجراءات لتهويد القدس، ولذا فإنه ليتسنى لنا فهم عمنية تهويد القدس، لا يجب النظر إليها على أنها تمت بشكل عشوائي، وإنما باعتبارها مخططاً له أهدافه الواضحة، التي تتمثل في تأسيس القدس الكبرى الموسعة اليهودية الخالصة ككتلة استيطانية ضخمة تمزق، وإلى الأبد، الوحدة الجغرافية للضفة الغربية، كما جاء في إحدى وثائق حزب النيكود^(١٧). وفي هذا السياق كان لا بد من طمس المعالم العربية في القدس^(١٨) حتى ولو تعدى ذلك مخطط التفريغ السكاني إلى ما هو أعظم، كالانقضاء على المعالم الأثرية الإسلامية والمسيحية، ومحاولة إما تهويدها أو القضاء عليها^(١٩).

صحيح أن المجتمع الدولي، الممثل في الأمم المتحدة، حاول وقف هذا العبث، فأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة عدة قرارات أدانت فيها إسرائيل، وعدت إجراءاتها بأنها غير شرعية وطاقتها بالغائها، ويأتي على رأس هذه القرارات: قرار رقم ٢٢٥٣ الصادر سنة ١٩٦٧، وقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، وغيرها من القرارات التي لا يتسع المجال لحصرها، لأن إسرائيل في كل الأحوال لم تدع لتلك القرارات^(٢٠) سواء فيما يتعلق بالقدس أو فلسطين، أو حتى بجيرانها. وهذا بدوره يلقي بظلال من الشك والريبة تجاه هذه المؤسسة الدولية، وماهية علاقتها بإسرائيل، فالرفض التام لم يعرض الكيان الصهيوني لأي عقاب من قبل المجتمع الدولي، في حين أن دولاً أخرى يقابل رفضها لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة لما هو أبعد من الإدانة والشجب، إلى حد التدخل العسكري كما حدث في أفغانستان والعراق!؟

ومن جانبها كانت إسرائيل تسابق الزمن من أجل فرض واقع معين على القدس، يضع الأمم المتحدة وقراراتها في موقف العاجز، وكما سبق وأن ذكرنا أن العملية لم تكن عشوائية، إنما هو مخطط منظم، ففي نفس يوم الغزو تقدم "تيدي كوليك" إلى ديان للإشراف على تطهير المنطقة منزوعة السلاح، ومثله مثل ديان رأي أهمية "خلق واقع" يؤسس الحضور الإسرائيلي الدائم في القدس، حتى لا يكون أمر الجلاء عنها - استجابة لطلب المجتمع الدولي - وارداً، وفي مساء العاشر من يونيو، وبعد توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار، وجه إنذاراً إلى ٦١٩ فرداً من سكان حي المغاربة بإخلاء منازلهم، ثم قامت البلدوزرات وحولت المنطقة التاريخية، التي هي أقدم الأوقاف في القدس، إلى أنقاض، وأشرف كوليك على هذا العمل الذي كان مخالفاً لاتفاقيات جنيف، بهدف إيجاد مساحة كبيرة تتسع لآلاف الحجاج المتوقع توافدهم على الحائط الغربي. وكانت تلك القطة هي الأولى فقط في عملية طويلة مستديمة (للتجديد الديني)، وهو تجديد مؤسس على هدم القدس التاريخية العربية، وتغيير مظهرها وشخصيتها تغييراً كلياً^(٢١)، ولذا صدرت مجموعة من التشريعات عملت على تدخل السلطات الإسرائيلية في كافة شؤون القدس، فعمدت إلى تهويد التعليم العربي، وتهويد القضاء^(٢٢). وفي ٢٨ يونيو قام الكنيست بضم القدس الشرقية إلى الكيان الصهيوني، لتصبح بذلك المدينة القديمة والقدس الشرقية جميعاً جزءاً من دولة إسرائيل، وكان ذلك مخالفاً صريحة لاتفاقية لاهاي^(٢٣).

ولم تكتف إسرائيل بذلك، بل عمدت إلى إزالة الأحياء العربية ومصادرة أراضيها، وإقامة أحياء سكنية بأسماء يهودية، مواصلة بذلك خطة إبادة المقدسات الإسلامية والمسيحية للقضاء على الارتباط الديني بين المسلمين والمسيحيين وبين مقدساتهم، وهذا بدوره يؤدي لتشويه الطابع الحضاري للمدينة، وليس أدل على ذلك من الحفريات التي قامت وتقوم بها السلطات الإسرائيلية بالقرب من المسجد الأقصى، بحثاً عن الهيكل المزعوم، والحفريات الأخرى قرب حائط المبكى، والتي أحدثت بالفعل تصدعات فضلاً عن مصادرة "باب المغاربة" وهو الباب المؤدي إلى بيت المقدس^(٢٤).

ومرة أخرى أصدرت الأمم المتحدة، في يوليو ١٩٦٧، قرارين تدعو فيهما إسرائيل إلى إلغاء ذلك "التوحيد"، والامتناع عن أي خطوات من شأنها تغيير وضع القدس. وقد كانت الحروب وتوابعها بدأت تلتفت انتباه العالم إلى مأساة اللاجئين الفلسطينيين المنتزعين من أوطانهم، وبعد عام ١٩٦٧ لاذ آلاف آخرون منهم بالفرار من المناطق المحتلة، ومكثوا في حالة من الوهن والعجز في المخيمات التي أقيمت لهم في الدول العربية المجاورة، ثم جاء قرار مجلس الأمن الشهير، رقم ٢٤٢ في ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٧، بوجوب انسحاب إسرائيل من المناطق التي احتلتها أثناء حرب "الأيام الستة"، وأيضاً بوجوب الاعتراف بسيادة وسلامة أراضي كل دول المنطقة واستقلالها السياسي، إلا أن معظم الإسرائيليين من اليهود في العالم، والذين شغفوا من جديد بـ "الحيز المقدس"، لم يعترفوا بشرعية تلك القرارات^(٢٥).

ومن المفارقات أن "خلق الوقائع المادية"، من قبل إسرائيل، بالاستيلاء على الأرض وبناء المستعمرات في المناطق، بقصد زيادة نسبة السكان اليهود، أدى إلى نتيجة عكسية تمثلت في التقليل من الهجرة وزيادة السكان الفلسطينيين، وليس أدل على ذلك من أن معدل النمو السكاني السنوي، في القدس الشرقية، جاء مختلفاً عما هو عليه في بقية الضفة الغربية، وقد جرى تقدير متوسط لنسبة النمو السكاني في القدس الشرقية، للسنوات ١٩٦٧ - ١٩٨٠، فكان ٣% قياساً إلى ١.٤ - ١.٥% في الضفة الغربية. وفي مايو ١٩٦٧ كان عدد سكان القدس الشرقية ٨٠ ألف نسمة، وأصبح عددهم في سبتمبر من نفس العام ٦٧ ألف نسمة، ومع نهاية عام ١٩٨٢ بلغ عددهم ١٢٠ ألف نسمة (أي ١٤% من مجموع سكان القدس الشرقية والضفة الغربية معاً) ^(٢١) وظل النمو السكاني في القدس الشرقية ثابتاً في حدود ٣% سنوياً، وهو أعلى من النمو السكاني اليهودي، مما أدى إلى تغيير طفيف في بنية المدنية الديمغرافية، فقد نقصت الأغلبية اليهودية بنسبة ٣-٤% في ستة عشر عاماً. أما فيما يتعلق بالنمو السكاني في القدس الكبرى خارج حدود بلدية القدس، فتشير التقديرات إلى معدل نمو متشابه قدره ٣% في المنطقة المحيطة بالمدينة. وفي عام ١٩٦٩ كان ٣٧% من مجموع سكان المناطق الجنوبية، في الضفة الغربية، يقطنون في منطقة القدس الكبرى ^(٢٢).

لمواجهة ذلك عمدت إسرائيل، في ظل غياب آليات دولية فعالة لردع العمل الصهيوني إلى حرق المسجد الأقصى في ٩ أغسطس ١٩٦٩، ولم تكن عوامل القلق والحوادث المتبادلة بين الجانبين، والتي سبقت هذا الحادث، هي كل ما أدى إليه، ولكن ظل المخطط الإسرائيلي لتهويد القدس هو الدافع والمحرك لمثل هذه الأحداث. وقد جاء رد الفعل العربي، للدفاع عن عروبة وأسلمة القدس، ليسجل بداية الإراصات الأولى لتحرك عربي وإسلامي منظم، تمثل في عقد مؤتمر قمة عربي في الرباط في ٢٤/٩/١٩٦٩، والذي انبثق عنه تكوين لجنة دائمة تسمى "لجنة القدس"، تتولى متابعة القرارات التي يصدرها المؤتمر الإسلامي؛ الذي أصدر سلسلة من القرارات أدان فيها حرق المسجد الأقصى، هذا بالإضافة للقرارات العديدة التي أصدرتها جامعة الدول العربية.

وهذا ما يدفعنا للتساؤل عما فعلته هذه القرارات والمؤتمرات لحماية القدس، وهل وفرت لها الضمانات اللازمة؟! لا سيما وأن قوة القرار لا تكمن في صدوره، بقدر ما تكمن في القدرة على تفعيله، وفي هذا الصدد ظنت القرارات العربية قيد التنفيذ لما اتسمت به من ضعف وعدم جدية.. وهذه هي المعضلة الحقيقية التي سيقود فهمها لحل إشكالية الدور العربي لإنقاذ القدس من التهويد، والذي اتسم باللامنهجية واللا استراتيجية، مقابل العمل الإسرائيلي المنظم والمتواصل في هذا المجال!، وهذا ما مكن رئيسة الوزراء الإسرائيلية "جولدا مائير" من نسف قرارات المؤتمر الإسلامي؛ عندما أعلنت عن عزم الحكومة الإسرائيلية ترميم المسجد الأقصى على نفقتها ^(٢٣)، وتزامن ذلك مع ما أثبتته التحقيقات

من أن من قام بهذا العمل لم يكن عميلاً يهودياً ولكنه استرالي من أتباع طائفة مسيحية متطرفة^(٢٩).

وبصرف النظر عن صدق هذه التحقيقات من عدمه، فإن ما يعيننا هنا هو النهج الإسرائيلي الذي استمر يحقق النجاح تلو الآخر، فهو بالإضافة لسياسته التدريجية في تنفيذ مخططة الاستراتيجي، فإنه قادر أيضاً على استيعاب الأزمات الكبرى التي يمكن أن تقلب المجتمع الدولي ضده، ويحولها لصالحه، لينتهي الأمر بتعاطف معظم وأهم الأطراف معه، وفي هذا الإطار لا يمكن أن نلقي باللوم على إسرائيل ومخططاتها، أو على المجتمع الدولي والأممي وتعاطفه معها. إن كل ما فعلته إسرائيل أنها حلت أو قل توهمت ثم حولت هذه الأوهام لأيديولوجية، ولقوة حية وفعالة، وكيان يمارس وجوده وحقوقه تحت مظلة قانونية، وبذلك تكون قد نجحت في فرض أطماعها على المجتمع الدولي، لدرجة أنها جعلت من أمن إسرائيل الشغل الشاغل لهذا المجتمع^(٣٠)، في مقابل حق عربي سطره التاريخ، وتنطق به الأرض والوثائق وشعوب العالم، ليتحول هذا الحق لوهم لوهم القوى العربية، ومحدودية نضالها وعدم مقدرتها على تفعيل قراراتها.

فكرة المستوطنات:

هي فكرة قديمة تعود إلى ما قبل القرن الماضي، عندما طرح لورنس أوليفانت - عضو البرلمان الإنجليزي - (١٨٢٠-١٨٨٨) فكرة إنشاء مستوطنة يهودية شرق الأردن شمال البحر الميت، مشجعاً استعمار اليهود لفلسطين، وكان هذا الطرح من خلال كتابه "أرض جلعاد" الذي نشر عام ١٨٨٠. وفي عام ١٨٧٨ كانت مجموعة من يهود القدس قد تمكنت من تأسيس مستوطنة بتاح تكفا، وفي ١٨٨٢ تم إنشاء ثلاث مستوطنات هي: ريشون ليتسيون، وزخرون يعقوب، وروش بينا، وفي عام ١٨٨٣ أسست مستوطنة يسود همعليه وعفرون، ومستوطنة حديرا عام ١٨٨٤، وفي عام ١٨٩٠ أسست مستوطنات رحوبوت ومشمار هارون. وبعد المؤتمر الصهيوني العالمي الثاني، عام ١٨٩٨، وصل عدد المستوطنات اليهودية لـ ٢٢ مستوطنة، واستمر هذا العدد في التزايد، ولكن الانطلاقة الكبرى في هذا المجال جاءت بعد الإعلان عن قيام إسرائيل في مايو ١٩٤٨^(٣١).

وتعد الفترة ١٩٤٨-١٩٦٧ فترة تأسيس الكيان الصهيوني لتتطلق بعدها أخطر وأوسع مرحلة في بناء المستوطنات، وهي تشمل الفترة من عام ١٩٦٧-٢٠٠٨، بعد احتلالها لباقي القدس وفلسطين^(٣٢). وساعدت بعض الإدارات مثل الصندوق القومي اليهودي (الكيرن كايمت)، وإدارة الاستيطان في الوكالة اليهودية^(٣٣) على توفير الأموال اللازمة للمهاجرين^(٣٤). والحقيقة أن مشاركة كل مؤسسات ووزارات الدولة الإسرائيلية، في تنفيذ عملية الاستيطان، هو ما قاد لنجاحها^(٣٥).

ولما كان هدفهم زيادة عدد اليهود في القدس؛ فقد دفعهم ذلك للتركيز بعد عام ١٩٦٧ أي بعد احتلال القدس الشرقية ٢٨ يونيو ١٩٦٧، لاخترق البلدة القديمة وأحياء القدس الشرقية، وبالفعل وصلت كثافتهم العددية نسبة أعلى من الفلسطينيين، ذلك أن

الهدف كان يتجه لخفض نسبة المواطنين الفلسطينيين في القدس كلها لما لا يتجاوز ٢٠%. وفي عام ١٩٨٦ وصل عدد المستوطنين الصهاينة في الأحياء الاستيطانية، حول القدس القديمة، لـ ١٤٨.٠٠٠ مستوطن، مقابل ٣٥١.٠٠٠ مواطن عربي، أما إجمالي الصهاينة في كل القدس فوصل لـ ٧١.٥% من إجمالي سكان المدينة، أي ٣٣١.٠٠٠ مستوطن داخل الحدود الإدارية للقدس^(٣٦).

وتزامنت خطة الزيادة السكانية للمستوطنين في القدس، مع الزيادة المكانية لها بعدما نجحت إسرائيل في توسيع حدود بلدية القدس الشرقية، والتي كانت تضم عند احتلالها عام ١٩٦٧ (٦.٥ كم) بضم أراضي من الضفة الغربية إليها ما يعادل (٧٠ كم)، وبذلك أصبحت حدود البلدية الجديدة تضم (١٠.٨ كم) (القدس الشرقية والغربية) أي ٢٨% من الضفة الغربية وذلك لفرض غالبية ديموغرافية يهودية في قسمة المدينة، وبذلك يتم عزل واستثناء المناطق الفلسطينية الآهلة مثل: الرام وأبو ديس والعيزرية ومخيم قلنديا. ولاستكمال هذا المخطط؛ كان لابد من أن تتم عملية الإخلاء والطرده للفلسطينيين سكان البلدة القديمة، وهكذا تتم عملية عزل القدس الكبرى عن الضفة الغربية، تمهيداً لضمها لإسرائيل - وهو المخطط الذي بدأ فور الاحتلال في ٢٨ يونيو ١٩٦٧. أما الخطة التالية في الاستراتيجية الإسرائيلية لتهود القدس، فقد اعتمدت على استيطان استعماري في البلدة القديمة والأحياء المحيطة بها، وإنشاء أحياء يهودية وشبكة طرق لربط القدس الشرقية بالمنطقة اليهودية الآهلة بالسكان، وفي هذا الصدد أعربت إدارة تيدي كوليك عن قلقها تجاه النمو السكاني الفلسطيني في القدس، وأصبح من المتعارف عليه اعتبار الأراضي المملوكة للفلسطينيين مناطق خضراء أو غير مستعملة، لتبرير مصادرتها. واعتماداً على قانون الأراضي واستعمائها للمنفعة العامة، وهو القانون الصادر عن الانتداب البريطاني عام ١٩٤٣، فإن وزير المالية يعد مكلفاً بمصادرة الأراضي ذات الملكية الخاصة لأغراض المنفعة العامة، ولذلك جرى بين عامي ١٩٦٧ - ١٩٩٦ مصادرة حوالي (٢٣٥٠٠) دونم من الفلسطينيين في القدس الشرقية^(٣٧).

وفي إطار توسيع ما يسمى بحدود القدس شرقاً وشمالاً، لإحكام السيطرة عليها، صودرت الأراضي لإقامة المستوطنات بداخلها وحولها، فصادرت ٤٠% من مساحة القدس الغربية، وطردت سكانها، وأنشأت الحي اليهودي مكان حارة الشرف "المغاربة" الفلسطينية - التي يرجع تأسيسها إلى عهد الفاتح صلاح الدين - كما أقامت حولها ١٥ مستوطنة تحيط بالمدينة المقدسة من جميع الجهات.

وفي الشمال، والشمال الغربي، أقامت مستوطنات النبي يعقوب، وصودرت أراضيها الفلسطينية عام ١٩٦٨، وراموت وصودرت أراضيها عام ١٩٧٠، والجامعة العبرية من عام ١٩٢٤ - ١٩٦٧، ففي عام ١٩٢٤ صودر جزء من أراضيها، وفي عام ١٩٦٧ صودر المزيد من الأراضي، وريخس شعفاط (جبعات هاشعفاط) وصودرت أراضيها عام ١٩٧٠ وتأسست عام ١٩٩٠، رامات أشكول (جبعات همفتار) صودرت أراضيها عام

١٩٦٨ وتأسست في نفس العام، بسجات زئيف ويسجات عومر، عطوروت صودرت أراضيها وأُسست عام ١٩٧٠، التلة الفرنسية. وفي الجهة الجنوبية هناك مستوطنات جيلو صودرت أراضيها عام ١٩٧٠، وتأسست عام ١٩٧١، منتزه كندا*، جفعات همتوس وتأسست عام ١٩٩١، وهار حوماه صودرت أراضيها عام ١٩٩٠ وتأسست عام ١٩٩١ (٣٨).

أما من الشرق، فهناك مستوطنات معاليه أدوميم* وكدار اللتان تدخلان مع مستوطنة جفعات زئيف، في الشمال ضمن حدود القدس الكبرى، أما مستوطنة معاليه أدوميم فقد أقيمت في ٨ أغسطس ١٩٧٩ كمستوطنة دينية، وفي عام ١٩٩٢ تقرر تحويلها إلى مدينة، وأصبحت أول مدينة إسرائيلية في الضفة الغربية، تقع في إطار ما يسمى القدس الكبرى، على طريق القدس - أريحا، وعلى بعد ٦ كم إلى الشرق من القدس، ومستوطنة كيدار (نيثوت أدوميم) وأقيمت في ١٩ يناير ١٩٨٥، أما مستعمرة ميشور أدوميم فقد شرع في إقامتها كمعسكر عام ١٩٧٤، وقررت الحكومة الإسرائيلية أن تكون منطقة صناعية متخصصة في الصناعات الثقيلة، ثم تحولت عام ١٩٧٧ إلى مستوطنة صناعية دائمة، باقتراح من موشي دايان وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق، في إطار إكمال الطوق الشرقي لما يسمى القدس الكبرى، وهي تقع على طريق القدس أريحا على بعد حوالي ١٣ كم إلى الشرق من القدس، وفي ٢٦ يوليو ١٩٨٢ أقيمت مستوطنة غنتوت (علمون) وهي تقع إلى الشرق من القدس، وفي عام ١٩٩٥ أقيمت قرية داود غرب باب الخليل في أراضي المنطقة الحرام، وذلك بهدف دمج قسيمي مدينة القدس الشرقية مع القدس الغربية. أما الأراضي التي أقيمت عليها عام ١٩٩٥، فكانت قد صودرت من أملاك عربية وأملاك الكنيسة، أما مستوطنة جبل أبو غنيم فقد صدر قرار من الحكومة الإسرائيلية ببناء هذه المستوطنة في جبل أبو غنيم بالقدس الشرقية عام ١٩٩٧، بهدف طمس عروبة المدينة المقدسة، وإحكام الطوق الاستيطاني حولها وداخلها (٣٩).

وبذلك تمكنت إسرائيل من إحاطة المدينة المقدسة بطوق استيطاني عزلها تماماً عن محيطها الفلسطيني، ففصلت المستوطنات الشمالية القدس عن شمال الضفة الغربية، حيث محافظات رام الله ونابلس وياقي المحافظات، أما المستوطنات الجنوبية فعملت على عزل القدس عن محافظات بيت لحم والخليل، ولم تكف إسرائيل بذلك، إذ صاحب هذه الإجراءات الاستيطانية ممارسات لا إنسانية مثل: منع سكان الضفة الغربية من الدخول إلى مدينة القدس، ووضع أمام من يريدون الدخول إليها، أو الذهاب للمسجد الأقصى، مجموعة من العراقل القاسية تمثلت في: الحواجز العسكرية المتعددة والمنتشرة على طول الطريق المؤدية إلى القدس (٤٠).

وفي النهاية، ساهمت كل هذه الإجراءات، ليس فقط في عزل مدينة القدس وضواحيها عن محيطها الفلسطيني بل وقطع التواصل الجغرافي بين أنحائها، والحيولة

دون إقامة دولة فلسطينية ذات سيادة، هذا خلاف تشويه النمط العمراني للقدس العتيقة والقرى الفلسطينية المحيطة بها، بالإضافة للاتجاه لهدم المسجد الأقصى^(٤١). ويعد إقامة هذا العدد من المستوطنات إلى حدود القدس الإدارية؛ أصبح عدد الصهاينة في عام ١٩٩٢ في شرق القدس، ولأول مرة في التاريخ، أعلى من عدد المواطنين الفلسطينيين إذ بلغ عدد المستوطنين مائة وستين ألفاً، مقابل مائة وخمسة وخمسين ألف عربي فلسطيني. أما في كل القدس، فبلغ عدد المستوطنين اليهود أربع مائة وسبعة آلاف مستوطن، مقابل مائة وواحد وستين ألف مواطن فلسطيني ما اعتبره الصهاينة نسبة زائدة لأعداء الفلسطينيين الذين يتكاثرون بمعدلات طبيعية هي الأعلى في العالم، ما أدى لارتفاع نسبتهم عام ٢٠٠١ إلى ٣٢%، مقابل ٢٧% مطلع السبعينات، وحتى عام ٢٠٠٠ كانت الغالبية الساحقة من سكان البلدة القديمة هي من الفلسطينيين البالغ عددهم ٣٣.٠٠٠، مقابل ٣.٠٠٠ مستوطن صهيوني^(٤٢).

وعلى الرغم من مواقف الدول العربية الراضية للاستيطان، وإقامة المستوطنات باعتباره أمر مخالف لقواعد القانون الدولي، إلا أن إسرائيل استمرت في سياستها الرامية إلى إفراغ الأراضي المحتلة من أصحابها الشرعيين وإحلال المستوطنين محلهم، ولم تسهم مواقف العرب ومفاوضاتهم لوقف بناء هذه المستوطنات إلا إلى زيادة وتيرتها، بهدف خلق واقع حي يخضع القدس كلياً للمخطط الإسرائيلي.

ARCHIVE

المستوطنات في مشروعات السياسة الإسرائيلية

تعاظت الحياة السياسية الإسرائيلية جملة مشاريع هامة؛ كان إنشاء المستوطنات الإسرائيلية في القدس أحد أهم نتائجها:-

١- مشروع ألون ١٩٦٧*

جاء هذا المشروع بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بحوالي شهر، ويرغم أن يغفل ألون اعتمد في مشروعه على أفكار بن جوريون، إلا أن مشروعه كان أكثر تفصيلاً ووضوحاً، وقد اشتهر هذا المشروع لاحقاً بأنه أول المشاريع الإسرائيلية التي وضعت لحل معضلة الأراضي المحتلة ودعا ألون في مشروعه لضم بعض المناطق للدونة كجزء لا يتجزأ من سيادتها، وفيما يتعلق بالقدس؛ حث على العمل على إقامة ضواحي بلدية مأهولة بالمستوطنين اليهود في شرق القدس، علاوة على إعادة تعمير وإسكان سريعين للحي اليهودي بالبلدة القديمة من القدس، الأمر الذي ترجم عملياً على مدى السنين الماضية، لدرجة أن المدينة المقدسة أصبحت محاطة تقريباً بالمستوطنات اليهودية^(٤٣).

٢- وثيقة غاليلي ١٩٧٣*

طرحت هذه الوثيقة، التي تضمنت أفكار زعماء حزب العمل، على مركز الحزب في ١٦ أغسطس ١٩٧٣، وغدت أساس برنامج الحزب في انتخابات الكنيست التي جرت في كانون أول، ديسمبر ١٩٧٣، ودعت الوثيقة فيما يتعلق بالقدس إلى مواصلة الإسكان

والتنمية الصناعية في القدس وضواحيها بهدف تثبيت الأقدام فيها، وإلى استغلال الأراضي التي وصفتها بأنها "أراضي دولة"، في نطاق المنطقة الواقعة شرقي القدس، كما دعت الوثيقة إلى تطبيق قرار الحكومة الصادر في ١٣/٩/١٩٧٠ بشأن التوطين في منطقة النبي صموئيل^(٤٤).

٣- مشروع يعقوبي ١٩٨٨ *

طرح هذا المشروع في منتصف كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨، ويرغم أن جاد يعقوبي يحسب من معسكر اليسار، ويصنف على أنه من المعتدلين، إلا أن طرحه لا يختلف عن طرح الليكود وهذا دليل آخر على أن القادة الإسرائيليين، مهما اختلفت انتماءاتهم الحزبية إلا أنهم يلتقون في مسار واحد وهو: عدم الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني. وجاء طرح يعقوبي لجملة نقاط دعى إسرائيل لعدم التفريط فيها والتمسك بها في أية مفاوضات مستقبلية، وذكر القدس بأنها لن تكون موضوعاً للحوار مع الفلسطينيين وسيتم بحث أية ترتيبات ممكنة تستهدف مراعاة الحساسية الدينية للعرب في القدس، ولكن في تاريخ متأخر، عندما يكون دافع التعايش السلمي بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي قد تطور^(٤٥)، تماماً حينما اتفقت خطة كل من إسحق شامير وإسحاق رابين، مايو ١٩٨٩، والمسماة بـ "مبادرة السلام الإسرائيلية" حول القدس، إذ جاء بها "القدس كعاصمة لإسرائيل ليست أمراً مطروحاً للنقاش"^(٤٦).

٤- مشروع شارون ١٩٨٩ *

قدم هذا المشروع رسمياً في ٢٩ مارس ١٩٨٩، رداً على الانتفاضة، بمحاولة إيجاد حلول - هي في الواقع أوهام - للمشاكل القائمة بين الجانبين، ومن هنا كان طرحهم لموضوع الحكم الذاتي للفلسطينيين طرحاً غير جاد، ففي هذا الإطار ذكر شارون أن "الحكم الذاتي هنا لا يخص الأرض وإنما السكان... والقدس ستبقى موحدة دون أي مكن للآخرين فيها"، ودعا هذا المشروع إلى تعزيز وتوسيع الانتشار الاستيطاني في منطقة القدس الشرقية، وغزو البلدة القديمة من القدس بكثافة استيطانية، وذلك بعد إغلاق ومصادرة معظم المؤسسات الوطنية الفلسطينية في القدس وغيرها وإبعاد رؤساء الانتفاضة المعروفين في منطقة القدس الشرقية^(٤٧). واختتمت كل هذه المشاريع بإجماع الحكومة الإسرائيلية ممثلة في حزبيها الكبيرين الليكود والتجمع، على التصريح بأن "القدس الكاملة عاصمة إسرائيل الأبدية مدينة موحدة، بسيادة إسرائيلية غير قابلة للتقسيم"، هذا ما جاء في البند السادس من وثيقة الخطوط الأساسية للحكومة الائتلافية الموسعة^(٤٨).

ولعل ما سبق يوضح مدى الإجماع الإسرائيلي، بكل أطرافه، على تنفيذ مخططاته وإن وجدت خلافات في وجهات النظر المتعلقة بالمسائل الرئيسية في القضية الفلسطينية؛ فيمكن السيطرة عليها وتوجيهها في الإطار الذي يخدم مسار المصلحة الإسرائيلية، ويجهض في نفس الوقت المحاولات الفلسطينية الرامية للوصول إلى حقوقها، وليس أدل

على ذلك مما ذكره كل من شامير أمام مؤتمر "التضامن اليهودي مع إسرائيل" والذي عقد في القدس في ٢٠ مارس ١٩٨٩، من أن "القدس ستبقى موحدة وتحت السيادة الإسرائيلية في أي تسوية يتم التوصل إليها"، وشمعون بيرس رئيس حزب العمل والقائم بأعمال رئيس الوزراء، من أن "مدينة القدس ستبقى موحدة والمستوطنات القائمة لن تحل، وسيتم ضمان حرية الحركة وحرية العبادة في الأماكن المقدسة"^(٤٩).

وهكذا، فإن تصريحات القيادة الإسرائيلية فيما يتعلق بقضية القدس بأنها عاصمة إسرائيل الأبدية، الموحدة الخاضعة للسيادة الإسرائيلية وغير القابلة للتقسيم، تكون قد تلاقت مع إجراءات السلطة الإسرائيلية التي دعمت دوماً تلك التصريحات، منذ الإعلان عن ضم القدس الشرقية العربية رسمياً، وتوحيد القدس الشرقية والغربية، لتصير مدينة القدس الموحدة عاصمة إسرائيل الأبدية. وحتى عام ١٩٨٩ عندما انفجرت الانتفاضة الفلسطينية، كانت تصريحات القيادة الإسرائيلية أكثر حسماً وصراحة في موضوع القدس.

القدس ما بين التفعيل والتصعيد:

كانت هناك دوماً محاولات يائسة لتفعيل القرارات الدولية الخاصة بالقدس، في ظل تصعيد مستمر للاستيطان اليهودي بها، ذلك أنه من العيب التصور بأن عملية تصعيد الاستيطان اليهودي، في القدس، كان وليد لحظة ما كعام ١٩٨٠ - تاريخ إعلان ضم القدس الشرقية - ، أو حتى عام ١٩٦٧ - تاريخ احتلالها - وإنما جاء في إطار مشروعها العنصري "القدس الكبرى"، الذي دخل حيز التنفيذ منذ اليوم الأول لاحتلال إسرائيل للقدس الشرقية، والذي خطط له أن يحقق خلال خمسين عاماً تهويداً كاملاً للمدينة يشمل تغيير الطابع الديمغرافي "السكاني" للمدينة، لتصبح ذات أغلبية يهودية مطلقة، وتتمشى هذه السياسة، جنباً إلى جنب، مع التخلص من كل ما يؤكد على الحق التاريخي لغير اليهود وذلك بإجتثاث المعالم الدينية والتاريخية الإسلامية والمسيحية على حد سواء.

وفي إطار ذلك رفضت إسرائيل الالتزام بوثيقة جنيف التي قدمت، وبشكل أفضل، مشروع تسوية دائمة لقضية القدس^(٥٠)، أو حتى الاعتراف بالقرارات الدولية والتي بلغت ١٩ قراراً، اعتبرت جميعها القدس أرضاً محتلة. ودعم ذلك بقرار صدر عن الكنيست، أواخر عام ٢٠٠٧، بعدم التنازل عن شرقي القدس في أي حل تتوصل له حكوماتهم، إلا إذا حصل على غالبية ثلثي الأعضاء، أي ٨٠ من أصل ١٢٠ عضواً، ما يبدو أنه غير ممكن في ظل وجود حكومة أكثر يمينية وتطرفاً مما في السابق^(٥١). ونفس النهج كان مع قرارات مجلس الأمن رقم ١٨١، ٢٤٢، وقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٠٣، والصادر في ٩ ديسمبر ١٩٤٩، والذي منح القدس، مدينة الديانات السماوية الثلاث، وضعاً دولياً خاصاً، مع التأكيد على حماية الأماكن المقدسة فيها، وعلى احترام الخصوصيات الدينية والثقافية والاجتماعية لجميع سكانها، لكن إسرائيل لم تكتف بعدم احترامها للقرار عندما

تمادت لأبعد من ذلك حتى باتت الصلاة في المسجد الأقصى محرمة حتى على أبناء القدس الذين تقل أعمارهم عن الـ ٥٠ عاماً، ولم يكن أبناء الطائفة المسيحية بأحسن حال من المسلمين، ذلك أن الأحكام العرفية المفروضة على المدينة منذ عام ١٩٦٧ لم تنتهِهم^(٥٢).

وبعد ضمها القدس في ١٩٦٧، وتوسيع نطاق سياستها الاستيطانية، أصدرت الأمم المتحدة العديد من القرارات التي أدانت إسرائيل في هذا الشأن، واتسمت هذه القرارات بأنها كانت مؤيدة على نطاق واسع، حتى تلك الدول التي عرفت بتأييدها لإسرائيل؛ لم تجد بداً من المشاركة في استنكار سياسة إسرائيل بخصوص القدس. فبعد أقل من شهر واحد على وقف إطلاق النار، في يونيو ١٩٦٧، وافقت الجمعية العمومية في ٤ يوليو ١٩٦٧ بأغلبية ٩٩ صوتاً، وامتناع عشرين دولة عن التصويت، على مشروع قرار باكستاني (رقم ٢٢٥٣) نص على أن "الجمعية العامة تعتبر الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع القدس غير مشروعة". وفي ١٤ يوليو ١٩٦٧ كررت الجمعية العامة بالأغلبية مطالبتها لإسرائيل بإلغاء جميع الإجراءات التي اتخذتها إزاء القدس، والامتناع عن القيام بأي عمل يكون من شأنه تغيير وضع القدس مذكراً بقرارها رقم ٢٢٥٣ في ٤ يوليو ١٩٦٧^(٥٣).

ومن جانبها اتخذ مجلس الأمن عدة قرارات، ففي ٢٧ أبريل ١٩٦٨ أصدر قراراً طالب فيه إسرائيل بالامتناع عن القيام بعرض عسكري في القدس. وفي ٢١ مايو ١٩٦٨ أعرب في قرار له، عن أسفه لعدم تقيد إسرائيل بالقرارات التي أصدرها المجلس بشأن القدس^(٥٤). وفي دورتها عام ١٩٧٥ أصدرت الجمعية العامة أربعة قرارات هامة، جاء الرابع فيها بخصوص القدس، فنص على اعتبار كافة الإجراءات التي اتخذتها السلطات الإسرائيلية لتغيير الأوضاع السياسية الأساسية، والشعائر الدينية لسكان القدس، وفي مسجد الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل لاغية وغير مشروعة، وطالب القرار إسرائيل بالكف فوراً عن الاستمرار في هذه الإجراءات، وصوت لصالح هذا القرار ٨٢ صوتاً ضد ٥ أصوات. والجدير بالذكر أن الجمعية العامة أقرت في هذه الدورة، ولأول مرة في تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية. ومن هنا اتسم رد الفعل الإسرائيلي لقرارات الدورة في مجملها بالعنف والاستخفاف. برغم أن القرار مؤيد بالأغلبية، بل وتجاوز الثلثين بكثير^(٥٥).

أما جلسة مجلس الأمن المنعقدة في مارس ١٩٧٦، فقد شهدت تحركاً ملموساً إزاء هذه الإشكالية حينما تقدمت الدول الخمس (بنيين - داهومي، باكستان، غانا، بناما، تنزانيا) بمشروع قرار تضمن ثلاثة عناصر هي:

- ١ - الإعراب عن الأسف لأن إسرائيل لم توقف عملياتها لتغيير معالم مدينة القدس.
- ٢ - مطالبة إسرائيل بالامتناع عن اتخاذ أية إجراءات ضد سكان المناطق المحتلة.
- ٣ - دعوة إسرائيل لاحترام ومراعاة حرية الأماكن المقدسة الواقعة تحت الاحتلال، والتوقف عن التنقيب والحفريات في الأراضي العربية.

إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية، باستخدامها الفيتو، أوقفت صدور القرار برغم أن مندوبيها أدان في خطابه سياسة إسرائيل الاستيطانية^(٥٦).

لم تستطع الأمم المتحدة، حيال ذلك، فعل شيء، فلم تسمح لها إسرائيل بممارسة أية سلطة إدارية على القدس. كما أنها اعتبرت أن إسرائيل ألحقت القدس بها باللجوء للقوة العسكرية والاحتلال بالرغم من قراري مجلس الأمن ١٨١، ٢٤٢، وقرار الجمعية العامة ٣٠٣ الذي نص على أن أي إجراء تتخذه حكومة ما لا يمكن أن يمنع الهيئة المشرفة* من الحفاظ على وضعية مدينة القدس كما تبنتها. فقد باتت هذه الهيئة معطلة منذ عام ١٩٩٤، وسريان اتفاقية أوسلو^(٥٧) التي تم التوقيع عليها في عام ١٩٩٣، والتي أعطت للقدس وضعاً دولياً خاصاً^(٥٨)، إذ وصل عدد المستوطنين آنذاك في القدس لـ ١٥٣ ألفاً، وفي وع ذلك اعتبرت دائرة العلاقات القومية والدولية في منظمة التحرير، أن الحملة الإسرائيلية المتصاعدة في القدس تشكل "اضطهاداً دينياً يمارسه الاحتلال بحق المسلمين والمسيحيين، وانتهاكاً فاضحاً لكافة الأعراف والقوانين الدولية التي كفلت الحرية الدينية" مطالبة المجتمع الدولي بتحمل مسؤولياته الأخلاقية تجاه الشعب الفلسطيني وحماية المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس المحتلة من خطر التهويد المتواصل^(٥٩) باعتبار إسرائيل البلد الوحيد الذي يجعل من الدين والأيدولوجية سبباً لطرد شعب من أرضه وإحلال كل من يقول بأنه من الدين اليهودي مكانه، ولا يوجد اتفاق موقع يقر بعودة الست ملايين فلسطيني، الذين شردوا في أنحاء المعمورة، إلى وطنهم. أما قرار الأمم المتحدة بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى قراهم وبلداتهم، وتعويضهم عما خسروه^(٦٠) فشأنه شأن غيره من القرارات التي لم تخرج إلى حيز التنفيذ.

وسبق لمركز القدس الفلسطيني للحقوق الاجتماعية والاقتصادية؛ أن حذر من تصعيد نوعي في الاستيطان اليهودي بالقدس المحتلة، يستهدف تهويد البلدة القديمة بالكامل وتشديد قبضة الاحتلال على المدينة المقدسة^(٦١). كما ذكرت تقارير حقوقية فلسطينية أن التصعيد الإسرائيلي في القدس المحتلة، والذي كان هدم منازل المقدسيين أحد أشكاله، هو الأخطر منذ احتلال المدينة عام ١٩٦٧، وحذرت التقارير من مشاريع استيطانية هي الأكبر منذ عام ١٩٤٨ وصودق عليها وتهدف إلى زيادة عدد اليهود في المدينة، وتركزت عمليات الهدم داخل أسوار البلدة القديمة والأحياء المتاخمة لها في الضواحي والبلديات الواقعة على الحدود البلدية المصطنعة للقدس. وخاصة في العيزرية وجبع وفحماس، ومناطق انتشار العشائر البدوية شرق القدس وعلى امتداد مناطق الخان الأحمر. وبينما يجري التضييق على الفلسطينيين بوضع قيود صارمة على تراخيص البناء، ترعى البلدية ووزارة البناء والإسكان الإسرائيليتين، مشاريع البناء الاستيطاني الضخم في البلدة القديمة وسلوان وجبل الزيتون، والشيخ جراح ورأس العمود وفي المستوطنات القائمة على أراض فلسطينية^(٦٢).

وكانت المحكمة العليا الإسرائيلية قد قررت، في وقت سابق، عدم إمكانية منح تراخيص بناء، أو فتح أي ملف تنظيم هيكل، لأي من الأبنية التي شيدها المقدسيون في البلدة القديمة، مستندة إلى مخطط هيكل أقرته الحكومة الإسرائيلية بعد عام ١٩٦٧، ومنعت بموجبه إضافة أي بناء للأبنية الموجودة داخل البلدة القديمة في القدس، بحجة عدم المساس بالطابع التاريخي والديني للمدينة المقدسة. وفي المقابل فإنه قد تم استثناء الحي اليهودي في البلدة القديمة، الذي وضعت له مخططات هيكلية مختلفة، تسمح له بإقامة مئات الوحدات الاستيطانية الجديدة^(٦٣).

ولا يخفى الهدف الكامن خلف كل هذه الإجراءات وهو: تفريغ القدس من سكانها العرب، وعزلها نهائياً عن الضفة الغربية، على اعتبار أنها موضوع غير قابل للتفاوض بشأنه، ذلك أن تهويد المدينة سيقود للوصول للهدف الأسمى وهو: هدم المسجد الأقصى^(٦٤)، وتتماشى عملية الهدف، بشكل ممنهج ومنظم مع عمليات الاستيلاء على منازل المقدسيين والحفريات عند أساسيات المسجد الأقصى، والأنفاق التي باتت تهدد ميناء، بالإضافة للتأثير على الوجود الحضاري الإسلامي وأسرته^(٦٥). وفي النهاية لم تسفر كل هذه الحفريات تحت الأقصى الشريف عن أثر يهودي واحد، حسب ما ذكره عالما آثار صهيونيان مرموقان، شككا في صحة نصوص تضمنتها التوراة بشأن مكانة القدس لدى اليهود، واستبعدا بناء الهيكل في عهد سليمان^(٦٦).

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام: لماذا كل هذا النحدي الإسرائيلي لقرارات المجتمع الدولي الممثل في أممه المتحدة، لعدم جدية هذه القرارات، ما دفع إسرائيل للتمادي في هذا المجال، طالما أن رفضها التام والمستمر لا يعرضها لأي نوع من أنواع العقوبات من قبل هذا المجتمع، أم لأن التعاطي العربي لهذه القضية اتسم بالتراخي ومحدودية النضال، بعد أن وضعوا ردود أفعالهم في قوالب جامدة تمثلت في: الملتقيات والقمم التي خرجت بمواقف موحدة إزاء الانتهاكات الإسرائيلية المتتالية، ولكنها افتقدت الفاعلية مقابل عمل جاد وحاسم لقوات الاحتلال الإسرائيلي، لتحقيق هدف بعينه وهو: فرض الأمر الواقع على الجميع من خلال تكريس احتلالها لمدينة القدس؟!

الموقف الدولي:

تباين الموقف الدولي إزاء موضوع الاستيطان ما بين مؤيد ومعارض، فقد عارضته دول أوروبا، وعبرت في أكثر من مناسبة بأنه غير شرعي وعقبة أمام السلام، لكنها لم تستطع اتخاذ مواقف ملزمة، بسبب الضغوط الأمريكية التي اتسمت بمعارضة شكلية للاستيطان، دون أن ترقى لممارسة فاعلة تجبر إسرائيل على التوقف. ففي ٢٦ مارس ١٩٧٦، وقفت أمريكا ضد مشروع قرار يدين العمليات الإسرائيلية في القدس، بالرغم من أن خطاب مندوبيها "وليم سكرانتون" قد تضمن إدانة لسياسة إسرائيل الاستيطانية في الأراضي المحتلة، واعتبرها خرقاً وانتهاكاً لقواعد القانون الدولي، وعقبة في طريق

المباحثات نحو السلام. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة مارست حق النقض، يوم ٢٦ مارس ١٩٧٦، وأوقفت صدور هذا القرار^(٦٧).

ومنذ ١٩٩٠ أخذ الكونجرس الأمريكي بجاري الكنيست، عندما تبني قرار مجلس الشيوخ رقم ١٠٦، الذي أعلن فيه أن الكونجرس يؤمن بشدة بأن القدس ينبغي أن تبقى مقسمة وأن تحترم بها حقوق كل الجماعات العرقية والدينية، واتبع الكونجرس هذا بإصدار قرارات عديدة، كان أخطرها قانون الكونجرس بشأن القدس، الصادر في ٢٤ أكتوبر ١٩٩٥ والذي احتوى على مغالطات عدة أبرزها: أن القدس كانت عاصمة الشعب اليهودي لأكثر من ٣ آلاف عام، وأنها كانت مركزية لليهودية، وقد ذكرت في التوراة ٧٦٦ مرة، والزرع بأنها لم تذكر بالاسم في القرآن، وأن القدس هي مقر الحكومة الإسرائيلية، بما فيها الرئيس والبرلمان والمحكمة العليا^(٦٨).

أما بريطانيا فإنها تنظر للقدس على أنها عاصمة لدولتين، ولديها في القدس الشرقية قنصلية عامة، وقنصل عام ليس معتمداً لدى أية دولة، وهذا تعبير عن وجهة النظر البريطانية بأنه ليس لأي دولة سيادة على القدس، أما بشأن المستوطنات فقد عدتها بريطانيا غير قانونية، بموجب القانون الدولي، وهذا يشمل المستوطنات في كل من القدس الشرقية وفي الضفة الغربية، وأن التوسع فيها عقبة أمام عملية السلام، وفيه انتهاك لالتزامات إسرائيل بموجب مؤتمر أنا بوليس وخارطة الطريق^(٦٩). كما عارضت المملكة المتحدة والاتحاد الأوروبي هدم البيوت وطرد السكان من القدس الشرقية^(٧٠). وفيما يتعلق بفرنسا فقد أعربت مؤخراً على لسان وزير خارجيتها، عن أسفها لاستمرار السياسة الإسرائيلية الاستيطانية في القدس الشرقية المحتلة^(٧١).

وبرغم ذلك فإن إسرائيل مستمرة في مسلسل التحدي، ماضية في طريقها لتحقيق هدفها المنشود، فكما لم تلتزم لا باتفاقية أوسلو، ولا بوثيقة جنيف من أجل السلام في الشرق الأوسط^(٧٢) بهدف وضع المجتمع الدولي أمام واقع معين، وهو ما أكدت عليه هآرتس في تقريرها الذي أشار إلى أن "المستوطنات اليهودية، داخل أحياء القدس القديمة تهدف إلى خلق وضع غير قابل للتغيير، سيمنع أي إمكانية تسوية لموضوع القدس في إطار حل الدولتين"^(٧٣).

ولا ننسى أن القدس تضم أكبر عدد من المستوطنات، ومن المساحة الكبرى من حيث الأراضي الاستيطانية، والبالغة ٥٦١٥ دونما، أي ما نسبته ٥٦.١٤ من مساحة المنطقة العمرانية للمستوطنات في الضفة الغربية^(٧٤) وفي النهاية تظل إسرائيل الدولة العبرية الوحيدة بين الدول الأعضاء في الأمم المتحدة التي لا تملك حدوداً معلنة، بحيث تستمر في ضم الأراضي الفلسطينية، وهي الوحيدة التي اشترطت الأمم المتحدة لقبولها عودة اللاجئين الفلسطينيين، وقيام دولة عربية، ولم تحترم أي من الشرطين^(٧٥).

ولأنها القدس، ولأنها جزء من فلسطين التي هي جزء من الكيان العري، ولأن أحد طرفي النزاع هو الأقوى، والأكثر تنظيماً وتنسيقاً مع القوى العظمى، باعتباره امتداداً

لجذور الاستعمار الغربي للمنطقة، مقابل طرف ليس ضعيفاً فحسب، وليس مفقداً للتنظيم فحسب، بل إن منافساته غير الشريفة، التي مورست بدعوى الدفاع عن هذه القضية، هي التي أضرت بالقضية وأدخلتها في هذا النفق المظلم، حتى غدا هؤلاء في معظم الأحيان لا يعلمون ماذا يريدون، أو ماذا يفعلون. وهنا نتذكر قول المولى عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾. صدق الله العظيم.



الهوامش

- * هو صهيوني ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين.
- ١- د. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٣١-١٣٢.
 - ٢- فارس شرعان، دفاعاً عن القدس، طبعة أولى، ١٩٩٢، ص ٤٣.
 - ٣- جريدة النبا ٢٠١٠/٣/٣، عدد ٨٩، ندوة بعنوان ممتلكات الكنيسة الأرثوذكسية في القدس.
 - ٤- غازي فلاح، أسئلة الجغرافية العربية الفلسطينية، شئون فلسطينية، عدد ٢٠٩، ١٩٩٠، ص ١٥.
 - ٥- عبد الوهاب كيالي، المطامع الصهيونية التوسعية، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٥ - ١٨.
 - ٦- أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، رسالة ماجستير منشورة، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٧.
 - ٧- وليم فهمي، الهجرة اليهودية إلى فلسطين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص ٢٠.
 - ٨- أحمد بهاء الدين، إسرائيليات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ١٤.
 - ٩- ياسر أبو شبانة، النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، دار السلام، ط أولى، ص ٩٢.
 - ١٠- د. صلاح العقاد، قضية فلسطين المرحلة الحرجة ١٩٤٥-١٩٥٦، معهد الدراسات العربية، ١٩٦٨، ص ١٥.
 - ١١- ميثاق الأمم المتحدة، المادة الأولى، الفقرة الثانية (إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب بأن يكون لكل منها تقرير مصيرها).
 - ١٢- عبد الرحمن الصالحي، مسألة تدويل القدس، شئون فلسطين، عدد ٢٠٢، يناير ١٩٩٠، ص ٤٩.
 - ١٣- فارس شرعان، دفاعاً عن القدس، عمان، ط أولى، ١٩٩٢، ص ٤٣.
 - ١٤- كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، ١٩٩٨، ص ٦٣٩-٦٤٢.
 - ١٥- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٦٤٣.
 - ١٦- نفس المصدر، ص ٦٤٣.

١٧- حسن شرين، فلسطين من الحروب التوسعية لتحقيق إسرائيل الكبرى حتى انتفاضة الأقصى وتوابعها ١٩٤٨-٢٠٠٢، ج٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣، ص ١٠٢٥.

١٨- غازي فلاح، أسئلة الجغرافية العربية الفلسطينية، شئون فلسطين، عدد ٢٠٩، ١٩٩٠، ص ١٥.

١٩- Domini QUE Vidal, l'etter de Jerusalem, lemond diplomatique, decembre, ٢٠٠٦.

٢٠- ياسر أبو شبانة، المرجع السابق، ص ٥٢.

٢١- كارين أرمسترونج، مرجع سابق، ص ٦٤٥.

٢٢- أنور محمود زناني، محاولات التهويد والتصدي لها من واقع النصوص والوثائق والأحصاءات، مركز دراسات الوحدة العربية، فارس شرعان، المرجع السابق، ص ١٢١.

٢٣- د. أحمد يوسف القرعي، توسيع بلدية القدس الكبرى في مخطط تهويدها، الأهرام ٢٢/١٠/٢٠٠٣، كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٦٤٥، ٦٤٦.

* محاولاً بذلك طمس الهوية العربية للقدس في تحد سافر لتاريخ عروبة القدس، يرغم أن اليبوسيس (وهم بطن من بطون العرب الأوائل الذين نشأوا في الجزيرة العربية) هم أول من أسس مدينة القدس عام ٣٠٠٠ ق.م وأول من سكنوا أراضيها واستوطنوها وأقاموا أبنيتها وشيدوا معالمها وجعلوها حاضرة ملك لهم، وأكثر من هذا فالمدينة منذ نشأتها وحتى اليوم عربية اللسان حتى سادت في البلدان اللغة الكنعانية ثم الآرامية وكنتاها مشتقة من اللغة العربية القديمة، وظلنا ساندتين حتى حلت اللغة العربية الحديثة بدخول العرب المسلمين إلى البلاد، ولعل أسماء القدس على مر الحقب التاريخية تؤكد عروبتها ومن هذه الأسماء: يبوس، نسبة لليبوسيين، كما أسماها الكنعانيون أورسليم أو مدينة السلام، والتسمية العبرية التي عرفت فيما بعد أورشليم مشتقة منها، وأسماها اليونانيون يروساليم، وكانت في أوائل الفتح الروماني تدعى هيروسلما ثم صارت هيروساليم ومن هنا أخذت الاسم الأوروبي جيروساليم، ومن عام ١٣٩ ميلادية وطيلة العهد المسيحي سميت المدينة (إلياء) ومعناها بيت الله، أما القدس فكانت معروفة منذ أوائل الفتح الإسلامي أي منذ ق الرابع وحتى اليوم، أنظر أحمد يوسف القرعي، عروبة القدس، مناظرة تاريخية مع شارون، الأهرام ٢٤/٥/٢٠٠٥، و د. حسن ظاظا، القدس مدينة الله.. أم مدينة داود، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٠، ص ٧-٣٥.

٢٤- وكالة القدس www.quds.net.com، عبد الرحمن الصالحي، المرجع السابق، محمود زناني، المرجع السابق.

٢٥- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٦٤٨، د. أحمد يوسف القرعي، المقال السابق.

- ٢٦- ميرون بنفينستي، الضفة الغربية وقطاع غزة بيانات وحقائق أساسية، ترجمة ياسين جابر، دار الشروق، عمان، الأردن، ط أولى، ١٩٨٧، ص ١٨٨، ٣٠.
- ٢٧- نفس المصدر، ص ٣١.
- ٢٨- د. حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣١.
- ٢٩- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٦٦٠.
- ٣٠- التوزيع الديمغرافي في القدس، المركز الفلسطيني للإعلام www.palestine.info
- ٣١- محمد محفوظ جابر، الاستيطان الصهيوني في القدس ومستقبل المستوطنات فيها، دار فضاءات للنشر، الأردن.
- ٣٢- نفس المصدر، انظر أيضاً Israeli settlements, Palestine monitor Factsheet-Updated, ١٧ December ٢٠٠٨, p1-٤.
- ٣٣- نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٧٢/٢/١٦.
- ٣٤- يديعوت أحرنوت ١٩٧٥/٥/٢٢ نقلاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.
- ٣٥- دافار ١٩٧٥/٦/٣، ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.
- ٣٦- التوزيع الديمغرافي في القدس، مصدر سابق.
- ٣٧- د/ أحمد يوسف القرعي، المقال السابق، د/ أسعد عبد الرحمن، استراتيجية ابتلاع القدس.. هل من مغيث؟، صحيفة الاتحاد الإماراتية ٢٠٠٦/٤/٢٨، Palestine-Israel Journal, August, ٢٠٠٩, p٤.
- * شيدت الحكومة الإسرائيلية هذا المنتزه الضخم في منطقة اللطرون إلى الجنوب من القدس على أنقاض القرى الفلسطينية المدمرة في ١٩٧٥ على مساحة ٥٠٠٠ دونم، انظر: المستوطنات الإسرائيلية في القدس، اللجنة الملكية لشئون القدس www.rcjar.org.jo
- ٣٨- الاستيطان في القدس، مجلة المعرفة www.aljazeera.net، انظر أيضاً محمد محفوظ جابر، الاستيطان الصهيوني في القدس ومستقبل المستوطنات فيها، دار فضاءات، الأردن، رائف نجم "رئيس جمعية حماية القدس" الكشف عن مخططات اليهود، برنامج بلا حدود (تهويد القدس) ٢٠٠٩/٩/٢.
- * ستلعب هذه المستوطنة دوراً هاماً في خطة رئيس الوزراء الإسرائيلي أريئيل شارون عام ٢٠٠٥ وهي الخطة التي أطلق عليها اسم "إي - ١" لخلق تواصل جغرافي بين مستوطنة "معاليه أدوميم" والقدس الشرقية تمهيداً لترسيم حدود ثابتة في المستقبل انظر: يديعوت أحرنوت ٢٠٠٥/٣/٢١.
- ٣٩- اللجنة المركزية لشئون القدس، المستوطنات الإسرائيلية في القدس www.rcja.org.jo، انظر أيضاً: رائف نجم، المصدر السابق.
- ٤٠- المركز الفلسطيني للإعلام www.palastine.info، أحمد يوسف القرعي، توسيع بلدية القدس الكبرى في مخطط تهويدها: الأهرام ٢٠٠٣/١٠/٢٣.

- ٤١ - رائف نجم، المصدر السابق.
- ٤٢ - المركز الفلسطيني للإعلام، مصدر سابق، أحمد يوسف القرعي، المقال السابق.
- * نسبة إلى يقال ألون أحد أبرز شخصيات حزب العمل زعيم كتلة "أحدوت هعودا" في الحزب وأحد قادة البالماخ البارزين سابقاً.
- ٤٣ - أسعد عبد الرحمن، نواف الزور: الفكر السياسي الإسرائيلي قبل الانتفاضة.. بعد الانتفاضة، دار الشروق، ط أولى، ١٩٩٠، ص ١٠، منير الهور، طارق موسى: مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٥، دار الجليل، عمان، ص ٨٢، تريز حداد، القرارات والمبادرات الخاصة بالقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٨، عمان، ص ٧٦.
- * عرفت تلك المبادئ باسم "وثيقة غاليلى" نسبة إلى "يسرائيل غاليلى" منظر حزب العمل المعروف، انظر نص وثيقة غاليلى بمجلة شؤون عربية حزيران، يونيو ١٩٨٣، تونس، الجامعة العربية، ص ٣٤٣، سعيد التيم، الحكم الذاتي فكرة تجاوزتها الأحداث، صحيفة الرأي الأردنية ١٩٨٩/١/١.
- ٤٤ - د. أسعد عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ١٦.
- * نسبة إلى جاد يعقوبي وزير الاتصالات الإسرائيلي وأحد زعماء حزب العمل الداعين إلى تسوية جديدة للقضية الفلسطينية انظر د. أسعد عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٣٦.
- ٤٥ - صحيفة الجيروزليم بوست الإسرائيلية ١٩٨٩/١/١٥.
- ٤٦ - صحيفة معاريف ١٩٨٩/٤/١١.
- * نسبة إلى أرئيل شارون وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق.
- ٤٧ - يديعوت أحرنوت ١٩٨٩/٩/٣٠.
- ٤٨ - وثيقة الاتفاق للحكومة الإسرائيلية انظر هآرتس ١٩٨٩/١٢/٢١.
- ٤٩ - صحيفة دافار ١٩٨٩/٣/٢٤.
- ٥٠ - Vers L'israélisation de la veille de Jerusalem, The international Soliday movement ٢٦/٨/٢٠٠٥, Palestine monitor Factsheet, op-cit, p.٧
- ٥١ - تقرير عن تهويد القدس وإغلاق مؤسسة الأقصى، اللجنة العربية لحقوق الإنسان ٢٠٠٩/٤/١٧.
- ٥٢ - التقرير السابق.
- ٥٣ - المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧، عرض وتحليل خيرية قاسمية، د. علي الدين هلال، إبراهيم كروان، معهد البحوث والدراسات العربية، ص ٥١.
- ٥٤ - نفس المصدر، ص ٥١.

- ٥٥- نفس المصدر، ص ٤٩-٥٠.
- ٥٦- نفس المصدر، ص ٥٠.
- ٥٧- "تتكون الهيئة المشرفة من الدول الخمس الأعضاء في مجلس الأمن وقد أنيط بها تطبيق القرار رقم ٣٠٣.
- ٥٨- اللجنة العربية لحقوق الإنسان، تقرير: تهويد القدس وإغلاق مؤسسة الأقصى ٢٠٠٩/٤/١٧.
- ٥٩- Vers L'Israélisation de la Veille de Jerusalem, the international soliday movement ٢٦/٨/٢٠٠٥.
- ٦٠- تقارير حقوقية، تصعيد استيطاني لرفع عدد المستوطنين في الضفة والقدس إلى مليون: جريدة الشرق الأوسط عدد ١١١٠١، ٢٠٠٩/٤/٢٠.
- ٦١- اللجنة العربية لحقوق الإنسان، التقرير السابق.
- ٦٢- مؤسسة القدس الدولية، المؤتمر السنوي السابع، ٢٠١٠.
- ٦٣- جريدة الشرق الأوسط، العدد السابق.
- ٦٤- نفس المصدر.
- ٦٥- عوني صادق، جرائم الحرب ومخططات تهويد القدس، صحيفة الخليج الإماراتية ٢٠٠٥/٦/٩.
- ٦٦- Dominique vidal, letter de Jerusalem lemond diplomatique, decembre ٢٠٠٦, <http://www.leslibraires.com>
- ٦٧- انظر معارف ١٩٩٨/٦/٧ نقلاً عن هيثم الصادق، مشروع صهيوني ديمغرافي جديد لتهويد المدينة، صحيفة الوطن القطرية، ٢٠٠٥/٦/٦.
- ٦٨- خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص ٥٠، Israel settlements and the two-state solution, Palestine-Israel, journal, August ٢٠٠٩, p. ١-٤.
- ٦٩- أحمد يوسف القرعي، تهويد القدس بين الكنيست والكونجرس الأمريكي (٢)، الأهرام ٢٠٠٥/٥/١٩.
- ٧٠- وزارة الخارجية البريطانية www.fco.gov.uk
- ٧١- نفس المصدر.
- ٧٢- كوشيزيوكس معارضة بلاده Palestine-Israel journal, August ٢٠٠٩, p. ٢.
- ٧٣- لبناء مستوطنات في القدس الشرقية، مجلة الرياض www.alriyadh.com
- ٧٤- Versl' Israël isation de la ville de Jérusalem, the international soliday movement ٢٦/٨/٢٠٠٥.
- ٧٥- هآرتس نقلاً عن www.qudsday.com

٧٤- علي يدوان، الخارطة الاستيطانية في القدس والضفة الغربية، صحيفة البيان الإماراتية ٢٠٠٥/٩/١٨.

٧٥- اللجنة العربية لحقوق الإنسان، تقرير تهويد القدس وإغلاق مؤسسة الأقصى، ٢٠٠٩/٤/١٧، ص ٦.



تطور قضية واحدة جغوب

١٩٠٤ - ١٩٥١ م

د. نادية ماجد عبد الرحمن بري (*)

لفت نظري بقوة موضوع قضية واحدة جغوب منذ فترة بعيدة، إذ إنها قضية شارك في صنعها في النصف الأول من القرن علي أقل تقدير، أطراف دولية مثل بريطانيا وإيطاليا، وأطراف أخرى محلية مثل الحكومة المصرية في عهد أحمد زيزر باشا. كما أن هذه القضية انشغل بها الرأي العام المصري للغاية، حين كانت مطروحة علي بساط النقاش بين هذه الأطراف الدولية والإقليمية. ويعود سبب اهتمام المصريين بمسألة واحدة جغوب - علي الرغم من صغر مساحتها نسبياً - الي طبيعة تكوين الشخصية المصرية خلال تراكم آلاف السنين، والتي لا تقبل التفريط في شبر واحد من أرض بلادها. من ناحية أخرى؛ تعد قضية واحدة جغوب، في الأساس، نتاج الحقبة الاستعمارية الكريهة الماضية، وحسابات المصالح بين إنجلترا وإيطاليا وليس مصالح مصر أو ليبيا. لكل هذه الأسباب تعد قضية واحدة جغوب واحدة من القضايا المهمة الجديرة بالدراسة، في مجال التاريخ الحديث والمعاصر.

وتهدف هذه الدراسة الي الكشف عن جوانب هذه القضية وتتبع تطوراتها خلال فترة زمنية محددة، كما تهدف الي تحليل مصالح القوي الدولية التي صنعتها. أما عن الفترة الزمنية لموضوع هذه الدراسة، فقد فضلنا أن نبدأ بعام ١٩٠٤، الذي شهد أول محاولة لتحديد حدود مصر الغربية بين سلطات الاحتلال الإنجليزي والدولة العثمانية، ثم نتبعها بالدراسة والتحليل تطور قضية واحدة جغوب، حتي توقفنا بها عند إستقلال ليبيا في عام ١٩٥١.

وقد استخدمنا في دراسة هذه القضية قواعد منهج البحث التاريخي، من حيث جمع وتحليل المادة العلمية، واستخلاص الحقائق التاريخية والنتائج الموضوعية التي يحتاجها دارس التاريخ الحديث والمعاصر، وكذلك القارئ العام. وعلي الرغم من أن عدداً من الكتابات التاريخية المعاصرة تحدثت من قريب، والبعض الآخر من بعيد، عن قضية واحدة جغوب، إلا أن المكتبة العربية تفتقر حتي الآن، لدراسة مستقلة ومباشرة حول تطور هذه القضية، ومن ثم تنفرد دراستنا هنا بالتركيز علي تتبع جوانب المسار التاريخي الذي

(*) أستاذ مساعد بكلية التربية للبنات بجدة جامعة الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية.

سلكته واحة جغبوب، منذ ١٨٤٠ وحتى عام ١٩٥١، بين الأطراف الدولية والإقليمية. كما أننا أعقبنا تتبع هذا المسار بخاتمة لأهم النتائج التي توصلنا إليها.

ومن الجدير بالذكر أنه يوجد داخل مصر كثير من الواحات مثل (سيوة والفرافرة والخارجة والداخلية وغيرها) ولهذه الواحات قيمة إيكولوجية عالية تتمثل في: الحفاظ على التنوع البيولوجي والطبيعي بما تضمنه من نباتات وحيوانات نادرة. أما واحة جغبوب، موضوع دراستنا هنا، فهي تبعد عن واحة سيوة غرباً بنحو ٦٥ كيلو متراً، وتشارك معها في نفس المنخفض الجغرافي، كما تم إخراجها في منتصف عشرينيات القرن الماضي من خريطة مصر إلى خريطة الأراضي الليبية، وقت إستعمار إيطاليا لها، وبعد ما يمكن تسميته بصفقة سرية بين الاستعمارين الإنجليزي والإيطالي، ونفذتها الحكومة المصرية بعد محاولة إقناع الرأي العام المصري آنذاك، بأنها استبدلتها بقرية السلوم.

وتقع واحة جغبوب هذه بين خطي عرض ٢٩-٤٠ و ٢٩-٥٠ شمالاً، وبين خطي طول ٢٤، ٢٥ شرقاً، ضمن سلسلة من المنخفضات المنتشرة في منطقة واسعة تبلغ مساحتها الكلية حوالي ٣٥٠ ميلاً، وترية هذه المنخفضات طميية ملحة، ينمو في بعضها نباتات صحراوية، وفي بعض الأحيان تشغلها بحيرات ملحية ضحلة، ويوجد بسلسلة هذه المنخفضات عدد من العيون العذبة، والتي يعتمد على مياهها السكان المحليون في الشرب والزراعة المحدودة، وبعض هذه العيون حارة وبها نسبة عالية من أملاح المغنسيوم والجير.^(١)

وتتكون سلسلة هذه المنخفضات من مجموعة متفرقة من الأحواض، تفصل بعضها عن بعض التلال الرملية، وتشرف عليها من الناحية الشمالية حافة تتكون من طبقات من الصخور الرسوبية الأفقية شديدة الانحدار، ويتخللها مجموعة من الأودية العميقة نسبياً، وتحدها من ناحية الجنوب الكثبان الرملية، وبعض بقايا التكوينات الصخرية التي تظهر على هيئة تلال منعزلة.^(٢)

وتعد أرض واحة جغبوب، موضوع الدراسة، واحدة من أحواض هذه المنخفضات، وهي تقع على بعد حوالي ٢١٣ كيلو متراً جنوب غرب مدينة السلوم، وتبلغ المساحة الكلية لهذه الواحة نحو ٧ كيلو مترات مربعة، وفي قرية الجغبوب حدائق جميلة وخاصة من ناحية الشرق، وهناك بعض الحدائق الأخرى المتفرقة والواقعة بين منازل هذه البلدة، كما أن بها زاوية وجامع السيد السنوسي الكبير، مؤسس الطريقة السنوسية، ويتجه إليه بالزيارة كثير من الناس من أهل هذه الطريقة، وكل الدروب والمسالك، الموصلة إلى هذه الواحة، تحمل اسم مسرب الإخوان نسبة إلى السنوسيين، وهي مركز مهم لعدد من القبائل، ومياهها متوسطة وصالحة للشرب.

ومن الجدير بالذكر أنه: في زمن سلاطين المماليك؛ قام عدد منهم بتوطين بعض قبائل الصحراء الليبية على حدود مصر الغربية بهدف: الحد من غارات القبائل الأخرى القادمة من عمق الصحاري الليبية على التخوم المصرية، وحصر أعمال الشغب، وإحكام السيطرة على هذه الحدود الطويلة. وقد اتخذت عدد من السلطات المصرية المتعاقبة نفس

هذه الإجراءات، كلما شعرت بالتهديد القادم من عمق الصحراء على تخوم مصر الغربية، كما اهتموا بمساواة المهاجرين الليبيين من القبائل المختلفة، الذين استوطنوا الواحات الحدودية، بآبناء مصر من سكان هذه التخوم. ومن الثابت تاريخياً أنه عندما تعرضت مصر للحملة الفرنسية؛ كان لسكان منطقة درنة الليبية، وسكان واحة جغبوب بصفة خاصة، موقف مساند للمصريين في مواجهة هذه الحملة، إذ خرجت حملة ليبية شعبية من منطقة درنة واحة جغبوب، لكي تناصر ثورات المصريين ضد القوات الفرنسية.

لكن العلاقات البدوية المتذبذبة، على الحدود الغربية لمصر، ظلت من بين العوامل السياسية بل أهمها تأثيراً، وانعكاسها على صعوبة تحديد شكل خريطة حدود مصر الغربية. كما ظلت غارات بعض هؤلاء البدو تشكل خطراً بالغاً على استقرار هذه الحدود، وكثيراً ما تعرضت قوافل التجارة بين الجانبين، في منطقة الحدود هذه لعمليات النهب والسطو^(٣).

وفي عصر محمد سعيد باشا: استوطن واحة جغبوب عدد من اتباع الحركة السنوسية، وهي حركة دينية سياسية، أسسها سيدي محمد بن علي السنوسي في عام ١٨٣٥ تقريباً. ولد محمد السنوسي في مستغانم في الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر، وعندما حج إلى مكة أقام فيها فترة من الوقت، وأصبح خلال فترة إقامته هذه مؤيداً لزعيم الفرقة القادرية في مكة. وبعد وفاة مؤسس هذه الفرقة القادرية وانقسام أنصارها، أصبح محمد بن علي السنوسي، لتفوقه في علوم الدين، زعيماً لجماعة منهم، وبنى أول زاوية له على جبل أبو قبيس بالقرب من مكة، ثم غادرها في وقت لاحق متوجهاً إلى منطقة برقة الليبية، وبنى بأحد نجوعها ما عُرف بالزاوية البيضاء، لكي يحتمي بها وأنصاره من أي عمل قد يقوم به العثمانيون ضده. ثم غير مقره فجأة إلى واحة جغبوب التي تتميز بموقعها الفريد، وظل بها حتى توفي ودفن فيها عام ١٨٥٩. وتابع خلفائه نشر دعوته بين السكان المحليين، حتى أصبحت الحركة السنوسية، مع نهاية القرن التاسع عشر، ذات شعبية كبيرة في منطقة برقة، بل أصبحت - وبرغم وجود حركات دينية أخرى - الأكثر أهمية بين سكان الصحراء الغربية الكبرى، خاصة وأن أغلب الحركات الدينية الأخرى كانت تركز نشاطها على سكان المدن، في حين كانت الحركة السنوسية تنتشر وتتوسع بين سكان القرى والواحات وقبائل هذه الصحراء^(٤).

وعلاوة على موقع واحة جغبوب الجغرافي، كان من أسباب انتقال السنوسيين إليها، وجعلها في - وقت مبكر من نشاطهم - مركزاً لحركتهم هو:

- ١ - بعدها عن أيدي السلطات العثمانية، التي بدأت في ذلك الوقت تنظر إلى الحركة السنوسية بعين الشك.
- ٢ - رغبة السنوسيين في نشر دعوته بين سكان هذه الواحة والواحات القريبة منها.
- ٣ - الابتعاد عن المناطق التي انتشر فيها آنذاك مرض الطاعون مثل: ساحل برقة والجبل الأخضر^(٥).

وتعود أولى محاولات ترسيم خط الحدود، بين مصر والأراضي الليبية، الي فرمان الذي منحه السلطان العثماني لمحمد علي طبقاً لمعاهدة لندن ١٨٤٠، والذي تولي بموجبه محمد علي باشا حكم مصر هو وورثته في نطاق حدودها القديمة، ووفقاً لما هو موضح في الخريطة الملحقة بهذا فرمان. ويعد أن تم لبريطانيا احتلال مصر في عام ١٨٨٢، وبناءً علي طلب من الحكومة البريطانية، بدأت كل من السلطات الإنجليزية والتركية في التفاوض بينهما، بهدف ترسيم الحدود الغربية لمصر، وذلك في أعقاب خلافات شديدة في وجهات النظر نشبت بين الجانبين منذ عام ١٩٠٢، وخاصة عندما طالبت تركيا آنذاك بأن تمت سيادتها في الأراضي المصرية حتي مرسى علم، في حين تمسكت بريطانيا بتبعية كامل جبل السلوم لمصر طبقاً لمعاهدة ١٨٤٠. ولقوة نفوذ إنجلترا الدولي وحاجة الدولة العثمانية لمساندتها في مواجهة الطامعين الآخرين في أملاكها، قبلت الحكومة العثمانية بوجهة النظر البريطانية في هذه المفاوضات، التي انتهت بين الجانبين بتوقيع اتفاقية في عام ١٩٠٤، اعترفت فيها تركيا بأن جبل السلوم ضمن الأراضي المصرية، بناءً علي هذا اضطرت السلطات العثمانية في ليبيا، عام ١٩٠٧، الي سحب كل المخافر والنقاط العسكرية التي أقامتها شرق السلوم^(١). ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لم تشمل واحة حقبوب أو كل حدود مصر الغربية، بل اقتصرت علي الجزء الشمالي من هذ الحدود، وعلي وجه التحديد منطقة السلوم.

ومنذ وقوع الاحتلال الإيطالي لليبيا: تحولت الحركة السنوسية من حركة دينية دعوية بحتة، الي حركة جهادية أيضاً، تسعى الي طرد الإيطاليين، وأصبحت الواحات الداخلية والحدودية تمثل الملاذ الآمن لهؤلاء الجهاديين. ومع قيام الحرب العالمية الأولى، وانضمام إيطاليا لصف إنجلترا في هذه الحرب، ظهر العديد من المشاكل علي الحدود المصرية الليبية، وامتدت المناوشات بين السنوسيين والإيطاليين الي أطراف هذه الحدود، بل وتكررت المناوشات بين قوات السيد أحمد الشريف والقوات الإنجليزية، بين جانبي هذه الحدود. وكان السيد أحمد الشريف مدفوعاً في هذا من جانب الألمان، لإثارة القلاقل ضد الوجود الإنجليزي في مصر.

ومع احتدام معارك الحرب العالمية الأولى، بين دول الوسط بقياد ألمانيا ودول الحلفاء بقيادة إنجلترا، أخذ الساسة الإنجليز يفكرون في محاولة استمالة أحمد الشريف لجانبهم، عن طريق السماح له بأن يمد نفوذه علي بعض واحات الصحراء الغربية، وهي وعود شفهية لم ترق الي الإقرار الرسمي من جانب الإنجليز له بملكية هذه الواحات، كما أنها جاءت تحت ضغوط الحرب، ومن الإجراءات التي اضطرت اليها الحكومة البريطانية لإعادة ترتيب أوراقها، في مواجهة تفوق الألمان في سنوات الحرب الأولى، وحتى دون أن يلتفت إليها السيد أحمد الشريف نفسه^(٢).

واستمر أحمد الشريف، بحكم ميوله العثمانية، في التعاون مع الأتراك والألمان ضد الإنجليز، الذين إشتدت عداوته لهم بعد أن انضمت إيطاليا اليهم رسمياً في تلك الحرب.

وكثيراً ما طالبت السلطات البريطانية من أحمد الشريف أن يقف علي الحياد، في ذلك الصراع الدائر بين دول الوسط (ألمانيا وحلفائها) ودول الوفاق - الحلفاء فيما بعد - (بريطانيا وحلفائها). ثم قامت هذه السلطات، وبالتنسيق مع الإيطاليين، بشن حملة عسكرية واسعة علي قوات السيد أحمد الشريف إنتهت بهزيمة وتشتيت قواته، وعلي أثر ذلك توقفت، لفترة من الوقت، حركة الجهاد الليبي من جانب السنوسيين ضد إيطاليا في منطقة برقة^(٨).

ولعب الإنجليز والإيطاليون لعبة أخرى لشق صفوف السنوسيين، وإضعاف شوكة السيد أحمد الشريف، حين قرروا وبالتنسيق بينهما التصالح مع أحد زعماء الحركة السنوسية، وهو السيد إدريس السنوسي، في أثناء زيارة له في مصر في أوائل عام ١٩١٦، وبالفعل نجحت السلطات الإنجليزية في إقناع إدريس السنوسي بجدوي الصلح، واستمأنته إلي جانبها. ومن أجل إخماد الحروب الحدودية التي تشنها القوات التابعة لأحمد الشريف، تفاوض الإنجليز مع السيد إدريس السنوسي طوال النصف الأول من عام ١٩١٦، حتي إنتهت هذه المفاوضات، في ٢٥ يوليو ١٩١٦، بتوقيع إدريس السنوسي والبريطانيين علي اتفاق، تلخص فيما يلي:

(١) فتح طريق التجارة عند السلوم واتخاذ ميناء السلوم مركزاً للتبادل التجاري، علي أن يكون طريق الإسكندرية - السلوم الطريق الوحيد الذي تمر منه السلع إلي برقة.

(٢) أن يكف السنوسيون عن إنشاء زوايا لهم في الأراضي المصرية، حتي وإن كان غرضهم جمع التبرعات من المصريين المنتمين إلي المذهب السنوسي.

(٣) أن يتولي السيد إدريس السنوسي، بطريق الوكالة، إدارة واحة جغبوب الداخلة في الأراضي المصرية.

(٤) أن يقوم إدريس السنوسي بإبعاد ما اسماهم هذا الإتفاق بالمفسدين والعابثين بالأمن، ومحدثي الشغب والقتل، والذين كانوا يكذبون صفو العلاقات بين الشعبين المصري والليبي في جغبوب، وأن لا يسمح السيد إدريس السنوسي لأي من أنصار الحركة السنوسية بالإقامة في سيوة، أو الدخول من أي جهة أخرى إلي الأراضي المصرية، وأن يتعهد بالمحافظة علي الأمن والنظام علي الحدود.

(٥) أن تسمح السلطات البريطانية للسنوسيين التابعين للسيد إدريس السنوسي، بالحصول علي المؤن الغذائية والغلال من مصر.

وبهذا الاتفاق زال شبح المجاعة عن السنوسيين، وعاد الهدوء إلي حدود مصرية الغربية، حتي جرت المفاوضات الإنجليزية الإيطالية حول تعديل هذه الحدود في وقت لاحق. وفي الحقيقة: علينا أن ننظر إلي هذه المفاوضات التي جرت بين السيد إدريس السنوسي والإنجليز، من منظور توازنات الحرب العالمية الأولى، وخاصة بعد أن نجح الحلفاء في ضم إيطاليا إلي صفوفهم في هذه الحرب، بموجب معاهدة لندن ٢٦ إبريل

١٩١٥، والتي وافق الحلفاء بموجبها علي أن تنقل إلي إيطاليا جميع الحقوق والامتيازات المخولة للدولة العثمانية في الأراضي الليبية، وهذا كان يعني أن يتعهد الحلفاء، في حالة الانتصار، علي دول الوسط بتثبيت قدم إيطاليا في كامل الأراضي الليبية التي كانت تحت السيادة العثمانية.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ويرغم أن إيطاليا لم تقم بدور حاسم فيها، فقد ثبتت من أقدامها بالفعل في ليبيا، بل وتطلعت أيضاً إلي تثبيت ما حصل عليه السيد إدريس السنوسي من الإنجليز، في واحة جغبوب، من وضع خاص إبان تلك الحرب. علاوة علي هذا أخذت إيطاليا تخطط لمفاوضة الإنجليز حول تعديل الحدود المصرية الليبية لمصلحتها، واخضاع أراض جديدة لنفوذها في السلوم، وفي الواحات الواقعة علي أطراف هذه الحدود.^(٩)

ومن الواضح أن مخطط إيطاليا الحربي والسياسي كان قد إعتد منذ بداية غزوها للأراضي الليبية علي ضرورة سيطرة قواتها العسكرية علي مناطق الحدود الغربية والشرقية من ليبيا. ويتضح ذلك بشكل بين منذ حرص هذه القوات علي النزول بطبرق وساحل زوارة، خلال المراحل الأولى للحملة علي ليبيا عام ١٩١١، وذلك للسببين التاليين:-

(١) تأكيد مبدأ السيادة الإيطالية علي هذه المناطق والمبادرة بالسيطرة عليها قبل قيام أي نزاع أو تنافس دولي حولها.

(٢) التحكم في هذه المناطق الحدودية لمنع تسرب الأسلحة والإمدادات إلي المجاهدين. والتطويق العسكري المستمر لها، وعزل حركة المقاومة ضدها داخل الصحراء، وبعيداً عن مناطق تمركز المستوطنين الإيطاليين في الساحل.

كما كانت الحكومات الإيطالية، ومنذ نجاحها في إحتلال ليبيا، تري أن من حقها إدخال السلوم وجغبوب، وغيرها من مناطق الحدود المصرية الليبية، ضمن نفوذها. وتحت ضغط الوجود العسكري الإيطالي المكثف، في منطقة برقة وعلي الحدود المصرية الليبية، اضطر المندوب السامي البريطاني كتشنر، إلي الاعتراف للسلطات الإيطالية بخروج منطقة بردية الحدودية من السيادة المصرية، لكنه وقف بقوة في وجه أطماع إيطاليا في منطقة السلوم.

عندئذ اقترحت الحكومة البريطانية علي إيطاليا الدخول في مفاوضات بين الجانبين، من أجل التوصل لاتفاق حول ترميم الحدود الأراضي المصرية الليبية. وفي الحقيقة، وفي ضوء المواءمات والتسويات الإستعمارية الجارية آنذاك، كانت بريطانيا علي استعداد للتنازل عن جغبوب، في مقابل تمسكها بالسلوم ضمن الأراضي المصرية. فالسلوم كانت محطة هامة علي طريق القوافل التجارية والذي يقود إلي واحة سيوة، والتي واحة الكفرة حيث يتمركز أنصار الحركة السنوسية^(١٠). في حين وجهت إيطاليا اهتمامها إلي واحة جغبوب منذ البداية لكونها مركزاً دينياً مهماً من الناحية المعنوية لكثير من السنوسيين، وخاصة أثناء تصاعد حركة الجهاد في الجيل الأخضر ضد القوات الإيطالية^(١١).

وفي تلك الأثناء كانت إيطاليا تحاول التوسع في الحبشة والصومال، وقد أدى هذا النشاط الإيطالي المحموم في أفريقيا، إلى تخوف الحكومة البريطانية من عدم اعتراف إيطاليا بوقوع مصر تحت نفوذها، ومن ثم مناوئتها لها، أو انضمام إيطاليا إلى الدول الأوروبية المناوئة، بصفة عامة، للوجود الإنجليزي في مصر، وهذا يفسر لنا لماذا أبدت السلطات البريطانية رغبتها في الدخول مع الجانب الإيطالي في مفاوضات ترسيم حدود مصر الغربية، وفي نفس الوقت أبدت استعدادها في هذه المفاوضات للتنازل عن واحة جغبوب، خلال ما عُرف بعد ذلك بمشروع ملنر - شلويما ١٩٢٠. (١٢)

وقد بدأت هذه المفاوضات في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وضمن التسويات التي تمخضت عنها تلك الحرب، ويعد رسالة بعث بها، في إبريل ١٩٢٠، السير سبرلنج أحد كبار موظفي الخارجية البريطانية، إلى باكاري (من رجالات الحكومة الإيطالية)، اقترح عليه فيها الدخول في مفاوضات سرية، لوضع نهاية لأزمة الحدود المصرية الليبية. وطالب سبرلنج في رسالته السلطات الإيطالية بأن تعترف بأن الحكومة المصرية لها مصلحة أساسية في تطوير ميناء السلم، واقترح بناءً على ذلك أن يبدأ خط الحدود بين الجانبين من أكثر المعالم ملائمة ووضوحاً على شاطئ البحر المتوسط، عند النقطة التي تقع في منتصف المسافة بين السلم وبردية، على مسافة ١٠ كيلو مترات شرقاً من السلم، وأن يستمر تعيين هذا الخط بالتالي في الاتجاه الجنوبي حتى ما يعرف بممر مسرب شقزرن، ماراً بسيدى عمر حتى بحر شقة ومنطقة النخيل، ويتوجه الخط بعد ذلك على طول مسرب حتى مشارق واحة ملقاً. ومن خلال هذا المقترح تكون واحة جغبوب قد دخلت في نطاق الأراضي الليبية.

وعلى أثر ذلك سافر وزير الخارجية الإيطالية إلى لندن، لتتجهل باتمام الاتفاق مع ملنر، لكن استقالة هذا الوزير الإيطالي المفاجئة، في ٢٠ من يونيو ١٩٢٠، أدت إلى توقف التوقيع على مشروع الاتفاق، بل رفضته الحكومة الإيطالية التالية، التي أعلنت عن رغبتها في الحصول على مساحات أخرى من الأراضي الحدودية مع مصر، كما طالبت ببعض الإيضاحات حول الآبار والمراعي الواقعة على هذه الحدود (١٣).

ومع نهاية الحماية البريطانية على مصر، وصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، أصبح إقرار مشروع إتفاقية ترسيم الحدود المصرية الليبية، من الناحية الظاهرية، في يد الحكومة المصرية، ولكن من الناحية العملية في يد السلطات الإنجليزية. وبناءً على ذلك قام وزير خارجية إيطاليا، في ١٤ إبريل ١٩٢٤، بتوقيع اتفاق مع أحمد خشبة باشا وزير خارجية مصر، يقضي بإبعاد القوي الوطنية المصرية عن التدخل في شئون ليبيا، والتوقف عن مساندتها للقوي الوطنية الليبية المناهضة للإيطاليين (١٤).

في هذه الأثناء قام موسوليني بمقابلة شميرلين وزير خارجية بريطانية، ونقل إليه غضبه الشديد من الحكومة المصرية، وخاصة رئيسها سعد زغلول، لأنه يؤجل إتمام اتفاق الحدود، ولأنه عاد من رحلته في أوربا إلى مصر دون المرور على روما، كما أعلن موسوليني أنه لو فشلت المفاوضات سيحتل جغبوب بالقوة. وفي هذه الأثناء اغتيل السير

لي ستاك سردار الجيش المصري، واضطريت علاقة حزب الوفد مع بريطانيا، وأعلن سعد زغلول استقالة وزارته.

ومن جانبه صرح ثروت باشا بأن مصر ليست مقيدة بمفاوضات لندن وروما السابقة، حول ترسيم حدود مصر الغربية، علي أساس أن مصر لم يكن لها دخل في هذه المفاوضات، وعلي إثر ذلك قرر مجلس الوزراء، في ١٣ سبتمبر ١٩٢٤، تقوية الحامية العسكرية بواحة سيوة. وردت إيطاليا علي ذلك في يناير ١٩٢٥، بأن حشدت قوات عسكرية كبيرة في منطقة بردية القريبة من السلوم، وعندما استفسرت الحكومة المصرية عن سبب هذه الحشود، ردت الحكومة الإيطالية بأنه إجراء احتياطي، وموجه ضد المناهضين الليبيين لها، والذين ينطلقون من الواحات المنتشرة علي الحدود المصري الليبية.

ويبدو أن الحكومة الإنجليزية تخوفت أنذاك من أن يمتد تحرك الجيش الإيطالي الي منطقة السلوم وغيرها من المناطق المصرية الحدودية، وتجد نفسها في مواجهة غير مستعدة لها مع إيطاليا، ولذلك قام اللورد اللنبي، في مارس ١٩٢٥، بنقل نص المشروع الإنجليزي الإيطالي - الذي كان قد تم بلورته عام ١٩٢٠ - إلي عبد الخالق ثروت، لكي يسعى لتنفيذه مع الجانب الإيطالي. ونجح عبد الخالق ثروت في تأليف لجنة مشتركة بين الجانبين المصري والإيطالي، سميت بلجنة الحدود الغربية (المصرية الإيطالية المشتركة)، حيث تولى رأستها عن الجانب المصري إسماعيل صدقي باشا، وعن الجانب الإيطالي المركز نجروتوكاميازو.

وقد توقفت المفاوضات، أكثر من مرة، بسبب اختلاف وجهتي النظر بين الجانبين المصري والإيطالي حول واحة جغبوب، التي تمسك بمصريتها إسماعيل صدقي باشا. ومن الغريب أن الإنجليز كانوا يدفعون المصريين للتنازل عن هذه الواحة للإيطاليين، وقد تحدث الجنرال اللنبي حول واحة جغبوب، وعن عدم قدرته علي إقناع أعضاء مجلس الوزراء المصري بأن جغبوب هذه تافهة ولا قيمة لها، وأنها من وجهة نظره (لا تساوي عظام بعير)، وطالب اللنبي السلطات الإنجليزية في مصر مناقشة هذا الموضوع مع صدقي باشا وزير الداخلية، الذي إعتبره مؤهل أكثر منه شخصياً بإقناع زملائه داخل مجلس الوزراء المصري بالتساهل مع الجانب الإيطالي، لإتمام اتفاق ترسيم الحدود المصرية الليبية. وكان الجانب الإيطالي يتمسك بنصوص مشروع (ملتر - شالويا)، وأبدي مندوب إيطاليا رغبته في تنفيذ هذا المشروع، لكن الجانب المصري كان يعتبر ذلك المشروع لاغياً وغير ملزم له، علي اعتبار أنه تم بين الإنجليز والإيطاليين قبل حصول مصر علي استقلالها، في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وصمم الوفد المصري علي أن واحة جغبوب ملك لمصر، في حين تمسك الجانب الإيطالي باعتبارها ملكاً لإيطاليا، طبقاً لما جاء في مشروع ملتر - شالويا لعام ١٩٢٠.

ولحل قضية واحة جغبوب، طلب صدقي باشا، في منتصف ١٩٢٥، من هندرسون وزير خارجية بريطانيا استدعاء خبير مساحة من إحدى الدول المحايدة (السويد أو سويسرا) لدراسة مدى حاجة مصر من الناحية الدفاعية لهذه الواحة.

وعندما تولى تشمبرلن وزارة الخارجية البريطانية، شعر بشئ من الحيرة تجاه طلب إسماعيل صدقي لخبير مساحة من إحدى هذه الدول المحايدة، وتساءل عن جدوى هذا المطلب، وفيما إذا كان يعكس رغبة حقيقية لدى الحكومة المصرية في الحل، أم أنه مجرد مماثلة للتهرب من تحمل مسؤولية الإقدام على ترك واحة جغبوب للإيطاليين. ولما تعذر إحضار خبير مساحة من إحدى الدول المحايدة إستعانت الحكومة المصرية بخبير مساحة إنجليزي يدعي سنكس، الذي قدم في ١٤ أغسطس ١٩٢٥ إلى الوفد المصري تقريراً عن نتائج عمل لجنته المساحية كان أهم ما جاء فيه، أن مفتاح الدفاع عن مصر، من جهة الغرب، يكمن في الاحتفاظ بالسلوم وليس بواحة جغبوب^(١٥). أي أنه حمل نصيحة غير مباشرة للحكومة المصرية بالتنازل عن جغبوب للإيطاليين، وإنجاز الاتفاق معهم على أساس مشروع ملنر - شالويا.

في حين أشار إسماعيل صدقي، في تقريره، إلى أن ترك جغبوب جرح للعزة القومية، ومصر تطالب بها لأنها من ضمن الأراضي المصرية، أما إيطاليا فتريدها لتضمها إلى مستعمراتها فقط، كما أن لجنة سنكس اعترضت على إعطاء بردية لمصر مقابل جغبوب. وأن لجغبوب أهمية دينية، حيث إنها مكان مقدسه طائفة كبيرة من المسلمين - السنوسيين - وإذا سقطت في يد الطليان اعتبر ذلك إسقاط لهذه الطائفة. كما أن لها أهمية حربية: فهي مفتاح غارات البدو على مصر، وهي السبيل الوحيد للتمسك بواحة سيوة وهي في قبضة المصريين^(١٦).

ومن الواضح أن هم الوفد المصري الأكبر، في تلك المفاوضات مع الإيطاليين، انحصر في إبعاد الأطماع الإيطالية عن السلوم وعن الهضبة المحيطة بها، وخاصة بعد أن تمركزت قوات إيطالية في بردية الواقعة غرب السلوم. أما الوفد الإيطالي فكان همه الأول هو الاحتفاظ بواحة جغبوب، التي يوجد بها ضريح مؤسس الحركة السنوسية، والذي تتبع منه - حسب وجهة نظرهم - تعاليم متشددة ضد سياستهم في ليبيا، وتخلق لهم كثيراً من المشكلات.

كما كانت حجة الطليان، التي عبر عنها وفداهم في المحادثات المصرية الإيطالية، أنهم ورثة الأتراك في ولاية طرابلس، وأن واحة جغبوب داخلية ضمن هذه الولاية، بل إن بعض الكتب الجغرافية المقررة من مدارس وزارة المعارف المصرية نفسها، وضعت جغبوب داخلية ضمن هذه الولاية، وفي خريطة طرابلس، وأن تلك الكتب راجعتها لجان مصرية من هذه الوزارة واعتمدتها^(١٧).

وإزاء عدم قدرة إسماعيل صدقي على تحمل المسؤولية التاريخية تجاه الموافقة على ترك واحة جغبوب للإيطاليين، على الرغم أن مساحتها لا تزيد عن ٧ كيلو مترات مربعة،

فقد قرر الاستقالة من رئاسة اللجنة المصرية المشكلة لحل هذه القضية مع الجانب الإيطالي. لكن هندرسون رفض تأجيل المفاوضات بسبب استقالة صدقي، بل وطالبه بالإستمرار في رئاسة هذه اللجنة.

وفي غضون ذلك جري لقاء بين إسماعيل صدقي والسير لويد جورج، طالب فيه هذا الأخير صدقي بإظهار قدر من المرونة تجاه الإيطاليين، والاعتراف بأن واحة جغبوب تابعة لهم. وتحت ضغط بريطانيا وجه عدد من وزراء الحكومة المصرية خطابات شخصية الي إسماعيل صدقي، أعلنوا فيها عن استعدادهم لتفويض صدقي باشا لتوقيع اتفاق ترسيم الحدود الغربية مع الإيطاليين علي أساس مشروع ملئر - شالويا، وبشرط إمداد السلوم بالمياه من بئر وادي الرملة داخل الأراضي الليبية.

لكن صدقي باشا ظل متردداً في الإقدام علي خطوة اعتراف بالتنازل عن واحة جغبوب لإيطاليا، وظل يناور حتي لا يظهر أمام الرأي العام بأنه وافق علي سلخ واحة جغبوب من السيادة المصرية، وقد غضب زيور باشا من تردد صدقي هذا، وأصدر تعليماته بالتوقيع العاجل علي الاتفاق المصري الإيطالي لترسيم الحدود الغربية^(١٨). وبالفعل في ٦ ديسمبر ١٩٢٥ أعلنت الحكومة المصرية عن موافقتها علي قبول مشروع ملئر - شالويا تحت مسمى "اتفاق الحدود الغربية"، الذي وقعه رئيس الحكومة المصرية زيور باشا عن مصر، أمام المركز لازلو عن إيطاليا في ٢٦ ديسمبر ١٩٢٦، وهكذا قبلت حكومة أحمد زيور بناءً علي توجيهات بريطانيا، التنازل عن واحة جغبوب، وأن تدخل هذه الواحة ضمن نطاق أراضي برقة ليتمكن الطليان بذلك من احتلالها^(١٩). وتضمن هذا الاتفاق ما يلي^(٢٠):

١ - يبدأ خط الحدود بين أراضي برقة الإيطالية والأراضي المصرية من نقطة الشاطئ شمال السلوم بمسافة تبعد ١٠ كيلو متر عن (بيكريرنت) ومنها يتجه بشكل قوس دائرة مركزها بيكريرنت ونصف قطرها ١٠ كيلو مترات من النقط المذكورة حتي يلتقي بمسرب الشقرزن ومن هناك رأساً يتبع الخط من الغرب ماراً بسيدي عمر ويئر شقرزن ويئر الشقة وهنا يترك الخط مسرب الشقرزن ويسير رأساً غربي طريق القوافل القديم الذي يتجه نحو الجهة المعروفة بملاذ (سيدي إبراهيم) ثم يتبعه غرباً مسرب الأجوان حتي يلتقي مسرب الفزات في الجهة المعروفة ومنها رأساً غربي مسرب الغرب يسير خط رأساً غربي مسرب المجروم حتي حد واحة ملقاة، حتي تدخل واحة الجغبوب تحت السيادة الإيطالية.

٢ - تعين سلطات لكل من الحكومتين في ظرف ٣ شهور لجنة مختلطة لتحدد خط الحدود علي الأرض ووضع العلامات الإرشادية الدالة علي ذلك.

٣ - تعهدت الحكومتان المصرية والإيطالية بضمان حرية مرور القوافل الإيطالية والمصرية المتوجهة من السلوم إلي الجغبوب وأن لا تدفع هذه القوافل أية رسوم أو ضرائب.

٥ - رغبة في توفير مياه الشرب لسكان السلوم، تتنازل إيطاليا عن بئر الرملة وعن المنطقة المحيطة به. علي أن تلتزم الحكومة المصرية بتخصيص مقدار كاف من مياه هذا البئر لسد حاجة السكان الإيطاليين في المناطق القريبة منه.

٦ - تعهد إيطاليا ومصر باتخاذ الوسائل اللازمة لمنع غارات البدو.

٧ - تعين الحكومتان لجنة مختلطة لتسوية:

أ - جنسية سكان المنطقة.

ب - رسوم المرعى والسقاية والبذر بما يتعلق بالسكان الرحل الذين ينتقلون على خط الحدود.

ت - النظام الجمركي للتجارة على قاعدة التساهل من الجانبين.

ث - المسائل القضائية الخاصة بالأشخاص الرحل لتقرير مقرات لمحاكمة الخارجين على القانون من بين هؤلاء.

٨ - كل خلاف يقع في تطبيق هذا الاتفاق يعرض على لجنة تحكيم تؤلف من مندوبين عن الطرفين وتصدر القرارات بالأغلبية.

٩ - يعتمد الاتفاق ويكون تبادل الاعتماد بروما في أقرب وقت.

ومن المفارقات المثيرة للدهشة أن مشروع هذا الاتفاق عرض على مجلس الوزراء المصري، وتمت الموافقة عليه في عهد وزارة صدقي نفسه عام ١٩٣٠، كما صدق عليه مجلس النواب المصري في جلسته في ٤ فبراير ١٩٣٢، واستغرق التصديق عليه عقد ٤ جلسات استماع، وتحدث فيها بعض النواب بما يفيد أنه لم يسبق أن كان للحكومة المصرية الحق في واحة جفوب طيلة عهد محمد علي. كما أن هذه الواحة ليس لها أهمية لمركز مصر الحربي لقلة مياهها، والكشاف موقعها. وفي جلسة التصويت على مشروع الاتفاق تم تأييده بأغلبية الأصوات (٩٠%) ضد ٤ أصوات. وأشارت بعض الأصوات المعارضة داخل مجلس النواب الي أنه توجد خطابات متبادلة بين السنوسيين والسلطات المصرية، يستدل منها على أن هؤلاء السنوسيين كانوا يديرون واحة جفوب بتكليف من الحكومات المصرية.

ثم انتقل المشروع لمجلس الشيوخ لإقراره، وغرض علي لجنة الشؤون الخارجية التي ناقشته خلال الفترة من ١٥ وحتى ٢١ يونيو ١٩٣٢، وعهدت هذه اللجنة إلى أحمد نجيب يراده بعمل تقرير حول مشروع هذا الاتفاق، كان أهم ما جاء فيه النقاط التالية:

١ - إن تخطيط الحدود يتم الاتفاق عليه للمودة بين الدولتين، ومحافظة على علاقات حسن الجوار.

٢ - قبلت إيطاليا أن تترك لمصر بئر الرملة حتي يتوفر الماء الكافي لعرين هذه المنطقة المصرية.

٣ - ما كانت المفاوضات بين لجنة الحدود المصرية، وبين اللجنة الإيطالية، تتم إلا على أساس استبعاد جفوب عن مصر، مهما قدمت الحكومة المصرية من التأكيدات واتخذت من التدابير.

وفي تقريرها أيضاً، أشارت لجنة أحمد نجيب براذه الي أن المنطقة الواقعة علي الحدود، من جهة مصر وحتى برقة، لم يثبت أنها كانت خاضعة لسلطة والي طرابلس العثماني، ولا هي في نفس الوقت تحت الإدارة المصرية. كما أشار تقرير هذه اللجنة الي أن إنجلترا تجاهلت، عند تولية سمو الخديو عباس حلمي الثاني، أن تذكر في فرمان التولية أن مصر بحدودها هي نفسها المبينة في الخريطة السابق إرسالها مع فرمان توليه المغفور له محمد علي باشا عام ١٨٤٠. وفي ضوء هذا التقرير وافق مجلس الشيوخ، في جلسة ٢١ يونيو ١٩٣٢، علي هذه الاتفاقية، ومن ثم دخلت الي مجال التنفيذ من جانب الحكومة المصرية، في حين كانت السلطات الإيطالية في ليبيا تعمل بها علي الأرض منذ وقت طويل.

وإذا كانت بعض التقارير والأصوات المصرية، آنذاك، رأت عدم أهمية موقع واحة جغبوب الجغرافي والحربي لمصر، فإن السلطات الإيطالية في ليبيا كانت ترى في هذا الموقع أهمية حربية وإستراتيجية قصوي، تعينها في القضاء علي حركات المقاومة الليبية المشتعلة ضدها، وذلك لأسباب عديدة منها: - أن واحة الجغبوب تعد المدخل الأهم لمنطقة برقة من ناحية مصر ومسيطرة علي القوافل. كما أنها مركزاً وسطاً لخطوط القوافل بين برقة ومصر والسودان. ومنها تستمد حركة المقاومة الليبية المؤن والسلاح والمال القادم من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي عن طريق مصر. كما رأت القيادة العسكرية الإيطالية في ليبيا، أن إخضاع واحة جغبوب لقبضة القوات الإيطالية سوف يساعد كثيراً في تطويق وإضافة حركة عمر المختار، وعزلها في منطقة الجبل الأخضر^(٢١).

ولذا، وقبل أن يتم إقرار الاتفاق، بين الجانبين المصري والإيطالي، علي تبعية واحة جغبوب لإيطاليا قررت السلطات الإيطالية في ليبيا، في صيف ١٩٢٦، احتلال هذه الواحة بحجة وقف تهريب الأسلحة الي المقاومين الليبيين، وقاد حملة الاحتلال هذه الجنرال موميللي الذي نجح خلال زحف قواته في إتجاه واحة جغبوب، في إشغال قوات عمر المختار في معارك جانبية في أنحاء متفرقة من الجبل الأخضر حتي لا تذهب هذه القوات للدفاع عن هذه الواحة، وقد نجحت هذه المناورة الأمر الذي سهل لموميللي احتلال واحة جغبوب دون مقاومة، في فبراير ١٩٢٧^(٢٢).

وكان سكان منطقة برقة من الليبيين يتخوفون من نتائج احتلال الجيش الإيطالي لواحة جغبوب، حيث خشوا إنقطاع إتصالهم بمصر وتوقف حركة التجارة معها ومع السودان وقلب أفريقيا، ولذا وقبل تنفيذ تلك الحملة، حاول عدد من كبار هؤلاء السكان الإتصال بالسيد إدريس السنوسي، لكي يتدخل ويمارس نفوذه لدي السلطين الإيطالية والإنجليزية، لوقف خطط احتلال جغبوب، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل. كما أن الحكومة المصرية في ذلك الوقت عجزت نتيجة لوقوعها تحت نفوذ الإنجليز، عن منع احتلال واحة جغبوب، بالرغم من أن كثيراً من المصريين كتبوا في جريدة الأهرام عدة مقالات، ينددون فيها بالأعمال الوحشية التي تقوم بها القوات الإيطالية ضد إخوانهم الليبيين^(٢٣).

وفي الحقيقة أوقع احتلال واحة جغبوب، من قبل القوات الإيطالية، ضربة قاصمة بهيبة الحركة السنوسية، التي كافحت طويلاً ضد هذه القوات في أنحاء الأراضي الليبية، كما تمكنت السلطات الإيطالية من إحكام قبضتها على طول خط الحدود مع مصر. وبعد أسابيع قليلة من احتلال هذه الواحة، أقام الإيطاليون نقاط حراسة متعددة على طول الخط الممتد من مساعد وحتى جغبوب، كما قام الجنرال موميللي بحملات تطهير عديدة للتجمعات السكانية الواقعة على هذا الخط، وأصبح في استطاعة القوات الإيطالية محاصرة وتجويع الأهالي، حتى يتوقفوا عن مساندة حركات المقاومة الليبية^(٢٤).

أما عن ربود فعل حركات المقاومة الليبية تجاه احتلال الجيش الإيطالي لواحة جغبوب، فقد طالب المجاهد عمر المختار القبائل الليبية بضرورة محاربة هذا الاحتلال، كما أصدر رضا السنوسي، من جالو، عدة نداءات إلى الزعماء المجاهدين، طالباً منهم عرقلة هذا المخطط الاستعماري تجاه الجغبوب. في حين أقام الإيطاليون الاحتفالات وأرسلت التهاني إلى قادة هذه الحملة، لنجاحهم في تنفيذ خطة احتلال الجغبوب ومراقبة الحدود الليبية المصرية، والإيقاع بالمجاهدين الليبيين^(٢٥).

ومن اللافت للنظر، في قضية واحة جغبوب، مدي ضيق كثير من المصريين من المصير الذي آلت إليه هذه الواحة، ونتائج هذا على حركة الجهاد الليبية. فقد عبرت الصحف المصرية، وخاصة تلك المناهضة لما عُرف في التاريخ المصري المعاصر بوزارات القصر، في أكثر من موقف جام غضبها على سياسة أحمد زور تجاه قضية واحة جغبوب. كما انتقدت هذه الصحف بقوة سياسة إيطاليا، في إفريقيا بصفة عامة، وفي ليبيا بصفة خاصة. وكانت صورة إيطاليا في معظم هذه الصحف هي صورة الاستعماري الكريه، الذي يسعى لاستعمار بلدان قريبة لقلوب المصريين، سواء من خلال محاولة احتلاله لأريتريا أو الصومال، وهي بلدان كانت أجزاء من الإمبراطورية المصرية في عصر الخديو إسماعيل، أو من خلال محاولته الفاشلة لاحتلال الحبشة التي منها يستمد نهر النيل معظم مياهه، ثم احتلاله عام ١٩١١ ليبيا هذا البلد المتاخم لحدود مصر الغربية. وتفسر لنا هذه الصورة القبيحة لإيطاليا، في عيون المصريين، تطوعهم في حركة المقاومة ضد الاحتلال الإيطالي لليبيا، وتقديم كافة أشكال المساندة للمجاهدين الليبيين، ووقوفهم موقفاً معادياً من إيطاليا، خلال الفترة بين عامي ١٩١١ - ١٩١٣، وسمحوا لحركات المقاومة، أن تتخذ من الأراضي المصرية ملازاً آمناً لهم، وقاعدة ينطلقون منها لمقاومة هذا الاحتلال الإيطالي^(٢٦).

وفي عام ١٩٢٦ وصفت صحيفة الأخبار أبناء تنازل حكومة زور باشا عن واحة جغبوب؛ بأنه أشبه ببيع جلد الدب قبل صيده، واعتبرته بيعاً شائناً، أقدمت عليه الوزارة الزبورانية، التي لم تخش الله ولا رهبة التاريخ، وأنه عار أحدثته الحكومة المتمدنة، في حين يقدم أبناء برقة الأبرار الأمجاد دليلاً جديداً للعالم، بأنهم لا يسلمون المدائن إلا على الموت، وعلقت هذه الصحيفة على ما آلت إليه قضية جغبوب بقولها: - "وهكذا يشاء القدر أن تذهب الجغبوب على النحو الذي قدره المستعمرون وأشياعهم"^(٢٧).

وشنت جريدة البلاغ هجوماً قوياً على وزارة أحمد زيور حيث كتبت تقول " أما البئر الذي يقولون عنه في السلوم فهي لا تفيدنا في شيء لأن ماؤه ملح لا يصلح للشرب ولا يعني شيئاً للجيش المصري، ويؤكد جريمة الوزارة الخرفاء، لأنه يثبت عليها أنها قد نزلت عن حق المصريين وأخذت حقاً إيطالياً، ولو لم تكن جغوب أرضاً مصرية لما كان هناك وجهة لطلب البديل مع إيطاليا، أما محور الخلاف فهو هل جغوب أرض مصرية أم لا؟ فإذا ثبت أنها غير مصرية فلا معنى كذلك للمطالبة بالبديل ولا موافقة إيطاليا، ونحن نسأل لماذا تعطينا إيطاليا بئر في جهة السلوم سواء كان ماؤه ملح أو عذب سواء كانت له فائدة مساوية للجغوب أم تراها تعطينا البئر من أرضه لأنها تعتقد أن الجغوب حق من حقوقنا، أم هي تعطينا آياه لأنها تعتقد أنها تطلب منا ما ليس لها بحق وأنها تعتمد على القوة لا على الحجة والبرهان، أما الوزارة التي فرطت في استقلال بلادها وحقوقها لا يكثر عليها أن تتنازل عن أي قطعة من أرضها وأن تكون دائماً عوناً للأجنبي على قومها، وعلى هذه القاعدة تخرج مصر خاسرة من كل، وتصبح وظيفة الوزارة المصرية أن تسهر على مطامع الإنجليز لا على حقوق المصريين^(٢٨) .

وعلفت مرة أخرى جريدة البلاغ على قضية واحدة جغوب، وعلى تصرفات الوزارة الزبورية بقولها: - " إن تصرف الحكومة لا يبرره عقل ولا يحلله قانون وأن الحكومة الدستورية لا تمتلك أن تتنازل عن شيء من أملاك الدولة فما بالك بحكومة قد حكم عليها مجلس النواب وانتزع منها ثقته فأصبحت لا تمثل أشخاصاً، لعل الحكومة تستند إلى المادة ٤٦ من الدستور، ولكن هذه المادة تنص على أن معاهدات الصلح والتحالف والتجارة وجميع المعاهدات التي يترتب عليها أي تعديل لأراضي الدولة أو نقص من حقوق سيادتها أو تحميل حزامها شيئاً من النفقات أو ما بين حقوق المصريين العامة والخاصة لا تكون نافذة إلا إذا وافق عليها البرلمان، وبما أن البرلمان أسقط هذه الوزارة في هذين التاريخين ١١/٢١ فكل عمل يأتيه لا يقره المجلس ولا يعترف بصحته، وبناء عليه أصبح كل اتفاق بين هذه الوزارة وبين الدول أطلال لا قيمة لها بقاتون وقد أخبر المجلس سفرا الدول لذلك، أن حكومة الفوضى والثورة تريد أن تتوج مخالفتها لقوانين البلاد والدستور والحرية بعمل ترتاح له النفوس وتضطرب من القلوب تريد أن تنتهز فرص الفوضى والاضطراب الذي حل بالأفكار من جراء تصرفاتها، تريد وهي في النزاع أن تسليح واحدة جغوب من صلب الوطن وتهبها للطلبان غنيمه بإرادتها فعلت ذلك، لا بد من محاكمتها أمام مجلس الخصوص حتى تنال جزاء ما اقترفت يداها، أن المادة ٦٢ لا تحل الوزارة من المسؤولية وإن تلك التلوم التي تريد أن تعطى للحكومة الإيطالية ذات موقع حربي من الأهمية لمكانة وقد بين ذلك كثير من إخواننا الوطنيين فإذا سلمناها الدولة أجنبية فقد سلمنا مفاتيح حدودنا العربية وأصبحنا مهددين حتى عقر دارنا، ونكون قد أسأنا إلى إخواننا الوطنيين أكبر إساءة أن هذه الواحة كانت منبعاً للنهضة الوطنية والإسلامية وكل شمال إفريقيا فإذا سمحنا للإيطاليين بالوصول إليها كان جرماً عظيماً أمام الوطن والتاريخ وأمام جيراننا

والعالم الشرقي أجمع، أن مصلحة بلادنا المحافظة على شرف الوطن وعدم تعكير الصلات الودية بيننا وبين ذلك الشعب الكريم الذي دافع عن حقوقه وحرية بكل بسالة^(٢٩).

ومرة أخرى تكتب البلاغ تقول: "إن للجغوب أهمية كبيرة فهي قلعة مصوية إلى قلب الحدود المصرية ومركز ديني ذو أهمية عظمى بالنسبة للسنوسيين، فهل تقدر الوزارة معنى تصرفاتها هذه؟ هل تفهم أنها تفرط في أرض الوطن وأن مثلها مثل القائد الذي يسلم حصنه فيتخلى عنه ويتركه للعدو خيانة وغدرا؟ وهل تفهم الوزارة أن القائد الذي يفعل كل ذلك ينتهي بأن يحاكم، وأن يكون الحكم عليه صارماً، تظن أن الوزارة تفهم كل ذلك ولكنها تعتقد أن اليوم الذي يحاسبها فيه البرلمان لن يجرى لأن الأمة لن تسترد سلطانها فليس لنا إلا أن نقول لها إنها مخطئة وأن يوم الأمة قريب وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون"^(٣٠).

قد بين نص الاتفاق مقدار ما تنازلت مصر عنه ومبلغ ما تتبعه والشعوب لا تنظر إلى التنازل عن جزء محدود من أرضها نظرة رضى وهذا الشعور ممثل في الدستور المصري الذي حظر هذا التنازل في مادته الأولى التي قالت "ملكها لا يجزأ ولا يعزل عنه شيئاً" وقد أراد البعض أن يدافعوا عن هذه النظرية بقولهم إن إيطاليا دولة كبيرة لا يسع مصر أن تعاندها وأن في إرادتها احتلال الجغوب عنوة وليس في وسع مصر أن تقاومها ومع أن التاريخ يمثل هذه الحوادث فإن الضمير العام لا يؤيدها، وكان رأينا في أول الأمر أن تبذل الهمة لحل الخلاف من دون نقل ملكية حرصاً على شعور الأمة المصرية وكان ردنا أن إيطاليا لا تطمع في الجغوب لذاتها على كل حال ليست من الممتلكات التي فيها منافع اقتصادية وهي واحة صغيرة وإنما طالبت بها بحجة الرغبة في حماية حدودها من الذين يغيرون عليها من المصريين ورغبة مصر أيضاً في حماية حدودها لا تخشى مصر على حدودها من الاعتداء الإيطالي فقد رأينا والحالة هذه أن توجه الجهود من الجانبين إلى اتفاق يصون حدودها غير أن لمصر بعد هذا الاتفاق مرجعاً آخر وهو البرلمان فله الكلمة الأخيرة^(٣١).

إن خسارة مصر بالتنازل عن هذه الواحة كبيرة من الجهة الأدبية باعتراف الجميع بالتنازل عن الجغوب للطلين، ومن الجهة المادية باعتراف العسكريين والفنيين بأن تسليم الجغوب الذي يعد بمثابة قلعة في مقدمة الحدود المصرية، فسواء أخذنا بالرأي الأول أو الثاني فالخسارة على مصر مادياً وأدبياً^(٣٢).

إن تنازل مصر لإيطاليا عن هذه الواحة من قبيل أن تنال مصر استقلالها فأصبح تنازل مصر عنها معلقاً على شرف الدولة إذ الإنجليز هم الذين يصفون إرث محمد علي وخلفائه بإعطاء الجغوب للإيطاليين ليس سوى شطر صغير من برنامج كبير وصعته السياسة الإنجليزية لتصفية جميع المسائل المصرية وإذا كنا قد عرفنا عن هذه التصفية شيئاً كثيراً من الآن فإنه ليحق لنا أن نقف متسائلين وبعد هذا كله ماذا تطلبون؟^(٣٣).

تريد الوزارة أن توقع هذه المعاهدة وتحمل تبعيتها على التبعيات الخطيرة وتريد أن تضيع حق مصر في الجغوب، فتقول بلسان صحيفتها ومعلوم أنه مهما يكن الرأي في

الجغوب وتبعيتها لمصر فإن الواقع أنه ليس لمصر في جغوب لا إدارة ولا بوليس وهل تجنى منها ضرائب وهل كان لإيطاليا قضاء وبوليس وإدارة بل هل لمصر قضاء وبوليس وإدارة في كل جهات الصحراء الشرقية إن نية التسليم في جغوب ظهرت في عهد الوزارة الحاضرة فإن هذه الوزارة لم تتكالب في الدفاع عنها أو أن تتظاهر بالرغبة في مناقشة الدعاوي الإيطالية.

يعني أن تسأل هنا ماذا أفادنا الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة ومن أين جاءنا الاعتداء على حدودنا إلا عن طريق هؤلاء المدافعين عنا فالإنجليز الذين احتفظوا بحق الدفاع عن مصر في ٢٨ فبراير فتحوا حدودنا الغربية لإيطاليا^(٣٤).

إن زيور باشا لا يجهل أن لو امتنع عن النزول عن جغوب لكان هذا الامتناع حائلاً بين إيطاليا وبين الطمع في تسامح الجمهور المصري إذا قامت تحتل جغوب بالقوة في مثل هذه الحالة تعترف إيطاليا أن الوزارة وقد توقفت قيادة الامتناع من النزول لأبد من أن يؤيدها الجمهور^(٣٥).

لقد كان كل ما طلبه المصريون من زيور باشا وزملائه من مسألة الجغوب ألا يوقعوا اتفاق يتضمن النزول عنها ولم يقتصر المصريون على هذا المطلب وحده عبثاً فهم يعرفون أن إنجلترا لا تزال قلقة على المركز الذي تطلبه لنفسها من مصر وتسعى لتسوية الاتفاق فإذا كان هذا موقف إنجلترا بالذات أفلا تكون هذا الحال أشد انطباقاً على إيطاليا في مسألة جغوب، ولكن زيور باشا لم يتردد في مرضاة الإنجليز ومرضاة أغراضه الشخصية ومصالحه الغير وقد أثرت هذه المشكلة على كرامة المصريين^(٣٦).

وقد احتجت اللجنة السعيدة للسيدات على اعتداء الوزارة على الدستور بتنازلها عن واحة جغوب لحكومة إيطاليا ذلك التنازل الذي لا يصبح الدستور فيه له أي سلطة حتى البرلمان نفسه يحرمه واللجنة بهذا الاحتجاج تسجل على الوزارة المعتدية جرماً جديداً وتعتبر إنجلترا مسئولة عن بتر أراضي مصر^(٣٧).

إن الوزارة الجديدة تجاهلت وضعفت ضعفاً لم يسبق لغيرها أن حققته والغريب أن هذه الوزارة دستورية إذ أنها وليدة إرادة الأمة والأغلبية وهي تتجاهل أحكام الدستور، وتقول أن الوزارة الجديدة هي ربيبة فضائل سعد قد نسيت سعد وما ترك لها من خطط ومناهج تشير عليها أن سعد لم يكذب يعلم أن جغوب قد سقطت حتى ذهب من مرقده، وصرح بأن مصر لا يسعها أن تدعن لهذا وأن أهمية جغوب ليست من الواجهة الدينية فقط بل من الواجهة العسكرية، وأنه يرى هذا الاتفاق مثلاً يراه أي مصري^(٣٨).

إن صيانة كرامة الأمة مهمة مفروضة على الزعماء في الظاهر ولكن ما هي قيمة إرادة الزعماء إذا لم تكن بإرادة الأمة كلها؟

نقد تناولت إحدى الصحف في روما هذه المسألة فقالت أن تفسير المندوبين المصريين للاتفاق يعد غريباً وأنه يجب أن يفهموا أن شروط الاتفاق تقيد الشعب نفسه لاسيما إذا كان داخلاً في الحياة الدولية بواسطة ممثله، ثم قالت إن إيطاليا لا تزال الراغبة

في إقامة العلاقات الودية في مجال الاقتصاد بينها وبين مصر ونحن نظن أن توقيع رئيس الوزراء يقيد الشعب المصري إلى الاعتراف باتفاق يهدد سلامة حدوده، فليس في وسع أحد أن يجهل أن اتفاق الجغبوب يعرض سلامة مصر على الخطر وأن كل تمسك من جانب المندوبين المصريين في هذه الدائرة إنما هو تمسك بحق مصر^(٣٩).

وقد عابت بعض الصحف على تصرفات الوزارة في حقوق الشعب، أما واحة جغبوب فإن هذا الاتفاق باطل قانوناً ولا يحرم الواحة من تبنيها لمصر فستظل مصرية ديناً وخلقاً وطابعاً وإذا فصلتها القوة عن مصر فأرواح ساكنيها متصلة بها ومصر وأهلها معقلون بها وسيأتي يوم ويعود المستعمرون إلى عقر دارهم، وأما الوزارة فيكون موقفها عظيماً أمام الأمة المصرية ولن نتسامح معها فيما ارتكبته في حقنا^(٤٠).

فلم يكن من الدستور ولا من الحكمة في شيء أن تتولى وزارة غير نيابية كالوزارات التي ألغها زيوار باشا منذ نوفمبر ١٩٢٤، أن خطأ الوزارة المصرية في توهمها بأن المفاوضات مع دولة أجنبية تعوضها شيئاً من كرامتها المسلوية أو تسلي من كرامتها المسلوية تسلي ذرة من منزلته المعلومة^(٤١).

فنحن لا نريد أن نقيم حرباً حول القبة المقدسة في الجغبوب ولا يمكن أن نذود عن عيونها التابعة لنا، ولا أن نتخذ منها قلعة وهي الحصن الذي منحته الطبيعة لحدودنا الغربية، فكل ذلك إرادة إيطالية وخليفتها إنما نحن نريد أمراً واحداً أن لا يكون مفتاح الأمن والسلام في يد دولة أجنبية، لا يمكن لأحد أن يتوقع مصير الصدام معها، إن هذه المسألة لا تهم أبناء مصر على السواء بل تهم الأجيال المقبلة، يدعي الطليان ملكية الجغبوب ثم لا يقيمون دليلاً غير دعوى ملكية الأتراك مورثيهم أرض برقة، وهم في هذه الدعوة لم يجدوا التاريخ معنياً فإن نفس الجغبوب حديثة الظهور بل هي أحدث من استقلال مصر على يد محمد علي^(٤٢).

وقد روع الجمهور السكندري لنبا توقيع المعاهدة التي تنازلت بمقتضاها الحكومة المصرية عن واحة جغبوب، وكأن الوزارة أرادت أن ترضي سادتها الإنجليز قد بادر الإيطاليون إلى احتلالها احتلال عسكري بجندهم وعساكرهم ومدافعهم وصارت قلعة حربية لهم ولنفرض أن البرلمان رفض التصديق على هذه الاتفاقية فكيف العمل إذا لاسترداد الجغبوب وقد حصنها الإيطاليون؟. أنعمد إلى إعلان حرب تفقد فيها الأموال والرجال وما لسنا في حاجة إلى فقده، لو أن الوزارة رفضت التصديق قائلة أن البلاد ليس فيها برلمان، هذا ما كنا نرجوه من هذه الوزارة الضعيفة التي سحبت منها الثقة وحكم عليها بالسقوط^(٤٣).

أما عن موقف الصحف الأجنبية من تطور قضية واحة جغبوب فقد اختلف كثيراً عن الصحف المصرية. فقد أشارت جريدة روما في عدد ٧ ديسمبر ١٩٢٥ إلى الاتفاق بين إيطاليا ومصر لترسيم الحدود بقولها: "إن المقامات الأساسية في مصر قد قابلت هذا الاتفاق بالارتياح، وهذا سيساعد على تعزيز العلاقات السياسية والتجارية بينهما وستستفيد الجالية الإيطالية هناك".

وقال جورنال دي إيطاليا " أن هذا الاتفاق يجعل لمصر مكانة دولية، وهذه أول مرة منذ شهر فبراير ١٩٢٢ تتفاوض مصر مع دولة أجنبية وتتفق معها على حل المسائل السياسية، وهذا يزيد مكانة مصر" (٤٤).

أما جريدة التايمز اللندنية فقد كتبت في ديسمبر ١٩٢٥ تقول: " إن السلوم مهمة لأنها تستخدم محطة للطيران في طريقها إلى القاهرة، وتكون مخفراً أمامياً يستخدم لأغراض إدارية وعسكرية وبذلك تزداد قيمتها لمصر فالاتفاق الذي جاء في غاية العدل وكان الفضل الأعظم فيه لثلاثة من الرجال، وكان لابد لزيوار باشا من أنه يقف في وجهه المعارضة فكثير من الساسة المصريين المدفوعين بعاطفة وطنية خالية من التبصر أو بروح العداة لحكومة زيوار باشا تجاهلوا أن لم يكن لمصر أي نوع من السيطرة على جغوب وأن امتلاك إيطاليا لها أهم من امتلاك مصر لها" (٤٥).

وسردت جريدة التايمز في مقال لها تاريخ مسألة جغوب، وأشارت الي أن الفضل في هذا الإتفاق إنما يعود الي ما اتصف به زيور باشا من الحكمة والشجاعة، أما خط الحدود الجديد فكاد أن ينطبق على الخط الذي وقع في اتفاق ملتر - شالويا، وليست جغوب سوى واحة بسيطة ذات أهمية إستراتيجية ضعيفة، ولكن إيطاليات تمسك بها كل التمسك لأغراض حربية وسياسية" (٤٦).

ونشرت التيمز أيضاً: وصف لاحتلال الإيطاليين لواحة الجغوب احتلال سلمياً والارتياح العظيم الذي لقيته تسوية مشكلة الحدود وقالت أنه صار يرجى الآن أن تقيد المساعي السنوسية تقيداً، وأن لهذا الاحتلال شأن عظيم ومن عوامل زيادة هيبة الإيطاليين.

ونشرت التايمز أيضاً تلغرافاً لمكاتبها في القاهرة تضمن نبذة عن الكتاب الأخضر الذي نشرته الحكومة المصرية، وأشار إلي الخارطة التي وضعت في عهد محمد علي، ونشرت في الكتاب المذكور تبين أن الجغوب لم تكن داخلية ضمن الأراضي المصرية بمقتضى فرمان الصادر من الباب العالي لمحمد علي، لكن الجهات الرسمية المصرية أدخلتها في الأملاك المصرية بحث كرومر وكتشنر وتساهل الأتراك" (٤٧).

وترجع مخاوف المصريين من الاحتلال الإيطالي لليبيا في الأصل الي اعتقادهم أن ليبيا لم تكن هي وحدها المستهدفة، علي الرغم من تصريح عدد من الصحف الإيطالية بأن الجيش لم يكن له منذ عام ١٩١١ أية مطامع في مصر، وأن إيطاليا لم تفكر في الإقدام علي أي عمل يهدد مصالح إنجلترا في مصر والسودان. وفي الحقيقة لم تأت مخاوف المصريين من فراغ، بل كانت لها ما يؤكدتها علي أرض الواقع. ففي صيف ١٩٣٧، علي سبيل المثال، أخذت الأخبار تتحدث عن وجود حشود إيطالية الحدود المصرية، لكن الصحف الإيطالية نفت هذا الخبر في حينه. وأيضاً جريدة (الجورنالي دورياتي) التي كانت تصدرها آنذاك الجالية الإيطالية في القاهرة كذبت ما نشرته الصحف المصرية حول هذه الحشود. وأكدت أن الأسلاك الشائكة التي تمتد علي الحدود بين مصر وليبيا من ساحل البحر إلي جغوب أقيمت أثناء حكم المارشال جرازياتي عام ١٩٣٣،

لمنع تهريب الأسلحة لتسهيل إخماد حركة العصيان، لقد شعر الإيطاليون بأن المصريين علي بينة بما تنوي به إيطاليا، في هذا الوقت عرض إسماعيل صدقي اتفاقية تعقد بعدم الاعتداء مع إيطاليا، نظراً لما يتطلبه من نفقات كبيرة وعدم استطاعة الحكومة المصرية تقديم هذا لكن توتر العلاقات البريطانية أنهى هذا الاقتراح، لكن الوضع تدهور علي الحدود بعد فشل محادثات جنيف وبدأ الطرفان يتأهبان لمواجهة الطرف الآخر ١٩٣٧، لذلك أتخذت الحكومة المصرية احتياطاتها في تعزيز قوات مصرية علي الحدود .

في هذا الوقت وصلت أنباء إلي القاهرة تؤكد إن إيطاليا تقوم باجتذاب بدو الصحراء الغربية، وخاصة بعد أن عانوا في الشتاء السابق من الفقر والضعف، مما أقلق الحكومة المصرية والبريطانية الأمر الذي عبرت عنه جريدة (المانشستر جارديان) بقولها: - " تقرر إرسال قوات مصرية إلي مراكز حربية علي الحدود الليبية، وعد هذا الإجراء هو النذير الأول للصدام بين الطرفين في الصحراء الغربية " (٤٨).

ثم مرت سنوات الحرب العالمية الثانية، وجري فيها ما جري من حروب بين إنجلترا وإيطاليا علي الأراضي المصرية الليبية، الواقعة علي ساحل البحر المتوسط ودون أن تمتد الي واحة جغبوب، ودون حتي أن تفكر القوات الإنجليزية في استعادتها من يد الإيطاليين. وبعد توقف القتال في هذه الحرب طابت مصر طبقاً لما نقلته جريدة (الموند) باستعادة واحة جغبوب، " لا من قبل التوسع الأفريقي بل تعديلاً للحدود، وهو تعديل يستند إلي حقوق تاريخية لا تحتل النزاع " (٤٩).

وفي ٢ يناير ١٩٤٥ تقدمت مصر الي الحلفاء بمذكرة تطالب فيها بأن تمثل في أي مؤتمر صلح يعقد في المستقبل. ومع أن مصر لم تدع بصفة رسمية لأي من هذه المؤتمرات، فقد وعدا الحلفاء بالاستماع لوجهة نظرها. وقد تقدم ممثل مصر في مؤتمر باريس في ٢١ ديسمبر ١٩٤٦ ببيان عبر فيه بشكل خاص عن رغبة مصر في تعديل الحدود مصر الغربية بحيث تعود واحة جغبوب للسيادة المصرية.

وعندما عقدت الدول الأربعة الكبرى اجتماعاً فيما بينهم في لندن، لبحث مصير المستعمرات الإيطالية في إفريقيا، تقدمت الحكومة المصرية بمذكرة، في ١٢ سبتمبر ١٩٤٥، عبرت فيها عن اهتمامها بليبيا وأريتريا، كما طالبت بوجوب استشارتها في حل مشكلة المستعمرات الإيطالية في أفريقيا وخاصة في مستقبل ليبيا، واقترحت أن يجرى استفتاء للسكان في ليبيا لتحديد موقفهم، وهل يفضلون الحصول علي الاستقلال أو الاتحاد مع مصر؟

وقد أشتركت مصر فعلاً في مؤتمر صلح مع إيطاليا، في ٢١ أغسطس ١٩٤٦، وطالبت فيه بتعديل الحدود مع ليبيا واستعادة الجغبوب، وتحريك خط الحدود في الجزء الشمالي من الغرب قبل استقلال ليبيا وإخضاعها لوصاية هيئة الأمم المتحدة، وأكدت مصر تبعية جغبوب لها عن طريق خرائط لعام ١٧٧٠ و ١٨٦٠، والتقارير الإيطالية ١٨٤٠-١٨٩٠، ووثائق المتحف البريطاني ١٨٦٦، وأيضاً موسوعة (دي سان مارتن)

الجغرافية التي تكشف أن هضبة السلوم بامتدادها من رأس المالح إلى بردية، تتبع مصر من قديم الزمان. (٥٠)

ومن المثير للغربة، أن الحكومة الإيطالية بعد الحرب العالمية الثانية، علي اعتبار أنها أصبحت صديقة للحلفاء، طالبت بأن تدير شؤون ليبيا طبقاً لنظام الوصاية الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة ، لكن الدول العربية المستقلة آنذاك رفضت هذا المطلب، ووقفت جامعة الدول العربية بقوة تطالب بسرعة حصول ليبيا علي استقلالها عن إيطاليا عام ١٩٥١. ومنذ قيام المملكة الليبية توقف الحديث حول قضية جغبوب.

الخاتمة.

يتبين لنا، من خلال الدراسة، الأهمية الجغرافية لواحة جغبوب، التي تعتبر مفتاح سيوة من جهة الغرب . كما يتبين لنا أن المصالح الاستعمارية، لكل من إنجلترا وإيطاليا، هي التي أوجدت في حقل التاريخ الحديث والمعاصر قضية هذه الواحة، حيث كانت ضغوط إنجلترا ونفوذها علي الحكومات المصرية واضحة لا لبس فيها، حتي أذعنّت حكومة أحمد زيور باشا، أواخر عام ١٩٢٦، وتنازلت لإيطاليا عن واحة جغبوب عندما كانت هذه الأخيرة قابضة علي زمام ليبيا. كما كشفت الدراسة عن أن إسماعيل صدقي، الذي يفترى عليه البعض، لم يكن في وسعه أن يتحمل المسؤولية التاريخية المترتبة علي إبداء موافقته علي التنازل عن واحة جغبوب لإيطاليا، ولذا رفض أن يوقع علي هذا التنازل، الأمر الذي قبله زيور باشا بسبب مصالح حزبية ضيقة.

كما يتضح لنا أن الرأي العام المصري والصحافة المصرية قد صبت جام غضبها في حينه علي الحكومة الزبورية لتنازلها عن واحة جغبوب لمصلحة إيطاليا. أما وعندما استقلت ليبيا وأصبحت هذه الواحة ضمن أراضيها فقد سكت هذا الرأي العام عن هذه المسألة، وذلك لشعور عربي أصيل يري أن هذه الواحة مازالت في الوطن العربي ولم تأخذها معها إيطاليا بعد أن غابت بلا رجعة شمس الإستعمار.

وأخيراً، أوضحت هذه الدراسة في ضوء مقالات الصحافة المصرية، الصادرة آنذاك، أن الحزن الذي عكسته هذه المقالات إنما مرجعه التخوف من حجم الضرر الذي أصاب حركة الجهاد الليبية، نتيجة التنازل عن واحة جغبوب لإيطاليا خلال فترة استعمارها لليبيا، حينما نجحت القوات الإيطالية في قطع طرق إمدادات المجاهدين الليبيين بعد تركزها علي أرض هذه الواحة، منذ عام ١٩٢٧.

الهوامش

- (١) إبراهيم أحمد رزقانه، محاضرات في جغرافية المملكة الليبية، ص ١٢.
- (٢) الهادي مصطفى أبو لقمة، الجماهيرية، دراسة في الجغرافيا، ص ١٩٩-١٢٠.
- (٣) عبدالعظيم أحمد مهيد، مصر وليبيا بين عامي ١٩٥٦-١٩٧٣، ص ١٣-١٥.
- (٤) محمود العرفاوي، مخاض الأمبريالية والفاشية الإيطالية عسر ولادتها ودفنها في ليبيا، ص ٧٠-٧٢.
- (٥) سليمان محي الدين، السنوسية - العرابية - المهدية (دراسة مقارنة بينهم)، ص ٣٢.
- (٦) محمد عبدالفتاح محسن، حدود مصر الدولية، ص ٣٥٥-٣٥٩.
- (٧) مصطفى على هويدي، الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى، ص ٥٩-٦٥.
- (٨) المصدر السابق، ص ٧٠.
- (٩) محمد رفعت عبدالعزيز، العلاقات المصرية الليبية، ص ١٠٨-١١١.
- (١٠) غيروغ فون غرانفيتس، تاريخ الحرب الليبية الإيطالية، ص ١٤٨-١٤٩.
- (١١) خلفه محمد التليسي، معجم معارك الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١، ص ٢٠٢.
- (١٢) محمد عبدالفتاح محسن، حدود مصر الدولية، ص ٣٤٦.
- (١٣) محمد رفعت عبدالعزيز، العلاقات المصرية الليبية، ص ١١١-١١٢، نفس المصدر السابق.
- (١٤) نفس المصدر السابق.
- (١٥) صفاء شاكر، إسماعيل صدقي، الواقعية السياسية في مواجهة الحركة الوطنية، ص ٨٢-٨٣.
- (١٦) محمد رفعت عبدالعزيز، العلاقات المصرية الليبية، ص ١١٤-١١٥.
- (١٧) إسماعيل صدقي، مذكراتي، ص ٧٢-٧٤.
- (١٨) صفاء شاكر، إسماعيل صدقي، الواقعية السياسية في مواجهة الحركة الوطنية، ص ٨٥-٨٧.
- (١٩) يوسف سالم البرغثي، حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر ١٩٢٧-١٩٣٢، ص ١٢٥.
- (٢٠) المصدر السابق، ص ١٣٠ وما بعدها.
- (٢١) يوسف سالم، حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر ١٩٢٧-١٩٣٢، ص ****.
- (٢٢) أنجلوديل بوكا، الإيطاليون في ليبيا، ص ١٣٦-١٣٧.
- (٢٣) محمد علي التركي، حركة الجهاد العربي الليبي في الفترة ١٩٢٧-١٩٣٤، ص ١٤٣.
- (٢٤) أنجلوديل بوكا، الإيطاليون في ليبيا، ص ١٣٧-١٣٨.
- (٢٥) محمد علي التركي، حركة الجهاد العربي الليبي في الفترة من ١٩٢٧-١٩٣٤، ص ١٥٢-١٥٣.

- (٢٦) الأهرام، يونان لبيب رزق، حرب الحبشة إيطاليا، العدد ٥٦٦، سنة ٢٠٠٤.
- (٢٧) الأخبار، آخر الأخبار عن الجيوب، العدد ١٧٨٨، سنة ١٩٢٦.
- (٢٨) البلاغ، مسألة الحدود الغربية، العدد ٨١٧، سنة ١٩٢٥.
- (٢٩) البلاغ، الوزارة غير الشرعية، العدد ٨١٥، سنة ١٩٢٥.
- (٣٠) البلاغ، مسألة الحدود الغربية (هل تقدر الوزارة المسنونة فيها، العدد ٨١٩، سنة ١٩٢٥).
- (٣١) المقطم، واحة جيوب وإمضاء الاتفاق على الحدود، العدد ١١١٨٢، سنة ١٩٢٥.
- (٣٢) الأهرام، سياسة التصفية (اتفاق الجيوب)، العدد ١٤٨٥٦، سنة ١٩٢٥.
- (٣٣) الأهرام، سياسة التصفية (اتفاق الجيوب)، العدد ١٤٨٥٦، سنة ١٩٢٥.
- (٣٤) البلاغ، جريمة الجيوب، العدد ٨٢٣، سنة ١٩٢٥.
- (٣٥) البلاغ، جريمة الجيوب، العدد ٨٢٣، سنة ١٩٢٥.
- (٣٦) البلاغ، نزول الوزارة عن الجيوب جريمة جديدة، العدد ٨٢١، سنة ١٩٢٥.
- (٣٧) الأهرام، اللجنة السعدية للسيدات، العدد ١٤٨٥٩، سنة ١٩٢٥.
- (٣٨) الدفاع الوطني، البيان الوزاري (الجيوب)، العدد ٥٩٤، سنة ١٩٢٨.
- (٣٩) وادي النيل، مسألة الحدود الغربية، العدد ٥١٧٧، سنة ١٩٢٦.
- (٤٠) الأهرام، الأزمة الوزارية المصرية، العدد ١٤٨٥٧، سنة ١٩٢٥.
- (٤١) البلاغ، مسألة الحدود الغربية، العدد ٨١٦، سنة ١٩٢٥.
- (٤٢) الأهرام، حول واحة جيوب، العدد ١٤٨٥٥، سنة ١٩٢٥.
- (٤٣) البلاغ، التنازل عن جيوب صدام في الإسكندرية، العدد ٨٢٢، سنة ١٩٢٥.
- (٤٤) الأهرام، تلغرافات خصوصية للأهرام، العدد ١٤٨٥٦، سنة ١٩٢٥.
- (٤٥) الأهرام، عدد ١٤٨٦٠ لسنة ١٩٢٥.
- (٤٦) نفس المصدر عدد ١٤٨٥٨ لسنة ١٩٢٥.
- (٤٧) المقطم، عدد ١١٢٣٣ لسنة ١٩٢٦.
- (٤٨) الأهرام، ثمن الصداقة والتحائف، يونان لبيب رزق، الحلقة ٦١٣، سنة ٢٠٠٥.
- (٤٩) الدفاع الوطني، لماذا تطلب مصر الاشتراك في مؤتمر الصلح، العدد ٦٠٧٩، سنة ١٩٣٦.
- (٥٠) حدود مصر الدولية، محمد محسن عبد الفتاح، ص ٣٧٩-٣٨٠.

قائمة بأهم مصادر الدراسة

١- المذكرات:

اسماعيل صدقي: مذكراتي، تحقيق سامي أبو النور .

٢- الدوريات

الأهرام العربي: سامر المفتي (من زرزورا وزرزار إلي سيوة) مسلسل الواحات المفقودة، العدد ٢٨٢، ٢٠٠٢.

وادي النيل (يومية) أعداد عام ١٩٢٦.

الأهرام (يومية) : سنوات ١٩٢٥ - ١٩٢٧ - ١٩٣٢.

يونان نبيب رزق: ثمن الصداقة والتحالف/ حلقة ٦١٣ / السنة ٢٠٠٥، الأهرام.

يونان نبيب رزق: حرب الحبشة - إيطاليا/ حلقة ٥٦٦ / السنة ٢٠٠٤، الأهرام.

المقطم (يومية) : ١٩٢٦، ١٩٢٥.

الأخبار (يومية) : ١٩٢٦.

البلاغ يومية : سنوات: ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٧.

٣- المراجع العامة:

١- أنجيليو ديل بوكا: الإيطاليون في ليبيا، ترجمة محمود علي التائب.

٢- خليفة محمد التليسي: معارك الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١.

٣- محمد رفعت عبد العزيز: العلاقات المصرية الليبية في النصف الأول من القرن ال ٢٠ (١٩١١-١٩٥١) دكتوراه في الفلسفة ١٩٨٦.

٤- أحمد المهدي حمد: الحركة الوطنية خلال الفترة (١٩٣٢-١٩٤٢) ١٩٩٥.

٥- عبد العظيم أحمد حميدة: مصر وليبيا بين عامي ١٩٥٦-١٩٧٣، رسالة دكتوراه.

٦- محمد علي التركي: حركة الجهاد العربي الليبي في الفترة من بداية ١٩٢٤ - ١٩٢٧.

٧- يوسف سالم البرغثي: حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر ١٩٢٧-١٩٣٢.

٨- غيورغ فون غرنفيتس: تاريخ الحرب الليبية الإيطالية.

٩- سليمان محي الدين سليمان فتوح: دراسة مقارنة (السنوسية - العربية - المهدية) في دور كل منهم في مقاومة الاستعمار.

١٠- أنجيلو بتشولي: إيطاليا وما وراء البحار - الجزء المتعلق بليبيا في الجانب العسكري، ترجمة: عبد الرحمن العجيلي.

١١- المبروك علي الساعد: مقاومة الليبيين للأحتلال الإيطالي ١٩٢٨ - ١٩٢٩.

١٢- وليم س. أسكيو: أوربا والغزو الإيطالي لليبيا ١٩١١-١٩١٢، ترجمة: ميلاد المقرحي.

١٣- محمود العرفاوي: الإمبرياله والفاشية الإيطاليتين عسر ولادتهما ودفنها في ليبيا ١٨٨٢-١٩٤٢، ترجمة: عمر الطاهر.

١٤- الهادي مصطفى أبو لقمة وآخرون: الجماهيرية دراسة في الجغرافيا.

١٥- مصطفى علي هويدي: الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى.

-
- ١٦- مجيد خدوري: ليبيا الحديثة (دراسة في تطورها السياسي)، ترجمة نقولا زيادة.
- ١٧- إبراهيم أحمد رزقانة: محاضرات في جغرافية المملكة الليبية.
- ١٩- صفاء شاكر: اسماعيل صدقي، الواقعية السياسية في مواجهة الحركة الوطنية.
- ٢٠- أحمد محمد عبد الفتاح محسن: حدود مصر الدولية.

